

الإحاطة
في

اختيار شعرنا طرية

تأليف

أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن أحمد السلافي

الشهيد بلسان الدين ابن الخطيب

المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

بترجمة وضبطه رقم له

الأستاذ الدكتور يوسف عاي طویل

أستاذ الأدب العربي في جامعة الكويت
بالمهارة اللبنانية

تقديم

وضعنا الفهارس العامة للمكتبة في آخر الجزء الرابع

المجلد الأول

مستورات

مترجم إلى العربية

للكاتب محمد بن عبد الله بن سعيد

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الإحاطة في أخبار عمرنا طبر

تأليف
أبي محمد الله محمد بن محمد بن سعيد بن أحمد السطافي
الشهير بلسان الدين ابن الخطيب
المتوفى سنة ٧٧٦ هـ

بترجمة وضبطه وتقديمه
الأستاذ الدكتور يوسف عاوي طويل
أستاذ الأدب المنطوق بالمدارس العليا
بالمهنة اللبنانية

الجزء الأول

منشورات
محمد علي بيضون
لتنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

مستودعات دار الكتب العلمية بيروت



دار الكتب العلمية

جميع الحقوق محفوظة

Copyright

All rights reserved

Tous droits réservés

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
لدار الكتب العلمية بيروت - لبنان.
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنظيم الكتاب كاملاً أو
جزئاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على أسطوانات ضوئية إلا بإذن الناشر خطياً

Exclusive rights by

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beirut - Lebanon

No part of this publication may be translated,
reproduced, distributed in any form or by any means,
or stored in a data base or retrieval system, without the
prior written permission of the publisher.

Droits exclusifs à

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Beyrouth - Liban

Il est interdit à toute personne individuelle ou morale
d'éditer, de traduire, de photocopier, d'enregistrer sur
cassette, disquette, C.D., ordinateur toute production
écrite, entière ou partielle, sans l'autorisation signée
de l'éditeur.

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

رمل الظرف - شارع البحري - بناية ملكارت

الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية

هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ (+٩٦١ ٥)

مستودع بيروت: ١١٦٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Beirut - Lebanon

Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. - 1st Floor

Head office

Aramoun - Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kutub Al-Ilmiyah

Beyrouth - Liban

Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage

Administration général

Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13

P.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3319-5



9 782745 133199

<http://www.al-ilmiyah.com/>

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

قال الشيخ الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الخطيب السّلماني: أمّا^(١) بعد حمد الله الذي أحصى الخلائق عدّداً، وابتلاهم اليوم لِيَجْزِيَهُمْ غَدًا، وجعل جِياذَهُم تتسابق في ميادين الآجال إلى مدى، وبأَيِّنَ بينهم في الصور والأخلاق والأعمال والأرزاق فلا يجدون بما^(٢) قُسِمَ مَحِيصًا ولا فيما حكم مُلْتَحِدًا^(٣)، وَسِعَهُمْ^(٤) عِلْمُهُ على تَبَايُنِ أَفْرَاقِهِمْ^(٥) وتكاثُفِ أَعْدَادِهِمْ والذّا وولّدًا، ونَسَبًا وبَلَدًا، ووفاءً ومولّدًا، فمنهم الثّيبه والخامل، والحالي والعاطل، والعالم والجاهل، ولا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا. وجعل لهم الأرض ذُلُولًا يمشون في مَنَاجِبِهَا وَيَتَخَذُونَ مِنْ جِبَالِهَا بِيوتًا ومن متاعها عُدَدًا. وَخَصَّ بعضَ أَقْطَارِهَا بمزايا تدعو إلى الاغْتِبَاطِ والاعْتِمَارِ^(٦)، وَتَحُثُّ على السّكون والاستقرار، مُتَبَوِّةً فسيحًا، وهواءً صحيحًا، وماءً ثَمِيرًا، وامتِناعًا شهيرًا، ورزقًا رَغَدًا. فسبحان مَنْ جعل التّفاضُلَ في المساكن والسّاكنين، وعَرَفَ العباد عوارف اللطف في الظاهر والباطن، ولم يترك شيئًا سُدَى.

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد^(٧) الذي ملأ الكون نورًا وهدى، وأوضح سبيل الحق وكانت طرائق قِدَدًا^(٨)، أعلى الأنام يَدًا، وأشرف الخلق ذاتًا وأكرمهم مَخْتِدًا، الذي أنجز الله به مَنْ نصر دينه الحقّ موعدًا، حتى بلغت دعوته ما رُوي^(٩) له من هذا المغرب الأقصى فرفعت بكل هَضْبَةٍ مَعْلَمًا وَبَنَتْ بكل قلعة مسجدًا. والرّضى على آله وأصحابه الذين كانوا لسماء سُنَّتِهِ عُمَدًا، لِيُوثَّ العباد،

(١) النص في ريحانة الكتاب (ص ٣١ - ٣٥). (٢) في ريحانة الكتاب: «عمّا».

(٣) الملتحد: الملجأ. لسان العرب (لحد). (٤) في الريحانة: «ووسمهم».

(٥) في الريحانة: «أفرادهم». والأفراق: جمع فُزُق وهو الطائفة. لسان العرب (فرق).

(٦) الاعتمار: العُمرة، أي الحج الأصغر. لسان العرب (عمر).

(٧) في الريحانة: «محمد رسوله الذي...». (٨) قِدَدًا: متعددة، مختلفة. لسان العرب (قَدَد).

(٩) رُوي: بَعُد. لسان العرب (زوى).

وغيوث التدى، ما أقل ساعد يدًا، وعمر فكر^(١) خالدًا، وما صباح بدا، وأورق شدا، فإن الله، عز وجهه، جعل الكتاب لشوارد العلم قنًا، وجوارخ اليراع تُثير في السهول الرُفَاع صيدًا. ولولا ذلك لم يشعر آت في الخلق بذهاب، ولا اتصل شاهد بغائب، فماتت الفضائل بموت أهلها، وأقلت نجومها عن أغين مُجْتَلِيها، فلم يرجع إلى خبر يُنْقَل، ولا دليل يُعْقَل، ولا سياسة تُكْتَسَب، ولا أصالة إليها يُنْتَسَب، فهدى سبجانه وألهم، وعلم الإنسان بالقلم، علم ما لم يكن^(٢) يعلم، حتى ألفينا المراسم بادية، والمرشد هادية، والأخبار منقولة، والأسانيد موصولة، والأصول محزرة، والتواريخ مقررة، والسير مذكورة، والآثار ماثورة، والفضائل من بعد أهلها باقية خالدة، والمآثر ناطقة شاهدة، كأن النهار^(٣) القرطاس، والليل المداد، ينافسان الليل والنهار، في عالم الكون والفساد، فمهما طويا شيئًا، ولعا هُما^(٤) ينشره، أو دفنا ذكرًا دعوا إلى نشره. فلو^(٥) أن لسان الدهر نطق، وتأمل هذه^(٦) المناقضة وتحقق، لآتى بما شاء من عتب ولوم، وأنشده: [الوافر]

أعلمه الرماية كل يوم^(٧)

ولما كان الفن^(٨) التاريخي مأرب البشر، ووسيلة إلى ضم النشر، يعرفون به أنسابهم في^(٩) ذلك شرعًا وطبعًا ما فيه، ويكتسبون به عقل التجربة في حال السكون والترفيه^(١٠)، ويستدلون ببعض ما يبدي^(١١) به الدهر وما يخفيه، ويرى العاقل من^(١٢) تصريف قدرة الله تعالى ما يشرح صدره بالإيمان ويشفيه، ويمر على مصارع الجبابرة فيخسبه^(١٣) بذلك واعظًا ويكفيه، وكتاب الله يتخلله من القصص ما يتم هذا^(١٤) الشاهد لهذا الفن ويؤقيه. وقال الله تعالى^(١٥): ﴿وَكَلَّا تَقْصُ عَنَّا مِنْ آيَاتِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ

(١) في الريحانة: «بكر». (٢) كلمة «يكن» ساقطة في الريحانة.

(٣) في الريحانة: «كأن نهار الطرس وليل المداد...».

(٤) كلمة «هما» ساقطة في الريحانة. (٥) في الريحانة: «ولو».

(٦) في الأصل: «لهذه» والتصويب من ريحانة الكتاب.

(٧) وعجز البيت هو:

فلما اشتد ساعده رماني

(٨) في الريحانة: «ولما كان هذا الفن التاريخي فيه مأرب...».

(٩) في الريحانة: «وفي».

(١٠) في الأصل: «والرفيه» والتصويب من الريحانة.

(١١) في الريحانة: «ما يديه الدهر على ما يخفيه».

(١٢) في الريحانة: «العاقل في قدرة الله...» (١٣) في الريحانة: «فيحسب ذلك».

(١٤) كلمة «هذا» ساقطة في الريحانة. (١٥) في الريحانة: «سبحانه».

يَوْمَ تُؤَادُّكَ^(١). وقال عز وجل^(٢): ﴿مَنْ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْكَافِرِينَ^(٣)﴾

فَوَضَحَ^(٤) سبيلَ مَبِينٍ، وظهر أن القول بفضله يَقْتَضِيهِ^(٥) عقل ودين، وأن بعض المصنِّفين مَن ترك نومه لَمَن دونه، وَأَتَرَفَ ماء شبابه مُودِعًا إياه بَطْنِ كِتَابِهِ يَقْضِيهِ الناس وَيَرُدُّونَهُ، اختلفت في مثل هذا الباب أغراضهم؛ فمنهم مَن اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم مَن اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان، عجزًا عن الإحاطة بهذا الشأن، عموماً في أكثر الأقطار^(٦) وخصوصاً في بعض البلدان، فاستهدف إلى التعميم فرسأُ الميدان، وتوسَّعوا بحسب مادة الاطلاع وجهد الإمكان، وجَنَحَ إلى التخصيص من أثر^(٧) الأولوية بحسب ما يخصه من المكان، ويلزمه من حقوق السكان، مُعْرِفًا برعاية عهود وطنه وحسن العهد من الإيمان، بادئاً بَمَن يعوله كما جاء في الطُّرُق الجِسان. فتذكرت جملةً من موضوعات مَن أفرَدَ لوطنه^(٨) تاريخاً هَزَّ إليها - علم الله - وفاة وكرم، ودار عليها بقول^(٩) الله من رحمته الواسعة حرم، كتاريخ^(١٠) مدينة بخارى لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سليمان الفخار. وتاريخ أَصْبَهَانَ لأبي نُعَيْم أحمد بن عبد الله الحافظ صاحب الحلية. وتاريخ أَصْبَهَانَ أيضاً لأبي زكريا يحيى بن عبد الوهاب بن قنْدة الحافظ. وتاريخ تَيْسَابُور للحاكم أبي عبد الله بن اليسع، وذيله لعبد الغافر بن إسماعيل. وتاريخ هَمْدَانَ لأبي شُجاع شَيْزَوِيه بن شهردار بن شيرويه محمد بن فناخسرو الديلمي. وتاريخ طبقات أهل شيراز لأبي عبد الله محمد بن عبد العزيز بن القصار. وتاريخ هَرَاة، أظنه لأبي عبد الله الحسن بن محمد الكتبي. وأخبار هَرَاة أيضاً وَمَن نزلها من التابعين وغيرهم من المحدثين لأبي إسحق أحمد بن ياسين الحداد. وتاريخ سَمَرْقَنْد لعبد الرحمن بن محمد الأزديسي. وتاريخ نَسَف لجعفر بن المُعَبَّر المستعفري. وتاريخ جُرجان لأبي القاسم حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي. وتاريخ الرُّقَّة لأبي علي محمد بن سعيد بن عبد الرحمن القُشَيْرِي. وتاريخ بغداد للخطيب أبي بكر بن ثابت، وذيله لأبي سعيد عبد الكريم بن محمد بن

(١) سورة هود ١١، الآية: ١٢٠.

(٢) في الأصل: «عز من قائل» والتصويب من الريحانة.

(٣) سورة يوسف ١٢، الآية: ٣.

(٤) في الريحانة: «فوضح من حقه سبيل...».

(٥) في الريحانة: «يقضى به».

(٦) قوله: «من أثر» ساقط في الأصل، وقد أضفناه من ريحانة الكتاب.

(٧) في الريحانة: «مَن أفرَدَ تاريخاً لبلده».

(٨) في الريحانة: «بفضل».

(٩) أغفل ابن الخطيب في الريحانة ذكر أسماء ما أورده هنا من مختلف كتب التاريخ الخاصة بمختلف البلدان ما يملأ صفحتين، واكتفى بقوله: «كتاريخ كذا، وتاريخ كذا».

منصور السمعاني. وأخبار بغداد لأحمد بن أبي طاهر. وتاريخ واسط لأبي الحسين علي بن الطيب الخلافي. وتاريخ من نزل جنص من الصحابة ومن دخلها، ومن ارتحل عنها، ومن أعقب، ولم يُعقب، وحدث ولم يحدث، لأبي القاسم عبد الصمد بن سعيد القاضي. وتاريخ دمشق لأبي القاسم علي بن الحسن بن عساكر. وتاريخ مكة للأزرقي. وتاريخ المدينة لابن النجار. وتاريخ مصر لعبد الرحمن بن أحمد بن نواس. وتاريخ الإسكندرية لوجيه الدين أبي المظفر منصور بن سليمان بن منصور بن سليم الشافعي. وتاريخ طبقات فقهاء تونس لأبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن أبي العباس بن خلف التميمي. وعنوان الدرّاية في ذكر من كان في الماية السابعة ببجاية، لأبي العباس بن الغبريني. وتاريخ تلمسان لابن الأصفر، وتاريخها أيضًا لابن هديّة. وتاريخ فاس لابن عبد الكريم، وتاريخها أيضًا لابن أبي رزق. وتاريخ فاس أيضًا للقونجي، وتاريخ سبتة، المسمى بالفنون السّنة، لأبي الفضل عياض بن موسى بن عياض، تركه في مسودته. وتاريخ بلنسية لابن علقمة. وتاريخ البيرة لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد الخافقي الملاحي. وتاريخ سُقورة لابن إدريس. وتاريخ مالقة لأبي عبد الله بن عسكر، تركه غير متمم، فتممه بعد وفاته ابن أخيه أبو بكر خمسين. والإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة، لأبي العباس أضيغ بن العباس. والاحتفال في أعلام الرجال، لأبي بكر الحسن بن محمد بن مُقرّج القيسي. وتاريخ قُرطبة، ومنتخب كتاب الاحتفال، وتاريخ الرؤساء والفقهاء والقضاة بطلنطة، لأبي جعفر بن مظاهر، ومنتخبه لأبي القاسم بن بشكّوال. وتاريخ فقهاء قُرطبة لابن حيان. وتاريخ الجزيرة الخضراء لابن خمسين. وتاريخ قلعة يَنْحَصِب، المسمى بالطالع السعيد، لأبي الحسن بن سعيد. وتاريخ بَقيرة، لأبي عبد الله بن المؤذن. والدرة المكنونة في أخبار أشبونة، لأبي بكر بن محمد بن إدريس الفَرّابي العالوسي. ومزية المربة لأبي جعفر أحمد بن خاتمة، من أصحابنا. وتاريخ المربة وباجة، لشيخنا نسيج وحده أبي البركات بن الحاج، متّع الله بإفادته، وهو في مُبَيّضته، لم يرمها بعد.

فداخلتني^(١) عصبية لا تقدح في دين ولا منصب، وخميرة لا يذم في مثلها متعصب، رغبة أن يقع^(٢) سؤالهم وذكرهم من فضل الله جناب مُخْصِب، ورأيت أن هذه الحضرة^(٣) التي لا خفاء بما وقر الله من أسباب إشارها، وأراد من جلال

(١) في ريحانة الكتاب: «فداخلتني لقومي عصبية».

(٢) في ريحانة الكتاب: «أن يسع سواهم ذكرهم».

(٣) الحضرة: العاصمة، والمراد بها هنا مدينة غرناطة حاضرة الأندلس آنذاك.

مقدارها، جعلها^(١) ثغر الإسلام ومنتبوا العرب الأعلام، قَبِيل رسولهُ، عليه أفضل الصلاة وأزكى^(٢) السلام، وما خَصَّها به من اعتدال الأقطار، وجريان الأنهار، وانفساح الاعتماد^(٣)، والتفاف الأشجار. نزلها العرب الكرام عند دخولهم مُخْتَطِين ومقتطعين^(٤)، وهبوا بدعوة فضلها مُهْطِيعِينَ^(٥)، فَعَمَّرُوا وأولَدُوا، وأثبتوا المفاخر وخلَدُوا، إلى أن صارت دار مُلْك، ولَبَّة^(٦) سِلْك، فَتَبَّه المقدارُ وإن كان نبيها، وازدادت الخُطَّة ترفيعاً^(٧)، وجلب إلى^(٨) سوق الملا بما نفق فيها. فكم ضمنت جدرانها من رئيس يتقي الصباح هجومه، ويتخوف الليل طروقه^(٩) ووجومه، ويفتقر الغيث لنوافله^(١٠) الممنوحة وسجومه، وعالم يبرز للفنون فيطيعه عاصيها، ويدعو^(١١) بالمُشْكِلَات فيأخذ بنواصيها، وعالم^(١٢) بالله قد وَسَمَ السجود جبينه، وأشعث أغبر لو أقسم على الله لأبري يمينه، ويلبغ قد^(١٣) أذعنت لبراءة خطه وشيجة الخط، يغوص على دُرر البدائع، فيلقبها من طُرْسِه الرائع^(١٤) على الشط، لم يقم بحقها ممتعض حق الامتعاض، ولا فرق بين جواهرها وبين^(١٥) الأعراض. هذا وسُمِر^(١٦) الأقلام مُشْرَعَة، ومكان القول والحمد لله ذو سَعَة، فهي الحُسناء^(١٧) التي عذمت الدَّام، وزينت^(١٨) الليالي والأيام. والهوى^(١٩) إن قيل كَلِفْتُ بمعانيها، وقَصْرْتُ الأيام على معانيها، فعاشق الجمال عذره مقبول^(٢٠)، والله ذرُّ أبي الطيب حيث

(١) في الريحانة: «إذ جعلها». (٢) في الريحانة: «وأطيب».

(٣) الاعتماد هنا بمعنى العمران. لسان العرب (عمر).

(٤) في الأصل: «ومقتطعين» والتصويب من الريحانة.

(٥) مهطعين: مسرعين. لسان العرب (هطع).

(٦) اللَّبَّة: ما توسط الصدر. لسان العرب (لبب).

(٧) في الريحانة: «ترفيها».

(٨) في الريحانة: «وجلب لسوق الملك ما نفق...».

(٩) في المصدر نفسه: «إطراقه».

(١٠) في الأصل: «لنوائله» والتصويب من الريحانة.

(١١) في الريحانة: «وتدعوه المشكلات». (١٢) في الريحانة: «وعارف».

(١٣) كلمة «قد» ساقطة في الريحانة.

(١٤) في الأصل: «الرائع الشط» والتصويب من ريحانة الكتاب.

(١٥) في الريحانة: «ولا بين».

(١٦) في الأصل: «وشجر» والتصويب من الريحانة.

(١٧) في الأصل: «الحسنى» والتصويب من الريحانة.

(١٨) في الأصل: «وزينة» والتصويب من الريحانة.

(١٩) في الريحانة: «وإن قيل كَلِفْتُ بمعانيها، وقصرتُ الهوى على معانيها».

(٢٠) في الريحانة: «مقبول، وسيف العدل دونه مغلول، والله ذرُّ أبي الطيب إذ يقول».

يقول^(١): [الوافر]

ضُرُوبُ النَّاسِ عُشَّاقُ ضُرُوبِنَا فَأَعْدَرُهُمْ أَشْفُهُمْ حَسِيبَا
فلست بيدع مَن فُتِنَ بحب وطن، ولا بأول ما شاقَه منزلٌ فالقى بالعَظَن، فحبَّ
الوطن معجون بطينة^(٢) ساكنه، وطَرَفُه مُغْرَى بإتمام^(٣) محاسنه، وقد نبه علي بن
العباس^(٤) على السبب، وجاء في التماس التعليل بالعَجَب، حيث يقول: [الطويل]

وحَبَّبَ أوطانَ الرجال إليهم مآربُ قضاها الشباب هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهودُ الصُّبا فيها فحَنُّوا لذلك
ورميث في هذا المعنى بسهم شديد، وألمَحْتُ بغرض إن لم يَكُنْه فليس يبعد:
[الطويل]

أَحَبُّكَ يَا مَعْنَى الْجَلالِ بواجب وأقطعُ في أوصافك الغُرَّ أوقات
تَقَسُّمُكَ مِنَ الثَّرَبِ قومي وجيرتي ففي الظَّهِرِ أحياءُ وفي البُطنِ أموات
وقد كان أبو القاسم الغافقي^(٥) من أهل غَرْناطة، قام من هذا الغرض بفرض،
وأتى من كله ببعض، فلم يَشْفَ من غُلَّة، ولا سدَّ خَلَّة، ولا كَثُرَ قِلَّة، فقمت بهذا
الوظيف، وانتدبت فيه للتأليف، وَرَجَوْتُ على نزارة حَظَّ الصُّحة، وازدحام الشواغل
المُلِحَّة، أن أضطلع من هذا القصد بالعبء الذي طالما طأطأت له الأكتاد، وأقف منه
الموقف الذي تهَيَّته الأبطال الأنجاد، فاتخذت الليل جَمَلًا لهذه الطَّيَّة^(٦)، وانتَضَيْتُ
غارب العَزمِ وزِعْمَتِ المطيَّة، بحيث لا مُؤانس إلا دُبَال^(٧) يكافح جيش الدُّجى،
ودفاتِرُ تَلَفُّحِ الحِجَا، وخواطرُ تبتغي إلى سماء الإجابة مُغْرَجًا؛ وإذا صَحِبَ العملَ
صِدْقُ النِّيَّة، أشرقت من التوفيق كلُّ نِيَّة، وطلعت من السُّداد كلُّ غُرَّة سَيِّئة، وقد علم
الله أني لم أعتمد منها دُنيا أستمئحها، ولا نَسَمَةً جاءِ يُسْتَنَشَق ريحُها؛ وإنما هو صبحٌ

(١) ديوان المتنبي (ص ١٩٩). هو مطلع قصيدة من ٤٢ بيتًا، قالها في مدح علي بن محمد بن
سيار بن مكرم.

(٢) في ربحانة الكتاب: «في طينة». (٣) في المصدر نفسه: «بالتماح».

(٤) هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، ابن الرومي، المتوفى سنة ٢٨٣ هـ. وترجمته في
وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٣١٣) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٥) هو أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملاحى، صاحب كتاب «تاريخ علماء البيرة»،
وقد تقدّم ذكره قبل قليل.

(٦) الطَّيَّة: المقصد، والمتأى. لسان العرب (طوى).

(٧) الدُّبَال: جمع دُبالة وهي الغثيلة التي تُسْرَج. لسان العرب (ذبل).

تبيين، وحق رأيت علي قد تعين، بذلت فيه جهدي، وأقطعت جانب سُهدي، لينظّم هذا البلد بمثله، مما أثير كاميته، وسطرت محاسنه، وأنشر بعد الممات جانبه^(١) :
[الوافر]

وما شرّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تُضجِحينا
فلم أدع واحدة إلا استجذتها، ولا حاشية إلا احتشدتها، ولا ضالة إلا تشدتها؛
والمجتهد في هذا الغرض مقصر، والمُطيل مختصر، إذ ما ذكر لا نسبة بينه وبين ما
أغفل، وما جهل أكثر مما نُقل، ويحار المدارك مسجورة^(٢)، وغايات الإحسان على
الإنسان محجورة؛ ومن أراد أن يوازن هذا الكتاب بغيره من الأوضاع فليتأمل قصده،
ويثير كاميته، ويُبدي خباثته^(٣)، تتضح له المَكْرُمة، ولا تخفى عليه النُصْفَة، ويشاهد
مجزي السيئة بالحسنة، والإغراب عن الوصمة والظُنة، إذ الفاضل في عالم الإنسان،
من عُدِدَت سَقَطاته، فما ظنك بمفضوله. وللمعاصر مزية المباشرة، ومزيد الخبرة،
وداعي التشفي والمقارضة؛ وسع الجميع السُتر، وشملهم البر، ونُشرت جنازتهم
لسقي الرحمة، ومُنّي الشفاعة، إلا ما شدّ من فاسق أباح الشرع جماعه، أو غادر وسمه
الشوم الذي جناه، فتختلّ عرضه عن تخليد مجد، وتدوين فخر، وإبقاء ذكر، لمن لم
يَهْمُه قطّ تحقيق اسم أبيه، ولم يعمل لما بعد يومه، فكُم خَلَفَ مما ذكر فيه يجده بين
يديه، شفيعاً في زلة، أو آخذاً بضئع إلى رُتبة، أو قائماً عند ضئيم بحُجة؛ أو عانس
يقوم لها مقام متاع ونخلة، أو غريب يحلّ بغير قُطره فيفيده نُحلة، صاعد خدام قاعداً
ونائمًا. وقد رضىنا بالسلامة عن الشكر، والإصغاء عن المثوبة، والنُصفَة عَوْض
الحَسرة، إذ الناس على حَسَب ما سَطُر ورُسم، ولا حول ولا قُوّة إلا بالله العليّ
العظيم.

والترتيب الذي انتهت إليه حيلتي، وصرفت في اختياره مخيلتي، هو أني ذكرت
البلدة^(٤)، حاطها الله، مُنَّبَهَا منها على قديمها، وطيب هوائها وأديمها، وإشراق
علاها، ومحاسن خلها، ومن سكّنها وتولّاها، وأحوال أناسها، ومن دالّ بها من

(١) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم التغلبي. راجع: المعلقات العشر، شرح ودراسة الدكتور مفيد قميعة، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩١ (ص ١٦٧).

(٢) مسجورة: قِيَاضة، مفعمة. لسان العرب (سجر).

(٣) الخباثين: هذا الجمع لم يرد في معاجم اللغة العربية وجاء فيها لفظة: «خُبْنَة»، والمراد هنا الخفالياء، من قولهم: خَبَنَ الشيءَ يَخْبِنُهُ إذا أخفاه. لسان العرب (خين).

(٤) المراد بالبلدة: غرناطة.

ضروب القبائل وأجناسها، وأعطيت صورتها، وأزخت في الفخر ضرورتها، وذكرت الأسماء على الحروف المبوبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتبة، فذكرت الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكبراء، ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المقرئين والعلماء، ثم المحذنين والفقهاء، وسائر الطلبة النجباء، ثم الكتاب والشعراء، ثم العمال الأثراء، ثم الزهاد والصلحاء، والصوفية والفقراء، ليكون الابتداء بالمُلْك، والاختتام باليُسْك، وليُنظَم الجميع انتظام السُلْك، وكل طبقة تنقسم إلى مَنْ سكن المدينة بحكم الأصالة والاستقرار، أو طرأ عليها مما يجاورها من الأقطار، أو خاض إليها وهو الغريب أثباج^(١) البحار، أو أَلَمَ بها ولو ساعة من نهار؛ فإن كَثُرَت الأسماء نَوَّعَتْ وتوسَّعَتْ، وإن قلت اختصرتُ وجمعتُ. وأثرتُ ترتيب الحروف في الأسماء، ثم في الأجداد والآباء، لشُرود الوَفَيَات والمواليد، التي رتَّبها الزمان عن الاستقصاء، وذهبت إلى أن أذكر الرجل ونَسَبه وأصالته وحَسَبه، ومولده وبلده، ومذهبه وأنحاله؛ والفرق الذي دعا إلى ذكره، وحليته ومشِيخته، إن كان مَمَّن قَيَّدَ علماً أو كَتَبَه؛ ومآثره إن كان مَمَّن وصل الفضل بسببه؛ وشعره إن كان شاعراً؛ وأدبه وتصانيفه، إن كان مَمَّن أَلَفَ في فن أو هَذَبَه؛ ومحنته إن كان مَمَّن بَزَّه^(٢) الدهر شيئاً أو سَلَبَه؛ ثم وفاته ومُنقلبه، إذ استرجع الله من منحه حياته ما وهبه.

وجعلت هذا الكتاب قسمين، ومُشتَجِلاً على فَنَيْن: القسم الأول؛ «في جلى المعاهد والأماكن، والمنازل والمساكن». القسم الثاني؛ «في جلى الزائر والقاطن، والمتحرِّك والسَّاكن».

(١) الأثباج: جمع ثبج، وثبج البحر: وسطه ومعظمه. لسان العرب (ثبج).

(٢) بَزَّه: سلَّبه. لسان العرب (بزز).

القِسم الأول
في حِلَى المَعَاهِد والأَمَاكِن
وَالْمَنَازِل والمَسَاكِن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

في اسم هذه المدينة ووضعيها على إجمال واختصار

يقال^(١) غَرْناطة، ويقال إغَرْناطة^(٢)، وكلاهما أعجمي، وهي مدينة كُورَة إلْبيرة، فبينهما فرسخان وثلاث فرسخ^(٣). وإلبيرة من أعظم كُور الأندلس، ومتوسطة ما اشتمل عليه الفتح من البلاد، وتسمى في تاريخ الأمم السالفة من الرُوم، سَنام^(٤) الأندلس، وتُدعى في القديم بَقُسْطِيلِيَّة. وكان لها من الشهرة والعمارة، ولأهلها من الثروة والعُدَّة، وبها من الفقهاء والعلماء، ما هو مشهور. قال أبو مروان بن حَيَّان: كان يجتمع بباب المسجد الجامع من إلبيرة خمسون حَكَمَة^(٥)، كلها من فِضَّة لكثرة الأشراف بها. ويدلّ على ذلك آثارها الخالدة، وأعلامها المائلة، كطَلَل مسجدها الجامع، الذي تحامى استطالة البُلَى، كسِلَتْ عن طَمَس معالمه أَكْفُ الرُدى، إلى بلوغ ما فُسِح له من المَدَى.

(١) قارن باللمحة البدرية (ص ٢١).

(٢) اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التسمية، وللإطلاع على هذا الاختلاف بإسهاب راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٧).

(٣) الفرسخ: مسافة تُقَدَّر بثلاثة أميال. معجم البلدان (ج ١ ص ٣٦)، وتقويم البلدان (ص ١٥).

(٤) كذا في اللوحة البدرية (ص ٢١). وقد تكون «شام الأندلس» لأن غرناطة كانت تسمى شام الأندلس أو دمشق الأندلس، وهكذا وصفها ابن الخطيب في هذا الجزء بعد قليل، وفي اللوحة البدرية (ص ٢٦). وكذا وصفها الرحالة ابن جبير وهو يخاطبها: [مجزؤه الكامل]

يا دمشق الغربِ هاتِي لك لقد زُذِّتِ عليْها
تحتك الأنهارُ تجري وهي تنصبُ إليها

راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٢٩).

(٥) الحَكَمَة: ما أحاط بحتكني الفرس من إجماعه وفيها العذاران. محيط المحيط (حكم).

بناه الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم، أمير المؤمنين الخليفة^(١) بقرطبة، رحمه الله، على تأسيس حنّش بن عبد الله الصنعاني الشافعي، رحمه الله، وعلى محرابه لهذا الوقت: «بسم الله العظيم، بُنِيَتْ لَه؛ أَمَرَ بِنَائِهَا الأميرُ محمد بن عبد الرحمن، أكرمه الله، رجاء ثوابه العظيم؛ وتوسيعاً لرعيته؛ فتمّ بعون الله على يدي عبد الله بن عبد الله، عامله على كُوزَةِ الْبِيرَةِ في ذي قعدة سنة خمسين ومائتين».

ولم تزل الأيام تُخيف ساكنها، والعفاء يَتَّبِعُ مساكنها، والفتن الإسلامية تَجُوسُ أماكنها، حتى شملها الخراب، وتَقَسَّم قاطنُها الاغتراب، وكلُّ الذي فوق الشراب تُراب. وانتقل أهلها مدة أيام الفتنة البربرية^(٢) سنة أربعمائة من الهجرة، فما بعدها، ولجأوا إلى مدينة غرناطة، فصارت حاضرة الصُفْع، وأمّ المِضر، وبيضة ذلك الحق، لحصانة وضِعها، وطيب هوائها، ودُور مائها، ووفور مدتها، فأين فيها الخائف، ونُظْمُ الشُّر، ورسخت الأقدام، وتَأَثَّل المِضر، وهَلُمَّ جَزَا. فهي بالأندلس، قُطْبُ بلاد الأندلس، ودار المُلْك، وقَرَى الإمارة، أبقاها الله مُتَبَوِّاً الكلمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بقدرته.

من «كتاب البيرة»^(٣)، قال: بعد ذكر البيرة، وقد خَلَفَها بعد ذلك كله مدينة غرناطة من أعظم مدنها وأقدمها، عندما انقلبت العمارة إليها من البيرة، ودارت أَفلاكُ البلاد الأندلسية، فهي في وقتنا هذا قاعدة الدنيا، وقرارة العُلَيَا، وحاضرة السلطان، وقُبة العدل والإحسان. لا يَغْدِلُها في داخلها ولا خارجها بلد من البُلدان، ولا يُضاهيها في اتساع عمارتها، وطيب قرارتها، وطَنٌ من الأوطان. ولا يأتي على خضر أوصاف جمالها، وعدّ أصناف جلالها، قلمُ البيان. أدام الله فيها العزَّ للمسلمين والإسلام، وحرَّسها ومن اشتملت عليه من خلفائه، وأنصار لوائه، بعينه التي لا تنام، وزَكِيَّ الذي لا يُرام.

وهذه المدينة من مَعْمُور الإقليم الخامس^(٤)، يبتدئ من الشرق، من بلاد يَأْجُوج ومَأْجُوج، ثم يمرُّ على شمال خُراسان، ويمرُّ على سواحل الشام، ممَّا يلي

(١) لم يكن محمد بن عبد الرحمن الثاني خليفة، بل كان أميراً حكم الأندلس منذ سنة ٢٣٨ هـ إلى سنة ٢٧٣ هـ. والخلافة أقامها بالأندلس عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٦ هـ.

(٢) بدأت الفتنة البربرية بقرطبة سنة ٣٩٩ هـ.

(٣) هو كتاب «تاريخ علماء البيرة» لأبي القاسم محمد بن عبد الواحد الغافقي الملاحقي، وقد سبق ذكره في بداية هذا الجزء.

(٤) كذا جاء في آثار البلاد (ص ٤٩١، ٥٤٧)، وكتاب الجغرافيا (ص ١٦٦، ١٦٧)، واللمحة البدرية (ص ٢١).

الشمال، ويمرُّ على بلاد الأندلس، قُرْطُبَة وإشبيلية وما والاها إلى البحر المحيط الغربي. وقال صاعدُ بن أحمد في كتاب «الطَبَقَات»: إِنَّ مُعْظَمَ الأندلس في الإقليم الخامس، وطائفةٌ منها في الإقليم الرابع، كمدينة إشبيلية، ومالقة، وغرناطة، وألمرية ومُرْسِيَة.

وذكر العلماء بصناعة الأحكام أَنَّ طالعتها الذي اختطَّت به السُّرْطَان، ونحلوها، لأجل ذلك، مزايا، وحظوظًا من السعادة، اقتضاها تسيير أحكام القِرَّانات الانتقالية على عهد تأليف هذا الموضع.

وطولها سبع وعشرون درجة وثلاثون دقيقة^(١)، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق. وهي مساوية في الطول بأمر يسير لقُرْطُبَة، ومَيُوزَقَة، وألمرية؛ وتقرب في العرض من إشبيلية، وألمرية، وشاطبة وطُرْطُوشَة، وسردانية، وأنطاكية، والرقة. كل ذلك بأقل من درجة. فهي^(٢) شاميّة في أكثر أحوالها، قريبة من الاعتماد، وبينها وبين قرطبة، أعادها الله تعالى، تسعون ميلًا. وهي منها بين شَرْقٍ وقِبْلَة. وبحر الشام^(٣) يحول ويحاجز بين الأندلس وبلاد العُدُوة^(٤)، وبين غَرْبٍ وقِبْلَة على أربعة بُرُود^(٥). والجبّال بين شرق وقبلة، والبراجلات^(٦) بين شرق وجَوْف^(٧)، والكُتْنَابِيَّة^(٨) بين غرب وقبلة، وبين جوف وغرب، فهي لمكان جوار السّاحل، مُمارة بالبَوَاكِر^(٩) السّاحلية، طيبة البحار، وركابٌ للجهد البحر، ولمكان استقبال الجبال، المقصودة^(١٠) بالفواكه المتأخرة اللحاق، مُعلّلة بالمُدْخَرَات،

(١) الدرجة عند ياقوت خمسة وعشرون فرسخًا، أي خمسة وسبعين ميلًا، وتنقسم إلى ستين دقيقة. معجم البلدان (ج ١ ص ١٩، ٣٦، ٣٩). ويقول ابن سعيد: إن كل درجة ونصف مائة ميل، أي إن الدرجة تساوي نحو ستة وستين ميلًا وثلاثي ميل. كتاب الجغرافيا (ص ٧٩). ويقول أبو الفداء: الدرجة عند القدماء ستة وستون ميلًا وثلاث ميل، وعند المحدثين ستة وخمسون ميلًا وثلاث ميل. تقويم البلدان (ص ١٤).

(٢) قارن باللمحة البدرية (ص ٢٢). (٣) بحر الشام: هو البحر المتوسط.

(٤) المراد عُدُوة المغرب المقابلة للأندلس.

(٥) البُرْد: جمع برید وهو مقياس مسافة تُقَدَّرُ باثني عشر ميلًا.

(٦) البراجلات: جمع برجيلة وهي بالإسبانية: Parcela، ومعناها القطعة من الأرض. اللوحة البدرية (ص ٢٩).

(٧) الجوف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقِبْلَة، أي الشمال.

(٨) الكُتْنَابِيَّة كلمة إسبانية: Campaña وتعني البسيط أو السهل من الأرض. وقد تكون ناحية بالأندلس قرب قرطبة.

(٩) في اللوحة: «مُمارَة بالسّمك والبواكر، طية للتجار، ركابٌ معه للجهد في البحر».

(١٠) في اللوحة: «مقصودة».

ولمكان^(١) استِذْبار الكُنبانيَّة واضطبار^(٢) البراجلات؛ بحرٌ من بحور الجَنطة، ومعدنٌ للحبوب المفضلة، ولمكان شُلَيْر، جبل الثلج^(٣)، أحد مشاهير جبال الأرض، الذي يَنزل به الثلج شتاءً وصيفاً، وهو على قِبلة منها على فرسخين؛ ويتَّسبب منه ستة وثلاثون نهراً من فوهات الماء، وتَنبَجِس من سفوحه العيون، صَحَّ منها الهواء، واضطردت في أرجائها وساحاتها المياه، وتعددت الجَنَّات بها والبساتين، والتفت الأدواح، وشمر الرُّواد على منابت العُشب في مظانِّ العَقار مُستودعات الأدوية والشِّياقِية. ويَزُدُّها لذلك في المُتَقَلِّب الشتوي شديداً، وتَجْمُدُ بسببه الأدهان والمائعات، ويتراكم بساحاتها الثلج في بعض السنين، فحُسُوم أهلها لصِحة الهواء ضَلْبَة، وسِبحانهم خَشِنة، وهُضُومهم قويَّة، ونفوسهم لمكان الحَرِّ الغريزي جَرِيَّة^(٤).

وهي دارٌ مَنَعَة وكُرسى مُلك، ومقامُ حَصانة. وكان ابن غانية^(٥) يقول للمرابطين في مرض موته، وقد عَوَّل عليها للامتسак بدعوتهم: الأندلسُ دَرَقَة، وغَرْناطة قَبْضَتُها؛ فإذا جَسَمْتُم يا معشر المرابطين القَبْضة، لم تخرج الدرقه من أيديكم.

ومن أبدع ما قيل في الاعتذار عن شِدَّة بَرْدِها، ما هو غريب في معناه، قول شيخنا القاضي أبي بكر بن شُبَيرين رحمه الله^(٦): [الطويل]

رعى الله مِنْ غَرْناطةٍ مُتَبَوِّءَا	يَسُرُّ كَثِيبًا ^(٧) أو يُجِيرُ طَرِيدَا
تَبَرَّمَ منها صاحبي عندما ^(٨) رأى	مَسَارِحَها بِالْبَرْدِ ^(٩) عُدُنْ جَلِيدَا
هي الثُّغُرُ صَانَ الله مَنْ أَهْلَتْ به	وما خَيْرُ ثَغَرٍ لا يكون بَرُودًا؟

(١) كلمة «ولمكان» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللمحة البدرية.

(٢) في اللمحة: «واضطبان».

(٣) هو جبل شُلَيْر، أحد مشاهير جبال الأرض، وقد أسماه بجبل الثلج؛ لأن الثلج لا يفارقه شتاءً ولا صيفاً. ويسمى بالإسبانية Sierra Nevada، أي سلسلة الجبال الثلجية، راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٤٣).

(٤) جَرِيَّة: أي جريئة.

(٥) هو أبو زكريا يحيى بن إسحاق المصوفي، المعروف بابن غانية، أمير مرسية وبلنسية وقرطبة وغرب الأندلس من قبل علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي. قاوم الموحدين في أول استيلائهم على الأندلس فقتلوه سنة ٥٤٣ هـ.

(٦) الأبيات في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩١)، ونفح الطيب (ج ١ ص ١٧٤)، ورحلة ابن بطوطة (ص ٦٧٠ - ٦٧١) وجاء فيه أن قاتل الأبيات هو أبو بكر محمد بن أحمد بن شيرين البستي نزيل غرناطة. وانظر أيضاً: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٤٦).

(٧) في رحلة ابن بطوطة والنفح: «حزينا». (٨) في تاريخ قضاة الأندلس: «بعدها».

(٩) في رحلة ابن بطوطة والنفح: «بالثلج».

وقال الرّازي عند ذكر كُورَة البيرة: ويتصل بأخواز قَبْرَة كُورَة لبيرة، وهي بين الشرق والقبلة، وأرضها سفي غزيرة الأنهار، كثيرة الثمار، ملتقّة الأشجار، أكثرها أدواح الجوّز، ويحسن فيها قصب السكر؛ ولها معادنٌ جوهريّة من ذهب، وفضة، ورمصاص، وحديد. وكورة البيرة أشرف الكور، نزلها جند دمشق. وقال: لها من المدن الشريفة مدينة قَسْطِليّة، وهي حاضرة البيرة، وفحصها لا يُشَبَّه بشيء من بقاع الأرض طيبًا ولا شرًّا إلا بالغوطة؛ غوطة دمشق.

وقال بعض المؤرخين^(١): ومن كَرَم أرضنا أنها لا تَعْدَم زريعة^(٢) بعد زريعة؛ ورغيًا بعد رغي، طول العام؛ وفي عمالتها المعادن الجوهريّة من الذهب، والفضة، والرمصاص، والحديد، والتوتيا. وبناحية دَلَاية^(٣) من عملها، عود اليلنجوج^(٤)، لا يفوقه العود الهندي ذكًا^(٥) وعطرًا رائحة. وقد سبق منه لخيران^(٦) صاحب المَريّة أصل كان مئبته بين أحجار هناك. وبجبل شَلِير منها سُئِل فائق الطيب، وبه الجنطيانا، يُحمَل منه إلى جميع الآفاق، وهو عقيّر رفيع، ومكانه من الأدوية الترياقية مكانه. وبه المَرْقَشِيّة على اختلافها، واللّازورد. ويفحصها وما يتصل به القَرْمُز. وبها من العَقَار والأدوية الثّباتية والمعدنية ما لا يحتمل ذكرها الإيجاز. وكفى بالحري الذي فَضَلت به فخرا وقيّة، وغلة شريفة، وفائدة عظيمة، تمتازة منها البلاد، وتجلبه الرفاق، وفضيلة لا يشاركها فيها إلا البلاد العراقية. وفحصها^(٧) الأفيح، المُشَبَّه بالغوطة

(١) قارن باللمحة البدرية (ص ٢٢ - ٢٣). (٢) في اللّحة: «زريعة ولا زينة أيام العام».

(٣) من هنا حتى قوله: «بين أحجار هناك»، ورد في نفع الطيب (ج ١ ص ١٤١) ببعض الاختلاف عما هنا. ودلاية: بالإسبانية Dalias، وهي بلد أندلسي ساحلي قريب من ألمرية، يتبع لإقليم البُشْرة. والبُشْرة بالإسبانية Alpujarras وهي منطقة جبال سيرا نفاذا Sierra Nevada. جغرافية الأندلس (ص ١٢٤).

(٤) الالنجوج واليلنجوج: عود جيد، طيب الريح، يتبخّر به. لسان العرب (لنج).

(٥) في نفع الطيب: «ذكاء».

(٦) هو خيران الصقلبي أو العامري، وهو أول من استقل بالمرية Almeria عن الخلافة بقرطبة، وحكمها من سنة ٤٠٥ هـ حتى سنة ٤١٩ هـ. نصوص عن الأندلس (ص ٨٢) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٠) والمغرب (ج ٢ ص ١٩٤).

(٧) النص في اللّحة البدرية (ص ٢٣). وفحص غرناطة هو مرجها الشهير، وهو عبارة عن سهل أفيح، وسيط شامع أخضر خصب، وغوطة فيحاء مترامية الأطراف. يُطلق عليه بالإسبانية اسم La Vega de Granada. يقع غربي غرناطة ويمتد غربًا حتى مدينة لوشة. كتاب العير لابن خلدون (م ٧ ص ٦٨٩) ونفع الطيب (ج ٥ ص ٨). وقد عرّف باقوت الفحص بقوله: الفحص بمفهوم أصل الأندلس هو كل موضع يُسَكَنُ ويُزَرَعُ، سواء كان سهلًا أو جبلًا، ومع الزمن صار الفحص علمًا لعدة مواضع. معجم البلدان (ج ٥ ص ٢٣٦). وراجع أيضًا مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم (ص ٤١) ففيه حديث مفصل عن مرج غرناطة.

الدمشقية^(١)، حديث الرُّكَّاب، وَسَمَرُ اللَّيَالِي، قد دَحَاه الله في بسيط سهل^(٢) تخترقه^(٣) المذائب، وتتخلله الأنهار جداول، وتتزاحم فيه القُرى والجَنَّات، في ذرع أربعين ميلاً أو نحوها، تثبو العين فيها عن وجهه؛ ولا تتخطى المحاسن منها إلّا مقدار رقعة الهضاب، والجبال المُتطامية منه بشكل ثلثي دائرة^(٤)، قد عَرَت^(٥) منه المدينة فيما يلي المركز لجهة القبلة، مستندة إلى أطوار سامية، وهضاب عالية، ومناظر مُشرقة؛ فهي قيدُ البصر، ومنتهى الحُسن، ومعنى الكمال، أضفى الله عليها، وعلى مَنْ بها من عباده المؤمنين جَنَاح سَتره، ودفع عنهم عدُوّ الدِّين بقدرته.

فصل

في فتح هذه المدينة ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها
وما كانت عليه أحوالهم، وما تعلق بذلك من تاريخ

قال المؤلف: اختلف المؤرخون في فتحها؛ قال ابن القوطية^(٦): إن يُليان^(٧) الرومي الذي تَدب العرب إلى غزو الأندلس طلباً لوثره^(٨) من مَلِكها لُذريق بما هو معلوم، قال لطارق بن زياد مُفتتحها عندما كسر جيش الرُّوم على وادي لكه: قد فَضَّضَتْ جيش القُوم^(٩) ودُوخَتْ حاميتهم، وصيرت الرُّعْب في قلوبهم، فاصمذ ليئضتهم؛ وهؤلاء أدلاء من أصحابي، ففرق جيوشك في البلدان بينهم^(١٠)، واغمذ أنت إلى طُلَيْطلة بمعظمهم، وأشغل القوم عن النظر في أمرهم^(١١)، والاجتماع إلى وليّ رأيهم.

قال^(١٢): ففرق طارق جيوشه من إستجّة؛ فبعث مُغيثاً^(١٣) الرومي، مولى الوليد بن عبد الملك بن مروان إلى قُرْطبة؛ وبعث جيشاً آخر إلى مالقة^(١٤)؛ وأرسل

(١) كلمة «الدمشقية» غير واردة في اللوحة البدرية.

(٢) كلمة «سهل» غير واردة في اللوحة البدرية. (٣) في اللوحة: «تخترقه الجداول والأنهار».

(٤) في اللوحة: «دائرة». (٥) في اللوحة: «فَعُدَّت المدينة منه».

(٦) النص غير موجود في «تاريخ افتتاح الأندلس» لابن القوطية، وجاء فيه بعض من هذا (ص ٣٣ - ٣٤).

(٧) وهو موجود في اللوحة البدرية (ص ٢٥).

(٨) في اللوحة: «بليان». (٩) في اللوحة: «بوتره».

(١٠) في اللوحة: «الروم». (١١) في اللوحة: «جيوشك بينهم في البلدان».

(١٢) في اللوحة: «أمورهم».

(١٣) النص في أخبار مجموعة لمجهول (ص ١٩ - ٢٠)، واللوحة البدرية (ص ٢٥ - ٢٦).

(١٤) في اللوحة: «معيثاً». (١٥) في أخبار مجموعة: «إلى مدينة رية».

جيشًا ثالثًا إلى عَزْناطة مدينة لِيبِرة؛ وسار هو في معظم الناس إلى كورة جَبَّان^(١) يريد طليطلة. قال^(٢): فمضى الجيش الذي وجَّه طارق إلى مالقة ففتحها، ولجأ علوجها إلى جبال هناك ممتعة. ثم لحق ذلك الجيش بالجيش المتوجَّه إلى البيرة، فحاصروا مدينتها، وفتحوها عَنوة؛ وألقوا بها يهودًا ضمَّوهم إلى قَصْبة غرناطة؛ وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبعة، متى وجدوا بمدينة فتحوها^(٣) يهودًا، يضمُّونهم إلى قَصْبَتها، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يَسُدُّونها. ثم مضى الجيش إلى تَدْمِير.

وكان دخول طارق بن زياد الأندلس يوم الاثنين لخمس خَلُون من رجب سنة اثنتين وتسعين^(٤). وقيل في شعبان، وقيل في رمضان، بموافقة شهر عُثْتُ من شهور العَجَمية.

وذكر معاوية بن هشام وغيره^(٥): أن فتح ما ذكر تأخر إلى دخول موسى بن نصير في سنة ثلاث وتسعين. فتوجَّه ابنه عبد الأعلى في جيش إلى تَدْمِير فافتتحها، ومضى^(٦) إلى البيرة فافتتحها، ثم توجَّه إلى مالقة.

قال المؤلف رحمه الله: ولَمَّا استقرَّ ملك الإسلام بجزيرة الأندلس، ورمى إلى قصبته الفتح، وشرأب في عَرَصاتها الدِّين، ونزلت قرطبة وسواها العرب، فتبوَّؤا الأوطان، وعَمَرُوا البلدان، فالدَّاخلون على يد موسى بن نصير يُسَمَّون بالبَلْدِيِّين، والداخلون بعضهم مع بَلْج بن بشر القُشَيْرِي، يسمُّون بالشَّامِيِّين. وكان دخول بَلْج بن بشر القُشَيْرِي بالطَّالعة البَلْجِيَّة سنة خمس وعشرين ومائة.

ولَمَّا دخل الشَّامِيُّون مع أميرهم بَلْج، حسبما تقرَّر في موضعه، وهم أسود الشُّرى^(٧) عَزَّة وشهامة، عُصَّ بهم السابقون إلى الأندلس، وهم البَلْدِيُّون، وطالبوهم بالخروج عن بَلَدِهِم الذي فتحوه، وزعموا أنه لا يحملهم وإياهم، واجتمعوا لغزوهم، فكانت الحروب تدور بينهم، إلى أن وصل الأندلس أبو الحَظَّار حُسام بن ضِرار الكلبي، عابراً إليها البحر من ساحل تونس، وأظْلُ على قُرْطُبة على حين غفلة، وقد

(١) قوله: «إلى كورة جَبَّان» غير واردة في أخبار مجموعة.

(٢) هنا ينقطع النص في أخبار مجموعة، ويتابع في اللوحة البدرية.

(٣) كلمة «فتحوها» ساقطة في اللوحة.

(٤) في تاريخ افتتاح الأندلس (ص ٣٣): «وكان دخول طارق الأندلس في رمضان سنة اثنتين وتسعين».

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٢٦). (٦) في اللوحة: «ثم مضى».

(٧) المراد شُرى الفرات، وهو ناحيته، ويقال للشجعان: ما هم إلَّا أسود الشُّرى، وقيل: الشُّرى: مأسدة بعينها. معجم البلدان (ج ٣ ص ٣٣٠).

سَتَرَ خبر نفسه، والحرب بينهم، فانقاد إليه الجميع بحُكم عهد مُدينه حَنْظَلَة بن صَفْوَان والي إفريقية^(١)، وقبض على وجوه الشاميّين عازماً عليهم في الانصراف حسبما هو مشهور؛ ورأى تَفْرِيق القبائل في كُور الأندلس، ليكون أبعد للفتنة، ففَرَّقَهم، وأَقْطَعَهُم ثلث أموال أهل الذِّمَّة، الباقي من الرُّوم، فخرج القبائل الشاميون عن قرطبة.

قال أبو مروان: أشار على أبي الخطار، أَرْطَبَاس قُومِس الأندلس، وزعيم عَجَم الذِّمَّة^(٢)، ومُسْتَخْرِجُ خَراجهم لأمراء المسلمين - وكان هذا القُومِس شهرير العلم والدهاء - لأول الأمر، بتفريق القبائل الشاميّين العَلَميين عن البلد، عن دار الإمارة قرطبة، إذ كانت لا تَحْمِلُهُم، وإنزالهم بالكُور، على شَبه منازلهم التي كانت في كُور شامهم، ففعل ذلك على اختيار منهم؛ فَأَنْزَلَ جُنْدَ دِمَشق كُورَة ألبيرة، وجُنْدَ الأزدن كورة جَيَّان، وجُنْدَ مصر كورة باجة، وبعضهم بكورة تَدْمِير؛ فهذه منازل العرب الشاميّين؛ وجعل لهم ثلث أموال أهل الذِّمَّة من العجم طُعْمَة؛ وبقي العرب والبَلْدِيُّونَ والبرابر^(٣) شركاؤهم؛ فلَمَّا رَأَوْا بُلْدَانًا شَبَهَ بُلْدَانِهِم بالشام، نَزَلُوا وسكنوا واغبطوا وكَبُرُوا وتموّلوا، إِلَّا مَنْ كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على عنايتهم موضعاً رَضِيّاً، فإنه لم يَزْتَحِلْ عنه، وسكن به مع البَلْدِيِّينَ. فإذا كان العطاء أو حضر الغزو وَلَجِحَ بجُنْدِهِ، فهم الذين كانوا سُمُوا الشَّاذَة حينئذ.

قال أحمد بن موسى: وكان الخليفة يعقد لِيَوَاءِين، لِيَوَاءِ غازيّا، ولِيَوَاءِ مُقِيمًا؛ وكان رزق الغازي بلوائه مائتي دينار. ويبقى المُقِيم بلا رزق ثلاثة أشهر؛ ثم يدال بنظيره من أهله أو غيرهم. وكان الغَزَاة من الشاميّين مثل إخوة المَعْهُود له أو بنيه أو بني عمّه، يُرْزَقُونَ عند انقضاء غَزَاتِهِ عشرة دنانير؛ وكان يَعهْدُ المَعْقُودُ له مع القائد؛ يَتَكَشَّفُ عَمَّنْ غَزَا، وَيَسْتَحِقُّ العَطَاءَ، فَيُعْطَى على قوله تَكْرِيمَة له؛ وكانت خِدْمَتُهُم في العسكر، واعتراضهم إليه؛ وَمَنْ كان من الشاميّين غازيّا من غير بِيُوتَات العَقْد، ارْتَزَقَ خمسة دنانير عند انقضاء الغَزْو. ولم يكن يُعْطَى أَحَدٌ من البَلْدِيِّينَ شيئاً غير المَعْقُود له؛ وكان البَلْدِيُّونَ أيضًا يعقد لهم لِيَوَاءِان؛ لِيَوَاءِ غازٍ، ولِيَوَاءِ مُقِيم؛ وكان يرتزق الغازي

(١) كانت الأندلس في عصر الولاة (٩٢ - ١٣٨ هـ) تخضع إداريًا لإفريقية، ولوالى إفريقية صلاحية من قبل الخليفة الأموي بدمشق في تعيين وال على الأندلس.

(٢) عجم الذمة: هم النصارى المعاهدون، Los Mozárabes، وسيحدث عنهم ابن الخطيب بعد قليل.

(٣) البرابر: أي البربر.

مائة دينار وإزنة؛ وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر، ثم يُدال بنظيره من غيرهم؛ ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة؛ وكانوا أحراراً من العُشر، معدين للغزو، ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التي كانت بأيديهم؛ وكان العرب من البلديين يؤدّون العُشر، مع سائر أهل البلد، وكان أهل بيوتات منهم يغزون كما يغزو الشاميون، بلا عطاء، فيصيرهم إلى ما تقدّم ذكره. وإنما كان يُكتب أهل البلد في الغزو؛ وكان الخليفة يُخرج عسكريين، إلى ناحيتين، فيستنزلهم؛ وكانت طائفة ثالثة يُسمّون الظُراء من الشاميين والبلديين، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين. وقد بيّنا نبذة من أحوال هؤلاء العرب. والاستقصاء يُخرج كتابنا عن غرضه، والإحاطة لله سبحانه.

ذكر ما آل إليه حال من ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى المُعاهدين^(١) على الإيجاز والاختصار

قال المؤلف: ولما استقرّ بهذه الكورة الكريمة أهل الإسلام، وأنزل الأمير أبو الخطار قبائل العرب الشاميين بهذه الكورة، وأقطعهم ثلث أموال المُعاهدين، استمرّ سكناهم في غمار من الروم؛ يعالجون فلاحه الأرض، وعُمران القرى، يرأسهم أشياخ من أهل دينهم، أولو حُكّة ودهاء ومُداراة، ومعرفة بالحبّاية اللازمة لرؤوسهم. وأخذهم رجل يُعرف بابن القلاس، له شهرة وصيت، وجاء عند الأمراء بها. وكانت لهم بخارج الحضرة، على غلوتين^(٢)، تجاه باب البيرة في اعتراض الطريق إلى قولج، كنيسة شهيرة، اتخذها لهم أحد الزعماء من أهل دينهم، استزكبه بعض أمرائها في جيش حُشين من الروم، فأصبحت فريدة في العمارة والحلية؛ أمر بهدمها الأمير يوسف بن تاشفين^(٣)، لتأكّد رغبة الفقهاء، وتوجّه فتواهم. قال ابن الصيّزفي: خرج أهل الحضرة لهدمها يوم الاثنين عَقِب جُمادى الآخرة من عام اثنين وتسعين وأربعمائة، فضيّرت للوقت قاعاً، وذهبت كل يد بما أخذت من أنقاضها وآلاتها.

(١) النصارى المُعاهدون هم المُستعربون Los Mozárabes، الذين عاشوا في غرناطة وغيرها من مدن الأندلس في ظل العرب المسلمين، وقد أطلق عليهم العرب في بادئ الأمر اسم «عجم الأندلس». راجع: مملكة غرناطة في ظل بني زيري البربر للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ٢٤٧ - ٢٥٠).

(٢) الغلوة: رمية سهم، ويقال هي قدر ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة، والجمع غلوات وغلاء. محيط المحيط (غلا).

(٣) يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين، بالمغرب والأندلس معاً، وسيُترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

قلت: ومكانها اليوم مشهور، وجدارها مائل يُثنى عن إحكام وأصالة، وعلى بعضها مقبرة شهيرة لابن سهل بن مالك، رحمه الله.

ولما تحرّكت لعدو الله الطاغية ابن رُدْمير ربح الظهور، على عهد الدولة المرابطية، قبل أن يخضد الله شوكته على إفراغة^(١) بما هو مشهور، أملت المعاهدة^(٢) من النصارى لهذه الكورة إدراك الثروة، وأطمعت في المملكة، فخطبوا^(٣) ابن رُدْمير من هذه الأقطار، وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسائلهم، ملحة بالاستدعاء مطمعة في دخول غرناطة^(٤)، فلما أبطأ عنهم، وجهوا إليه زاماً يشتمل على اثني عشر ألفاً من أنجاد مقاتليهم، لم يعدوا فيها شيئاً ولا غراً، وأخبروه أنّ من سمّوه، مقيم شهرت^(٥) أعينهم لقرب مواضعهم، وبالْبُعد من يخفى أمره، ويظهر عند ورود شخصه، فاستأنروا طمعه وابتغوا جشعه، واستفّزوه بأوصاف غرناطة، وما لها من الفضائل^(٦) على سائر البلاد وبفحصها الأفتح، وكثرة فوائدها من القمح والشعير، والكتّان، وكثرة المرافق، من الحرير والكروم، والزيتون، وأنواع الفواكه، وكثرة العيون والأنهار، ومنعة قُبتها^(٧) وانطباع رعيّتها، وتأتي أهل حاضرتها، وجمال إشرافها وإطلائها، وأنها المباركة التي يمتلك منها غيرها، المسماة سَنام الأندلس عند الملوك في تواريخها، فَرَمَوْا حتى أصابوا غرّبه، فانتخب وأخشد، وتحرك أول شعبان من عام خمسة عشر وخمسمائة^(٨) وقد أخفى مذهبه، وكنم أربه، فوافى^(٩) بلنسية، ثم إلى مُرسية، ثم إلى بيرة، ثم اجتاز بالمنصورة ثم انحدر إلى بُرشانة، ثم تلوّم إلى وادي ناطلة. ثم تحرك إلى بسطة، ثم إلى وادي آش، فنزل بالقرية المعروفة بالقصر^(١٠) وصافح المدينة بالحرب، ولم يحل بطنائل، فأقام عليها شهراً.

(١) إفراغة، بالإسبانية Fraga: وهي مدينة بغربي لاردة من الأندلس، لها حصن منيع وبساتين كثيرة. الروض الميعطار (ص ٤٨).

(٢) المعاهدة: هم النصارى المعاهدون.

(٣) قارن بما جاء في البيان المغرب (ج ٤ ص ٦٩ - ٧٣) وفيه يقول ابن عذاري إن أهل نظر أغرناطة خطبوا في سنة ٥١٩ هـ ابن ردمير ملحة عليه بدخول غرناطة. وفي النص بعض اختلاف عما هنا.

(٤) في البيان المغرب: «أغرناطة».

(٥) في البيان المغرب: «شهدت».

(٦) في المصدر نفسه: «الفضل».

(٧) في البيان المغرب: «في البيان المغرب».

(٨) في البيان المغرب: «إلى أن وصل بلنسية».

(٩) في البيان المغرب: «إلى أن وصل بلنسية».

(١٠) القصر، بالإسبانية: Alcazar، وهي واقعة إلى الجنوب الشرقي من غرناطة.

قال صاحب كتاب «الأنوار الجَلِيَّة»^(١): فبدأ^(٢) بَحْثُ المُعَاهِدة بِغَرْنَاطَة فِي اسْتِدْعَائِهِ، فَافْتَضَحَ تَدْبِيرَهُمْ بِاجْتِلَابِهِ، وَهَمَّ أَمِيرُهَا^(٣) بِتَقْيِيفِهِمْ^(٤)، فَأَعْيَاهُمْ ذَلِكَ، وَجَعَلُوا يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مَحَلَّتِهِ عَلَى كُلِّ طَرِيقٍ، وَقَدْ أَحْدَقَتْ جِيُوشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْعُدُوَّةِ^(٥) وَالْأَنْدَلُسِ بِغَرْنَاطَة، حَتَّى صَارَتْ كَالدَّائِرَةِ، وَهِيَ فِي وَسْطِهَا كَالثَّقُطَةِ، لَمَّا أَثْذَرُوا بِغَرَضِهِ؛ وَتَحَرَّكَ مِنْ وَادِي آش فَتَزَلَّ بِقَرْيَةِ دِجْمَةِ^(٦)؛ وَصَلَّى النَّاسُ بِغَرْنَاطَة صَلَاةَ الْخَوْفِ، يَوْمَ عِيدِ الثُّخْرِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ فِي الْأَسْلِحَةِ وَالْأُتْبَةِ؛ وَيُعِيدُ الظَّهْرَ مِنْ غَدِهِ، ظَهَرَتْ أَخْيِيَّةُ الرُّومِ بِالْقَيْلِ شَرْقَ الْمَدِينَةِ، وَتَوَالَى الْحَرْبُ عَلَى فَرَسَخَيْنِ مِنْهَا، وَقَدْ أَجْلَى السُّودَ، وَتَزَاوَحَ النَّاسُ بِالْمَدِينَةِ، وَتَوَالَى الْجَلِيدُ، وَأَظْلَمَتِ الْأَمْطَارُ. وَأَقَامَ الْعَدُوُّ بِمَحَلَّتِهِ بِضَعِ عَشْرَةِ لَيْلَةٍ لَمْ تَسْرَحْ لَهُ سَارِحَةٌ، إِلَّا أَنَّ الْمُعَاهِدةَ تَجَلَّبَ^(٧) لَهُ الْأَقْوَاتُ؛ ثُمَّ أَقْلَعَ وَقَدْ ارْتَفَعَ طَعْمُهُ عَنِ الْمَدِينَةِ، لِأَرْبَعِ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ عَامِ عَشْرِينَ^(٨)، بَعْدَ أَنْ تَفَرَّغَ مُسْتَدْعِيهِ إِلَيْهَا، وَكَبِيرُهُ يُعَرِّفُ بَابِنَ الْقَلَّاسِ، فَاحْتَجَّجُوا بِبُطْنِهِ وَتَلَوُّمِهِ حَتَّى تَلَاَحَقَتْ الْجِيُوشُ، وَأَنْهَمُ قَدْ وَقَعُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْهَلَكَةِ، فَرحل عَنْ قَرْيَةِ مُرْسَانَةِ إِلَى بَيْشٍ، وَمِنْ الْغَدِ إِلَى السَّكَةِ مِنْ أَحْوَازِ قَلْعَةِ يَخْصَبِ^(٩) ثُمَّ اتَّصَلَ إِلَى لِدُوْبِيَانَةِ، وَنَكَبَ إِلَى قَبْرَةِ وَاللَّسَّانَةِ^(١٠)، وَالْجِيُوشُ الْمُسْلِمَةُ فِي أَذْيَالِهِ. وَأَقَامَ بِقَبْرَةِ^(١١) أَيَّامًا، ثُمَّ تَحَرَّكَ إِلَى بِلَايِ وَالْعَسَاكِرِ فِي أَذْيَالِهِ، وَشَيْبَجَةِ فِي فَخْصِ الرُّنَيْسُولِ^(١٢) مَكَافِحَةً فِي أَثْنَائِهَا، مَنَاوَشَةً، وَظَهُورًا عَلَيْهِ.

(١) هُوَ كِتَابُ «الْأَنْوَارِ الْجَلِيَّةِ فِي أَخْبَارِ الدَّوْلَةِ الْمُرَابِطِيَّةِ»، وَصَاحِبُهُ هُوَ أَبُو بَكْرٍ يَحْيَى بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ يُوسُفَ الْأَنْصَارِيِّ الْغَرْنَاطِيِّ، الْمَتَوَفَّى سَنَةَ ٥٥٧ هـ، وَسَيُتْرَجَمُ لَهُ ابْنُ الْخَطِيبِ فِي الْجُزْءِ الرَّابِعِ مِنَ الْإِحَاطَةِ.

(٢) فِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ: «فَبَدَأَ نَجِثَ الْمُعَاهِدَةَ فِي اسْتِدْعَائِهِ».

(٣) فِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ: «وَهَمَّ الْأَمِيرُ أَبُو الطَّاهِرِ».

(٤) بِتَقْيِيفِهِمْ: بِاعْتِقَالِهِمْ. (٥) الْمُرَادُ الْعُدُوَّةُ الْمَغْرِبِيَّةُ.

(٦) دِجْمَةُ، بِالْإِسْبَانِيَّةِ: Diezma، وَهِيَ بَلَدَةٌ تَقَعُ غَرْبِي وَادِي آش، بَيْنَ وَادِي آش وَغَرْنَاطَةِ.

(٧) فِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ: «وَالْمُعَاهِدَةُ تَجَلَّبَ إِلَيْهِ الْأَقْوَاتُ...».

(٨) قَارَنَ بِالْكَامِلِ فِي التَّارِيخِ (ج ١٠ ص ٦٣١) سَنَةَ ٥٢٠ هـ.

(٩) قَلْعَةُ يَخْصَبِ: بِالْإِسْبَانِيَّةِ Alcala la Real، أَيِ الْقَلْعَةِ الْمَلِكِيَّةِ، تُنْسَبُ إِلَى قَبِيلَةٍ يَخْصَبِ، وَتُعَرَّفُ أَيْضًا بِقَلْعَةِ يَعْقُوبَ، أَوْ الْقَلْعَةِ السَّعْدِيَّةِ، أَيِ قَلْعَةِ بَنِي سَعِيدٍ، وَهِيَ إِحْدَى مَدَنِ غَرْنَاطَةِ. رَاجِعُ مَمْلَكَةِ غَرْنَاطَةِ فِي عَهْدِ بَنِي زَيْرِي الْبَرْبَرِ (ص ٦٢).

(١٠) الْبُسَانَةُ أَوْ اللَّسَّانَةُ، بِالْإِسْبَانِيَّةِ Lucena: هِيَ مَدِينَةُ الْيَهُودِ، وَلَهَا رِبْضٌ يَسْكُنُهُ الْمُسْلِمُونَ. وَهِيَ مِنْ مَدَنِ غَرْنَاطَةِ. الْمَرْجِعُ السَّابِقُ (ص ٦٣).

(١١) قَبْرَةُ: بِالْإِسْبَانِيَّةِ Cabra، وَهِيَ مِنْ مَدَنِ غَرْنَاطَةِ. الْمَرْجِعُ السَّابِقُ (ص ٦٢).

(١٢) فَخْصُ الرُّنَيْسُولِ أَوْ أَرْنَسُولَ: بِالْإِسْبَانِيَّةِ Arnizol، وَيَقَعُ جَنُوبَ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ. وَقَدْ ذَكَرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ عِنْدَ حَدِيثِهِ عَنْ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ الْأَنْدَلُسِيِّينَ عَلَى يَدِ ابْنِ رَدْمِيرَ سَنَةَ ٥٢٠ هـ، بِاسْمِ: =

ولَمَّا جَنَّ الليل، أمر أميرهم^(١) برفع خبائه من وَهْدَة كان فيها إلى نَجْدَة، فساءت الظنون، واختلَّ الأمر، ففرَّ الناس وأسلمُوا، وتَهَيَّب العدو المَحَلَّة، فلم يدخلها إلَّا بعد هَذَاة من الليل واستولى عليها. وتحركَ بعد الغد منها إلى جهة الساحل فشَقَّ العِمَامَة الآمنة من الإقليم والشَّارَات^(٢)، فيقول بعضُ شيوخ تلك الجهة: إنه اجتاز بوادي شَلُوبَانِيَّة المَطْلُ الحافَات، والمُتَحَصَّن المجاز، وقال بلغته: أَيُّ قَبْرِ هذا لو أَلْقَيْنَا مَن يَصُبُّ علينا التراب! ثم عَرُجَ يَمَنَةً حتى انتهى إلى بَلَش، وأنشأ بها جَفَّتًا^(٣) صغيرًا يصيد له حوتًا، أكل منه كأنه تَذَرَّ كان عليه، وقى به، أو حديثًا أراد أن يُخَلِّد عنه. ثم عاد إلى غَرْنَاطَة، فاضطرب بها محلته بقرية دُكَّر، على ثلاثة فراسخ منها قِبَلَة، ثم انتقل بعد ذلك بيومين إلى قرية هَمْدَان^(٤)، وبرز بالكتب جاعِرِ سَطَة^(٥) من المدينة، وكان بينه وبين عساكر المسلمين مُوَاقَعَة عظيمة؛ ولأهل غرناطة بهذا الموضوع جَدَثَان ينظرونه من القضايا المستقبلية.

قال ابن الصَّيرَفِي: وقد دُكِّرَ في بعض كتب الجفر: «هذا الفحص، بخراب يُجْبَى عن يتامى وأيامى». وكان هذا اليوم مُعَرَّضًا لذلك، فوقى الله؛ وانتقل بعد يومين إلى المَرْج مُضَيِّقًا عليه والخيل تحرجه، فنزل بعين أطسة، والجيش مُحَدَقَةٌ به، وهو في نهاية من كمال التَّعَبِ، وأخذ الحذر، بحيث لا تُصَاب فيه فرصة؛ ثم تحرك على البَرَاجِلَات، إلى اللقوق، إلى وادي آش، وقد أصيب كثيرٌ من حاميته؛ وطوى المراحل إلى الشرق؛ فاجتاز إلى مُرْسِيَة، إلى جَوْف شاطِبة، والعساكر في كل ذلك تطأ أذياله، والتَّناوش^(٦) يَتَخَطَّرُ به، والوباء يسرع إليه، حتى لحق ببلاده، وهو ينظر إلى قفاه، مُحْتَرِمًا، مَقْلُولًا من غير حرب، يكاد الموت يستأصل مَحَلَّتَه وجُمْلَتَه.

ولَمَّا بان للمسلمين من مكيدة جيرانهم المُعَاهِدِينَ، ما أَجَلَّت عنه هذه القضية، أخذهم الإزجاف، ووَغَرَت لهم الصُّدُور. وَوَجَّهَ إلى مكانهم الحَزْمَ، وَوَجَّهَ القاضي

= أرنيسول وقال: إنه حصن منيع. الكامل في التاريخ (ج ١٠ ص ٦٣١).

(١) في البيان المغرب: «فلما طفلت الشمس أمر الأمير تميم برفع خبائه».

(٢) الشَّارَات أو البُشَرَات: بالإسبانية Alpujarras، وهي المنطقة الجبلية الواقعة جنوب سفوح جبل شلير. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٤٦).

(٣) الجَفَّن: المركب أو السفينة الحربية. ملحق القواميس العربية للدوزي (ج ١ ص ٢٠١).

(٤) هَمْدَان: بالإسبانية Alhendin، سُمِّيَتْ بذلك نسبة إلى قبيلة هَمْدَان لأنها نزلت بها. تاريخ المن بالإمامة (ص ١٩١)، ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٧١).

(٥) أغلب الظن أنه اسم أحد زعماء النصاري المُعَاهِدِينَ، وهو: Inigo Arista.

(٦) في البيان المغرب: «وتناوشه وتصيب منه».

أبو الوليد بن رُشد الأجر، وتَجَشَّم المجاز^(١)، ولحق بالأمير علي بن يوسف بن تاشفين بمراكش، فَبَيَّن له أمر الأندلس، وما مُنيت^(٢) به من مُعاهدتها، وما جَنَّوه عليها من استدعاء الرُّوم، وما في ذلك من نَقْض العَهْد، والخروج عن الذِّمة، وأفتى بتَغريبهم، وإجلالهم عن^(٣) أوطانهم وهو أخفُّ ما يؤخذ به من عقابهم؛ وأخذ بقوله، ونُقِذ بذلك عهده، وأزعج منهم إلى بَرِّ العُدوة، في رمضان من العام المذكور، عدَّة جَم، أنكرتهم الأهواء، وأكلتهم الطرق، وتفرَّقوا شَذَر مَذَر، وأصاب كثير من الجلاء جمعهم من اليهود؛ وتقاعدت بها منهم طائفة، هَبَّت لها بممالة بعض الدول ريح، فأثروا وأكثروا إلى عام تسعة وخمسين وخمسمائة، ووقعت فيهم وقعة احتشنتهم، إلَّا صابئة^(٤) لهذا العهد قليلة، قديمة المَدَّة، وحالفت الصُّغار. جعل الله العقابة لأوليائه.

ذكر ما يُنسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التي نزلتها العرب
بخارج غَرْناطة، وما يتصل بها من العمالة

فصل

فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجَنَّات والجهات

قال المؤلف رحمه الله: وَيَحِفُّ^(٥) بسور هذه المدينة المَعْصُومة بدفاع الله تعالى، البساتين العريضة المُسْتَخْلَصَة، والأدواح المُلتَقَّة، فيصير سورها من خَلْف ذلك كأنه من دُون سياج كثيفة، تلوح نجوم الشُّرفات^(٦) أثناء خُضرائه، ولذلك ما قلت فيه في بعض الأغراض^(٧): [الكامل]

بَلَدٌ تَحِفُّ^(٨) به الرِّياضُ كأنه وَجْهٌ جَمِيلٌ والرِّياضُ عِذارُهُ
وكأنما واديه مَغْصَمٌ غَادَةٌ وَمِنْ الجُسُورِ المُحْكَمَاتِ سِوَاؤُهُ

فليس تُغرى عن جَنَّباته من الكُرُوم والجَنَّات جهة، إلَّا ما لا عِبرة به مقدار غلوة، أما ما حازه السُّفل من جَوْفِيه، فهي عظيمة الخطر، متناهية القِيم، يضيق جَدُّه

(١) في البيان المغرب: «وتجشم النهوض إلى حضرة مراكش».

(٢) في البيان المغرب: «وما بليت به من معاهدتها وما جزؤ إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير...».

(٣) في البيان المغرب: «من».

(٤) صابئة: محدودة، قليلة.

(٥) قارن باللمحة البدرية (ص ٢٤).

(٦) في اللوحة: «الشرفات البيض أثناء...».

(٧) البیتان في نفع الطيب (ج ١ ص ٦٨) و(ج ٩ ص ٢٢١)، وأزهار الرياض (ج ١ ص ٣ - ٤).

(٨) في الأصل: «يحف»، والتصويب من نفع الطيب.

من عدا أهل المُلك، عن الوفاء بأثمانها، منها ما يُغْلُ في السنة الواحدة نحو الألف من الذهب، قد عُصَت الدكاكين بالحُضَر الناعمة، والفواكه الطيبة، والثمر المُدْخَر، يختص منها بمُسْتَخْلَص السلطان^(١)، المرور طَوْقًا على تَرَاثِب بلده ما بينهما منية؛ منها الجَنَّة^(٢) المعروفة بفَدَّان المَيْسَة، والجَنَّة المعروفة بفَدَّان عِصام، والجَنَّة المعروفة بالمعروفي، والجَنَّة المنسوبة إلى قَدَّاح بن سُخْنُون، والجَنَّة المنسوبة لابن المؤدَّن، والجَنَّة المنسوبة لابن كامل، وجَنَّة النَّخْلَة العليا، وجَنَّة النَّخْلَة السفلى، وجَنَّة ابن عُمران، والجَنَّة التي إلى نافع، والجُزْف الذي يُنسَب إلى مُقْبَل، وجَنَّة العَرَض، وجَنَّة الحفرة، وجَنَّة الجُزْف، ومَذْرَج نجد، ومَذْرَج السَّيْبِكة^(٣)، وجَنَّة العَرِيف^(٤)؛ كلها لا نظير لها في الحُسْن والدِّمَانَة^(٥) والربيع، وطيب التربة، وغرقد^(٦) السُّقْيَا، والتِّيفاف الأشجار، واستجادة الأجناس، إلى ما يجاورها ويتخلَّلها، ممَّا يختص بالأحباس الموقفة، والجَنَّات المُتَمَلِّكة، وما يتصل بها بوادي سَنَجِيل ما يقيد الطُّرْف، ويُعجز الوصف، قد مُثِلت منها على الأنهار المتدافعة العُباب، المنارة والقِيَاب، واختصت من أشجار العاريات ذات العصير الثاني بهذا الصُّقْع، ما قصرت عنه الأقطار. وهذا الوادي من محاسن هذه الحُضرة، ماؤه رِقراق من ذوب الثلج، ومُجَاوِة الجَلِيد، وممره على حصَى جوهريَّة، بالنبات والظلال محفوفة، يأتي من قِبْلَة علام البلد إلى غُزْبِه، فيمَر بين القصور النُجْدِيَّة، ذوات المناصب الرفيعة، والأعلام الماثلة.

ولأهل الحُضرة بهذه الجَنَّات كَلَفٌ، ولذوي البطالة فوق نهره أريك من دَمَتْ الرمل، وحجال من مُلْتَفِّ الدُّوْح، وكان بها سَطْرٌ من شجر الحُور؛ تُنسَب إلى مامل^(٧)، أحد خُدَّام الدولة الباديَّة، أدركنا المكان، يُعرف بها.

(١) المراد بمستخلص السلطان أملاكه الخاصة.

(٢) الجَنَّة بلغة أهل غرناطة تعني الحديقة أو البستان.

(٣) السَّيْبِكة: موضع خارج غرناطة، كان الشعراء يتغنون بها، من أمثال أبي جعفر الإلبيري الرعيني وابن زمرك وغيرهما. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٢٧). وقد ذكرها ابن صاحب الصلاة بدون ياء، عند حديثه عن غدر إبراهيم بن همشك مدينة غرناطة فقال: «واحتل ابن همشك يوم دخوله غرناطة بالقصبة الحمراء التي في جبل السَّيْبِكة الموازية لقصبة غرناطة». تاريخ المن بالإمامة (ص ١٨٤).

(٤) جَنَّة العَرِيف أو جنان العَرِيف: بستان في خارج غرناطة، يقع في أسفل الربوة التي ما يزال يقوم عليها قصر جَنَّة العَرِيف، إلى الشمال الشرقي من قصر الحمراء، وتسمى بالإسبانية Generalife.

(٥) الدِّمَانَة: الخصوية. لسان العرب (دمن).

(٦) العَرْقَد: شجر عظيم أو العُوسج إذا عظم، واحده عَرْقَدَة. محيط المحيط (غرقد).

(٧) مامل أو مؤمل، أحد خُدَّام ملك غرناطة باديس بن حبوس الذي حكم غرناطة من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٦٧ هـ. سُمِّي به شجر الحور، فصار اسمه حور مؤمل أو حوز مؤمل، وكان من =

قال أبو الحجاج يوسف بن سعيد بن حسان: [الطويل]

أحسُّ إلى غَرْناطة كلما هَفَّتْ نسيمُ الصَّبا تهدي الجَوَى وتُشوقُ
سقى الله من غَرْناطة كلَّ مَنْهَلٍ بمَنْهَلٍ سَحِبٍ ماؤُهُنَّ هَرِيقُ
ديارُ يدور الحسن بين خيامها وأرضُ لها قلبُ الشَّجِيِّ مَشُوقُ
أَغَرْناطة العليا بالله خَبْرِي أَلِلْهائم الباكي إليك طَرِيقُ؟
وما شاقني إلا نضارةُ منظر وبهجةُ وإِدِّ لِلْعُيُونِ تَرْوِقُ
تأمل إذا أَمَلْتَ حَوْزَ مُؤَمِّلٍ ومُدُّ من الحَمْرَا عليك شقيقُ
وأعلامُ نجدٍ والسَّيِّكة قد عَلَتْ ولِلشَّفَقِ الأعلى تلوحُ بُروقُ
وقد سَلَ شَتِيلٌ^(١) فِرْنَدًا مُهَنَّدًا نَضَى قَوْقَ دُرٍّ ذُرٍّ فيه عَقِيقُ
إذا نَمَّ منه طيبُ نشر أراكه أراكَ فتيتَ المِسْكِ وهو فَتِيقُ
ومهما بكى جَفْنُ الغمام تَبَسَّمَتْ ثغورُ أقاحٍ لِلرِّياضِ أنيقُ

ولقد ولعت الشعراء بوصف هذا الوادي، وتغالت الغالات فيه، في تفضيله على النيل بزيادة الشين^(٢)، وهو ألفٌ من العدد، فكانه نيلٌ بألفٍ ضِعْفٍ، على عادة متناهي الخيال الشعري؛ في مثل ذلك.

ولقد أَلْغَزْتُ فيه لشيخنا أبي الحسن بن الجيَّاب^(٣)، رحمه الله، وقد نظم في المعنى المذكور ما عَظُمَ له اسِطِّطْرَابُهُ وهو: [البسيط]

ما أَسَمَ إذا زِدْتَهُ أَلْفًا مِنَ العَدَدِ أَقَاذَ معناه لم يَنْقُصْ ولم يَزِدْ

« أجمل متزهات غرناطة وأظرفها. وسيذكره ابن الخطيب في هذا الجزء باسم «حوز مؤمل» وذلك في ترجمة حفصة بنت الحاج الركوني. راجع أيضًا المغرب (ج ٢ ص ١٠٣)، ونفع الطيب (ج ١ ص ٤٧٥) و(ج ٣ ص ٣١٥)، ومملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٣٥).
(١) شنيل: بالإسبانية Genil، وهو نهر غرناطة الكبير. المغرب (ج ٢ ص ١٠٣)، وتقويم البلدان (ص ١٧٧)، وكتاب الجبَر (م ٧ ص ٦٨٩)، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٨). وقد ذكره ابن صاحب الصلاة مكتفياً بالقول: «وادي شنيل على قرب من غرناطة». تأريخ المن بالإمامة (ص ١٩١). وفي كتاب مملكة غرناطة في عهد بني زيري للدكتورة مريم قاسم دراسة مستفيضة عن هذا النهر، فليراجع (ص ٤٧ - ٤٩).

(٢) ورد شيء من هذا في نفع الطيب (ج ١ ص ١٤٧).

(٣) ترجمة أبي الحسن علي بن الجيَّاب في الكتيبة الكامنة (ص ١٨٣)، ونشير فرائد الجمان (ص ٢٣٩)، ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ١٩٣)، والديباج المذهب (ص ٢٠٧)، ودرة الحجال في أسماء الرجال (ج ٢ ص ٤٣٥)، ونفع الطيب (ج ٧ ص ٤٠٧) و(ج ٨ ص ٣٩٧). وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

وإنما اختلفا مِنْ بَعْدِ مَا اخْتَلَفَا مَعْنَى بِشِيرٍ وَمِنْ نَزَرٍ وَمِنْ بَلَدٍ

ثم يتصل بالحسن العادي البديع، وهو على قسمين، خُفَسٌ من مُحْكَم الكدان في نهاية الإبداع والإحكام، يتصل به بناء قديم مُحْكَم، ويستقبل المَلْعَب، العِيْدِي، ما بين دُنَابِي الجسر إلى جدار الرابطة، وملعب بديع الشكل، عن يمينه جناحٌ بديع، عن ميدانه عُدوات النهر، وعن يساره الجَنَّات، ويُقْضَى بعد انتهائه إلى الرابطة، إلى باب القصر المنسوب إلى السُّيد^(١)، وسيأتي ذكره؛ ويرتفع من هذا النهر الزُّلال جداول، تدور بها أعداد من الأزْحَى لا نظير لها استعدادًا وإفادة.

فصل

وَتَرَكَبَ ما ارتفع من هذه المدينة من جهاتها الثلاث، الكُرُوم البديعة، طَوْقًا مَرْقُومًا، يتصل بما وراءها من الجبال، فتعمُّ الرُّبَى والوهاد، وتشملُ الغُورَ والتُّجْد، إلَّا ما اختَصَّ منها بالسَّهْل الأفيح، متَّصلاً بشرقي بابِ البيرة، إلى الخَنْدُق العميق، وهو المُسَمَّى «بالمشايع»، بسيط جليل، وجوٌّ عريض، تغمي على العَدَّ أمراجه ومصانيعه، تلوح مبانيها، ناجمةً بين الثَّمار والزيتون، وسائر ذوات الفواكه، من اللُّوز والإجاص والكمثرى، مُحْدَقة من الكروم المُسَيَّحة، والرياحين المُلتَفَّة، يبحور طامية تأتي البُقعة الماء؛ ففيها كثير من البساتين والرياض، والحصون، والأملك المُتَّصِلة السكنى، على القُصُول؛ وإلى هذه الجهة يشيرُ الفقيهُ القاضي، أبو القاسم بن أبي العافية، رحمه الله، في قصيدة، يُجيب بها عروس الشعراء، الأديب الرَّحَال أبا إسحق السَّاحلي، وكان مَعْنً نِيطُث عليه بهذا العهد، الثَّمانم: [الكامل]

يا نازحاً لِعَبِّ المَطْيِ بِكُورِهِ	لِعَبِّ الرِّياحِ الهُوجِ بالأَمْلُودِ
وَرَمَتْ به لَطِيَّةُ القُصُوى التي	ما وِرْدُها لسِواءِ بالمَوزُودِ
هَلَّا حَنَنْتُ إلى مَعاهدنا التي	كُنْتُ الحُلِيِّ لَنَحْرِها والأَجِيدِ؟
ورِياضُ أَثَسٍ بالمِشايعِ ^(٢) طارَحَتْ	فيه الحَمائِمُ صَوْتُ سَجْعِ العُودِ
ومَبِيتُنا فيها وصَفُوْا مُدايِنا	صَفُوْا المَودَّةَ لابْنَةِ العُتُقُودِ
والعِيشُ أخْضَرُ والهوى يُذْني جَنِي	زَهْرَاتِ ثُغْرِ أو تُسْمَارِ نُهُودِ

(١) هو أبو إسحق بن يوسف الموحدى، وَلِيَّ غرناطة سنة ٦١٥ هـ، وبني قصرًا خارج مدينة غرناطة عُرِفَ باسمه. وفي عصر بني نصر استعمل هذا القصر للضيافة. وما يزال حتى اليوم بعض منه وقد زُرَّته غير مرة، وهو عبارة عن بهو مربع ذي قبة عالية على جوانبها شعار بني نصر «ولا غالب إلا الله».

(٢) المراد بالمشايع سهل غرناطة، أو الخندق العميق، السابق الذكر.

وَالْقَضْبُ رَافِلَةٌ يُعَانِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا إِذَا اعْتَنَقَتْ غُضُونُ قُدُودٍ
لَهْفِي عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ وَطِيبِهِ وَعَلَى مُنَاهِ وَعَيْشِهِ الْمَخْسُودِ
تِلْكَ اللَّيَالِي لَا لِبَالِي بَعْدَهَا غُطْلُنْ إِلَّا مِنْ جَوَى وَسُهُودِ
كَانَتْ قِصَارًا ثُمَّ طَلُنْ فِيهَا^(١) تَأْتِي عَلَى الْمَقْصُورِ وَالْمَمْدُودِ

وأما ما استند إلى الجبل، فيتصل به البيازين في سفح الجبل، المتصل بالكُذْيَةِ ابن سغد، مُتَّصِلًا بِالْكُذْيَةِ الْمُتَبَصِّلَةِ، المنسوبة لَعَيْنِ الدَّمْعِ^(٢)، منعطفة على عَيْنِ الْقَبْلَةِ، متصلة بجبل الْفَخَّارِ^(٣)، ناهلة في غمر الماء المجلوب على ذلك السُّمْتُ؛ أَوْضَاعٌ بَدِيعَةٌ، وبساتين راتقة، وجنات لا نظير لها، في اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، والإشراف على الأرجاء، ففيها القصور المحروسة، والمنارة المعمورة، والدُّورُ العالية، والمباني القصبة^(٤)، والرياحين النضيرة، قد فض فيها أهل البطالة، من أولي الخبرة، الأكياس، وأزخضوا على النفقة عليها، غالي النَّسَبِ^(٥)، تتنازع في ذلك غيرُ الخادمين، من خُذَّامِ الدَّوْلَةِ على مرِّ الأيام، حتى أصبحت نادرة الأرض، والمثل في الحُسن. ولهذه البقعة ذُكْرٌ يجري في المنظومات على ألسنة البلغاء من ساكنيها وزوارها؛ فمن أحسن ما مرَّ من ذلك قول شيخنا أبي البركات^(٦): [الطويل]

أَلَا قُلْ لَعَيْنِ الدَّمْعِ يَهْمِي بِمَقْلَتِي لِفُرْقَةِ عَيْنِ الدَّمْعِ وَقَفًا عَلَى الدَّمِ
وَذَكَرْتُهُ فِي قَصِيدَةٍ فَقُلْتُ: [الكامل]
يَا عَهْدَ عَيْنِ الدَّمْعِ، كَمْ مِنْ لَوْلُو لِلدَّمْعِ جَادَ بِهِ عَسَاكَ تَعُودًا!
تَسْرِي نَوَاسِمُكَ اللَّدَانُ بَلِيلَةً فِيهِزْنِي شَوْقُ إِلَيْكَ شَدِيدُ

(١) في الأصل: «فيها» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) كان عين الدمع من عجيب مواضع غرناطة، وهو عبارة عن جبل فيه الرياض والبساتين، ويتصل بجبل الفخار. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٣٨) ففيه دراسة مفصلة عن هذا الموضع.

(٣) جبل الفخار من شُعَبِ جَبَلِ سَبِيرَا نَقَادَا المشرقة على مدينة غرناطة، ويسمى اليوم Monte Alfacar. راجع: مملكة غرناطة (ص ٤٧).

(٤) المراد بالمباني القصبة: المباني المحصنة التي تشبه القصبة.

(٥) النّسب: المال أو العقار. لسان العرب (نشب).

(٦) هو أبو البركات محمد بن محمد بن إبراهيم، المعروف بابن الحاج، البليقي الأصل، من شيوخ ابن الخطيب، وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

وقلت من أبيات تكتب في قبة بقصري الذي اخترعته بها: [الطويل]
 إذا كان عين الدمع عيناً حقيقة فلأنسائها ما نحن فيه ولادعُ
 فدام لخيّل الأتس واللّهُو مَلْعَبًا ولا زال مَثْوَاهُ الْمُتَعَمِّمَ مَزْنَعُ
 تودُّ الثُّرَيَّا أن تكون له ثرى وتمدحه الشُّغرى وتخرسه المَعُ
 وقال صاحبنا الفقيه أبو القاسم بن قُطبة^(١) من قصيدة: [الطويل]

أجل إن عين الدمع قيدُ التواظر فسرخ عيونًا في اجتلاء التواظر
 وعزج على الأوزان إن كنت ذا هوى فإن رياه مرتعٌ للجاذِر
 وصافح بها كفّ البهار مُسلِّمًا وقبل عذار الأتس بين الأزاهر
 وخذها على تلك الأباطح والرُّبى مُعْتَقَةً تجلّو الصّدا للخواطر
 مُدَامَةٌ حان أنسى للدهر^(٢) عُمرها فلم تخش أحداث الدهور الدوائر
 تحدّث عن كسرى وساسان قبله وتخبّر عن كرم يخلد دائر

وهي طويلة. وقال أيضًا من قصيدة طويلة: [الطويل]

وليلًا بعين الدمع وضلاً قطعته وأنجمه بين النجوم سُعودُ
 ترى الحُسن منشور اللواء بيسره وظلّ الأمانى في رياه مديدُ
 فبشنا ومن روض الخدود أزاهر لدنيا ومن وزد الرياض خدودُ
 وثُفّاحنا وسط الرياض مُورّد ورُمائنا وسط الصّدور نُهود
 وقد عرفت نصّ الهوى وذميلة تهائم من أكبادنا ونجودُ

وقال من قصيدة: [البسيط]

ومل بنا نحو عين الدمع نُشربها حيث السُرور بكأس الأتس يسقيني
 حيث المنى وفنون اللّهُو راتبة والطير من طرب فيها تُناجيني
 وجذول الماء يحكي في أجنته صوارما جردت في يوم صيفين
 وأغين الزهر في الأغصان جاحظة كأنها بهوى الغزلان تُغريني

(١) هو محمد بن أحمد بن قطبة الدؤسي الغرناطي، وسير ترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

(٢) في الأصل: «الدهر» وهكذا ينكسر الوزن.

ومن ذلك: [الطويل]

سهرت بعين الدمع أزعى ربوعه وحسبي من الأخباب رغي المنازل
يُنَافِحُنِي عَزْفٌ إِذَا هَبَّتِ الصُّبَا وَيَقْنِعُنِي طَيْفُ الْحَبِيبِ الْمُرَاسِلِ

والأقويل في ذلك أكثر من أن يُحاط بها كثرة، وما سوى هذه الجهة فقير لاحق بهذه الرتبة، مما مَعَوَّله على مَحْض الفائدة وصريح العائدة. وتذهب هذه الغُروس المغروسة قِبْلَةً، ثم يفيض تيارها إلى غرب المدينة، وقد تركت بها الجبال الشاهقة، والسُفوح العريضة، والبطون الممتدة، والأغوار الخائفة، مكَلَّلة بالأعنان، غاصّة بالأدواح، متزاحمة بالبيوت والأبراج، بلغ إلى هذا العهد عدّها في ديوان الخِزَص^(١)، إلى ما يناهز أربعة عشر ألفاً، نقلت ذلك من خَطٍّ مَنْ يُشار إليه في هذه الوظيفة؛ وقاها الله مَضَرَّة السنين، ودفع عنها عُباب القوم الظالمين، وعُدوان الكافرين.

فصل

ويحيط^(٢) بما خَلَف السُور من المُنَى، والجَنّات، في سهل المدينة، العقار الثمين، العظيم الفائدة، المتعاقبة العَلَّة، الذي لا يعرف الجُمام، ولا يفارق الزُّرع من الأرض البيضاء، ينتهي ثمن المَرْجِع منها العَلِي، إلى خمسة وعشرين ديناراً من الذهب العَيْن، لهذا العهد فيه مُسْتَخْلَصُ السلطان، ما يضيق عنه نِطاق القيمة، دُرْعاً وغيطة وانتظاماً؛ يرجع إلى دور ناجمة، وبُرُوج سامية، ويَنَادِر فسيحة، وقصاب^(٣) للحمام والدواجن ماثلة، منها في طُوق البلد، وحمى سُورها، جُمْلَةً؛ كالذار المنسوبة إلى هَذِيل، والدار المنسوبة إلى أم مرضى، والدار البيضاء، والدار المنسوبة إلى السُّنينات، والدار المعروفة بِبَيْلَة وَوَتَر؛ وبالمَرْج ما يُسَاطِر جَزِيَة النَّهْر كقرية وكروبيها حصن خريز، وبستان وبشر عُيون، والدار المنسوبة إلى خَلَف، وَعَيْنُ الأبراج، والحُش^(٤) المنسوب إلى الصُّحاب؛ وقرية رُومَة وبها حصن وبستان، والدار المنسوبة إلى العَطَشِي، وبها حصن؛ والدار المنسوبة لابن جُزِي، والحُش المنسوب لأبي علي؛ وقرية ناجرة، ومنها فضل بن مُسلمة الحَسَنِي، وبها حصن، وحوله

(١) الخِزَص: اسم من خَزَص؛ يقال: كم خِزَص أرضك: أي كم قَدَرها وما حُخِّن فيها. والمراد بديوان الخِزَص: ديوان الأملاك وغلاتها. لسان العرب (خرص).

(٢) قارن باللمحة البدوية (ص ٢٤ - ٢٥).

(٣) في الأصل: «ومصاب» والتصويب من اللمحة البدوية.

(٤) الحُش: البستان، محيط المحيط (حش).

رَبَض، فيه من الناس أُمّة؛ وقرية سِنَيَانَة وفيها حصن؛ وقرية أشْكَر؛ وقرية بِيَش وواط، وبهما حصنان؛ وقرية واط عبد الملك بن حبيب. وفي هذه القرى الجُمْلُ الضخمة من الرجال؛ والفُحول من الحيوان الحارث لآثار الأرض؛ وعلاج الفلاحة؛ وفي كثير منها الأزْحى والمساجد. وما سوى هذه من القرى، المُسْتَخْلَص من فَضْلة الإقطاع، وقَصُرَت به الشُّهرة عن هذا الثَّمَط، فكثيرٌ.

ويتخلَّل هذا المتاع الغبيط^(١) الذي هو بُباب الفلاحة، وغير هذه المَدَرَة^(٢) الطيِّبة؛ سائر القرى التي بأيدي الرّعيّة، مجاورة لهذه الحدود، وبنات لهذه الأمهات. منها ما انبسط وتمدّد، فاشترك فيه الألوف من الخلق، وتعدّدت منه الأشكال؛ ونحن نوقع الاسم منه على البُقعة من غير ملاحظة للتَّعدّد. ومنها ما انفرد بمالكٍ واثنين فصاعداً، وهو قليل؛ وتُنيف أسماؤها على ثلاثمائة قرية ما عدا ما يجاور الحضرة من كثير من قرى الإقليم أو ما استضافته حدودُ الحصون المجاورة^(٣). فمن ذلك:

خَوْز الساعدين^(٤) وفيه القرى. وخَوْز وَتَر^(٥)، ومنها إبراهيم بن زيد المحاربي. وقرية قُلْجَار^(٦). وقرية ياجُر الشاميين. وقرية ياجُر البلّديين^(٧). وقرية قُشْتَالَة^(٨)، ومنها قاسم بن إمام من أصحاب سُخُون، ونزل بها جدّه عطية بن خالد المحاربي. وقرية أَجْبَر^(٩). وقرية أزملة الكبرى. وقرية أزملة الصغرى^(١٠). وقرية رِقاق وَهْمْدَان^(١١)، منها الغريب بن يزيد الشَّمر، جدُّ بني أضْحى. وقرية الغَيْضُون. وقرية لُسَانَة^(١٢).

(١) الغبيط: الأرض المطمئنة أو الواسعة المستوية، وغبيط المَدَرَة: موضع. لسان العرب (غبط).

(٢) المَدَرَة: القرية، جمعها مَدَر. لسان العرب (مدر).

(٣) يورد ابن الخطيب أكثر من ١٤٠ قرية من قرى العاصمة غرناطة، بعضها بقي محافظاً على أسمائه العربية، وبعضها استحال إلى أسماء أوروبية، وقد استعنا في تحديد هذه القرى على ما جاء به الأستاذ محمد عبد الله عنان في الطبعة المصرية.

(٤) اسمه بالإسبانية El Zaidin، وهو مكان يقع إلى الجنوب من غرناطة.

(٥) اسمها بالإسبانية Huetor de la Vega، وهي قرية تقع جنوب شرقي غرناطة.

(٦) اسمها بالإسبانية Cojar، وتقع جنوب غرناطة على ضفة نهر شنيل.

(٧) بالإسبانية Yajar، وتقع بالقرب من الزاوية أحد متزهات غرناطة المشهورة.

(٨) بالإسبانية Castella، وليس لها ذكر اليوم.

(٩) أجبر أو أجيجر، وهي بالإسبانية Ugijar، وتقع جنوب شرقي غرناطة.

(١٠) بالإسبانية Armilla، وهما اليوم قرية واحدة تقع على ضفة نهر شنيل الجنوبية، وبها بقية قصر السيد، المعروف بقصر شنيل Alcazar Genil.

(١١) بالإسبانية Alhendin، وقد عدّها ابن الدلائي إقليمًا من أقاليم البيرة. وعدّها ابن سعيد قرية كبيرة في نطاق غرناطة. راجع مملكة غرناطة ص ٧١.

(١٢) لُسَانَة أو لُسَانَة: بالإسبانية Lucena، وهي مدينة اليهود، وكان أهلها أول من أطاعوا ليوسف بن=

وحارة الجامع. وحارة الفراق. وقرية غرليانة. وحش البكر^(١). وغدير الصغرى وغدير الكبرى، من إقليم البلاط، منها يزبوع بن عبد الجليل، ونزل بها جدّه يربوع بن عبد الملك بن حبيب. وقرية قولر^(٢). وقرية جُرليانة^(٣). وقرية حارة عمروس^(٤). وحش الطلم^(٥). وقرية المطار. وقرية الصرْمُورثة^(٦). وقرية بِلْسَانة^(٧). وقرية الحِبْشَان. وقرية الشوش^(٨). وقرية عَرْثَقَة. وقرية جيجانة^(٩). وقرية السَّيْجَة. وقُتْب قَيْس^(١٠). وقرية بِزْدَنَار^(١١). وقرية دوير تارش. وقرية آقْلة^(١٢). وقرية أحجر^(١٣). وقرية تَجْرَجْر^(١٤). وقرية والة. وقرية أنقر. وقرية الغُروم^(١٥). وقرية دار وهدان. وقرية بيرة^(١٦). وقرية القُصْبِيَّة. وقرية أنطس. وقرية فُتَيْيلان^(١٧). وقرية سنبودة. وحش زَنْجِيل. وقرية أشتَر. وقرية غَسَان^(١٨)، منها مطر بن عيسى بن الليث. وقرية شَوْدَر^(١٩). وقرية سُنْتَشَر^(٢٠). وقرية ابن ناطح. وقرية المَلَاحة^(٢١)، ومنها محمد بن عبد الواحد الغافقي أبو القاسم الملاحي. وقرية القُمُور، منها أَصْبَغ بن مطرّف. وقرية نفجر وغرْثِطْلة^(٢٢). وقرية بيرة، وبها مسجد قراءة ابن حبيب. وقرية قُولْجَر^(٢٣)، منها

- = تاشفين عندما أرسل لهم كتباً يدعوهم فيها لعدم المقاومة في أثناء حصاره لمملكة غرناطة في عهد عبد الله بن بلقين. مملكة غرناطة (ص ٦٣).
- (١) حش البكر: بالإسبانية Bucor، وقد ذكر الدكتور عبد الهادي التازي أن هذا المكان هو نفسه قرية بُزْقَر التي هي من نظر غرناطة على ضفة نهر، وتقع جنوب غربي غرناطة. تاريخ المن بالإمامة (ص ٣٠٩، حاشية رقم ٣).
- (٢) بالإسبانية Cullar Vega، وتقع جنوب غربي غرناطة.
- (٣) بالإسبانية Churiana de la Vega، وتقع جنوب غربي غرناطة.
- (٤) بالإسبانية Ambrox، وتقع بجوار جُرليانة.
- (٥) بالإسبانية Macharatalan، وتقع في مرج غرناطة على ضفة شنبيل.
- (٦) بالإسبانية Sierra Murada، وتقع شمال غربي غرناطة.
- (٧) بالإسبانية Belicena، وتقع غربي غرناطة. (٨) بالإسبانية El Jau، وتقع في مرج غرناطة.
- (٩) بالإسبانية Chauchina، وتقع في مرج غرناطة.
- (١٠) بالإسبانية Cambea.
- (١١) بالإسبانية Beznar، وتقع جنوبي غرناطة على بعد نحو خمسين كيلومتراً منها.
- (١٢) بالإسبانية Acula.
- (١٣) بالإسبانية Lachar، وتقع غربي غرناطة.
- (١٤) بالإسبانية Tajarija، وتقع غربي غرناطة قرب أحجر.
- (١٥) بالإسبانية Agron، وتقع جنوب غربي غرناطة على بعد نحو أربعين كيلومتراً منها.
- (١٦) بالإسبانية Baira.
- (١٧) بالإسبانية Fontanar أو Fuentallana.
- (١٨) بالإسبانية Cacin، وتقع في نهاية مرج غرناطة.
- (١٩) بالإسبانية Jodar، وتقع شمال غرناطة. (٢٠) بالإسبانية Conchar، وتقع جنوب غرناطة.
- (٢١) بالإسبانية La Mala، وتقع جنوب غرناطة على مقربة من همدان.
- (٢٢) بالإسبانية Naujar Grandilla.
- (٢٣) بالإسبانية Gojar، ويقع جنوبي غرناطة.

سهل بن مالك. وقرية شون^(١)، منها محمد بن هانيء الأزدي الشاعر المفلح،
ومحمد بن سهل، جدُّ هذا البيت، بني سهل بن مالك. وقرية بُلَيَّانة^(٢). وقرية
برقلش^(٣). وقرية ضُوجر. وقرية البَلُوط^(٤). وقرية أَيْتِيَّانة^(٥). وقرية مُزْسَانَة^(٦).
وقرية الدُّوِير. وقرية الشَّلَان. وقرية طَغْنَر^(٧)، منها الطَّغْنَرِي صاحب الفلاحة. و
قرية حُش الدجاج. وقرية حُش نوح. وقرية حُش خليفة. وحُش الكُوبَانِي^(٨).
وحُش المعيشة. وحُش السلسلة. وقرية الطَّرْف^(٩). وقرية إلبيرة^(١٠). وقرية
الشُّكْرُوجَة^(١١)، ومنها عيسى بن محمد بن أبي زَمْنين. وعين الحُوزَة. وحُش
البُومل. وقرية بلوما^(١٢). وقرية رُق المَخِيض. وقرية الغَيْضُون الحُوزَة. وقرية
أشْقَطْمَر. وقرية الدِّيمُوس الكبرى. وقرية الدِّيمُوس الصغرى^(١٣). وقرية دار
الغازي. وقرية سُويْدَة. وحُش قَصِيرَة. وقرية الرُّكْن. وقرية أَلْقَنْت^(١٤)، ومنها
صَخْر بن أبان. وقرية الكُذِيَة^(١٥). وقرية لَاقِش^(١٦). وقرية قَرْبَسَانَة^(١٧). وقرية
بُرْسَانَة برياط. وقرية الوَلْجَة. وقرية ماس. وحُش علي. وحُش بني الرُّسْلِيَة.
وحُش رقيب. وحُش البَلُوطَة. وحُش الرُّؤَاس. وحُش مَرْزُوق. وقرية قَبَالَة^(١٨).
وقرية نَبَالَة. وقرية الغَيْرَان. وبُزْج هِلَال^(١٩). وقرية قَلْتِيش^(٢٠). وقرية

(١) في الأصل: «شور» وشون، بالإسبانية Jun، وتقع شمال غرناطة.

(٢) بالإسبانية Pulianas، وتقع بجوار قرية شور.

(٣) بالإسبانية Peligros. وتقع بجوار قرية بليانة على مقربة من غرناطة.

(٤) بالإسبانية Albolote، وتقع قبالة بليانة. (٥) بالإسبانية Fontanar.

(٦) بالإسبانية Maracena، وتقع شمال غربي غرناطة.

(٧) بالإسبانية Tignar، وكانت تقع شمال غربي غرناطة على مقربة من إلبيرة.

(٨) بالإسبانية Atarfe، وتقع شمال غربي غرناطة.

(٩) بالإسبانية Elvira، وتقع على مقربة من الطرف.

(١٠) بالإسبانية Asquerosa.

(١١) بالإسبانية El Palomar، وتقع جنوبي غرناطة بقرب شاطئ البحر المتوسط.

(١٢) بالإسبانية Adamuz، وهما اليوم بلدة واحدة تقع على مقربة من مدينة غرناطة.

(١٣) بالإسبانية Daifontes، وتقع شمالي غرناطة على نحو عشرين كيلومتر منها.

(١٤) بالإسبانية Alcudia، وتقع جنوب شرقي وادي آش.

(١٥) بالإسبانية La Cruz de Lagos، وهي اليوم حيٌّ من ضواحي غرناطة، يبعد عنها نحو كيلومتر


ونصف.

(١٦) بالإسبانية Caparacena، وتقع غربي غرناطة على نهر شنيل.

(١٧) بالإسبانية Cubillas.

(١٨) بالإسبانية Purchil، وتقع غربي غرناطة على بُعد نحو ثلاثة كيلومترات منها.

(١٩) بالإسبانية Cortes، وتقع غربي مدينة وادي آش.

القنار^(١). وقرية أزيل. وقرية بَزْبِل. وقرية قَرْيَاسَة. وقرية أشكن. وقرية قَلَنْبِيرَة^(٢)
 وقرية سَعْدَى. وقرية قَلْقَاجِج^(٣). وقرية فَتَن^(٤). وقرية مَرْنِيط. وقرية دَدَشْطَر. وقرية
 شِيمَانِس^(٥). وقرية أرنالش^(٦). وقرية وابشر^(٧). وقرية قَقْلُولِش^(٨). وقرية القَبِيل^(٩)
 وقرية الفَخَّار^(١٠). وقرية القصر^(١١)، ومنها محمد بن أحمد بن مرعيّاز الهلالي. وقرية
 بشر. وقرية بَنُوط^(١٢). وقرية كورة. وقرية لَص. وقرية يَش^(١٣). وقرية قَنْتَر^(١٤)
 وقرية دور. وقرية قَلَنْقَر. وقرية عُلْجَر^(١٥)، ومنها هشام بن عبد العظيم بن يزيد
 الحَوْلَانِي. وقرية دُرْدَر^(١٦). وقرية ولجر. وقرية قنالش^(١٧). وقرية إبتائيلس. وقرية
 سَج. وقرية منشثال^(١٨). وقرية الوَطَا^(١٩). وقرية وَايِي. وقرية قُرَيْش. وقرية
 الزَّاوية^(٢٠) 

وقد ذكرنا أن أكثر هذه القرى أمصار، فيها ما يناهز خمسين خُطبة، تُنصَّب فيها
 لله المنائر، وتُرفَع الأيدي، وتتوجّه الوجوه.

وجملة المراجع العلمية المرتفعة فيها، في الأزمنة، في العام بتقريب،
 ومعظمها السقي القَبِيط السمين، العالي، مايتا ألف وثنان^(٢١) وستون ألفًا، وينضاف
 إلى ذلك مراجع الأملاك السلطانية، ومواضع أحباس المساجد، وسُبُل الخير، ما

-
- (١) بالإسبانية Canar، وتقع جنوبي مدينة غرناطة.
 - (٢) بالإسبانية Colomera، وتقع إلى الشمال من غرناطة على بُعد نحو ثلاثين كيلو مترًا منها.
 - (٣) بالإسبانية Calicasas، وتقع شمال غرناطة. (٤) بالإسبانية Fatinafar.
 - (٥) بالإسبانية Sietemanos، وتعني الأيدي السبعة.
 - (٦) بالإسبانية Arnales.
 - (٧) بالإسبانية Guejar، وتقع شمال شرقي غرناطة.
 - (٨) بالإسبانية Gogollos، وتقع شمال غرناطة.
 - (٩) بالإسبانية Nivar، وتقع شمال غربي غرناطة.
 - (١٠) بالإسبانية Alfacar، وتقع شمال شرقي غرناطة. راجع: مملكة غرناطة (ص ٢٩٥).
 - (١١) بالإسبانية Alcazar، وتقع في الجنوب الشرقي من غرناطة.
 - (١٢) بالإسبانية Pinos Puente، وتقع غربي غرناطة.
 - (١٣) بالإسبانية Beas، وتقع في شمال شرقي غرناطة.
 - (١٤) بالإسبانية Quentar.
 - (١٥) بالإسبانية Cojar. وهي من ضواحي غرناطة الجنوبية.
 - (١٦) بالإسبانية Dudar، وتقع شرقي غرناطة.
 - (١٧) بالإسبانية Caniles، وتقع جنوبي مدينة بسطة.
 - (١٨) بالإسبانية Monachil. وهي من ضواحي غرناطة وتقع في جنوبها الشرقي.
 - (١٩) بالإسبانية Huotor Vega، وهي ضاحية غرناطة. وتقع في جنوبها الشرقي.
 - (٢٠) بالإسبانية La Zubia.
 - (٢١) في الأصل: «ثنتان» بدون واو.

ينيف على ما ذكر، فيكون الجميع باحتياط، خمسمائة ألف وستون ألفاً، والمستفاد فيها من الطعام المختلف الحبوب للجانب السلطاني، ثلاثمائة ألف قدح ويزيد، ويشتمل سورها وما وراءه من الأرحاء الطاحنة بالماء، على ما ينيف على مائة وثلاثين رَحَى^(١)، أَلَحَفَهَا الله جَنَاح الأمانة، ولا قَطَعَ عنها مَادَّة الرحمة، بفضله وكرمه.

فصل

وقد فرغنا من ذكر رسوم هذا القطر ومعاهده، وفرغنا من تصويره وتشكيله، وذكر قراء وجناته^(٢)، وقصوره ومنتزهاته، فنحن الآن نذكر بعضاً من سِيرِ أهله، وأخلاقهم، وغير ذلك من أحوالهم بإجمال واختصار، فنقول^(٣):

أحوال هذا القطر في الدين وصلاح العقائد أحوال سَيِّئَة، والنُّحْلُ فيهم معروفة^(٤)؛ فمذاهبهم^(٥) على مذهب مالك بن أنس، إمام دار الهجرة جارية، وطاعتهم للأمراء مُحْكَمَة، وأخلاقهم في احتمال المعاون الجَبَائِثَة جميلة. وصورهم حسنة، وأنوفهم^(٦) معتدلة غير حاذة، وشعورهم سودّ مُرْسَلَة، وقُدودهم متوسطة معتدلة، إلى القِصَر، والوانهم زُهر مُشْرِبة بِخُمْرَة، والسننهم فصيحة عربية، يَتَخَلَّلُهَا عَرَبٌ^(٧) كثير، وتغلب عليهم^(٨) الإمالة، وأخلاقهم أَيْبَة في معاني المُنَازَعَات، وأنسابهم عربيّة، وفيهم من البزْبَر والمُهَاجِرَة كثير. ولباسهم الغالب على طُرْقَانِهِمْ^(٩)، الفاشي بينهم، المِلَفُ المَضْبُوعُ^(١٠) شتاءً، وتتفاضل^(١١) أجناس البزْ^(١٢) بتفاضل الجِدَّة، والمقدار، والكثان والحريز، والقطن، والمِرْعَزَى، والأزديّة الإفريقيّة، والمقاطع التونسية، والمآزر المَشْفُوعَة صَيِّفًا، فتُبَصِّرُهُمْ في المساجد، أيام الجُمُع، كأنهم الأزهار المُفْتَحَة، في البِطَاح الكريمة، تحت الأهوية المعتدلة.

(١) كذا في اللوحة البدرية (ص ٢٥). (٢) في الأصل: «وأجناته».

(٣) النص في اللوحة البدرية (ص ٣٨ - ٣٩). (٤) في اللوحة: «معدومة».

(٥) في اللوحة: «ومذاهبهم».

(٦) في اللوحة: «معتدلة أنوفهم، بيض ألوانهم، مسودة غالبهم شعورهم، متوسطة قدودهم».

(٧) في اللوحة: «عَرَفَ». (٨) في اللوحة: «عليها».

(٩) في اللوحة: «طبقاتهم». (١٠) في اللوحة: «المصبغ».

(١١) في اللوحة: «تفاضل».

(١٢) في اللوحة: «البزْبَر منه بتفاضل الجِدَات والمقادير».

وأنسابهم حسبما يظهر من الإسترعات^(١)، والبيعات السلطانية والإجازات، عربية: يكثر فيها القرشي، والفهرى، والأموي، والأمي، والأنصاري، والأزسي، والخزرجي، والقحطاني، والجميري، والمخزومي، والثوخي، والعسائي، والأزدي، والقيسي، والمعاصري، والكناني، والتميمي، والهذلي، والبكري، والكلابي، والتمري، واليعمري، والمازني، والثقفى، والسلمي، والفزاري، والباهلي، والعنسي، والعنسي، والعذري، والحججي، والضبي، والسكوني، والتيمي، والعنشمي، والمري، والعقيلي، والفهمي، والصريحي، والجزلي، والقشيري، والكلبي، والقضاعي، والأصبحي، والهورى، والرعي، واليخصبي، والتجيبى، والضدفي، والخضرمي، والحي، والجذامي، والسلولي، والحكمي، والهمداني، والمذججي، والخشنى، والبلوي، والجهنى، والمزنى، والطائي، والغافقي، والأسدي، والأشجعي، والعاملي، والخولاني، والأيادي، والليثي، والخفعمي، والسكسكي، والزبيدي، والثغلي، والثغلي، والكلاعي، والدوسي، والحواري، والسلماني.

هذا، ويرد كثير في شهادتهم، ويقل من ذلك السلماني نسباً، وكالدوسي، والحواري، والزبيدي، ويكثر فيهم، كالأنصاري، والخميدي، والجذامي، والقيسي، والعسائي، وكفى بهذا شاهداً على الأصالة، ودليلاً على العروبة.

وجندهم^(٢) صنفان؛ أندلسي وبزري؛ والأندلسي^(٣) منها يقودهم رئيس من القرابة أو حصي^(٤) من شيوخ الممالك. وزئهم في القديم شبه^(٥) زئ أقتالهم وأضدادهم من جيرانهم الفيرنج، إسباغ الدروع، وتعليق الثرسة، وحفا^(٦) البيضات، واتخاذ عراض الأسنة، وبشاعة قرايس السروج، واستركاب حملة الرايات خلفه^(٧)؛ كل منهم بصفة^(٨) تختص بسلاحه، وشهرة يُعرف بها. ثم عدلوا الآن عن هذا الذي

(١) علّق عليها الأستاذ محمد عبد الله عنان في الإحاطة، الطبعة المصرية (ج ١ ص ١٣٥) فقال: «لعلها «الإشراعات»، ومفردها إشراع، أو الاشتراعات بمعنى مرسوم أو ظهير. أو لعلها إن كانت صحيحة، تعبير أندلسي قديم عن الإشراعات».

(٢) النص في اللوحة البدوية (ص ٣٩ - ٤٠). (٣) في اللوحة: «الأندلسي منه يقوده».

(٤) في اللوحة: «أو أحظباء الدولة» والجصّي: الرجل الوافر العقل. محيط المحيط (حصي).

(٥) في اللوحة: «شبه بزئ جيرانهم وأمثالهم من الروم في إسباغ». والمراد بالأقتال: الذين يقاتلونهم.

(٦) في اللوحة: «وجفاء». (٧) في اللوحة: «خلفهم».

(٨) في اللوحة: «بسمه تختص سلاحه».

ذكرنا^(١)، إلى الجواشن المُختصرة، والبيضات المرهفات^(٢)، والشُروج العربية، والبيت^(٣) اللَّمَيطِيَّة، والأسل العَطْفِيَّة^(٤).

والبَزْبَرِي منه، يرجع^(٥) إلى قبائله المَرِينِيَّة، والزُّنَاتِيَّة، والتَّجَانِيَّة، والمُغْرَاوِيَّة^(٦) والمَعْجِسِيَّة، والعربُ المَغْرِبِيَّة إلى أقطاب ورؤوس، يرجع أمرهم إلى رئيس، على رؤسائهم، وقطب لعرفائهم، من كبار القبائل المَرِينِيَّة، يُمْتُ إلى ملك المغرب بنسب.

والعمائم تقلُّ في زِي أهل هذه الحَضْرَة، إلّا ما شاد^(٧) في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم، والجُند العربي^(٨) منهم. وسلاح جُهورهم العِصِي الطويلة، المثناة بعصِي صغار ذوات^(٩) عُرَى في أواسطها^(١٠)، تُدفع بالأنامل عند قذفها تسمى «بالأنداس»؛ وقسي الإفرنجية^(١١) يُحْمَلون على التَّدْرِب^(١٢) بها على الأيام. ومبانيهم متوسطة، وأعيادهم حسنة، مائلة إلى الاقتصاد؛ والغنى^(١٣) بمدنيتهم فاش، حتى^(١٤) في الدكاكين التي تجمع صنائعها كثيرًا من الأحداث، كالخفافين^(١٥) ومثلهم.

وقوتهم الغالب، البُرُّ الطَّيِّب، عامة العام^(١٦)، وربما اقتات في فصل الشتاء الضَّعْفَة والبوادي^(١٧) والفَعْلَة في الفلاحة، الذُّرَّة العربية، أمثل أصناف القَطَّاني^(١٨) الطيبة. وفواكههم اليابسة عامة العام، متعددة؛ يذخرون العِنَب سليماً من الفساد إلى شطر^(١٩) العام؛ إلى غير ذلك^(٢٠) من الثَّين، والزَّبيب، والتفاح، والرَّمَّان، والقُسْطَل^(٢١)،

(١) في اللحمية: «عن هذا الزِّي».

(٢) في اللحمية: «واللب».

(٣) في اللحمية: «ترجع قبائله المَرِينِيَّة».

(٤) في اللحمية: «شُد».

(٥) في اللحمية: «ذات».

(٦) في اللحمية: «الفرنجية».

(٧) في اللحمية: «والغناء».

(٨) في اللحمية: «حتى بالدكاكين التي تجمع كثيرًا من الأحداث».

(٩) الخفافون: جمع خُفَّاف وهو بائع الأخفاف. والأخفاف جمع خُفَّ وهو ما يُلبَس في الرُّجُل. محيط المحيط (خفف).

(١٠) كلمة «العام» ساقطة في اللحمية.

(١١) القَطَّاني: جمع قَطْنِيَّة وهي ما يذخر في البيت من الحبوب.

(١٢) في اللحمية: «إلى ثلثي العام».

(١٣) في اللحمية: «إلى غيره».

(١٤) القُسْطَل: هو ما يُقال له بالأندلس: الكستنا. الحلل السندسية (ج ١ ص ٢٩٠).

والبُلُوط، والجُوز، واللوز، إلى غير ذلك مما لا ينفد^(١)، ولا ينقطع مدده إلا في الفصل الذي يزهد في استعماله.

وصرفهم فضة خالصة، وذهب إبريز طيب محفوظ^(٢)، ووزنهم مريع الشكل، من وزن المهدي القائم بدولة الموحدين، في الأوقية منه سبعون درهماً، يختلف الكتب فيه. فعلى عهدنا، في شق: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»؛ وفي شق آخر: «لا غالب إلا الله، غزناطة». ونصفه وهو القيراط، في شق: «الحمد لله رب العالمين»^(٣). وفي شق: «وما النصر إلا من عند الله»^(٤). ونصفه وهو الربع، في شق: «هذى الله هو الهدى»^(٥). وفي شق: «والعقبة للنقوى»^(٦).

ودينارهم في الأوقية منه، ستة دنانير وثلاث دینار؛ وفي الدينار الواحد ثمن أوقية وخمس ثمن أوقية. وفي شق منه: «قل اللهم مالك الملك... بيده الغيث»^(٧). ويستدير به قوله تعالى: «والله أكبر لله وحده لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»^(٨). وفي شق: «الأمير عبد الله محمد بن يوسف بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن نصر، أيد الله أمره». ويستدير به شعار هؤلاء الأمراء: «لا غالب إلا الله». ولتاريخ تمام هذا الكتاب، في وجه: «يأتيناك الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون»^(٩). ويستدير به: «لا غالب إلا الله». وفي وجه: «الأمير عبد الله الغني بالله، محمد بن يوسف بن إسماعيل بن نصر، أيد الله وأمانه». ويستدير برُبع: «بمدينة غزناطة حرسها الله».

وعادة^(١١) أهل هذه المدينة الانتقال إلى جلال^(١٢) العَصِير أوان إدراكه، بما تشتمل عليه دُورهم، والبروز إلى الفحوص^(١٣)

(١) في اللوحة: «مما لا ينقطع مدده إلا بفصل يزهد...».

(٢) هنا ينتهي النص في اللوحة البدرية. (٣) سورة الفاتحة ١، الآية ٢.

(٤) سورة آل عمران، ٣ الآية ١٢٢.

(٥) سورة البقرة ٢، الآية ١٢٠.

(٦) سورة طه ٢٠، الآية ١٣٢.

(٧) سورة البقرة ٢، الآية ١٦٣.

(٨) قوله: «محمد بن» ساقط في الأصل، وقد أضفناه ليستقيم المعنى كما سيُرد بعد أسطر.

(٩) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٠٠. (١١) النص في اللوحة البدرية (ص ٤٠ - ٤١).

(١٢) في اللوحة: «جلال». والجلال: جمع جلة وهي المحلة.

(١٣) الفحوص: جمع فحص، وقد عرّفه ياقوت بقوله: الفحص بمفهوم أهل الأندلس هو كل موضع يُسكن ويُزوع، سواء كان سهلاً أو جبلاً، ومع الزمن صار الفحص علماً لعدة مواضع. معجم=

بأولادهم^(١)، مُعَوِّلِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى شَهَامَتِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ، وَعَلَى كَتَبِ دَوْرِهِمْ^(٢)،
وَاتِّصَالَ أَمْصَارِهِمْ بِخُدُودِ أَرْضِهِ. وَخَلَّيَهُمْ فِي الْقَلَائِدِ، وَالْدِّمَالِجِ، وَالشُّنُوفِ^(٣)،
وَالْخِلَاحِلِ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، إِلَى هَذَا الْعَهْدِ، فِي أُولَى^(٤) الْجِدَّةِ؛ وَاللَّجَيْنِ فِي كَثِيرٍ
مِنْ آلَاتِ الرُّجَلِينَ، فِيمَنْ عِدَاهُمْ. وَالْأَحْجَارُ النَّفِيسَةُ مِنَ الْيَاقُوتِ، وَالزُّبُرْجَدِ وَالزُّمَرْدِ
وَنَفِيسِ الْجَوْهَرِ، كَثِيرٌ مِمَّنْ^(٥) تَرْتَفِعُ طَبَقَاتُهُمُ الْمُسْتَنْدَةُ إِلَى ظِلِّ دَوْلَةٍ، أَوْ أَصَالَةٍ^(٦)
مَعْرُوفَةٍ مُوقَرَةٍ.

وَحَرِيمُهُمْ، حَرِيمٌ جَمِيلٌ، مَوْصُوفٌ بِالسَّحَرِ^(٧)، وَتَنْعَمُ الْجُسُومُ، وَاسْتِرْسَالُ
الشُّعُورِ، وَنَقَاءُ الثُّغُورِ، وَطِيبُ الثُّشُرِ^(٨)، وَخَفَّةُ الْحَرَكَاتِ، وَتُبْلُ الْكَلَامِ، وَحُسْنُ
الْمَحَاوِرَةِ، إِلَّا أَنَّ الطُّولَ يَنْتَدِرُ فِيهِنَّ. وَقَدْ بَلَغْنَ مِنَ التَّفَنُّنِ فِي الزَّيْنَةِ لِهَذَا الْعَهْدِ،
وَالْمُظَاهَرَةِ بَيْنَ الْمُضْبِغَاتِ، وَالتَّنْفِيسِ^(٩) بِالذَّهَبِيَّاتِ وَالذِّيَابِجِيَّاتِ، وَالتَّمَاجُنِ فِي أَشْكَالِ
الْحَلِيِّ، إِلَى غَايَةِ نَسَالِ اللَّهِ أَنْ يُغَضَّ عَنْهُمْ فِيهَا، عَيْنُ الدَّهْرِ، وَيُكَفِّفَ الْخَطْبُ، وَلَا
يَجْعَلُهَا مِنْ قَبِيلِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْفَتْنَةِ، وَأَنْ يَعَامَلَ جَمِيعٌ مِّنْ بِهَا بِسْتَرِهِ، وَلَا يَسْلُبُهُمْ خَفِيِّ
لُطْفِهِ؛ بَعْرَتُهُ وَقُدْرَتُهُ.

فصل

فيمن تداول هذه المدينة

من لدن أَضْبَحَتْ دَارَ إِمَارَةِ بَاخْتَصَارِ وَأَقْتِصَارِ

قَالَ الْمُؤَلِّفُ^(١٠): أَوَّلُ مَنْ سَكَنَ هَذِهِ الْمَدِينَةَ سُكْنَى اسْتِبْدَادِ، وَصَيَّرَهَا دَارَ مُلْكِهِ
وَمَقَرَّ أَمْرِهِ، الْحَاجِبُ الْمَنْصُورُ أَبُو مُثْنَى زَاوِي بْنِ زِيرِي^(١١) بَنَ مَنَادَ، لَمَّا تَغَلَّبَ جَيْشُ
الْبَرَبْرِ مَعَ أَمِيرِهِمْ سَلِيمَانَ بْنِ الْحَكَمِ عَلَى قَرْطَبَةِ، وَاسْتَوْلَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْ كُورِ الْأَنْدَلُسِ
عَامَ ثَلَاثَةِ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَمَا بَعْدَهَا، وَظَهَرَ عَلَى طَوَائِفِ الْأَنْدَلُسِ، وَاشْتَهَرَ أَمْرُهُ، وَبَعُدَ
صَيِّتُهُ. ثُمَّ اجْتَازَ الْبَحْرَ إِلَى بِلَدِ قَوْمِهِ بِإِفْرِيقِيَّةِ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَ غَرْنَاطَةَ سَبْعِ سَنِينَ،
وَاسْتَخْلَفَ ابْنَ أَخِيهِ حُبُوسَ بْنَ مَاحَسَنَ، وَكَانَ حَازِمًا دَاهِيَةً، فَتَوَسَّعَ النَّظَرُ إِلَى أَنْ مَاتَ

= البلدان (ج ٥ ص ٢٣٦). وانظر أيضًا دراسة مستفيضة عنه في كتاب: مملكة غرناطة في عهد
بني زيري البربر (ص ٤١).

(١) في اللوحة: «بأولادهم وعبالهم». (٢) في اللوحة: «على كتب عدوهم». (٣) في اللوحة: «والخلاخيل والشنوف». (٤) في اللوحة: «ألي». (٥) في اللوحة: «فيمن ترتفع من طبقاتهم». (٦) في اللوحة: «أر أعرق أصالة موفورة». (٧) في اللوحة: «باعتدال السمن». (٨) في اللوحة: «الشذا». (٩) في اللوحة: «والتنافس في الذهبيات». (١٠) قارن باللمحة البدرية (ص ٣١). (١١) ستاني ترجمة زاوي بن زيري في هذا الجزء.

سنة تسع وعشرين وأربعمائة^(١). وولِّي بعده حفيده عبد الله بن بُلْكَيْن بن باديس، إلى أن خُلع عام ثلاثة وثمانين وأربعمائة، وتصيّر أمرها إلى أبي يعقوب يوسف بن تاشفين ملك لِمُتُونَة عند تَمْلُكِهِ الأندلس، ثم إلى ولده علي بن يوسف. وتَنَوَّب إمارتها جملة من أبناء الأمراء اللِمُتُونِيِّين وقَرَابَتِهِمْ كالأمير أبي الحسن علي بن الحاج وأخيه موسى، والأمير أبي زكريا يحيى بن أبي بكر بن إبراهيم، والأمير أبي الطاهر تميم، والأمير أبي محمد مَزْدَلِي، والأمير أبي بكر بن أبي محمد، وأبي طَلْحَة الزُّبَيْر بن عُمَر، وعثمان بن بدر اللِمُتُونِي، إلى أن انقرض أمرهم عام أربعين وخمسمائة.

وتصيّر الأمرُ لِلْمُوَحِّدِينَ، وإلى ملكهم أبي محمد عبد المؤمن بن علي^(٢)، فتناوبها جملة من بينه وقَرَابَتِهِ، كالسيد أبي عثمان ابن الخليفة؛ والسيد أبي إسحق ابن الخليفة؛ والسيد أبي إبراهيم ابن الخليفة؛ والسيد أبي محمد ابن الخليفة؛ والسيد أبي عبد الله، إلى أن انقَرَضَ منها أمر المُوَحِّدِينَ.

وَتَمَلَّكَهَا المَتَوَكِّل على الله أمير المؤمنين أبو عبد الله محمد يوسف بن هُوْد^(٣) في عام ستة وعشرين وستمائة، ثم لم يَنْشِبْ أن تَمَلَّكَهَا أمير المسلمين الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر الخَزَرَجِي، جَدُّ هَؤُلَاءِ الأمراء الكرام موالينا، رحم الله مَنْ دَرَجَ منهم، وأعان مَنْ خَلَفِهِ، إلى أن توفي عام أحدٍ وسبعين وستمائة. ثم وَلِّي الأمر بعده ولده وَسَمِيَهُ محمد بن محمد، فقام بها أحمد قيام، وتوفي عام أحد وسبعمائة. ثم وَلِّي بعده سَمِيَهُ محمد إلى أن خُلِعَ يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، وتوفي عام أحد عشر وسبعمائة في ثالث شَوال منه. ثم وَلِّي بعده أخوه نَصْرُ بن مولانا أمير المسلمين أبي عبد الله، فارتَبَ أمره، وطلب المُلْكُ اللَّاحِقُ به مولانا أمير المسلمين أبو الوليد إسماعيل بن فرج، فَعَلَّبَ على الإمارة، ثاني عشر ذي القعدة من عام ثلاثة عشر وسبعمائة؛ وانتقل نصر إلى وادي آش مَخْلُوعًا، مُوَادِعًا بها إلى أن مات عام اثنين وعشرين وسبعمائة. وتمادى مُلْكُ السلطان أمير المسلمين أبي الوليد إلى السادس والعشرين من رجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وَوُتِبَ عليه بعض قَرَابَتِهِ فقتله،

(١) كذا في اللوحة البدرية (ص ٣١) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩). وفي ترجمة جوس بن ماكسن في هذا الجزء: «توفي بفرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة».

(٢) حكم عبد المؤمن بن علي الموحد في المغرب سنة ٥٢٤ هـ. وفي سنة ٥٤١ هـ ضمَّ الأندلس إلى المغرب. وتوفي سنة ٥٥٨ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٧٩) والمعجب (ص ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٩٢)، والحلل الموشية (ص ١٠٧).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود، مات قتلاً سنة ٦٣٥ هـ. وسوف يترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

وَعُوجِلَ بِالْقَتْلِ مَعَ مَنْ حَضَرَ مِنْهُمْ. وَتَوَلَّى الْمُلْكَ بَعْدَهُ وَلَدُهُ مُحَمَّدٌ، وَاسْتَمَرَّ سُلْطَانَهُ إِلَى ذِي الْحِجَّةِ مِنْ عَامٍ أَرْبَعَةٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَقُتِلَ بِظَاهِرِ جَبَلِ الْفَتْحِ^(١). وَوَلِيَ بَعْدَهُ أَخُوهُ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ أَبُو الْحِجَّاجِ لُبَّابُ هَذَا الْبَيْتِ، وَوَايَسَظَةُ هَذَا الْعَقْدِ، وَطِرَّازُ هَذِهِ الْعِجْلِيَّةِ، ثُمَّ اغْتَالَهُ مَمْرُورٌ مِنْ أَخَايِثِ السُّوقَةِ، قَيْضَهُ اللَّهُ إِلَى شَهَادَتِهِ، وَجَعَلَهُ سَبِيًّا لِسَعَادَتِهِ، فَأَكْبَبَ عَلَيْهِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنْ رَكْعَتَيْ عِيدِ الْفِطْرِ، بَيْنَ يَدَيِ الْمِخْرَابِ، خَاشِعًا، ضَارِعًا، فِي الْحَالِ الَّذِي أَقْرَبَ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، وَضَرَبَهُ بِخَنْجَرٍ مُهَيَّئٍ لِلْفَتْكِ بِهِ، فِي مِثْلِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، كَانَ، زَعَمُوا، يَحَاوِلُ شَخْذَهُ مِنْذُ زَمَانٍ، ضَرْبَةً وَاحِدَةً، عَلَى الْجَانِبِ الْأَيْسَرِ مِنْ ظَهْرِهِ، فِي نَاحِيَةِ قَلْبِهِ، فَقَضَى عَلَيْهِ، وَبُوْدِرَ بِهِ فَقُتِلَ.

وَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ مُحَمَّدٌ^(٢)، وَلَدُهُ أَكْبَرُ بَنِيهِ، وَأَفْضَلُ ذَوِيهِ، خَلَقًا وَخُلُقًا وَحَيَاءً وَجُودًا، وَوَقَارًا وَسَلَامَةً وَخَيْرِيَّةً، وَدَافِعَ دَوْلَتَهُ مَنْ لَا يَعْبَأُ اللَّهُ بِهِ^(٣)؛ ثُمَّ تَدَارَكَ الْأَمْرَ سَبْحَانَهُ، وَقَدْ أَشْفَى، وَدَافِعَ وَكَفَى، بِمَا يَأْتِي فِي مُحَلِّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَهُوَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ لِهَذَا الْعَهْدِ، مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَأَدَامَ مَدَّتَهُ، وَكَتَبَ سَعَادَتَهُ، وَأَطْلَقَ بِالْخَيْرِ يَدَهُ، وَجَعَلَهُ بِمَرَاسِيمِ الشَّرِيعَةِ مِنَ الْعَامِلِينَ، وَلِسُلْطَانِ يَوْمِ الدِّينِ مِنَ الْخَائِفِينَ، الْمُرَاقِبِينَ، بِفَضْلِهِ.

وَقَدْ أَتَيْنَا بِمَا أَمَكُنَ مِنَ التَّعْرِيفِ بِأَحْوَالِ هَذِهِ الْحَضْرَةِ عَلَى اخْتِصَارٍ. وَيَأْتِي فِي إِثْنَاءِ التَّعْرِيفِ بِرِجَالِهَا كَثِيرٌ مِنْ تَفْصِيلٍ مَا أَجْمِلُ، وَتَنْمِيمٍ مَا بَدَأُ، وَإِضْاحٍ مَا خَفِيَ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى.

(١) جَبَلُ الْفَتْحِ: هُوَ جَبَلُ طَارِقٍ، وَالَّذِي سَمَّاهُ جَبَلُ الْفَتْحِ هُوَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنِ عَلِيٍّ، حِينَ نَزَلَ بِهِ عَامَ ٥٥٥ هـ.

(٢) هُوَ السُّلْطَانُ الْغَنِيُّ بِاللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ فَرَجَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ، حَكَمَ غِرْنَاطَةَ سَنَةَ ٧٥٥ هـ، ثُمَّ عَزَلَ سَنَةَ ٧٦٠ هـ، ثُمَّ عَادَ ثَانِيَةً إِلَى الْمُلْكِ سَنَةَ ٧٦٣ هـ. اللَّحْمَةُ الْبَدْرِيَّةُ (ص) ١١٣، ١٢٩.

(٣) إِشَارَةٌ إِلَى ثَوْرَةِ إِسْمَاعِيلَ أَخِي السُّلْطَانِ مُحَمَّدِ الْغَنِيِّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ، وَانْتِزَاعِهِ الْمُلْكَ مِنْهُ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ٧٦٠ هـ.

القِسْم الثاني
في حِلَى الزَّائِرِ وَالْقَاطِنِ
وَالْمَتَحَرِّكِ وَالسَّائِكِنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد بن خلف بن عبد الملك الغساني القلبي^(١)

من أهل غرناطة، يُكنى أبا جعفر، من جلة أعيانها، تُنسب إليه الساقية الكبرى المجاورة لطوق الحضرة إلى إلبيرة، وما والاها.

حاله: قال ابن الصيرفي: كان الفقيه أبو جعفر القلبي، من أهل غرناطة، فريد عصره، وفريع دهره، في الخير والعلم والتلاوة؛ وله جزب من الليل، وكان سريع الدمعة، كثير الرواية؛ وهو المشار إليه في كل نازلة، وله العقد والحل والتقدم والسابقة، مع مئة في جلائل الأمور، والتهضة بالأعباء وسُمُو الهمة.

غريبة في شأنه: قال: كان باديس بن حبّوس أمير بلده يتفرّس فيه أن ملك دولته يتقرض على يديه، فكان يُنصب لشأنه أكلبًا، ويَتَمَلَّظ بسيفه إلى قتله، فحماه الله منه بالعلم، وغلّ يده، وأغمد سيفه، ليقتضي الله أمرًا كان مفعولًا.

مشيخته: روى^(٢) عن أبي عمر بن القطان، وأبي عبد الله بن عتاب، وأبي زكريا القلبي، وأبي مروان بن سراج؛ وكان ثقة صدوقًا، أخذ عنه الناس.

محبته: ولما أجاز أمير لمتونة يوسف بن تاشفين البحر مُستدعى إلى نصر المسلمين، ثاني حركاته إلى الأندلس، ونازل حصن أليط^(٣)، وصارع ملوك الطوائف

(١) ترجمة القليبي في مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٧) والصلة (ص ١٢٤)، وجاء في الصلة أنه: «أحمد بن خلف بن عبد الملك بن غالب الغساني».

(٢) قارن بالصلة (ص ١٢٥).

(٣) اختلف المؤرخون الذين تحدّثوا عن حصار هذا الحصن في كتابة اسمه فرسموه: «البيط» و«البيط» و«البيط» و«البيط» و«البيط» و«البيط». راجع في ذلك كتاب: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٢٠٤).

إلى المسير في جُمْلته، كان مَمَّن وصل إليه الأمير عبد الله بن بُلْكَيْن بن باديس، صاحب غرناطة، ووصل صحبته الوزير أبو جعفر بن القُلَيْعي، لرغبته في الأجر مع شهرة مكانه، وعلو منصبه، ولنهوض نظرائه من زعماء الأقطار إلى هذا الغرض. وكان مَضْرِبُ خيام القُلَيْعي قريبًا من مَضْرِب حَفِيد باديس، ولمنزله عند الأمير يوسف بن تاشفين، وله عليها الحفوف وله به استبداد وانفراد كثير وتردد كثير، حتى نفى بذلك حفيد باديس، وأنهم غيَّته. قال المؤرخ: وكيفما دارت الحال، فلم يَخُل من نصيح الله ولأمر المسلمين.

قلت: حفيد باديس كان أذرى بدائه، قصر الله حُطانا من مدارك الشرور. فلما صدر حفيد باديس إلى غرناطة، استحضره ونجَّهه، وقام من مجلسه مُغَضَّبًا، وتعلقت به الخدمة، وحُقَّت به الوَزعة^(١) والحاشية، وهُمُوا بضربه؛ إلا أن أم عبد الله تطارحت على ابنها في استحيائه، فأمر بتخليصه، وسجنه في بعض بيوت القصر؛ فأقبل فيه على العبادة والدعاء والتلاوة؛ وكان جَهِير الصوت، حَسَن التلاوة، فأرتج القصر، وسكنت لاستماعه الأصوات، وهذأت له الحركات، واقشعرت الجلود. وخافت أم عبد الله على ولدها، عقابًا من الله بسببه، فلاطفته حتى حلَّ عقاله، وأطلقه من سجنه. ولما تخلص أعدها غنيمَةً. وكان جَزَلًا، قوي القلب، شديد الجزم؛ فقال الصُّيد بَغْرَاب أُنْيس؛ فاتخذ الليل جَمَلًا؛ قَطَّلَ له الصباح بقلعة يَحْصُب، وهي لنظر ابن عباد^(٢)، وحث منها السير إلى قُرطبة؛ فخاطب منها يوسف بن تاشفين بملء فيه، بما حرَّكه وأطمعه؛ فكان من حركته إلى الأندلس، وخَلَعَ عبد الله بن بُلْكَيْن من غرناطة، واستيلائه عليها، ما يرد في اسم عبد الله وفي اسم يوسف بن تاشفين، إن شاء الله. وبدا لحفيد باديس في أمر أبي جعفر القُلَيْعي، ورأى أنه أضاع الحزم في إطلاقه، فبحث عنه من الغد، وتقصت عنه البلدة، فلم يَقَع له خَبَر، إلى أن اتَّصل به خَبَر نجاته، ولحاقه بمأمته. فرجع باللائمة على أمه، ولات حين مئثم. ولم يزل أبو جعفر مذته في دول الملوك، من لمتونة، معروف الحق، بعيد الصَّيت والذكر، صَدَرَ الحضرة، والمَخْصوص بعلو المرتبة إلى حين وفاته^(٣).

(١) الوَزعة: جمع الوزع وهو من يدبر أمور الجيش، أو هو قاصع الشر والبغي. لسان العرب (وزع).

(٢) هو المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية.

(٣) في الصلاة: «وتوفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة».

أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي

من أهل غرناطة.

حاله: كان فقيهاً وزيراً جليلاً حسيباً حافلاً.

وفاته: توفي بإلبيرة قبل الثلاثين وأربعمائة.

ذكره أبو القاسم الغافقي في تاريخه وابن اليسر في مختصره وأثنى عليه.

أحمد بن محمد بن أضحي بن عبد اللطيف بن غريب

ابن يزيد بن الشمر بن عبد شمس بن غريب الهمداني الإلبيري^(١)

من نزل قرية همدان؛ ذكره ابن حبان، والغافقي، وابن مسعدة، وغيرهم؛

فقال جميعهم: كان من أهل البلاغة، والبيان، والأدب، والشعر البارع.

مناقبه: قَدِمَ على الخليفة أبي مطرف عبد الرحمن^(٢)، فقام خطيباً بين يديه،

فقال^(٣): الحمد لله المُخْتَجِبِ بئور عَظَمَتِهِ، عن أبصار بَرِيَّتِهِ، والدال بحدوث خلقه

على أوليته، والمنفرد بما أُنْقِنَ من عجائب دهره ومِنِّ^(٤) صَمَدِيَّتِهِ، وأشهد أن لا إله

إلا الله وحده، لا شريك له، إقراراً بُوْخْدَاتِيَّتِهِ^(٥)، وخضوعاً لعزّه^(٦) وعظمتِهِ. وأشهد

أن محمداً عبده ورسوله^(٧)، انتخبه من أطيب^(٨) البيوتات، واصطفاه من أطيب

البيوتات، حتى قبضه الله إليه، واختار له ما لديه. وقد قبل سَغيهِ، وأدى أمانته،

فصلّى الله عليه وسلّم تسليماً. ثم إنَّ الله لَمَّا أن بعثه^(٩) من أكرم خلقه، وأكرمه^(١٠)

برسالته وأنزل عليه مُحْكَمَ تنزيله، واختار له من أصحابه وأشياعه مخلفاً^(١١)، جعل

(١) ترجمة أحمد بن محمد بن أضحي في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٤٠٠)، وفي الحلة السيرة (ج

١ ص ٢٢٨) وجاء فيه: «خالد» مكان «غريب» ثم قسّر ابن الأبار لنا ذلك عندما قال: «وخالد:

يقال له: الغريب».

(٢) هو الخليفة عبد الرحمن بن محمد، المعروف بالناصر، وقد وُلِّيَ الأندلس مدة خمسين سنة

(٣٠٠ - ٣٥٠ هـ).

(٣) الخطبة في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٤٠١)، وأشار ابن الأبار إلى هذه الخطبة دون أن يذكرها.

(٤) في الذيل والتكملة: «وسنن».

(٥) في المصدر نفسه: «بربوبيته».

(٦) في المصدر نفسه: «لعزته».

(٧) في المصدر نفسه: «عبده الأمي، ورسوله المكي».

(٨) في المصدر نفسه: «من أكرم الأرومات».

(٩) في المصدر نفسه: «ابتعثه».

(١٠) في المصدر نفسه: «وكرمه».

(١١) في المصدر نفسه: «وأشياعه فمن بعدهم خلفاء».

منهم أُنْمَةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ، وَبِهِ يَغْدُلُونَ؛ فَجَعَلَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، أَعَزَّهُ اللَّهُ، وَارِثَ مَا خَلَفُوهُ مِنْ مَعَالِيهِمْ^(١)، وَبَانِي مَا أَسْسَوْهُ مِنْ مَشَاهِدِهِمْ، حَتَّى أَمَّنَ الْمَسَالِكَ، وَسَكَنَ الْخَائِفَ، رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ، أَلْبَسَهُ كَرَامَتَهَا، وَطَوَّقَهُ فَضِيلَتَهَا^(٢)، ﴿وَاللَّهُ بِخَفَايَاهُمْ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٣): [الرجز]

الله^(٤) أعطاك التي لا قُوَّةَها وقد أراد الْمُلْحِدُونَ عَوَّقَها
عَنكَ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا سَوَّقَها إِلَيْكَ حَتَّى قَلَّدَكَ طَرَقَها

ثم أردف قوله بهذه الآيات^(٥): [الطويل]

أَيَا مَلِيكَ تَزْمَى^(٦) بِهِ قُضِبُ الْهِنْدِ إِذَا لَمَعَتْ بَيْنَ الْمَغَافِرِ وَالزُّرْدِ^(٧)
وَمَنْ بَأْسُهُ فِي مَنَهِلِ الْمَوْتِ وَارِدٌ إِذَا أَنْفُسُ الْأَبْطَالِ كَلَّتْ^(٨) عَنِ الْوَرْدِ
وَمَنْ أَلْبَسَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ نِعْمَةً بِهِ فَاقَتْ التُّغْمَى وَجَلَّتْ عَنِ الْحَدِّ^(٩)
فَلَوْ نُظِمَتْ مَزَوَانٌ فِي سَيْلِكَ فَخَرَهَا لِأَضْبَحَ مِنْ مَزَوَانٍ وَاسِطَةِ الْعِقْدِ
تَجَلَّى عَلَى^(١٠) الدُّنْيَا فَاجْلَى^(١١) ظِلَامِهَا كَمَا انْجَلَتْ الظُّلُمَاءُ عَنْ قَمَرِ السَّعْدِ
إِمَامٌ هُدَى^(١٢) أَضْحَتْ بِهِ الْعُرْبُ عَضَّةً^(١٣) مُلَبَّسَةً نُورًا كَوَاشِيَةً^(١٤) الْبُرْدِ
كَفَانِي لَدِيهِ أَنْ جَعَلْتُ وَسَائِلِي^(١٥) ذِمَامًا^(١٦) شَامِيَّ الْهَوَى مَخْلَصَ الْوَدِّ
يُؤَكِّدُ مَا يُذْلِي بِهِ مِنْ مَتَانَةٍ^(١٧) خُلُوصِ^(١٨) أَبِيهِ عَبْدِكَ الْفَارِسِ التَّجْدِ^(١٩)

(١) في الذيل والتكملة: «معالمهم».

(٢) سورة البقرة ٢، الآية ١٠٥.

(٣) القصيدة في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٤٠٢ - ٤٠٣) وورد منها فقط ستة أبيات في الحلة السيرة (ج ١ ص ٢٢٩).

(٤) في الذيل والتكملة: «تزهي».

(٥) في الأصل: «والصرد» والتصويب من المصدرين.

(٦) في المصدرين: «كَفَّتْ».

(٧) في المصدرين: «فَاتَتْ التُّغْمَى فَجَلَّتْ عَنِ الْقَدِّ».

(٨) في الذيل والتكملة: «عن».

(٩) في الذيل والتكملة: «الهدى».

(١٠) في الحلة السيرة: «زيدت به الأرض بهجة».

(١١) في المصدرين: «كموشية».

(١٢) في الذيل والتكملة: «ذمام هشامي الهوى خالص الود».

(١٣) في الأصل: «مثابة» والتصويب من الذيل والتكملة.

(١٤) في الذيل والتكملة: «لباس».

(١٥) في الأصل: «عبد الفارس الجند» وكذا لا يستقيم الوزن ولا المعنى، والتصويب من الذيل =

تأمل زواه^(١) والرماح شواجر
 رأى أسدا وزدا يخف^(٢) إلى الوغى
 فأنعم عليه اليوم^(٣) يا خير منعم
 ولا تسميت الأعداء أن جئت قاصدا
 فعند الإمام المرتضى كل نعمة
 فلا زال في الدنيا سعيدا مظفرا
 وكان^(٤) من بيت سماعة^(٥) وفصاحة
 وقطابة، فعلا^(٦) شرفه بهذه الخصال؛
 فسجل له على أرجية؛ وحسن نبيل بيني هود^(٧) وغير ذلك، فانقلب مزعي الوسائل،
 ومقضي الرسائل^(٨).

قال^(٩) المؤلف: أرى ابن فركون قبل الست عشرة والثلاثمائة.

أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي^(١٠)

من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، وعرف بابن فركون.

أوليته: وكفى بالنسب القرشي أولية.

حاله من عائد الصلة: كان^(١١) من صدور القضاة^(١٢) بهذا الصقع الأندلسي،
 اضطلاعا^(١٣) بالمسائل ومعرفة بالأحكام من مظانها، كثير المطالعة والدروب،

= والتكملة.

(١) في الذيل والتكملة: «فتى من رآه». (٢) في الذيل والتكملة: «يخب».

(٣) في الأصل: «ورأيت» وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٤) في الذيل والتكملة: «في». (٥) في الذيل والتكملة: «تشريفي».

(٦) في الذيل والتكملة: «في». (٧) في الذيل والتكملة: «بويه».

(٨) قارن بالذيل والتكملة (ج ١ ص ٤٠٣). (٩) في الذيل والتكملة: «بسالة وحماسة».

(١٠) في المصدر نفسه: «إلى... الخصال أشار».

(١١) قوله: «بيني هود» ساقط في الذيل والتكملة. (١٢) في المصدر نفسه: «مقضي المسائل».

(١٣) في المصدر نفسه: «وأرى ذلك كان قبل...».

(١٤) ترجمة أحمد بن محمد، المعروف بابن فركون في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٤)، والكتيبة

الكامنة (ص ١٠١)، واللمحة البدرية (ص ٦٤، ٧١)، ونيل الابتهاج (ص ٣٩) طبعة فاس.

(١٥) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(١٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «صدر الفقهاء بهذا القطر الأندلسي».

(١٧) في المصدر نفسه: «اطلاعا».

وحي^(١) الإجهاز في فصل القضايا، نافذ المَطَّع، كثير الاجتهاد والنظر، مشاركاً في فتون، من عربيّة، وفقه، وقراءة، وفرائض، طيب النعمة بالقرآن، حسن التلاوة، عظيم الوقار، بين طبع ومكسوب، فائق الأبهة، مزيّناً بمن دونه من الفقهاء، وعاقدي الشروط، مُسَقِّطاً للكنى والتجلات، يعامل الكهول معاملة الأخداث، ويتهاون بتعاملات ذلك فيجعلها دُبر أذنيه، وسُترسِل في إطلاق عنان النادرة الحارة، في مجالس حُكمه، فضلاً عن غيرها؛ وَجَدَ ذلك مَنْ يحمل عليها سبباً للغرض منه.

نباهته: ترشّح بذاته، وباهر أدواته، إلى قضاء المدن النائية، والأقطار الشهيّة، كرُنْدَة، ومالقة، وغيرهما. ثم وُلّي قضاء الجماعة، في ظلّ جاء، وضمّن حُرقة.

غريبة في أمره: حدث أنه كان يقرأ في شبيبته على الأستاذ الصالح أبي عبد الله بن مُسْتَقْوَر^(٢) بكرم له خارج الحضرة، على أميال منها في فصل العصور. قال: وَجَّهَنِي يوماً بقلة من الرُّب^(٣) لأبيعه بالبلد، فأصابني مطرٌ شديد، وعُدْتُ إليه بحال سيئة، بعد ما قضيت له وطره؛ وكان له أخ أسنُّ منه، فعاتبه في شأني، وقال له: تأخذُ صبيّاً ضعيفاً يأتيك لفائدة يستفيدها، وتعرضه لمثل هذه المشقة، في حقّ مصلحتك، ليس هذا من شيم العلماء، ولا من شيم الصالحين. فقال له: دَعُه، لا بدّ أن يكون قاضي الجماعة بقَرْناطة؛ فكان كذلك، وصدّقت فراسته، رحمه الله تعالى.

مُشِيخته: قرأ بالقرية على الأستاذ أبي القاسم بن الأصفر؛ وبقَرْناطة على العالم القاضي أبي الحسن محمد بن يحيى بن ربيع الأشعري، وعلى الشيخ المُفْتِي أبي بكر محمد بن أبي إبراهيم بن مُفَرِّج الأوسي بن الدبّاغ الإشبيلي، وعلى الخطيب الزاهد أبي الحسن العدّال، وعلى الأستاذ النُحوي أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف بن الصّايغ؛ بالصاد المهملة، والغين المعجمة، وعلى الأستاذ أبي الحسن الأُبْدِي^(٤)؛ وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي، عُرِفَ بابن مُسْتَقْوَر.

ولمّا دالت الدولة، كان له في مُشايعة مخلويعها أمور اقتَضَتْها منه أريحيةٌ وحسنُ وفاء، أوجبت عليه الحُمُول بعد استيقرار دائلها السلطان أبي الوليد، رحمه الله؛

(١) الرّجِي: العَجَلُ المُسْرِع. محيط المحيط (وحي).

(٢) هو المقرئ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطائي، المعروف بمسْتَقْوَر، حسبما جاء في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٥).

(٣) الرُّب: بقايا كلّ ثمرة بعد اعتصارها. لسان العرب (رب).

(٤) نسبة إلى أْبْدَة أو أَبْدَة، وهي مدينة صغيرة بالأندلس على مقربة من النهر الكبير، بينها وبين بياسة سبعة أميال، وهي بالإسبانية Ubeda. الروح المعطار (ص ٦).

وأصابته أيام الهنيج مَحَن، وَنَسَبَتْ إِلَيْهِ نَقَائِصَ زَوْرَتِهَا حَسَدَتُهُ، فَصُرِفَ عَنِ الْقَضَاءِ؛ وَبَقِيَ مَدَّةً مَهْجُورَ الْفِنَاءِ، مُضَاعَ الْمَكَانِ، عَاطِلَ الدَّوْلَةِ، مُتَتَبِّدًا فِي مَلِكٍ لَهُ؛ خَارِجَ الْحَضْرَةِ، يَنْحَنِي عَلَى خُرْثِيٍّ^(١) سَاقِطِ الْقِيَمَةِ، وَدِفَاتِرِ سَاقِطَةِ الثَّمَنِ، يَتَعَلَّلُ بِعَلَالَتِهَا، وَيُزْجِي الْوَقْتَ بِسِيرِهَا.

حَدَّثَنِي الْوَزِيرُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْحَكِيمِ، قَالَ: زَرْتُهُ فِي مَنْزِلِهِ بَعْدَ عَزْلِهِ، وَنَسَبَةُ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِمِثْلِهِ، فَأَنْشَدَنِي بِمَا يُنْبِئُ عَنْ ضَجْرِهِ وَضَيْقِ صَدْرِهِ:

[المجث]

أَنَا مِنَ الْمُحْكَمِ تَائِبٌ	وَعَنْ دَعَاوِيهِ هَارِبٌ ^(٢)
بَعْدَ الثَّقَفِ غُمْرِي ^(٣)	وَنَيْلِ أَشْنَى الْمَرَاتِبِ
وَبَعْدَ مَا كُنْتُ أَرْقَى	عَلَى الْمَنَابِرِ خَاطِبٌ ^(٤)
أَضْبَحْتُ أَرْمَى بِعَارٍ	لِلْحَالِ غَيْرِ مُنَاسِبِ
أَشْكُرُ إِلَى اللَّهِ أَمْرِي	فَهُوَ الْمُثِيبُ الْمُعَاقِبِ

وَبُتَّ اسْمُهُ فِي التَّارِيخِ الْمُسَمًّى «بِالتَّاجِ» تَارِيخِي بِمَا نَصُهُ:

شَيْخُ الْجَمَاعَةِ وَقَاضِيهَا، وَمُنْفَذُ الْأَحْكَامِ وَمُمْضِيهَا، وَشَايِمٌ^(٥) سَيُوفُهَا الْمَاضِيَّةُ وَمُتَنَضِّيهَا، رَأْسٌ بِفَضِيلَةِ نَفْسِهِ، وَأَخِيَا دَارِسُ رِشْمِ الْقَضَاءِ بِدَرْسِهِ، وَأَوْدَعَ فِي أَرْضِ الْاجْتِهَادِ، بِذُرِّ السُّهَادِ، فَجَنَى ثَمْرَةَ غَرْسِهِ؛ إِلَى وَقَارِ يَوْذَ رَضْوَى رِجَاحَتِهِ، وَضَدَرَ تَحْمِيدِ الْأَرْضِ الْغَبِيطَةَ سَاحَتِهِ، وَنَادِرَةَ يَدْعُوهَا فَلَا تَتَوَقَّفُ، وَيُلْقَى عَصَاهَا فَتَتَلَقَّفُ؛ وَلَمْ يَزَلْ يَطْمَحُ بِأَمَانِيهِ، وَيَضْطَلِعُ بِمَا يُعَانِيهِ، حَتَّى رَفَعَ إِلَى الرُّتْبَةِ الْعَالِيَةِ، وَحَصَلَ عَلَى الْحَالِ الْحَالِيَةِ؛ وَكَانَ لَهُ فِي الْأَدَبِ مُشَارَكَةٌ، وَفِي قَرِيضِ النِّظَمِ حِصَّةٌ مُبَارَكَةٌ. انْتَهَى إِلَيَّ قَوْلُهُ يَهْتَى السُّلْطَانُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَصْرٍ^(٦)، بِالْإِبْلَالِ مِنْ مَرَضٍ فِي اقْتِرَانٍ بَعِيدٍ وَفَتْحٍ، وَذَلِكَ^(٧): [الطويل]

شَفَاؤُكَ لِلْمُلْكِ اعْتِزَاؤٌ وَتَأْيِيدُ وَبُرُؤُكَ مَوْلَانَا بِهِ عِنْدُنَا^(٨) عِيدُ

(١) الْخُرْثِيُّ: أَرَادَ الْمَتَاعَ أَوْ أُنَاثَ الْبَيْتِ. مَحِيطُ الْمَحِيطِ (خَرِثَ).

(٢) فِي الْكُتُبِ الْكَامِنَةِ: «رَاغِبٌ». (٣) فِي الْمَصْدَرِ نَفْسُهُ: «دَهْرِي».

(٤) هَذَا الْبَيْتُ سَاقِطٌ فِي الْكُتُبِ. (٥) شَامُ السَّيْفِ: انْتِضَاءٌ.

(٦) هُوَ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ يُونُسَ بْنِ نَصْرٍ، ثَالِثُ سُلَاطِينِ بَنِي نَصْرٍ. اللَّمْحَةُ الْبَدْرِيَّةُ (ص ٦٠).

(٧) الْأَبْيَاتُ فِي الْكُتُبِ الْكَامِنَةِ (ص ١٠٢).

(٨) فِي الْأَصْلِ: «عِيدُنَا» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْكُتُبِ الْكَامِنَةِ.

مَرَضَتْ فَلَمْ تَأْوِ النَّفْسُ لِرَاحَةٍ وَلَا كَانَ لِلدُّنْيَا قَرَارٌ وَتَنْهِيدٌ
وَلَمْ تَسْتَطِعْ عَيْنِي تَرَاكَ مُؤَلَّمًا^(١) وَلَا زَمَهَا طَوْلَ اعْتِلَالِكَ تَنْهِيدٌ
وَشِعْرُهُ مُخْتَلَفٌ عَنْ نَمَطِ الْإِجَادَةِ الَّتِي تَنَاسَبَ مَحَلُّهُ فِي الْعِلْمِ، وَطَبَقَتْهُ فِي
الْإِدْرَاكِ فَاخْتَصَرَتْهُ.

مولده: عام تسعة وأربعين وستمائة.

وفاته: في السادس عشر لذي القعدة عام تسعة وعشرين وسبعمائة. ذكرته في
كتاب «عائد الصَّلَة» قاضيًا، وفي كتاب «التَّاجُ الْمُحَلَّى» قاضيًا أدبيًا. وذكره أبو بكر بن
الحكيم^(٢) في كتاب «القوائد المُسْتَفْرِغَةِ»، والموارد المُسْتَعْدَبَةِ» من تأليفه.

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى
ابن عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن جُزَيِّ الكَلْبِيِّ^(٣)

من أهل غرناطة، ويُعرَفُ بابن جُزَيِّ. أوليته معروفة، وأصالته شهيرة، تُنظر فيما
مَرَّ من ذلك عند ذكر سلفه، وفيما يأتي في ذلك، بحول الله وقوته.

حاله: من أهل الفضل والنزاهة، والهمة، وحسن السُّمة، واستقامة الطريقة،
عَرَبٌ فِي الْوَقَارِ، وَمَالٌ إِلَى الْإِنْقِبَاضِ، وَتَرَشَّحَ إِلَى رُتَبِ سَلْفِهِ. لَهُ مِشَارَكَةٌ حَسَنَةٌ فِي
فَنُونٍ، مِنْ فِقْهِ وَعَرَبِيَّةٍ، وَأَدَبٍ، وَحِفْظٍ، وَشِعْرِ، تَسْمُو بِبَعْضِهِ الْإِجَادَةُ، إِلَى غَايَةِ
بَعِيدَةٍ.

مُشِيخَتُهُ: قَرَأَ عَلَى وَالِدِهِ الْخَطِيبِ أَبِي الْقَاسِمِ، وَلاَزَمَهُ، وَاسْتَظْهَرَ بِبَعْضِ
مَوْضُوعَاتِهِ، وَتَأَدَّبَ بِهِ؛ وَقَرَأَ عَلَى بَعْضِ مُعَاَصِرِي أَبِيهِ، وَرَوَى، وَاسْتَجْلَبَ لَهُ أَبُوهُ
كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ صُقْعَةٍ وَغَيْرِهِمْ.

نَبَاهَتُهُ: ثُمَّ أُرْسِمَ فِي الْكِتَابَةِ السُّلْطَانِيَّةِ لِأَوَّلِ دَوْلَةِ السَّابِغِ مِنَ الْمُلُوكِ التُّصْرِيِّينَ،
مُنْفِقٌ سَوْقَ الْحِلْيَةِ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِهِ، أَبِي الْحِجَاجِ بْنِ نَصْرٍ، فَوْرَى زَنْدَهُ، وَدَرَّتْ أَحْلَابُ
قَرِيبَتِهِ، وَصَدَّرَ لَهُ فِي مَدَائِحِهِ شِعْرٌ كَثِيرٌ. ثُمَّ تَصَرَّفَ فِي الْخُطَطِ الشَّرْعِيَّةِ، فَوَلَّى
الْقَضَاءِ بِبُرْجَةِ، ثُمَّ بَأَنْدَرَشْ، وَهُوَ الْآنَ قَاضِي مَدِينَةِ وَادِي آشْ، مُشْكُورُ السَّيْرَةِ،

(١) في الأصل: «ولم تصير عيني تود مولمًا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمي. وسير ترجم له
ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

(٣) ترجمة ابن جزري في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٨)، ونفح الطيب (ج ٨ ص ٦١)، رازهار الرياض
(ج ٣ ص ١٨٧).

معروف التزاهة، أعانه ذلك وسوَّده، وبلغ به رُتبة سلفه. وجرى ذكره في كتاب التاج بما نصّه:

«فاضلٌ تحلّى بالسكينة والوقار، فمَدَّتْ إليه رقاب سلفه يد الافتقار، ما شئت من هدوء وسكون، وجنَّوح إلى الخير وركون، غُنيَّ بالمحافظة على سِمَتِهِ من لدُنْ عَقْل، ولزم خِدمة العلم فما عاد ولا انتقل، ووجد من أبيه رحمه الله مَرْعى خصبياً فابتقل، وعمل على شاكلة سلفه في سلامة الجانب، وفضل المذهب، وتَحَلَّى بتلك المآثر وتَوَشَّح، وتَأَهَّل إلى الرُتب في سنِّ الشَّيْبَةِ وتَرَشَّح؛ وله مع ذلك في لُجَّة الفقه سَبِيحٌ، وعلى بعض موضوعات أبيه شَرْحٌ؛ وأدبه ساطع، وكلامه حَسَن المقاطع. فمن ذلك ما كتب به إليّ، وقد خاطبت ما أمكن من نظمه^(١): [المقارب]

فَدَيْنُكَ يَا سَيِّدِي مِثْلَمَا فَدَاكَ الزَّمَانُ الَّذِي زِنْتُهُ
وقوله في المقطوعات من ذلك في معنى التورية^(٢): [الخفيف]

كَمْ بُكَائِي لِبُعْدِكُمْ وَأُنِينِي^(٣) مَنْ ظَهِيرِي عَلَى الْأَسَى مَنْ مُعِينِي
جَرَّحَ^(٤) الْخَدَّ دَمْعٌ عَيْنِي وَلَكِنْ عَجِبَ^(٥) أَنْ يُجَرَّحَ ابْنُ مَعِينِ
وقال في الغنى^(٦): [الطويل]

أرى النَّاسَ يُؤَلُّونَ الْغَنَى كِرَامَةً وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلًا لِرَفْعَةِ مِقْدَارِ
وَيُلَوُّونَ عَنْ وَجْهِ الْفَقِيرِ وَجُوهَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَهْلًا أَنْ يُلَاقَى بِإِكْبَارِ
بَنُو الذَّهْرِ جَاءَتْهُمْ أَحَادِيثُ جَمَّةٌ فَمَا صَحَّحُوا إِلَّا حَدِيثَ ابْنِ دِينَارِ^(٧)

ومن بديع ما صدر عنه، قوله ينسج على منوال امرئ القيس في قصيدته الشهيرة^(٨): [الطويل]

أقول لحزمي^(٩) أو لصالح أعمالى (ألا عِمْ صَبَاحًا أَيُّهَا الطَّلَلُ الْبَالِي)

(١) البيت، ضمن أربعة أبيات، في الكتيبة الكامنة (ص ١٤٢).

(٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٤٣). (٣) في الكتيبة الكامنة: «كم أنيني».

(٤) في الأصل: «جراح» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكامنة.

(٥) في الكتيبة: «ولا عجب إن...».

(٦) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٤٣)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٦١ - ٦٢)، وأزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٨).

(٧) المراد حب الناس للمال.

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ١٣٩ - ١٤٢)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٦٢ - ٦٤) وورد منها فقط بيتان في أزهار الرياض (ج ٣ ص ١٨٢).

(٩) في النسخ وأزهار الرياض: «لعزمي».

أما واعظي شَيْبَ سَمَا فَوْقَ لِمَتِي
 أَنَارَ بِهِ لَيْلُ الشُّبَابِ كَأَنَّهُ
 نَهَانِي عَنْ غَيٍّ وَقَالَ مُنَبِّهًا
 يَقُولُونَ غَيْرُهُ لَتَنَعَمَ بِرَهَةٍ
 أَغَالِطُ^(٢) دَهْرِي وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّنِي
 وَمُؤْنِسُ نَارِ الشُّبَابِ يَفْبُحُ لَهُوهُ
 أَشْيَخًا وَتَأْتِي فَعْلَ مَنْ كَانَ عُمْرُهُ
 وَتَشْغَفُكَ الدُّنْيَا وَمَا إِنْ شَغَفَتْهَا
 أَلَا إِنَّهَا الدُّنْيَا إِذَا مَا اعْتَبَرْتَهَا
 فَأَيْنَ الَّذِينَ اسْتَأْثَرُوا قَبْلَنَا بِهَا
 ذَهَلَتْ بِهَا غَيًّا^(٣) فَكَيْفَ الْخَلَاصُ مِنْ
 وَقَدْ عَلِمْتُ مِنِّي مَوَاعِيدَ تَوْتِي
 وَمُذْ وَثَّقْتُ نَفْسِي بِحَبِّ مُحَمَّدٍ
 وَأَصْبَحَ شَيْطَانُ الْغَوَايَةِ خَاسِمًا
 أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَقُولُ عِزَائِمِي
 فَأَنْزَلَ دَارًا لِلنَّبِيِّ^(٤) نَزِيلَهَا
 فَطَوَّبَى لِنَفْسٍ جَاوَزَتْ خَيْرَ مُرْسَلٍ
 وَمِنْ^(٥) ذِكْرِهِ عِنْدَ الْقَبُولِ تَعَطَّرَتْ
 جَوَارُ رَسُولِ اللَّهِ مَجْدٌ مُؤْتَلٌ
 وَمَنْ^(٦) ذَا الَّذِي يَثْنِي عِنَانَ السُّرَى وَقَدْ
 أَلَمْ تَرَ أَنَّ الظُّبْيَةَ اسْتَشْفَعَتْ بِهِ

(سَمُوَ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالٍ)
 (مَصَابِيحُ رُفْبَانٍ تُشَبُّ لِقْفَالٍ)
 (أَلَسْتُ تَرَى السُّمَارَ وَالنَّاسَ أَحْوَالِي؟)
 (وَهَلْ يَعْصَمُ^(١) مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟)
 (كَبُرْتُ وَأَنْ لَا يُخَسِّنَ اللَّهُ أَمْثَالِي)
 (بِأَيْسَةِ كَأَنَّهَا خَطُ تِمْثَالٍ)^(٣)
 (ثَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ)
 (كَمَا شَغَفَ الْمَهْنُوَّةَ الرَّجُلُ الطَّالِي)
 (دِيَارُ لَسَلَمَى عَافِيَاتٍ بِذِي خَالٍ)
 (لَنَامُوا فَمَا إِنْ مِنْ حَدِيثٍ وَلَا صَالٍ)
 (لَعُوبٍ تَنْسِينِي إِذَا قُمْتُ سِرْبَالِي)
 (بِأَنَّ الْفَتَى يَهْذِي وَلَيْسَ بِفَعَالٍ)
 (هَضَرْتُ بَعْضَ ذِي شِمَارِيخٍ^(٥) مَيَالٍ)
 (عَلَيْهِ قَتَامٌ^(٦) سَيِّءُ الظَّنِّ وَالْبَالِ)
 (لِخَيْلِي كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ إِجْفَالٍ)
 (قَلِيلُ هُمُومٍ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالٍ)
 (بِيَفْرَبُ أَذْنَى دَارَهَا نَظَرٌ عَالِي)
 (صَبَا وَشَمَالٌ فِي مَنَازِلِ قُفَالٍ)
 (وَقَدْ يُذْرِكُ الْمَجْدُ الْمُؤْتَلَّ أَمْثَالِي)
 (كَفَانِي، وَلَمْ أَطْلُبْ، قَلِيلًا مِنَ الْمَالِ)
 (تَمِيلُ عَلَيْهِ هَوْنَةً غَيْرَ مَجْفَالٍ)

(١) في الأصل: «يَعْمَلُ بِهِ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين. وَعَمِنَ بِالْمَكَانِ: أَقَامَ بِهِ. لِسَانُ الْعَرَبِ (عَمِنَ).

(٢) في الكتيبة: «أَخَالِطُ».

(٣) في الكتيبة: «عَتَا».

(٤) الشماريخ: جمع شمروخ وهو العقود. لِسَانُ الْعَرَبِ (شَمْرَخ).

(٥) في ديوان امرئ القيس (ص ٣٢)، والكتيبة الكامنة: «الْقَتَامُ». والغبار.

(٦) في النسخ وأزهار الرياض: «لِلرَّسُولِ». (٨) في الكتيبة: «فَعِن».

(٩) في الكتيبة: «وَمَاذَا الَّذِي».

وقال لها عُودِي فقالت له نعم
 فعادَتْ إليه والهوى قائلٌ لها
 رثي^(١) لبعيرٍ قال أزمع مالكي
 وثورٍ ذبيحٍ بالرسالة شاهدٍ
 وحنَّ إليه الجذعُ حنةً عاطشٍ
 وأضلين من نخلٍ قد التأما له
 وقبضة^(٢) تُزب منه ذلك لها الطبا
 وأضحى ابن جحشٍ بالعسيبِ مقاتلاً
 وحسبك من سيف^(٣) الطفيل إضاءة
 وبذت^(٤) به العجفاء كلَّ مطهم
 ويا خسفَ أرضٍ تحت باغيه إذ علا
 وقد أحمِدت نازَ لفارسٍ طالما
 أبانَ سبيلَ الرشدِ إذ سُبُلُ الهدى
 لأحمدٍ خيرِ العالمين انتقيتها
 وإن رجائي أن ألاقيه غداً
 فأدرك آمالي وما كلُّ أمل

(ولو قطعوا رأسي لذيك وأوصالي)
 (وكان عذاء الوحش مني على بالي)
 (ليقتلني والمرء ليس بفعل)
 (طويل القرا^(٢) والروقي أخس ذئال)
 (الغني من الوسمي رائده خالي)
 (فما^(٣) اختبسا من لين مس وتسهال)
 (ومسنونة زرق كانياب أغوال)
 (وليس بذئ زُمح ولينس بنبال)
 (كمضباح زنت في قناديل ذئال)
 (له حجابات مشرفات على الفال)
 (على هيكلي نهدي الجزيرة جوال)
 (أصابني غصني جزلاً وكفنت بأجزال)^(٧)
 (يقطن لأهل الحلم ضلاً بتضلال)
 (ورضت^(٨) فذلك صغبة أي إذلال)
 (ولست بمقلي الخلال ولا قالي)
 (بمذكرك أطراف الخطوب ولا والي)^(٩)

ولا خفاء ببراعة هذا النظم، وإحكام هذا النسيج، وشدة هذه العارضة. وله
 تقييدٌ في الفقه على كتاب والده، المسمى بالقوانين الفقهية، ورجزٌ في الفرائض
 يتضمن العمل. وإحسانه كثير. وتقدم قاضياً بخضرة غرناطة، وخطيباً بمسجد
 السلطان، ثامن شوال من عام ستين وسبعمئة. ثم انصرف عنها، وأعيد إليها في عام
 ثلاثة^(١٠) وستين، موصوفاً بالتراهة والمضاء.

مولده: في الخامس عشر من جمادى الأولى عام خمسة عشر وسبعمئة، وهو
 الآن بقيد الحياة.

(١) في الكتيبة: «وما».

(٢) كذا في ديوان امرئ القيس، وفي الكتيبة: «القوى».

(٣) في الديوان والكتيبة: «بما».

(٤) في النسخ: «وقبة».

(٥) في الكتيبة والنسخ: «سوط».

(٦) في الكتيبة: «وبزئت».

(٧) في الديوان والنسخ: «بأجدال».

(٨) في النسخ: «وريضت».

(٩) في الديوان والنسخ: «ولا ألي».

(١٠) في الأصل: «ثلاث»، وهو خطأ نحوي.

أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي
ابن محمد بن سَعْدَة بن سعيد بن مَسْعُودَة بن ربيعة بن صخر
ابن شراحيل بن عامر بن الفضل بن بكر بن بَكَّار بن البدر
ابن سعيد بن عبد الله العامري

يكنى أبا جعفر، من أهل غرناطة.

أوليته: عامر الذي ينتسبون إليه، عامر بن صَعَصَعَة بن هُوَازِن بن منصور بن عَكْرَمَة بن حَفْصَة بن قيس بن عيلان بن مَضَر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن مناقبهم: مَيْمُونَة أم المؤمنين، زوج رسول الله ﷺ، وعَمَرُو بن عامر من أصحابه، وعاصم بن عبد الله الجَعْفَلِي، ويزيد بن الحِمَيْرِي، وغيرهم، مَنَزَل جَدُّهم الداخل إلى الأندلس، وهو بكر بن بَكَّار بن البدر بن سعيد بن عبد الله، قرية طُغْنَر من إقليم بَرَاجلَة ابن خريز من البيرة.

قال ابن الصيرفي في تاريخه الصغير: منزل بني مَسْعُودَة، موضع كرم ومَحْمَدَة، ينتسبون في عامر، وهم أعيان عِلِيَة، فرسان أكابر، وحُجَّاب وكتاب ووزراء، ولهم سابقات ومفاخر، وأوائل وأواخر. ومنهم على القَدَم جليل ونبيه، ومنهم كان وضعي بن جَرَّاح الفقيه، لم يَدْخُل أحد منهم في الفتنة يَدًا، ولا تَأَذَى مُسْلِمًا، ولا مُعَاهِدًا^(١)، على قُدْرَتهم على ذلك، وكفى به فخْرًا لا ينقطع أَبَدًا. ودخل جَدُّهم الأندلس بعقد بني مروان له، سنة أربع وتسعين من الهجرة. ويأتي من ذكر أعلامهم ما يدل على شرف بيتهم، وأصالته، وعُلُوّه وجلالته.

حاله: كان صَدْرًا جليلاً، فقيهاً مضطلعاً، من أهل النَّظَر السَّديد والبحث، قائماً على المسائل، مُشَارِكًا في كثير من الفنون، جَزَلًا مهماً، جاريًا على سُنن سلفه، رِيَّان من العربية. وختم سِيَّوِيه تَفَقُّهًا، وقرأ الفقه، واستظهر كتاب التَّلَقِين، ودرس الأحكام الجيدة، وعرضها في مجلس واحد، وقرأ أصول الفقه، وشرح المُسْتَضْفَى شرحًا حسنًا، وقرأ الإرشاد والهداية، وكان صدرًا في الفرائض والحساب، وألف تاريخ قومه وقرابته.

(١) المعاهد: هو المُسْتَعْرَب، El Mozárabe، الذي كان يعيش في ظل الحكومة الإسلامية بالأندلس.

ولايته: وَلَيَّ القضاء بمواضع من الأندلس كثيرة من البشارات^(١)، أقام بها أعوامًا خمسة؛ ثم لوشة، وأقام بها ثلاثة أعوام؛ ثم بسطة وبُرشانة. ثم انتقل إلى مالقة وأقام بها أعوامًا خمسة. نبهت على مقدار الإقامة لما في ضمن طول سني الولاية من استقامة أمر الوالي. وكان له من أمير المسلمين بالأندلس حُظوة لطيفة لم تكن لغيره، استنزلها بسحر التلطف، وخطبها بلسان التملق حتى استحكمت له أسبابها.

حدّثني بعض أشياخي ممّن كان يباشر مال السلطان يومئذ، قال: وجّه ابن مسعدة ابنه من مالقة، بكتاب في بعض الأغراض الضرورية، ثم رغب فيه أن يُنعم على ولده بالمشافهة للإلقاء أمر ينوب عنه فيه، فلما حضر تناول رَجُل السلطان فقَبَّلها، وقال: أمرني أبي أن أنوب في تغفير الوجه، في هذه الرَجُل الكريمة الجهادية عنه خاصّة؛ لُبَّغْد عهده بها، إلى أمثال هذا مما اقتضت الانتفاع بعاجل من الدنيا زهيد، لا يدري ما الله صانع فيه، والإبقاء بما تجاوز الإفراط في تقدّمه بمالقة، بعده دارُ الأعلام، وديوانُ العقد، وهو حَدَثٌ خَلِّي من العِلْم، قريب العهد بالبلوغ، فكانت على أنها غاية الصُّدور مَلْعَبًا، إلى أن ضرب الدهر ضرباته، وانتقلت الحال.

مُشِيخته: أولهم قاضي الجماعة أبو الحسن بن أبي عامر بن ربيع، وثانيهم القاضي أبو عامر يحيى بن عبد الرحمن بن ربيع، وثالثهم أبو يحيى بن عبد المنعم الخُزرجي، ورابعهم العَدْل الراوية أبو الوليد العطار، وخامسهم أبو إسحق بن إبراهيم بن أحمد الحُشني، وسادسهم الأستاذ أبو الحسن الكِناني الإشبيلي، وسابعهم محمد بن إبراهيم بن مُفَرِّج الأوسي الدُّبَّاع، وثامنهم أبو جعفر أحمد بن علي الرُّعيني، وتاسعهم أبو علي بن أبي الأُخوص.

وصمته: فروى الناس أنه وَجَدَ بخزائنه بعد وفاته زمامٌ يشتمل على مثالب أهل غرناطة، مما يحدثُ على الأيام في أفرادهم من قَلَّتات يُجريها عدم الاتِّصاف بالعِصمة. استقرَّ عند ولده الفضل، زعموا، ثم خَفِيَ أثره، ستر الله عيوبنا برحمته.

وفاته: توفي بمالقة قُرب صلاة المغرب، يوم الأحد الموقِّي عشرين لذي الحجة عام تسعة وتسعين وستمائة، ودفن بخارج باب قُبالة في مالقة المذكورة بمقربة من رابعة بني عَمَّار، وبالروضة المنسوبة لبني يحيى، نقلت من خط ولده الفضل.

(١) البشارات: بالإسبانية Alpujarras، وهي المنطقة الجبلية الواقعة جنوب سفوح جبل شلير. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٤٦).

أحمد بن محمد بن أحمد بن قُغْنَب الأزدي

يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن قُغْنَب.

أوليته: ذكر الأستاذ ابن الزبير في «صلته» وغيره، أن قومًا بغرناطة يُعرفون بهذه المعرفة، فإن كان منهم، فله أولية لا بأس بها.

حاله: كان من شيوخ كُتَّاب الشروط معرفة بالمسائل، واضطلاعًا بالأحكام، وانفرد بصحة الوثيقة، باقعة^(١) من بواقع زمانه، وعَيَّابة^(٢) في مشايخ قطره، يَألف النادرة الحارّة في ملاء من التؤك والغفلة، فلا يهتز لموقع نادرة، ولا يضحك عقب عقد صرعة، لقلقه غير ما مرة، غير مجلس من مجالس القضاء من بني مسعود المُرارة أحكامهم، المرمية بتهكمهم وإزرائه، فتفتّح^(٣) في طريق حكمهم خطى منفسحة، غير مكترث بهوانه، ولا غاصّ بلسانه. وربما قال لبعض الوزعة^(٤) من قاداته بمحبسه، وقد توقّفوا به في بعض الطريق، توقّفًا لسكون غضب قاضيه، ابعثوا بعضهم إلى هذا المخروم، لتري ما عزم عليه، بكلام كثير الثُتور والاستكانة، له في هذا الباب شهرة.

ذكر بعض نزعاته: حدّثني ملازمه، وقف عليه، أبو القاسم بن الشيخ الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب، وقد أعمل والده، رحلة إلى مالقة لزيارة شيخه الذي تلمذ له، وشهر بالشيع فيه، أبي عبد الله الساحلي، صاحب الاتباع والطريقة، وكان مُفرط الغلو فيه، واستصحب ولده الصغير، فسأله عن سفر أبيه وسعيه، فقال: نعم، واحتمل أخي، فقال: أظنه منذ ولد كان غير مغتطس، فحمله الشيخ، فغطّسه، واستغرب كلّ من حضر ضحكًا، فلم يبتسم هو كأنه لا شعور عنده بما ذهب إليه، فكانت إحدى الطوام عند الشيخ.

وحدّثني، قال: جاءت امرأة تخاصم ميثارًا^(٥)، أوصلها من بعض المدن، في أمرٍ نشأ بينهما، ويده عَقْد، فقال بعض جيرانه، من نصّه حاكيا: «وأنه جامعها من موضع كذا إلى كذا» ولم يرسم المدّ على ألف «جا»، فقال الشيخ للمرأة: أتعرفين أن هذا الميثار جامعك في الطريق أي فعل بك، فقالت: معاذ الله، ونفرت من ذلك،

(١) الباقعة: الشديد الدهاء والذكي العارف لا يفوته شيء. لسان العرب (بقع).

(٢) العَيَّابة: الكثير العيب للناس. لسان العرب (عيب).

(٣) تفتّح: دُلّ. لسان العرب (فتح).

(٤) الوزعة: جمع وازع وهو الذي يدبّر أمور الجيش. لسان العرب (وزع).

(٥) الميثار: الذي يجمع الميرة. لسان العرب (مير).

فقال: كذا شهد عليك الفقيه، وأشار إلى جاره. ومثل ذلك كثير. وَلِي القضاء بآماكن عديدة كلوشة، وبَسْطَة، والمَسْنَد، وبُرْجَة، وأَرْجَبَة، وغير ذلك.

مُشِيخته: يحمل عن الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والخطيب الصالح أبي عبد الله بن فضيلة، وأبي محمد بن سِمَاك، وأبي الحسن بن مَسْتَقُور.

مولده: عام سبعين وستمائة. توفي قاضيًا ببُرْجَة بعد عِلَّة سَدِكَت^(١) به في السادس عشر من شعبان من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة، وانتقل منها في وعاء خشب.

ودفن بمقبرة البيرة، تجاوز الله عنه ورحمه.

أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقي

من أهل غرناطة، وجَلَّة بيوتها، ويأتي من ذكر ذلك ما فيه كفاية.

حاله: هذا الرجل مَن صُرِفَت إلى الله رُجْعاه، وَخَلَصَت له معاملته، وخلص إليه انقطاعه. نازع في ذلك نَفْسًا جامحة في الحزم، عريقة في الغفلة، فكتب الله له النصر عليها دَفْعَة، فَسَمَر وفُوت الأصول للحضرة في باب الصَّدَقَة، ونبذ الشواغل، وحفظ كتاب الله على الكِبَرَة، واستقبل المحراب، ملغيًا سواه، ذرأ به، فَاتَّفَق على فضله، وَغُبَط في حُسْن فيته. وله ديوان نبيل يتضمَّن كثيرًا من فقه النفس والبدن، دلَّ على نبله، وهو بحاله الموصوفة إلى هذا العهد. نفعه الله تعالى.

مولده: بغيرناطة عام تسعين وستمائة.

أحمد بن أبي سهل بن سعيد بن أبي سهل الخزرجي

من أهل الحِمَّة^(٢)، يكنى أبا جعفر.

حاله: من أهل الخير والعفاف والطهارة والانقباض، والصحة والسلامة، أصيل البيت، معروف القِدَم ببلده، حرُّ النادرة، قرأ بالحَضرة، واجتهد، وحصل؛ ولازم الأستاذ أبا عبد الله الفَخَّار وغيره من أهل عصره. وَلِي القضاء ببلدة الحِمَّة، ثم بغربي مالقة. وهو الآن قاضٍ بها، مشكور السيرة.

(١) سدكت به: لازمته. لسان العرب (سدك).

(٢) الحمة أو الحامة: بالإسبانية Alhama، وهي من مدن غرناطة، وتقع غربي غرناطة إلى الجنوب من مدينة لوشة، استولى عليها الإسبان سنة ٨٨٧ هـ، أي قبل سقوط غرناطة بعشر سنين. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٦٠).

أحمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله ابن ورد التميمي

من أهل المَرِيَّة. يكنى أبا القاسم، ويُعرف بابن وَرَد. حاله: قال المَلّاحي: كان من جلة الفقهاء المُحدثين. قال ابن الزبير كذلك، وزاد: موفور الحظ من الأدب والنحو والتاريخ، متقدماً في علم الأصول والتفسير، حافظاً متقناً، ويقال إن عِلْم المَالِكِيَّة انتهت إليه الرياسة فيه، وإلى القاضي أبي بكر بن العربي، في وقتها، لم يتقدّمهما في الأندلس أحد بعد وفاة أبي الوليد بن رشد. قال: أخبرني الثقة أبو عبد الله بن جَوْبِر عن أبي عمر بن عات، قال: حديث ابن العربي، اجتمع بابن وَرَد، وتباينا ليلة، وأخذنا في التناظر والتذاكر، فكانا عَجَبًا. يتكلم أبو بكر فيظن السامع أنه ما ترك شيئاً إلّا أتى به، ثم يجيبه أبو القاسم بأبداع جواب يُنسي السامعين ما سمعوا قبله. وكانا أعجوبتي دهرهما. وكان له مجلس يتكلم فيه على الصحيحين، ويخصّ الأخمسة بالتفسير.

حلوله غرناطة: قال المؤرخون: وُلّي قضاء غرناطة سنة عشرين، فعدل وأحسن السيرة، وبه تفقه طلبتها إذ ذاك.

مشيخته: رَوَى عن أبي علي الغساني، وأبي الحسن بن سراج، وأكثر عنه، وأبي بكر بن سابق الصقيلي، وأبي محمد بن عبد الله بن فرج، المعروف بالعشال الزاهد، ولازمه، وهو آخر مَنْ روى عنه. ورحل إلى سبجلماسة، وناظر عند ابن العواد. ورَوَى أيضاً عن أبي الحسن المبارك، المعروف بالخشاب، وكان الخشاب يحمل عن أبي بكر بن ثابت الخطيب وغيره.

مَنْ روى عنه: وروى عنه جماعة كأبي جعفر بن الباذش، وأبي عبيد الله، وابن رفاة، وابن عبد الرحيم، وابن حكيم وغيرهم. وآخر مَنْ روى عنه، أبو القاسم بن عمران الخزرجي بفاس.

وفاته: توفي بالمَرِيَّة في الثاني عشر لرمضان سنة أربعين وخمسائة.

أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن علي الأموي^(١)

يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن بُرْطال، أصله من قرية تُعرف بحارة البحر من وادي طرُش نصر، حصن مُنْتِماس من شرقي مالقة، من بيت خير وأصالة،

(١) ترجمة أحمد بن محمد الأموي، المعروف بابن برطال، في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٥)، والكتيبة الكامنة (ص ١٢٥)، واللحة البدرية (ص ١٤٨).

وانتقل سلفه إلى مالقة، فتوشت لهم بها عروق، وصاهروا إلى بيوتات نبيهة.

حاله: كان من أهل الخير، وكان على طريقة مثلى من الصمت، والسمت، والانقباض، والذكاء، والعدالة والتخصّص، محوّلًا في الخير، ظاهر المروءة، معروف الأصالة، خالص الطّعمة، كثير العفة، مشهور الوقار والعفاف، تحرّف بصناعة التوثيق على انقباض.

دخوله غرناطة: تقدّم قاضيًا بغرناطة، بعد ولاية القضاء ببلده، وانتقل إليها، وقام بالرّسم المضاف إلى ذلك، وهو الإمامة بالمسجد الأعظم منها، والخطابة بجامع قلعتها الحمراء؛ واستقلّ بذلك إلى تاسع جمادى الثانية من عام أحد وأربعين وسبعمائة، على قصور في المعارف، وضعف في الأداة، وكلال في الجذ، ولذلك يقول شيخنا أبو البركات بن الحاج^(١): [الرمّل]

إنّ تقدّم ابنِ برطالٍ دعا طالب^(٢) العلم إلى تركِ الطلّب
حسبوا الأشياء عن^(٣) أسبابها فإذا الأشياء عن غير سبب

إلا أنه أعانته^(٤) الدربة والحُنكة على تنفيذ الأحكام، فلم تؤثر عنه فيها أحدى، واستظهر بجزالة أمضت حكمه، وانقباض عافاه عن الهوادة، فرضيت سيرته، واستقامت طريقته.

مشيخته: لقي والده، شيخ القضاة، وبقية المُحدّثين، وله الرواية العالية، والدرجة الرفيعة، حسبما يأتي في اسمه، ولم يؤخذ عنه شيء فيما أعلم.

شعره: أنشدني الوزير أبو بكر بن ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الحكيم، قال: أنشدني القاضي أبو جعفر بن برطال لنفسه، مودّعًا في بعض الأسفار^(٥):
[الكامل]

أستودع اللهم^(٦) من لوداعهم قلبي وروحي إذ ذنى لوداعي^(٧)

(١) البينان في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٥)، والكتيبة الكامنة (ص ١٢٦).

(٢) في المصدرين السابقين: «طالبى». (٣) في الكتيبة الكامنة: «من».

(٤) في الأصل: «أعانه». وفي تاريخ قضاة الأندلس: «أعانته».

(٥) البينان الأول والثاني في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٦).

(٦) في الأصل: «الله» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكتيبة الكامنة: «الرحمن».

(٧) في الأصل: «دنى الوداع» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكتيبة الكامنة: «قلبي وصبري آذنا بوداع».

بانوا وطرقي^(١) والفؤاد ويقرلي بالك ومسلوب العزاء وداع
فتول يا مولاي حفظهم ولا تجعل تفرقنا فراق وداع

وفاته: توفي، رحمه الله وعفا عنه، أيام الطاعون الغريب^(٢) بمالقة، في منتصف ليلة الجمعة خامس صفر عام خمسين وسبعمائة^(٣)، وخرجت جنازته في اليوم التالي، ليلة وفاته في زكج من الأموات، يناهز الألف، ويُنيف بمائتين، واستمر ذلك مدة، وكان مولده عام تسعة وثمانين وستمائة، رحمه الله تعالى.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي^(٤)

بلنسي شقوري الأصل، يكنى أبا مطرف.

أوليته: لم يكن من بيت نباهة؛ ووقع لابن عبد الملك في ذلك نقل، كان حقه التجافي عنه، لو وفق.

حاله: قال ابن عبد الملك^(٥): كان أول طلبه العلم شديد العناية بشأن الرواية، فأكثر من سماع الحديث وأخذ عن مشايخ أهله، وتفنن^(٦) في العلوم، ونظر في العقليات^(٧) وأصول الفقه، ومال إلى الأدب^(٨) فبرع فيه^(٩) براعة عُد بها من كبار مجيدي النظم. وأما^(١٠) الكتابة، فهو^(١١) علّمها المشهور، وواحدًا الذي^(١٢) عجزت عن ثانيه^(١٣) الدهور، ولا سيما في مخاطبة الإخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان، وله المطولات المُتَخَبَة، والقِصار المقتضبة، وكان يُملح كلامه نظمًا ونثرًا بالإشارة إلى التاريخ^(١٤)، ويُودعه إلماعات بالمسائل^(١٥) العلمية

(١) في الكتيبة: «طرفي».

(٢) أسماء النباهي في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٥): «الطاعون الكبير».

(٣) جاء في اللوحة البدرية (ص ١٠٤) أنه سدد الخطة وأجرى الأحكام إلى الرابع من شهر ربيع الآخر عام ٧٤٣ هـ.

(٤) ترجمة ابن عميرة في الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٥٠) وجاء فيه: «أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزومي»، وبغية الوعاة (ص ١٣٧)، وأزهار الرياض (ج ٥ ص ٦٥).

(٥) الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٥٢).

(٦) في الذيل والتكملة: «ثم تفنن».

(٧) في الذيل والتكملة: «المعقولات».

(٨) في الذيل والتكملة: «فأما».

(٩) في الذيل والتكملة: «فإنه».

(١٠) في الذيل والتكملة: «عن الإتيان بثانيه الدهور».

(١١) في الذيل والتكملة: «بمسائل علمية».

(١٢) في الذيل والتكملة: «بمسائل علمية».

(١٣) في الذيل والتكملة: «التواريخ».

مُنَوَّعة المقصد^(١). قلت: وعلى الجملة، فذات أبي المطرّف فيما ينزع إليه، ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وخِده، إدراكًا وتفئُّثًا، بصيرًا بالعلوم، مُحَدِّثًا، مُكَيِّزًا، راوية ثَبَّتًا، سَجَزَا في التاريخ والأخبار، رَيَّان، مضطلعًا بالأضلين، قائمًا على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جَمَّ العيون، غزير المعاني والمحاسن، وافد أرواح المعاني، شَفَّاف اللفظ، حَزَّ المعنى، ثاني بديع الزمان، في شكوى الجِرْفَةِ، وسوء الحظ، ورونق الكلام، ولُطْف المآخذ، وتبريز النثر على النظم، والقُصُور في السُلْطانيات.

مشيخته: روى عن أبي الخطاب بن واجب، وأبي الربيع بن سالم، وأبي عبد الله بن فرج وأبي علي الثَّلُوبين، وأبي عُمر بن عات، وأبي محمد بن حَوْط الله، لقيهم، وقرأ عليهم، وسمع منهم، وأجازوا له؛ وأجاز له من أهل المشرق أبو الفتح نصر بن أبي الفَرَج وغيره.

مَنْ روى عنه: روى عنه ابنه القاسم، وأبو بكر بن خطاب، وأبو إسحق البُلْقِينِي الحَفِيد، والحسن بن طاهر بن الشُّقُورِي، وأبو عبد الله البَرِّي. وحدث عنه أبو جعفر بن الزُّبَيْر، وابن شقيق، وابن ربيع، وغيرهم مما يطول ذكره.

نباهته: صاحب أبا عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن خطاب قبل توليته ما تولى من رياسة بلده، وانتفع به كثيرًا؛ وكتب عن الرئيس أبي جميل زِيَّان بن سعد وغيره من أمراء شرق الأندلس. ثم انتقل إلى العُدوة^(٢)، واستكتبه الرشيد أبو محمد عبد الواحد بمراكش، مدة يسيرة؛ ثم صرفه عن الكتابة وولاه قضاء مِلْيَانَة من نظر مَرَاكش الشرقي، فتولاه قليلًا، ثم نقله إلى أقصى رِبَاط الفتح. وتوفي الرشيد، فأقره على ذلك الوالي بعده، أبو الحسن المَعْتَضد أخوه؛ ثم نقله إلى قضاء مَكْنَاسَة الزَّيْتُون؛ ثم لما قتل المَعْتَضد لحق بِسَبْتَة، وجرى عليه بطريقها ما يذكر في مِخْنَتِهِ. ثم رَكِب البحر منها متوجِّهًا إلى إفريقية، فَقَدِمَ بِجَايَة على الأمير أبي زكريا يحيى بن الأمير أبي زكريا. ثم توجه إلى تونس فنجحت بها وسائله، ووُلِّي قضاء مدينة الأرش. ثم انتقل إلى قابس، وبها طالت مدة ولايته؛ واستدعاه المُسْتَنْصِر بالله محمد بن أبي زكريا، ولُطْف محله منه، حتى كان يحضر مجالس أُتْسِيه، وداخله بما قرَفَتْهُ الألسُن بسببه حسبما يذكر في وَضْمَتِهِ.

(١) في الذيل والتكملة: «المقاصد».

(٢) المراد عُدوة المغرب.

مناقبه: وهي الكتابة والشعر؛ كان يذكر أنه رأى في منامه النبي، ﷺ، فناوله أقلامًا، فكان يُرَوِّى له أن تأويل تلك الرؤيا، ما أدرك من التبريز في الكتابة، وشياع الذكر، والله أعلم.

ومن بديع ما صدر عنه، فيما كتب في غرض الثورية، قطعة من رسالة، أجاب بها العباس بن أمية، وقد أعلمه باستيلاء الروم على بَلَنْشِيَّة، فقال:

«بالله أي نحو نَنُحُو، أو مَسْطُورٍ نُثْبِت أو نَمُحُو؛ وقد حُذِف الأَصْل والزائد، وذَهَبَت الصَّلَةُ والعائد؛ وباب التعجب طال، وحال اليأس لا تخشى الانتقال؛ وذَهَبَت علامة الرُّفْع، وفقدت نون الجمع؛ والمُعْتَلُّ أَعْدَى الصُّحِيح والمُثَلَّثُ أَرْدَى الفصيح؛ وامتَنَعَت الجُمُوع من الصُّرْف، وأَمَتَّ زيادتها من الحَذْف؛ ومالت قواعد المِلمة، وصِرْنَا جَمْع القِلَّة؛ وظَهَرَتْ علامة الخَفْض، وجاء بدل الكل من البعض».

ومن شعره في المقطوعات التي وَرَى فيها بالعلوم قوله^(١): [الخفيف]

قد عَكَفْنَا عَلَى الْكِتَابَةِ حِينًا وَأَتَتْ^(٢) خُطَّةَ الْقَضَاءِ تَلِيهَا
وَيَكُلُّ لَمْ يَنْبَقْ لِلْجُهْدِ إِلَّا مَنُورًا نَابِيًا وَعَيْشًا كَرِيهَا
نِسْبَةُ بُذِلَتْ وَلَمْ تَتَغَيَّرْ مِثْلُ مَا يَزْعُمُ الْمَهْنَدِسُ فِيهَا

وكفوله مما افتتح به رسالة^(٣): [البسيط]

يَا غَائِبًا سَلَبْتَنِي الْأَنْسَ غَيْبَتُهُ فَكَيْفَ صَبِرِي وَقَدْ كَابَذْتُ بَيْنَهُمَا؟
دَعَاوِي أُنْكَ فِي قَلْبِي فَعَارَضَهَا^(٤) شَوْقِي إِلَيْكَ فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؟

وفي مثل ذلك استفتاح رسالته أيضًا^(٥): [الكامل]

إِنْ^(٦) الْكِتَابُ أَتَى وَسَاحَةً طَرَسَهُ رُوحٌ^(٧) مُوَشَّى بِالْبَدِيعِ مُرْتَعٌ^(٨)
وَلَهُ حَقُوقٌ ضَاقَ وَقْتُ وَجُوبِهَا وَمِنْ الْوُجُوبِ مُضَيِّقٌ^(٩) وَمَوْسَعٌ

(١) الأبيات أيضًا في الجزء الثاني من الإحاطة، في ترجمة أبي البركات محمد بن محمد البليغي، وفيها بعض اختلاف عما هنا.

(٢) في الأصل: «وجاءت» وهكذا ينكسر الوزن. (٣) البيتان في الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٥٢).

(٤) في الذيل والتكملة: «يعارضها». (٥) البيتان في الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٥٣).

(٦) في الذيل والتكملة: «أفندي الكتاب». (٧) في المصدر نفسه: «روض».

(٨) في المصدر نفسه: «مَوْشَع».

(٩) في الأصل: «ضَيِّقٌ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.

وفي مثل ذلك في استفتاح رسالة أيضًا^(١): [الكامل]

كَبُرْتُ بالبُشرى^(٢) أنت وسماعها عيدي الذي لشُهوده تُكْبيري
وكذلك الأعياد سُنة يومها مختصة بزيادة التكبير
وفي أغراض آخر^(٣): [الخفيف]

بَايَعُونَا مَوْدةً هي عندي كالمرأة^(٤) بيعها بالخِذاع
فسأقضي برَدّها ثم أقضي بعدها^(٥) من مدامعي ألف صاع
وله في معنى آخر^(٦): [الطويل]

شَرَطْتُ عليهم عند تسليم مُهجتي وعند انعقاد البيع قُرْبًا يُواصلُ
فلما أَرَدْتُ الأخذ بالشَّرط أغرضوا وقالوا يَصِحُّ البيع والشَّرط باطلُ

تصانيفه: له تأليف في كائنة مَيَزَقَة^(٧) وتغلب الرُوم عليها، نحى فيه منحنى
العماد الأصفهاني، في الفتح القدسي^(٨)؛ وكتابه في تعقيبهِ على فخر الدين بن
الخطيب الرازي في كتاب المعالم في أصول الفقه منه؛ ورده على كمال الدين أبي
محمد بن عبد الكريم السماكي في كتابه المسمى بالتبيان في علم البيان؛ واقتضابه
النبيل في ثروة المريدين^(٩)، إلى غير ذلك من التعاليق والمقالات، ودون الأستاذ أبو
عبد الله بن هانيء السبتي كتابته وما يتخللها من الشعر في سفرين بديعين أنقن
ترتيبهما، وسَمَّى ذلك «بغية المستطرف، وغنية المتطرف»، من كلام إمام الكتابة ابن
عميرة أبي المطرف.

دخوله غرناطة: قال شيخنا أبو الحسن بن الجيَّاب: عمير أخبر بذلك من
شيوخه، والرجل ممن يُرَكَن إليه في أخباره فيما أحقوا على سبيل الرواية والإخبار،
من شرق الأندلس إلى غرناطة، إلى غربها إلى غير ذلك، عند رحلته، وهو الأقرب،
وقال: قال المخبر: عهدي به طويلًا، نحيف الجسم، مُضَفَّرًا، أَثْنَى الأنف؛ أصيب

(١) البتان في الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٥٣). (٢) في الذيل والتكملة: «للشبرى».

(٣) في الذيل والتكملة: «كالمصراة». (٤) في المصدر نفسه: «معها».

(٥) المقصود بها حصار الطاغية البرشلوني لمدينة ميورقة في شوال سنة ٦٢٦ هـ، فأراها من القتل
والسبي، ثم أخذ واليها ابن يحيى فعذبهُ أشدَّ العذاب حتى مات، واستولى النصارى عليها في
عام ٦٢٧ هـ. الروض المعطار (ص ٥٦٨).

(٦) المراد كتاب «الفتح القسي»، في الفتح القدسي، لعماد الدين أبي عبد الله محمد بن هبة الله
الكاتب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. هدية العارفين (ج ٦ ص ١٠٥).

(٧) المراد كتاب «ثورة المريدين» لأحمد بن قسي، المتوفى سنة ٥٤٥ هـ.

بمألقة ما أحوج ما كان إليه، وقد استقبل الكثرة^(١)، ونازعه سوء الحظ. قال الشيخ أبو الحسن الرُّعَيْنِي: إنه كتب إليه يُعلمه بهذه الحادثة عليه، وأن المنهوب من ماله يَعدل أربعة آلاف دينار عُشرية، وكان ورقاً وعيناً وخُلِيّاً وذلك أنه لما قُتل المعتضد، اغتنم الفطرة، وفصل عن مكناسة، قاصداً سبته، فلقي الرفقة التي كان فيها جَمْع من بني مَرِين، سلبوه وكلّ مَنْ كان معه.

مولده: بجزيرة شُقر^(٢)، وقيل ببِلَنسِيّة، في رمضان اثنتين وثمانين وخمسمائة.

وفاته: توفي بتونس ليلة الجمعة الموفية عشرين ذي الحجة عام ستة وخمسين وستمائة^(٣). قال ابن عبد الملك^(٤): وَوَهَم ابن الزبير في وفاته، إذ جعلها في حدود الخمسين وستمائة أو بعدها.

أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى ابن عبد الحق الجدلي^(٥)

من أهل مالقة، يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن عبد الحق.

حاله: من^(٦) صدور أهل العلم والتفنن في هذا الصُّقع الأندلسي، نسيجٌ وخِده في الوقار والحصافة، والتزامٌ مثلى الطريقة، جُمُ التحصيل، سديد النظر، كثير التخصص، محافظ على الرسم، مقبوض العنان في التطفيف في إيجاب الحقوق لأهلها، قريب من الاعتدال في معاملة أبناء جنسه، مقتصد مع ثروته، مؤثر للترتيب في كافة أمره، متوقّد الفكرة مع سكون، لئِنْ العريكة مع مضاء؛ مجموع خصال حميدة مما يفيد التجريب والحُكّة؛ مضطلع بصناعة العربية، حائز قصب السبق فيها، عارف بالفروع والأحكام، مُشارك في فنون من أصول، وطب، وأدب، قائم على

(١) الكثرة: كبر السن. لسان العرب (كبر).

(٢) شُقر: بالإسبانية Jucar، وهي جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة، كثيرة الأشجار والأنهار. الروض المطّار (ص ٣٤٩) ونزهة المشتاق (ص ٥٥٦)، ورسمها ابن صاحب الصلاة في تأريخ المنّ بالإمامة (ص ٤٣٠) هكذا: «شوقر».

(٣) في الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٨٠): «الحجة ثمان وخمسين وستمائة»، وفي بغية الوعاة (ص ١٣٨): «رابع ذي الحجة سنة ثمان وخمسين وستمائة».

(٤) الذيل والتكملة (ج ١ ص ١٨٠).

(٥) في الأصل: «الجدلي» بالذال المعجمة، والتصويب من الكتيبة الكامنة (ص ١٢٣) وبغية الوعاة (ص ١٣٨) حيث ترجمته.

(٦) قارن ببغية الوعاة (ص ١٣٨ - ١٣٩).

القراءة^(١)، إمام في الوثيقة، حَسَنُ الحَطِّ، مَلِيحُ السَّمَةِ والشَّيْبَةِ، عَذَبُ الفُكَاهَةِ، حَسَنُ العهد، تَامَ الرجولية.

نباهته: تصدَّر^(٢) للإقراء ببلده على وفور أهل العلم، فكان سابق الحَلْبَةِ، ومناخ الطَّيْبَةِ، إمتاعًا، وتَفَنَّنَا، وحُسْنُ إلقاء. وتصَرَّف في القضاء ببَلَشٍ وغيرها من غزبي بلده، فحَسُنَّت سيرته، واشتهرت طريقته، وحُمِدَت نزاهته. ثم وَلَّى خُطَّة القضاء بمالقة، والنظر في الأخباس^(٣) بها، على سبيل من الحظوة والنَّباهَةِ، مرجوعًا إليه في كثير من مُهَمَّات بلده، سائمةً وجوه السعادة، ناطقةً السُنَّ الخاصة والعامة بفضلِهِ، جَمَاعَةَ نزاهته، آوِيًا إلى فضل بيته. واتَّصَلت ولايته إِيَّاهَا إلى هذا العهد، وهي أحد محامد الوالي، طولُ مدة الولاية، لا سيما القاضي، ممَّا يَدُلُّ على الصبر، وقَلَّة القذح، وسَدُّ أبواب التُّهم، والله يُعِينهُ، ويمتَع به بمته.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبي عبد الله بن بكر، وهو نجيب حَلْبَتِهِ، والسَّهْمُ المُصِيب من كِنَانَتِهِ، لازمه، وبه تفقَّه وانتفع، وتلا القرآن عليه وعلى محمد^(٤) بن أيوب، وعلى أبي القاسم بن درهم عِلْمِي وقتهما في ذلك، وعلى غيرهما، وتعلَّم الوثيقة على العاقد القاضي أبي القاسم بن العريف. وروى عن الخطيبين المَحْدَثين أبي عثمان بن عيسى وأبي عبد الله الطَّنْجَالِي، وغيرهما.

دخوله غرناطة: تردَّد إليها غير ما مرَّة، منها في أمور عَرَضَتْ في شؤونهِ الخاصة به، ومنها مع الوفود الجَلَّة، من أهل بلده، تابِعًا قبل الولاية، متبوعًا بعدها. ومن شعره قوله في جدول^(٥): [الكامل]

ومُقَارِبِ الشُّطَّيْنِ أَحْكَمَ صَقْلُهُ^(٦) كالمشْرِفِي إِذَا اكْتَسَى بِفِرْنْدِهِ
فَحَمَائِلُ^(٧) الدُّبْيَاجِ مِنْهُ خَمَائِلُ وَمَعَانِقُ^(٨) فِيهَا الْبَهَارُ بِوَزْدِهِ
وقد اختفى طَرْفُ^(٩) له في دَوْخَةٍ كَالسَّيْفِ رُدُّ دُبَابُهُ فِي غَمْدِهِ

(١) في بغية الوعاة: «القراءات».

(٢) قارن ببغية الوعاة (ص ١٣٩).

(٣) الأخباس: الأوقاف.

(٤) في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٣).

(٥) رواية صدر البيت في الكتيبة الكامنة هي:

ومنمنم الشُّطَّيْنِ مِنْهُ حَمَائِلُ

(٦) في الكتيبة: «فخمائِلُ».

(٧) في المصدر نفسه: «مَتَانِقُ».

(٨) في المصدر نفسه: «طُوقُ».

وقوله في شجر نارنج مزهر^(١): [الكامل]

وئمار نارنج نرى أزهارها مع ناتيء^(٢) الثارنج في تضييد
فلذا نظرت إلى تألفها^(٣) أتت كمبايسم أومت للثم خدود

وفاته: في زوال يوم الجمعة السابع^(٤) والعشرين لرجب عام خمسة وستين
وسبعمائة.

مولده: ثامن شوال عام ثمانية وتسعين وستمائة.

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد
ابن الصقر الأنصاري الخزرجي^(٥)

يكنى أبا العباس، من أهل الثغر الأعلى.

أوليته: من سرقسطة^(٦)، حيث منازل الأنصار هنالك؛ انتقل جد أبيه
عبد الرحمن بابنه الصغير^(٧) منها لحدوث بعض الفتن بها إلى بلنسية، فولد له ابنه
عبد الرحمن أبو العباس^(٨) هذا؛ ثم انتقل أبوه إلى المريّة، فولد أبو العباس بها،
ونقله أبوه إلى سبنة فأقام بها مدة^(٩).

حاله: كان^(١٠) محدثًا مكثرًا ثقة، ضابطًا، مقررًا، مجودًا، حافظًا للفقهاء،
ذاكرًا للمسائل^(١١)، عارفًا بأصولها^(١٢)، متقدمًا في علم الكلام، عاقدًا للشروط،
بصيرًا بعللها؛ حاذقًا بالأحكام، كاتبًا بليغًا، شاعرًا محسنًا، أنقش^(١٣) أهل عصره
خطًا، وأجلهم منزعا، ما اكتسب قط شيئًا من متاع الدنيا، ولا تلبس بها، مقتنعًا

(١) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ١٢٣ - ١٢٤).

(٢) في الكتيبة: «تري أزهاره مع قانيء...» (٣) في المصدر نفسه: «تألفها».

(٤) في بغية الوعاة (ص ١٣٩): «الجمعة ثامن عشرين رجب سنة ١٠٠٠».

(٥) ترجمة ابن الصقر في التكملة (ج ١ ص ٦٩)، والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٠٢)،
والوافي بالوفيات (ج ٧ ص ٤٧)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٢٣)، والدياج المذهب (ج ١
ص ٢١١)، ونفع الطيب (ج ٦ ص ٩١).

(٦) قارن بالذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٢٣).

(٧) ابنه الصغير هو محمد، كما ورد أعلاه في الذيل والتكملة.

(٨) في الذيل والتكملة: «أبو أبي العباس هذا».

(٩) في الذيل والتكملة: «سبنة ابن نحو سبعة أعوام، وأقام فيها به مديدة».

(١٠) قارن بالذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٢٥). (١١) في الذيل والتكملة: «لمسائله».

(١٢) في المصدر نفسه: «بأصوله». (١٣) في المصدر نفسه: «أنقش».

باليسير، راضيًا بالدُّون، مع الهمة العلية، والنفس الأبية، على هذا قطع عمره، وكتب من دواوين العلم ودفاتره، ما لا يُحصَى كثرة، بجودة^(١) وضبط وحسن خط؛ وعُني به أبوه في صغره، فأسمعه كثيرًا من الشروح، وشاركه في بعضهم. نفعه الله.

نبأته: استدعاه أبو عبد الله بن حُسُون، قاضي مَرَاكش، إلى كتابته، إلى أن صُرِفَ، واستقرَّ هو متولِّي حُكمها وأحكامها، والصلاة في مسجدِها، ثم ترك الأحكام، واستقرَّ في الإمامة. ولما نصير الأمر إلى الموحِّدين، الحقَّ عبد المؤمن^(٢) منهم، بجملة طلبة العلم، وتحقَّى به، وقُدِّمه إلى الأحكام بحضرة مَرَاكش، فقام بها مدة، ثم ولَّاه قضاء غرناطة، ثم نقله إلى إشبيلية قاضيًا بها مع وليِّ عهده. ولما صار الأمر إلى يعقوب^(٣)، ألزمه خدمة الخزانة العلمية وكانت عندهم من المخطوط التي لا يُعَيَّن لها إلَّا كبار أهل العلم وعليهم، وكانت مواهب عبد المؤمن له جَزلة، وأعطائهم مُترافهة كثيرة.

مشيخته: قرأ القرآن على أبيه، وأكثر عنه، وأجاز له، وعلى أبي الحسن التُّطيلي، قال: وهو أول مَنْ قرأت عليه.

مَنْ روى عنه: روى عنه أبو عبد الله، وأبو خالد يزيد بن يزيد بن رفاعه، وأبو محمد بن محمد بن علي بن وهب القضاعي.

دخوله غرناطة: صُحبة^(٤) القاضي أبي القاسم بن جمرة، ونوّه به واستخلفه إذ وَلَّيَها، وقبض عليه بكتلي يديه، ثم استقضى بها أبو الفضل عياض بن موسى، فاستمسك به، واشتمل عليه؛ لصحبة كانت بينهما وقربة، إلى أن صُرِفَ عنها أبو الفضل عياض، فانتقل إلى وادي آش، فتولَّى أحكامها والصلاة بها، ثم عاد إلى غرناطة سنة ست وثلاثين، إلى أن استقضى بغرناطة في دولة أبي محمد بن

(١) في المصدر نفسه: «وجودة وضبطاً».

(٢) هو عبد المؤمن بن علي، أول خلفاء الموحِّدين بالمغرب والأندلس؛ حكم المغرب سنة ٥٢٤ هـ. وفي سنة ٥٤١ هـ ضمَّ الأندلس إلى المغرب. توفي سنة ٥٥٨ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم الموحِّدين (ص ٧٩). والمعجب (ص ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٩٢)، والحلل الموشية (ص ١٠٧).

(٣) هو يوسف بن عبد المؤمن بن علي، حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٥٨ - ٥٨٠ هـ. ترجمته في البيان المغرب - قسم الموحِّدين (ص ٨٣)، والمعجب (ص ٣٠٨)، والحلل الموشية (ص ١١٩).

(٤) قارن بالذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٢٦).

عبد المؤمن بن علي؛ فُحِمدت سيرته، وشُكِرَ عُدْلُهُ، وظهرت نزاهته، ودام بها حتى ظُنَّ من أهلها.

شعره: وشعره في طريقة الزهد، وهي لا يَنْقُذُ فيها إِلَّا مَنْ قَوِيَتْ عَارِضَتُهُ، وتوفرت مادته^(١): [الطويل]

إِلَهِي لَكَ الْمُلْكُ الْعَظِيمُ حَقِيقَةً وَمَا لِلرُّبَى مَهْمَا مَنَعْتَ نَقِيرُ
تَجَانِي بَنُو الدُّنْيَا مَكَانِي فَسَرَّنِي وَمَا قَدَرُ مَخْلُوقٍ جَدَاهُ حَقِيرُ
وَقَالُوا فَقِيرٌ وَهُوَ^(٢) عِنْدِي جَلَالَةٌ نَعَمْ صَدَقُوا إِنِّي إِلَيْكَ فَقِيرُ

وشعره في هذا المعنى كثير، وكله سَلِسُ المقادة، دالًّا على جُودَةِ الطبع. ومن شعره قوله^(٣): [الكامل]

أَرْضِ الْعَدُوِّ بِظَاهِرٍ مُتَصَصِّعٍ إِنْ كُنْتَ مُضْطَرًّا إِلَى اسْتَرْضَائِهِ^(٤)
كَمْ مِنْ فَتَى أَلْقَى بِوَجْهِ^(٥) بِاسْمِ وَجْوَاحِي تَنْقُذُ^(٦) مِنْ بَغْضَائِهِ

تصانيفه: له^(٧) تصانيف مفيدة تدلُّ على إدراكه وإشرافه، كشرح «الشهاب»، فإنه أبدع فيه، وكتابه «أنوار الأفكار»، فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزُّهَّاد والأبرار، ابتداءً تأليفه، وتوفي دون إتمام غرضه فيه، فكمّله عبد الله ابنه.

محبته: كان ممن وقعت عليه المحنة العظمى بمراءكش يوم دخول الموخّدين إياها، يوم السبت لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال عام أحد^(٨) وأربعين وخمسمائة، على الوجه المشهور في استباحة دماء كل مَنْ اشتملت عليه من الذكور البالغين؛ إِلَّا مَنْ تَسَتَّرَ بِالْإِحْتِفَاءِ فِي سِرْبٍ أَوْ غُرْفَةٍ أَوْ مَخْبَأٍ. وتمادى القتل فيها ثلاثة أيام، ثم نُودِيَ بِالْعَفْوِ عَنْ أَشَارَتِهِ الْفَتَكَةِ الْكُبْرَى، فظهر من جميع الخلق بها، ما يناهز السبعين رجلاً، وبيعوا ببيع أسارى المشركين، هم وذرايهم، وعُفِيَ عنهم، فكان أبو العباس ممن تخطّته المنيّة، واستنقذه من الرّقِّ العفو، وحسبك بها محنة، نفعه الله، وضاعت له في ذلك وفي غيره كتب كثيرة بخطه وبغير خطه، مما تجلّ عن القيمة.

(١) الأبيات في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣٠).

(٢) في الأصل: «وهم» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل والتكملة.

(٣) البيتان في التكملة (ج ١ ص ٧٠)، والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٠٢)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣٠)، ونفح الطيب (ج ٦ ص ٩١).

(٤) في الذيل والتكملة: «إلى إرضائه». (٥) في الذيل والتكملة: «بشر». (٦) في الأصل: «تَنَقُّد»، وكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر.

(٧) قارن بالذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣٠). (٨) في الأصل: «إحدى» وهو خطأ نحوي.

مولده: بالمرية في أواخر شهر ربيع سنة اثنتين^(١) وخمسمائة.

وفاته: توفي بمراكش بين صلاة الظهر والعصر، في يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وخمسمائة^(٢). ودفن يوم الاثنين بعده عقب صلاة الظهر، وصلى عليه القاضي أبو يوسف حجاج؛ وكانت جنازته عظيمة المحفل، كثيرة الجمع؛ برز إليها الرجال والنساء ورفعوا نعشه على الأيدي، رحمه الله.

ومما رثاه به جاره وصديقه أبو بكر بن الطفيل^(٣)، وهو بإشبيلية، بعث بها إلى ابنه مع كتاب في غرض العزاء^(٤): [الوافر]

لأمر ما تَغَيَّرَتِ الدُّهُورُ وَأظْلَمَتِ الْكَوَاكِبُ وَالْبُدُورُ
وطال على العُيُونِ اللَّيْلُ حَتَّى^(٥) كَأَنَّ النُّجُومَ فِيهِ لَا يَغُورُ

أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن

يُعرَف بابن القَبَاب، من أهل فاس، ويكنى أبا العباس.

حاله: هذا الرجل، صَدُرَ عدول^(٦) الحضرة الفاسية، وناهض عُشَمَهُم، طالب، فقيه، نبيه، مُدْرِك، جَيِّد النظر، سديد الفهم؛ حضر الدرس بين يدي السلطان، وولِّي القضاء بجبل الفتوح^(٧)، مُتَّصِفًا فيه بجزالة وانتهاض. تعرَّفَتْ به بمدينة فاس، فأعجبني سيمته؛ ووصل مدينة سَلا في غرض اختبار واستطلاع الأحوال السلطانية؛ واستدعيته فاعتذر ببعض ما يُقبل، فخاطبته بقولي^(٨): [الوافر]

أَبِئْسَ دَعْوَتِي إِمَّا لِشَأْوٍ^(٩) وَتَأْبَى لَوَمَةٍ مُثْلِي الطَّرِيقَةُ

(١) في الأصل: «اثنتين» وهو خطأ نحوي. وفي التكملة (ج ١ ص ٧٠)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣١): ولد سنة ٤٩٢ هـ.

(٢) في المقتضب (ص ١٠٢)، والتكملة (ج ١ ص ٧٠)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣١): توفي سنة ٥٦٩ هـ.

(٣) هو محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي، أحد فلاسفة المسلمين. توفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ. ترجمته في المعجب (ص ٣١١)، والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٢٥)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٥٣٠) في ترجمة أبي الوليد بن رشد. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

(٤) البيتان في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٣١).

(٥) في الذيل والتكملة: «... على نَجْيِ الهَمِّ لَيْلٌ».

(٦) العدول: جمع عَدْل وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم، لسان العرب (عدل).

(٧) جبل الفتوح: هو جبل طارق. (٨) الأبيات في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤١٣).

(٩) في النفع: «لِبَاؤٍ».

وبالمختار للناس اقتداءً وقد خَصَرَ الوليمة والعقيقة
وغيرُ غريبةٍ أن رَقَّ حُرُّ على مَنْ حاله مثلي رقيقة
وإما زاجرُ الورع اقتضاها ويأبى ذاك دُكانُ الوثيقة
وغيثيانُ المنازلِ لاختبارِ يُطالبُ بالجليلة والدقيقة
شكرتُ مَخِيلَةً كانت مجازًا لكم وَحَصَلْتُ بَعْدُ على الحقيقة

وتفرّع الكلام على قولِي: «ويأبى ذاك دُكانُ الوثيقة»، بما دعي إلى بيانه بتصنيفي فيه الكتاب المسنّى «بمثلى الطريقة في ذمّ الوثيقة».

دخوله غرناطة: في عام اثنين وستين وسبعمائة، مُوجَّهاً من قِبَل سلطان المغرب أبي سالم بن أبي الحسن لمباشرة صدقة عَهْدَ بها لبعض الرُّبُط^(١)؛ وهو إلى الآن، عَدَلْ بمدينة فاس، بحال تجلّة وشهرة. ثم تعرّفتُ أنه نُسك ورفض العيش من الشهادة ككثير من الفضلاء.

أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن
ابن الحسين بن الزبير بن عاصم بن مُسلم بن كَعْب الثَّقَفِي^(٢)
يكنى أبا جعفر.

أُولِيَّتُهُ: كَعْبُ الذي ذُكِرَ، هو كعب بن مالك بن عَلْقَمَةَ بن حباب بن مسلم بن عدي بن مرة بن عوف بن ثَقِيف؛ أصله من مدينة جِثَّان، منزل قِنَسْرين، من العرب الداخلين إلى الأندلس؛ ونسبه بها كبير، وَحَسَبُهُ أَصِيل، وَثُرُوتُهُ معروفة. خرج به أبوه عند تغلب العدو عليها عام ثلاثة وأربعين وستمائة، ولأبيه إذ ذاك إثراء وجَدَّة أعانته على طلب العلم، وإرفاد^(٣) مَنْ أخوَجَتْهُ الأزمة في ذلك الزمان من جالية العلماء عن قُرْطبة وإشبيلية كأبي الحسن الصائغ وغيره، فنصحوا له، وَحَطَّبُوا في حَبْلِهِ.

حاله: كان خاتمة المحدثين، وصدور العلماء والمُقرئين، نسيج وحده، في حُسْن التعليم، والصبر على التَّسميع، والملازمة للتدريس، لم تختلْ له، مع تخطّي

(١) الرُّبُط: جمع رباط، وهو الثغر التي يربط فيه الجيش لدفع العدو. لسان العرب (ربط).

(٢) ترجمة أحمد بن إبراهيم الثَّقَفِي في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٣٩)، وشذرات الذهب (ج ٦ ص ١٦)، وبنية الوعاة (ص ١٢٦)، والوافي بالوفيات (ج ٥ ص ١٢٣).

(٣) الإرفاد: الإعانة والعطاء؛ من قوله: رَفَدَهُ وأرَفَدَهُ: أي أعطاه. لسان العرب (رَفَد).

الثمانين، ولا لحقته سامة، كثير الخشوع والخشية، مُسترسِل العُبرة، صليبا في الحق، شديداً على أهل البدع، مُلازماً للسُّنة، جَزْلاً، مُهيّياً، مُعظّماً عند الخاصّة والعامة، عذب الفكاهة، طيب المجالسة، حلو النادرة، يُؤثّر عنه في ذلك حكايات، لا تُخلّ بوقار، وتُجلّ بجلال مُنصب.

فتونه: إليه انتهت الرياسة بالأندلس في صناعة العربية، وتجويد القرآن، ورواية الحديث، إلى المشاركة في الفقه، والقيام على التفسير، والخوض في الأصول.

مُشيخته: أخذ عن الجلة المُقرئين، كالمُقرئ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن مُستقور^(١) الغرناطي الطائي.

نباهته وخُططه: وُلّي قضاء المناكح، والخطبة بالحضرة، وبلغ من الشهرة والإشادة بذكره، ما لم يُبلغه سواه.

تصانيفه: من تأليفه كتاب «صلة الصلة» لابن بشكوال، التي وصلتها بعده، وسمّيت كتابي بـ «عائد الصلة»، وافتتحت أول الأسماء فيه باسمه؛ وكتاب «ملاك التأويل»، في المُتشابه اللفظ في التّنزيل غريب في معناه؛ والبرهان في ترتيب سور القرآن؛ وشرح الإشارة للباقي في الأصول؛ وسبيل الرّشاد في فضل الجهاد؛ وزدع الجاهل عن اغتيال المجاهل، في الرد على السوديّة^(٢)، وهو كتاب جليل يُنبئ عن التفنّن والاضطلاع؛ وكتاب الزمان والمكان، وهو وضمة، تجاوز الله عنه.

شعره: وشعره مختلف عن نمط الإجادة، مما حقّه أن يُثبت أو تُثبت في كتاب شيخنا أبي البركات المسمّى «شعر مَنْ لا شعر له» مما رواه، ممّن ليس الشعر له بضاعة، من الأشياخ الذي عدّ صدرّ عنهم هو. فمن شعره^(٣): [السريع]

ما لي وللتسنال لا أمّ لي سألت^(٤) مَنْ يُعزّل أو مَنْ يلي
حَسبي ذنوب^(٥) أثقلت كاهلي ما إن أرى إظلامها^(٦) ينجلي

(١) كان ابن مستقور خطيباً بليغاً، كاتباً ناظماً ناثراً، بصيراً بعقود الشروط، سابقاً في علم الفرائض. استمرّ قضاؤه مع الخطابة بحضرة غرناطة إلى أول الدولة الإسماعيلية. تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٥).

(٢) السوديّة: فرقة من فرق الصوفية في المغرب.

(٣) البيتان الأول والثاني في بغية الوعاة (ص ١٢٧).

(٤) في الأصل: «إنّ سألت» وكذا ينكسر الوزن، لذلك اقتضى حذف «إنّ». وفي بغية الوعاة: «إنّ سلت».

(٥) في بغية الوعاة: «ذنوبي».

(٦) في المصدر نفسه: «غماءها».

يا ربِّ، عَفَوْا إِنِّهَا جَمَّةٌ إن لم يكن عَفْوُكَ لا أُمُّ لي

محفنته: نشأت بينه وبين المُتغلب بمالقة من الرؤساء التَّجبييين من بني إِشْقِيلُولَةَ^(١)، وَخَشَّة أَكْدَتْهَا سَعَايَة بَعْض مَنْ اسْتَهْوَاهُمْ رَجُلٌ مُمَخْرَقٌ مِنْ بَنِي الشُّعُوذَةِ، وَمُنْتَحَلِي الكَرَامَةِ، يَمْتَطِيهَا، زَعَمُوا إِلَى النُّبُوَّةِ، يُعَرِّفُ بِالْفَزَارِيِّ، وَاسْمُهُ إِبْرَاهِيمَ، غَرِيبُ الْمُنَزَّعِ، فَذُ الْمَأْخُذِ، أُعْجُوبَةُ مِنْ أَعَاجِيبِ الْفِتَنِ، يَخْبِرُ بِالْقَضَايَا الْمُسْتَقْبَلَةِ، وَيَتَسَوَّرُ سَوْرَ حِمَى الْعَادَةِ فِي التَّطَوُّرِ مِنَ التَّقَشُّفِ وَالْخِلَابَةِ، تَبِعَهُ ثَاغِيَةٌ وَرَاغِيَةٌ، مِنَ الْعَوَامِ الصُّمِّ الْبُكْمِ، مُسْتَفْزِينَ فِيهِ حَيَاتِهِ؛ وَبَعْدَ زَمَنٍ مِنْ مَقْتَلِهِ، عَلَى يَدِ الْأَسَازِ بَغْرِنَاطَةِ، قَرَعَهُ بِحَقِّهِ، وَبَادَرَهُ بِتَعْجِيلِ نَكِيرِهِ، فَاسْتَغَاثَ بِمِفْتَونَةِ الرَّئِيسِ، ظَهِيرِ مُحَالِهِ فَاسْتَعَصَى لَهُ؛ وَبَلَغَ الْأَسَازِ النِّيَاحَةَ، فَفَزَّ لَوَجْهِهِ، وَكُبِسَ مَنْزِلُهُ لِحِينِهِ، فَاسْتَوْلَتِ الْأَيْدِي عَلَى ذَخَائِرِ كُتُبِهِ، وَفَوَائِدِ تَقْيِيدِهِ عَنْ شَبُوحِهِ، عَلَى مَا طَالَتْ لَهُ الْحَسْرَةُ، وَجَلَّتْ فِيهِ الرِّزْيَةُ. وَلَحَقَ بَغْرِنَاطَةُ أَوِيَا إِلَى كَنْفِ سُلْطَانِهَا الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَمِيرِ الْغَالِبِ بِاللَّهِ بْنِ نَصْرٍ؛ فَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ، وَعَرَّفَ حَقَّه، وَانْثَالَ عَلَيْهِ الْجَمُّ الْغَفِيرَ لَالْتِمَاسِ الْأَخْذِ عَنْهُ، إِلَى أَنْ نَالَتهُ لَدَيْهِ سَعَايَة، بِسَبَبِ جَارٍ لَهُ، مِنْ صُلَحَاءِ الْقَرَابَةِ النُّصْرِيَّةِ، كَانَ يَنْتَابُهُ لِنِسْبَةِ الْخَيْرِيَّةِ، نُمِيَّتَ عَنْهُ فِي بَابِ تَفْضِيلِهِ، وَاسْتَهَالَتْ لِلْأَمْرِ كَلِمَةً، أَوْجَبَتْ امْتِحَانَهُ، وَتَخَلَّلَ تِلْكَ الْأَلْفِيَّةُ^(٢) مِنَ الشُّكِّ، مَا قَصُرَ الْمَحْنَةُ عَلَى إِخْرَاجِهِ مِنْ مَنْزِلِهِ الْمَجَاوِرِ لِذَلِكَ الْمَتَّهِمِ بِهِ، وَمَنَعَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ، وَالتَّزَامِهِ قَعْرَ مَنْزِلٍ انْتَقَلَ إِلَيْهِ بِحَالٍ اعْتَزَلَ مِنَ النَّاسِ، مُحْجُورًا عَلَيْهِ مُدَاخِلَتَهُمْ؛ فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا، إِلَى أَنْ سُرِّيَتْ عَنْهُ النُّكْبَةُ، وَأَفْشَعَتِ الْمَوْجِدَةُ، فَتَخَلَّصَ مِنْ سَرَارِهَا بِدَرَّةٍ؛ وَأَقْلُ مِنْ شَكَاتِهَا جَاهُهُ، وَأَحْسَنْتْ أَثَرُهَا حَالَهُ، وَكَثُرَ مُلْتَمَسُهُ، وَعَظُمَتْ فِي الْعَالَمِ غَاشِيَتُهُ؛ فَدُونُ وَاسْتَمَعَ، وَرَوَى وَدَرَّبَ، وَخَرَّجَ وَأَدَّبَ وَعَلَّمَ، وَحَلَّقَ وَجَهَرَ. وَكَانَتْ لَهُ الطَّايِلَةُ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْحُسْنَى، بَعْدَ ثَبَاتِ أَمْرِهِ، وَالظُّفَرُ بِكَثِيرٍ مِنْ مُنْتَهَبِ كُتُبِهِ. وَأَلَّتِ الدَّوْلَةُ لِلْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ نَصْرَ بِمَالِقَةٍ، فَطَالِبِ الْفَزَارِيِّ الْمَذْكُورِ، وَاسْتَظْهَرَ بِالشَّهَادَاتِ عَلَيْهِ، وَبَالَغَ فِي دَحْضِ دَعْوَتِهِ، إِلَى أَنْ قُتِلَ عَلَى يَدِهِ بَغْرِنَاطَةُ.

حَدَّثَنَا شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْجِيَّابِ، قَالَ: لَمَّا أَمَرَ بِالتَّأَهُبِ لِلْقَتْلِ وَهُوَ فِي السَّجْنِ الَّذِي أَخْرَجَ مِنْهُ إِلَى مَصْرَعِهِ، جَهَرَ بِتِلَاوَةِ «يَاسِينَ»، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ الدَّعْرَةِ، مِمَّنْ

(١) بَنُو إِشْقِيلُولَةَ مَوْلِدُونَ، كَانَتْ تَرْبِيَتُهُمْ بَيْنِي نَصْرَ حَكَامِ غَرْنَاطَةِ مَصَاهِرَةٍ، وَقَدْ قَامُوا بِبَعْضِ الثَّوَرَاتِ ضِدَّ بَنِي نَصْرٍ، وَاسْتَقَلُّوا بِبَعْضِ الْمَدَنِ وَالثَّغُورِ.

(٢) الْأَلْفِيَّةُ: هِيَ مَا أَلْفِي مِنَ التَّحَاجِّيِّ، جَمْعُهَا أَلْفِيَّةٌ. لِسَانُ الْعَرَبِ (لَقِي).

جمع السجن بينهم «اقرأ قرآنك؛ على أي شيء تتفعل على قرآننا اليوم» أو ما هو في معناه. فتركها مثلاً للودعته.

مولده: ببلده جيان في أواخر عام سبعة وعشرين وستمائة.

وفاته: وتوفي بغرناطة في الثامن لشهر ربيع الأول عام ثمانية وسبعمائة. وكانت جنازته جنازة بالغه أقصى مبالغ الاحتفال، نُقِر لها الناس من كل أوب، واحتمل طلبة العلم نعشه على رؤوسهم، إلى جدته، وتبعه ثناء جميل، وجزع كبير، رحمه الله.

ورثاه طائفة من طلبته؛ وممن أخذ عنه منهم، القاضي أبو جعفر بن أبي حبل في قصيدة أولها: [الطويل]

عزیز علی الإسلام والعلم ماجد	فكيف لعيني أن يلم بها الكرى؟
وما لماقي لا تفيض شؤونها	نجيها على قدر المصيبة أحمر؟
فوالله ما تقضي المدامع بعض ما	يحق ولو كانت سيولا وأبحرا
حقيق لعمرى أن تفيض نفوسنا	وفرض على الأكباد أن تتفطرا

أحمد بن عبد الولي بن أحمد الرعيني

يكنى أبا جعفر؛ ويُعرف بالمواد، صنعة لأبيه الكاتب الصالح.

حاله: هو من بيت تصاون، وعفاف، ودين، والتزام السنة؛ كانوا في غرناطة في الأشعار، وتجويد القرآن، والامتياز بحمله، وعكوفهم عليه، نظراء بني عزيمة بإشبيلية، وبني الباذش بغرناطة؛ وكان أبو جعفر هذا، المترجم له ممن تطوى عليه الخناصر، معرفة بكتاب الله، وتحقيقاً لحقه، وإتقاناً لتجويده، ومثابرة على تعليمه، ونضجاً في إفادته؛ على سنن الصالحين، انقباضاً عن الناس، وإعراضاً عن ذوي الروجاءة، سنيّاً في قوله وفعله، خاصياً في جميع أحواله، مخشوشيناً في ملبسه، طويل الصمت إلا في دنت تعليمه، مقتصرّاً في مكسبه، متقياً لدينه، محافظاً على أواده. سأل منه رجل يوماً كُتِبَ رقعة، ففهم من أمره، فقال: يا هذا، والله ما كُتِبَ قطّ يميني إلا كتاب الله، فأحب أن ألقاه على سجيّتي بتوفيقي، إن شاء الله، وتسديده.

مشيخته: قرأ على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، والأستاذ أبي جعفر الحزموني الكفيف، وأبي عبد الله بن رشيد وغيرهم.

وفاته: توفي في شهر ذي الحجة من عام خمسين وسبعمائة، ودفن بجبانة باب الفخارين^(١) في أسفل السفح تجاه القصور الحكمية، وأتبعه الناس أحسن الشاء.

أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري^(٢)

من أهل غرناطة؛ يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن الباذش.

أوليته: أصله من جيان، من بيت خيرية وتَصُون.

حاله: قال القاضي أبو محمد بن عطية: إمام في المقرئين، ومقدم في جهابذة الأستاذين، راوية، مكثير، متفطن في علوم القراءة، مُسْتَبْجِر، عارف بالأدب والإعراب، بصير بالأسانيد، نقاد لها، مُمَيِّزٌ لَشَاذُهَا من معروفها. قال ابن الزبير: وما علمت فيما انتهى إليه نظري وعلمي، أحسن انقياداً لطرق القراءة، ولا أجَلُّ اختياراً منه، لا يكاد أحد من أهل زمانه، ولا ممن أتى بعده أن يبلغ درجته في ذلك.

مشيخته: تَقَّهَ بأبيه الإمام أبي الحسن، وأكثر الرواية عنه، واستوفى ما كان عنده، وشاركه في كثير من شيوخه. أخذ القراءات عَرَضاً عن الإمام المقرئ أبي القاسم بن خلف بن النحاس، رحل إلى قرطبة ولازمه؛ وعلى المقرئ أبي جعفر هابيل بن محمد الحلاسي، وأبي بكر بن عياش بن خلف المقرئ، وأبي الحسن بن زكريا، وأبي الحسن شريح بن محمد، وأبي محمد عبد الله بن أحمد الهمداني الجياني، رحل إليه إلى جيان، وتلا على جميع من ذكر. وروى بالقراءة والسمع والإجازة على عالم كثير، كأبي داود وأبي الحسن بن أخي الرُّش المقرئين، أجازا له؛ وأبي علي الغساني في الإمامة والإتقان، وقد أسمع عليه؛ وأبي القاسم خلف بن صواب المقرئ، وأبي عامر محمد بن حبيب الجياني، وأبي عبد الله محمد بن أحمد الثجبي الشهير، وأبي محمد بن السيد، وأبي الحسن بن الأخضر، وأبي محمد عبد الله بن أبي جعفر الحافظ، وعالم كثير غير هؤلاء يطول ذكرهم.

من روى عنه: روى عنه أبو محمد عبد الله، وأبو خالد بن رفاعة، وأبو علي القلمي المَعْدِي، وأبو جعفر بن حكم، وأبو الحسن بن الضحَّاك، وابنه أبو محمد عبد المنعم، وهو آخر من حدث عنه.

(١) كان باب الفخارين ضمن أبواب غرناطة الثمانية، وكان يقع تجاه قرية الفخار الواقعة على أطراف غرناطة الشمالية. ملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٢٩٥).

(٢) ترجمة أحمد بن علي الأنصاري في الصلة (ج ١ ص ١٣٨)، وذكره ابن الأبار في التكملة (ج ٤ ص ٢٥٩) في ترجمة أخته مُسْعِدَة بنت علي بن أحمد بن الباذش.

تصانيفه: ألف كتاب «الإقناع» في القراءات، لم يُؤَلَّف في بابِه مثله؛ وألف كتاب «الطرق المتداولة» في القراءات، وأتقنه كل الإتقان، وحرَّر أسانيدَه وأتقنها، وانتقى لها، ولم يَتَسع عُمُرُه لفرش حُرُوفهم وخلافهم من تلك الطرق. وألف غير ما ذكر.

مولده: في ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

وفاته: توفي ثاني جُمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة^(١)، وكان عمره تسعاً وأربعين سنة.

أحمد بن عبد النور بن أحمد بن راشد رحمه الله

يكنى أبا جعفر، من أهل مالقة، ويُعرَف بيته بها ببني راشد. قال شيخنا أبو البركات: نقلت اسم هذا من خطِّه، ولا نعلم له نسباً إذ لم يكتبه، وشهَر بابن عبد النور.

حاله: كان قيماً على العربية إذ كانت جُلُّ بضاعته؛ يشارك مع ذلك في المنطق، على رأي الأقدمين، وعَرُوض الشعر، وقرائض العبادات من الفقه، وقَرُض الشعر. وكان له اعتناء بَقْكَ الْمُعَمَّى، والتَّنْقِير عن اللُّغُوز. وكان ذكي الصوت عند قراءة القرآن، خاشعاً به. رحل من بلده مالقة إلى سَبْتَة، ثم انتَقَلَ إلى الأندلس وأقرأ بوادي آش مدة، وتردَّد بين ألمرية وبرجَة، يُقرئ بها القرآن، وغير ذلك مما كان يشارك فيه. وناب عن بعض القضاة وقتاً، ودخل غرناطة أثناء هذا السَّفر.

مشيخته: قال: أخذ القرآن قراءةً على طريقة أبي عمرو والدَّاني، على الخطيب أبي الحسن الحجاج بن أبي رِيحانة المَرْبَلِي^(٢)، ولا يُعَلِّم له في بلده شيخ سواه، إذ لم يكن له اعتناء بقاء الشيخ، والحمل عنهم. ومن عِلْمِي أَنه لَقِيَ أبا الحسن بن الأخضر المُقَرَّى العَرُوضي بسَبْتَة، وذاكره في العَرُوض، ولا أعلم هل أخذ عنه أم لا. ورأيت في تَقاييدي أن القاضي أبا عبد الله بن بُرْطال حَدَّثني أن ابن النور قرأ معه الجُزُولِيَّة^(٣) على ابن مُفَرِّج المالقي تَفَقَّهاً، وقَيَّد عليه تَقْييداً عرضه بعد ذلك، على ابن

(١) في الصلاة: توفي سنة ٥٤٢ هـ.

(٢) نسبة إلى مَرْبَلَة Marbella، وهي مدينة صغيرة مُسَوَّرة، تبعد ستين كيلو متراً إلى الغرب من مالقة: الروض المعطار (ص ٥٣٤).

(٣) الجزولية: نسبة إلى الجزولي، وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجُزُولِي، النحوي المغربي المَثَوَّى سنة ٦١٠ هـ، وقيل: ٦٠٦ و ٦٠٧ هـ. والجزولية هي المقدمة التي كتبها أبو موسى المذكور وسماها القانون، وكلها رموز وإشارات، اعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها. =

مُفرج هذا؛ وهو محمد بن يحيى بن علي بن مفرج المالقي. وروى عن أبي الحجاج المتقدم الذكر تيسير أبي عمرو الداني، وجُمِلَ الزُّجَاجِي، وأشعار السَّتَّة، وفصيح أحمد بن يحيى بن ثعلب؛ وقفتُ في ذلك على رِقِّ أجاز فيه بعض الآخذين عنه، ولم ينصَّ فيه على كيفية أخذه لهذا الكُتَيْب عن أبي الحجاج. قال: ورأيت في ذلك الرِّقِّ أوهاماً تدلُّ على عدم شعوره بهذا الباب جملة، وقبول التَّلْقِين فيه، فلا ينبغي أن يُزَكَّن إلى مثله فيه. ورأيت بخط بعض أصحابه، أنه تفقَّه على أبي زِيحانة، ولعلَّ ذلك في صغره قبل أن يتحكَّم طلبه ويتفتَّن، إذ الفنون التي كان يأخذ منها لم يكن أبو زِيحانة ملياً بها، ولا منسوباً إليها.

تصانيفه: منها كتاب «الحلية في ذكر البسمة والتصلة». وكتاب «رُصف المباني في حروف المعاني»، وهو أجَلُّ ما صَنَّفَ ومما يدلُّ على تقدُّمه في العربية. وجزء في العَرُوض. وجزء في شواذه. وكتاب في شرح الكوامل لأبي موسى الجُزُولِي، يكون نحو الموطأ في الجرم، وكتاب شرح مُعَرَّب أبي عبد الله بن هشام الفهري، المعروف بابن الشَّوَّاش، ولم يتمَّ، انتهى فيه إلى همزة الوصل، يكون نحو الإيضاح لأبي علي. وله تقييدٌ على الجُمَل غير تام.

شعره: قال: وشعره وَسَطٌ، بعيدٌ عن طرفي الغثِّ، والسمينُ أبعد؛ وكان لا يعتني فيه ولا يتكلفه، ولا يقصد قصده؛ وإنَّ ذلك لعذر في عدم الإجادة. قال الشيخ: ولدي جزءٌ منه تصفُّخته على أن أستجيد منه شيئاً أثبتَه له في هذا التعريف، فرأيت^(١) بعضه أشبه ببعض من الغرابة، فكتبت من ذلك، لا مؤثراً له على سواء من شعره؛ بل لمرجح كونه أوَّل خاطر بالبال، ومُتَلَمِّح خَطُّه بالبَصَر، فمن ذلك قوله من قصيدة، ومن خطه نقلت: [الطويل]

محاسنُ مَنْ أهوى يضيق لها الشرحُ	له الهمةُ العَلِيَاء والخُلُقُ السَّمَحُ
له بهجةٌ يَغشَى البصائرُ نورُها	وتَغشَى بها الأبصارُ إنْ غَلَسَ الصُّبْحُ
إذا ما رَنَّا فاللُحْظُ سَهْمٌ مُفَوَّقُ	وفي كلِّ عُضْوٍ من إصابته جُرحُ
إذا ^(٢) ما انتنى زهواً وولَّى تَبَخَّرَا	يغار لذاك القَدُّ من لينه الرُّمَحُ
وإنْ نَقَحَتْ أزهاره عند روضَةٍ	فيُخَجِّلُ رِيًّا زَهْرُها ذلك النُّفْحُ
هو الزُّمَنُ المأمولُ عند ابتهاجه	فليَمُتْهُ ليلٌ، وغُرَّتْهُ ضُبْحُ

= وفيات الأعيان (ج ٣ ص ٤٢٨ - ٤٢٩)، ونفح الطيب (ج ٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧).
(١) في الأصل: «فرايته». (٢) في الأصل: «إذا» وهكذا ينكسر الوزن.

لقد خَافَت نفسي مُدَامَةَ حَبِّهِ فقلبي من سُكْرِ المُدَامَةِ لَا يَضْحُو^(١)
وقد هَامَ قلبي في هَوَاهُ فَبَرَّحْتُ بأسراره عَيْنٌ لَمَذَمَعَهَا سَبْحُ

غفلته ونوكه: كان هذا الرجل من البَّله في أسباب الدنيا؛ له في ذلك حكايات دائرة على السنة الشقاة من المُلازمين له وغيرهم، لولا تواترها لم يُصَدَّق أحد بها، تُشَبِّه ما يُحكى عن أبي علي السُّلَوِيِّين. منها أنه اشترى فَضْلَةً مِائَةً فَبَلَّهَا، فَانْتَقَصَتْ كما يجري في ذلك، فذرعها بعد البَلِّ فوجدتها تنقصت، فطلب بذلك بائع المِلف، فأخذ يبيِّن له سبب ذلك فلم يفهم. ومنها أنه سار إلى بعض بساتين المَريّة مع جماعة من الطلبة واستصحبوا أرزًا ولَبَنًا، فطلبوا قدرًا لطبخه، فلم يجدوا، فقال: اطيخوا في هذا القِدر، وأشار إلى قدر بها بقية زَنْت مما يُطلى به السُّواني^(٢) عندهم، فقالوا له: وكيف يسوغ الطبخ بها، ولو طُبِخ بها شيء مما تأكله البهائم لعافته، فكيف الأرز باللبن؟ فقال لهم: اغسلوا معانديكم، وحينئذ تُدخلون فيها الطعام. فلم يَدْرُوا ممَّا يَعْجَبُونَ، هل من طيب نفسه بأكله مما يطبخ في تلك القِدر، أم من قياسه المعدة عليها. ومنها أنهم حاولوا طبخ لحم مرّة أخرى في بعض الثَّزّه فذاق الطعام من المِلح بالمِغْرَقَةِ، فوجده مُحتَاجًا للمِلح، فجعل فيه ملحًا وذاقه على القُور، قبل أن ينحلّ المِلح ويسري في المَرَقَةِ الأولى، فزاد ملحًا إلى أن جعل فيه قَدْر ما يَزُجُّج اللحم، فلم يقدروا على أكله. ومنها أنه أدخل يده في مِفْعَر صهريج فصادت يده ضِفْدَعًا كبيرًا، فقال لأصحابه: تَعَالَوْا إِن هُنَا حَجَرًا رَطْبًا. ومنها أنه استعار يومًا من القائد أبي الحسن بن كماشة، جوادًا ملوكيًا، قِزطاسي اللُّون، من مراكب الأمراء؛ فقال: وجّه لي تلك الدَّابَّة، فتَحَيَّل أنه يريد الرُّكوب إلى بعض المواضع، ثم تَفَطَّنَ لَغَفْلَتِهِ، وقال: أي شيء تصنع به، قال: أَجْعَلُهُ يُسْنِي شيئًا يسيرًا في السَّانية، فقال: تُقْضَى الحاجة، إن شاء الله بغيره؛ ووجّه له حمارًا بِرَسْم السَّانية، وهو لا يشعر بشيء من ذلك كله.

قلت: وفي موجودات الله تعالى عِبَرٌ، وأغربها عالم الإنسان، لما جَبِلُوا عليه من الأهواء المختلفة، والطِّبَاعِ المَشْتَتَةِ، والقصور عن فهم أقرب الأشياء، مع الإحاطة بالغوامض.

حدَّثنا غير واحد، منهم عَمِي أبو القاسم، وابن الزُّبَيْر؛ إِذْنًا في الجُمْلَةِ، قالوا: حدَّثنا أبو الحسن بن سراج عن أبي القاسم بن بَشْكُوَال، أن الفقيه صاحب الوثائق أبا

(١) في الأصل: «لا يصح».

(٢) السواني: جمع السانية وهي كالساقية، ما يُسقى عليه الزرع والحيوان. لسان العرب (سنا).

عمر بن الهندي، خاصم يوماً عند صاحب الشرطة والصلاة، إبراهيم بن محمد، فنكَل وعجز عن حُجته، فقال له الشرطي: ما أعجب أمرك، أبا عمر، أنت ذكي لغيرك، بكّي^(١) في أمرك؛ فقال أبو عمر: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لِّلنَّاسِ﴾^(٢). ثم أنشد متمثلاً: [المنسرح]

صرتُ كأنني دُبالةٌ نُصِبَتْ تُضِيءُ للناسِ وَهِيَ تَحترقُ

قال: وحَدَّثني الشيخ أبو العباس بن الكاتب ببجاية، وهو آخرُ مَنْ كَتَبْنَا معه الحديث من أصحاب ابن الغمَّاز، قال: كنت آوياً إلى أبي الحسن حازم القُرطَباني بتونس؛ وكنت أحسن الخياطة، فقال لي: إن المُستنصر خَلَعَ على جُبَّة جَزِيَّة من لباسه، وتفصيلها ليس من تفصيل أثوابنا بشرق الأندلس، وأريد أن تُحلَّ أكمامها؛ وتُصَيِّرَها مثل ملابسنا. فقلت له: وكيف يكون العمل؟ فقال: تُحلَّ رأس الكُم، ويوضع الضيق بالأعلى، والواسع بالطرف. فقلت: وبِمَ يُحَيَّرُ الأعلى؟ فإنه إذا وُضع في موضع واسع، سَطَّت علينا فُرَج ما عندنا؛ ما يُصنع فيها إلا أن رَقَعْنَا بغيرها، فلم يفهم. فلما يَشْتُ منه تركته وانصرفت. فأين هذا الذهن الذي صنع المَقْصُورَة وغيرها من عجائب كلامه.

مولده: في رمضان من عام ثلاثين وستمائة.

وفاته: توفي بالمرية يوم الثلاثاء السابع والعشرين لربيع الآخر من عام اثنين وسبعمائة، ودفن بخارج باب بجاية بمقبرة من تربة الشيخ الزاهد أبي العباس بن مكنون.

أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن محمد
ابن مصادف بن عبد الله

يُكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن مصادف؛ من أهل بَسْطَة، واستوطن غرناطة، وقرأ وأقرأ بها.

حاله: من أهل الطلب والسلطة والاجتهاد، وممن يقصرُ مُحَصِّلَه عن مدى اجتهاده، خُلُوب^(٣) اللسان، غريب الشُّكْل، وَحْشِيَّه، شتيت الشَّعر مُعْفِيَه، شديد

(١) البَكِّي: الكثير البكاء، وهنا جاءت بمعنى: العاجز والعي. لسان العرب (بكي).

(٢) سورة البقرة، الآية ١٨٧.

(٣) الخُلُوب: الخلاب؛ يقال: خلِبَ إذا آمَلَ قلبه بالطف القول. لسان العرب (خلب).

الافتحام والتسور، قادر على اللصوق بالأشراف. رمى بنفسه على مشيخة الوقت يطرقهم طروق الأمراض الوافدة، حتى استوعب الأخذ عن أكثرهم، يَفُكُّ عن فائدته فَكُّ المُتَبَرِّم، ويتزعمها بواسطة الحيا، ويسلّط على قنصها جوارح التبذل والإطراء، إلى أن ارتسم في المقرئين بغرناطة، محوّلًا عليه بالتخب والملق، وسدّ الترتيب المدني؛ ولوثة تعتاده في باب الركوب والثقافة^(١)، وهو لا يستطيع أن يستقرّ بين دفتي السّرج، ولا يفرق بين مبسوط الكف، أخذ نفسه في فنون، من قرآن، وعربية، وتفسير، وامتنحن مرّات لجزّ أحرّكة القلقة الذي لا يملك عنانه، ثم تخلص من ذلك، وهو على حاله إلى الآن.

مشيخته: قرأ على الخطيب ببسطة، وأبي الأصبح بن عامر، والخطيبين بها أبي عبد الله وأبي إسحق ابن عمّه، وأبي عبد الله بن جابر، وعلى أبي عثمان بن ليون بالمريّة، والخطيب أبي عبد الله بن الغربي بحمّة^(٢). وتلا القرآن بقراءاته السبع على شيخنا أبي عبد الله بن الوالي العمّاد. وروى عن شيخنا أبي الحسن بن الجيّاب، وعلى الحاج أبي الحجاج الساحلي، فكتب الإقراء، وأخذ الفقه عن الأستاذ أبي عبد الله البيّاني^(٣). وقرأ على قاضي الجماعة أبي القاسم البيّاني، وقرأ على قاضي الجماعة أبي القاسم الحسّني. ولازم أستاذ الجماعة أبا عبد الله الفخّار، وقرأ عليه العربية، وصاهره على بنته الأستاذ المذكور، وانتفع به، إلى أن ساء ما بينهما عند وفاة الشيخ فرماه بترمية بيضاء تخلّقها، مشيرة عجب، مرّة. وحاله متصلة على ذلك، وقد ناهز الاكتهال.

أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة

أصله من شرق الأندلس، وانتقل إليها والده، يكنى أبا جعفر.

حاله: كان نسيج وحده، وقريع دهره، معرفة بالهيئة، وإحكامًا للآلة الفلّكية، ينحّث منها بيده ذخائر، يقف عندها النظر والخبر، جمال خطّ، واستواء صنعة، وصحة وضع، بلغ في ذلك درجة عالية، ونال غاية بعيدة، حتى فضّل بما ينسب إليه

(١) الثقافة: الطعن بالرماع. لسان العرب (ثقف).

(٢) الحمّة أو الحامة: بالإسبانية Alhama، وهي من مدن غرناطة، وتقع غربي غرناطة إلى الجنوب من مدينة لوشة. استولى عليها الإسبان سنة ٨٨٧ هـ، أي قبل سقوط غرناطة بعشر سنين. راجع مملكة غرناطة (ص ٦٠).

(٣) البيّاني: نسبة إلى بيّانة Baena، وهي مدينة من أعمال قرطبة. الروض المعطار (ص ١١٩).

من ذلك كثيرًا من الأعلام المتقدمين، وأزرت آلاته بالحمایريات والصُّفاریات وغيرها من آلات المُحَكِّمين، وتغالى الناس في أثمانها، أخذ ذلك عن والده الشيخ المثقن شيخ الجماعة في هذا الفن.

وفاته: في عام تسعة^(١) وسبعمئة.

أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري

من أهل غرناطة؛ يكنى أبا جعفر، ويعرف بالجبالى.

حاله: عكف صَدْرًا من زمانه منتظمًا في العُدُول^(٢)، آوًا إلى تخصيص وسكون ودماثة، وحُسن معاملة، له بصر بالمساحة والحساب، وله بصر بصناعة التعديل وجداول الأبراج، وتدرَّب في أحكام النجوم، مقصودٌ في العلاج بالرقا والعزائم، من أولي المسِّ والخَبَال، تعلق بسبب هذه المُنتحلات بأذيال الدول، وانبت من شيمته الأولى، فنال استعمالًا في الشهادات المَخْزنية، وخبر منه أيام قُزبه من مبادئ الأمور والنواهي، ومُدَاخلة السلطان؛ صمت وعقل، واقتصارٌ على مُعانة ما امْتَحَن به، وهو الآن بقيد الحياة.

مشيخته: أخذ تلك الصناعة عن الشيخ أبي عبد الله الفخار، المعروف بابي خُزَيْمة، أحد البواق الموسومين بصحة الحكم فيها، وعلى أبي زيد بن مُشْنَى؛ وقرأ الطب على شيخنا أبي زكريا بن هَذِيل، رحمه الله؛ ونسب إليه عند الحادثة على الدولة وانتقالها إلى يد المتغلب، اختيار وقت الثورة وضمان تمام الأمر، وشهد بذلك بِحُط، وغيب من إيثارها. فلما عاد الأمر إلى السلطان المُزَعج بسببها إلى العُدوة، أوقع به نكيرًا كثيرًا، وضربه بالسَّياط التي لم يخلصه منها إلا أجله، وأجلاه إلى تونس في جملة المُعَرَّبين في أواخر عام ثلاثة وستين وسبعمئة.

وأخبرني السلطان المذكور أن المُترجم به كتب إليه بمدينة فاس، قبل شروعه في الوجْهة، يخبره بعودة الملك إليه، وبإيقاعه المكروه الكبير به، بما شهد بمهارته في الصنعة، إن صحَّ ذلك كله من قوانينها، نسأل الله أن يُضفي علينا لبوس سَتره، ويقينا شرَّ عثرات الألسن بمتته.

(١) في الأصل: «تسع» وهو خطأ نحوي.

(٢) العُدُول: جمع عَدَل وهو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم. لسان العرب (عدل).

أحمد بن محمد الكرنى

من أهل غرناطة.

حاله: شيخ الأطباء بغرناطة على عهده، وطبيب الدار السلطانية. كان نسيج وحده، في الوقار والتزاهة، وحُسن السُّمت، والتزام مُثلى الطريقة، واعتزاز الصنعة؛ قائماً على صناعة الطبِّ، مُقرِّناً لها، ذاكراً لنصوصها، مُوفِّقاً في العلاج، مقصوداً فيه، كثير الأمل والمثاب، مكبوح العنان عما تثبت به أصول صناعته من علم الطبيعة، سنيئاً، مقتصرّاً على المُداواة؛ أخذ عن الأستاذ أبي عبد الله الرُّقُوطي، ونازعه بالباب السلطاني، لما شُدَّ، واحتيجَ إلى ما لديه في حكم بعض الأموال المعروضة على الأطباء، منازعةً أوجبت من شيخه يميناً أن لا يحضّر معه بمكان، فلم يجتمعا بباب السلطان بعد، مع التمسُّك بما لديهما، وأخذ عن ابن عَرُوس وغيره، وأخذ عنه جملةً من شيوخنا كالطبيب أبي عبد الله بن سالم، والطبيب أبي عبد الله بن سراج وغيرهما.

حدّثني والذي بكثير من أخباره في الوقار وحُسن الترتيب، قال: كنت آنس به، ويُعجبني استقصاؤه أقوال أهل هذا الفن من صناعته، على مشهوره، فلقد عُرِضَ عليه، لعليل لنا، بعضُ ما يخرج، وفيه حية، فقال على فتور، وسكونه، ووقار كثير: هذا العليلُ يتخلص، فقد قال الرئيس ابن سينا في أرجوزته: [الرجز]

إِنْ خَرَجَ الْخَلَطُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي يَوْمِ بُخْرَانٍ فَعَنْ حَيَاةٍ

وهذا اليوم من أيام البُخرانية، فكان كما قال.

وفاته: كان حياً سنة تسعين وستمائة.

أحمد بن محمد بن أبي الخليل، مُقرِّج الأموي^(١)

مولاهم، من أهل إشبيلية، يُكنى أبا العباس، وكناه ابن فُرْتُون أبا جعفر وتفرّد بذلك، يُعرَف بالعُشَّاب، وابن الرومية، وهي أشهرهما وألصقهما به.

أولَّيته: قال القاضي أبو عبد الله^(٢): كان ولاء^(٣) جدّه أحد أطباء قُرطبة، وكان قد تبنّاه، وعن مولاّه أخذ علم النبات.

(١) ترجمة أحمد بن محمد ابن الرومية في اختصار القدر المعلى (ص ١٨١)، والذيل والتكملة (السفر الأول ص ٤٨٧)، والتكملة (ج ١ ص ١٠٧)، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٣٤١).

(٢) هو ابن عبد الملك المراكشي، وهذا النص في كتابه: الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٤٨٨).

(٣) في الأصل «والد» والتصويب من الذيل والتكملة، وجدّه هو: مفرج.

حاله: كان نسيج وحده، وفريد دهره، وعُرّة جنسه، إمامًا في الحديث، حافظًا، ناقدًا، ذاكراً تواريخ المُحدثين وأنسابهم وموالدهم ووفاتهم، وتغديلتهم، وتجريحهم؛ عجيبة نوع الإنسان في عصره، وما قبله، وما بعده، في معرفة علم النبات، وتمييز العُشب، وتخليتها، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو مغرب جسًا، ومشاهدة، وتحقيقًا، لا مدافع له في ذلك، ولا منازع، حجة لا تُردّ ولا تُدفع، إليه يُسلم في ذلك ويُرجع. قام على الصُنعتين؛ لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرُّحلة والتَّقيد، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية، وحفظ الأديان والأبدان، وغير ذلك. وكان زاهدًا في الدنيا، مؤثرًا بما في يديه منها، مَوْسَعًا عليه في معيشته، كثير الكتب، جماعًا لها، في كل فن من فنون العلم، سَمَحًا لطلبة العلم، ربما وهب منها لملتمسه الأصل النفيس، الذي يَعْزُّ وجوده، احتسابًا وإعانةً على التعليم؛ له في ذلك أخبار مُنبئة عن فضله، وكرم صنعه، وكان كثير الشَّغف بالعلم، والدُّؤوب على تقييده ومُداومته، سهر الليل من أجله، مع استغراق أوقاته، وحاجات الناس إليه، إذ كان حَسَنَ العلاج في طَبِّه المَورود، الموضوع، لثقتة ودينه.

قال ابن عبد الملك^(١): إمامُ المغرب قاطبةً فيما كان سبيله، جالَ الأندلس، ومَغْرِبَ العُدوة، ورحل إلى المشرق، فاستوعب المشهور من إفريقية، ومِصرِه، وشامِه، وعِراقِه، وجِجَازِه، وعابن الكثير ممّا ليس بالمغرب؛ وعَاوَضَ كثيرًا فيه، كل ما أمكنه، بَمَن يشهد له بالفضل في معرفته، ولم يزل باحثًا على حقائقه، كاشفًا عن غوامِضه، حتى وقف منه على ما لم يقف عليه غيره، مَمَّن تقدّم في الملة الإسلامية، فصار واحد عصره فردًا، لا يُجارِيه فيه أحد بإجماع من أهل ذلك الشأن.

مذاهبه: كان^(٢) سُنِّيًّا ظاهريّ المذهب، مُنحِيًّا على أهل الرأي، شديد التعصّب لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، على دين متين، وصلاح تام، وورع شديد؛ انتشرت عنه تصانيف أبي محمد بن حزم، واستنسخها^(٣)، وأظهرها، واعتنى بها، وأنفق عليها أموالًا جَمَّة، حتى استوعبها جُملة، حتى لم يَشُدَّ له منها إلّا ما لا خطر، متقدمًا ومقتدرًا على ذلك بِجِدَّتِه ويساره، بعد أن تفقّه طويلاً على أبي الحسن^(٤) محمد بن أحمد بن رَزْقُون في مذهب مالك.

(١) الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٥١٢ - ٥١٣) والنقل عن ابن عبد الملك ليس حرفيًا.

(٢) النص في الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٥١٢).

(٣) في الذيل والتكملة: «واستحسنها». (٤) في الذيل والتكملة: «أبي الحسين».

مشيخته: البحرُ الذي لا نهاية له؛ روى^(١) بالأندلس عن أبي إسحق
الدمشقي^(٢)، وأبي عبد الله اليافري^(٣)، وأبي البركات بن داود^(٤)، وأبي بكر بن
طلحة، وأبي عبد الله بن الحر، وابن العربي، وأبي علي الحافظ، وأبي زكريا بن
مرزوق، وابن يوسف، وابن ميمون الشريشي، وأبي الحسن بن زَرْقُون، وأبي دَرَّ
مُضْعَب، وأبي العباس ابن سيّد الناس، وأبي القاسم البراق، وابن جمهور، وأبي
محمد بن محمد بن الجثنان، وعبد المنعم بن قَرَس، وأبي الوليد بن عُفَيْر؛ قرأ عليهم
وسمع. وكتب إليه مُجِيزًا من أهل الأندلس والمغرب، أبو البقاء بن قديم، وأبو جعفر
حكم الجفّار، وأبو الحسن الشَّقُورِي، وأبو سليمان بن حُوط الله، وأبو زكريا
الدمشقي، وأبو عبد الله الأَنْدَرُشي، وأبو القاسم بن سمجون، وأبو محمد الحجري.
ومن أهل المشرق جُملة، منهم أبو عبد الله الحَمْداني بن إسماعيل بن أبي صيف،
وأبو الحسن الحُوَيْكِر نزيل مكة. وتأذى إليه أَدُنُّ طائفة من البَغْدَادِيِّين والعراقيين له في
الرواية، منهم ظَفَر بن محمد، وعبد الرحمن بن المبارك، وعلي بن محمد اليزيدي،
وَقَتَاخَسِرُو فَيَرُوز بن سعيد، وابن سَنِيَّة، ومحمد بن نصر الصَّيْدَلَانِي، وابن تيمية،
وابن عبد الرحمن الفارسي، وابن الفضل المؤدّن، وابن عمر بن الفَخَّار، ومسعود بن
محمد بن حَسَن المنيعي، ومنصور بن عبد المنعم الصاعدي، وابن هَوَازِن القُشَيْرِي،
وأبو الحسن التَّيْسَابُورِي.

وحجّ^(٥) سنة اثنتي عشرة^(٦) وستمائة، فأذى الفريضة سنة ثلاث عشرة^(٧)، ولُقّب
بالمشرق بحب الدين. وأقام في رحلته نحو ثلاثة أعوام، لَقِيَ فيها من الأعلام
العلماء، أكابر جُملة؛ فمنهم بِبِجَاية أبو الحسن بن نصر^(٨)، وأبو محمد بن مَكِّي^(٩)؛
وبتونس أبو محمد المَرْجَانِي^(١٠)؛ وبالإسكندرية أبو الأصمغ بن عبد العزيز^(١١)، وأبو

(١) راجع الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٤٨٨).

(٢) في الذيل والتكملة: هو أبو إسحق بن خلف الدمشقي السهوري.

(٣) في الذيل: «ابن عبد الله اليافري».

(٤) هو أبو البركات عبد الرحمن بن داود الزيزاري، كما في الذيل والتكملة.

(٥) النص في الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٤٨٩ - ٤٩١).

(٦) في الأصل: «اثني عشر» وهو خطأ نحوي.

(٧) في الأصل: «الفريضة ثلاث عشر».

(٨) في الذيل والتكملة: «أبو الحسن علي بن أبي نصر بن عبد الله».

(٩) في الذيل والتكملة: «بيكي».

(١٠) في الذيل والتكملة: «أبو محمد عبد الله بن المرجاني».

(١١) في الذيل والتكملة: «أبو الأصمغ عيسى بن عبد العزيز بن سليمان».

الحسن بن جُبَيْر الأندلسي^(١)، وأبو الفضل بن جعفر بن أبي الحسن بن أبي البركات، وأبو محمد عبد الكريم الربيعي، وأبو محمد العثماني أجاز له ولم يلقه، وبمصر أبو محمد بن سُخْنُون القُمَارِي ولم يلقه، وأبو الميمون بن هَبَّة الله القرشي؛ وبمكة أبو علي الحسن بن محمد بن الحسين، وأبو الفتوح نصر بن أبي الفرج الحُصْرِي؛ وببغداد^(٢) أحمد بن أبي السعادات، وأحمد بن أبي بكر؛ وابن أبي^(٣) خَط طُلحة، وأبو نصر القرشي^(٤)، وإبراهيم بن أبي ياسر القطيعي، ورُسلان^(٥) المَسْدِي، والأسعد بن بَقَا^(٦)، وإسماعيل بن بَارَكُش الجوهري، وإسماعيل بن أبي البركات.

وبَرَنَامَج مَزُونَاتِهِ وَأَشْيَاخِهِ، مُشْتَمِلٌ عَلَى مِثْنٍ^(٧) عَدِيدَةٍ، مَرْتَبَةٌ أَسْمَاؤُهُمْ عَلَى الْبِلَادِ الْعِرَاقِيَةِ وَغَيْرِهَا، لَوْ تَتَبَعْتُهَا لَاسْتَبَعَدْتُ الْأَوْرَاقَ، وَخَرَجْتُ عَمَّا قَصَدْتُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَرَاكِشِي بَعْدَ الْإِتْيَانِ عَلَى ذَلِكَ^(٨): مُنْتَهَى الثَّقَاتِ أَبُو الْعَبَّاسِ النَّبَاتِي، مِنَ الثَّقِيدِ الَّذِي قَيَّدَ، وَعَلَى مَا ذَكَرَهُ فِي فَهَارِسٍ لَهُ مُنَوَّعَةٌ، بَيْنَ بَسْطٍ، وَتَوْسُطٍ، وَاقْتِضَابٍ، وَقَفَّتْ مِنْهَا بِخَطِّهِ، وَبِخَطِّ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَالْأَخْذِينَ عَنْهُ.

مَنْ أَخَذَ عَنْهُ: حَدَّثَ بِبَغْدَادٍ بِرَوَايَةٍ وَاسِعَةٍ، فَأَخَذَ عَنْهُ بِهَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ سَعِيدٍ اللَّوْشِي؛ وَبِمِصْرَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْقَطُّ، وَبِغَيْرِهَا مِنَ الْبِلَادِ أَمَّةٌ وَقَلُّ بِرَوَايَةٍ وَاسِعَةٍ، وَجَلِبَ كُتُبًا غَرِيبَةً.

تَصَانِيفُهُ: لَهُ^(٩) فِيمَا يَنْتَحِلُهُ مِنْ هَذَيْنِ الثَّقَيْنِ تَصَانِيفٌ مُفِيدَةٌ، وَتَنْبِيهَاتٌ نَافِعَةٌ، وَاسْتِدْرَاكَاتٌ نَبِيلَةٌ بِدِيعَةٍ^(١٠)، مِنْهَا فِي الْحَدِيثِ وَرِجَالِهِ^(١١) «المعلم بزوائد البخاري على مُسْلِمٍ»، وَ«اِخْتِصَارُ غَرِيبٍ»^(١٢) حَدِيثُ مَالِكٍ لِلدَّارَقُطْنِيِّ، وَ«نُظْمُ الدَّرَارِيِّ فِيمَا

(١) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ جُبَيْرٍ».

(٢) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «وَبِغْدَادٍ... الْأَحَامِدُ: ابْنُ أَبِي السَّعَادَاتِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ أَحْمَدُ بْنُ كَرَمَ بْنِ غَالِبٍ».

(٣) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «وَابْنُ أَبِي فِي خَطِّ طُلْحَةٍ».

(٤) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «الْقُرَشِيُّ».

(٥) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «وَأَرْسَلَان... السَّيْدِي».

(٦) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «بَقَا».

(٧) رَاجِعُهَا فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ (فِي السَّفَرِ الْأَوَّلِ ص ٤٩٠ - ٥١٠).

(٨) الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ (السَّفَرِ الْأَوَّلِ ص ٥١٠).

(٩) النَّصُّ فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ (السَّفَرِ الْأَوَّلِ ص ٥١٣).

(١٠) فِي الذَّيْلِ وَالتَّكْمَلَةِ: «بَارِعَةٌ، وَتَعْقِبَاتٌ لَازِمَةٌ».

(١١) فِي الْأَصْلِ: «مِنْهَا فِي الْحَدِيثِ: رِجَالُ الْمَعْلَم...»، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الذَّيْلِ.

(١٢) فِي الْأَصْلِ: «غَرَائِبُ».

تفرد به مُسلم عن البخاري، و«توهين طرق حديث الأربعين»، و«حكم الدعاء في أدبار الصلوات»، و«كيفية الأذان يوم الجمعة»، و«اختصار الكامل في الضعفاء والمتروكين» لأبي محمد بن عدي، و«الحافل في تذييل الكامل»؛ و«أخبار محمد بن إسحق».

ومنها في النبات^(١)، «شرح حشائش دياسقوريدوس وأدوية جالينوس»، والتنبيه على أوهام ترجمتها^(٢)؛ و«التنبيه على أغلاط الغافقي»^(٣)، و«الرحلة النباتية والمستدركة»، وهو الغريب الذي اختص به، إلا أنه عديم عيِّنه بعده، وكان معجزة في فنه؛ إلى غير ذلك من المصنّفات الجامعة، والمقالات المفيدة المفردة، والتعليق المتنوعة.

مناقبه: قال ابن عبد الملك وابن الزبير، وغيرهما^(٤): «عني تلميذه، الآخذ به، الناقد، المحدث، أبو محمد بن قاسم الحرّار، وتهتم بجمع أخباره، ونشر مآثره، وضمن ذلك مجموعاً حفيلاً نبيلاً».

شعره: ذكره أبو الحسن بن سعيد في «القدح المعلى»، وقال^(٥): «جَوَّالٌ بالبلاد المشرقية»^(٦) والمغربية، جالسُهُ بإشبيلية بعد عوده^(٧) من رحلته، فرأته متعلقاً بالأدب، مرتاحاً إليه ارتياح البُخترى لَحْلَبَ، وكان غير متظاهر بقول الشعر، إلا أن أصحابه يسمعون منه، ويروون عنه، وحملت عنه^(٨) في بعض الأوقات، فقيّدت عنه هذه الأبيات: [البسيط]

خَيْمٌ بِجَلْقٍ ^(٩) بين الكأس والوتر	في جئَةٍ هي مِلءُ السَّمْعِ والبَصَرِ
ومَنَعِ الطَّرْفَ في مَزَايَ محاسنها	تَرَوْضُ ^(١٠) فِكْرَكَ بين الروض والزهر
وانظر إلى دَهَبِيَّاتِ الأصيل بها	واسمَعِ إلى نَعَمَاتِ الطَّيْرِ في الشَّجَرِ ^(١١)
وقُلْ لِمَنْ لَمْ في لذاته بَشَرًا	دَعْنِي فَإِنَّكَ عندي من سِوَى البَشَرِ

(١) في الذيل والتكملة: «ومنها في النبات شرحه حشائش...».

(٢) في الذيل والتكملة: «مترجمها».

(٣) في الذيل والتكملة: «الغافقي في أدوية».

(٤) في الذيل والتكملة (السفر الأول ص ٥١٣).

(٥) النص مع الأبيات في القدح المعلى (ص ١٨١).

(٦) في القدح المعلى: «بالبلاد المغربية والمشرقية».

(٧) في القدح المعلى: «عودته».

(٨) في القدح المعلى: «وحملته عليه».

(٩) في الأصل: «خَيْمٌ تَخْلُقُ»، والتصويب من القدح المعلى، وجلق: هي دمشق.

(١٠) في الأصل: «بروض» والتصويب من القدح المعلى.

(١١) في الأصل: «السحر» والتصويب من القدح المعلى.

قال: وكثيراً^(١) ما يُطنب على دمشق، ويصف محاسنها، فما انفصل^(٢) عني إلا وقد امتلاً خاطري من شكلها، فأتمتنى أن أحلّ مواطنها، إلى أن أبلغ^(٣) الأمل قبل المُنون: [الوافر]

ولو أني^(٤) نظرتُ بألفِ عَيْنٍ لما استَوَقْتُ محاسنها العُيونُ
دخوله غرناطة: دخلها غيرَ ما مرّة لسماع الحديث، وتحقيق النبات؛ ونَقَرَ عن
عيون النبات بجبالها، أحد خزائن الأدوية، ومظان الفوائد الغريبة، يجري ذلك في
تواليه بما لا يفتر إلى شاهد.

مولده: في محرم سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وفاته: توفي بإشبيلية عند مغيب الشفق من ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر سنة
سبع وثلاثين وستمائة^(٥). وكان ممّا رُئي، قال ابن الزبير: ورثاه جماعة من تلامذته
كأبي محمد الحرّار، وأبي أمية إسماعيل بن عُفير، وأبي الأصمغ عبد العزيز
الكتّوري^(٦) وأبي بكر محمد بن محمد بن جابر السقّطي، وأبي العباس بن سليمان؛
ذكر جميعهم الحرّار المذكور في كتاب ألفه في فضائل الشيخ أبي العباس، رحمه الله.

أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خَلَف بن سعيد بن خلف

ابن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن

ابن عثمان بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن عَمّار بن ياسر

صاحب رسول الله، ﷺ^(٧)

أولّيته: بيت بني سعيد العنسي، بيت مشهور في الأندلس بقلعة يَخْصِب،
نزلها جدّهم الأعلى، عبد الله بن سعيد بن عَمّار بن ياسر؛ وكان له حُظوة

(١) في القدح المعلق: «وكان كثيراً ما يُطنب على الشام على دمشق...».

(٢) في القدح المعلق: «فلا انفصل عنه إلا...».

(٣) في القدح المعلق: «بلغ الله الأمل والأمان قبل المنون».

(٤) في القدح: «وإنّي لو نظرت...».

(٥) في القدح المعلق: «وكانت وفاته ببلده في سنة إحدى وثلاثين وستمائة». وفي الذيل والتكملة
(السفر الأول ص ٥١٤): «توفي بين الظهر والعصر من يوم الأحد الموفّي ثلاثين من ربيع
الأول، وانفقوا أن ذلك كان سنة سبع وثلاثين وستمائة».

(٦) نسبة إلى كبتور. وضبطها الحميري بالقاف، وقال: «كبتور: قرية من قرى إشبيلية». الروض
المعطار (ص ٤٥٤).

(٧) يكنى أحمد بن عبد الملك بن سعيد بأبي جعفر، وترجمته في المغرب (ج ٢ ص ١٦٤)،
ورايات المبرزين (ص ١٧٠)، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٣١٧)، والحلل الموشية (ص ١١٨).

لمكانه من اليمانية بقرطبة؛ وداره بقرب قنطرتها، كانت معروفة؛ وهو بيت القيادة والوزارة، والقضاء، والكتابة، والعمل، وفيما يأتي، وما مرّ كفاية من التنبيه عليه.

حاله: قال الملاحى: كان من جلة الطلبة، ونبهائهم؛ وله حظ بارع من الأدب، وكتابة مفيدة، وشعر مدون. قال أبو الحسن بن سعيد في كتابه المسمى بـ «الطالع»^(١): نشأ مجنباً في الأدب، حافظاً للشعر، وذاكراً لنظم الشريف الرضى، ومهيار، وابن خفاجة، وابن الرقاق، فرقت طباعه، وكثر اختراعه وإبداعه؛ ونشأت معه حفصة بنت الحاج الركوني؛ أديبة زمانها، وشاعرة أوانها، فاشتد بها غرامه، وطال حبّه وهيامه؛ وكانت بينهما منادات ومغازلات أزبت على ما كان بين علوة وأبي عبادة؛ يمز من ذلك إلمام في شعر حفصة، إن شاء الله.

نباهته وحظوته: ولما وفدت الأندلس، على صاحب أمر الموحدين في ذلك الأوان، وهو مختل بجبل الفتح^(٢)، واحتفل شعراؤها في القصائد، وخطباؤها في الخطب بين يديه، كان في وفد غرناطة، أبو جعفر هذا المترجم به، وهو حدث السن في جملة أبيه وإخوته وقومه، فدخل معهم على الخليفة، وأنشده قصيدة؛ قال أبو الحسن بن سعيد، كتبت منها من خط والده قوله^(٣): [الطويل]

تَكَلَّمْ فَقَدْ أَضَعَى إِلَى قَوْلِكَ الدُّمُرُ	وَمَا لِسَوَاكَ الْيَوْمَ ^(٤) نَهْيٌ وَلَا أَمْرُ
وَرَمَ كُلَّ مَا قَدْ شِئْتَهُ فَهُوَ كَائِنٌ	وَحَاوِلْ فَلَا بَرَّ يَفُوتُ وَلَا بَخْرُ
وَحَسْبُكَ هَذَا الْبَحْرُ فَأَلَا ^(٥) فَإِنَّهُ	يُقْبَلُ تُرْبًا دَاسَهُ جَيْشُكَ الْغَمْرُ ^(٦)
وَمَا صَوْتُهُ ^(٧) إِلَّا سَلَامٌ مُرَدَّدٌ	عَلَيْكَ وَعَنْ بَشَرٍ بِقُرْبِكَ يَفْتَرُ ^(٨)
بِجَيْشٍ لَكِي يَلْقَى أَمَامَكَ مَنْ غَدَا	يُعَانِدُ أَمْرًا لَا يَقُومُ لَهُ أَمْرُ

(١) هو كتاب «الطالع السعيد»، في تاريخ بني سعيد.

(٢) جبل الفتح: هو جبل طارق، وهنا يشير ابن الخطيب إلى الحصن الذي بناه عبد المؤمن بن علي في هذا الجبل سنة ٥٥٥ هـ، وقد تولى بناءه ابنه السيد أبو سعيد عثمان صاحب غرناطة، وشاور فيه الحاج يعيش المهندس. الحلل الموشية (ص ١١٨).

(٣) الأبيات في الحلل الموشية (ص ١١٨ - ١١٩) وفيه أن قائلها هو أبو حفص بن سعيد العنسي. وورد منها في المغرب (ج ٢ ص ١٦٥) بيتان فقط هما الأول والرابع.

(٤) في المغرب: «الآن». (٥) في الحلل الموشية: «بالأ».

(٦) في الحلل الموشية: «النجر». (٧) في المغرب: «صوتها».

(٨) في الحلل الموشية: «مفتر». ورواية صدر البيت في المغرب هي:

وفي كل قلب من تصعدها دُغْرُ

أَطْلُ^(١) على أرض الجزيرة سَعْدُهَا وجدد فيها ذلك الخَبَرُ الخَبِرُ^(٢)
فما طارقٌ إلا لذلك مُطَرِّقٌ ولا ابن نُصَيْرٍ لم يكن ذلك النُصْرُ
هما مَهْدَاهَا كي تَحُلَّ بأفقهَا كما حَلَّ عند التَّمِّ بالهالة البَذْرُ

قال: فلما أتمها أنشئ عليه الخليفة، وقال لعبد الملك أبيه: أيهما خير عندك في ابنك؟ فقال يا سيدنا: محمدٌ دخل إليكم مع أبطال الأندلس وقوادها، وهذ مع الشعر، فانظروا ما يجب أن يكون خبيراً عندي، فقال الخليفة: كلُّ مُيسَّرٍ لما خُلِقَ له، وإذا كان الإنسان متقدماً في صناعة فلا يُؤسَفُ عليه، إنما يُؤسَفُ على متأخر القدر، محروم الحظ. ثم أنشد فحول الشعراء والأكابر. ثم لُمَا وَلِيَّ غَرْنَاةٍ ولَدَهُ السيد أبو سعيد، استَوَزَرَ أبا جعفر المذكور، واتصلت حظوته إلى أن كان ما يذكر من نكته.

محتثه: قال قريبه وغيره: فسَد ما بينه وبين السيد أبي سعيد لأجل حَفْصَةِ الشاعرة، إذ كانت محلّ هواه، ثم اتصلت بالسيد، وكان له بها علاقة، فكان كلُّ منهما على مثل الرُضْف^(٣) للآخر، ووجد حُسَّاده السبيل، إلى إغراء السيد به، فكان مما نُجِيَ به عنه، أن قال لحفصة يوماً: وما هذا الغرام الشديد به، يعني السيد، وكان شديد الأذمة^(٤)، وأنا أقدر أن أشتري لك من المَغْرَضِ أسوداً خيراً منه بعشرين ديناراً؛ فجعل السيد يتوسد له المهالك، وأبو جعفر يتحفظ كل التحفظ. وفي حالته تلك يقول: [الكامل]

مَنْ يشتري مني الحياة وطيبها ووزارتي وتأدبي وتهذبي
بمَحَلٍّ راعٍ في دُزَى مَلُومَةٍ زُوِيَتْ عن الدنيا بأقصى مَرْتَبٍ
لا حُكْمٍ يأخذه بها إلا لِمَنْ يغفُو ويرؤف دائماً بالمُذنبِ
فلقد سَيِّئْتُ من الحياة مع امرئ مُتَغَضِّبٍ متغلبٍ مترتبٍ
الموتُ يلحظُنني إذا لاحظته ويقوم في فكري أوان تَجَنَّبِي
لا أهتدي مع طول ما حاولته لرضاه في الدنيا ولا لِلْمَهْرَبِ

(١) في الحلل الموشية: «أطيل».

(٢) رواية عجز البيت في الحلل هي:

ويمدها ذلك المسخير الخبير

(٣) الرُضْف: الحجارة الممحة يُوغر بها اللَّبَن. والمراد أن كلاً منهما شديد الحقد على الآخر. محيط المحيط (رضف).

(٤) الأذمة: اللون المُشْرَب سواداً. محيط المحيط (أدم).

وأخذ في أمره مع أبيه وإخوته، وقتنة ابن مَرْدَنِيش^(١) مضطربة؛ فقال له أخوه محمد وأبوه: إن حَرَكْنَا حركة كُنا سببًا لهلاك هذا البيت، ما بقيت دولة هؤلاء القوم، والصبر عاقبته حميدة، وقد كُنا ننهالك عن المُمَارَجة^(٢)، فلم تُركب إلَّا هواك؛ وأخذ مع أخيه عبد الرحمن، واتفقا على أن يثورا في القلعة باسم ابن مَرْدَنِيش، وساعدهما قريبهما على ذلك حاتم بن حاتم بن سعيد، وخطبوا ابن مردنیش، وصدر لهم جوابه بالمبادرة، ووصلت منه خيلٌ ضاربة، وتهيأ لدخول القلعة؛ وتهيأ الحصول في القلعة، وخافوا من ظهور الأمر؛ فبادر حاتم وعبد الرحمن إلى القلعة، وتمَّ لهما المراد؛ وآخر الجبنُ أبا جعفر ففاتاه، وتوقَّع الطلب في الطريق إلى القلعة، فصار متخفيًا إلى مألقة، ليركب منها البحر إلى جهة ابن مردنیش؛ ووضع السيد عليه العيون في كل جهة، فقبض عليه بمألقة، وطولعَ بأمره فأمر بقتله صبرًا، رحمه الله.

جزالته وصبره: قال أبو الحسن بن سعيد: حدَّثني الحسين بن دُويرة، قال: كنت بمألقة لما قُبِضَ على أبي جعفر، وتوصَّلت إلى الاجتماع به، ريثما استؤذن السيد في أمره حين حُبس، فدَمَعَت عيني لما رأيته مَكْبُولًا؛ قال: أعلني تبكي بعد ما بلغت من الدنيا أطايب لذاتها؟ فأكلتُ صدور الدجاج، وشربت في الزُّجاج، وركبت كل هِمْلَاج^(٣)، ونمتُ في الديباج، وتمتعت بالسُّراري والأزواج، واستعملت من الشمع السُّراج الوهاج، وهأنا في يد الحُجَّاج، منتظرًا محنة الحَلَّاج؛ قادمٌ على غافرٍ، لا يُخْجِج إلى اعتذار ولا احتجاج. فقلت: ألا أبكي على مَنْ ينطق بمثل هذا؟ ثم تُفَقِّد، فقامت عنه، فما رأيته إلَّا مصلوبًا، رحمه الله.

شعره^(٤): [الطويل]

أتاني كتابٌ مِنْكَ يَحْسُدُهُ الدَّهْرُ	أما جَبْرُهُ ليلٌ، أما طِرْسُهُ فَجَرٌ؟
به جمع الله الأمانِي لناظري	وسَمْعِي وفِكْرِي فهو سِخْرٌ ولا سِخْرٌ
ولا عَزُو أن أبدى العجائب رُبُّهُ	وفي ثوبه بِرٌ، وفي كَفِّهِ بَخْرٌ
ولا عَجَبَ إن أَيْنَعَ الزُّهْرُ طَيِّهُ	فما زال صَوْبُ القَطْرِ يبدو به الزُّهْرُ

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنیش، أمير شرق الأندلس (مرسية وبلنسية). توفي بمرسية سنة ٥٦٧ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩)، والمَنْ بالإمامة (ص ١٠٩، ٢١٠)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٣).

(٢) الممارجة: الفساد والفتنة؛ يقال: مَرَجَ السلطان رعيته: خلَّاهَا والفساد. محيط المحيط (مرج).

(٣) الهملاج هو الدابة الأصيلة الحسنة السير. لسان العرب (همليج).

(٤) البيت الأول فقط في المغرب (ج ٢ ص ١٦٥).

ومن شعره ما يَجْري مَجْرى المُرْقَص، وقد حضر مع الرُّصافي والكُتْندي ومعهم
مُعَرَّبُ بَرْوطة^(١): [مجزوء الكامل]

لله يَوْمٌ مَسْرُورٌ أضوى وأقصرُ من دُبَاله
لما نَصَبْنَا لِلْمَنَى فيه من أوتارِ جِبَاله
ظل^(٢) النهار بها كُمز تاع، وأجفَلت الغزَاله
وشعره مُدَوَّن كما قلنا، وهذا القدر عنوانٌ على نُبله.

غريبة في أمره مع حفصة

قال حاتم بن سعيد: وكان قد أجرى الله على لسانه، إذا خُرُكت الكأس بها
غرامه، أن يقول: والله لا يثقلني أحدٌ سواك؛ وكان يعني بالحب، والقَدْرُ مَوْكَل
بالمَنطق، قد فرغ من قتله بغيره من أجلها. قال: ولما بلغ حفصة قتله لبست الجِداد،
وجهرت بالحزن، فتَوَعَّدت بالقتل، فقالت في ذلك: [الخفيف]

هَدَدُونِي مِنْ أَجْلِ لَيْسِ الْجِدَادِ لحبيبٍ أزدوه لي بِالْجِدَادِ
رَحِمَ اللَّهُ مَنْ يَجُودُ بِدَمْعٍ أَوْ يَتُوحَّ عَلَى قَتِيلِ الْأَعَادِي
وَسَقَّته بِمِثْلِ جُودِ يَدِيهِ حَيْثُ أَضْحَى مِنَ الْبِلَادِ الْعَوَادِي

ولم يُتَفَعَّ بَعْدُ بِهَا، ثُمَّ لَحِقَتْ بِهِ بَعْدَ قَلِيلٍ.

وفاته: توفي على حسب ما ذُكِر، في جُمادى الأولى من سنة تسع وخمسين
 وخمسمائة.

أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشي،
المعروف بابن فركون^(٣)

يكنى أبا جعفر.

أُولَئِيتِه: قد مرَّ ذلك في اسم جدِّه قاضي الجماعة^(٤)، وسيأتي في اسم
والده.

(١) الأبيات في المغرب (ج ٢ ص ١٦٧). (٢) في المغرب: «طار».

(٣) ترجم له ابن الخطيب هنا فأثنى عليه، وترجم له في الكتيبة الكامنة (ص ٣٠٥) فذمه. وترجمته
أيضاً في نفح الطيب (ج ١٠ ص ١٤١).

(٤) جدُّه قاضي الجماعة هو أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي، وقد تقدّمت ترجمته.

حاله: شُعلة من شَعَل الذكاء والإدراك، ومجموع جِلال حميدة على الحدائث، طالب نبيل، مدرك، نجيب، بَذْ أقرانه كفاية، وَسَمًا إلى المراتب، فقراً، وأغرب، وَتَمَر^(١)، وتدرَّب، واستجاز له والدُه شيوخ بلده فمن دونهم، ونظم الشعر، وقيد كثيراً، وسبق أهل زمانه في حُسْن الخط سَبَقًا أفرد به بالغاية القصوى؛ فبراعه اليوم المُشار إليه بالظرف والإتقان، والحوَا، والإسراح؛ اقتضى ذلك كله ارتقاؤه إلى الكتابة السلطانية. وميزة الشُفوف بها، بالخلع والاستعمال؛ واختصَّ بي، وتادب بما انفرد به من أشياخ تواليقي، فآثرته بفوائد جمَّة، وبَطَّن حوضه من تَحْلُمه، وترشَّح إلى الاستيلاء على الغاية.

شعره: أنشد له بين يدي السلطان في الميلاد الكريم: [الكامل]
حي المعاهد بالكثيب وجادها غيث يروي حيَّها وجمادها
مولده: في ربيع الآخر من عام سبعة وأربعين وسبعمئة.

أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان

من أهل مالقة؛ يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن صفوان^(٢).

حاله: بقية الأعلام، أديب من أدياء هذا القطر، وصدر من صدور كتّابه، ومشيخة طلبته، ناظم، ناثر، عارف، ثاقب الذهن، قوي الإدراك، أصيل النظر، إمام الفرائض والحساب والأدب والتوثيق، ذاكر للتاريخ واللغة، مُشارك في الفلسفة والتصوف، كلَّف بالعلوم الإلهية، آية الله في فِكِّ الْمُعَمَّى، لا يُجارى في ذلك أحد ممن تقدَّمه، شأنه عجب، يَفُكُّ من المُعمَّيات والمُسْتَنْبِطات، مفصلاً وغير مفصول؛ شديد التعصُّب لذي وَدٍّ، وبالعكس، تامُّ الرُّجولة، قليل التَّهَيُّب، مُقتجم جَمَى أهل الجاه والحمد والمضايقة، إذا دعاه لذلك داع حَبَل نقده على غاربه، راضٍ بالخُمول، مُتَبَلِّغ بما تيسَّر، كثير الدُّووب والنظر، والتقييد والتصنيف، على كلال الجوارح، وعائق الكِبَرَة^(٣)، متقارب نمطي الشعر والكتابة، مُجيد فيهما، ولنظمه شُفوف على نثره.

مُشيخته: قرأ على الأستاذ أبي محمد الباهلي، أستاذ الجُملة من أهل بلده، ومولى التَّعمة عليهم، لازمه وانتفع به؛ ورحل إلى العُدوة، فَلَقِيَ جُملة، كالقاضي

(١) تمر: أطمع الثمر، والمراد أنه أثمر.

(٢) ترجمة ابن صفوان في الكتيبة الكامنة (ص ٢١٦)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٧٦).

(٣) الكِبَرَة: الكبر في السن. محيط المحيط (كبر).

المؤرخ أبي عبد الله بن عبد الملك، والأستاذ التعالمي أبي العباس بن البنا^(١)، وقرأ عليهم بمراكش.

نباهته: استدعاه السلطان، ثاني الملوك من بني نصر^(٢)، إلى الكتابة عنه مع الجلة، ببابه، وقد نما عُشّه، وعلا كعبه، واشتهر ذكاؤه وإدراكه. ثم جَنَحَ إلى العودة لبلده. ولَمَّا وُلِّيَ المُلْكُ السلطانُ أبو الوليد، ودعاه إلى نفسه، ببلده مألقة، استكتبه رئيساً مستحقاً، إذ لم يكن ببلده. فأقام به واقتصر على كُتُبِ الشروط، معروف القدر، بمكان من القضاة ورعيهم، صدرًا في مجالس الشورى؛ وإلى الآن يجعل إلى زيارة غرناطة، حظًا من فصول بعض السنين، فيُصِيبُ بها العدالة، ثم يعود إلى بلده في الفصل الذي لا يصلح لذلك. وهو الآن بقيد الحياة، قد علقته أشراك الهزم، وفيه بعدُ مُستمتعٌ، بديع، كبير.

تصانيفه: من تواليفه، «مطلع الأنوار الإلهية»؛ و«بُغْيَةُ المستفيد»؛ و«شرح كتاب القرشي في الفرائض»، لا نظير له. وأما تقايبه على أقوال يعترضها، وموضوعات يتقدها، فكثيرة.

شعره: قال في غرض التَّصَوُّف: وبلغني أنه نظمها بإشارة من الخطيب، ولي الله، أبي عبد الله الطنجالي، كَلِّفَ بها القوالون والمسمعون بين يديه^(٣): [الكامل]

بَانَ الحَمِيمُ فَمَا الحِمَى والبَانُ	بشفاء مَنْ عنه الأَجِبَةُ بَانُوا
لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدًا بَيْنَهُمْ وَلَا	أَنسَاهُمْ مِيثَاقَكَ الجِذْثَانُ
لَكِنْ جَنَحْتَ لغيرهم فَأزالهم	عَنْ أَنسِهِمْ بِكَ مُوحِشٌ غَيْرَانُ
لَوْ صَخَّ حُبُّكَ مَا فَقَدْتَهُمْ وَلَا	سَارَتْ بِهِمْ عَنْ حُبِّكَ الأَظْعَانُ
تَشْتَاقُهُمْ، وَخَشَاكَ هَالَةً بَذَرَهُمْ	وَالسَّرُّ مِنْكَ لِخِلْهِمْ ^(٤) مِيدَانُ
مَا هَكَذَا أَحْوَالُ أربابِ الهوى	نَسَخَ الغَرَامَ بِقَلْبِكَ السُّلْوَانُ
لَا يَشْتَكي أَلَمَ البِعَادِ مُتَيِّمٌ	أَحْبَابُهُ فِي قَلْبِهِ سُكَّانُ
مَا عِنْدَهُمْ إِلَّا الكَمَالُ وَإِنَّمَا	عَطَى عَلَى مِرَاتِكَ ^(٥) النُّقْصَانُ

(١) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي، المشهور بابن البناء، المتوفى سنة ٧٢١ هـ. أزهار الرياض (ج ٣ ص ٢٣) و(ج ٥ ص ٦٨).

(٢) هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ إلى سنة ٧٠١ هـ، اللوحة البدرية (ص ٥٠).

(٣) القصيدة في الكنية الكامنة (ص ٢٢٠ - ٢٢٢).

(٤) في الكنية: «لخيلهم».

(٥) في الكنية: «مرآتها».

إِنْسَانُهَا عَنْ لَمَجِّهِمْ وَسَنَانُ
 إِنَّ الصُّورَ حَجَبُهَا الْأَجْفَانُ
 تَرَاهُمْ^(١) بِقَلْبِكَ حَيْثُ^(٢) كُنْتَ وَكَانُوا
 يَهْمِي عَلَيْهَا سَحَابُهَا الْهَثَانُ
 تَسْرِي إِلَيْكَ بِرُكْبِهَا الْأَكْوَانُ
 فَبَدَا عَلَى تَقْصِيرِكَ الْبُرْهَانُ
 السَّرُّ فَيْكَ بِأَسْرِهِ وَالشَّانُ
 فِيهَا لَعَيْنِي ذِي الْحِجَابِ بُسْتَانُ
 فِيهَا الْمُنَى وَالرُّوحُ وَالرَّيْحَانُ
 حَارَتْ لِبَاهِرِ صُنْعِهَا الْأَذْهَانُ
 شَمْسٌ مَحَاسِنُ ذَكَرَهَا التَّبْيَانُ^(٣)
 وَالْجَوْ مِنْ أَنْوَارِهَا مَلَانُ
 فَقَنَّاؤُكَ الْأَقْصَى لَهُمْ وَجْدَانُ
 إِنَّ الْمُلُوكَ بِالْأَفْئِقَارِ ثَدَانُ
 مِنْهُمْ عَلَيْكَ تَعَطُّفٌ^(٤) وَحَنَانُ
 وَهُمْ عَلَى طَلَبِ الْوِصَالِ عَوَانُ^(٥)
 فَحُلِي^(٦) الْمَشُوقِ الْحُسْنُ وَالْإِحْسَانُ
 جَسْمِي بِمَا تَكْسُوتُهُ يَزْدَانُ
 قَلْبِي بِذَاكَ مَفْرَحٌ^(٧) جَذْلَانُ
 مُحَضَّرُ الْقَنَا وَمُحِبُّكُمْ وَلَهَانُ^(٨)

شَغَلْتَنكَ بِالْأَغْيَارِ عَنْهُمْ مُقَلَّةُ
 غَمُضُ جُفُونِكَ عَنْ سَوَاهِمُ مُغْرِضَا
 وَاصْرَفَ إِلَيْهِمْ لَحْظَ فِكْرِكَ شَاخِضَا
 مَا بَانَ^(١) عَنْ مَغْنَاكَ مَنْ الطَّافَةُ
 وَجِيَادُ أَنْعَمِهِ بِبَابِكَ تَرْتَمِي
 جَعَلُوا دَلِيلًا فَيْكَ^(٢) مِنْكَ عَلَيْهِمْ
 يَا لَامَحَا سِرُّ الْوُجُودِ بِعَيْنِهِ
 أَزْجَعُ لِدَاثِكَ إِنْ أَرَدْتَ تَنْزُومَا
 هِيَ رَوْضَةُ مَطْلُولَةٍ بَلْ جَنَّةُ
 كَمْ حِكْمَةٍ صَارَتْ تَلُوحُ لِنَظَرِ
 حُجِيتْ بِشَمْسِكَ^(٣) عَنْ عِيَانِكَ شَمْسُهَا
 لَوْلَاكَ مَا خَفِيتُ عَلَيْكَ أَيَاتُهَا^(٤)
 أَنْتَ الْحِجَابُ لِمَا تُؤْمَلُ مِنْهُمْ
 فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ عَنْكَ مُفْتَقِرًا لَهُمْ
 وَاخْضَعْ لِعِزَّتِهِمْ وَلِذِّبِهِمْ^(٥) يَلُحْ
 هُمْ رَشْحُوكَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِمْ
 عَطَفُوا جَمَالَهُمْ عَلَى أَجْمَالِهِمْ
 يَا مُلْسِينَ عَبِيدَهُمْ حُلَّالَ الضُّنَى
 لَا سَخَطَ عِنْدِي لِلَّذِي تَرْضُونَهُ
 فَيُقْرِبُكُمْ عَيْنُ الْغِنَا وَيُبْعِدُكُمْ

(٢) فِي الْكُتَيْبَةِ: «كَيْفَ».

(٤) فِي الْكُتَيْبَةِ: «مِنْكَ فَيْكَ».

(٦) فِي الْكُتَيْبَةِ: «فَمَحَا مَحَاسِنُ ذَكَرَهَا النَّسِيَانُ».

(٨) فِي الْكُتَيْبَةِ: «وَالْتَصَوَّبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ».

(١٠) فِي الْكُتَيْبَةِ: «أَعَانُوا».

(١٢) فِي الْكُتَيْبَةِ: «فَارَحَ».

(١) فِي الْكُتَيْبَةِ: «تَرَسَمَ».

(٣) فِي الْكُتَيْبَةِ: «مَا غَابَ».

(٥) فِي الْكُتَيْبَةِ: «بِشَخْصِكَ».

(٧) فِي الْأَصْلِ: «أَيَاتُهَا» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوُزْنُ.

(٨) فِي الْأَصْلِ: «وَلِذِّلَّهُمْ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوُزْنُ، وَالتَّصَوُّبُ مِنَ الْكُتَيْبَةِ.

(٩) فِي الْكُتَيْبَةِ: «تَلَطَّفَ».

(١١) فِي الْكُتَيْبَةِ: «أَفْسَا».

(١٣) رَوَايَةُ الْبَيْتِ فِي الْكُتَيْبَةِ هِيَ:

إني كَتَمْتُ عن الأنام هواكُم
وَوَشْتُ بحالي عند ذاك^(١) مدامعُ
وَبَدَثَ عليَّ شَمائلُ عُذْرِيَّةٍ
فإذا نَطَقْتُ فذِكْرُكُم لي مُنطَوِّ
وإذا صَمْتُ فأنتم سِرِّي الذي
فبباطني وبظاهري لكم هَوَى
وجوانحي^(٢) وجميعُ أنفاسي وما
وإليكم مني المفرُّ فقَضدُكم

وقال يذمُّ الدنيا ويمدح عُقبى مَنْ يُقَلِّلُ منها: [الطويل]

حديث الأمان في الحياة شجون
يميلُ إليها جاهلٌ بغرورها
وذو الحزم يثبو عن جِواءِ فحالها
إليك صريحُ الأمنِ سَلْحَةٌ ناصح
تجافَ عن الدنيا وِدَنٌ باطِّراحها
وترفيعُها خَفَضٌ وتنجيمها أذى
إذا عاقدتْ خانت وإن هي أقسَمَتْ
يروِّقُك منها مَطْمَعٌ من وفائها
وتَمَنُّحُك الإقبالُ كَفَّةٌ حابِلِ
سقاء، لَعَمْرُ الله، إِمحاظُك الهوى
ومَنْ تَصْطَفِيهِ وهو يُقْطِعُك القِلا
ألا إنَّها الدنيا فلا تَغْتَرِزْ بها
يَعْمُ رِذاها الغِرُّ والخِبُّ ذا الدِّها
وتَشْمَلُ بِلَواها نَبيلًا وخاملاً
أينها، لحاها الله، كم فِتْنَةٍ لها

إِنْ أَرْضَاكَ شَأْنٌ أَحْفَظْكَ شُؤُونُ
فَمِنْهُ اسْتِيقَ نَحْوُهَا وَأَنِينُ
يَقِيهِ إِذَا شَكَّ عَرَاهُ يَقِينُ
على نُصْحِهِ سِيما الشَّفِيقُ تَبِينُ
فَمَرَكِبُهَا بِالْمُطْمَعِينَ حَرُونُ
وَمَنْهَلُهَا لِلوَارِدِينَ أَجُونُ
فلا تَرْجُ بَرًّا بِالْيَمِينِ يَمِينُ
وسِرْعَانِ ما إِثْرُ الوفاءِ تَخُونُ
ومِنْ مَكْرِها في طَيِّ ذاك كَمِينُ
لَمَنْ أَنْتَ بِالْبَغْضَاءِ فِيهِ قَمِينُ^(٤)
وتُهدى له الإغرازُ وهو يهينُ
ولوُدُ الدَّواهي بِالْخِداعِ تَدِينُ
ويُلْحَقُ فِيها بِالْكِناسِ عَرِينُ
ويَلْقَى مُذالَ غَدَرِها وَمُضُونُ
تَعْلَمُ صَمَّ الصُّخْرِ كيف يَلِينُ

(١) في الكتيبة: «في الغرام» بدل: «عند ذاك». (٢) في الكتيبة: «لي».

(٣) في الكتيبة: «وجوارحي».

(٤) القمين: الخليل، الجدير: محيط المحيط (قمن).

فلا مَلِكٌ سَامٍ أَقَالَتْ عِشَارُهُ
ولا مَعَهْدٌ إِلَّا وَقَدْ نَبَهَتْ بِهِ
أَبَيْتٌ لِنَفْسِي أَنْ يُدَنِّسَهَا الْكَرَى
فليس قَرِيرُ الْعَيْنِ فِيهَا سِوَى أَمْرِي
أَبَيْتٌ طَلَّاقُ الْجِرْصِ فَالزُّهْدُ دَائِبًا
إِذَا أَقْبَلْتُ لَمْ يُؤْلِهْهَا بَشَرٌ شَيْقٍ
وإن أَدْبَرْتُ لَمْ يَلْتَفِتْ نَحْوَهَا بِهَا
خَفِيفُ الْمَطَا مِنْ حَمَلِ أَثْقَالِ هَمِّهَا
على حَفَظِهِ لِلْفَقْرِ أَبْهَى مَلَأَةً
بَرَجَفَ تَخَالُ الْخَائِفِينَ مَنَازِلُ
مَنَازِلُ تَجِدُ عِنْدَهَا وَتَهَامَةً
يَرُودُ رِيَاضًا أَيْنَ سَارَ وَوَزْدَهُ
فَهَذَا أَتَيْلُ الْمُلْكِ لَا مُلْكَ ثَائِرٍ
وهذا عَرِيضُ الْعِزِّ لَا عِزٌّ مُتَرَفٍّ
خَوْتُ شَخْصِهِ أَوْصَافُهَا فَكَأَنَّهُ
فِيَا خَاطِبًا عَشَوَاءَ وَالصُّبْحُ قَدْ بَدَا
أَفِقْ مِنْ كَرَى هَذَا التَّعَامِي وَلَا تُضِغْ
إِذَا كَانَ عُقْبَى ذِي جِدَّةٍ إِلَى بَلَى
فَقِيمَ التَّفَانِي وَالتَّنَاقُصِ ضِلَّةً؟
إِلَى اللَّهِ أَشْكُوهَا تُفُوسًا عَمِيَّةً
وَأَسْأَلُهُ الرُّجْعَى إِلَى أَمْرِهِ الَّذِي
فَلَا خَيْرَ إِلَّا مِنْ لَدُنِّهِ وَجُودُهُ

وَلَوْ أَنَّهُ لَلْفَرَقْدَيْنِ حَسِيدُ
بَعِيدَ الْكَرَى لِلثَّائِلَاتِ جُفُونُ
سَكُونٌ إِلَيْهَا مَوْبِقٌ وَرُكُونُ
قَلَّاهُ لَهَا رَأْيٌ يَرَاهُ وَدِينُ
خَلِيلٌ لَهُ مُسْتَضْحَبٌ وَقَرِينُ
وَلَا خَفٌّ لِلْإِقْبَالِ مِنْهُ رَزِينُ
وَأَدْ^(١) عَلَى مَا لَمْ تَوَاتِ حَزِينُ
إِذَا مَا شَكَّتْ يُقَلُّ الْهُمُومُ مَتُونُ
مَنَا خَلِيهَا وَشَطَّ الزَّرْيُ يَدِينُ
لَهْنٌ مَكَانٌ حَيْثُ حَلٌّ مَكِينُ
سَوَى وَاسْتَوَى هُنْدٌ لَدَيْهِ وَصِينُ
زُلَالٌ اعْتَصَاصُ الْوَرُودِ مَعِينُ
لَأَعْدَائِهِ حَرْبٌ عَلَيْهِ زُبُونُ
لَهُ مِنْ مَشِيدَاتِ الْقُصُورِ سُجُونُ
وإن لَمْ يَمُتْ فَوْقَ الثَّرَابِ ذَفِينُ
إِلَا مَ تَغْطِي نَاطِلَ رِيكِ دُجُونُ؟
بِجَهْلِكَ عُلِقَ الْعُمَرُ فَهُوَ ثَمِينُ
وَقُصَارَى ذِي الْحَيَاةِ مَثُونُ
وَفِيمَ الثَّلَاحِي وَالْخِصَامِ يَكُونُ؟
عَنِ الرُّشْدِ وَالْحَقِّ الْيَقِينِ تَبِينُ
بِتَوْفِيقِهِ حَبْلُ الرُّجَاءِ مَتِينُ
لِتَنْسِيرِ أَسْبَابَ النُّجَاةِ ضَمِينُ

وجمعت^(٢) ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجّهي صُخْبَةِ الرُّكَّابِ السُّلْطَانِي
إِلَى إِصْرَاحِ الْخَضْرَاءِ عَامَ أَرْبَعَةٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ؛ وَقَدَّمْتُ صَدْرَهُ خُطْبَةً، وَسَمَّيْتُ
الْجُزْءَ بِـ«الدُّرَرِ الْفَاخِرَةِ»، وَاللُّجَجِ الزَّاحِرَةِ»، وَطَلَبْتُ مِنْهُ أَنْ يُجِيزَنِي، وَوَلَدِي عَبْدُ اللَّهِ،
رَوَايَةً ذَلِكَ عَنْهُ، فَكُتِبَ بِخَطِّهِ الرَّائِقِ بظَهْرِ الْمَجْمُوعِ مَا نَصُّهُ:

(١) فِي الْأَصْلِ: «وَادٍ» وَهَكَذَا يَنْكَسِرُ الْوِزْنُ. (٢) النَّصُّ فِي نَفْحِ الطَّيِّبِ (ج ٨ ص ١٧٧).

«الحمد لله مستحق الحمد؛ أَجَبْتُ سؤالَ الفقيه، الأَجَلِّ، الأَفضَل، السَّري، الماجد، الأَوَّحد، الأَخفَل، الأديب البارِع، الطَّالع في أَفق المعرفة والنَّباهة، والرَّفعة المَكينة والوجاهة، بأبهى المَطالع، المُصنَّف، الحافظ، العَلامَة، الحائِز في قُتَي النظم والنثر، وأُسْلوبيي الكتابة والشَّعر، رُتَبَة الرِّياسَة^(١)؛ الحامل لراية التقدُّم والإمامة؛ مُحلِّي جيد العصر بتواليقه^(٢) الباهرة الرُّواء؛ ومُجَلِّي محاسن بنيهِ، الرائقة على منصبة الإِشهاد^(٣) والآباء؛ أباي عبد الله بن الخطيب، وصلَّ الله سعادته ومجاداته^(٤)؛ وسنى من الخير الأوفر، والصُّنع الجميل^(٥) الأَبهَر، مَقْصِده وإرادته؛ وبلَّغه في نجله الأَسعد، وابنه الراقي بمحتده الفاضل، ومنشئهِ الأَطهر، محلِّ الفَرَقْد، أَفضَل ما يُؤمَل نَحَلَّتْه إياه في^(٦) المَكْرُمات وإفادته؛ وأَجَزْتُ له ولابنه عبد الله المذكور، أبقاهما الله تعالى، في عِزَّة سَيِّئَةِ الخِلال، وعافية ممتدة الأَفياء، وإِرْقَة الظُّلال؛ روايةً جميع ما تَقَيَّد في الأوراق، المُكْتَسَب على ظهر أَوَّل ورقة منها، من نَظْمِي ونَثْري؛ وما تَوَلَّيْتُ إنشائه، واعتمدْتُ بالارتحال^(٧) والرواية، اختياره وانتقاءه، أيام عُمري؛ وجميع ما لي من تصنيف وتَقْيِيد، ومقطوعة وقصيد^(٨)، وجميع ما أَحْمَلُهُ عن أشياخي رضي الله عنهم، من العلوم، وفُنون المنثور والمنظوم؛ بَأَيِّ وجه تَأَدَّى^(٩) إِلَيَّ، وصَحَّ خَمَلِي له، وَتَبَّتْ إِسناده لدي^(١٠) إجازة تامَّة، في ذلك كله عامَّة، على سَنَنِ الإِجازات الشَّرعية^(١١)، وشرطها المأثور عند أهل الحديث المَزْعُي، والله يَنْفَعُنِي وإِيَّاهما بالعلم وخَمَلِهِ، وَيَنْظِمُنَا جميعًا في سَبَلِك جُزْئِهِ المُفْلِحِينَ^(١٢) وأَهْلِهِ، وَيَقْضِ عَلَيْنَا من أنوار بركته وفضله. قال ذلك وَكَتَبَهُ بخط يده الفانية، العَبْدُ الفقير إلى الغني^(١٣) به، أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان، ختم الله له بخير؛ حامدًا الله تعالى، ومُضَلِّيًا ومُسَلِّمًا على محمد نبيِّه المصطفى الكريم، وعلى آلِهِ الطاهرين ذوي المنصب العظيم، وصحبه^(١٤) البَرَّة، أُولي^(١٥) المنصب والأثرة والتقديم؛ في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

(١) في النفع: «الرياسة والإمامة».

(٢) في النفع: «الإشارة».

(٣) في النفع: «السعادة، وحرس مجاداته».

(٤) في النفع: «من».

(٥) كلمة «الجميل» غير واردة في النفع.

(٦) في النفع: «بالارتجال».

(٧) في الأصل: «وقصيدة» والتصويب من النفع.

(٨) في الأصل: «تأتى ذلك».

(٩) في النفع: «الشرعي».

(١٠) في النفع: «إلى الله الغني».

(١١) في النفع: «أولي الأثرة».

(١٢) في الأصل: «لي».

(١٣) في النفع: «المفلح».

(١٤) في النفع: «وصحابته».

واشتمل هذا الجزء الذي أُذِنَ بحمله عنه من شعره على جملة من المُطَوَّلَات، منها قصيدة يعارض بها الرئيس أبا عليّ بن سينا في قصيدته الشهيرة في النفس التي مطلعها: «مَبَطَّتْ إِلَيْكَ مِنَ الْمَحَلِّ الْأَرْفَعِ»، أولها: «أهلاً بمسراك المحب الموضع». وأول قصيدة: [الطويل]

لِمَغْنَاكَ فِي الْأَفْهَامِ سِرٌّ مُكْتَمٌ عَلَيْهِ نَفُوسُ الْعَارِفِينَ تَحُومُ
وأول أخرى: [الكامل]

أَزْهَى حِجَابِكَ رُؤْيَا الْأَغْيَارِ فَاغْنِ الدُّجَى بِأَشْعَى الْأَنْوَارِ
وأول أخرى: [الطويل]

ثَنَاءٌ وَجُودِي فِي هَوَاكُمُ هُوَ الْخُلْدُ وَمَخُورُ سُومِي حُسْنُ ذَاتِي بِهِ يَبْدُو
ومطلع أخرى: [الطويل]

أَلَا فِي الْهَوَى بِالذُّلِّ تُزْعَى الْوَسَائِلُ وَذَمْعِي^(١) أَنْادِي مَجِيبَ وَسَائِلُ
ومطلع أخرى: [الطويل]

هُمْ الْقَصْدُ جَادُوا بِالرَّضَى أَوْ تَمَنَعُوا صَلُّوا اللَّوْمَ فِيمَا أَوْدَعُوا الْقَلْبَ أَوْدَعُوا
ومن أخرى: [البسيط]

سَقَى زَمَانٌ^(٢) الرِّضَا هَامَ مِنَ الشُّحْبِ إِلَهِي^(٣) الْعَوْدُ مِنْ أَثْوَابِهِ الْقُشْبِ
ومن أخرى: [الكامل]

يَا فَوْزَ نَفْسِي فِي هَوَاكَ هَوَاؤُهَا رَقَّتْ مَعَانِيهَا وَرَاقَ مَنَاوُهَا
ومن أخرى: [الكامل]

أَمَّا الْغَرَامُ فَبِالْفُؤَادِ غَرِيمٌ هِيَهَاتَ مَنِي مَا الْعَدُولُ يَزُومُ
ومن شعره في المقطوعات قوله^(٤): [الكامل]

رَشَقَ^(٥) الْعِذَاؤُ لُجَيْنَهُ بِنِبَالِهِ فَغَدَا يَدُورُ^(٦) عَلَى الْمُحِبِّ الْوَالِيهِ

(١) في الأصل: «وذمعي أن أنادي...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «زمن» وهكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «والله» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٢٢٣). (٥) في الكتيبة: «وشى».

(٦) في الكتيبة: «يرق».

خَطَّ العِذارُ بصفَحَتَيْهِ لأمه خَطًّا تَوَعَّدَه بِمَخْرِ جِمالِهِ
فَحَسِبْتُ أَنَّ جِماله شَمْسُ الضُّحَى حُسْنًا وَذاك الخَطُّ خَطُّ زَوَالِهِ
فَدَنَّا^(١) إِلَيَّ تَعَجُّبًا وَأَجابَنِي وَالزُّرُوعُ يَبْدُو مِنْ خِلالِ مَقالِهِ
إِنَّ الجِمالَ اللامُ آخِرُهُ^(٢) فَعُجِجُ عَنْ رَسمِهِ وانْدَبَ على أَطْلالِهِ
وَمِنْ أَبياتِهِ فِي التَّوْريَةِ بِالْفُتُونِ قَوْلُهُ^(٣): [الوافر]

كَفَفْتُ عَنْ الوِصالِ طَوِيلَ شَوْقِي إِلَيْكَ وَأَنْتَ لِلرُّوحِ الخَلِيلِ
وَكُفِّكَ لِلطَّوِيلِ^(٤) فَدَتَكَ نَفْسِي قَبِيحٌ لَيْسَ يَرْضاهُ الخَلِيلِ
وَقَالَ فِي التَّوْريَةِ بِالْعَرُوضِ^(٥): [الكامل]

يَا كَامِلًا شَوْقِي إِلَيْهِ وَافِرٌ وَيَسِيطُ خَدَيَّ فِي هَواهُ عَزِيزُ
عَامَلْتُ أَشْبابِي لَدَيْكَ^(٦) بَقْطِيعِهَا^(٧) وَالقَطْعُ فِي الْأَسْبابِ لَيْسَ يَجُوزُ
وَقَالَ فِي التَّوْريَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ^(٨): [الوافر]

أَبَا قَمَرًا مَطالَعُهُ جَنائِي وَغُرَّتُهُ تُوارِي^(٩) عَنْ عِيانِي^(١٠)
أَصْرَفُ فِي هَواكَ عَنْ اقْتِراحِي^(١١) وَسُهْدِي وَانْتِحابِي عِلْتانِي؟
وَقَالَ أَيْضًا: [الرجز]

لَا تَضْحَكِينَ يَا صاحِبِي غَيْرَ الوَفِيِّ كُلُّ امْرِئٍ عُنوانُهُ مَن يَضْطَفِي
كَمْ مِنْ خَلِيلٍ بِشَرِّهِ زَهْرُ الرُّبِيِّ وَطِيُّ ذاكِ البِشْرِ حَدُّ المُرْهَفِ
ظاهِرُهُ يُرِيكَ سِرٌّ مَن رَأَى وَأَنْتَ مِنْ إِعْراضِهِ فِي أَسْفِ

وَوَقَعَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قاضِي بَلَدِهِ أَبِي عمرو بن المَنْظُورِ مَقاطِعُهُ، انْبرَى بِها إِلى
مِطالِبَتِهِ بِما دَعاهُ إِلى التَّحَوُّلِ مَضْطَرًا إِلى غَرْناطَةِ، وَأَخَذَ بِكَطْمِهِ، وَطَوَّقَهُ المَوْتَ

(١) فِي الكَتِيبَةِ: «فَرَنَّا».

(٢) فِي الْأَصْلِ: «آخِرُهُ اللَّام...»، وَهَكَذَا يَنْكسرُ الْوزنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الكَتِيبَةِ.

(٣) الْبَيْتانُ فِي الكَتِيبَةِ الْكامِنَةُ (ص ٢٢٢). (٤) فِي الكَتِيبَةِ: «لِلوِصال».

(٥) فِي الكَتِيبَةِ: «إِلَيْكَ».

(٦) فِي الْأَصْلِ: «فَقَطَعْتُمَا» وَهَكَذَا يَنْكسرُ الْوزنُ، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الكَتِيبَةِ الْكامِنَةُ.

(٧) فِي الكَتِيبَةِ: «تَوَارَثَ».

(٨) فِي الْأَصْلِ: «عِيان» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الكَتِيبَةِ الْكامِنَةُ.

(٩) فِي الكَتِيبَةِ: «افْتَرافِي».

في أثناء القطيعة، فقال في ذلك مُتَشَفِّيًا، وهو من نبيه كلامه، وكله نبيه:
[الطويل]

تَرَدَّى ابْنُ مَنْظُورٍ وَحُمَّ جِماهُ
تَبَرَّأَ مِنْهُ أَوْلِياءُ غُرُورِهِ
وَأودِعَ بَعْدَ الْأَنْسِ مُوجِشَ بَلَقِعِ
وَلَا رِشْوَةَ يُدْلِي الْقَبُولُ رِشاها
وَلَا شَاهِدَ يُغْضِي لَهُ عَن شِهادَةٍ
وَلَا خِذْعَةً تُجْدِي وَلَا مَكْرَ نافعٍ
وَلَكِنَّهُ حَقٌّ يَصُولُ وَيَاطُلُ
وَقَالُوا قُضَاءُ الْمَوْتِ حَتْمٌ عَلَى الْوَرَى
فَلَا تُنْتَسِمُ رِيحُ ارْتِياعٍ لِقَفْدِهِ
فَقُلْتُ بَلَى حُكْمُ الْمَنِيَّةِ شامِلُ
وَلَكِنْ تَقْدُمُ الْأَعادي إِلَى الرَّدَى
وَأَمِنْ يَنامُ المَرءُ فِي بُرْدِ ظِلِّهِ
وَحَسْبِي بَيْتٌ قالَهُ شاعِرٌ مَضَى
وَأَنْ بَقاءَ المَرءِ بَسْغَدِ عَدُوِّهِ

وَأَنْسَلَمَهُ حامٌ لَهُ وَنَصِيرُ
وَلَمْ يَقِهِ بِأَسَ المَثُونِ ظَهِيرُ
فَحِياهُ فِيهِ مُنْكَرٌ وَنَكِيرُ
فَيُنْسَخُ بِالسَّيْرِ المُرِيحِ عَسِيرُ
تَخَلَّلَهَا إِنْكَ يُصاغُ وَزُودُ
وَلَا غِشٌّ مَطْوَئِي عَلَيْهِ ضَمِيرُ
يَحُولُ وَمَثْوَى جَنَّةٍ وَسَعِيرُ
يُذِيرُ صَغِيرَ كَأْسِهِ وَكَبِيرُ
فَلَأَنَّكَ عَن قِصْدِ السَّيْلِ تَحُورُ
وَكُلُّهُ إِلَى رَبِّ الْعِبادِ يَصِيرُ
نِشاطُ يَعُودُ الْقَلْبُ مِنْ سُرُورُ
وَلَا حَيَّةٌ لِلْجَفْدِ ثُمَّ تَشُورُ
غداً مِثْلاً فِي الْعالَمِينَ يَسِيرُ
وَلَوْ سَاعَةً مِنْ عُمَرِهِ لَكثيرُ

مولده: قال بعض شيوخنا: سألته عن مولده فقال لي: في آخر خمسة وتسعين
وستمئة، أظن في ذي قعدة منه الشك.

وفاته: بمالقة في آخر جمادى الثانية من عام ثلاثة وستين وسبعمائة.

أحمد بن أيوب اللمائي^(١)

من أهل مالقة، يُكنى أبا جعفر.

(١) في الأصل: «اللمائي» والتصويب من المصادر. واللمائي: نسبة إلى لماية من أقاليم كورة رية
بالأندلس. الروض المعطار (ص ٥١١). وجعلها ياقوت مدينة أعمال المرية. معجم البلدان (ج
٥ ص ٢٢). وقال ابن سعيد: إن مدينة لماية حصن من حصون مالقة. المغرب (ج ١ ص
٤٤٦). وهي كذلك في تقويم البلدان لأبي الفدا (ص ١٧٥). وترجمة أحمد بن أيوب في
جذوة المقتبس (ص ٣٩٤)، والنخيرة (ق ١ ص ٦١٧)، وجذوة المقتبس (ص ٣٩٤)، وبغية
الملتبس (ص ٥٢٠)، والمغرب (ج ١ ص ٤٤٦)، والذيل والتكملة (القسم الأول ص ٧٣)، =

حاله: قال صاحب الذئيل^(١): كان أديباً ماهراً، وشاعراً^(٢) جليلاً، وكاتباً نبيلًا^(٣). كتب عن أول الخلفاء الهاشميين بالاندلس، علي^(٤) بن حمود، ثم عن غيره من أهل بيته؛ وتولى تدبير أمرهم^(٥)، فحاز لذلك صيتاً شهيراً، وجلالة عظيمة. وذكره ابن بسام في كتاب «الذخيرة»، فقال^(٦): كان أبو جعفر هذا في^(٧) رفته أحد أئمة الكتاب، وشهب الآداب^(٨)، ممن سُخِّرَتْ له فنون البيان، تسخير الجن لسليمان، وتصرف في محاسن الكلام، تصرف الرياح بالغمام، طلع من ثناياه، واقتعد مطاياها؛ وله إنشاءات سرية، في الدولة الحمودية، إذ كان علم أدبائها، والمضطلع بأعبائها، إلا أنني لم أجد عند تحريري هذه النسخة، من كلامه، إلا بعض فصول له^(٩) من مشور، وهي ثماد من بحور.

فصل: من^(١٠) رقة خاطب بها أبا جعفر بن العباس: «عُضُنْ ذُكْرَكَ عِنْدِي نَاضِرًا، وَرَوْضُ شُكْرِكَ لَدَيَّ عَاطِرًا، وَرِيحُ إِخْلَاصِي لَكَ صَبَاً، وَزَمَانُ^(١١) أَمَالِي فَيْكَ صَبَاً، فَأَنَا شَارِبُ مَاءِ إِخْلَاطِكَ، مَتَقَبِّلُ ظِلِّ^(١٢) وَفَائِكَ؛ جَانِ مِنْكَ ثَمَرَةَ فَرْعِ طَابَ أَكْلُهُ، وَأَجْنَانِي الْبِرِّ قَدِيمًا أَصْلُهُ، وَسِقَانِي إِكْرَامًا بَزْقُهُ، وَرَوَانِي إِفْضَالًا وَدَقُّهُ؛ وَأَنْتَ الطَّالِعُ فِي فِجَاجِهِ، السَّالِكُ لِمِنْهَاجِهِ؛ سَهْمٌ فِي كِتَابَةِ الْفَضْلِ صَائِبٌ، وَكَوْكَبٌ فِي سَمَاءِ الْمَجْدِ ثَاقِبٌ، إِنْ أَتْبَعْتَ الْأَعْدَاءَ نَوْرَهُ أَحْرَقَ، وَإِنْ رَمَيْتَهُمْ بِهِ أَصَابَ الْحَقْدُ؛ وَعَلَى الْحَقِيقَةِ فَلَسَانِي يَقْصُرُ عَنْ جَمِيلِ أَسْرِهِ^(١٣)، وَوَصَفِ وَدِّ أَضْمِرِهِ».

= روايات المبرزين (ص ٢٣١)، ومطمح الأنفس (ص ٢٠٩)، ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٧٢)، (ج ٥ ص ٩١، ٩٢، ١٣٥، ٢٩٣). ولم يذكر أحد ممن ترجم له من هؤلاء المذكورين أنه كان يتردد على غرناطة إلا ابن الخطيب.

(١) الذيل والتكملة (ج ١ ص ٧٣).

(٢) قوله: «وشاعراً جليلاً» ساقط في الذيل والتكملة.

(٣) في الذيل والتكملة: «كاتباً جليلاً».

(٤) في الذيل والتكملة: «الناصر لدين الله أبي الحسن علي بن حمود...».

(٥) في الذيل والتكملة: «أمره، وأحرز لذلك...».

(٦) الذخيرة (ق ١ ص ٦١٧). (٧) كلمة «في» ساقطة في الذخيرة.

(٨) في الأصل: «الأدب» والتصويب من الذخيرة.

(٩) كلمة «له» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة.

(١٠) هذه الرقة في الذخيرة (ق ١ ص ٦١٨). (١١) في الذخيرة: «وزمن».

(١٢) في الذخيرة: «ظلال».

(١٣) في الأصل: «أنشده» والتصويب من الذخيرة.

شعره: قال، ومما وجد بخطه لنفسه^(١): [الكامل]

طَلَعْتُ طَلَانْعُ^(٢) لِلرَّبِيعِ فَأُطْلَعْتُ فِي الرُّؤُصِ وَزَدًا قَبْلَ جِينِ أَوَانِهِ
حَيًّا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ^(٣) مُبَشِّرًا وَمُؤْمَلًا لِلثَّيْلِ مِنْ إِحْسَانِهِ
صَنَنْتُ سَحَائِيَّ عَلَيْهِ بِمَائِهَا^(٤) فَأَتَاهُ يَسْتَسْقِيهِ مَاءَ بَنَانِهِ
دَامَتْ لَنَا أَيْمَانُهُ مَوْضُولَةً بِالْعِزِّ وَالثَّمَكِينَ فِي سُلْطَانِهِ

قال: وأنشدني الأديب أبو بكر بن مغل، قال: أنشدني أبو الربيع بن العريف لجذّه الكاتب أبي جعفر اللمائي، وامتنحن بداء التّسمة من أمراض الصدر، وأزمن به، نفعه الله، وأعياه علاجه، بعد أن لم يدع فيه غاية، وفي ذلك يقول^(٥): [الكامل]

لَمْ يَبْقَ مِنْ شَيْءٍ أَعَالِجُهَا بِهِ^(٦) طَمَعَ الْحَيَاةِ، وَأَيْنَ مَنْ لَا يَطْمَعُ؟
«وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا الْقَيْتُ كُلُّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ»^(٧)

ودخل عليه بعض أصحابه فيها، وجعل يُرَوِّحُ عليه فقال له بديهة^(٨):

[المنسرح]

رَوْحَنِي عَائِدِي فَقُلْتُ لَهُ: مَهْ^(٩)، لَا تَزِدْنِي عَلَى الَّذِي أَجِدُ
أَمَا تَرَى النَّارَ وَهِيَ خَامِدَةٌ عِنْدَ هُبُوبِ الرِّيحِ تَتَّقِدُ؟

ودخل غُرْنَاطَة غير ما مرة، منها متردداً بين أملاكه، وبين مَنْ بها من ملوك صنهاجة؛ قالوا: ولم تفارقه تلك الشكاية حتى كانت سبب وفاته.

وفاته: بمالقة عام خمسة وستين وأربعمائة. ونقل منها إلى حصن الوزد، وهو عند حصن مُنْتَبِ مَيُورٍ إذ كان قد حصّنه، وأتخذ لنفسه ملجأ عند شدّته، فدفن به،

(١) الأبيات في الذخيرة (ق ١ ص ٦٢٢)، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٢٩٣).

(٢) في الذخيرة: «طوانع». (٣) في المصدرين: «المؤمنين».

(٤) في النسخ: «بمائه».

(٥) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٦٢٢)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٧٤).

(٦) في المصدرين: «لم يبق شيء لم أعالجها...».

(٧) البيت، كما جاء في الذيل والتكملة، لأبي ذؤيب خويلد بن خالد بن هذيل، وهو في ديوان الهذليين، دار الكتب المصرية (ج ١ ص ٣).

(٨) البيتان في الذخيرة (ق ١ ص ٦٢١)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٧٣ - ٧٤)، ونفع الطيب (ج ٥ ص ١٣٥).

(٩) كلمة «مه» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة والذيل. وفي النسخ: «لا» مكان «مه».

بَعْدُ مِنْهُ بِذَلِكَ، وَأَمْرٌ أَنْ يُكْتَبَ عَلَى قَبْرِهِ بِهَذِهِ الْآيَاتِ^(١): [الطويل]

بَنَيْتُ وَلَمْ^(٢) أَسْكُنْ وَحَصَّنْتُ جَاهِدًا فَلَمَّا أَتَى الْمَقْدُورُ صَيْرَهُ^(٣) قَبْرِي
وَلَمْ يَكْ^(٤) حَظِّي غَيْرَ مَا أَنْتَ مُبْصِرٌ بَعَيْنِكَ مَا بَيْنَ الذَّرَاعِ إِلَى الشُّبْرِ
فِيَا زَائِرًا قَبْرِي أَوْضِيكَ جَاهِدًا عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
فَلَا^(٥) تُحْسِنَنَّ بِالذُّهْرِ ظَنًّا فَإِنَّمَا مِنَ الْحَزْمِ إِلَّا يُسْتَنَامُ^(٦) إِلَى الدَّهْرِ

أحمد بن محمد بن طلحة^(٧)

من أهل جزيرة شُقر، يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن جدّه طلحة.

حاله: قال صاحبُ «القدح المَعْلَى»^(٨): من بيت مشهور بجزيرة شُقر من عمل بَلَنَسِيَّة، كتب عن ولاة الأمر^(٩) من بني عبد المؤمن، ثم استكتبه ابنُ هود^(١٠)، حين تغلب على الأندلس، وربما استوزره^(١١)، وهو ممن كان والذي يُكثرُ مجالسته، وبينهما مُزاورةٌ، ولم استفيد منه إلّا ما كنتُ أحفظُه من^(١٢) مجالسته.

شعره: قال^(١٣): سمعته يومًا^(١٤) يقول، تُقيمون القيامة بحبيب^(١٥)، والبُحْثري، والمُتنبّي، وفي عصركم من يهتدي إلى ما لم يهتد إليه المتقدّمون ولا المتأخرون،

(١) الآيات في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٧٤ - ٧٥).

(٢) في الذيل: «فلم».

(٣) في الذيل: «صيرته».

(٤) في الأصل: «يكن» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذيل.

(٥) في الذيل: «ولا».

(٦) في الذيل: «يستنام».

(٧) ترجمة ابن طلحة في القدح المَعْلَى (ص ١١٤)، والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢٠٩)، والمغرب (ج ٢ ص ٣٦٤)، والذيل والتكملة (ج ١ ص ٣٧٧)، والوافي بالوفيات (ج ٨ ص ٢١)، ونفع الطيب (ج ٤ ص ٢٧٤).

(٨) اختصار القدح المَعْلَى (ص ١١٤). والنصر ورد أيضًا في نفع الطيب (ج ٤ ص ٢٧٤).

(٩) كلمة «الأمر» ساقطة في القدح المَعْلَى ونفع الطيب.

(١٠) هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود، مات مقتولاً سنة ٦٣٥ هـ. وقد تقدّم الحديث عنه

في هذا الجزء في فصل «فيمن تداول هذه المدينة». وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني

من الإحاطة.

(١١) في القدح المَعْلَى والنفع: «استوزره في بعض الأحيان».

(١٢) في نفع الطيب: «في».

(١٣) ما يزال النقل مستمرًا عن القدح المَعْلَى (ص ١١٤ - ١١٥). وهو أيضًا في نفع الطيب (ج ٤ ص ٢٧٦ - ٢٧٤).

(١٤) في القدح: «مرة يقول وهو في محفل...». وفي النفع: «مرة وهو في محفل يقول».

(١٥) في النفع: «الحبيب».

فانبرى إليه^(١) شخص له همة^(٢) وإقدام، فقال^(٣): يا أبا جعفر، أين^(٤) بُرهان ذلك، فما أظنك تعني إلا نفسك^(٥)، فقال^(٦): ما أعني إلا نفسي، ولم لا، وأنا الذي أقول^(٧): [السريع]

يا هل ترى أَظَرَفَ^(٨) مِنْ يَوْمِنَا قَلَدَ جِيدِ الْأَقْفِ طَوُوقَ الْعَقِيْقِ
وَأَنْطَقَ الْوُزُقَ بِعِيدَانِهَا مُطَرِبَةً^(٩) كُلَّ قَضِيبٍ وَرَيْقِ
وَالشَّمْسُ لَا تَشْرِبُ خَمَرَ الثَّدْيِ فِي الرُّوْضِ إِلَّا بِكُؤُوسِ^(١٠) الشَّقِيْقِ
فلم يُنصفوه في الاستحسان، وردّوه في الغَيْظِ^(١١) كما كان، فقلت له: يا سيدي، هذا والله^(١٢) السُّخْرُ الحلال، وما سمعتُ من شعراء عصرنا مثله، فبالله إلا ما لازمَني وزدّني من هذا النمط، فقال لي: الله ذُك، وذُرْ أبيك مِنْ مُنْصَفِ ابْنِ مُنْصَفٍ. اسمع، وافتح أذُنكَ. ثم أنشد^(١٣): [الوافر]

أَذَرَهَا فَالَسَمَاءُ بَدَتْ عَرُوسًا مُضْمَخَةً الْمَلَابِسِ بِالْعَوَالِي
وَحَذَّ الْأَرْضِ^(١٤) خَفَرُهُ^(١٥) أُصِيلُ وَجَفُنُ^(١٦) الشَّهْرِ كُحُلُ بِالظَّلَالِ
وَجِيدُ الْعُضْنِ يُشْرِفُ^(١٧) فِي لَالٍ تُضِيءُ بِهِنْ أَكْنَافُ اللَّيَالِي
فقلت: بالله أعذ وزد، فأعاد والارتياح قد ملا^(١٨) عطفه، والتّيه قد رفع أنفه،

-
- (١) في القدح: «ما لم يهتدوا إليه، فانبرى له...». وفي النفع: «ما لم يهتدوا إليه، فأهوى له».
(٢) في المصدرين: «قَهَّة».
(٣) في القدح: «وقال».
(٤) في المصدرين: «فأرنا».
(٥) في القدح: «وما أظنك إلا تعني نفسك».
(٦) في القدح: «قال».
(٧) في القدح: «أقول ما لم يهتد إليه متقدم ولا يهتدي لمثله متأخر». ومثله في النفع مع فارق كلمة «يتنبه» مكان «يهتد». والأبيات أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٦٥).
(٨) في الأصل: «الظرف» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الثلاثة.
(٩) في القدح: «من قَصَّة». وفي المغرب والنفع: «مُرْقَصَة».
(١٠) في الأصل: «بكأس» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الثلاثة.
(١١) في القدح: «الغَيْظُ إلى أشدّ مما كان». وفي النفع: «الغَيْظُ إلى أضيّق مكان».
(١٢) في القدح: «هو».
(١٣) في القدح: «الروض» وهو أدقّ للسياق.
(١٤) في القدح: «خَمَرُهُ».
(١٥) في القدح: «وجفون» والحق: الكَشْح، ويريد: الشاطىء.
(١٦) في الأصل: «يشرق» والتصويب من المصادر الثلاثة.
(١٧) في القدح: «مَلَك».

ثم قال^(١): [السريع]

لله نُهْرٌ عِنْدَمَا رُزْتُه عَائِنَ طَرْفِي مِنْهُ سِخْرًا خَلَالِ
إِذْ^(٢) أَصْبَحَ الطَّلُّ بِهِ لَيْلَةً وَجَالَ^(٣) فِيهِ^(٤) الْغُضُنُ مِثْلُ^(٥) الْخِيَانِ
فَقُلْتُ: مَا عَلَى هَذَا مَزِيدَ فِي الْإِسْتِحْسَانِ^(٦)، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ الْمَزِيدُ فِي
الْإِنْشَادِ، فَزَادَ ارْتِيَاخَهُ وَأَنْشَدَ^(٧): [الوافر]

وَلَمَّا مَاجَ بَخْرُ اللَّيْلِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَقَدْ جَذَذْتُ ذُكْرًا
أَرَادَ لِقَاءَكُمْ^(٨) إِنْسَانٌ عَيْنِي فَمَدَّ لَهُ الْمَنَامُ عَلَيْهِ جِسْرًا
فَقُلْتُ^(٩): إِلَيْهِ زَادَكَ اللَّهُ إِحْسَانًا، فَزَادَ^(١٠): [الوافر]

وَلَمَّا أَنْ رَأَى إِنْسَانٌ عَيْنِي بِصَخْنِ الْحَدِّ مِنْهُ غَرِيقَ مَاءٍ
أَقَامَ لَهُ الْعِذَارُ عَلَيْهِ جِسْرًا كَمَا مَدَّ الظَّلَامُ عَلَى الضِّيَاءِ
فَقُلْتُ: فَمَا تَكَرَّرُ^(١١) وَيَطُولُ، فَإِنَّهُ مَمْلُولٌ، إِلَّا مَا أَوْزَدْتَهُ أَنْقَاءً، فَإِنَّهُ كَنَسِيمِ
الْحَيَاةِ، وَمَا إِنْ يُمَلِّ، فَبِاللَّهِ إِلَّا مَا زِدْتَنِي^(١٢)، وَتَفَضَّلْتُ عَلَيَّ بِالْإِعَادَةِ، فَأَعَادَ وَأَنْشَدَ:
[الكامل]

هَاتِ الْمُدَامَ إِذَا رَأَيْتَ شَبِيهَهَا فِي الْأَفْقِ يَا فَرْدًا بَغِيرِ شَبِيهِ
فَالضُّبْحُ قَدْ ذَبَحَ الظَّلَامَ بِتَضْلِهِ فَغَدَّتْ حَمَائِمُهُ تُخَاصِمُ فِيهِ^(١٣)

دخوله غرناطة: دخلها مع مخدومه المُتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ ابْنُ هُودٍ وَفِي جُمْلَتِهِ، إِذْ
كَانَ يَصْحَبُهُ فِي حَرَكَاتِهِ، وَيَبَاشِرُ مَعَهُ الْحَرْبَ، وَجَرَتْ عَلَيْهِ الْهَزَائِمُ، وَلَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ
شَعْرٌ.

(١) البيتان أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٦٥).

(٢) في الأصل: «إِذَا» والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٣) في المغرب: «وَحَالَ». (٤) في القدح: «مِنْهَا».

(٥) في المصادر الثلاثة: «شَيْبَةً». (٦) في القدح: «الْإِحْسَان».

(٧) البيتان أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٦٥).

(٨) في الأصل: «لِقَائِكُمْ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الثلاثة.

(٩) في القدح: «فَقُلْتُ لَهُ». (١٠) البيتان أيضًا في المغرب (ج ٢ ص ٣٦٥).

(١١) في القدح: «يَكْرُرُ».

(١٢) في القدح المعلى: «إِلَّا تَفَضَّلْتُ بِالْإِعَادَةِ وَالزِّيَادَةِ. فَأَعَادَ ثُمَّ قَالَ: وَهَذَا حَسْبُكَ لثَلَا تَكَثَّرُ
الْمَعَانِي عَلَيْكَ فَلَا تَقُومُ بِحَقِّ فَهْمِهَا وَإِنْصَافِهَا. ثُمَّ أَنْشَدَ إِذْ ذَاكَ».

(١٣) في القدح والنقح: «فَغَدَّتْ تَخَاصُمُهُ الْحَمَائِمُ فِيهِ».

محنته: قالوا^(١): لم يقنع بما أجرى عليه أبو العباس الينشتي^(٢) من الإحسان، فكان يُوغِرُ صدره من الكلام فيه، فذكروا أن الينشتي قال يوماً في مجلسه: رميْتُ يوماً بسهم من كذا، فبلغ إلى كذا؛ فقال ابن طلحة لشخص كان إلى جانبه: والله لو كان قَوْسٌ قَزَحَ؛ فَشَعَرَ أبو العباس إلى قوله ما يُشبه ذلك، واستدعى الشخص، وعزم عليه، فأخبره بقوله، فَأَسْرَها في نفسه، إلى أن قوى الحقد عليه، من ما بلغه عنه من قوله يهجوهُ: [الوافر]

سمعتنا بالمُوفِّقِ فارتحلنا وشافِعُنا له حَسَبٌ وعِلْمٌ
ورُمْتُ يَدًا أَقْبَلُها وأخرى أعيشُ بفضْلِها أبداً وأسمو
فأنشَدنا لسانَ الحالِ عنه^(٣) يَدٌ شَلًا وأمرٌ لا يَئِمُّ
فزادت مَوجِدَتُهُ^(٤) عليه، وراعى أمره إلى أن بلغته أبياتُ قالها في شهر رمضان، وهو على حال الاستهتار: [الوافر]

يقول أخو القُضُولِ وقد رآنا على الإيمانِ يَغْلُبُنا المُجُونُ^(٥)
أَتَنْتَهِكُونُ^(٦) شَهْرَ الصُّومِ هَلَّا خِماءُ منكمُ عَقْلٌ وِدِينُ؟
فقلتُ اصْحَبْ سوانا، نحنُ^(٧) قومٌ زنادِقَةٌ مَذاهِبُنا قُتُونُ
تُدينُ بكلِّ دينٍ غيرِ دينِ الرُّ رِعايا فما به أبداً تُدينُ
فَحَيَّ على الصُّبُوحِ^(٨) الدُّهرَ ندعو وإِليسَ يقولُ لنا آمينُ^(٩)
أيا^(١٠) شَهْرَ الصَّيَامِ إِلَيْكَ عَنا إِلَيْكَ^(١١) ففِيكَ أَكْفَرُ ما نَكُونُ

(١) ما يزال النقل عن اختصار القدح المعلى (ص ١١٦ - ١١٧)، وهو أيضاً في نفح الطيب (ج ٤ ص ٢٧٦ - ٢٧٧)، ولكن النص فيه بعض التغيير عما هنا.

(٢) كان أبو العباس الينشتي، كما في اختصار القدح، والياً على سبته. وفي الذيل والتكملة (ج ١ ص ٣٨١): هو أمير سبته الموفق بالله أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله بن أبي الفضل مبارك المعروف باليناشتي. والينشتي: نسبة إلى حصن ينشته، أحد حصون الأندلس.

(٣) في نفح الطيب: «فيه».

(٤) في القدح: «فزاد ذلك في حنقه». وفي النفح: «فزاد في حنقه».

(٥) في الأصل: «يَلُغُّنا الحَجُونُ» والتصويب من المصدرين.

(٦) في الأصل: «أنشكو» وهكذا يتكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٧) في الأصل: «فنحن» وهكذا يتكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(٨) في الأصل: «فنحن على صفوح الدهر...» وهو لا معنى له، والتصويب من المصدرين، ولكن جاء في النفح: «بحي» مكان «فحي». والصباح: خمرة الصباح.

(٩) في الأصل: «آمين» وهكذا يتكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.

(١٠) في المصدرين: «فيا».

(١١) كلمة «إليك» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.

قال: فأرسل إليه من هجم عليه، وهو على هذا^(١) الحال، وأظهر إرضاء العامة بقَّله، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وستمائة^(٢). ولا خفاء أنه من صدور الأندلس، وأشدَّهم عثورًا على المعاني الغريبة المخترعة، رحمه الله.

أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد ابن خاتمة الأنصاري

من أهل المَرِيَّة، يكنى أبا جعفر، ويُعرف بابن خاتمة^(٣).

حاله: هذا^(٤) الرجل صدر يُشار إليه، طالب مُتَفَتِّحٌ، مُشاركٌ، قوي الإدراك، شديد النظر، قوي الذهن، موفور الأدوات، كثير الاجتهاد، معين الطبع، جيد القريحة، بارع الخط، مُمتنع المجالسة، حسن المُلُوك، جميل العِشرة، حَسَنَةٌ من حسنات الأندلس، وطَبَقَةٌ في النظم والنثر، بعيد المَرَقى في درجة الاجتهاد، وأخذَه بطرق الإحسان؛ عقد الشروط، وكتب عن الوَلاة ببلده، وقعد للإقراء ببلده، مشكور السيرة، حميد الطريقة، في ذلك كله.

وجرى ذكره في كتاب «التاج» بما نصه^(٥): «ناظم دُرِّ الألفاظ، ومُقلِّد جواهر الكلام نحوور الرِواة ولَبَّاتِ الحُفَاط، والآداب^(٦) التي أصبحت شوارِدها حلم النائم وسَمَرُ الأيقاظ، وكم^(٧) في بياض طِرْسها وسواد بَقْسها^(٨) سَحَرُ الألفاظ^(٩). رفع^(١٠) في قطره راية هذا الشأن على وفور حَلَبَتِه، وقرع فُتُه البيان على سُمُو هَضْبَتِه، وفُوق سَهْمِه إلى بحر الإحسان، فاثبتته في لَبَتِه؛ فإن أطلال شَأْن الأبطال، وكائر المُنْسَجَم

(١) في المصدرين: «هذه».

(٢) كذا في النسخ. وفي اختصار القدح: «إحدى وثمانين وستمائة» وهو خطأ. وفي المقتضب من كتاب تحفة القادم: قُتل بسنة سنة ٦٣٢ هـ. وفي الدليل والتكملة (ج ١ ص ٣٨١): قتل في أواخر ٦٣٢ هـ أو أوائل ٦٣٣ هـ.

(٣) ترجمة ابن خاتمة في الكتيبة الكامنة (ص ٢٣٩)، ونشير فرائد الجمان (ص ٣٣١)، ونيل الابتهاج، طبعة فاس (ص ٥١)، ونفح الطيب (ج ٨ ص ١٧١)، ومواضع أخرى متفرقة. وانظر أيضًا مقدمة ديوان ابن خاتمة، بقلم محققه الدكتور محمد رضوان الداية، حيث ثبت بأسماء مصادر ومراجع الترجمة.

(٤) النص أورده المقرئ في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٧١) بتصريف.

(٥) النص في الكتيبة الكامنة (ص ٢٣٩). (٦) في الكتيبة: «ذو الآداب».

(٧) في الكتيبة: «وكم».

(٨) في الأصل: «مقسها» والتصويب من الكتيبة الكامنة. والنُفس: المداد. محيط المحيط (نفس).

(٩) في الكتيبة: «للحافظ».

(١٠) من هنا حتى قوله: «السباق جياذها» غير وارد في الكتيبة الكامنة.

الهطال؛ وإن أوجز، فضح وأعجز؛ فمن نسيب تهيج به الأشواق، وتضيق عن زفراتها الأطواق؛ ودُعابة تُقلص ذيل الوقار، وتُزري بأكواس العقار؛ إلى انتماء للمعارف، وجنوح إلى ظلها الوارف؛ ولم تزل معارفه ينفّس آمادها، وتحوز خُصل السباق جياؤها.

مشيخته: حسبما نُقل بخطه في ثبّت استدعاه منه من أخذ عنه؛ الشيخ الخطيب، الأستاذ مولى النعمة، على أهل طبّته بالمريّة، أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العيش المريّ؛ قرأ عليه ولازمه، وبه جلّ انتفاعه؛ والشيخ الخطيب الأستاذ الصالح أبو إسحق إبراهيم بن العاص الثّوخي. وروى عن الراوية المُحدّث المُكثّر الرّحال، محمد بن جابر بن محمد بن حسان الوادي آشي؛ وعن شيخنا أبي البركات ابن الحاج، سمع عليه الكثير، وأجازه إجازة عامّة؛ والشيخ الخطيب أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن شعيب القنيسي من أهل بلده؛ والقاضي أبو جعفر القرشي بن فزكون. وأخذ عن الوزير الحاج الزاهد، أبي القاسم محمد بن محمد بن سهل بن مالك. وقرأ على المقرئ أبي جعفر الأغزر، وغيرهم.

كتابه: ممّا^(١) خاطبني به بعد إمام الرّكب^(٢) السلطاني ببلده، وأنا صحبته^(٣)، ولقائه إياي، بما يلقى به مثله من تأنيس وبرّ، وتودّد، وتردّد: [الكامل]

يا مَنْ حَصَلَتْ عَلَى الْكَمالِ بِمَا رَأَتْ عَيْنَايَ مِنْهُ مِنَ الْجَمالِ الرَّائِعِ
مَزَايَ^(٤) يَرُوقُ وَفِي عِطَافِي بُزْدِهِ مَا شُنْتُ مِنْ كَرَمٍ وَمَجْدٍ بَارِعِ
أَشْكُو إِلَيْكَ مِنَ الزَّمَانِ تَحَامُلًا فِي قَضْ شَمْلٍ لِي بِقُرْبِكَ جَامِعِ
هَجَمُ الْبَعَادِ عَلَيْهِ ضَنَا بِاللُّقَا حَتَّى تَقْلُصَ مِثْلَ بَرْقٍ لَامِعِ
فَلَوْ أَنَّنِي ذُو مَذْهَبٍ لَشَفَاعَةٍ نَادَيْتُهُ: يَا مَالِكِي كُنْ شَافِعِي^(٥)

شكواي إلى سيدي ومُعظمي؛ أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد، وأدرّ بشنائه ألسن الحمد! شكوى الظمآن^(٦) صُدّ عن القراح العذب لأول وروده، والهيمان رُدّ عن استرواح القُرب لمُغْضِل صدوده، من زمانٍ هجم عليّ بإبعاده^(٧)، على حين

(١) النص نثرًا وشعرًا في ديوان ابن خاتمة (ص ١٩٨) ونفح الطيب (ج ٨ ص ١٧١ - ١٧٣).

(٢) في ديوان ابن خاتمة والنفح: «الركاب». (٣) في ديوان ابن خاتمة: «في صحبته».

(٤) في الديوان والنفح: «قَمَر».

(٥) في الديوان والنفح: «يا شافعي». وفي هذا البيت تورية ظاهرة.

(٦) في الديوان والنفح: «ظَمآن». (٧) في الأصل: «بعاده» والتصويب من النفح.

إسعاده^(١)، ودَهَمَنِي بفراقه غَبَّ إنارة أفقي به وإشراقه؛ ثم لم يَكْفِهِ ما اجْتَرَمَ في ترويع خياله الزاهر، حتى حرم عن تشيع كماله الباهر، فَقَطَعَ عن تَوْفِيَةِ حَقِّهِ، وَمُنَعَ من تادية مُسْتَحَقِّهِ، لا جَزَمَ أَنَّهُ أَيْفَ لشعاع^(٢) ذُكَاثِهِ، من هذه المطالع النائية^(٣) عن شريف الإنارة، وَيَخِلْ بالإمتاع بذكائه، عن هذه المسامع النائية عن لطيف العبارة، فراجع أنظاره، واستزجج مُعَارَهِ؛ وَلَا فعهدي بغروب الشمس إلى الطُلُوع^(٤)، وَأَنَّ البَذْر ينصرف^(٥) بين الاستقامة والرجوع. فما بالُ هذا النِير الأسعد، غَرَبَ ثم لم يطلع من الغد، ما ذاك إِلَّا لِعَدَوَى الأيام وعُدوانها، وشأنها في تغطية إساءتها وجه إحسانها، وكما قيل: عادت هيفَ إلى أديانها؛ أَسْتَغْفِرُ الله أن لا يُعَدَّ ذلك من الْمُعْتَقَر في جانب ما أوليت^(٦) من الأثر^(٧)، التي أَرَى العيان فيها بالأثر، وأربى الخُبْرُ على الخَبَر^(٨)؛ فَقَدْ سُرْتُ مُتَشَوِّفَاتِ الخواطر، وأقْرْتُ مُتَشَوِّفَاتُ^(٩) النواظر، بما جَلَّتْ^(١٠) من ذلِّكم الكمال الباهر، والجمال الناضر، الذي قَيَّدَ حُطَى الأبصار، عن التشوُّف والاستبصار؛ وأخذ بِأَزِمَةِ القلوب، عن سبيل كل مأمول ومرغوب؛ وأتى للعين بالتحوُّل عن كمال الزَّيْنِ؟ أو لِلطَّرْفِ^(١١)، بِالتَّحَوُّلِ^(١٢) عن جِلَالِ الطَّرْفِ؟ أو لِلسَّمْع من مُرَاد، بعد ذلك^(١٣) الإصرار والإيراد، أو للقلب من مُرَاد، غير تلُّكم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلِّ وأبراد؛ وهل هو إِلَّا الحُسْنُ جُمَعَ في نظام، والبَذْر طالَعَ التمام، وأنوار الفضائل^(١٤) ضَمَّهَا جنسُ اتفاقٍ والتَّام؛ فما تَرعى العين منه في غير مرعى خصيب، ولا تستهدفُ الآذان^(١٥) لغير سهم في حَذَقِ البلاغة مُصِيب؛ ولا تَطْلُعُ^(١٦) النفسُ سوى مطلع له في الحُسْن والإحسان أوفر نصيب. لقد أَرَى بناظم حُلاه فيما تعاطاه^(١٧) التقصير، وانفصح من أعلاه بكل باع قَصِير، وَسَقَمَ حلمُ القائل: إِنَّ الإنسانَ عَالَمٌ صغير، شَكَرًا للدهر على يد أسداها بقلب مزاره، وتُخَفِّة ثناء^(١٨) أهداها بِمَطْلَعِ أنواره، على تَغَالِيهِ في

(١) في الأصل: «النفادة» والتصويب من النفع.

(٢) في الأصل: «شارع» والتصويب من النفع. والذكاء، بضم الذال: الشمس.

(٣) في الأصل: «النائية» والتصويب من النفع. (٤) في الأصل: «طلوع»، والتصويب من النفع.

(٥) في النفع: «يتصرف». (٦) في النفع: «أولت».

(٧) الأكثر: جمع أثره وهي المكرومة المتوارثة. لسان العرب (أثر).

(٨) أربى الخُبْرُ على الخَبَر: أي زادت الخبرة على الخبر.

(٩) في النفع: «مستشرفات». (١٠) في النفع: «خوث».

(١١) في النفع: «أو الطرف». (١٢) في النفع: «بالتنقل».

(١٣) في النفع: «ذلِّكم الإصدار الأدبي والإيراد». (١٤) في النفع: «الفضل».

(١٥) في النفع: «الأذن بغير سهم». (١٦) في النفع: «ولا تستطلع».

(١٧) في النفع: «يتعاطاه». (١٨) كلمة «ثناء» غير واردة في النفع.

أَذْخَارٌ^(١) نفائسه، وبُخْله بنفائس أذخاره؛ ولا^(٢) عَزَوْ أن يضيق عَنَّا نطاق الذكر، ولَمَّا يَتَسَّعُ لنا سِوار الشكر؛ فقد عُمَّتْ هذه الأقطار بما شاءت من تَحْفٍ، بين تَحْفٍ وكرامة، واجتَنَّتْ أهلها ثمره الرحلة في ظلِّ الإقامة، وجرى الأمرُ في ذلك مَجْرَى الكرامة. ألا وإنَّ مُفَاتِحِي لِسِيدِي وَمُعْظَمِي، حرس الله تعالى مَنَاجِدَهُ، وضاعف سَعْدَهُ! مُفَاتِحَةُ مَنْ ظَفِرَ من الدهر بمطلوبه، وجرى له القَدَرُ على وفق مَرْغُوبِهِ؛ فشرع له إلى أمله^(٣) بابًا، ورفع له من خجله جَلْبَابًا، فهو يَكْلَفُ بالافتحام، ويَأْنِفُ من الإحجام، غير أنَّ الحَضَرَ عن دَرَج قَصْدِهِ يَقِيدُهُ، فهو^(٤) يُقَدِّمُ والبَصْرُ يُبْهَرُجُ نَقْدَهُ فَيَقْعِدُهُ؛ فهو يُقَدِّمُ رَجُلًا ويؤَخِّرُ أخرى، ويجدد عَزْمًا ثم لا يَتَحَرَّى؛ فإن أبطأ خطابي فلو اضحَ الاعتذار^(٥)، ومثلكم لا يقبل حياة الأعذار؛ والله عزَّ وجلَّ يصل إليكم عوائد الإسعاد والإسعاف، ويحفظ لكم^(٦) ما للمجد من جوانب وأكناف، إن شاء الله تعالى. كتب^(٧) في العاشر من ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمئة.

دخوله غرناطة: دخل غرناطة غير ما مرَّة، منها في استدعاء شمال الخواص من أهل الأقطار الأندلسية، عند إعدار الأمراء في الدولة اليوسُفِيَّة^(٨)، في شهر شعبان من عام أحد وخمسين وسبعمئة.

شعره: كان مُجَلِّيًا، وأنشد في حَلَبَةِ الشعراء قصيدة أولها^(٩): [الكامل]

أَجْنَانُ خُلِدِ زُخْرِفَتْ أَمْ مَضْنَعُ؟ وَالْعِيدُ عَاوَدَ أَمْ صَنِيعُ يُضْنَعُ؟
ومن شعره^(١٠): [الكامل]

مَنْ لَمْ يُشَاهِدْ مَوْقِفًا لِفِرَاقِ لَمْ يَذَرِ كَيْفَ تَوَلَّهِ الْعُشَاقِ
إِنْ كُنْتُ لَمْ تَرَهُ فَسَائِلُ مَنْ رَأَى يُخْبِرُكَ عَنْ وَلَهِي وَهَوِّ سِيَاقِي^(١١)
مِنْ حَرٍّ أَنْفَاسٍ وَخَفَقِ جَوَانِحِ وَصُدُوعِ أَكْبَادٍ وَفِيضِ مَاقِي

(١) في النسخ: «أذخاره».

(٢) في النسخ: «أهله».

(٣) في النسخ: «يقيد»، والبصر يُبْهَرُجُ نَقْدَهُ فَيَقْعِدُهُ، فهو يُقَدِّمُ رَجُلًا...

(٤) في النسخ: «الأعدار»، ومثلكم مَنْ قبل جليات الأقدار، والله سبحانه يصل لكم عوائلًا...

(٥) في النسخ: «بكم».

(٦) في النسخ: «وكتب في عاشر ربيع...».

(٧) أي دولة السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ).

وترجمته في اللمعة البيرية (ص ١٠٢).

(٨) البيت في ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ص ١٩٩).

(٩) القصيدة في ديوان ابن خاتمة (ص ٢٠٠ - ٢٠٣) والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٠ - ٢٤١).

(١٠) في الأصل: «سباق» والتصويب من المصدرين.

دَهِي الفَوَاذُ فَلَا لِسَانَ نَاطِقَ
 وَلَقَدْ أَشِيرُ لِمَنْ تَكَلَّفَ رِحْلَةً
 عَلَيَّ أَرَايُجِعُ مِنْ دُمَايَ حُشَامَةً
 فَمَضَى وَلَمْ تَغِطْفُهُ نَحْوِي ذِمَّةُ
 يَا صَاحِبِي وَقَدْ مَضَى حُكْمُ الثَّوَى^(٤)
 وَاسْتَقْبَلَا بِي^(٧) نَسَمَةً مِنْ^(٨) أَرْضِكُمْ
 إِنِّي لَيْشْفِينِي النَّسِيمُ إِذَا سَرَى
 مَنْ مَبْلُغٌ بِالْجَزَعِ أَهْلَ مَوَدَّتِي
 وَلِئِنْ تَحَوَّلَ عَنْهُ قُزْبُهُمْ^(٩) نَوَى
 أَنْفَقْتُ خِلَافَتِي الْكِرَامَ لِيُخْلَتِي
 قَسَمًا بِهِ مَا اسْتَغْفَرْتَنِي فِكْرَةً
 لِي آهَةٌ^(١٢) عِنْدَ الْعَشِيِّ لَعَلَّهُ
 أَبْكِي إِذَا هَبَّ النَّسِيمُ فَإِنْ تَجِدُ
 أَوْمِي بِتَسْلِيمٍ^(١٣) إِلَيْهِ مَعَ الصُّبَا
 مَنْ لِي وَقَدْ شَحَطَ^(١٤) الْمَزَارَ بِنَازِحِ
 إِنْ غَابَ عَنِ عَيْنِي فَمَثَوَاهُ الْحَشَا
 جَاوَزْتُ عَلَيَّ يَدَ الثَّوَى بِفِرَاقِهِ
 أَخْبَابَ قَلْبِي هَلْ لِمَاضِي عَيْشِنَا^(١٦)

عِنْدَ الْوَدَاعِ وَلَا يَدُ^(١) مُتَرَاقٍ
 أَنْ عُنْجٍ عَلَيَّ وَلَوْ بِقَدْرِ قُوقٍ^(٢)
 أَشْكُو بِهَا بَعْضَ الَّذِي أَنَا لَاقٍ
 هِيَهَاتَ! لَا بُقْيَا^(٣) عَلَى مُشْتَاقٍ
 رَوْحَا عَلَيَّ بِشِيمَةٍ^(٥) الْعُشَاقِ^(٦)
 فَلَعَلَّ نَفْحَتَهَا تَحُلُّ وَثَاقِي
 مُتَضَوِّعًا مِنْ تَلَكُّمِ الْآفَاقِ
 أَنِي عَلَى حُكْمِ الصُّبَابَةِ بَاقٍ؟
 مَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِي وَلَا^(١٠) مِيثَاقِي
 نَسَبًا إِلَى الْإِخْلَاقِ وَالْإِخْرَاقِ^(١١)
 إِلَّا وَفَكْرِي فِيهِ وَاسْتِغْرَاقِي
 يُضْغِي لَهَا، وَكَذَا مَعَ الْإِشْرَاقِ
 بَلَلًا بِهِ فَبِدَمْعِي الْمُهْرَاقِ
 فَالذِّكْرُ كُتْبِي وَالرِّفَاقُ رِفَاقِي
 أَدْنَى لِقَلْبِي مِنْ جَوَى أَشْوَاقِي
 فَسَرَاهُ^(١٥) بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْأَخْدَاقِ
 آهًا لِمَا جَنَّبَ الثَّوَى بِفِرَاقِ
 رَدُّ قَيْئُسَخَ بَغْدُكُمُ بَتَلَاقِ؟

- (١) في الأصل: «طايح» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
- (٢) القوق: ما بين الحلبتين من الوقت، أو ما بين فتح يد الحالب وقبضها على الضرع. محيط المحيط (فروق).
- (٣) في الديوان والكتيبة: «لَا يَنْتِي». (٤) في المصدرين: «الهُوَى».
- (٥) في الأصل: «بمشيمة» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
- (٦) في المصدرين: «الإشفاق». (٧) في المصدرين: «واستقبلاها».
- (٨) في الأصل: «عن» والتصويب من المصدرين.
- (٩) في الديوان: «حُبهم». (١٠) في الديوان: «وعن».
- (١١) في المصدرين: «إلى الإخلال والإخلاق». (١٢) في المصدرين: «لي آهة».
- (١٣) في الأصل: «أوما ما تكتب...» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصدرين.
- (١٤) في المصدرين: «مَنْ لِي عَلَى شَحَط...». (١٥) في المصدرين: «وسراه».
- (١٦) في الديوان: «عيشكم».

أم هل لأثواب التجلّد راقعٌ
ما غاب كوكبٌ حُسنِكُم عن ناظري
إليه أخِي أَدِر عليّ حديثُهُم
وَإِذَا جَنَحْتَ لِمَاءٍ أَوْ طَرَبٍ فَمِنْ
ذِكْرَاهُ راجِي، والصَّبَابَةُ حَضْرَتِي^(٢)
فَلَيْلَةُ^(٤) عَنِّي مَنْ لَحَانِي إِنِّي
إِذْ لَيْسَ مِنْ دَاءِ الْمَحَبَّةِ رَاقٍ
إِلَّا وَأَمْطَرَتِ الدُّمَا أَمَاقِي
كَأَمَّا ذَكَّتْ عَرْفًا وَطِيبَ مَذَاقِي
دَمْعِي الْهَمُوعُ^(١) وَقَلْبِي الْخُفَاقِي
وَالدَمْعُ سَاقِيَتِي^(٣)، وَأَنْتَ السَّاقِي
رَاضٍ بِمَا لَاقَيْتُهُ وَأَلَاقِي

وقال^(٥): [البسيط]

وقفت والركب^(٦) قد زُمْتُ رَكائِبُهُ
وقد تَمَایَلْ نَحْوِي لِلوَدَاعِ وَهَلْ
أَضْمُ مِنْهُ كَمَا أَهْوَى^(٩) لغير نَوَى
تَهْفُو^(١٠) فَأَذْغُرُ خَوْفًا مِنْ تَقْلُصْهَا^(١١)
هَلْ عِنْدَ مَنْ قَدْ دَعَا بِالْبَيْنِ مُقْلَتَهُ^(١٢)
أَشْبَعُ الْقَلْبَ مِنْ^(١٣) رَغَمِ عَلِيٍّ وَمَا
أُرِي وَشَاتِي أَتِي لَسْتُ مُفْتَقِرًا^(١٤)
الوجدُ طَبِيعُ^(١٥) وَسَلَوَانِي مُصَائِعَةٌ
«إِنَّ الْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلْقِ
وَلِلنَّفُوسِ مَعَ السَّوَى^(٧) تَقْطِيعُ
لِرَاحِلِ^(٨) الْقَلْبِ صَدَرَ الرُّكْبِ تَوْدِيعُ؟
رِيحَانَةٌ فِي شَذَاهَا الطَّيِّبُ مَجْمُوعُ
إِنَّ الشَّفِيقَ بِسَوْءِ الظَّنِّ مَوْلُوعُ
أَنْ الرُّدَى مِنْهُ مَرْنِي وَمَسْمُوعُ؟
بِقَاءِ جَسْمٍ لَهُ لِلْقَلْبِ تَشْيِيعُ
لِذَا جَرَى وَصَمِيمُ الْقَلْبِ مَصْرُوعُ
هِيَهَاتِ يُشَكِّلُ مَضْنُوعُ وَمَطْبُوعُ^(١٦)
تَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّ الثُّوبَ مَرْقُوعُ»

(١) الْهَمُوعُ: المنصبَةُ؛ يقال: هَمَعَتِ الْعَيْنُ إِذَا سَالَ دَمْعُهَا. لسان العرب (ممع).

(٢) فِي الْأَصْل: «حَضْرَتِي» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(٣) فِي الْأَصْل: «سَاقِيَتِي» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(٤) فِي الْمَصْدَرِ: «فَلَيْسَلُ».

(٥) الْقَصِيدَةُ فِي دِيوَانِ ابْنِ خَاتَمَةَ (ص ١٩٩ - ٢٠٠) وَالكُنْيَةُ الْكَامِنَةُ (ص ٢٤١ - ٢٤٢).

(٦) فِي الْمَصْدَرِ: «وَالْبَيْنُ».

(٧) فِي الْأَصْل: «لِلرَّاحِلِ»، وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(٨) فِي الْأَصْل: «أَهْدَى» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(٩) فِي الْأَصْل: «يَهْفُو» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(١٠) فِي الْمَصْدَرِ: «تَقْصُصُهَا».

(١١) فِي الْأَصْل: «عَنِ» وَالتَّصْوِيبُ مِنَ الْمَصْدَرِ.

(١٢) فِي الْمَصْدَرِ: «مَكْتَرَنًا».

(١٣) فِي الْمَصْدَرِ: «مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ».

(١٤) فِي الْمَصْدَرِ: «طَبِيعِي».

(١٥) فِي الْمَصْدَرِ: «مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ».

وقال أيضًا^(١): [الكامل]

لولا حيائي من عيونِ التُّرْجِسِ
ورَشَفْتُ من ثَغْرِ الأَقاحَةِ ريقَها
ومَتَكْتُ أَسْتارَ الوَقَارِ ولم أُبَلِّ^(٢)
ما لي وصُهْبَاءُ الدُّنَانِ مُطَارِحَا
شَتَانٍ بَيْنَ مُظَاهِرٍ وَمُخَاتَلٍ
وَمُجَنَّمٍ بِالْعَذْلِ بَاكَرَنِي بِهِ
تَرْفُتُ سَمْعِي عَنْ سَفَاهَةِ نُطْقِهِ
سَفَهْتُ فِي العُشَاقِ يَوْمًا إِنْ أَكُنْ
أَعْدُولَ وَجَدِي لَيْسَ عُشْكَ فَاذْرُجِي^(٣)
هَلْ تُبْصِرُ الأشْجَارَ والأَطْيَارَ وَالـ
تَالِهَ وَهُوَ الْيَتِي وَكَفَى بِهِ
مَا ذَاكَ مِنْ شُكْرِ وَلَا لَخْلَالَةٍ^(٤)
شُكْرًا لِمَنْ بَرَأَ الوجودَ بِجُودِهِ
وَسَمَا بِسَاطِ الأَرْضِ فِيهِ^(٥) فَمَدَّهُ
وَوَشَى بِأَنْوَاعِ المَحَاسِنِ هَذِهِ

لَلثَمْتُ خَدَّ الوَزْدِ بَيْنَ السُّنْدُسِ
وَصَمَمْتُ أَعْطَافَ العُصُونِ المُنِيسِ
لِلْبَاقِلَا^(٦) تَلَحَّظْ بِطَرْفِ أَشْوَسِ
سَجَّعَ القِيَانِ مُكَاشِفًا وَجْهَ المُسِي
ثُوبَ الحِجَابِ وَمُطَهِّرَ وَمُدْنَسِ
وَالطَّيْرِ أَفْصَحَ مُسْعِدِ بَتَائِسِ
وَأَعَزَّتْهُ صَوْتًا رَحِيمَ المَلَمَسِ
ذَاكَ الَّذِي يُدْعَى الفَصِيحَ الأَخْرَسِ^(٧)
وَنَصِيحَ رُشْدِي بَانَ نُضْحَكَ فَاجْلِسِ
أَزْهَارُ تِلْكَ الخَافِضَاتِ الأَرْوَسِ؟
قَسَمًا يُفْدَى بِرُهُ بِالأَنْفُسِ
لَكِنْ سَجُودَ مُسَبِّحٍ وَمُقَدَّسِ
فَقُنَى إِلَيْهِ الكُلَّ وَجْهَ المُفْلِسِ
وَدَحَا بِسَيْطَ^(٨) الأَرْضِ أَوْثَرَ مَجْلِسِ
وَأَنَارَ هَذِي بِالجَوَارِي^(٩) الكُنُوسِ

(١) القصيدة في ديوان ابن خاتمة (ص ١٩٣ - ١٩٦).

(٢) أي لم أبال.

(٣) في الأصل: «للباقلاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٤) في الديوان: «الذي يدع الفصيح لأخرس».

(٥) أخذه من المثل: «ليس هذا بعشك فاذرُجي». أي ليس هذا من الأمر الذي لك فيه حق فدعيه؛ يقال تَرَجَّجَ: أي مشى ومضى. يضرب لمن يَزْفَعُ نَفْسَهُ فوق قُدْرِهِ. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ١٨١).

(٦) في الديوان: «من شُكْرِ وَلَا لَخْلَالَةٍ».

(٧) كلمة «فيه» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى. ورواية صدر البيت في الديوان هي:

رَفَعَ السَّمَاءَ سَقْفًا يَسْرُوقُ رُؤُوسَهُ

(٨) دحا الأرض: بسطها، وفي عجز البيت إشارة إلى قول الله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ سورة النازعات ٧٩، الآية ٣٠.

(٩) في الأصل: «بالجوار» والتصويب من الديوان.

وَأَذَرُ أَخْلَافٌ^(١) الْعَطَاءِ تَطَوُّلاً
 حَتَّى إِذَا انْتَضَمَ الوجودُ بِنِسْبَةٍ
 وَاسْتَكَمَلَتْ كُلُّ النُّفُوسِ كَمَالَهَا
 بِأَجَلٍ هَادٍ لِلخَلَائِقِ مُرْشِدٍ
 بِالمِصْطَفَى المُهْدِي إلَيْنَا رَحْمَةً
 نَعْمَ يَضِيقُ الوُضْفُ عَنْ إحصائها
 إِلَيْهِ فَحَدَّثَنِي حَدِيثٌ هَوَاهُمْ
 إِنْ كُنْتُ قَدْ أَحْسَنْتُ نَعْتَ جَمَالِهِمْ
 مَا إِنْ دَعَوْتُكَ بِبُلْبُلٍ إِلَّا لِمَا
 مُبْحَانٌ مِّنْ صَدَعِ الْجَمِيعِ بِخَمْدِهِ
 وَامْتَدَّتْ الْأَطْلَالُ سَاجِدَةً لَهُ
 فَلِذَا تَرَاجَعَتِ الطِّيُورُ وَزَابِلَتْ
 فَيَقُولُ ذَا: سَكِرَتْ لِنَعْمَةٍ مُنْشِدٍ
 كُلُّ يَفْوَةٍ بِقَوْلِهِ^(٨) وَالْحَقُّ لَا
 وَقَالَ^(١١): [الكامل]

زَارَتْ عَلَى حَذَرٍ مِنَ الرُّقَبَاءِ
 تَصِلُ الدُّجَى بِسَوَادٍ قَزَعٍ فَاحِمٍ
 قَوْشَى^(١٢) بِهَا مِنْ وَجْهَهَا وَخَلِيلِهَا
 أَهْلًا بِزَائِرَةٍ عَلَى خَطَرِ السُّرَى
 وَاللَّيْلُ مُلْتَحَفٌ^(١١) بِفَضْلِ رِءَاءِ
 لَتَزِيدَ ظُلُمَاءُ إِلَى ظُلُمَاءِ
 بَذَرُ الدُّجَى وَكَوَاكِبُ الْجُوزَاءِ
 مَا كُنْتُ أَرْجُوها لِيَوْمٍ لِّقَاءِ

(١) الأخلاف: جمع خَلْف وهو حلقة ضرع الناقة، أو هو للناقة كالضرع للشاة. محيط المحيط (خلف).

(٢) الجندس: الظلمة. لسان العرب (جندس).

(٣) في الأصل: «الرجاء» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٤) الأوجس: الدهر. (٥) الأسى: الحزين.

(٦) في الديوان: «العذول وقد نسي». (٧) في الأصل: «بأن» والتصويب من الديوان.

(٨) في الديوان: «بذوقه».

(٩) في الأصل: «الليت» والتصويب من الديوان.

(١٠) الأبيات في ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٣) والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٣ - ٢٤٤).

(١١) في المصدرين: «ملتحف».

(١٢) في الأصل: «وشى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

أَفْسَمْتُ لَوْلَا عِقَّةٌ عُذْرِيَّةٌ وَتَقَى عَلَيَّ لَهُ رَقِيبٌ رَائِي
لَتَقَعْتُ غُلَّةً لَوْعَتِي بِرُضَائِبِهَا وَتَضَخَّتْ وَرْدَ خَدَوَيْهَا بِبِكَائِي
ومن ذلك ما قاله أيضًا^(١): [الخفيف]

أَرْسَلْتُ لَيْلَ شَغْرِهَا مِنْ عَقْصِ عَنْ مُحْيَا زَمَى الْبُدُورِ يَنْقُصِ
فَارْتَنَّا الصَّبَاحَ فِي جُنْحِ لَيْلٍ يَتَهَادَى مَا بَيْنَ عُضْنٍ وَدِغْصِ^(٢)
وَتَضَدَّتْ بِرَامِحَاتِ نُهُودٍ أَشْرَعَتْ لِلْأَنَامِ مِنْ تَحْتِ قُمْصِ
فَتَوَلَّتْ جِيوشُ صَبْرِي انْهَازِمَا وَبُودِي ذَاكَ الْلِقَاءَ وَجِرْصِي
لَيْسَ كُلُّ الَّذِي يَفِرُّ بِنَاجٍ رَبُّ ظَلْعِي^(٣) فِيهِ حَيَاةٌ لَشَخْصِ
كَيْفَ لِي بِالسُّلُوكِ عَنْهَا وَقَلْبِي قَدْ هَوَى جِلْمُهُ بِمَهْوَى لِحْزِصِ^(٤)
مَا نَعَاطَيْتُ ظَاهِرَ الصُّبْرِ إِلَّا رَدَنِي جِيدُهَا بِأَوْضَحِ نَصِ

ومن ذلك قوله أيضًا^(٥): [الخفيف]

أَنَا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَقُفُّ نَفْسٍ خَافَتْ وَدَمَعٌ وَوَكُفُّ
حَلُّ بِي مِنْ هَوَاكَ مَا لَيْسَ يُثْبِي عَنْهُ نَعْتُ وَلَا يُعْبِرُ وَضَفُّ
عَجَبًا لَانْعَاطَافِ صَدْعَيْنِكَ وَالْمِعْدِ طَفُّ وَالْجِيدُ ثُمَّ مَا مِنْكَ عَطْفُ
ضَاقَ صَدْرِي بِضَيْقِ جِجْلِكَ^(٦) وَاسْتَوِ قَفْ طَرْفِي خَيْرَانَ ذَاكَ^(٧) الْوَقْفُ
كَيْفَ يُزْجِي فِكَاكُ قَلْبٍ مُعْنَى فِي غَرَامِ قَيْنِدَاهِ قِرْطُ وَشَنْفُ^(٨)

ومن ذلك قوله أيضًا^(٩): [السيط]

رَقِ^(١٠) السَّنَا دَهَبًا فِي اللَّأَزْوَزْدِي فَالْأَقْفُ مَا بَيْنَ مَرْقُومٍ وَمَوْشِي
كَأَنَّمَا الشَّهْبُ وَالْإِصْبَاحُ يَنْهَبُهَا لَأَلَى^(١١) سَقَطَتْ مِنْ كَفِّ زَنْجِي

(١) الأبيات في ديوان ابن خاتمة (ص ١٩٧).

(٢) الدغص: قطعة من الرمل مستديرة، أو الكتيب، وبه يشبه الرذف.

(٣) في الديوان: «ظعن». (٤) الخرص: القناة والسنان.

(٥) الأبيات في ديوان ابن خاتمة (ص ٢٠١). (٦) الججل: الخلخال.

(٧) في الأصل: «ذلك» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الديوان.

(٨) الشنف: ما علق في أعلى الأذن، أو ما علق في أسفل الأذن فقرط.

(٩) البيتان في ديوان ابن خاتمة (ص ١٩٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٤).

(١٠) في المصدرين: «خط». (١١) في المصدرين: «دراهم».

ومن شعره في الحِكم قوله^(١): [الطويل]

هو الدُّمُرُ لا يُبْقِي على عَائِدٍ به فَمَنْ شَاءَ عَيْنًا يَضْطَبِرْ لِنَوَائِدِ
فَمَنْ لَمْ يُصَبْ فِي نَفْسِهِ فَمُصَابُهُ لِقَوْتِ^(٢) أَمَانِيهِ وَقَدِ حَبَائِدِ

ومن ذلك قوله^(٣): [الوافر]

مِلَاكُ الْأَمْرِ تَقْوَى اللَّهِ، فَاجْعَلْ تُقَاهُ عُدَّةٌ لَصَلَاحِ أَمْرِكَ
وَبَادِرْ نَحْوَ طَاعَتِهِ بِعَزْمٍ فَمَا تَذَرِي مَتَى يَمْضِي^(٤) بِعُمْرِكَ

ومن ذلك أيضًا^(٥): [الوافر]

دَمَاءٌ فَوْقَ خَذْلِكَ أَمْ خَلُوقُ^(٦)؟ وَبِئْسَ مَا بِشُغْرِكَ أَمْ رَحِيقُ؟
وَمَا ابْتَسَمْتَ ثَنَائِيَا أَمْ أَقَاحِ وَيَكْفُفُهَا شِفَاءُ أَمْ شَقِيقُ^(٧)
وَتِلْكَ سِنَاءُ نَوْمٍ مَا تَعَاطَتْ جُفُونُكَ أَمْ هِيَ الْخَمْرُ الْعَتِيقُ
لَقَدْ أَعْدَتْ مَعَاظِفُكَ انْشَاءً وَقَلْبِي سُكْرُهُ مَا إِنَّ يُفِيقُ
جَمَالَكَ حَضَرْتِي وَهَوَاكَ رَاحِي وَكَأْسُكَ مُقْلَتِي فَمَتَى أَفِيقُ؟

ومن شعره في الأوصاف^(٨): [الخفيف]

أَرْسَلَ الْجَوُّ مَاءً وَزِدَ رَذَاذَا سَمِعَ^(٩) الْحَزْنَ وَالْذُمَائِكَ رَشَا
فَانْتَنَى حَوْلَ أَسْوَقِ الدَّوْحِ حَجَلًا وَجَرَى فَوْقَ بُرْدَةِ الرَّوْضِ رَقْشَا
وَسَمَا فِي الْعُصُوفِ حَلْيَ بَنَانٍ أَصْبَحَتْ مِنْ سَلَاةِ الطَّلِّ رَغْشَا
فَتَرَى الزَّهْرَ تَرْقُمُ الْأَرْضَ رَقْمًا وَتَرَى الرِّيحَ تَنْقُشُ الْمَاءَ نَقْشَا
فَكَأَنَّ الْمِيَاهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ وَكَأَنَّ الْبِطَاحَ عُمْدٌ مُوشَى

(١) ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٧) ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٧٤).

(٢) في النفع: «يَقْوَتِ».

(٣) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٧) ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٧٤). وقد تقدّم البيشان في الجزء

السادس من النفع (ص ١١٥).

(٤) الأبيات في ديوان ابن خاتمة (ص ٢٠٣).

(٥) في النفع الجزء الثامن: «يَقْضَى».

(٦) الخلق: ضرب من الطيب.

(٧) الشقيق: شقائق النعمان.

(٨) هذه الأبيات لم ترد في ديوان ابن خاتمة. (٩) في الأصل: «وسمع» وهكذا يتكرر الوزن.

وكتب عقب انصرافه من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصه^(١): «مِمَّا قَلَتْه
بديهةً عند^(٢) الإشراف على جنابكم السعيد، وقُدومي^(٣) مع التفر الذين أتَحَفْتُهُم
السيادة^(٤) سيادتُكم^(٥) بالإشراف عليه، والدخول إليه، وتُعْييم الأبصار في المحاسن
المجموعة لديه، وإن كان يومًا قد غابت شمسُه، ولم يَتَّقِمْ أَنْ كَمَلْ أَنْسُهُ؛ وأنشده
حينئذ بعض مَنْ حضر، ولعلّه لم يَنَلُغْكم، وإن كان قد بلغكم^(٦) ففضلُكم يحيلُنِي
في^(٧) إعادة الحديث^(٨): [الطويل]

أقول وَعَيْنُ الدَّمْعِ^(٩) نَضَبَ عِيُونِنَا ولاح لبُستانِ الوزارَةِ جانبُ
أهذي سماءٍ أم بناءٍ سَما به كواكبُ غَضَّتْ عن سَناها الكواكبُ
تناظَرَتِ الأشْكالُ منه تقابُلًا على السَّعدِ وَسَطَى عِقْدِهِ والجنائبُ^(١٠)
وقد جَرَّتِ الأمَواتُ فيه مَجَرَّةً مَذانِبُها شُهَبٌ لَهْنٌ ذوائِبُ
وأشْرَفَ مِنْ عَلِيَّاهِ^(١١) بَهْوٌ تحفُهُ شماسي رُجَاجٌ وَشَيْها مُتناسِبُ
يُطِلُّ على ماءٍ به الآسُ دائِرًا كما افْتَرَّ ثَغْرٌ أو كما اخْضَرَّ شاربُ
هنالك ما شاء العُلَى من جَلالَةٍ بها يزْدَهي بُستائُها والمراتبُ

ولما أحضر الطعام هنالك، دُعِيَ شيخنا القاضي أبو البركات^(١٢) إلى الأكل،
فاعتذر بأنه صائم، قد بيّته من الليل، فحضرني أن قلت^(١٣): [المقارب]
دَعَوْنَا الخطيبَ أبا البركات لأَكُلَ طعامَ الوزيرِ الأجلِ

(١) النص نشرًا وشعرًا في الكتيبة الكامنة (ص ٢٤٤ - ٢٤٥). ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) في الكتيبة: «حين».

(٣) في المصدرين: «ودخوله».

(٤) كلمة «السيادة» غير واردة في المصدرين.

(٥) في الكتيبة: «سيادتكم».

(٦) في الكتيبة: «بلغ».

(٧) في الكتيبة: «على».

(٨) الأبيات أيضًا في ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٥).

(٩) عين الدمع: كان من عجيب مواضع غرناطة، وهو عبارة عن جبل فيه الرياض والبساتين، ويتصل بجبل الفخار. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٣٨) ففيه دراسة مفصلة عن هذا الموضع.

(١٠) في الديوان والنفع: «والجنائب».

(١١) في الأصل: «علياء» والتصويب من الديوان والنفع. وفي الكتيبة: «أعلاه فهو تحفه شماس زجاج...».

(١٢) هو محمد بن محمد بن إبراهيم، المشهور بابن الحاج البليقي، المتوفى سنة ٧٧٣ هـ، أو ٧٧١ هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة، وأشارنا هناك إلى مصادر ترجمته.

(١٣) الأبيات في ديوان ابن خاتمة (ص ١٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٥) ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٧٥).

وقد ضَمُنَا فِي نَدَاهُ جِنَانٌ بِهِ احْتَفَلَ الْحُسْنُ حَتَّى كَمَلْ^(١)
فَأَعْرَضَ عَنَّا لِعُذْرِ^(٢) الصَّيَامِ وَمَا كُلُّ عُذْرٍ لَهُ مُسْتَقَلٌّ
فَإِنَّ الْجِنَانَ مَحَلُّ الْجَزَاءِ وَلَيْسَ الْجِنَانُ مَحَلُّ الْعَمَلِ

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات، فقال^(٣): لو أنشدتنيها، وأنتم تغذُّ لم تفرغوا منه^(٤) لأكلتُ معكم، برأ بهذه الأبيات، والحوالة في ذلك على الله تعالى.

ولما^(٥) قضى الله، عزَّ وجلَّ، بالإدالة، ورَجَعْنَا إِلَى أوطاننا من العُدوة، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة، والتَّيَّه على السلطان والدولة^(٦)، والتَّكَبُّر على أعلى رُتَبِ الخدمة، وتطارختُ على السلطان في استنجاز وعد الرحلة، ورغبت في تفويت^(٧) الذمة، ونَفَرْتُ عن الأندلس بالجملة، خاطبني بعد صَدْرِ بَلَعٍ من حُسْن الإشارة، وبراعة الاستهلال الغاية، بقوله:

«وإلى هذا يا سيدي، ومحلَّ تعظيمي وإجلالي، أُمَتَّعَ اللهُ تعالى الوجودَ بطول بقائكم! وضاعف في العِزِّ درجات ارتقائكم! فإنه من الأمر الذي لم يَغِبْ عن رأي المَقُولِ^(٨)، ولا اختلف فيه أربابُ المَخْشُوسِ^(٩) والمعقول؛ أنكم بهذه الجزيرة شمسُ أفقها، وتاجُ مفرقها، وواسطة سلكها، وطرّاز مَلَكُها، وقِلادة نُحْرها، وفريدة دهرها^(١٠)، وعِقدٌ جيدها المُنْصُوص، وكَمال^(١١) زِينَتِها^(١٢) على المعلوم والمخصوص^(١٣)؛ ثم أنتم مَدَارُ أَفلاكها، وسِرُّ سياسة أَملاكها، وتَرْجَمَانُ بَيَانِها، ولسانُ إحسانها، وطبيبُ مَارَسَتَانِها، والذي عليه عَقْدُ إدارتها، وبه قِوَامُ إمارتها؛ فَلَدَيْهِ^(١٤) يَحُلُّ المشكل، وإليه يُلْجَأُ في الأمرِ الْمُغْضَل؛ فلا غَرْو أن تتقيد بكم الأسماعُ والأبصار، وتُحَدِّقَ نحوكم الأذهانُ والأفكار؛ وَيُزَجِّرُ عَنْكُمْ السانح والبارح^(١٥)،

(١) في الكتيبة: «الحسن فيما احتفل».

(٢) في الكتيبة: «بعلد».

(٣) في النسخ: «فقال لي».

(٤) في الكتيبة: «من الطعام».

(٥) نص رسالة ابن خاتمة هذه في نفح الطيب (ج ٨ ص ١٦٤ - ١٧٠) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٧٠).

(٦) في أزهار الرياض: «والدالة».

(٧) في المصدرين: «تبرة».

(٨) في المصدرين: «المقول».

(٩) في المصدرين: «أرباب المعقول».

(١٠) في أزهار الرياض: «دُرّها».

(١١) في النسخ: «وتمام».

(١٢) في الأزهار: «زينها».

(١٣) في المصدرين: «على العموم والخصوص».

(١٤) في النسخ: «ولديه».

(١٥) السانح: الطائر الذي يمر من اليسار إلى اليمين. البارح: الطائر الذي يمر من اليمين إلى اليسار، =

وَيُسْتَنْبَأُ مَا تَطْرَفُ عَنْهُ الْعَيْنُ وَتَخْتَلِجُ الْجَوَارِحُ، اسْتَقْرَاءٌ^(١) لِمَرَامِكُمْ، وَاسْتَظْلَاعًا لَطَالِعِ اعْتِزَامِكُمْ، وَاسْتِكْشَافًا لِمَرَامِي^(٢) سِهَامِكُمْ، لَا سِيَّما مَعَ إِقَامَتِكُمْ عَلَى جَنَاحِ خُفُوقٍ، وَظَهْوَرِكُمْ فِي مُلْتَمَعِ بُرُوقٍ، وَاضْطِرَابِ الظُّنُونِ فِيكُمْ مَعَ الْغُرُوبِ وَالشُّرُوقِ؛ حَتَّى تَسْتَقَرَّ بِكُمْ الدَّارُ^(٣)، وَيَلْقَى عَصَاةَ التَّسْيَارِ؛ وَلَهُ الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ إِذْ صَدَّعَهَا بِفِرَاقِكُمْ لَمْ يَتَدَمَّلْ^(٤)، وَسُرُورَهَا بِلِقَائِكُمْ لَمْ يَكْتَمَلْ؛ فَلَمْ يَبْرَ^(٥) بَعْدَ جَنَاحِهَا الْمَهِيضِ^(٦)، وَلَا جَمَّ مَأْوَاهَا الْمَغِيضِ، وَلَا تَمَيَّزَتْ مِنْ دَاجِيهَا لِيَالِيهَا الْبَيْضِ؛ وَلَا اسْتَوَى نَهَاؤُهَا، وَلَا تَأَلَّفَتْ أَنْوَارُهَا^(٧)، وَلَا اشْتَمَلَتْ نَعْمَاؤُهَا، وَلَا نُسِيتْ غَمَاؤُهَا؛ بَلْ هِيَ كَالنَّاقَةِ^(٨)، وَالْحَدِيثِ الْعَهْدِ بِالْمَكَارِهِ، تَسْتَشْعِرُ^(٩) نَفْسَ الْعَافِيَةِ، وَتَتَمَسَّحُ^(١٠) مِنْكُمْ بِالْيَدِ الشَّافِيَةِ؛ فَبِحَنَانِكُمْ^(١١) عَلَيْهَا، وَعَظِيمِ^(١٢) حَرَمَتِكُمْ عَلَى مَنْ لَدَيْهَا، لَا تَشُوبُوا لَهَا عَذَبَ الْمُجَاجِ بِالْأَجَاجِ، وَتَقْنِطُوهَا^(١٣) مِمَّا عَوَّدَتْ مِنْ طِيبِ الْمَزَاجِ، فَمَا لِدَانِهَا، وَحَيَاةَ قُرْبِكُمْ غَيْرِ طَبِّكُمْ مِنْ عِلَاجٍ. وَإِنِّي لَيَخْطُرُ بِخَاطِرِي مَحَبَّةٌ فِيكُمْ، وَعِنَايَةٌ بِمَا يَعْنِيكُمْ، مَا نَالِ جَانِبِكُمْ صَانَهُ اللَّهِ بِهَذَا الْوَطَنِ مِنْ الْجَفَاءِ، ثُمَّ أَذْكَرُ مَا نَالَكُمْ مِنْ حُسْنِ الْعَهْدِ وَكَرَمِ الْوَفَاءِ، وَأَنَّ الْوَطْنَ إِحْدَى الْمَوَاطِنِ الْأَطَارَ الَّتِي يَحَقُّ لَهَا جَمِيلُ الْإِحْتِفَاءِ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِكُمْ مِنْ حُرْمَةِ أَوْلِيَاءِ الْقَرَابَةِ وَأَوْلِي^(١٤) الصُّفَاءِ، فَيَغْلِبُ عَلَى ظَنِّي أَنَّكُمْ لِحُسْنِ الْعَهْدِ أَجْنَحَ، وَبِحَقِّ نَفْسِكُمْ عَلَى أَوْلِيَائِكُمْ أَسْمَحَ، وَالتِّي^(١٥) هِيَ أَعْظَمُ قِيَمَةً فِي^(١٦) فُضَائِلِكُمْ أَوْهَبَ وَأَمْنَحَ^(١٧)؛ وَهَبَ أَنَّ الدُّرَّ لَا يَحْتَاجُ فِي الْإِثْبَابِ إِلَى شَهَادَةِ الثُّحُورِ وَاللَّبَّاتِ، وَالْيَاقُوتِ غَنِيِّ الْمَكَانِ، عَنْ مَظَاهِرَةِ الْقَلَائِدِ وَالتَّيْجَانِ؛ أَلَيْسَ أَنَّهُ أَعْلَى لِلْعِيَانِ، وَأَبْعَدُ عَنْ مَكَابِرَةِ الْبِرْهَانِ، تَأَلَّفَهَا فِي تَاجِ الْمَلِكِ أَنْوَشِيرَوَانَ؟ وَالشَّمْسُ^(١٨) وَإِنْ

= وكان بعض العرب يتفادى بالسائح ويتشام بالبارح، وكان بعضهم على العكس. لسان العرب (سنح) و(برج).

(١) استقراء لمرامكم: تتبعاً لمواضع رغبتكم. (٢) في المصدرين: «عن مرامي».

(٣) في المصدرين: «الديار».

(٤) يتدمل الصَّدْعُ: يصلح؛ يقال: اندمل الجرح إذا شفي، والصَّدْعُ: الشَّقُّ.

(٥) كذا في أزهار الرياض. وفي النسخ: «يَبْرَ». (٦) المهيض: المكسور. لسان العرب (هيض).

(٧) في النسخ: «ولا تألفت أنوارها».

(٨) الناقة: من شفي من مرضه ولم ترجع قوته بعد. لسان العرب (فقه).

(٩) في النسخ: «يستشعر». (١٠) في النسخ: «وتتمسح».

(١١) في الأصل: «فبحيانكم»، والتصويب من المصدرين.

(١٢) في النسخ: «وعظم». (١٣) في المصدرين: «وتقطنوها عتاً».

(١٤) في المصدرين: «وأوداء». (١٥) في المصدرين: «وللتّي».

(١٦) في المصدرين: «من». (١٧) في المصدرين: «وأستجح».

(١٨) في المصدرين: «فالشمس».

كانت أمّ الأنوار وجلا الأبصار، مهما أغمى مكانها من الأفق قيل: أليل^(١) هو أم نهار؟ وكما في علمكم ما فارق ذوو الأحلام^(٢)، وأولو الأرحام، مواطن استقرارهم، وأماكن قرارهم، إلّا برغمهم واضطرارهم، واستبدال دار هي^(٣) خير من دارهم، ومتى توازن الأندلس بالمغرب، أو يعوّض عنها إلّا بمكة أو يثرب؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعُباد، وما فوقه مرابط جهاد، ومعاهد ألوية في سبيل الله، ومضارب أوتاد؛ ثم يُبَوِّى^(٤) ولده مُبَوِّا أجداده، ويجمع له بين طرافه^(٥) وتلاده؛ أعيد أنظاركم المُسدّدة من رأي فائل^(٦)، وسعي طويل لم يخل منه بطائل، فحسبكم من هذا الإياب السعيد، والعود الحميد، وهي طويلة.

فأجبت عنها بقولي^(٧): [السريع]

لَمْ فِي الْهَوَى الْعُذْرِيّ أَوْ لَا تَلَمْ فَاَلْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي
شَأْنُكَ تَغْنِيفِي وَشَأْنِي الْهَوَى كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

«أهلاً بتخفة القادم، وزينة المنادم، وذكرى^(٨) الهوى المتقادم، لا يصغّر^(٩) الله مسراك! فما أسراك، لقد جَلَبَتْ^(١٠) إليّ من همومي ليلاً، وجُبَتْ^(١١) خَيْلاً وَرَجَلاً، ووقيت من صاع الوفاء كَيْلاً، وظننت بي الأسف على ما فات، فأعملت الالتفات، لكيلا^(١٢)، فأقسم لو أنّ الأمر^(١٣) اليوم بيدي، أو كانت اللّمة السوداء من عُددي، ما أفلتت أشراكي المنصوبة لأمثالك^(١٤)، حَوْل المياهِ

(١) في الأصل: «الليل» والتصويب من المصدرين.

(٢) في المصدرين: «ذوو الأرحام وأولو الأحلام».

(٣) كلمة «هي» غير واردة في المصدرين. (٤) كذا في أزهار الرياض. وفي النسخ: «يؤا».

(٥) في المصدرين: «طرافه».

(٦) الرأي الفائل: الضعيف. لسان العرب (فيل).

(٧) هذان البيتان والرسالة في ربحانة الكتاب (ج ٢ ص ٢٠٢ - ٢٠٥)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ١٦٧ - ١٧٠)، والكتيبة الكامنة (ص ٢٤٤ - ٢٤٥)، وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٧٠).

(٨) في النسخ: «وذكر».

(٩) في الكتيبة: «لا يصغر».

(١٠) في النسخ والأزهار: «جُبَتْ». وفي الريحانة: «جنت».

(١١) في النسخ والأزهار: «وجنت رجلاً وخَيْلاً». وفي الريحانة: «وجيته».

(١٢) هذا من الاكتفاء، وهو يشير إلى قول الله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا

مَاتَكُمْ﴾ سورة الحديد ٥٧، الآية ٢٣.

(١٣) في الريحانة: «أمرى».

(١٤) أخذه من بيت الشريف الرضي: [البسيط]

لو كانت اللّمة السوداء من عُددي يوم الغميم لما أفلتت أشراكي

وبين المسالك، ولا علمت^(١) ما هنالك، لكنك طَرَقْتَ جِمَى كَسَحْتَهُ^(٢) الغارة
الشَّعْواء، وَغَيَّرْتَ زَنْعَهُ الْأَنْواء، فحمد^(٣) بعد ارتجاجه، وَسَكَتَ^(٤) أَذِينَ دَجَاجِهِ،
وتَلَاغَبَتِ الرِّيحُ الْهَوَجُ^(٥) فوق فِجَاجِهِ^(٦)، وطال عَهْدُهُ بِالزَّمَانِ^(٧) الأول، وهل عند
رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ^(٨) وَحَيَّا اللَّهَ نَذْبًا إِلَى زِيَارَتِي نَذْبَكَ، وبآدابه الحكيمه^(٩)
أَدَبَكَ: [الوافر]

فكان وقد أفاد بك الأمانِي كَمَنْ أَهْدَى الشَّفَاءَ إِلَى الْعَلِيلِ
وهي شِيمَةٌ بُورَكَتْ مِنْ شِيمَةٍ، وَهَبَةُ اللَّهِ قِبَلَهُ مِنْ لَذَنِ الْمَشِيمَةِ، وَمَنْ مِثْلُهُ فِي
صِلَةٍ رَغِي، وَفَضْلٍ سَعِي، وَقَوْلٍ^(١٠) وَوَعْيٍ: [معجزوه الخفيف]

قَسَمًا بِالْكَوَاكِبِ الزُّرْ زُهر والزُّهْرُ عَاتِمَةٌ
إِنَّمَا الْفَضْلُ مِلَّةٌ خُتِمَتْ بِابْنِ خَاتِمَةٍ
كساني حُلَّةً وصفه^(١١)، وقد ذهب زمان التَّجْمُلِ، وَحَمَلَنِي نَاهِضٌ^(١٢) شُكْرُهُ،
وَكَتَدِي^(١٣) وَاِ عَنْ التَّحْمُلِ، وَنَظَرَنِي بِالْعَيْنِ الْكَلِيلَةِ عَنِ الْعُيُوبِ^(١٤) فَهَلَّا أَجَادَ التَّأْمُلِ،
وَاسْتَطْلَعَ طَلَعَ نَتِي^(١٥)، وَوَالِي فِي مَرْكَبٍ^(١٦) الْمَعْجَزَةِ حَتَّى، ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثَقَ﴾^(١٧):
[الوافر]

وَلَوْ تُرِكَ الْقَطَا لَيْلًا لَنَامَا

-
- (١) في الريحانة: «ولعلمت». (٢) في النفع والأزهار: «كَسَحْتَهُ».
(٣) في الريحانة: «فحمد». (٤) في الريحانة: «وسكن».
(٥) في الأصل: «والهوج» والتصويب من المصادر.
(٦) في الريحانة: «فجججه». (٧) في الريحانة والنفع: «بالزمن».
(٨) هذا عجز بيت من معلقة امرئ القيس وهو: [الطويل]
وَأَنْ شَفَانِي عَجَزَةٌ إِنْ مَفَحَتْهَا وَهَلْ عِنْدَ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلٍ؟
ديوان امرئ القيس (ص ٩).
(٩) في النفع والأزهار: «الحكيمه». (١٠) في النفع: «وقول وعي».
(١١) في النفع والأزهار والريحانة: «فضله». (١٢) كلمة «ناهض» ساقطة في النفع والأزهار.
(١٣) الكَتْدُ: مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).
(١٤) في النفع والأزهار والريحانة: «العيب». وهنا يشير إلى قول الشاعر: [الطويل]
وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ كَمَا أَنَّ عَيْنَ الشُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا
(١٥) في الريحانة: «بَثَقِي». والثث: ما يذيعه المرأة من سر. لسان العرب (ثث).
(١٦) في النفع والأزهار: «ميرك». وفي الريحانة: «في أحرك المعجزة».
(١٧) سورة يوسف ١٢، الآية ٨٦.

وما حال شمل وَيَدُهُ^(١) مَفْرُوق، وقاعدته فروق، وِضْوَاعُ^(٢) بني أبيه مسروق، وقلب^(٣) قَرْحِه من عَضَّة الدهر دام، وَجَمْرَةٌ خَسْرَتِه ذات احتدام، هذا وقد صارت الصُّغْرَى، التي كانت الكُبْرَى، لَمْشِيْبٍ لَمْ يَرُغْ^(٤) أَنْ هَجَمَ، لَمَّا نَجَمَ، ثم نهَلَلْ عارضُهُ وانسجم: [الكامل]

لَا تَجْمَعِي هَجْرًا عَلِيٍّ وَغُرْبَةً فَالْهَجْرُ فِي تَلَفِ الْغَرِيبِ سَرِيعٌ
نَظَرْتُ فَلَمَّا الْجَنْبُ نَابُ^(٥)، وَالنَّفْسُ فَرِيسَةٌ ظَفُرٌ وَنَابُ، وَالْمَالُ أَكِيلَةٌ انْتِهَابُ،
وَالْعُمُرُ رَهْنٌ ذَهَابُ، وَالْيَدُ صِفْرٌ مِنْ كُلِّ اكْتِسَابُ، وَسُوقُ الْمَعَادِ مُتْرَامِيَةٌ، وَاللَّهُ سَرِيعُ
الْحِسَابِ: [الوافر]

وَلَوْ تُعْطَى الْخِيَارَ لَمَّا افْتَرَقْنَا وَلَكِنْ لَا خِيَارَ مَعَ الزَّمَانِ
وَهَبْ أَنَّ الْعُمَرَ جَدِيدٌ، وَظِلُّ الْأَمْنِ مَدِيدٌ، وَرَأْيُ الْاِغْتِبَاطِ بِالْوَطَنِ سَدِيدٌ، فَمَا
الْحِجَّةُ لِنَفْسِي إِذَا مَرَّتْ بِمَطَارِحِ جَفَوْتِهَا، وَمَلَاعِبِ هَفَوْتِهَا، وَمُنَاقِبِ^(٦) قَنَاتِهَا، وَمُظَاهِرِ
عُزَاهَا^(٧) وَمُنَاتِهَا، وَالزَّمَانِ^(٨) وَلُودٍ، وَزِنَادُ الْكُونِ غَيْرُ صَلُودٍ^(٩): [الكامل]

وَإِذَا امْرَأُ لَدَعَّشَهُ أَفْعَى مَرَّةً تَرَكَّهُ حِينَ يُجَرُّ حَبْلٌ يَفْرُقُ^(١٠)
ثُمَّ أَنَّ الْمُرْغَبَ قَدْ ذَهَبَ، وَالْدَهْرَ قَدْ اسْتَرْجَعَ مَا وَهَبَ، وَالْعَارِضُ قَدْ
اسْتَهَبَ، وَأَرَاءُ^(١١) الْاِكْتِسَابِ مَرْجُوحَةٌ مَرْفُوضَةٌ، وَأَسْمَاؤُهُ عَلَى الْجَوَارِ مَخْفُوضَةٌ،
وَالنِّيَّةُ مَعَ اللَّهِ عَلَى الزُّهْدِ فِيمَا بِأَيْدِي النَّاسِ مَغْقُودَةٌ، وَالتَّوْبَةُ بِفَضْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ
شُرُوطُهَا^(١٢) غَيْرُ مُعَارَضَةٍ^(١٣) وَلَا مَنْقُودَةٍ، وَالْمَعَامَلَةُ سَامِرِيَّةٌ، وَدُرُوعُ الصَّبْرِ

(١) في الريحانة: «قَيْلَهُ».

(٢) الضَّوَاعُ، بضم الصاد: إناء كان الملك يشرب به ويكيل. وفي القرآن الكريم: ﴿تَفْقُذْ صُورًا مَلَكًا﴾ سورة يوسف ١٢، الآية ٧٢.

(٣) في الريحانة: «وقلبه».

(٤) في الكتيبة: «لم يدغ».

(٥) في النفح: «باب».

(٦) في الأصل: «ومناقب» والتصويب من النفح والأزهار. وفي الريحانة: «ومناقب».

(٧) في الأصل: «عُزَاهَا» والتصويب من النفح والأزهار. وفي الريحانة: «عُزَاهَا وَهَنَاتُهَا».

(٨) في الريحانة: «والزمن».

(٩) في الريحانة: «الكون صلود». والبيت لصالح بن عبد القدوس، وورد في تاريخ بغداد (ج ٩ ص ٣٠٤)، وصدره هناك هكذا:

وَإِنْ امْرَأُ لَسَعَّشَهُ أَفْعَى مَرَّةً

(١٠) في الريحانة: «مُفْرَق».

(١١) في الريحانة: «وَأَدَاتُ».

(١٢) في النفح والأزهار: «وَجَلَّ مَنْقُودَةٌ».

(١٣) في الريحانة: «مُعَارَضَةٌ».

سابرية، والاقتصاد قد قُرِبَ العَيْنُ بصحبته، والله قد عَوَّضَ حُبَّ الدُّنْيَا بِمَحَبَّتِهِ، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق، وقد رَقَى لَذَعْتُهَا أَلْفَ راق، وجمعتني بها الحُجْرَة، ما الذي تكون الأجرة؟ جلُّ شاني، وقد ^(١) رضي الوامق وسَخَطَ ^(٢) الشاني، إني إلى الله تعالى مُهاجر، وللغرض ^(٣) الأدنى هاجر، ولأظعان السُرى زاجر، لأخذ ^(٤) إن شاء الله وحاجر، ولكن دعاني إلى ^(٥) الهوى، لهذا ^(٦) المولى المُنعم هوى، خلعتُ نَعْلِي الوجود وما خلعتُهُ، وشوق ^(٧) أَمَرَنِي فاطمته، وغالبَ والله صُبْرِي فما استطعتُهُ، والحال والله أغلب، وعسى أن لا يخيبَ المَطْلَبُ؛ فإن يَسْرَهُ ^(٨) رضاه فأمل ^(٩) كَمَل، وراحل احتمل، وحادٍ أشجى الناقة والجَمَل؛ وإن كان خلاف ذلك، فالزمان ^(١٠) جَمُّ العوائق ^(١١)، والتسليم بمقامي لائق: [البسيط]

ما بين غَمُضَةٍ ^(١٢) عَيْنٍ وانتباهتها يُصَرِّفُ ^(١٣) الأمر من حالٍ إلى حالٍ

وأما تفضيله هذا الوطن على غيره ^(١٤)، لِيُثْمَنَ طَئِرُهُ، وعموم خَيْرِهِ، وبركة جهاده، وغُمران رُباه ووهاده، بأشلاء غُبَّاه وزُهَّاده ^(١٥)، حتى لا يفضلهُ إِلَّا أحدُ الحرمين، فَحَقُّ بريء من المَين، لكنِّي ^(١٦) لِلْحَرَمَيْنِ جَنَحْتُ، وفي جوِّ الشوق إليهما سَرَحْتُ ^(١٧)، فقد ^(١٨) أَفَضْتُ إلى طريق قُصْدِي مَحَجَّتُهُ، ونصرتني والمِئْتَةُ لله حُجَّتُهُ، وقُصِدُ سيدي أَسْنَى قَصْد، تَوَخَّاهُ الشُّكْرُ ^(١٩) والحمد، ومعروفٌ عُرِفَ به التُّكْرُ، وأمل ^(٢٠) انتحاه الفكرُ، والآمال والحمد لله بَعْدَ ثُمْتَار، والله يخلق ما يشاء وَيَخْتَار، ودعاؤه يظهر الغيب مَدَد، وعُدَّة وعَدَد، وبرُّه حَالِي الظُّغْن ^(٢١)

-
- (١) في النفع والأزهار والريحانة: «وإن». (٢) في الريحانة: «أو سخط».
 (٣) في الريحانة والنفع والأزهار: «وللغرض». (٤) في النفع والأزهار: «لِنَجْدِي».
 (٥) في النفع والأزهار: «للهم». وفي الريحانة: «لكنني دعاني إلى الهدى».
 (٦) في النفع والأزهار: «إلى هذا». وفي الريحانة: «إلى المولى».
 (٧) في النفع والأزهار: «وشوقي». (٨) في النفع والأزهار: «يسر».
 (٩) في النفع: «فأمر». (١٠) في الريحانة: «فالزمان».
 (١١) في النفع: «الملائق». (١٢) في الريحانة: «طرفة».
 (١٣) في الريحانة: «يقلب». (١٤) قوله: «على غيره» غير وارد في النفع.
 (١٥) في الريحانة: «بأشلاء زُهَّاده». (١٦) في النفع والأزهار: «لكنني».
 (١٧) في النفع والأزهار: «سَنَحْتُ». (١٨) في الريحانة: «وقد».
 (١٩) في النفع والأزهار: «الحمد والشكر».
 (٢٠) في الريحانة والنفع والأزهار: «والآمال من فضل الله بَعْدَ ثُمْتَار».
 (٢١) في الريحانة: «حالي الإقامة والظُّغْن».

والإقامة مُعْتَمَلٌ مُعْتَمَدٌ^(١)، ومجال المعرفة بفضلّه لا يَحْضُرُهُ أَحَدٌ^(٢)، والسلام^(٣).

وهو الآن بقيد الحياة، وذلك ثاني عشر شعبان عام سبعين وسبعمئة.

أحمد بن عباس بن أبي زكريا^(٤)

ويقال ابن زكريا. ثَبِتَ بخط ابن التّيّاني، أنصاريّ النسب، يكنى أبا جعفر.

حاله: كان^(٥) كاتبًا حسن الكتابة، بارع الخطّ فصيحًا، غزير الأدب، قوي المعرفة، شارعًا في الفقه، مشاركًا في العلوم، حاضر الجواب، ذكيّ الخاطر، جامعًا للأدوات السلطانية^(٦)، جميل الوجه، حَسَنَ الْخَلْقَةِ، كَلَفًا بِالْأَدَبِ، مؤثّرًا له على سائر لذاته، جامعًا للدواوين^(٧) العلمية، معنيًا بها، مقتنيًا للجيّد منها، مُغَالِيًا فيها، نَفَاعًا مَنْ خَصَّهُ بها^(٨)، لا يَسْتَخْرِجُ منها شيئًا، لَقَرَطَ بُخْلُهُ بها، إلّا لسبيلها، حتى لقد أثرى كثيرًا من الورّاقين والتّجار معه فيها، وجمع منها ما لم يكن عند مَلِك.

يساره: يقال إنه لم يجتمع عند أحد من فُكْرانِه ما اجتمع عنده من عَيْنٍ وورق ودفاتر وجَزَقٍ، وآنية، ومتاع وأثاث وكُراع.

مشيخته: روى عن أبي تمام غالب التّيّاني، وأبي عبد الله بن صاحب الأحباس.

نباهته وحُظوته: وَزَرَ لَزُهَيْرِ الْعَامِرِيِّ^(٩) الآتي ذكره، وارثًا الوزارة عن أبيه، وهي ما هي في قطر مُتَحَوِّرٍ بينابيع السُّخَيْلَةِ، وثَرَّ بهذه الأمانة مستندًا إلى قُفُوءِ الْعِزَّةِ، فَبَيْتُكَ نَعِيمًا كَثِيرًا، تجاوز الله عنه.

دخوله غرناطة: الذي اتصل علمي أنه دخل غرناطة منكوبًا حسيما يتقرّر.

(١) في الريحانة والنفح والأزهار: «ومعتمد». (٢) في الريحانة والنفح: «أمد».

(٣) في الريحانة: «والسلام الكريم من مُجِبِّهِ المثنى على كماله، فلان».

(٤) ترجمة أحمد بن عباس في الذيل والتكملة (ج ١ ص ٢٧٧)، وفي الذخيرة (ق ١ ص ٦٥٦)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٩٣)، والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٥)، ونفح الطيب (ج ٥ ص ٨١).

(٥) قارن بالذخيرة (ق ١ ص ٦٦٤ - ٦٦٥). (٦) في الذخيرة: «الملوكية».

(٧) في الذخيرة: «جماعًا للدفاتر، مقتنيًا للجيّد منها».

(٨) في الذخيرة: «بشيء منها».

(٩) مَلِكُ زُهَيْرِ الْعَامِرِيِّ ألمرية من سنة ٤١٨ هـ إلى سنة ٤٢٩ هـ. وستأتي ترجمته في هذا الجزء، وهناك ثَبِتَ بأسماء المصادر التي ترجمت له.

نكبتة: زعموا أنه كان أقوى الأسباب فيما وقع بين أميره زهير، وبين باديس أمير غرناطة، من المفاسدة، وفضل صخبه إلى رَقَم باديس وقبيله، وحطه في حيز هواه وطاعته، وكان ما شاء الله من استيلاء باديس على جملتهم، ووضع سيوف قومه فيهم، وقتل زهير، واستئصال محلته؛ وقبض يومئذ على أحمد بن عباس، وجيء به إلى باديس، وصدّره يغلي حقدًا عليه، فأمر بحبسه، وشفّاه الولوع في دمه، وعجل عليه بعد دون أصحابه من حملة الأقلام. قال ابن حيان^(١): حديث ابن عباس أنه كان قد ولع^(٢) بيت شعر صيّره هجواه أوقات لعبه بالشطرنج، أو مغنى يسئح له مستطيلًا بجده: [المقارب]

عيونُ الحوادث عني نيامٌ وهضمي على الدهر شيء حرامٌ
وشاع^(٣) بيته هذا عند^(٤) الناس، وغازلهم، حتى قلب له مصراعه بعض الشعراء^(٥) فقال:

«سَيُوقَظُهَا»^(٦) قَدَرٌ لَا يَنَامُ

فما كان إلّا «كلا» و«لا» حتى^(٧) تنبّهت الحوادث لهضمه، انتباهة انتزعته من نخوته وعزته، وغادرته أسيرًا ذليلاً يزسّف في وزن أربعين رطلًا^(٨) من قيده، منزعجا من غصّه لساقه البضة، التي^(٩) تألمت من ضغطة جوزبه، يوم^(١٠) أصبح فيه أميرًا مُطاعًا، أعتى^(١١) الخلق على بابه، وآمنهم بمكره، فأخذه أخذًا مليكٍ مقتدر، والله غالبٌ على أمره.

وفاته: قال أبو مروان^(١٢): كان باديس قد أرجأ قتله مع جماعة من الأسرى، وبذل في فداء نفسه ثلاثين ألف دينار من الذهب العَيْن، مالت إليها نفسُ باديس إلّا أنه عَرَضَ ذلك على أخيه بُلْكَيْن، فأبى منه، وأشار عليه بقتله، لتوقعه إثارة فتنة أخرى على يديه، تأكل من ماله أضعاف فديته. قال: فانصرف يومًا من بعض ركبّاته مع أخيه^(١٣)، فلما توسط الدار التي فيها

(١) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٦٨ - ٦٦٩). (٢) في الذخيرة: «أولع».

(٣) في الذخيرة: «وداع».

(٤) في الذخيرة: «في».

(٥) في الذخيرة: «الأدباء».

(٦) في الذخيرة: «سَيُوقَظُهَا».

(٧) في الذخيرة: «إلا كلا حتى».

(٨) كلمة «رطلًا» ساقطة في الذخيرة.

(٩) في الذخيرة: «التي طالما تألمت».

(١٠) في الذخيرة: «غب».

(١١) في الذخيرة: «أعتى خلق الله على بابه، وآمنهم لمكر ربه».

(١٢) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٦٣ - ٦٦٤) وبعض منه في البيان المغرب (ج ٣ ص ١٧٢).

(١٣) في الذخيرة والبيان المغرب: «أخيه بلقين».

أحمد^(١) بِقَصْبَةِ غَرْنَاطَةِ، لَصِقَ الْقَصْرَ، وَقَفَ هُوَ وَأَخُوهُ بِلُكَيْنٍ، وَحَاجِبُهُ عَلِيٌّ بِنَ الْقَرَوِيِّ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِ أَحْمَدَ إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ يَرْسُفُ فِي قَيْدِهِ حَتَّى وَقَفَ^(٢) بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى سَبِّهِ وَتَبْكِيَّتِهِ بِذَنُوبِهِ، وَأَحْمَدُ يَتَلَطَّفُ^(٣) إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ إِرَاحَتَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ: «الْيَوْمَ تَسْتَرِيحُ مِنْ هَذَا الْأَلَمِ، وَتَتَنَقَّلُ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ؛ وَجَعَلَ يُزَاطِنُ أَخَاهُ بِالْبَرْبَرِيَّةِ^(٤)، فَبَانَ لِأَحْمَدَ وَجْهُ الْمَوْتِ، فَجَعَلَ^(٥) يَكْثُرُ الضَّرَاعَةُ، وَيَضَاعَفُ^(٦) عَدَدُ الْمَالِ، فَأَثَارَ غَضَبِهِ، وَهَزَّ مِزْرَاقَهُ^(٧)، وَأَخْرَجَهُ مِنْ صَدْرِهِ؛ فَاسْتَغَاثَ اللَّهُ، - زَعَمُوا -، عِنْدَ ذَلِكَ، وَذَكَرَ أَوْلَادَهُ وَحَرَمَهُ؛ لِلْحَيْنِ أَمْرَ بَادِيْسَ بِحِزِّ رَأْسِهِ وَرُمِي^(٨) خَارِجَ الْقَصْرِ.

حَدَّثَ خَادِمُ بَادِيْسَ، قَالَ^(٩): رَأَيْتُ جَسَدَ ابْنِ عَبَّاسٍ ثَانِي يَوْمَ قَتْلِهِ^(١٠)، ثُمَّ قَالَ لِي بَادِيْسَ: خُذْ رَأْسَهُ وَوَارِهِ مَعَ جَسَدِهِ؛ قَالَ^(١١): فَنَبِشْتُ قَبْرَهُ^(١٢)، وَأَضْفَتُهُ إِلَى جَسَدِهِ، بِجَنْبِ أَبِي^(١٣) الْفَتْوحِ قَتِيلِ بَادِيْسَ أَيْضًا. وَقَالَ لِي بَادِيْسَ^(١٤): ضَعِ عَدُوًّا إِلَى جَنْبِ عَدُوِّ، إِلَى يَوْمِ الْقِصَاصِ؛ فَكَانَ قَتْلُ أَبِي جَعْفَرٍ عَشِيَّةَ الْحَادِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ ذِي حِجَّةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ^(١٥)، بَعْدَ اثْنَيْنِ وَخَمْسِينَ يَوْمًا مِنْ أَسْرِهِ. وَكَانَ يَوْمَ مَاتَ ابْنُ ثَلَاثِينَ، نَفَعَهُ اللَّهُ وَرَحِمَهُ.

أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي^(١٦)

مِنْ أَهْلِ مَزَاكِشَ، وَأَصْلُهُ الْقَدِيمُ مِنْ طُرْطُوشَةَ ثُمَّ بَعْدَ مِنْ دَانِيَةِ، يَكْنَى أَبَا جَعْفَرٍ.

(١) فِي الذَّخِيرَةِ: «أَحْمَدُ بْنُ عَبَّاسٍ». وَفِي الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ: «فَلَمَّا مَرَّ عَلَى الدَّارِ الَّتِي فِيهَا ابْنُ عَبَّاسٍ».

(٢) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «أَقِيمَ».

(٣) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «أَخَاهُ بِلِقَيْنِ بِكَلَامِهِ».

(٤) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَيُضْعَفُ لَهُ».

(٥) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «مِزْرَقَتُهُ فَأَخْرَجَهَا مِنْ صَدْرِهِ».

(٦) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(٧) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(٨) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(٩) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٠) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١١) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٢) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٣) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٤) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٥) فِي الْمَصْدَرَيْنِ: «وَوُؤِرِي».

(١٦) تَرْجَمَةُ أَبِي جَعْفَرِ بْنِ عَطِيَّةٍ فِي الْمَعْجَبِ (ص ٢٦٧)، وَالْبَيَانِ الْمَغْرِبِ، قِسْمُ الْمُوَحِّدِينَ (ص ٥٧)، وَإِعْتَابُ الْكِتَابِ (ص ٢٢٥)، وَنَفْحُ الطَّيْبِ (ج ٧ ص ١٧٤)، وَالتَّرْجَمَةُ هُنَا مَعْظَمُهَا وَرَدَ فِي نَفْحِ الطَّيْبِ (ج ٧ ص ١٧٤ - ١٨١)، وَالْحَلَّةُ السَّيْرَاءُ (ج ٢ ص ١٩٤، ٢٢٥، ٢٣٨)، وَتَارِيخُ الْمَنِّ بِالْإِمَامَةِ (ص ٢٢٠).

حاله: كان كاتبًا بليغًا، سهل المآخذ، مُنقاد القريحة، سيال الطبع.

مشيخته: أخذ عن أبيه، وعن طائفة كبيرة من أهل مراکش.

نباهته: كتب عن علي بن يوسف بن تاشفين، وعن ابنه^(١) تاشفين، وعن أبي إسحق، وكان أحظى كُتّابهم. ثم لما انقطعت دولة لُمُتُونَة، دخل في لفيف الناس، وأخفى نفسه. ولما أثار الماسي^(٢) الهداية بالسوس، ورمى المُوَحِّدين بِحَجَرهم الذي رموا به البلاد، وأعيا أمره، وهزم جيوشهم التي جهّزوها إليه وانتدب منهم إلى ملاقاته، أبو حفص عمر بن يحيى الهِثْنَانِي، في جيش خشن من فرسان ورجالة، كان أبو جعفر بن عطية، من الرُّجالة، مُرْتَسِمًا بالرواية، والتقى الجُمُعان، فهزم جيش الماسي، وظهر عليه المُوَحِّدون. وقتل الدَّعي المذكور، وعُظِمَ موقعُ الفتح عند الأمير الغالب يومئذ أبو حفص عمر، فأراد إعلام الخليفة عبد المؤمن، بما سناه الله، فلم يَلْقَ في جميع مَن استصحبه مَن يُجَلِّي عنه، ويُوفي ما أَرادَه، فذكر له أن فتى من الرِّمّة يُخاطر بشيء من الأدب والأشعار والرسائل فاستحضره، وعرض عليه عرضه، فتجاهل وظاهر بالعجز، فلم يقبل عذره، واشتدَّ عليه، فكتب رسالة فائقة مشهورة، فلما فرغ منها وقرأها عليه اشتدَّ إعجابه بها وأحسن إليه، واعتنى به، واعتقد أنه دُخِرَ يُتَحِفَ به عبد المؤمن، وأنفذ الرسالة، فلما قُرِئت بمحضر أكابر الدولة، عُظِمَ مقدارها، ونَبِهَ فضل منشئها، وصدر الجواب ومن فصوله الاعتناء بكتابها، والإحسان إليه، واستصحابه مكرّمًا. ولما أدخل على عبد المؤمن سأله عن نفسه، وأحظاه لديه وقلَّده خُطَّةَ الكتابة، وأسند إليه وزارته، وفُوِّضَ إليه النظر في أموره كلها؛ فنهض بأعباء ما فُوِّضَ إليه، وظهر فيه استقلاله وغناؤه، واشتهر بأجمل السَّعي للناس واستمالتهم بالإحسان وعمَّت صنائعه^(٣)، وقُشَا معروفه، فكان محمود السَّيرة، مُنْتَحَبٌ^(٤) المحاولات، ناجح المساعي، سعيد المآخذ، مُيسِّر المآرب، وكانت وزارته زَيْنًا للوقت، كمالًا للدولة.

محتته: قالوا: واستمرت حالته إلى أن بلغ الخليفة عبد المؤمن أن النصارى غزوا قَصْبَة ألمرية، وتحصَّنوا بها؛ واقترون بذلك تقديم ابنه يعقوب على إشبيلية،

(١) في النسخ: «وعن ابنه تاشفين وإسحق».

(٢) هو الثائر محمد بن عبد الله بن هود، الملقب بالهادي، وقد ظهر في رباط ماسة بمنطقة السوس، وكثر أتباعه، ثم قضى عليه أبو حفص عمر عام ٥٤١ هـ.

(٣) الصنائع: جمع صنعة وهي المعروف. لسان العرب (صنع).

(٤) في النسخ: «مبخت».

فأصبحه أبا جعفر بن عطية، وأمره أن يتوجه بعد استقرار ولده بها إلى ألمرية؛ وقد تقدّم إليها السيد أبو سعيد بن عبد المؤمن، وحضر من بها النصاري، وضيق عليهم، ليحاول أمر إنزالهم، ثم يعود إلى إشبيلية، ويتوجه منها مع واليها، إلى مُنازلة الثائر بها على الوهبيي؛ فعمل على ما حاوله من ذلك؛ واستنزل النصاري من ألمرية على العهد بحسن محاولته، ورجع السيد أبو سعيد إلى غرناطة، مُزعجين إليها، حتى يسبقا جيش الطاغية؛ ثم انصرف إلى إشبيلية ليقضي الغرض من أمر الوهبيي. فعندما خلا منه الجوّ، ومن الخليفة مكانه، وجدت حُسّاده السبيل إلى التدبير عليه، والسعي به، حتى أوغروا صدر الخليفة؛ فاستوزر عبد المؤمن ابن عبد^(١) السلام بن محمد الكومي. وانبرى لمطالبة ابن عطية، وجدّ في التماس عوراته، وتشنيع سقّطاته، وأغرى به صنائعه، وشحن عليه حاشيته، فبرّوا وراشوا وانقلبوا، وكان مما نقم على أبي جعفر، نكاة القزح بالقزح، في كونه لم يقف في اصطناع العدد الكثير من اللمتونيّين، وانتياشهم من خمولهم، حتى تزوج بنت يحيى الحمار من أمرائهم؛ وكانت أمها زينب بنت علي بن يوسف، فوجدوا السبيل بذلك إلى استئصال شأفته والحكام، حتى نظم منهم مروان بن عبد العزيز، طليقه ومُسْتَرْقُ اصطناعه، أبياتا طرحت بمجلس عبد المؤمن^(٢): [البسيط]

قل للإمام أطال^(٣) الله مُدَّتَهُ قولاً تبيينُ لذي لبِّ حقائقُهُ
إنّ الزراجينَ قومٌ قد وتزّتهمُ وطالبُ الثار لم تؤمنَ بوائقُهُ^(٤)
وللوزير إلى آرائهم مَبِيلٌ لذاك ما كَثُرَتْ فيهم علائقُهُ
فبادِرِ الحَزْمَ في إطفاء^(٥) نارهم^(٦) فربما عاقَ عن أمرِ عوائقُهُ
هُمُ العدوُّ وَمَنْ والاَهُمُ كَهُمُ فاحذِرْ عَدُوَّكَ واحذِرْ مَنْ يُصادقه
الله يعلم أني ناصحٌ لكم والحقُّ أبلَجُ لا تخفى طرائقُهُ^(٧)

(١) في النسخ: «فاستوزر عبد السلام».

(٢) الأبيات في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٢٢٦)، والبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٥٩)، ونفع الطيب (ج ٧ ص ١٧٥).

(٣) في البيان المغرب: «أدام».

(٤) الزراجين: كلمة أطلقها المهدي بن تومرت على المرابطين، وواحدها زرجان وهو طائر أسود البطن، أبيض الريش، شبه المهدي المرابطين به؛ لأنهم بيض الثياب، سود القلوب. نظم الجمان (ص ٨٥). وانظر الإحاطة (ج ١ ص ٢٦٦ حاشية رقم ٢ من تعليق المحقق عنان. والبيانات: جمع باقة وهي الداهية. محيط المحيط (بوق).

(٥) في الحلة السيرة: «إخماد».

(٦) في البيان المغرب: «نورهم».

(٧) هذا البيت ساقط في البيان المغرب.

قالوا: ولما وقف عبد المؤمن على هذه الأبيات البليغة في معناها وغر صدره على وزيره الفاضل^(١) أبي جعفر، وأسر له في نفسه تغيراً، فكان ذلك من أسباب نكبته. وقيل: أفضى إليه بسر فأفشاء، وانتهى ذلك كله إلى أبي جعفر وهو بالأندلس، فقلق وعجل بالانصراف^(٢) إلى مراکش، فحجب عند قدومه، ثم قيد إلى المسجد في اليوم الثاني^(٣) بعده، حاسر العمامة، واستحضر الناس على طبقاتهم، وقرروا^(٤) ما يعلمون من أمره، وما صار إليهم منه^(٥)، فأجاب كل بما اقتضاه هواه، فأمر^(٦) بسجنه، ولف معه أخوه أبو عقيل عطية، وتوجه عبد المؤمن في إثر ذلك زائراً إلى تربة المهدي^(٧)، فاستصحبهما منكوبين بحال ثقاف. وصدرت عن أبي جعفر في هذه الحركة، من لطائف الأدب، نظماً ونثراً في سبيل التوسل بتربة إمامهم^(٨)، عجائب لم تُجد^(٩)، مع نفوذ قدر الله فيه. ولما انصرف من وجهته أعادهما معه، قافلاً إلى مراکش، فلما حاذى تاقمّرت، أنفذ الأمر بقتلها، بالشغراء المتصلة بالحصن على مقربة من الملاحه هنالك، فمضيا لسييلهما، رحمهما الله^(١٠).

شعره وكتابه: كان ممّا خاطب به الخليفة عبد المؤمن مُستعظفاً كما قلناه من

رسالة:

«تالله لو أحاطت بي^(١١) خطيئة، ولم تثق نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأثقت لآدم من السجود، وقلت: إن الله لم يوح إلى^(١٢) الفلك إلى نوح، وبرئت لقرار^(١٣) ثمود نبلاً، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين، وقبضت قبضة من الطير^(١٤) من أثر الرسول فنبذتها؛ وافترت على العذراء البتول^(١٥) فقدفتها؛ وكتبت صحيفة^(١٦) القطيعة بدار الندوة، وظهرت الأحزاب بالقضوى من العذوة،

(١) كلمة «الفاضل» ساقطة في نفع الطيب.

(٢) كلمة «الثاني» غير واردة في النفع.

(٣) كلمة «الثاني» غير واردة في النفع.

(٤) في النفع: «إليه منهم».

(٥) في النفع: «المهدي محمد بن تومرت».

(٦) في النفع: «لم تُجد شيئاً».

(٧) في النفع: «بي كل خطيئة».

(٨) في النفع: «في الفلك لنوح».

(٩) في النفع: «لقدار». وقدار ثمود: هو عاقر ناقة صالح.

(١٠) قوله: «من الطير» ساقط في النفع.

(١١) العذراء البتول: هي مريم أم عيسى عليهما السلام.

(١٢) هي صحيفة القطيعة التي كتبها قريش وعلقتها في الكعبة لمقاطعة بني هاشم رهط النبي ﷺ.

وَدَمَعْتُ كُلَّ قُرْشِي، وَأَكْرَمْتُ لِأَجْلِ وَخْشِي^(١) كُلَّ حَبْشِي، وَقُلْتُ إِنْ بَيْعَةُ السَّقِيفَةِ لَا تَوْجِبُ لِإِمَامٍ^(٢) خَلِيفَةً، وَشَحَذْتُ شُفْرَةَ غَلَامٍ^(٣) الْمَغِيرَةَ بْنِ شَعْبَةَ، وَاعْتَقَلْتُ^(٤) مِنْ حَصَارِ الدَّارِ وَقَتْلِ أَشْمُطِهَا^(٥) بِشُعْبَةَ، وَغَادَرْتُ الْوَجْهَ مِنَ الْهَامَةِ خَضِيئًا، وَنَاوَلْتُ مَنْ قَرَعَ سَنَ الْخَمْسِينَ^(٦) قَضِيئًا، ثُمَّ أَتَيْتُ حَضْرَةَ الْمَعْصُومِ^(٧) لَائِدًا، وَبَقِيرَ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عَائِدًا. لَقَدْ آَنَ لِمَقَالَتِي أَنْ تُسْمَعَ، وَأَنْ^(٨) تُغْفَرَ لِي هَذِهِ الْخَطِيئَاتُ أَجْمَعُ: [الطويل]

فَعَفَوْا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِحَمَلِ^(٩) قُلُوبٍ هَذَاهَا الْخَفَقَانُ
[وكتب مع ابن له صغير آخرة]^(١٠): [البيسط]

عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ
قَدْ أَغْرَقْنَا ذُنُوبَ كُلِّهَا لُجْجٌ
وَصَادَقْنَا سِهَامَ كُلِّهَا غَرَضٌ
هِيَهَاتَ لِلخَطْبِ أَنْ تَسْطُرَ حَوَادِثُهُ
مَنْ جَاءَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ
فَالثُّوبُ يَظْهَرُ بَعْدَ^(١٢) الْغَسْلِ مِنْ دَرَنٍ
أَنْتُمْ بَدَّلْتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلَّهُمْ
وَنَحْنُ مِنْ بَعْضِ مَنْ أُخِيَتْ مَكَارِمُكُمْ
وَصِيبِيَّةُ كَفَرَاخِ الْوُزُقِ مِنْ صِنْفٍ
قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ أَيَادٍ مِنْكَ سَابِغَةً^(١٣)

بِأَنَّ الْعَزَاءَ لِفَرْطِ الْبَثِّ وَالْحَزَنِ
وَعَطْفَةً مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّقْنِ
لَهَا وَرَحْمَتُكُمْ^(١١) أَوْقَى مِنَ الْجُنَنِ
بِمَنْ أَجَارَتْهُ رَحِمَاكُمْ مِنَ الْمَحَنِ
يَنْضُرُهُ لَمْ يَخَفْ بَطْشًا مِنَ الزَّمَنِ
وَالطَّرْفُ يَنْهَضُ بَعْدَ الرُّكُضِ مِنْ وَسَنِ
مَنْ دُونَ مَنْ عَلَيْهِمْ لَا وَلَا ثَمَنِ
تِلْكَ الْحَيَاتَيْنِ مِنْ نَفْسٍ وَمِنْ بَدَنِ
لَمْ يَأْلَفُوا التَّنُوحَ فِي قَرْعٍ وَلَا قَتْنٍ
وَالْكُلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يُوجَدْ وَلَمْ يَكُنْ

(١) وحشي: هو قاتل حمزة عم الرسول ﷺ في غزوة أحد. وقد أسلم فيما بعد، وقتل مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ.

(٢) في النسخ: «إمامة الخليفة».

(٣) غلام المغيرة: هو أبو لؤلؤة، قاتلُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) في النسخ: «واعتقلت».

(٥) أراد بأشْمُطِ الدَّارِ عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رضي الله عنه.

(٦) في النسخ: «الحسين».

(٧) في النسخ: «المعصوم».

(٨) في النسخ: «برء».

(٩) في النسخ: «وتغفر».

(١٠) ما بين قوسين غير وارد في الإحاطة، وقد أضفناه من النسخ، لأن الأبيات على قافية النون المكسورة، وهي على البسيط.

(١١) في النسخ: «ورحمة منكم أوفى...».

(١٢) في النسخ: «عند».

(١٣) في النسخ: «سابقة».

ومن فصول رسالته التي كتب بها عن أبي حفص، وهي التي أورثته الكتابة العلية والوزارة كما تقدم قوله^(١):

«كتبنا^(٢) هذا من وادي ماسة بعد ما تَزَحْزَح^(٣) أمر الله الكريم، ونصر الله المعلوم^(٤) ﴿وَمَا أَتَصَرُّ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْمَهِيْزِ الْحَكِيمِ﴾^(٥) فَتَحَّ بِمَسْرَى^(٦) الأنوار إشراقاً، وأخذق بنفوس المؤمنين إحداقاً، ونبّه للأمانى النائمة جُفُوناً وأخذاقاً، واستغرق غاية الشكر استغراقاً، فلا تطيق الألسن كُتّه^(٧) وَضَفَه إدراكاً ولا لحاقاً؛ جمع أشتات الطب^(٨) والأدب، وتقلب في النعم أكرم مُنْقَلَب، وملا دلاء الأمل إلى عَقْد الكَرْب^(٩): [البسيط]

فَتَحَّ تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَهُ وَتَبْرُزُ الْأَرْضُ فِي أَثْوَابِهَا الْقُشْبِ

وتقدّمت بشارتنا به جملة، حين لم تعط الحال بشرحه مُهْلَةً. كان أولئك الضالّون المرتدّون قد بَطَرُوا عدواناً وظلمًا، واقتطعوا الكُفْرَ معنًى واسمًا، وأملى لهم الله ليزدادوا إثمًا؛ وكان مقدّمهم الشقي قد استمال النفوس بخَزَعِبَلَاتِهِ، واستهوى القلوب بمَهْوَلَاتِهِ، ونصب له الشيطان من جبالاته، فأتته المخاطبة^(١٠) من بُغْدٍ وَكُتْبٍ، وَنَسَلَتْ إليه الرسلُ من كل حَدَبٍ، واعتقدته الخواطر أعجَبَ عَجَبٍ؛ وكان الذي قادمهم لذلك^(١١)، وَأَوَزَدَهُمْ تلك المهالك، وصولُ مَنْ بِتِلْكَ^(١٢) السواحل، ممن ارتسم يرسم الانقطاع عن الناس، فيما سلف من الأعوام، واشتغل على رَغْمِهِ^(١٣) بالصيام والقيام، آناء الليل^(١٤) والأيام، لبسوا الناموس أثوابًا، وتدرّعوا الرياء جَلْبَابًا، فلم يفتح الله لهم إلى التوفيق^(١٥) بابًا.

ومنها في ذكر صاحبهم^(١٦):

(١) الرسالة في نفح الطيب (ج ٧ ص ١٧٨).

(٢) في النفح: «ما تجدد».

(٣) في النفح: «المعهود المعلوم».

(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ١٢٦.

(٥) في النفح: «لكنه».

(٦) البيت لأبي تمام وهو في ديوانه (ص ١٤).

(٧) في النفح: «إلى ذلك».

(٨) في النفح: «على رَغْمِهِ بالقيام والصيام».

(٩) في النفح: «بالتوفيق».

(١٠) هو محمد بن عبد الله الماسي المدعي للهداية، كما جاء في النفح، وكما تقدّم عنه قبل قليل.

«فَصُرِعَ والحمد»^(١) لله لحينه، وبادرت إليه بوادرُ مَنُونِه، وأتته وافداتُ الخطيئات عن يساره، ويمينه، وكان^(٢) يدَّعي أن المنيَّة في هذه الأعوام لا تصيبه، ويزعم أنه يُبشِّر بذلك والنواب لا تنويه؛ ويقول في سواه قولاً كثيراً، ويختلِّق على الله إفكاً وزوراً؛ فلما عاينوا^(٣) هيئة اضطجاعه، ورأوا ما حَطَّتْهُ^(٤) الأيسنة في أعضائه^(٥)، ونفذ فيه من أمر الله ما لم يقدروا على استرجاعه؛ هَزَمَ لهم مَنْ كان لهم من الأحزاب، وتساقطوا على وجوههم كَتَسَاقُطُ^(٦) الذُّباب، وأعطوا عن بكرة أبيهم صَفْحَةً^(٧) الرِّقاب، ولم تَقْطِرْ كلومهم إِلَّا على الأعقاب^(٨)؛ فامتلات تلك الجهات بأجسادهم، وأذنت^(٩) الآجال بانقراض آمالهم^(١٠)، وأخذهم الله بكفرهم وفسادهم؛ فلم يُعَايِنَ منهم إِلَّا مَنْ خَرَّ صريعاً، وسقى الأرض نجيعاً^(١١)، وَلَقِيَ من وقع^(١٢) الهنديَّات أمراً فظيماً؛ ودعت الضرورة باقيهم إلى الترامي في الوادي، فَمَنْ كان يؤمل الفرار منهم وَيَرْتَجِيهِ، وَيَسْبَحُ طامعاً في الخروج إلى ما يُنْجِيهِ، اختطفته الأسنة اختطافاً، وأذاقته موتاً دُعاً^(١٣)؛ وَمَنْ لَجَّ في الترامي على لُجْجِه، ورام البقاء في ثُبْجِه^(١٤)، قضى عليه شَرْقُه، وألوى فَرَقَّتْهُ^(١٥) غرقه. ودخل الموحَّدون إلى الباقية^(١٦) الكائنة فيه، يتناولون قتالهم طمعاً وحرَباً^(١٧)، ويلقونهم بأمر الله هَوْنًا^(١٨) عظيمًا وكَرْبًا، حتى سَطَّتْ^(١٩) مراكات الدماء على صفحات الماء، وحكت حُمَرتُها على زُرْقِه حمرة الشَّفَق على زُرْقِ^(٢٠) السماء؛ وظهرت^(٢١) العبرة للمُعْتَبِر، في جري الدماء^(٢٢) جَزَيِ الأَبْحُر.

(١) في النفع: «بحمد الله».

(٢) في النفع: «وقد كان يدَّعي أنه يُبشِّر بأن المنيَّة...».

(٣) في النفع: «رأوا».

(٤) في النفع: «وما خَطَّتْهُ».

(٥) في النفع: «أعضائه وأضلاعه».

(٦) في النفع: «صفحات».

(٧) كناية عن جنبهم وفراهم، وقد أخذ هذا من قول الشاعر: [الطويل]

(٨) فلسنا على الأعقاب تَدْمَى كلومنا ولكن على أعناقنا يَقْطُرُ الدِّمَاءُ

(٩) لسان العرب (دمي).

(١٠) في النفع: «وَأَذْنَتْ».

(١١) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).

(١٢) يقال: السَّمُّ الذَّعَافُ، أي القاتل لحينه. لسان العرب (ذعف).

(١٣) في النفع: «ثُبْجِه».

(١٤) في النفع: «البقية».

(١٥) في النفع: «هَوْنًا».

(١٦) في النفع: «زُرْقَه».

(١٧) في النفع: «في جري ذلك الدم».

(١٨) في النفع: «وَجَرَتْ».

دخوله غرناطة: احتل بغرناطة عام أحد وخمسين وخمسمائة، لما استدعى أهل جهات ألمرية، السيد أبا سعيد إلى مُنازلة مَنْ بها النصارى؛ وحشد، ونزل عليها، ونصب المجانيق على قَصَبَتِها، واستَصْرَخَ مَنْ بها الطاغية^(١)، فأقبل إلى نصرهم؛ واستمد السيد أبو سعيد الخليفة، فوجه إليه الكبير أبا جعفر بن عطية صُحبة السيد أبي يعقوب ابنه، فلحق به، واتصل الحصار شهورًا سبعة، وبُذِلَ الأَمْنُ لَمَنْ كان بها، وعادت إلى مَلَكَةِ الإسلام، وانصرف الوزير أبو جعفر صُحبة السيد أبي يعقوب إلى إشبيلية، وجرّت أثناء هذه أمور يطول شرحها؛ ففي أثناء هذه الحركة دخل أبو جعفر غرناطة، وعُدَّ فيمن ورد عليها.

مولده: بمراكش عام سبعة وعشرين وخمسمائة^(٢).

وفاته: على حسب ما تقدّم ذكره، لليلة بقيت من صفر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة^(٣).

أحمد بن محمد بن شعيب الكرياني

من أهل فاس، يكنى أبا العباس، ويُعرف بابن شعيب من كيرانة، قبيلة من قبائل الرّيف الغربي.

حاله: من «عائد الصّلة»: من أهل المعرفة بصناعة الطب، وتدقيق النظر فيها، مُشاركًا في الفنون، وخصوصًا في علم الأدب، حافظًا للشعر؛ ذكر أنه حفظ منه عشرين ألف بيت للمُحدثين، والغالب عليه العلوم الفلسفية، وقد مُقت لذلك، وتهتّك في علم الكيمياء، وخلع فيه العذار، فلم يُحل بطائل، إلّا أنه كان تفوّه بالوصول شَشْنَةَ المُفتونين بها على مدى الدهر. وله شعر رائق، وكتابة حسنة، وخط ظريف. كتب في ديوان سلطان المغرب مُرئسًا، وتسرى جارية رومية اسمها صُبُح، من أجمل الجوّاري حُسْنًا، فأدّبها حتى لُقِّنت حفظًا من العربية، ونظمت الشعر، وكان شديد الغرام بها، فهلكت أشدّ ما كان حبًّا لها، وامتداد أمل فيها، فكان بعد وفاتها لا يُرى إلّا في تأوّه دائم، وأسف مُتّماذٍ، وله فيها أشعار بديعة في غرض الرثاء.

مشيخته: قرأ في بلدّه فاس على كثير من شيوخها، كالأستاذ أبي عبد الله بن أجروم نزيل فاس، والأستاذ أبي عبد الله بن رُشيد، ووصل إلى تونس، فأخذ منها الطب والهيئة على الشيخ زُحَلّة وقته في تلك الفنون، يعقوب بن الدّوّاس.

(١) المراد ألفنش ريموندس، صاحب قشتالة.

(٢) في الحلة السيرة (ج ٢ ص ٢٣٨): «مولده سنة سبع عشرة وخمسمائة».

(٣) كذا جاء في الحلة السيرة.

وكان مما خاطب به الشيخ أبا جعفر بن صفوان، وقد نشأت بينهما صداقة أوجبها القدر المشترك من الولوع بالصنعة المزموزة، يتشوق إلى جهة كانوا يخلون بها للشيخ فيها ضيعة بخارج مألقة كلاًها الله: [المتقارب]

رعى الله وادي شُيْئانة	وتلك الغدايا وتلك الليالي ^(١)
ومسرحنا بين خضر الغصون	وَوَذِق المِياه وسِخر الظلال
ومرّتْنا تحت أذواحه	ومكرّعنا في النُمير الزلال
نشاهد منها كعَرَض الحُسام	إذا ما انتشّت فوقه كالعوالي ^(٢)
ولله من دُرّ خَضْبائه	لآلٍ وأخسِن بها من لآلٍ
وليلٍ به في سُتُور العُصون	كخودٍ ترثم فوق الجِجال
واسحارُه كيف راقَتْ وصـ	حُجّ النسييمُ بها في اعتدالٍ
ولله منك أبا جعفر	عميدَ الحلال حميدَ الخلال
تُطارِخُني بُرْموز الكنوز	وتُسفر لي عن معاني المعالي
وتُبدِلني في شجون الحديث	ويا طيّبة كلِّ سِخرٍ حلالٍ
فالْقُط من فيك سِخرَ البيان	مُجيباً به عن عريض السؤال
أفدْتُ الذي دونها معشرٌ	كثير المِقال قليل النوال
فأصِبحْتُ لا أبْتَغي بعدها	سواك وبعدكُما لا أبالي ^(٣)

وخاطب الفقيه العالم أبا جعفر بن صفوان يسأله عن شيء من علم الصناعة بما نصّه: [الكامل]

دارُ الهوى نَجْدٌ وساكِئها	أقصى أمانِي النفس من نَجْدٍ
ومما صَدَّر به رسالة: [الطويل]	
أُتَجَمَعُ هذا الشَّمْلُ بعد شَتَاتِهِ؟	ويُوصَلُ هذا الحَبْلُ بعد انْتِثَارِهِ؟
أما لِلْبلى آية عيسويّة	فَيَنْشُر مَيِّت الأُنس بعد مماتِهِ؟
ويُورِدُ عَيْنِي بعد وِلح مدامعي	برؤيتِهِ في عَذْبِهِ وفُرَاتِهِ؟

(٢) في الأصل: «كالعوالي».

(١) في الأصل: «الليالي».

(٣) في الأصل: «لا أبالي».

وأنشد له صاحبنا الجليل صاحب العلامة^(١) بالمغرب، أبو القاسم بن صفوان قوله: [المنسرح]

يا رَبِّ ظَنَنْيَ شَعَارُهُ نُسْكُ الْحَاظُهُ فِي الْوَرَى لَهَا فَتْكُ
يَثْرُكَ مَنْ هَامَ بِهِ مُكْتَنِبًا لَا تَعْجَبُوا أَنْ قَوْمَهُ التَّرْكُ
أَشْكُو لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْ حُرْقٍ قَيْمُثِينَ^(٢) لَاهِيًا إِذَا أَشْكُو
صَبَرْتُ حَتَّى أَطْلُ عَارِضَهُ فَكَانَ صَبْرِي خَتَامَهُ مِنْكَ

ومن المعاتبة والفكاهة قوله: [السريع]

وبائع للكُثْبِ يَبْتَاعُهَا بِأَرْخَضِ السُّومِ وَأَغْلَاةٍ
فِي نِصْفِ الْإِسْتِذْكَارِ أَعْطِيَتْهُ وَمُخَضِّصِ الْعَيْنِ وَأَرْضَاءِ
وَلَهُ أَيْضًا: [الكامل]

يَا مَنْ تَوَعَّدَنِي بِحَادِثٍ هَجَرَهُ إِنَّ السُّلُوَ لَدُونِ مَا يَتَوَعَّدُ
هَذَا عِذَارُكَ وَهُوَ مَوْضِعُ سَلَوَتِي فَأَكْفِفْ فَقَدْ سَبَقَ الْوَعِيدُ الْمَوْعِدُ
وَأَطْلُ سَلَوَتِنَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ فَبِذَاكَ خَبَرْنَا الْغَرَابَ الْأَسْوَدُ
وَلَهُ أَيْضًا: [الكامل]

قَالَ الْعِذُولُ تَنْقُصًا لِحِمَالِهِ هَذَا حَبِيبُكَ قَدْ أَطْلُ عِذَارُهُ
لَا بَلْ بَدَأَ فَصْلُ الرَّبِيعِ بِخَدِّهِ فَلِذَا تَسَاوَى لَيْلُهُ وَنَهَارُهُ
وَلَهُ يَرْتِي: [مجزوء الكامل]

يَا قَبْرَ صُبْحٍ، حُلِّ فِيكَ لَكَ بِمَهْجَتِي أَسْنَى الْأَمَانِي^(٣)
وَعِدْوَتْ بَعْدَ عِيَانِهَا أَشْهَى الْبَقَاعِ إِلَى الْعَبَانِ
أَخْشَى الْمَنِيَّةِ إِنَّهَا تُقْصِي مَكَانَكَ عَنْ مَكَانِي^(٤)
كَمْ بَيْنَ مَقْبُورٍ وَفَا سَ وَقَابِرٍ بِالْقَيْرَوَانِ
وَلَهُ أَيْضًا يَرْتِيهَا: [الكامل]

يَا صَاحِبَ الْقَبْرِ الَّذِي أَعْلَامُهُ دَرَسَتْ وَثَابَتْ حُبُّهُ لَمْ يُدْرَسِ

(١) كان صاحب العلامة بالمغرب يتولى التوقيع باسم السلطان على المراسيم الملكية، وكانت وظيفته من أهم الوظائف الإدارية بالمغرب.

(٢) في الأصل: «قيمش» وهكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «الامان».

(٤) في الأصل: «مكان».

ما اليأس منك على التصبر حاملي
لما ذهبَ بكلِّ حُسنٍ أصبحت
أصبحُ أيامي ليالٍ كلها
وقال في ذلك: [مجزوء الكامل]

أَعْلِمْتَ مَا صَنَعَ الْفِرَا
وَوَقَفْتَ مِنْهُمْ حَيْثُ لَلْتُ
سَبَقْتُ مَطَايَاهُمْ فَمَا
أَطَقْتُ حَمْلَ صُدُودِهِمْ
عَنْ ذَاتِ عِرْقٍ أَضَعَدُوا
نَزَلُوا بِبَرْقَةٍ تَنْهَدِ
وَتِيَامُنُوا عَسَفَانُ أَنْ
مَا ضَرَّهُمْ وَهَمُ الْمُنَى
قَالُوا تَفَرَّقْنَا غَدًا
عَمْدًا رَأَوْا قَتْلَ الْعَمِي
أَوْلَى لِحَسْمِكَ أَنْ يَرُقَ
أَمَّا الْفُؤَادُ فَعِنْدَهُمْ
أَعْتَادَ حَبِّ مَحَلِّهِمْ
وَاهَا لِسَالِفَةِ الشَّبَا
أَبَقْتُ حَرَارَةً لَوْعَةٍ
لَا تَنْطَفِي وَوُرُودَهَا
وقال أيضًا: [الكامل]

يا موجشي والبعد دون لقائه
يُذْنِيكَ مِنِّي الشَّوْقُ حَتَّى إِنِّي
وَاحِنٌ شَوْقًا لِلتَّسِيمِ إِذَا سَرَى
كَانَ اللَّقَاءُ^(٢) فَكَانَ حَظِّي نَاطِرِي
أَدْعُوكَ عَنْ شَحْطٍ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعْ
لَأُرَاكَ زَائِي الْعَيْنِ لَوْلَا أَدْمَعِي
لَحْدِيثُكُمْ وَأَصْبِيحُ كَالْمُسْتَطَلْعِ
وَسَطُ الْفِرَاقِ فَصَارَ حَظِّي مَسْمَعِي^(٣)

(١) في الأصل: «أبطى»، وجاءت هنا مخففة عن الأصل وهو: «أبطأ».

(٢) في الأصل: «اللقاء» وهكذا ينكسر الوزن. (٣) في الأصل: «مسمع».

فَابْعَثْ خيالك تُهْدِيهِ نار الحَشَا إن كان يجهلُ من مقامي مَوْضِعِي^(١)
 واصحبه من نومي بِشُحْفَةٍ قادم فَصَدَى قَلِيلُ رِكابكم لم تُجْمَعِ
 دخوله غرناطة: دخل غرناطة على عهد السابع من ملوكها الأمير محمد^(٢)
 لقرب من ولايته في بعض شؤونه؛ وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة التي يتشوف
 الطيب إليها والشحورر، وهي بقرية شون^(٣) من خارجها.
 وفاته: رحمه الله، توفي بتونس في يوم عيد الأضحى من سنة تسع وأربعين
 وسبعمائة.

أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن محمد بن حسين بن علي بن سليمان بن عرفة اللخمي

الفقيه، الرئيس، المتفطن، حامل راية مذهب الشعر في وقته، المشار إليه بالبنان
 في ذلك ببلده، يكنى أبا العباس.

حاله: كان فذاً في الأدب، طرّفاً في الإدراك، مهذب الشمائل، ذليق اللسان،
 ممتع المجالسة والمحاضرة، حلو الفكاهة، يرمي كل غرضٍ بسهم، إلى شرف النشأة
 وعزّ المرتبة، وكرم المَحْتَد، وأصالة الرياسة.

حدثني الشيخ أبو زكريا بن هذيل، قال: حضرت بمجلس ذي الوزارتين أبي
 عبد الله بن الحكيم، وأبو العباس بذُرْ هالتيه، وقُطِبَ جلالته، فلم يُحر بشيءٍ إلا
 ركض فيه، وتكلّم بملء فيه. ثم قمنا إلى زبارين يُصلِحون شجرة عنب، فقال
 لعريفهم: حقُّ هذا أن يقصُر، ويُطال هذا، ويُعمل كذا. فقال الوزير: يا أبا العباس،
 ما تركت لهؤلاء أيضاً حظاً من صناعتهم، يستحقّون به الأجرة، فعجبنا من
 استحضاره، ووساعة ذرعه، وامتداد حظّ كفايته.

قدومه على غرناطة: قَدِمَ عليها مع الجُملة من قومه عند تغلب الدولة النصرية
 على بلدهم، ونزول البلاء والغلاء والمحنة بهم، والجللاء بهم في آخر عام خمسة

(١) في الأصل: «موضع».

(٢) سابع سلاطين بني نصر هو أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل النصري، وقد
 حكم من سنة ٧٣٣ هـ إلى سنة ٧٥٥ هـ. وسادس سلاطينهم هو محمد بن إسماعيل بن فرج بن
 إسماعيل النصري، وقد حكم من سنة ٧٢٥ هـ إلى سنة ٧٣٣ هـ. راجع اللوحة البدرية (ص
 ٩٠، ١٠٢).

(٣) شون: بالإسبانية Jun، وتقع شمال غرناطة.

وسبعمائة، ويأتي التعريف بهم بَعْدُ إن شاء الله. وكان أوفر الدواعي في الاستعطاف لهم بما تقدّم بين يدي أديانهم، ودخولهم على السلطان، أن الذي تنخل بمثله السُّخائم، وتذهب الإخَن. وخطب لنفسه، فاستمرت حاله لطيف المَنزلة، معروف المكانة، ملازمًا مجلس مُدبِّر الدولة، مرسومًا بصدافته، مشتملاً عليه ببرّه، إلى أن كان من تقلُّب الحال، وإدالة الدولة، ما كان.

شعره: وشعره نمطٌ عالٍ، ومحلّ البراعة حال، لطيف الهبوب، غزير المائبة، أنيق الديباجة، جَمُّ المحاسن؛ فمعه في مذهب المدح، يخاطب ذا الوزارتين أبا عبد الله بن الحكيم^(١): [الكامل]

مُلْكْتُ ^(٢) رَقِيَّ بِالْجَمَالِ فَأَجْمَلِ	وَحَكَمْتُ فِي ^(٣) قَلْبِي بِجَوْرِكَ فَاغْدِلِ
أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الْمِلَاحِ وَمَنْ يَجْزُرُ	فِي حَكْمِهِ إِلَّا جَفَوْنُكَ يُغْزَلِ
إِنْ قِيلَ أَنْتَ الْبَذْرُ فَالْفَضْلُ الَّذِي	لَكَ بِالْكِمَالِ وَنَقْصُهُ لَمْ يُجْهَلِ
لَوْ لَا الْحِظْوُظُ لَكُنْتُ أَنْتَ مَكَانَهُ	وَلَكَانَ دُونَكَ فِي الْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
عَيْنَاكَ نَازَلْنَا الْقُلُوبَ فَكُلُّهَا	إِمَّا جَرِيحٌ أَوْ مُصَابُ الْمَقْتَلِ
هَزَّتْ ظُبَاهَا بَعْدَ كَسْرِ جَفَوْنِهَا	فَأُصِيبَ قَلْبِي فِي الرُّعِيلِ الْأَوَّلِ
مَا زِلْتُ أُغْدِلُ فِي هَوَاكَ وَلَمْ يَزَلْ	سَمْعِي عَنِ الْعُدَّالِ فِيكَ بِمَعْزَلِ
أَصْبَحْتُ فِي شُغْلٍ بِحَبِّكَ شَاغِلِ	عَنْ أَنْ أَصِيحَ إِلَى كَلَامِ الْعُدْلِ
لَمْ أَهْمَلِ الْكِتْمَانَ لَكِنْ أَدْمَعِي	هَمَلْتُ وَلَوْ لَمْ تَغْصِنِي لَمْ تَهْمَلِ
جَمَعَ الصَّحِيحِينَ الْوَفَاءَ مَعَ الْهَوَى	قَلْبِي وَأَمْلَى الدُّمْعُ كَشَفَ الْمَشْكَلِ
مَا فِي الْجَنُوبِ وَلَا الشَّمَالِ جَوَابُ مَا	أَهْدَى إِلَيْكَ مَعَ الصُّبَا وَالشَّمَالِ ^(٤)
خَلَسَا لَهُ مِنْ طَيْبِ عَرْفِكَ نَفْحَةٌ	تَجِيءُ بِهَا دِمَاءُ عَلِيلِهَا الْمُتَعَلِّلِ
إِنْ كُنْتُ بَعْدِي خُلْتُ عَمَّا لَمْ أُحَلْ	عَنْهُ وَأَهْمَلْتُ الَّذِي لَمْ أَهْمَلِ
أَوْ حَالَتِ الْأَحْوَالُ فَاسْتَبَدَلْتُ بِي	فَلِإِنْ حَبِي فِيكَ لَمْ يُسْتَبْدَلِ

(١) هو ذو الوزارتين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد اللخمي، المعروف بابن الحكيم. من أهل رندة، كاتب أديب بليغ، شهير الذكر بالأندلس. توفي بفاس سنة ٧٢١ هـ. ترجمته في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٤٠) وقصيدة ابن عرفة اللامية في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٥٧).

(٢) في الأصل: «تَمَلَّكْتُ» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من أزهار الرياض.

(٣) كلمة «في» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من أزهار الرياض.

(٤) هذا البيت والأبيات التي تليه لم ترد في أزهار الرياض.

لا قَيْثُ بَعْدَكَ مَا لَوْ أَنَّ أَقْلَهُ
وَحُمِلَتْ فِي حُبِّكَ مَا لَوْ حُمِلَتْ
مِنْ حَيْفٍ دَهْرٍ بِالْحَوَادِثِ مُقَدِّمٍ
قَدْ كُنْتُ مِنْهُ قَبْلَ كَرٍّ صَرُوفِهِ
وَنُصُولِ شَيْبٍ قَدْ أَلَمَ بِلَمْتِي
يَنْوِي الإِقَامَةَ مَا بَقِيَتْ وَأُقْسِمَتْ
وَمَسِيرَ ظَنِّينِ وَدَانَ حَمِيمُهُ
يَطْوِي عَلَى جَسَدِي الضُّلُوعَ فَقَلْبِهِ
فِي صَدْرِهِ مَا لَيْسَ فِي صَدْرِي لَهُ
أَعْرَضْتُ عَنْهُ وَلَوْ أَشْفُ لَذَمَهُ
جُلَيْتُ فِي خَلِيَّاتِ سَبَقٍ لَمْ يَكُنْ
مَا ضَرَّهُ سَبْقِيهِ فِي زَمَنِ مَضَى
سَاءَتْهُ مَنِّي عَجْرَفِيَّةُ قُلُوبٍ
مَتَحَرِّقُ فِي الْبَذْلِ مَذَّةَ سَيْرِهِ
حَتَّى يَثُوبَ لَهُ الْغَيْثُ مِنْ مَا جِدِ
مِثْلُ الْوَزِيرِ ابْنِ الْحَكِيمِ وَمَا لَهُ
سَادَ الْوَرَى بِحَدِيثِهِ وَقَدِيمِهِ
مِنْ بَيْتِ مَجْدٍ قَدْ سَمِعْتَ بِقَبَابِهِ
سَامِي الدَّعَائِمِ طَالَ بَيْتُ وَزَارَةٍ
يَلْقَى الْوَفُودَ بِبَسْطِ وَجْهِ مُشْرِقٍ
فَلَا مَبْلَى جَذْوَاهُ حَوْلَ فَنَائِهِ
وَإِذَا نَحَى بِالْعَدْلِ فَصَلَ قَضِيَّةٍ
يَقْضِي عَلَى سَخْبِ الْخُصُومِ وَشُغْبِهِمْ
وَيَلْقُنُ الْحَجَّ الْعَيْيَّ تَحَرُّجًا
فَلِذَا قُضِيَ صُورُ الْمُحِقِّ بِحَقِّهِ
عَجِلَ عَلَى مَنْ يَسْتَحِقُّ مَثُوبَةً
يَا كَافِيَ الْإِسْلَامِ كُلِّ عَظِيمَةٍ

لَا قَى الشَّرَى لِأَذَابِ صُمِّ الْجَنْدِلِ
شُمِّ الْجِبَالِ أَخْفَهُ لَمْ تُحْمَلِ
حَتَّى عَلَى حَبْسِ الْهَزْبِ الْمُثْبِلِ
فَوْقَ السَّنَامِ فَصَرْتُ تَحْتَ الْكَلْكَلِ
وِخْضَابِ أَبِي شَيْبَةٍ لَمْ تَنْصِلِ
لَا تَنْزُلُ اللَّذَاتِ مَا لَمْ يَرْحَلِ
لَا قَى الْجِمَامِ وَإِنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ
بِأَوَارِهِ يَغْلِي كَغْلِي الْمِرْجَلِ
مِنْ مِثْلِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَزْدَلِ
شَعْرِي لَجَزَعِهِ نَقِيعَ الْحَنْظَلِ
فِيهَا مَرْتَاكِحٌ وَلَا بِمَوْمِلِ
أَنَّ الْمُجَلَّى فِيهِ دُونَ الْفُسْكَالِ
بَاقٍ عَلَى مَرِّ الْحَوَادِثِ حَوْلِ
مَتَجَلِّدٍ فِي عُشْرِهِ مُتَجَمِّلِ
بِقَضَاءِ حَاجَاتِ الْكَرَامِ مُوَكَّلِ
مِثْلُ يَفْعُلُ مَقَامِهِ مُتَمَثِّلِ
فِي الْحَالِ وَالْمَاضِي وَفِي الْمُسْتَقْبَلِ
أَقْيَالُ لُحْمٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
وَمَشَاجِعُ وَأَبِي الْفَوَارِسِ نَهْشِلِ
تَجْلُو طَلَاقَتَهُ هُمُومُ الْمُجْتَلِي
لَقَطُ الْقَطَا الْأَسْرَابِ حَوْلَ الْمَنْهَلِ
لَمْ تَحْظْ فَضْلًا مِنْ إِطَالَةِ مُفْصَلِ
وَيَقِيمُ مُغْرِيهِمْ مَقَامَ الْمُؤْمِلِ
مِنْ رَامِحٍ عِنْدَ اللَّجَاجِ وَأَعْزَلِ
عَنْهُ وَحَلَقَ عِقَابُهُ بِالْمُنبْطَلِ
فَلِذَا اسْتَحَقَّ عَقُوبَةً لَمْ يَغْجَلِ
وَمَعِيدَهُ غَضًّا كَانَ لَمْ يَذْبُلِ

وقال أيضًا يمدحه بقصيدة من مطولاته: وإنما اجتلبت من مدحه للوزير ابن الحكيم لكونه يمدح أدبيًا ناقدًا، وبليغًا بالكلام بصيرًا، والإجادة تلزم فيه منظومه، إذ لا يوسع القريحة فيه عُذْرًا، ولا يُقبل من الطمع قُدْرًا، وهي: [الكامل]

أما الرُسوم فلم تَرِقْ لما بي واستغفجت عن أن تردّ جوابي
واستبدلت بوحوشها من أنس بيض الوجوه كواعب أتراب
ولقد وقفت بها أرقرق عبّرة حتى اشتكى طول الوقوف صحابي^(١)
يبكي لطول بكاي في غرّصاتها صخبي ورّجعت الحنين ركابي^(٢)

ومن شعره في المقطوعات غير المطولات: [مجزوء البسيط]

لم يَبْقَ ذو عَيْنٍ^(٣) لم يَسْبِهْ وَجْهْكَ من زَيْن بلا مَيْن
فلاح بينهما طالعًا كأنه قمر^(٤) بلا مَيْن

ومن ذلك قوله: [البسيط]

كانما الخال مصباح بوجنته هبّت عواصف أنفاسي فعطف^(٥)
أو نقطة قَطَرَتْ في الخَدَّ إذ رَسَمَتْ خطّ الجمال بخطّ اللام والألف

ومن ذلك قوله: [المنسرح]

وَعَذِّتَنِي أَنْ تَزُورَ يا أُمْلِي فلم أزل للطريق مُرْتَقِبًا
حتى إذا الشمس للغروب دَنَتْ وَصِيْرَتْ من لَجِينِها ذهبًا
آنَسَنِي البدرُ منك حين بدا لأثّه لو ظَهَرَتْ لاخْتَجَبًا

ومن ذلك قوله: [الرمل]

هَجَرْتُكُمْ ما لي عليه جَلْدٌ فَأَعِيدُوا لي^(٦) الرضى أو فَعِيدُوا^(٧)
ما قسا قلبي مِنْ هَجْرَانِكُمْ ولقد طال عليه الأمد

(١) في الأصل: «صحاب». (٢) في الأصل: «ركاب».

(٣) ذو عَيْن: الذي عظم سواد عينه في سعة، والأثنى عَيْناء، والجمع عَيْن. لسان العرب (عين).

(٤) في الأصل: «القمر» وهكذا ينكسر الوزن.

(٥) عبّز هذا البيت منكسر الوزن، ولا يتناسق ومعنى صدر البيت.

(٦) في الأصل: «إني» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) في الأصل: «فَعِيدُوا» بتشديد الدال، وهكذا ينكسر الوزن.

ومن ذلك قوله: [البسيط]

أَبْدَى عِذَارُكَ عُذْرِي فِي الْغَرَامِ بِهِ وَزَادَنِي شَغَفًا فِيهِ إِلَى شَقَفِ
كَأَنَّهُ ظَنُّ أَنِّي قَدْ نَسِيتُ لَهُ عَهْدًا فَعَرَّضَ لِي^(١) بِاللَّامِ وَالْأَلْفِ

ومما هو أطول من المزدوجات قوله: [الطويل]

وَيَوْمٍ كَسَاهُ الدُّجْنُ^(٢) ذَكْنَ ثِيَابِهِ وَهَبَ^(٣) نَسِيمَ الرُّوحِ وَهُوَ عَلِيلُ
وَلَا حَتَّ بِأَفْلَاكِ الْأَقْيِ كَوَاكِبِ لَهَا فِي الْبَدُورِ الطَّلَاعَاتِ أَقْوَلُ
وَجَالَتْ جِيَادُ الرِّيحِ بِالرِّيحِ جَوْلَةً فَلَمْ تَخْلُ إِلَّا وَالْوَقَارُ قَتِيلُ
ومن ذلك: [الخفيف]

عَذَلُونِي فَيَمَنْ أَحْبَبُ وَقَالُوا ذَبْ نَمْلُ الْعِذَارِ فِي وَجْنَتِيهِ
وَكَذَا الثَّمْلُ كُلَّمَا حَلَّ شَيْئًا مَنَعَ النَّفْسَ أَنْ تَمِيلَ إِلَيْهِ
قُلْتُ قَبْلَ الْعِذَارِ أَعْذَرَ فِيهِ ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ أَلَامَ عَلَيْهِ
إِنَّمَا ذَبْ نَحْوُ شَهْدٍ بِفِيهِ فَلِذَاكَ انْتَهَى إِلَى شَفْتِيهِ

ولاحسانه كثير، ومثله لا يقنع منه ببسیر.

وفاته: قال في «عائد الصلة»: «ولما كان من تغلب الحال، وإدالة الدولة، وخلع الأمير، وقتل وزيره، يوم عيد الفطر من سنة سبع وسبعمائة، وانتهت دار الوزير، ونالت الأيدي يومئذ، مَنْ شَمَلَهُ دَهْلِيزُ بَابِهِ، مِنْ أَعْيَانِ الطَّبَقَاتِ، وَأُولَى الْخُطَطِ وَالرُّتَبِ، وَمِنْهُمْ أَبُو الْعَبَّاسِ هَذَا، رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَأَقْلَتِ تَحْتَ سِلَاحِ مَشْهُورٍ، وَحَبِيزَ مَرْقُوفٍ، وَثُوبَ مَسْلُوفٍ؛ فَأَصَابَتْهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ عِلَّةٌ أَيَّامًا، إِلَى أَنْ أَوْدَتْ بِهِ، فَقَضَتْ عَلَيْهِ بِغَرْنَاطَةِ، فِي الثَّامِنِ وَالْعَشْرِينَ لَذِي حُجَّةٍ مِنْ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِمِائَةٍ^(٤)؛ وَدَفِنَ بِمَقْبَرَةِ الْغُرَبَاءِ مِنَ الرُّبَيْطِ عَبْرَ الْوَادِي تَجَاهَ قُصُورِ نَجْدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ».

(١) كلمة «لي» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم المعنى والوزن معًا.

(٢) في الأصل: «الدجى» وهكذا ينكسر الوزن، ولا يستقيم مع المعنى. والدجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء. لسان العرب (دجن).

(٣) في الأصل: «وهب».

(٤) في أزهار الرياض (ج ٢ ص ٣٥٧): توفي بغرناطة في ذي الحجة من عام ثمانية وسبعمائة.

أحمد بن علي الملياني^(١)

من أهل مراكش، يكنى أبا عبد الله وأبا العباس.

صاحب العلامة^(٢) بالمغرب، الكاتب الشهير البعيد الشأن^(٣) في اقتضاء الثرة^(٤)، المثل المضروب في العفة^(٥)، وقوة الصَّريمة، ونفاذ العزيمة.

حاله: كان^(٦) نبيه البيت، شهير الأصالة، رفيع المكانة، على سجيّة غريبة كانت^(٧) فيه، من الوقار والانقباض والصُّمت. أخذ^(٨) بحظ من الطُّب، حَسَنَ الخطّ، مليح الكتابة، قارصًا للشعر، يُذهب^(٩) نَفْسَه فيه كلّ مذهب.

وصمته: فتك^(١٠) فتكة شنيعة^(١١) أساءت الظنَّ بِحَمَلَةِ الأَقْلَامِ على مرّ^(١٢) الدهر؛ وانتقل إلى الأندلس بعد مشقّة. وجرى ذكره في كتاب «الإكليل» بما نصّه^(١٣):

«الصَّارم، الفاتك، والكاتب الباتك^(١٤)، أي^(١٥) اضطراب في وقار، وتجهّم تحته أنس عقار! اتخذه صاحب^(١٦) المغرب صاحب علامته، وتوجّه تاج كرامته؛ وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بشار غمّه، ويطوقهم دمه بزعمه، ويُقصر على الاستبصار^(١٧) منهم بنات همّه، إذ سَعَوْا فيه حتى اغتُقل، ثم جدّوا في أمره حتى قُتل؛ فترصد كتابًا إلى مراكش يتضمّن أمرًا جَرَمًا، ويشل^(١٨) من أمور الملك عَزْمًا،

(١) ترجمة الملياني في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٤). والملياني: نسبة إلى مليانة وهي مدينة كبيرة بالمغرب من أعمال بجاية، كثيرة الخيرات، مشهورة بالحُسن وكثرة الأشجار، وتدفّق المياه. آثار البلاد وأخبار العباد (ص ٢٧٣)، والروض المعطار (ص ٥٤٧)، ومعجم البلدان (ج ٥ ص ١٩٦).

(٢) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٥). وصاحب العلامة بالمغرب هو الذي كان يتولى التوقيع باسم السلطان على المراسيم الملكية، وكانت وظيفته من أهم الوظائف الإدارية بالمغرب.

(٣) في النفع: «الشَّاور».

(٤) في الأصل: «الثَّرة»، والتصويب من النفع. والثَّرة: الدُّخْل (الثَّار). لسان العرب (وتر).

(٥) في النفع: «الهِمّة».

(٦) قوله: «كانت فيه» غير وارد في النفع.

(٧) في النفع: «تذهب».

(٨) في النفع: «أخذًا».

(٩) في النفع: «شهيّة».

(١٠) النص في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٤ - ٤٠٥).

(١١) الباتك: القاطع. محيط المحيط (بتك).

(١٢) في الأصل: «أي» والتصويب من النفع.

(١٣) في النفع: «ملك».

(١٤) في النفع: «ويشمل».

جعل الأمر^(١) فيه بضرب رقابهم، وسبى أسابهم؛ ولما أكد على حامله في العجل، وضايقه في تقدير الأجل، تأنى حتى علم أنه قد وصل، وأن غرضه قد حصل. فَرُّ إلى تِلْمَسَان، وهي بحال حصارها، فأتصل بأنصارها، حالاً بين أنوفها وأبصارها؛ وتعجب من فراره، وسوء اغتراره، ورجحت^(٢) الظنون في آثاره. ثم اتصلت^(٣) الأخبار بتمام الحيلة، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة، وتركها^(٤) شُتْعَةً على الأيام، وعازاً في الأقاليم على حَمَلَةِ الأقاليم؛ وأقام بِلْمَسَان إلى أن حَلَّ مُحَقَّق حصارها^(٥)، وأزيل هُمَيَان^(٦) الضيقة عن خصرها؛ فلحق بالأندلس، فلم^(٧) يَغْدِم بَرًّا، ورَغَبًا مستمراً، حتى أتاها جِمامُه، وانصرفت أيامُه.

شعره: من^(٨) الذي يدلّ على برّه^(٩)، وانفساخ^(١٠) خطاه في التَّفَاسَة، ويُغْد شَاوَه، قوله: [الكامل]

العِزُّ ما ضَرَبْتُ عليه قِبابي	والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابي
والزُّهْرُ ما أهداه غصنُ براعتي	والمِسْكُ ما أبداه نقش ^(١١) كتابي
والمجد ^(١٢) يمنع أن يُزاحَمَ مؤردي	والعِزُّمُ يأبى أن يُسام ^(١٣) جنابي
فلذا بلوتُ ضنّيعَةً جازيئُها	بجَمِيل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدتُ مودّةَ أجرئُها	مجرى طعامي من ذمي وشرابي
وإذا طلبتُ من الفراقِدِ والسَّهَى	ثأراً فأوشِكُ أن أنالَ طِلابي

وفاته: توفي رحمه الله يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمئة، ودفن بجبّانة باب البيرة، تجاوز الله تعالى^(١٤) عنه.

أحمد بن محمد بن عيسى الأموي

يكنى أبا جعفر، ويُعرَف بالزّيّات.

-
- (١) في النفع: «جعل فيه الأمر».
- (٢) في النفع: «ورجمت».
- (٣) في النفع: «وصلت».
- (٤) في النفع: «فتركها شتعة على...».
- (٥) في النفع: «حصارها».
- (٦) في الأصل: «اللقيان» والتصويب من النفع. والهنيان: تكة السروال.
- (٧) في النفع: «ولم».
- (٨) النص والشعر في نفع الطيب (ج ٨ ص ٤٠٦).
- (٩) في النفع: «بأوه».
- (١٠) في النفع: «وانفساخ».
- (١١) في النفع: «نقش».
- (١٢) في النفع: «يُضام».
- (١٣) في النفع: «يُضام».
- (١٤) كلمة «تعالى» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من النفع.

حاله: من أهل الخير والصلاح والأتباع، مفتوح عليه في طريق الله، نير الباطن والظاهر، مطرح التصنع، مُستدلّ، مُجانب للعالم وأهلها، صادق الخواطر، مُرسل اللسان بذكر الله، مبذل النصيحة، مُنابر على أتباع السُّنة، عارف بطريق الصوفيّة، ثَبِتَ القدم عند زلّاتها؛ ناطق بالحكمة على الأميّة؛ جميل اللقاء، متوغلّ في الكَلَف بالجهد، مرتبط للخيل، مبادر للهنيعة، حريص على الشهادة، بركة من بركات الله في الأندلس، يعزّ وجود مثله.

وفاته: توفي، رحمه الله، ببلده غرناطة، يوم الخميس الثاني والعشرين لجمادى الثانية من عام خمسة وستين وسبعمائة؛ وشارف الاكتهال.

أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي^(١)

من أهل بَلَش مالقة^(٢)، يكنى أبا جعفر، ويُعرف بالزيات، الخطيب، المتصوّف الشهير.

حاله: من «عائد الصلة»: كان جليل القدر، كثير العبادة، عظيم الوقار، حَسَن الخُلُق، مخفوض الجَنَاح، متألّق البشر، مبذول الموانسة، يُذكر بالسلف الصالح في حُسْن شيمته وإعراب لفظه، مزدحم المجلس، كثير الإفادة، صبوراً على الغاشية، واضح البيان، فارس المنابر غير مُدافع، مستحقّ التصدّر في ذلك بشروط قلما كملت عند غيره؛ منها حُسْن الصورة، وكمال الأبهة، وجَهْورِيّة الصوت، وطيب النغمة، وعدم التَّهَيُّب، والقدرة على الإنشاء، وغَلَبَة الخشوع، إلى التفنّن في كثير من المآخذ العلمية، والرياسة في تجويد القرآن، والمشاركة في العربية، والفقه، واللغة، والأدب، والعروض، والمحاسنة^(٣) في الأصلين، والحفظ للتفسير.

قال لي شيخنا أبو البركات بن الحاج، وقد جرى ذكر الخطابة: ما رأيت في استيفائها مثله. كان يفتح مجالس تدريسه أكثر الأحيان، بِخُطْب غريبة، يطبّق بها مفاصل الأغراض، التي يشرع في التكلّم فيها، وينظم الشعر دائماً في مراجعته ومخاطباته، وإجازاته، من غير تأنّ ولا زويّة، حتى اعتاده مَلَكَة بطبعه؛ واستعمل في السّفارة بين الملوك، لدخض السُّخائم، وإصلاح الأمور، فكانوا يُوجِبون حقّه، ويلتمسون بركته، ويلتمسون دعاءه.

(١) ترجمة أحمد بن الحسن الزيات الكلاعي في الكتيبة الكامنة (ص ٣٤)، وبغية الوعاة (ص ١٣١).

(٢) بَلَش مالقة: بالإسبانية Velez Malaga، وهي مدينة تقع شرقي مالقة.

(٣) من مُجَسّ، والمقصود بها هنا الإتقان والبراعة.

مشيخته: تحمّل العلم عن جملة؛ منهم خاله الفقيه الحكيم أبو جعفر أحمد بن علي المَدَجَجِي من أهل الحمة^(١)، من ذوي المعرفة بالقرآن والفرائض. ومنهم القاضي أبو علي الحسين بن أبي الأحوص الفهري، أخذ عنه قراءة وإجازة. ومنهم العارف الرباني أبو الحسن فضل بن فضيلة، أخذ عنه طريقة الصوفية وعليه سلك، وبه تأدب، وبينهما في ذلك مخاطبات. ومنهم أبو الزهر ربيع بن محمد بن ربيع الأشعري، وأبو عبد الله محمد بن يحيى أخوه. ومنهم أبو الفضل عياض بن محمد بن عياض بن موسى، قرأ عليه ببلّس وأجاز له. ومنهم الأستاذ أبو جعفر بن الزبير، والأستاذ أبو الحسن التّجَلِي، وأبو محمد بن سماك، وأبو جعفر بن الطّباع، وأبو جعفر بن يوسف الهاشمي الطّنجَلِي^(٢)، والأستاذ النحوي أبو الحسن بن الصّائغ، والكاتب الأديب أبو علي بن رشيق التّغَلِي، والزاوية أبو الحسن بن مسّثور الطائي، والإمام أبو الحسن بن أبي الربيع، والأستاذ أبو إسحق الغافقي الميربي، والإمام العارف أبو محمد عبد العظيم بن الشيخ البَلَوِي، بما كان من إجازته العامة لكل من أدرك عام أحد وأربعين وستمئة، وغير هؤلاء ممن يشق إحصاؤهم.

تصانيفه: كثيرة، منها المسماة بـ «المقام المَخزون في الكلام الموزون»؛ والقصيدة المسماة بـ «المشرف الأضفى في المأرب الأوفى» وكلاهما ينيف على الألف بيت؛ و«نظم السلوك في شيم الملوك»، و«المُجْتَنَى التّضير والمُقْتَنَى الخطير»، و«العبارة الوجيزة عن الإشارة»، و«اللطف الروحانية والعوارف الربانية».

ومن تواليقه: «أس مبنى العلم، وأس معنى الحلم» في مقدمة علم الكلام، و«لذات السمع من القراءات السّبع» نظمًا، و«رصف نفائس اللاّلي، ووصف عرائس المعالي» في النحو، و«قاعدة البيان وضابطة اللسان» في العربية، و«لهجة اللّافظ وبهجة الحافظ»، والأرجوزة المسماة بـ «قُرّة عَيْن السائل وبُغية نفس الآمل» في اختصار السيرة النبوية، و«الوصايا النظامية في القوافي الثلاثية»، وكتاب «عُدّة الداعي، وعُمدة الواعي»، وكتاب «عوارف الكرم، وصيلات الإحسان، فيما حواه العين من لطائف الحكّم وخلق الإنسان»، وكتاب «جوامع الأشراف والعنايات، في الصّواع والآيات»، و«الثّقة الوسيمة، والوثقة الجسيمة»^(٣)، تشتمل على أربع قواعد اعتقاديّة

(١) الحمة أو الحامة: بالإسبانية: Alhama، وهي من مدن غرناطة، وتقع غربي غرناطة إلى الجنوب من مدينة لوثة، استولى عليها الإسبان سنة ٨٨٧ هـ، أي قبل سقوط غرناطة بعشر سنين. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٦٠).

(٢) الطنجلي والطنجالي والطنجي: نسبة إلى طنجة.

(٣) في الأصل: «الجسمية».

وأصولية وفروعية وتحقيقية، وكتاب «شُروف المَفَارِقِ في اختصار كتاب المشارق»، و«تلخيص الدلالة في تخلص الرسالة»، و«شذور الذهب في صروم الخطب»، و«فائدة المُلْتَقَط وعائدة المُتَغَبِّط»، وكتاب «عُدَّة المُجِيق وتُخْفَةُ المُسْتَحَقَّ».

نشره: من ذلك خُطْبَةُ أَلْغَيْت الألف من حروفها، على كثرة ترددها في الكلام وتصرفها، وهي:

«حمدتُ ربي جلّ من كريم محمود، وشكرته عزّ من عظيم موجود، ونزّهته عن جهل كل مُلحد كفور، وقدّسته عن قول كل مُفسد غرور، كبير لو تقدم، في فهم نجد، قدير لو تصوّر في رسم لحد، لو عدّته فكرة التّصوّر لتصوّر، ولو حدّته فكرة لتعدّر، ولو فهمت له كيفية لبطل قِدَمه، ولو علّمت له كيفية لحصل عدمه، ولو حصّره طَرْفٌ لقطع بتجسّمه، ولو قهره وضفّ لصدع بتقسّمه، ولو فرض له شَبَحَ لرهقه كيف، ولو عرض له للحق عجلٌ وزَيْث. عظيم من غير ترُكِب قَطَر، عليم من غير ترُكِب فكر، موجود من غير شيء يُمسكه، معبود من غير وهم يُذكره، كريم من غير عَوْض يُلْحَقُه، حكيم من غير عَرْضٍ يُلْحَقُه، قوي من غير سَبَبٍ يجمعه، عليّ من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لَعَرِض في قيموميته، ولو ثبت له جسٌّ لثَوَز في ديموميته».

ومنها: «تقدّس عن لَم فعله، وتنزه عن سَم فضله، وجلّ عن ثَم قدرته، وعزّ عن عَم عزّته، وعظمت عن مَن صفته، وكثرت عن كَم ميّته؛ فَتَق ورَتَق، صوّر وحلق، وقطع ووصل، ونصر وخذل، حَمَدْتُهُ حَمْدٌ مَن عَرَف ربه، ورهب دَنَبه، وصَفَت حَقِيقَةً يَقِينه قلبه، وذكرته بصيرة دينه لبّه، فنهض لَوَعي بشروط نفضته وحدّ، وربط سبلك سلوكه وشدّ، وهدم صرح عُتُوّه وهَدّ، وحرس مَغِيل عقله وحدّ، طرد غرور عُزّته ورذله؛ عَلِمَ عِلْمَ تحقيق فنحنا نحوه، وتفرّد له عزّ وجلّ بثبوت ربوبيّته وقِدَمه، ونعتقد صدور كلّ جوهر وعَرْض عن جوده وكرمه، ونشهد بتبليغ محمد صلى ربه عليه وسلّم، رسوله وخير خَلْقِه، ونُعلن بنهوضه في تبيين فرضه، وتبليغ شرعه، ضرب قَبّة شُرْعِه، فنسخت كلّ شُرْع، وجدّد عزيّمته فقمع عدوّه خير قَمْع، قوّم كلّ مُقَوّم بقويم سِمَتِه، وكريم هَذِيه، وبيّن لقومه كيف يركنون قُوْره بقصده، وسديد سعيه، بشرّ مُطِيعه، فَظَفِرَ بِرحمته؛ وحذّر عاصيه فشقي بنقمته.

«وبعد، فقد نُصحتم لو كنتم تعقلون، وهُدِيتُم لو كنتم تعلمون، وبُصِّرتم لو كنتم تبصرون، ودُكِّرتم لو كنتم تذكرون. وظَهَرَتْ لَكُم حَقِيقَةُ نُشْرِكُم وبرزت

لكم خبيثة حشركم، فلم تركضون في طَلَق غفلتكم، وتغفلون عن يوم بَعثكم،
وللموت عليكم سيف مسلول، وحُكْم عَزَم غير مغلول، فكيف بكم يوم يُؤخذ
كلُّ بذنبه؛ ويُخبر بجميع كسبه؛ ويُفَرَّق بينه وبين صحبه، ويُعَدَم نصرة حزبه،
ويُشغل بهمه وكربه، عن صديقه وتربه، وتُشتر له رقعة وتُعَيَّن له بقعة، فريح
عبدٌ نظر وهو في مهَل لنفسه، وترسُل في رضى عمله جنةٌ لحلول رَمسه، وكسر
صنم شهوته ليقرَّ في بحبوحة قُدسه، وحَصْر بنظر يُنزله سَرير سروره بين عقله
وجسمه».

ومنها: «فتنبّه ونحك من سبتك ونومك، وتفكر فيمن هلك من صحبتك
وقومك، هتف بهم من تغلم، وشبّ عليهم منه حرق مظلم، فخرّبت بصيحتهم
ربوعهم، وتفرقت لهوله جموعهم، ودلّ عزيزهم، وخسّ رفيعهم، وضمّ سميعهم،
فخرج كلُّ منهم عن قُصره، ورُمي غير مُوسد في قبره؛ فهم بين سعيد في روضته
مُقرَّب، وبين شقي في حُفْرته مُعذَّب، فتستوهب منه عز وجل عصمته من كل خطيئة،
وخصوصية تقي من كل نفس جريئة».

كتب إلى شيخنا الوزير ابن ذي الوزارتين ابن الحكيم، جواباً عن مخاطبة كتبها
إليه يلتمس منه وصايته ونُصَحَه هذا الشعر: [السريع]

جلُّ اسم مولانا اللطيف الخبير	وعزُّ في سلطانه عن نظير
هو الذي أوجد ما فوقها	وتحتها وهو العليم الخبير
ثم صلاة الله تُثري على	ياقوتة الكون البشير النذير
وصحبه الأولي نالوا مرأى	يرجع منه الطُرف وهو الحسير
وبعد فأنفسهم جوهر	للأرواح منه ما للأنيز
فلأنك استدعيت من ناصر	نُضْحاً طويلاً وهو منه قصير
ولستُ أهلاً أن أرى ناصحاً	لقلة الصدق وخُبت الضمير
وإنما يحسنُ نصح الوري	من ليس للشُّرع عليه نكير
ومستحيل أن يقود امرأ	يدُ امرئٍ واهي المباني ضير
واعجباً يُلتَمَس الخير من	مُعْتَقِل العقل مهيب كسير
لكن إذا لم يكن بُدُّ فَعَن	جهد أوفيك بتبر يسير
فالقنه إن كنت به قانعاً	دراً نظيماً يزدري بالنشير
لازم أبا بكر على منهج	ذاك تَقَرُّ منه بخير كثير
واقنع بما يكفي ودع غيره	فلأنما الدنيا هباءٌ تُثِير

بُنِي لَا تَخْدَعُكَ هَذِي الدُّنَا فَإِنَّهَا وَاللهُ شَيْءٌ حَقِير
 أَيْنَ الْمَشِيدَاتِ أَمَا زُلْزِلَتْ؟ أَيْنَ أَخُو الْإِيوَانِ أَيْنَ السَّدِير؟
 أَيْنَ أَنْوِ شِرْوَانِ أَضْحَى كَانَ لِمَ يَكُ أَيْنَ الْمُعْتَدِي أَزْدَشِير
 هَذَا مَقَالَ مَنْ وَعَاهِ اهْتَدَى وَحِيطَ مِنْ كُلِّ مَخُوفٍ مُبِير
 وَصَّى أَبُو بَكْرٍ بِهِ أَحْمَدَا وَأَحْمَدُ فِي الْوَقْتِ شَيْخٌ كَبِير
 انْقَرَضَتْ أَيَّامُهُ وَانْتَهَى وَهَنًا وَمِنْ قَبْلُ أَتَاهُ النُّذِير
 وَهِيَ هِيَ الْيَوْمَ عَلَى عُذَّةٍ مُبْرَمَةٌ لِلشَّرِّ وَمَا مِنْ عَذِير
 وَمِنْ شَعْرَةٍ فِي طَرِيقِهِ الَّذِي كَانَ يَتَحَلَّهُ^(١):

شُهُودُ ذَاتِكَ شَيْءٌ^(٢) عَنْكَ مَحْجُوبُ لَوْ كُنْتَ تُذَرِّكُهُ لَمْ يَبْقَ مَطْلُوبُ
 عَلُوٌّ وَسُفْلٌ وَمِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَعَا دَوَّرَ عَلَى نَقْطَةِ الْإِشْرَاقِ^(٣) مَنْصُوبُ
 وَمَنْزِلُ النَّفْسِ مِنْهُ مِيمٌ مَرْكَزِهِ^(٤) إِنَّ صَحَّ لِلْغَرَضِ الظُّنِّي^(٥) مَرْغُوبُ
 وَإِنْ تَنَاءَتْ مَسَاوِيهَا فَمَنْزِلُهَا^(٦) أَوْجُ الْكَمَالِ وَتَحْتَ الرُّوحِ تَقْلِيْبُ
 وَالرُّوحُ إِنْ لَمْ تَخُتْهُ النَّفْسُ قَامَ لَهُ^(٧) فِي حَضْرَةِ الْمُلْكِ تَخْصِيصٌ وَتَقْرِيْبُ

وَمِنْ شَعْرَةٍ^(٨): [الكامل]

دَغْنِي عَلَى حُكْمِ الْهَوَى أَتَضَرَّعُ فَعَسَى يَلِينُ لَنَا الْحَبِيبُ وَيَخْشَعُ
 إِنِّي وَجَدْتُ أَخَا التَّضَرَّعِ فَايْزَا بِمِرَادِهِ وَمِنْ الدُّعَا مَا يُسْمَعُ
 أَهْلًا^(٩) وَمَا شَيْءٌ بَانَقَعَ لَلْفَتَى مِنْ أَنْ يَذِلَّ عَسَى التَّذَلُّلُ يَنْفَعُ
 وَأَمَحُ^(١٠) أَمَسَ نَفْسِكَ طَالِبًا إِبْثَاتِهِ وَاقْنَعْ بِتَفْرِيقِ لَعَلِّكَ تُجْمَعُ
 وَأَخْضَعُ فَمَنْ دَأْبُ^(١١) الْمُجِبِّ خُضُوعُهُ وَلَرَبِّمَا نَالَ الْمُنَى مَنْ يَخْضَعُ

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٣٥). (٢) في الكتيبة: «سر».

(٣) في الكتيبة: «الأشرف».

(٤) في الأصل: «ميمٌ مذكرة». وهكذا ينكسر الوزن. وقد صوبناه عن الكتيبة.

(٥) في الكتيبة: «الطيني».

(٦) في الأصل: «مساويها فحيزها... الأوج تقليب».

(٧) في الأصل: «... قام به في حضرة القلم...».

(٨) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٣٦). (٩) في الكتيبة: «واها».

(١٠) في الكتيبة: «افامح». (١١) في الكتيبة: «أدب».

ومن شعره^(١): [الكامل]

ما لي بباب غير بابك موقفٌ كلاً^(٢) ولا لي^(٣) عن فنانك مَصْرَفٌ
هذا مقامي ما حَبِيبٌ فإن أُمْتُ فالذلُّ مأوى للضراعة^(٤) مَأْلَفٌ
عَرَضِي وأنتَ به عليٌّ لَمَحَةٌ تَذَرُ^(٥) الثَّيْتِ الشَّمْلِ وَهُوَ مُؤَلَّفٌ
وعليك ليس على سواك مُعْوَلِي جاروا عليّ لأجلِ ذا أو أَنْصَفُوا
ومن المقطوعات في التجنيس^(٦): [الوافر]

يُقَالُ خِصَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ أَلْفٌ وَمَنْ جَمَعَ الْخِصَالَ الْأَلْفَ سَادَا
ويجمعها الصُّلَاحُ فَمَنْ تَعَدَّى مَذَاهِبَهُ فَقَدْ جَمَعَ الْفُسَادَا
ومنه في المعنى^(٧): [البسيط]

إِنْ شِئْتُ فَوْزًا بِمَطْلُوبِ الْكِرَامِ غَدَا فَاسْأَلْكَ مِنَ الْعَمَلِ الْمَرْضِي مِنْهَا جَا
وَغَلَبَ هَوَى النَّفْسِ لَا تَغْرُزُكَ خَادِعَةٌ^(٨) فَكُلْ شَيْءٍ يَحْطُ الْقَدْرُ مِنْهَا جَا^(٩)
دخوله غرناطة: دخل غرناطة مِرَازًا عدة تَشِدُّ عن الحصر، أوجبتها الدَّوَاعِي
بطول عمره، من طلب العلم وروايته، وحاجة عامة، واستدعاء سلطان، وقُدوم من
سفارة. كان الناس يُنْسالون عليه ويغشون منزله، فيما أدركت، كلما تَبَوَّأ ضيافة
السلطان، تَبَرُّكًا به، وأخذًا عنه.

مولده: وُلِدَ بَيْلَشُ بِلْدِهِ فِي حُدُودِ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَسِتْمِائَةٍ^(١٠).

وفاته: تَوَفَّى بِبَيْلَشِ سَحَرِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ السَّابِعِ عَشَرَ مِنْ شَوَّالِ عَامِ ثَمَانِيَةٍ وَعَشْرِينَ
وَسَبْعِمِائَةٍ. وَمَمَّنْ رِثَاهُ شَيْخُنَا، نَسِيجُ وَحْدِهِ، الْعَالِمُ الصَّالِحُ الْفَاضِلُ، أَبُو الْحَسَنِ بْنِ
الْجِيَّابِ بِقَصِيدَةِ أَوْلَاهَا: [الطويل]

على مثله خضابة الدهر فاجع تفيض نفوس لا تفيض المدامعُ

(١) الأبيات في الكتيبة الكامنة (ص ٣٦).

(٢) في الأصل: «لا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب عن الكتيبة الكامنة.

(٣) في الكتيبة: «وما لي». (٤) في الكتيبة: «والضراعة».

(٥) في الكتيبة: «تَذَعُ».

(٦) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٣٧)، وبغية الوعاة (ص ١٣١) دون تغيير عما هنا.

(٧) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٣٧) وترتيبهما فيه عكس ما هنا.

(٨) في الكتيبة: «... لا يغرُزُكَ عاجله».

(٩) وكلمة «جا» في آخر البيت أصلها: جاء. وقد حذف الهمزة للضرورة الشعرية.

(١٠) في بغية الوعاة: ولد بيلش سنة خمسين وستمئة.

ورثاه شيخنا القاضي أبو بكر بن شبرين^(١)، رحمه الله، بقصيدة أولها:

[المتدارك]

أيساعد رائدة الأمل أم يُسمع سائلة الطلل؟
يا صاح، قد يُثُك، ما فعل^(٢) ذا من الأحباب وما فعلوا؟
فأجاب الدمع مناديه أما الأحباب فقد رحلوا

ورثاه من هذه البلدة طائفة، منهم الشيخ الأديب أبو محمد بن المربع الآتي اسمه في العيادة له، بحول الله، بقصيدة أولها: [الكامل]

أدعوك ذا جزع لو أنك سامع ماذا أقول ودمع عيني هامع
وأشد خامس يوم دفنه قصيدة أولها: [الخفيف]

عَبْرَاتُ^(٣) تفيض حزنًا وتُكَلَّا وشجونُ تعمُ بعضًا وكُلَّا
ليس إلَّا صباية أضرمَتهَا خَسْرَةٌ تبعثُ الأسى ليس إلَّا
وهي حسنة طويلة.

إبراهيم بن محمد بن مُفَرِّج بن هَمْشَك^(٤)

المتأمر، رومي^(٥) الأصل.

أُولَئِيتِه: مُفَرِّج أو هَمْشَك، من أجداده، نصراني، أسلم على يدي أحد ملوك بني هود بسرْقُسطه؛ نزح إليهم، وكان مقطوع لإحدى الأذنين، فكان النصراني إذا رآه

(١) هو محمد بن أحمد بن علي بن شبرين، وترجمته في الكتيبة الكامنة (ص ١٦٦)، وتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٩٠)، واللمحة البدرية (ص ٦٤، ٩٠، ٩٨)، ونفع الطيب (ج ٨ ص ٨٥). وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الثاني من الإحاطة.

(٢) في الأصل: «فعلت» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في الأصل: «عَبْرَةٌ» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) ترجمة ابن همشك في الحلة السراء (ج ٢ ص ٢٥٨) وجاء فيه أنه إبراهيم بن أحمد بن همشك، وفي أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١، ٢٦٣) وجاء فيه أنه إبراهيم بن أحمد بن مفرج بن همشك، وأنه يكنى أبا الحسن، وفي البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٧٤) وصفحات غير متفرقة، وفي المنى بالإمامة (ص ١٣٧، ١٨١) وجاء فيهما أنه: إبراهيم بن همشك، والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٣٠، ضمن ترجمة اليعمري)، والأعلام (ج ١ ص ٢٩).

(٥) المقصود بالرومي: النصراني الإمبراني.

في القتال عرفوه، وقالوا: هَامُشِك، معناه ترى المقطوع الأذن، إذ «ها» عندهم قريب مما هي في اللغة العربية، و«المُشِك» المقطوع الأذنين في لغتهم^(١).

نباهته وظهوره: ولَمَّا خرج بنو هود عن سرقسطة، نشأ تحت خمول، إلا أنه شهم متحرك، خدم بعض الموحدين في الصيد، وتوسل بدلالة الأرض؛ ثم نزع إلى ملك قشتالة واستقر مع النصارى؛ ثم انصرف إلى بقية اللُمْتُونِيين^(٢) بالأندلس بعد شفاعه وإظهار توبة. ولَمَّا وُلِّي يحيى بن غايّة قرطبة، اُزْتُسِمَ لديه برسمه. ثم كانت الفتنة عام تسعة وثلاثين وثار ابن حَمْدِين بقرطبة، وتسمى بأمير المؤمنين، فبعثه رسولاً ثقة بكفايته ودربته وعُجْمَة لسانه؛ لمحاولة الصلح بينه وبين ابن حَمْدِين، فأغنى ونبّه قَدْرَه؛ ثم غلب مِرْجَل الفتنة وكثر الثوار بالأندلس، فاتصل بالأمير ابن عياض بالشرق وغيره، إلى أن تمكّن له الامتزاز^(٣) بحصن شَقُوبِش، ثم تغلب على مدينة شَقُورَة^(٤) وتملكها وهي ما هي من النعمة، فغلظ أمره، وساوى محمد بن مُردْنِيش^(٥) أمير الشرق وداخله، حتى عقد معه صِهْرًا على ابنته، فانتصت له الرياسة والإمارة. وكان يُعَدُّ سيقاً لصهره المذكور، مُسَلِّطًا على مَنْ عصاه، فقاد الجيوش، وافتتح البلاد إلى أن فَسَدَ ما بينهما، فتفاتنا وتقاطعا، وانحاز بما لديه من البلاد والمعازل، وعُدَّ من ثوار الأندلس أولي الشوكة الحاذة، والبأس الشديد، والشبا المرهوب. وآثاره بعد انقباض دولته تشهد بما تأثّل من مُلك وسَلَف من الدولة؛ والدار الآخرة خير لِمَنْ اتَّقَى. قال ابن صفوان: [الخفيف]

وديارُ شكوى الزمان فَتَشُكُّ حَدَّثْنَا عن عَزَّةِ ابنِ هَمُشِك

حاله: قال محمد بن أيوب بن غالب، المدعو بابن حمامة: أبو إسحق الرئيس، شجاع بُهْمَة^(٦) من البُهم. كان رئيسًا شجاعًا مقدامًا شديد الحزم، شديد

(١) المُشِك بلغة الإسبان: mocho، وتعني المقطوع الرأس.

(٢) اللُمْتُونِيون: هم المرابطون، ويُنسبون إلى قبيلة لمتونة.

(٣) الامتزاز هنا بمعنى الامتناع.

(٤) شقورة، بالإسبانية Segura de Sierra: مدينة من أعمال جيان بالأندلس. الروض المعطار (ص ٣٤٩).

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامي ابن مردنیش، أمير شرق الأندلس (مرسية وبلنسية). توفي بمرسية سنة ٥٦٧ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٥٩)، والامن بالإمامة (ص ١٠٩، ٢١٠)، والحلة السرياء (ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٣).

(٦) البُهْمَة: الشجاع الذي لا يُدرى من أين يأتي لشدة بأسه، أو كيف يؤتى لاستبهام حاله. محيط (بهم).

الرأي، عارقاً بتدبير الحرب، حمي الأنف، عظيم السطوة، مشهور الإقدام، مُرتكباً للعظيمة. قال بعض مَنْ عرّف به من المؤرخين: وهو وإن كان قائد فرسان، هو حليفٌ فتنه وعُذوان، ولم يصحب قطُ متشرّعاً، ولا نشأ في أصحابه مَنْ كان متورّعاً، سلّطه الله على الخلق وأملى له فأضرَّ بمن جاوره من أهل البلاد، وحُبب إليه العيث في العباد.

سيرته: كان جبّاراً قاسياً، فظاً غليظاً، شديد التّكال، عظيم الجراة والعبث بالخلق؛ بلغ من عيئه فيهم إحراقهم بالنار، وقذفهم من الشواحق والأبراج، وإخراج الأعصاب والرباطات على ظهورهم، عن أوتار القيسي بزعمه، وضُمّ أغصان الشجر العادي بعضها إلى بعض، وربط الإنسان بينها، ثم تسريحها، حتى يذهب كل غصن بحظّه من الأعضاء؛ ورآه بعض الصالحين في النوم بعد موته، وسأله ما فعل الله بك فأنشده: [البسيط]

مَنْ سرّه العيثُ في الدنيا بِخَلْقَةٍ مَنْ يَصُورُ الْخَلْقَ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَا
فَلْيُضِيرِ الْيَوْمَ صَبْرِي تَحْتَ بَطْشَتِهِ مَغْلَلًا يَمْتَطِي جَمَرَ الْغَضَا قَرْشَا

شجاعته: زعموا أنه خرج من المواضع التي كانت لنصره مُتَّصِداً، وفي صحبته محاولو اللهو وقارعو أوتار الغناء، في مائة من الفرسان، ونقاوة أصحابه؛ فما راعهم إلّا خيل العدو هاجمة على غرّة، في مائتي فارس ضِعْفُ عددهم؛ فقالوا: العدو في مائتي فارس، فقال: وإذا كنتم أنتم لمائة، وأنا لمائة، فنحن قدرهم؛ فعذّ نفسه بمائة. ثم استدعى قَدْحاً من شرابه، وصرف وجهه إلى الْمُغْنِي؛ وقال: أعد لي تلك الآيات، كان يغني بها فتعجبه: [الخفيف]

يَتَلَقَى النُّدَا بِوَجْهِ حَيِّي وَصُدُورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَاح
هَكَذَا هَكَذَا تَكُونُ الْمَعَالِي طُرُقُ الْجِدِّ غَيْرُ طُرُقِ الْمَزَاح

فَعَثَاهُ بها، واستقبل العدو، وحمل عليه بنفسه وأصحابه، حملة رجل واحد، فاستولت على العدو الهزيمة، وأتى على معظمهم القتل، ورجع غانماً إلى بلده. ثم ضربت الأيام، وعادوا التّصيد في موضعه ذلك، وأطلق بازّه على حَجَلَةٍ، فأخذها، وذهب ليذكيها، فلم يحضره خنجرُ ذلك الغرض في الوقت، فبينما هو يلتبسُه، إذ رأى نصلاً من نِصَالِ الْمُغْتَرِكِ من بقايا يوم الهزيمة، فأخذه من التراب، وذبح به الطائر، ونزل واستدعى الشراب؛ وأمر المغني فَعَثَاهُ بيتي أبي الطيب^(١):

(١) هما مطلعاً قصيدة مديح من ٤٧ بيتاً، وهما في ديوان المتنبّي (ص ٤١١).

[الطويل]

تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنَ الْعُذَيْبِ وَبَارِقٍ مَجَرَّ عَوَالِينَا وَمَجَرَى السَّوَابِقِ
وَصُحْبَةً قَوْمٍ يَذْبَحُونَ قَنِيصَهُمْ بِفَضْلَاتٍ^(١) مَا قَدْ كَسَرُوا فِي الْمَفَارِقِ
وقد رأيت مَنْ يروي هذه الحكاية عن أحد أمراء بني مرزنيش، وعلى كل حال فهي من مُسْتَظَرَف الأخبار.

دخوله غرناطة: قالوا، وفي سنة ست وخمسين وخمسمائة^(٢)، في جمادى الأولى منها، قصد إبراهيم بن هُمُشك بجمعه مدينة غرناطة، وداخل طائفة من ناسها، وقد تشاغل الموحدون بما دهمهم من اختلاف الكلمة عليهم بالمغرب، وتوجّه الوالي بغرناطة السيد أبي سعيد إلى العُدوة، فاقتحمها ليلاً واعتصم الموحدون بقصبتها؛ فأجاز بهم بأنواع الحرب، ونصب عليهم المجانيق، ورمى فيها مَنْ ظَفِرَ به منهم وقتلهم بأنواع من القتل. وعندما اتصل الخبر بالسيد أبي سعيد، بادر إليها فأجاز البحر، والتفّ به السيد أبو محمد بن أبي حفص بجميع جيوش الموحدون والأندلس؛ ووصل الجميع إلى ظاهر غرناطة، وأصحّر إليهم ابن هُمُشك، وبرز منها، فالتقى الفريقان بمرج الرقاد^(٣) من خارجها، ودارت الحرب بينهم، فانهزم جيش الموحدون، واعترضت الفلّ تُخُومُ الفدادين^(٤) وجداول المياه التي تتخلّل المَرَج^(٥)، فاستولى عليهم القتل، وقتل في الواقعة السيد أبو محمد؛ ولحق السيد أبو سعيد بمالقة؛ وعاد ابن هُمُشك إلى غرناطة فدخلها بجُملة من أسرى القوم، أفحش فيهم المثلّة، بمرأى من إخوانهم المَنُحَصَرِينَ؛ واتصل الخبر بالخليفة بمراكش، وهو بمَقَرَبَةِ سَلَا، قد فرغ من أمر عدوّه، فجهّز جيشاً، أصحبه السيد أبا يعقوب ولده، والشيخ أبا يوسف بن سليمان زعيم وقته، وداهية زمانه؛ فأجازوا البحر، والتقوا بالسيد أبي سعيد بمالقة،

(١) في الديوان: «بفضلة».

(٢) في أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١) تحدّث ابن الخطيب عن هذه المعركة وقال إن ابن مرزنيش وجّه صهره القائد أبا الحسن ابن هُمُشك إلى محاصرة غرناطة في جمادى الأولى من عام ٥٥٧ هـ.

(٣) مرج الرقاد: موضع بظاهر غرناطة، على نحو أربعة أميال من غرناطة، ويقابلها بالإسبانية: Merrojal. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٦١)، وتاريخ المن بالإمامة (ص ١٨٧)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٢٥٨).

(٤) الفدادون: الرعيان والبِقَارُونَ والفلاحون والمُكثِرُونَ من الإبل، والمراد هنا: الحدائق والبقاع. محيط المحيط (فند).

(٥) هو مرج غرناطة الشهير، وهو عبارة عن سهل أفيح وغوطة فيحاء. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٤١).

وتتابع الجَمْع، والتفَّ بهم من أهل الجهاد من المطوعة، واتصل منهم السير إلى قرية دَلر^(١) من قرى غرناطة؛ وكان من استمرار الهزيمة على ابن هَمْشك الذي أمده بنفسه وجيشه، من نصارى وغيرهم، ما يأتي ذكره عند اسم ابن مَرْدَنِيش في الموحدين، في حرف الميم، بحول الله تعالى.

انخلاعه للموحدين عمًا بيده وجوازه للعدوة، ووفاته بها:

قالوا^(٢): ولَمَّا فَسَدَ ما بينه وبين ابن مردنیش بسبب بنته التي كانت تحت الأمير أبي محمد بن سعد بن مردنیش إلى أن طلقها، وانصرفت إلى أبيها، وأسلمت إليه ابنها منه، مختارة كَتَفَ أبيها إبراهيم، نازعة في انصرامه إلى عروقها؛ فلقد حُكِيَ أنها سَلَّت عن ولدها، وإمكان صَبْرها عنه، فقالت: جَزُوْ كَلْبٍ، جرو سوء، من كلب سوء، لا حاجة لي به؛ فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً؛ فاشتدت بينهما الوحشة والفتنة، وعظمت المحنة، وهلك بينهما من الرعايا المَمرورين، المضطرين، بقِيَّة^(٣) الثَّوار مَن شاء الله بهلاكه، إلى أن كان أقوى الأسباب في تدمير مُلكه.

ولَمَّا صرف ابن سعد عزمه إلى بلاده، وتغلب على كثير منها، خدم ابن هَمْشك الموحدين ولأدبهم واستجارهم؛ فأجاز البحر، فَقَدِمَ على الخليفة عام خمسة وستين وخمسمائة، وأقره بمواضعه؛ إلى أوائل عام أحد وسبعين، فطُولِبَ بالانصراف إلى العدو بأهله وولده، وأُسْكِنَ مِكناسَة وأقْطِعَ بها سَآمًا^(٤) لها خطر، واتصلت تحت عنايته إلى أن هلك.

وفاته: قالوا: واستمرَّ مقام ابن همشك بمكناسة غير كبير، وابتلاه الله بفالج غريب الأعراض، شديد سوء المزاج، إلى أن هلك؛ فكان يدخل الحمام الحار، فيشكو حرّه بأعلى صراخه، فيخرج، فيشكو البرد كذلك، إلى أن مضى سبيله^(٥).

إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي
سعيد عثمان بن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب
ابن عبد الحق

يكنى أبا سالم.

(١) دَلر: بالإسبانية Dilar وهي قرية ما تزال حتى اليوم، وتقع جنوب غرناطة، ووادي دَلر Río Dilar قريب من قرية الهمدان. تأريخ المن بالإمامة (ص ١٩١).

(٢) قارن بتاريخ المن بالإمامة (ص ٤١٣). (٣) قينة الثوار: حظيرتهم.

(٤) السَّآم والسَّوام: الإبل الراحية. (٥) توفي ابن همشك في عام ٥٧٢ هـ.

أُولَيْتُهُ: الشمس تخبر عن جلي وعن حُلَل. فهو البيت الشهير، والجلال الخطير، والمُلْك الكبير، والفُلْك الأثير، ملاك المسلمين، وحُماة الدين، وأمراء المغرب الأقصى من بني مَرين، غيوث المواهب؛ وليوث العرين، ومعتمد الصُّريخ، وسهام الكافرين. أبوه السلطان أبو الحسن، الملك الكبير، البعيد شأو الصَّيت والهِمة والعزيمة، والتحلي بَحَلِي السُّنة، والإقامة لرسوم المُلْك، والاضطلاع بالهِمة، والصبر عند الشدة. وأخوه أمير المسلمين فذلَّكَ الحَسب، وثير النَّصبة، وبَذرة المعدن، وبيت القصيد، أبو عنان، فارس، الملك الكبير، العالم المُتبحر، العاقل النظَّار، الجواد، الشجاع، القُصُور، الفصيح، مدد السعادة، الذي خرق الله به سياج العادة، فما عسى أن يطلَّب اللسان، وأين تقع العبارة، وماذا يحضُر الوصف. عينُ هذا المجد فواره، وحَسَبُ هذا الحَسب اشتهاره، قولًا بالحق، ويُعدَّا عن الإطراء، ونشرًا للواء النَّصفة، حفظ الله على الإسلام ظلَّهم، وزين ببدور الدين والدنيا هالتهم، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم.

حاله: كان شابًا كما تَطَّلَع وَجْهُه، حسن الهيئة، ظاهر الحياء والوقار، قليل الكلام، صليفة عن اللفظ، آدَم اللون^(١)، ظاهر السكون والخيرىة والحشمة، فاضلاً متخلِّقاً. قدَّمه أبوه، أمير الرتبة، مُوقِي الألقاب، بوطن سيجلُماسَة، وهي عمالة ملكهم، فاستحقَّ الرتبة في هذا الباب بمزيد هذه الرتبة المشترط لأول تأليفه. ولَمَّا قبضه الله إليه، واختار له ما عنده، أحوج ما كانت الحال إلى مَنْ ينظم السَّت، ويجمع الكلمة، ويصون الدِّما سبحانه أحوج ما كانت الدنيا إليه، وصير إلى وارثه طواعية وقسراً ومستحقاً وغلاباً، وسِلْماً، وذاتاً وكَسْباً، السلطان أخيه، تحصل هو وأخ له اسمه محمد، وكنيته أبو الفضل، يأتي التعريف بحاله في مكانه إن شاء الله، فأبقى، وأغضى، واجتنب الهوى، وأجاب داعي البرِّ والشفقة والتقوى، فصرفهما إلى الأندلس؛ باشرتْ إركابها البحر بمدينة سَلَّا ثاني اليوم الذي انصرفت من بابه، وصدرتْ عن بحر جوده، وأقضتْ بإمامة عنايته، مُضْحَباً بما يعرض لسان الثناء من صنوف كرامته، في غرض السَّفارة عن السلطان بالأندلس، تخمده الله برحمته، ونزل مَرْبَلَةً من بلاد الأندلس المصروفة إلى نظره، واصلاً السير إلى غرناطة.

دخوله غرناطة: قَدِيم هو وأخوه عليها، يوم عشرين من جُمادى الأولى، من عام اثنين وخمسين وسبعمائة. وبرز السلطان إلى لقائهما، إبلاغاً في التَّجَلَّة،

(١) آدَم اللون: أسمر. لسان العرب (آدم).

وانحطاطاً في ذمة الثخلق، فسعى إليه مُرتَجِلين، وفاوضهما، حتى قُضِيَت الحقوق، واستفُزجت تفقده وجرائته، وحلًا بأحظى الأمكنة، واختفياً في سرير مجلسه مقسوم بينهما الحظ، من هشيته ولَحْظته. فأما محمد، فسوّلت له نفسه الأطماع، واستفُزته الأهواء، أمراً كان قاطع أجله، وسعد أخيه، اختاره الله من دونه. وأمّا إبراهيم المترجم به، فجنّح إلى أهل العافية، بعد أن ناله اعتقال، بسبب إرضاء أخيه أمير المسلمين فارس، في الأخريات لشهر ذي حجة من عام تسعة وخمسين وسبعمائة، وتقديماً ولده الصبي، المُكنى بأبي بكر، المسمى بسعيد؛ لنظر وزيره في الحزم والكفاية، حرّكه الاستدعاء، وأفلقته الأطماع وهبّ به السائل، وعرض بغرضه إلى صاحب الأمر بالأندلس، ورفق عن صبوحه، فشكا إلى غير مُصمت، فخرج من الحضرة ليلاً من بعض مجاري المياه، راكباً للخطر، في أخريات جمادى الأولى من العام بالحضرة المكتبة الجوار، من ثغور العدو، ولحق بملك قشتالة، وهو يومئذ بإشبيلية، قد شرع في تجرية إلى عدوه من برجلونه، فطرح عليه نفسه، وعرض عليه مخاطبات استدعائه، ودسّ له المطاعم المرتبطة بحصول غايته، فقبل سعايته، وجّهز له جفّناً من أساطيله، أركب فيه، في طائفة تحريكه، وطعن بحر المغرب إلى ساحل أزمور^(١)، وأقام به منتظراً إلى إنجاز المواعد، ممّن بمزّاكش، فألفى الناس قد خطّبوا في حبل منصور بن سليمان، وبإيعوه بجملتهم، فأخفق مسعاه، وأخلف ظنه، وقد أخذ منصور بمُخَنّق البلد الجديد دار مُلك فاس، واستوثق له الأمر، فانصرف الجفّن أدراجه. ولمّا حاذى لبلاد غُمارة من أحواز أصيلا^(٢). تنادى^(٣) به قوم منهم، وانحدروا إليه، ووعدوه الوفاء له، فنزل إليهم، واحتملوه فوق أكتادهم، وأحدقوا به في سفح جبلهم، وتنافسوا في الدبّ عنه، ثم كبسوا أصيلاً فملكوها، وضيق بطنجة، فدخلت في أمره، واقتدت بها سبّنة وجبل الفتح، واتصل به بعض الخاصة، وخاطبه الوزير المحصور، وتخاذل أشياخ منصور، فخذلوه، وفزوا عنه جهازاً بغير علة، وانصرف الوجوه إلى السلطان أبي سالم، فأخذ بيعاتهم عفّواً، ودخل البلد المحصور، وقد تردّد بينه وبين الوزير المحصور مخاطبات في ردّ الدعوة إليه، فدخل البلد يوم الخميس خامس عشر^(٤) شعبان من عام التاريخ، واستقرّ وجدّد الله عليه أمره، وأعاد مُلكه، وصرف عليه حقّه؛ وبلي هذا الأمير من سير الناس إلى تجديد

(١) أزمور أو أزمورة: بلد بالمغرب في جبال البربر. معجم البلدان (ج ١ ص ١٦٩).

(٢) أصيلا أو أصيلة: مدينة كبيرة بقرب طنجة، كثيرة الخير والخصب، كان لها مرسى مقصود.

الروض المعطار (ص ٤٢).

(٤) في الأصل: «عشرة».

(٣) في الأصل: «تنادوا».

عهد أبيه، وطاعتهم إلى أمره، وجنوحهم إلى طاعته، وتمني مدته، حال غريبة صارت عن كُتِب إلى أضدادها، فصرف ولده إلى اجتثاث شجرة أبيه، فالتقط من الصبية بين مُراهق ومُحتلم ومُستجمع، طائفة تناهز العشرين، غلماناً رَذَنَةً، قُتلوا إغراقاً من غير شُفْعة توجب إباحة قطرة من دمانهم، ورأى أن قد خلا له الجوّ، فتواكل، وآثر الحُجْبة، وأشرك الأيدي في مُلكه، فاستبيحت أموال الرعايا، وضائق الجبايات، وكثرت الظلامات، وأخذ الناس حرماناً العطاء، وانفتحت أبواب الإرجاف، وحُدَّت أبواب القواطع، إلى أن كان من أمره ما هو معروف.

وفي أول من شهر رجب عام واحد وستين وسبعمائة، تحرّك الحركة العظمى إلى يَلِمَسَان، وقد استدعى الجهات، وبعض البلاد، ونَهَدَ في جيوش تجرُّ الشوك والحَجَر، ففرَّ سلطانها أمام عزمه، وطار الدُّعْر بين يدي الضلالة، وكنا قد استغنا القرار في إيالته، وانتهى بنا الإزعاج إلى ساحل سَلَا من ساحل مملكته فخاطبته وأنا يومئذٍ مقيم بثربة أبيه، مُتَدَمِّمٌ بها، في سبيل استخلاص أملاكي بالأندلس، في غرض التهتة والتوسل:

«مولاي، فتّاح الأقطار والأنصار، فائدة الزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قدوة أولي الأيدي والأبصار».

وفاته: وفي ليلة العشرين من شهر ذي قعدة من عام اثنين وستين وسبعمائة، ثار عليه بدار المُلك، وبلد الإمارة المعروف بالبلد الجديد، من مدينة فاس، الغادرُ مُخْلِفُهُ عليها عمر بن عبد الله بن علي، نَسَمَةُ السوء، وجُمْلَةُ الشؤم، المثل البعيد في الجرأة على قَدَر، اهتبل^(١) غرة انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم، مُحْتَوِلاً إليه، حَذِراً من قاطع فلكني الجدر منه استعجله ضعف نفسه، وأعاناه على فرض صحته به، وسدَّ الباب في وجهه، ودعا الناس إلى بيعة أخيه المعتوه، وأصبح حائراً بنفسه، يروم استرجاع أمر ذهب من يده، ويطوف بالبلد، يلتمس وجهها إلى نجاح حيلته، فأعياه ذلك، ورَشَقَتْ مَنْ معه السهام، وفرَّت عنه الأجناد والوجوه، وأسلمه الدهر، وتبرأ منه الجُدُّ. وعندما جرَّ عليه الليل، فرَّ على وجهه، وقد التفت عليه الوزراء، وقد سُفِّهَتْ أحلامهم، وقالت آراؤهم، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيع، لوَلُّوا وجوههم شطر مظنة الخلاص، واتَّصفوا بعذار الإقلاع، لكنهم نكلوا عنه، ورجعوا أدراجهم، وتسَلَّلُوا راجعين إلى بَرِّ غادرِ الجُمْلَةِ، وقد سلبهم الله لباس الحياء والرُّجلة، وتأذَّن الله لهم بسوء العاقبة، وقصد بعض بيوت البادية، وقد فضحه نهار

(١) اهتبل: احتال. لسان العرب (هبل).

الغداة، واقتضى البعث أثره، حتى وقعوا عليه، وسيق إلى مصرعه، وقُتل بظاهر البلد، ثاني اليوم الذي كان غدر فيه، جعلها الله له شهادة ونفعه بها، فلقد كان بقيّة البيت، وآخر القوم، دماثة وحياة، ويُغدا عن الشرّ، وركونا للعافية.

وانشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من ظاهر المدينة، قصيدة أدبت فيها بعض حقّه: [الوافر]

بني الدنيا، بني لنع السراب، لدوا للموت وابنوا للخراب

إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر
ابن يحيى الهنتاني، أبو إسحق

أمير المؤمنين بتونس، وبلاد إفريقية، ابن الأمير أبي زكريا، أمير إفريقية، وأصل الملوك المتأثلين العزّ بها، والفرع الذي دّوح بها، من فروع الموحدّين بالمغرب، واستجلّاه بها أبا محمد عبد المؤمن بن علي، أبا الملوك من قومه، وتغلّب دُرته على المغرب وإفريقية والأندلس معروف كله، يفترق بسطه إلى إطالة كثيرة، تخرج عن الغرض.

وكان جدّ هؤلاء الملوك من أصحاب المهدي، في العشرة الذين هبوا لبيعته، وصحبوه في غرّيته، أبو حفص، عمر بن يحيى، ولم يزل هو وولده من بعده، مرفوع القدر، معروف الحق.

ولما صار الأمر للناصر^(١) أبي عبد الله بن المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي، صرف وجهه إلى إفريقية، ونزل بالمهديّة، وتلوّك إليه ابن غانية^(٢) فيمن لفّه من العرب والأويّاش، في جيش يسوق الشجر والمدر، فجهّز إلى لقائه عسكرياً لنظر الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص^(٣)، جذهم الأقرب،

(١) الناصر أبو عبد الله هو محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدّ، حكم الأندلس والمغرب من سنة ٥٩٥ هـ إلى سنة ٦١٠ هـ. وترجمته في البيان المغرب - قسم الموحدّين (ص ٢٣٦).

(٢) هو أبو زكريا يحيى بن إسحق المسوفي، المعروف بابن غانية، أمير مرسية وبلنسية وقرطبة وغرب الأندلس من قبل علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي. قاوم الموحدّين في أول استيلائهم على الأندلس فقتلوه سنة ٥٤٣ هـ.

(٣) هو عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني الحفصي، مؤسس دولة الحفصيين بإفريقية. كان أبوه من موطّدي دعائم الحكم لعبد المؤمن الموحدّ. استوزره الناصر الموحدّ ثم ولّاه تونس سنة ٦٠٣ هـ. وتوفي بها سنة ٦١٨ هـ، وليس سنة ٦٢٩ هـ كما سيأتي بعد.

فخرج من ظاهر المهديّة في أفة ضخمة، وتعبئة محكمة، والتقى الجمعان، فكانت على ابن غانية، الدائرة، ونصر الشيخ محمد نصرًا لا كفاء له، وفي ذلك يقول أحمد بن خالد من شغل عندهم: [الطويل]

فتوح بها شدت غرى الملك والدين تراقب منا منكم غير ممنون

وفتحت المهديّة على هيئة ذلك الفتح، وانصرف الناصر إلى تونس، ثم تفقد البلاد، وأحكم ثقافتها^(١)، وشرع في الإياب إلى المغرب، وترجع عنده تقديم أبي محمد بن أبي حفص المضئوع له بإفريقية، على ملكها، مستظهرًا منه بمضاء وسابقة وحزم؛ بسط يده في الأموال، وجعل إليه النظر في جميع الأمور، سنة ثلاث وستمئة. ثم كان اللقاء بينه وبين ابن غانية في سنة ست بعدها؛ فهزم ابن غانية، واستولى على محلته؛ فاتصل سعدة، وتوالى ظُهره، إلى أن هلك مُشايعًا لقومه من بني عبد المؤمن، مظاهرًا بدعوتهم عام تسعة وعشرين وستمئة^(٢).

وولي أمره بعده، كبير ولده، عبد الله، على عهد المستنصر بالله بن الناصر من ملوكهم؛ وقد كان الشيخ أبو محمد زُوحم، عند اختلال الدولة، بالسيد أبي العلاء الكبير، عم أبي المستنصر على أن يكون له اسم الإمارة بقصبة تونس، والشيخ أبو محمد على ما لسائر نظره؛ فبقي ولده عبد الله على ذلك بعد، إلى أن كان ما هو أيضًا معروف من تصير الأمر إلى المأمون أبي العلاء إدريس، ووقعه السيف في وجوه الدولة بمراكش، وأخذ بهزة^(٣) أخيه وعمه منهم. وثار أهل الأندلس على السيد أبي الربيع بعده بإشبيلية وجعجعوا بهم، وأخذوا في التشريد بهم، وتبديد دعوتهم؛ واضطربت الأمور، وكثر الخلاف، ولحق الأمير أبو زكريا بأخيه بإفريقية، وعرض عليه الاستبداد، فأئف من ذلك، وأنكره عليه إنكارًا شديدًا، خاف منه على نفسه؛ فلحق بقابس فأزا، واستجمع بها مع شيخها مكي، وسلف شيوخها اليوم من بني مكي؛ فمهد له، وتلقاه بالرحب، وخاطب له الموحدين سرًا، فوعده بذلك، عند خروج عبد الله من تونس إلى الحركة، من جهة القيروان. فلما تحرك نحو عليه، وطلبوا منه المال، وتلكأ، فاستدعوا أخاه الأمير أبا زكريا، فلم يرعه وهو قاعد في خبائه أمين في سربه، إلا ثورة الجند به، والقبض عليه، ثم طردوه إلى مراكش؛ وقعد

= قليل. انظر الأعلام للزركلي (ج ٤ ص ١٧٦) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(١) أحكم ثقافتها: أحكم تحصينها؛ من قوله: ثقفه بالرمح: أي طعنه. لسان العرب (تقف).

(٢) تقدّم في الصفحة السابقة أن وفاة عبد الواحد بن أبي حفص كانت سنة ٦١٨ هـ.

(٣) الهزة: الطعنة الكثيرة الدم، والمراد أنه أخذ بالثار.

أخوه الأمير أبو زكريا مقعده، وأخذ بيعة المجند والخاصة لنفسه، مستبداً بأمره، ورَحَلَ إلى تونس، فأخذ بيعة العامة، وقتل السيد الذي كان بقَصَبَتِها؛ وقبض أهل بجاية حين بلغهم الخبر على واليها السيد أبي عمران، فقتلوه تَغْرِيقًا؛ وانتظمت الدولة، وتأنل الأمر. وكان حازماً داهية مُشَارِكًا في الطُّلب، أديباً راجح العقل، أصيل الرأي، حَسَن السياسة، مَصْنُوعاً له، مُوفِّقاً في تدبيره؛ جَبَى الأموال، واقتنى العُدَد، واصطنع الرجال، واستكثر من الجيش، وهزم العرب، وافتتح البلاد، وعظمت الأمانة بينه وبين الخليفة بمراكش الملقَّب بالسعيد. وعزم كلُّ منهما على ملاقة صاحبه، فأبى القَدَر ذلك؛ فكان من مهلك السعيد بظاهر تِلْمَسَان ما هو معروف. واتصل بأبي زكريا هَلَكُ ولده ولي العهد أبي يحيى ببجاية، فعظم عليه حزنه وأقْرَط جزعُه، واشتهر من رثائه فيه قوله: [الطويل]

ألا جازعٌ يبكي لفقد حبيبه	فلاني لعمري قد أضرب بي الثُّكلُ
لقد كان لي مالٌ وأهل فقدتهم	فهنا لا مالٌ لديّ ^(١) ولا أهلُ
سأبكي وأرثي حَسْرَةً لفراقهم	بكاء قريح لا يَمَلُّ ولا يَسْلُو ^(٢)
فلَهْفِي ليومٍ فرَّق الدهرُ بيننا	ألا قَرَجٌ يُزجى فينتظم الشُّملُ؟
وإني لأرضى بالقضاء وحُكْمه	وأعلم ربِّي أنه حاكم عَدْلُ

نسبه ابنُ عَذاري المراكشي في البيان المُغرب^(٣). واعتلَّ بطريقه فمات ببِلَد العُتَاب لانقضاء أربعة من مهلك السعيد؛ وكان موت السعيد؛ يوم الثلاثاء، مُنْسَلَخ صفر سنة ست وأربعين وستمائة. ويوبع ولده الأمير أبو عبد الله بتونس وسنَّه إحدى وعشرين سنة، فوجد مُلْكًا مُؤَسَّسًا، وَجُنْدًا مُجَنَّدًا، وسلطانًا قاهرًا ومالًا وافراً؛ فبلغ الغاية في الجَبَرُوت والثَّيَّة والنُّخوة والصُّلف، وتسمَّى بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالمستنصر بالله؛ ونَقِم عليه أرباب دولته أمورًا أَوْجَبَت مداخله عمَّه أبي عبد الله بن عبد الواحد، المعروف بالبحياني. ومبايعته سرًّا بداره، وانتهى الخبر للمستنصر، فعاجل الأمر قبل انتشاره برأي الحَزْمَة من خاصَّته، كابن أبي الحسين، وأبي جميل بن أبي الحَمَلات بن مَرْدَنِيش، وظافر الكبير، وقصدوا دار عمَّه فكبَسوها، فقتلوا مَنْ كان بها، وعُدَّتْهم تناهز خمسين، منهم عمَّه، فسكن الإرجاف، وسَلِمَ المنازع، وأعطت

(١) في الأصل: «... لديّ أهل ولا أهل». وهكذا لا يستقيم الوزن والمعنى.

(٢) في الأصل: «ولا يَسْلُو».

(٣) نسب أبي عبد الله الناصر لدين الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن في البيان المغرب - قسم الموحدون (ص ٢٣٦).

مقادها، واستمرت أيامه. وأخبره في الجود والبُجْراء والتعاضم على ملوك زمانه، مشهورة. وكانت وفاته سنة أربع وسبعين وستمائة وولّي أمره بعده ابنه الملقّب بالوائق بالله، وكان مضطرباً، ولم تطل مدته.

عاد الحديث، وكان عمّه المترجم، لما اتصل به مهلك أخيه المستنصر، قد أجاز البحر من الأندلس، ولحق بيلمسان، وداخل كثيرًا من الموحدين بها، كأبي هلال، فهبّا له أبو هلال تملك بجاية، ثم تحرّك إلى تونس، فتغلب عليها، فقتل الوائق وطائفة من إخوته وبنيه، منهم صبيّ يسمى الفضل، وكان أنقضهم، واستبدّ بالأمر، وتمت بيعته بإفريقية، وكان من الأمر ما يذكر.

حاله: كان أيّداً^(١)، جميلاً وسيماً، ربعة بادناً، آدم اللون، شجاعاً بهمة، عَجلاً غير مَرّاح، ولا حازم، منحطاً في هوى نفسه، مُنقاداً للذّته، بريئاً من التّشمت في جميع أمره. وولّي الخلافة في حال كِبَره، وخطه الشيب، وآثر اللهو، حتى زعموا أنه قد فوجّد في مزرعة باقلا مزهرة ألقي فيها بعد جهد، نائماً بينها، نشوان يتناثر عليه سقطها؛ واحتجب عن مباشرة سلطانه؛ فزعموا أن خالسته^(٢) أبا الحسن بن سهل، داخل الناس بولده أبي فارس في خلعه، والقيام مكانه، وبلغه ذلك، فاستعدّ وتأهب، واستركب الجند، ودعا ولده، فأحضره ينتظر الموت من يمينه وشماله، وأمر للحين فقتل وطرح بأزقة المدينة، وعجل بإزعاج ولده إلى بجاية، وعاد إلى حاله.

دخوله غرناطة: قالوا: ولما أوقع الأمير المستنصر بعنه أبي عبد الله، كان أخوه أبو إسحق، ممن فرّ بنفسه إلى الأندلس؛ ولجأ إلى أميرها أبي عبد الله بن الغالب بالله أبي عبد الله بن نصر، ثاني ملوكهم^(٣) فنوّه به، وأكرم نّزله، وبوّاه بحال عنايته، وجعل دار ضيافته لأول نزوله القصر المنسوب إلى السّيد^(٤) خارج حضرته،

(١) الأيد: القوي. لسان العرب. (أيد).

(٢) الخالصة هنا: الصّفّي وموضع الثقة. لسان العرب (خلص).

(٣) هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، وقد حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ إلى سنة ٧٠١ هـ. ترجمته في اللّحة البدرية (ص ٥٠) وسترده له ترجمة إضافية في هذا الجزء من الإحاطة.

(٤) هو أبو إسحق بن يوسف الموحدي، وُلّي غرناطة سنة ٦١٥ هـ، وبنى قصرًا خارج مدينة غرناطة عُرِفَ باسمه. وفي عصر بني نصر استعمل هذا القصر للضيافة. وما يزال حتى يومنا هذا بعض منه وقد زرتة غير مرة، وهو عبارة عن بهو مربع ذي قبة عالية على جوانبها شعار بني نصر: «لا غالب إلا الله».

وهو أثر قصوره لديه، وحضر غزوات أغزاها ببلاد الروم، فظهر منه في نكاية العدو وصدامه سهولة وغناء.

ولما اتصل به موت أخيه تعجل الانصراف، ولحق بتلمسان، وداخل منها كبيراً من الموحددين، يُعرف بأبي هلال بياجة كما تقدم، فملكه أبو هلال منها بجاية، ثم سعد تونس فملكها، فاستولى على ملك ابن أخيه وما ثم من دمه، وارتكب الوزر الأعظم فيمن قُتل معه، وكان من أمره ما يأتي ذكره إن شاء الله.

إدبار أمره بهلاكه على يد الدهي الذي قبضه الله لهلاك حينه:

قالوا: وأنهم بعد استيلائه على الأمر فتى من أخضاء فتیان المستنصر؛ اسمه نُصير، بمال وذخيرة؛ وتوجه إليه طلبه، ونال منه. وانتهاز الفتى فرصة لحق فيها بالمغرب واستقر بجلال المراعاة من عرب دباب، وشارع الفساد عليه، بجملته جهده، حريصاً على إفساد أمره، وعثر لقضاء الله وقدره بدعي من أهل بجاية يُعرف بابن أبي عمارة.

حدثني الشيخ المُسنّ الحاج أبو عثمان اللواتي من عدول المياسين، متأخر الحياة إلى هذا العهد؛ قال: خُضْتُ مع ابن أبي عمارة ببعض الدكاكين بتونس، وهو يتكهن لنفسه ما آل إليه أمره، ويعدّ بعض ما جرى به القدر. وكان أشبه الخلق بأحد الصبية الذين ماتوا ذبحاً، بالأمير أبي إسحق، وهو الفضل، فلاحث لنُصير وجهه حيلته، فبكى حين رآه، وأخبره بشبهه بمولاه، ووعدته الخلافة؛ فحزك نفساً مُهيأة في عالم الغيب المحجوب إلى ما أبرزته المقادر، فوجده منقاداً لهواه، فأخذ في تلقينه القاب المُلك، وأسماء رجاله، وعوائده، وصفة قصوره، وأطلعه على إمارات جرت من المستنصر لأمراء العرب سرّاً كان يعالجها نُصير، وعرضه على العرب، بعد أن أظهر العويل، ولبس الحداد، وأركبه، وسار بين يديه حافياً، حُزناً لما ألفاه عليه من المضيق، وأسفاً لما جرى عليه، فبايعته العرب النافرة، وأشادوا بذكره، وتقووا بما قرّره من إمارته؛ فعظم أمره، واتصل بأبي إسحق نبأه فبرز إليه، بعد استدعاء ولده من بجاية، فالتقى الفريقان، وتمت على الأمير أبي إسحق الهزيمة، واستلحم الكثير ممن كان معه؛ وهلك ولده، ولجأ أخوه الأمير أبو حفص لقلعة سنان، وفرّ هو لوجهه؛ حتى لحق ببجاية؛ وعاجله ابن أبي عمارة؛ فبعث جريدة من الجند لنظر أشياخ من الموحددين، أغرت إليهم الإيقاع، فوصلت إلى بجاية، فظن من رآه من القل المنهزم، فلم يعترضه مُعترض عن القُصبة. وقُبض على الأمير أبي إسحق، فطوّقه الجمام، واحتُرّ رأسه، ويُبعث إلى ابن أبي عمارة به، وقد دخل تونس، واستولى على مُلكها،

وأقام سنين ثلاثة، أو نحوها في نعماء لا كفاء له، واضطلع بالأمر، وعاث في بيوت أمواله، وأجرى العظائم على نسائه ورجاله إلى أن قُشَا أمره، واستقال الوطن من تمرته فيه؛ وراجع أرباب الدولة بصائرهم في شأنه، ونَهَد إليه الأمير أبو حفص طالبًا بشار أخيه، فاستولى، ودحض عاره، واستأصل شافته، ومَثَلَ به؛ والمُلْك لله الذي لا تَزِن الدنيا جناح بعوضة عنده.

وفي هذا قلت عند ذكر أبي حفص في الرجز المسمى بـ «نظم»^(١) الملوك،
المشتمل على دول الإسلام أجمع، على اختلافها إلى عهدنا، فمنه في ذكر بني حفص: [الرجز]

أولهم يحيى بن عبد الواحد	وفضلهم ليس له من جاحد
وهو الذي استبَدَّ بالأمور	وحازها ببَيِّعة الجُمهور
وعظمت في ضُقعهِ آثاره	ونال مُلْكًا عاليًا مقداره
ثم تولَّى ابنه المستنصر	وهو الذي عَلِيَّاه لا تَنحصر
أصاب مُلْكًا رئيسًا أوطانه	وافق عزًّا ساميًا سُلْطانه
ودولة أموالها مجموعة	وطاعة أقوالها مسموعة
فلم تَخَفْ من عقدها انتكاثا	وعاث في أموالها عِيَاثا
هَبَّتْ بنصر عزِّهِ الرياح	وسقيت بسعده الرُّمَاح
حتى إذا أدركه شَرَكُ الرُّدى	وانتحب الثَّادي عليه والثدى
قام ابنه اللواتق بالتدبير	ثم مضى في زمن يسير
سَطَا عليه العمُّ إبراهيم	والمُلْك في أربابه عقيم
وعن قريبٍ سلب الإمارة	عنه الدعيُّ ابن أبي عمارة
عَجِيبَةٌ من لَعِبِ الليالي	ما خَطَرَتْ لماعل ببال
واخْتَرَمَ السيفُ أبا إسحاقا	أبا هلال لَقِي المَحَاقا
واضطربت على الدُّعي الأحوال	والحق لا يغلبه المِحَال
ثم أبو حفص سما عن قرب	وصيّر الدُّعي رهين الثُّرب
ورجع الحق إلى أهليه	وبعده محمد يليه

(١) المراد كتاب «رقم الحلل في نظم الدول»، وهو لابن الخطيب، وقد تقدم ذكره في غير مكان.

وهذه الأمور تستدعي الإطالة، مُخَلَّةً بالغرض، وَمَقْصِدِي أَنْ أَسْتَوْفِي مَا أَمَكَّنَ من التواريخ التي لم يتضمنها ديوان، وأختصر ما ليس بقريب، والله ولي الإعانة بمتة.

إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد
ابن سهل بن مالك بن أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي

يكنى أبا إسحق.

أُولَيْتُهُ: منزلُ جدِّهم الداخل إلى الأندلس قرية شون^(١) من عمل، أو قيل من إقليم البيرة. قال ابن البستي: بيتهم في الأزد، ومجدهم ما مثله مجد، حازوا الكمال، وانفردوا بالأصالة والجلال، مع عفة وصيانة ووقار، وصلاح وديانة، نشأ على ذلك سلفهم، وتبعهم الآن خلفهم. وذكرهم مطرّف بن عيسى في تاريخه^(٢)، في رجال الأندلس. وقال ابن مسعدة^(٣): وفقت على عقد قديم لسلفي، فيه ذكر محمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي، وقد خلّي فيه بالوزير الفقيه أبي أحمد بن الوزير الفقيه أبي عمرو إبراهيم. وتاريخ العقد سنة ثلاث وأربعمائة، فناهيك من رجال تحلّوا بالجلالة والطهارة منذ أزيد من أربعمائة سنة، ويوصفون في عقودهم بالفقه والوزارة منذ ثلاثمائة سنة، في وقت كان فيه هذا المنصب في تحلية الناس، ووصفهم، في نهاية من الضبط والجرز، بحيث لا يُتهم فيه بالتجاوز لأحد، لا سيما في العقود، فكانوا لا يصفون فيه الشخص إلا بما هو الحق فيه والصدق، وما كان قصدي في هذا إلا أن شرفهم غير واقف عليه، أو مستند في الظهور إليه، بل ذكرهم على قديم الزمان شهير وقدرهم خطير.

قلت: ولما عقد لولدي عبد الله أسعده الله، على بنت الوزير أبي الحسن بن الوزير أبي الحسن القاسم بن الوزير أبي عبد الله بن الفقيه العالم الوزير، حَزَمَ فخارهم، ومُجَدِّدِ آثارهم، أبي الحسن سهل بن مالك، خاطبتُ شيخنا أبا البركات بن

(١) شون: بالإسبانية Jùn، وتقع شمال غرناطة.

(٢) هو أبو القاسم مطرّف بن عيسى بن لبيب بن محمد بن مطرّف الغساني الإلبيري الغرناطي، من قضاة الأندلس وأديانها ومؤرخيها. توفي سنة ٣٥٦ هـ وقيل: ٣٥٧ هـ. من مؤلفاته «فقهاء البيرة» و«شعراء البيرة» و«أنساب العرب النازلين في البيرة وأخبارهم». تاريخ علماء الأندلس (ص ٨٣٧)، و«بغية الوعاة» (ص ٣٩٢)، والأعلام (ج ٧ ص ٢٥٠).

(٣) هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن مسعدة العامري، وقد سبق وترجم له ابن الخطيب في هذا الجزء.

الحاج، أعرض ذلك عليه، فكان من نصّ مراجعته: فسبحان الذي أرشدك لبيت السّتر والعافية والأصالة، وشحوب الأبرار، قاتلك الله ما أجلّ اختيارك. وخَلَفَ هذا البيت الآن على سَنَن سلفهم من التحلّي بالوزارة، والافتقار من العظمة الزاكية، والاستناد القديم الكريم، واغتنام العمر بالنسك، عناية من الله، أطرد لهم قانونها، واتصلت عاداتها، والله ذو الفضل العظيم.

حاله: كان من أهل السرّ والخصوصيّة، والصُّمت والوقار، ذا حظّ وافر من المعرفة بلسان العرب، ذكيّ الدّهن، متوقّد الخاطر، مليح النادرة، شُشنته معروفة فيهم. سار بسيرة أبيه، وأهل بيته، في الطهارة والعدالة، والعفاف والزّاهة. وفاته^(١):

إبراهيم بن فرج بن عبد البر الخولاني

من أهل قرطبة، يُكنى أبا إسحق، ويُعرَف بابن حرّة.

أولّيته: من أهل البيوتات بالحَضرة، وَلِي أبوه القَهْرَمَة لثاني^(٢) الملوك من بني نصر، فتأثّل مالاً ونباهةً.

حاله: هذا الرجل من أغيان القطر، ووزراء الصُّقع، وشيوخ الحَضرة، أغنى هذه المَدْرَة يَدًا، وأشغلهم بالعرض الأدنى نفسًا، تحرّف بالتّجر المربوب في حجر الجاه، ونَمّا ماله، تُحاط به الجَدّات، وتنمو الأموال، ففار تَنوّرها، وفَهّق حوضها، كثير الخوض في التصارييف الوقتية، والأدوات الزمانية، وأثمان السلع، وعوارض الأسعار، متبجّج بما ظهرت به يده من عِلَق مَضَنّة هُرَى المدينة، الذي يُنفق على أسواقها، عند ارتفاع القيم، وتُمييز الأسعار، ويلوغها الحَدّ الذي يراه كَفُو حَبْتِه، ومنتهى ثمن غلّته. غَرِقَ الفكر، يخاطبُ الحيطان والشّجر والأساطين، مُحاسِبًا إيّاها على معاملات وأغراض فنيّة، يُري من التلبّس شيئًا من المعارف والآداب والصنائع، وحجة من الحجاج في الرزق. تَغْلِب عليه السُّداجة والصّحة، دِمَتْ، متخلّق، متنزّل، مُختصر الملبس والمطعم، كثير التبدّل، يعظّم الانتفاع به في باب التوسعة بالتسلّف

(١) كذا في الأصل.

(٢) ثاني سلاطين بني نصر هو محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، وقد حكم غرناطة من سنة ٦٧١ هـ إلى سنة ٧٠١ هـ. ترجمته في اللّمعنة البدوية (ص ٥٠) وسترّد ترجمته في هذا الجزء من الإحاطة.

والمداينة، حَسَنَ الخُلُق، كثير التجمل مُبْتَلَى بالمُوقِبِ والطَّائِر^(١)، يسمع ذي القحة، وَيُصِمُّ على ذوي المسألة.

ظهوره وحظوته: لبس الحُظوة شملة، لم يفارق طوقها رقبته، إذ كان صِهْرًا للمتغلب على الدولة أبي عبد الله بن المحروق^(٢)، صار بسهم في جذور خُطته، وألقى في مَرَقَة حُظوته، مشتملاً على حاله، بعباءة جاهه. ثم صاهر المصير الأمر إليه بعده القائد الحاجب أبا النعيم رضوان، مولى الدولة النصرية، وهلمَّ جرًا، بعد أن استعمل في السَّفارة إلى العُدوة وقُشتالة، في أغراض تليق بمبعثه، مما يوجب فيه المياسير والوجوه، مُشْرِفين مُعَزَّزين بَمَن يقوم بوظيفة المخاطبة والجواب، والردة والقبول. ووُلِّي وزارة السلطان، لأول مُلكه في طريق من ظاهر جبل الفتح إلى حضرته، وأيامًا يسيرة من أيام اختلاله، إلى أن رغب الخاصة من الأندلسيين في إزالته، وصُرِفَ الأمر إلى الحاجب المذكور الذي تسقط مع رئاسته المنافسة، وترضى به الجملة.

محنته: وامتنح هو وأخوه، بالتَّغريب إلى تونس، عن وطنهما، على عهد السلطان الثالث من بني نصر^(٣). ثم آب عن عهد غير بعيد، ثم أسين واستسَّر أديمه، وضجر عن الركوب إلى فلاحته التي هي قُرّة عينه، وحظُّ سعادته، يتطارح في سَكّة المترددين بإزاء بابه، مباشرُ الثرى بثوبه، قد سِدِكت^(٤) به شكايَة شائنة، قلما يَفْلِت منها الشيوخ، ولا من شَرَكها، فهي تزفه بولاء، بحال تقتحمها العين شَعَثًا، ويُغَدَا عن النظر، فلم يُطْلَق الله يده من جِدَّتِه على يده، فليس في سبيل دواء ولا غداء إلى أن هلك.

وفاته: في وسط شَوّال عام سبعة وخمسين وسبعمائة.

مولده: في سنة خمس وسبعين وستمائة.

(١) المُوقِب: اسم فاعل أوقب، وهو القادح الذي يذم الآخرين. والطائر: الذي يسخر من الآخرين. لسان العرب (وقب) و(طنز).

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن المحروق؛ تولى الوزارة لسلطان غرناطة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل النصري عام ٧٢٥ هـ، ثم قتل بأمر السلطان المذكور عام ٧٢٩ هـ. اللمعة البدرية (ص ٩٤).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر، الملقب بالمخلوع، وقد حكم غرناطة من سنة ٧٠١ هـ حتى سنة ٧٠٨ هـ. اللمعة البدرية (ص ٦٠).

(٤) سِدِكت به: لزمته ولم تفارقه. لسان العرب (سدك).

إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي^(١)

يكنى أبا إسحق، ويُعرف بابن المرأة.

حاله: سكن مألقة دهرًا طويلًا، ثم انتقل إلى مُرسية، باستدعاء المُحدّث أبي الفضل المُرسى والقاضي أبي بكر بن مُحرز، وكان متقدمًا في علم الكلام، حافظًا ذاكرًا للحديث والتفسير، والفقه والتاريخ، وغير ذلك. وكان الكلام أغلب عليه، فصيح اللسان والقلم، ذاكرًا لكلام أهل التصوّف، يطرّز مجالسه بأخبارهم. وكان بحرًا للجُمهور بمألقة ومرسية، بارعًا في ذلك، متفتنًا له، متقدمًا فيه، حَسَنَ الفهم لما يلقى، له وتُوب على التمثيل والتشبيه، فيما يقرب للفهم، مؤثرًا للخمُول، قريبًا من كل أحد، حَسَنَ العِشرة، مؤثرًا بما لديه. وكان بمألقة يتجر بسوق الغزل. قال الأستاذ أبو جعفر وقد وصمه: وكان صاحب جِل ونوادر مستظرفة، يُلهي بها أصحابه، ويؤنسهم، ومتطلعًا على أشياء غريبة من الخواص وغيرها، فتن بها بعض الحَلبة، وأطلع كثير مَن شاهده على بعض ذلك، وشاهد منه بعضهم ما يمنعه الشرع من المُرتكبات الشنيعة. فنافره وباعده بعد الاختلاف إليه، منهم شيخنا القاضي العدل المسمّى الفاضل، أبو بكر بن المرابط، رحمه الله؛ أخبرني من ذلك بما شاهد مما يقبَح ذكره، وتَبَرُّأ منه مَن كان سعى في انتقاله إلى مرسية، والله أعلم بغيبه وضميره.

توَاليفه: منها^(٢) شرحه كتاب الإرشاد لأبي المعالي، وكان يعلقه من حفظه من غير زيادة وامتداد. وشرح الأسماء الحسنى. وألف جزءًا في إجماع الفقهاء، وشرح محاسن المجالس لأبي العباس أحمد بن العريف. وألف غير ذلك. وتوَاليفه نافعة في أبوابها، حسنة الرصف والمباني.

مَن روى عنه: أبو عبد الله بن أحلى، وأبو محمد عبد الرحمن بن وصلة.

وفاته: توفي بمرسية سنة إحدى^(٣) عشرة وستمائة.

إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري

تِلْسانى وقرشى الأصل، نزل بسَبْتَة، يكنى أبا إسحق، ويُعرف بالتلمساني.

(١) ترجمة ابن دهاق في التكملة (ج ١ ص ١٤٠)، والوافي بالوفيات (ج ٦ ص ١٧١)، والديباج المذهب (ج ١ ص ٢٧٣).

(٢) قارن بالتكملة (ج ١ ص ١٤٠). (٣) في الأصل: «أحد عشر» وهو خطأ نحوي.

حاله: كان فقيهاً عارفاً بعقد الشروط، مبرزاً في العدد والفرائض، أديباً، شاعراً، مُحسِّناً، ماهراً في كل ما يحاول. نظم في الفرائض، وهو ابن ثمان^(١) وعشرين سنة، أرجوزة مُحكَّمة بعلمها، ضابطة، عجيبة الوضع. قال ابن عبد الملك: وخبرت منه في تكراري عليه، تيقظاً وحضور ذهن، وتواضعاً، وحُسن إقبال وبر، وجميل لقاء ومعاشرة، وتوسطاً صالحاً فيما يناظر فيه من التواليف، واشتغلاً بما يعنيه من أمر معاشه، وتخاذلاً في هيئته ولباسه، يكاد ينحط عن الاقتصاد، حسب المألوف والمعروف بسببته. قال ابن الزبير: كان أديباً لغوياً، فاضلاً، إماماً في الفرائض.

مشيخته: تلا بمالقة على أبي بكر بن دسمان، وأبي صالح محمد بن محمد الزاهد، وأبي عبد الله بن حفيد، وروى بها عن أبي الحسن سهل بن مالك، ولقي أبا بكر بن مُحرز، وأجاز له، وكتب إليه مُجيزاً أبو الحسن بن طاهر الدباج، وأبو علي الشلوين. ولقي بسببته الحسن أبا العباس بن علي بن عصفور الهواري، وأبا المُطَرِّف أحمد بن عبد الله بن عُفيرة، فأجازا له. وسمع على أبي يعقوب بن موسى الحساني الغماري.

مَنْ روى عنه: روى عنه الكثير مَن عاصره، كأبي عبد الله بن عبد الملك وغيره.

توالياً: من ذلك الأرجوزة الشهيرة في الفرائض، لم يُصنَّف في فتها أحسن منها. ومنظوماته في السَّير، وأمداح النبي، ﷺ، من ذلك المُعَشَّرات على أوزان العرب، وقصيدة في المولد الكريم، وله مقالة في علم العروض الدويّتي.

شعره: وشعره كثير، مبرز الطَّبقة بين العالي والوسط، مُنحازاً أكثر إلى الإجابة جَمّة، وتقع له الأمور العجيبة فيه كقوله: [المنسرح]

الْعَدْرُ فِي النَّاسِ شِمَّةٌ سَلَفَتْ	قَدْ طَالَ بَيْنَ الْوَرَى تَصَرُّفُهَا
مَا كُلُّ مَنْ سَرُبْتُ ^(٢) لَهُ نَعَمٌ	مِنْكَ يَرَى قَذَرَهَا وَيَغْرِفُهَا
بَلْ رُبَّمَا أَغْقَبَ الْجَزَاءُ بِهَا	مَضْرَّةٌ عَنْكَ عَزُّ مَضْرُفُهَا
أَمَا تَرَى الشَّمْسَ تَغْطِفُ بِالْأُ	سُورَ عَلَى الْبَذْرِ وَهُوَ يَكْسِفُهَا؟

دخوله غرناطة: أخبر عن نفسه أن أباه انتقل به إلى الأندلس، وهو ابن تسعة أعوام، فاستوطن به غرناطة ثلاثة أعوام، ثم رحل إلى مالقة، فسكن بها مدة، وبها

(١) في الأصل: «ثمانية»، وهو خطأ نحوي. (٢) في الأصل: «سَرْتُ» وهكذا ينكسر الوزن.

قرأ معظم قراءته. ثم انتقل إلى سبته، وتزوج بها أخت الشيخ أبي الحكم مالك بن المرخل. وهذا الشيخ جدّ صاحبنا وشيخنا أبي الحسين التلمساني لأبيه، وهو ممن يُطرز به التأليف، ويُشار إليه في فنون لشهرته.

ومن شعره، وهو صاحب مطولات مجيدة، وأماح مبدية في الإحسان مُعيدة، فمن قوله يمدح الفقيه أبا القاسم العزفي أمير سبته: [الكامل]

أرأيت من رَحَلُوا وزَمُوا العيسا^(١) ولا نزلوا على الطلول حَبِيسا^(٢)؟

أَحْبَبْتُ سوف يعود نَسفُ ثرابها يوماً بما يَشْفِي لَدَيْكَ نَسِيسا؟

هل مؤنس^(٣) نازاً بجانب طورها لأنيسها؟ أم هل تحسّ حَبِيسا؟

مولده: قال ابن عبد الملك: أخبرني أن مولده بتلمسان سنة تسع وستمائة.

وفاته: في عام تسعين وستمائة بسبته، على سنّ عالية، فسَحَتْ مدى الانتفاع

به.

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي

المشهور بالطُوْنِجِن^(٤)، من غرناطة.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»: كان، رحمه الله، نسيج وحده في الأدب، نظماً ونثراً، لا يُسَقَّ فيهما عُبارُهُ، كلام صافي الأديم، غزير المائية، أنيق الدِّباجَة، موفور المادة، كثير الحلاوة، جامع بين الجزالة والرِّقَّة؛ إلى خطِّ بديع، ومشاركة في فنون، وكرم نفس، واقتدار على كل محاولة. رحل بعد أن اشتهر فضله، وذاع أوجه، فشرَّق، وجال في البلاد. ثم دخل إلى بلد السودان، فاتصل بملكها، واستوطنها زماناً طويلاً، بالغاً فيها أقصى مبالغ المَكِنَّة، والحُظْوَة، والشُّهرة، والجلالة، واقتنى مالاً دَثِراً، ثم آب إلى المغرب، وحوَّم على وطنه، فصرفه القدر إلى مُسْتَقَرِّهِ من بلاد السودان، مُسْتَزِيداً من المال. وأهدى إلى ملك المغرب هديّة تشتمل على طُرَف، فأثابه عليها مالاً خطيراً، ومدحه بشعر بديع كتبناه عنه. وجرى ذكره في كتاب «التاج» بما نصّه^(٥):

(١) زَمُوا العيس: خطموها للرجيل. لسان العرب (زم).

(٢) عجز البيت مختل الوزن.

(٣) في الأصل: «هل من مؤنس...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٤) يكنى أبا إسحق، وترجمته في نثير فرائد الجمان (ص ٣٠٨)، والكتيبة الكامنة (ص ٢٣٥)،

ونفع الطيب (ج ٢ ص ٤٠٥)، و(ج ٣ ص ٣٩٧).

(٥) النص في الكتيبة الكامنة (ص ٢٣٥).

«جَوَابُ الْآفَاقِ، وَمُحَالَفُ الْإِبَاقِ»^(١)، وَمُتَّفِقُ سَعْدِ^(٢) الشَّعْرِ كُلِّ الْإِنْفَاقِ؛ رَفَعَ بَيْلَدَهُ^(٣) لِلْأَدَبِ رَايَةً لَا تَحْجُمُ، وَأَصْبَحَ فِيهَا يَسْوِي وَيُلْجِمُ؛ فَإِنْ نَسَبَ، جَرَى وَنَظَّمَ نَظْمَ الْجُمَانِ الْمُحَامَدِ، وَإِنْ أَبَنَ وَرَثَى غُبَرَ فِي وَجْهِهِ السَّوَابِقُ وَخُثَا. وَلَمَّا اتَّفَقَ كَسَادُ سَوْقِهِ، وَضِيَاقُ حَقْوِهِ، أَخَذَ بِالْحَزْمِ، وَأَدْخَلَ عَلَى حُرُوفِ عِلَالَتِهِ عَوَامِلَ الْجَزْمِ، يَسْقُطُ عَلَى الدُّوَلِ سَقُوطَ الْعَيْثِ، وَيَجْلُ كِنَاسِ الطُّبَا وَغَابِ اللَّيْثِ، شَيَّعَ الْعَجَائِبَ، وَرَكَّضَ التُّجَائِبَ، فَاسْتَضَافَ بِضْرَامَ، وَشَاهَدَ الْبِرَابِي وَالْأَهْرَامَ، وَرَمَى بِعَزَمَتِهِ الشَّامَ، فَاحْتَلَّ ثَغُورَهُ الْمَحْوَطَةَ، وَدَخَلَ دِمَشْقَ، وَتَوَجَّهَ الْغُوطَةَ، ثُمَّ عَاجَلَهَا بِالْعِرَاقِ، فَحَيَّا بِالسَّلَامِ مَدِينَةَ السَّلَامِ، وَأَوْرَدَ بِالرَّافِدَيْنِ رَوَاجِلَهُ، وَرَأَى الْيَمْنَ وَسَوَاحِلَهُ، ثُمَّ عَدَلَ إِلَى الْحَقِيقَةِ عَنِ الْمَجَازِ، وَتَوَجَّهَ إِلَى شَأْنِهِ الْحِجَازِ، فَاسْتَلَمَ الرُّكْنَ وَالْحَجَرَ، وَزَارَ الْقَبْرَ الْكَرِيمَ لَمَّا صَدَّرَ، وَتَعَرَّفَ بِمَجْتَمَعِ الْوُفُودِ بِمَلِكِ السُّودِ، فَغَمَرَهُ بِإِرْفَادِهِ، وَصَحِبَهُ إِلَى بِلَادِهِ، فَاسْتَقَرَّ بِأَوَّلِ أَقَالِيمِ الْعَرَضِ، وَأَقْصَى مَا يَغْمُرُ مِنَ الْأَرْضِ، فَحَلَّ بِهَا مَحَلَّ الْحُمْرِ فِي الْغَارِ، وَالنُّورِ فِي سَوَادِ الْأَبْصَارِ؛ وَتَقَيَّدَ بِالْإِحْسَانِ، وَإِنْ كَانَ غَرِيبَ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ. وَصَدَرَتْ عَنْهُ رِسَائِلُ أَثْنَاءِ إِغْرَابِهِ، تَشْهَدُ بِجَلَالَةِ آدَابِهِ، وَتَعْلُقُ الْإِحْسَانَ بِأَهْدَابِهِ»^(٤).

نثره: فمن ذلك ما خاطب به أهل غَرْزَاطَةَ بِلَدِهِ؛ وَقَدْ وَصَلَ إِلَى مَرَاكُشَ:

«سَلَامٌ لَيْسَ دَارِينَ شِعَارِهِ، وَحَلَقَ الرُّوَضِ وَالنُّضِيرِ بِهِ صَدَارِهِ، وَأَنْسَى نَجْدًا شَمَّهُ الزَّكِيَّ وَعَرَارِهِ، جَزَّ ذَيْلَهُ عَلَى الشَّجَرِ فَتَعَطَّرَ، وَنَاجَى غَصْنَ الْبَانِ فَاهْتَزَّ لَحْدَيْهِ وَتَأَطَّرَ، وَارْتَشَفَ الْبَنْدَى مِنْ ثَغُورِ الشَّقَائِقِ، وَحَيَّا خُدُودَ الْوَرْدِ تَحْتَ أُرْدِيَةِ الْحَدَائِقِ، طَرِبَتْ لَهُ التُّجْدِيَّةُ الْمُسْتَهَامَةُ، فَهَجَرَتْ صِبَاها بِبَطْنِ تِهَامَةٍ، وَخَنُ ابْنِ دَهْمَانَ لَصِبَاهُ، وَمَلَأَ بِهِ التُّمِيمِيَّ عَنْ رِيَّاهُ، وَأَنْسَى التُّمِيرِيَّ مَا تَضْوَعُ بِرَقِيبٍ مِنْ بَطْنِ نَعْمَاهُ، وَاسْتَشْرَفَ السَّمَرَ وَالْبَانَ، وَتَخَلَّقَ بِخُلُوقَةِ الْآسِ وَالظُّيَّانِ»^(٥)، حَتَّى إِذَا رَاقَتْ أَنْفَاسُ تَحْيَاتِهِ وَرَقَّتْ، وَمَلَكَتْ نَفَائِسُ النُّفُوسِ وَاسْتَشْرَقَتْ، وَلَبَسَتْ دَارِينَ فِي مَلَائِهَا، وَنَظَّمَتْ الْجُوزَاءُ فِي عِقْدِ ثَنَائِهَا، وَاشْتَغَلَ بِهَا الْأَعْشَى عَنْ رَوْضِهِ وَلَهَا، وَشَهِدَ ابْنُ بُرْدٍ شَهَادَةَ أَطْرَافِ الْمَسَاوِيكِ لَهَا، خَيَّمَتْ فِي رَنَيعِ الْجُودِ بِغَرْزَاطَةَ وَرَقَّتْ، وَمَلَأَتْ ذُلُوهَا إِلَى عِقْدِ رَكْبِهِ، وَأَقْبَلَتْ مَنَابِتُ شَرْقِهَا عَنْ غَرْبِهِ، لَا عَنْ غَرْفِهِ؛ هُنَاكَ تَتَرَى لَهَا صُدُورَ الْمَجَالِسِ تَحْمِلُ صُدُورًا، وَتَرَائِبُ الْمَعَالِي تُحَلِّيْ عَقُودًا نَفِيسَةً وَجُذُورًا، وَمَحَاسِنُ الشَّرَفِ تَحَاسِنُ

(٢) فِي الْكُتَيْبَةِ الْكَامِنَةِ: «سَعْدِ» بِمِ

(١) فِي الْكُتَيْبَةِ الْكَامِنَةِ: «الرَّفَاقِ» بِمِ

(٣) كَلِمَةُ «بَيْلَدِهِ» سَاقِطَةٌ مِنَ الْكُتَيْبَةِ الْكَامِنَةِ. لِمِ

(٤) الظُّيَّانُ: يَاسَمِينُ الْبَرِّ. مَحِيطُ الْمَحِيطِ (ظُلُي). لِمِ

البروج في زهرها، والأفنية في إيوانها، والأندية في شغب بَوَّانها^(١)، لو رآها النعمان لهجر سديره، أو كسرى لنبد إيوانه وسريره، أو سيف لقصر عن عُمدانه، أو حسان ترك جَلَق^(٢) لغسانه: [الطويل] ٤

بلاد بها نيطت عليّ تمائمي وأول أرض مسّ جلدي ترابها

فإذا قضيت من فرض السلام خُتْمًا، وقُضت من فاريه الثناء خُتْمًا، ونَفَضت طيب عرارها على تلك الأنداء، واقتطفت أزاهر محامدها أهلُ الودّ القديم والإخاء، وعمت من هنالك من الفضلاء، وتلك سُور آلائها على منبر ثنائها، وقُضت وعَطُفت على من تحمل من الطلبة بشارتهم، وصدرت عن إشارتهم، وأنارت نجمًا حول هالتهن المُنيرة ودارتِهم، فهناك تقصُّ أحاديث وجدي على تلك المناهج، لا إلى صلة عاج، وشوقي إلى تلك العُلَيَّا، لا إلى عبلة، والجزا إلى ذلك الشريف الجليل، فسقى الله تلك المعاهد غَيْدًا^(٣) يهمني دعاؤها، ويغرق رَوْضها إغراقًا، حتى تتكَلَّم منه نحور زُنُدها دُرًا، وترنو عيون أطراف نرجسها إلى أهلها سَرَرًا، وتتعانق قدود أغصانها طربًا، وتعطف خصور مذارها على أطراف كُثبانها لَعِبًا، وتضحك ثغور أقاحيها^(٤) عند رقص أدواحها عَجَبًا، وتحمرُّ خدود وردها حياة، وتشرق حدائق وردها سناء، وتهدي إلى السنة صباها خبر طَيِّبة^(٥) وإنباء، حتى تشتغل المطرئة عن روضتها المردودة، والمُتَكَلِّم عن مشاويه المجودة، واليكري عن شقائق رياض روضته الندية، والأخطل عن خلع بيعته الموشية. فما الخورنق^(٦) وسُراد، والرُصافة وبغداد، وما لف الثيل في مَلأته كرمًا إلى أفدين سقايته، وحارته غمدان عن محراب، وقصر وابرية اللقاء عن غوطة ونهر، بأحسن من تلك المشاهد التي تساوي في حُسْنها الغائب والشاهد. وما لمصر تفخر بنيلها، والألف منها في شَيْلها^(٧)، وإنما زِيدَت الشين هنالك ليعد بذلك: [الوافر]

ويا لله من شوق خشيث ومن وجدٍ تَشْطُّ بالصميم
إذا ما هاجه وجدٌ حديث صبا منها إلى عهدٍ قديم

(١) شغب بَوَّان: موضع بأرض فارس، وهو أحد متزهات الدنيا. معجم البلدان (ج ١ ص ٥٠٣).
(٢) جَلَق: هي دمشق نفسها، وقيل: موضع بقرية من قرى دمشق. معجم البلدان (ج ٢ ص ١٥٤).

(٣) الغَيْد: من الشباب: الناعم، والجمع غيادي. محيط المحيط (غيدق).

(٤) في الأصل: «أقاحها»، والأقاحي: جمع أقحوان وهو نبات. محيط المحيط (قحا).

(٥) طَيِّبة: اسم لمدينة رسول الله ﷺ. معجم البلدان (ج ٤ ص ٥٣).

(٦) الخورنق: قصر كان بظهر الحيرة. معجم البلدان (ج ١ ص ٤٠١).

(٧) ورد قول ابن الخطيب هذا في نفح الطيب (ج ١ ص ١٤٨).

أَجْنَحَ إنساني في كل جانحة، وأنطق لساني من كل جارحة، وأهيم وقلبي رهين
الأنين، وصريع البين، تهفو^(١) الرياح البليلة إذا ثارت، وتطير به أجنحة البروق
الخافقة أينما طارت، وقد كنت أستنزل قُزيمهم براحة الأجل، وأقول عسى وطن يديهم
ولعل، وما أقدر الله أن يُدني على الشَّحَط، ويُبري جراح البين بعد اليأس والقنط،
هذا شوقي يستعيره البركان لناره، وَوَجدي لا يجري قيس في مضماره، فما ظنك وقد
حمت حول المورد الحَصير، ونسمت ريح المُنبت الحَصير، ونظرت إلى تلك المعاهد
من أُم، وهمست باهتصار ثمار ذلك المجد الينع والكرم، وإن المحب مع القرب
لأعظم هَمًا، وأشدُّ في مقاساة الغرام غَمًا: [الوافر]

وأبرح ما يكون الشوق يومًا إذا دَنَتِ الدِّيارُ من الدِّيارِ

وقُرِيت مسافة الدُّوار، لكن الدهر ذو غَيْر، وَمَن ذا يحكم على القَدَر، وما ضره
لو غفل قليلًا، وشفى بقاء الأحبة قليلًا، وسمح لنا بساعة اتفاق، ووَصَلَ ذلك الأمل
القصير بباع، وروى مسافة أيام، كما طوى مراحل أعوام.

لُدَّ إبليس، أفلا أشفقت من عذابي، وسمّخت ولو بسلام أحابي؟

أَسَلَمْتَنِي إلى دَنَعِ البید، ومحالفة الذمیل والوخید^(٢)، والتَنَقُّل في المشارق
والمغارب، والتمطّي في الصُّهوات والغوارب. يا سابقَ البين دَعْ مَحْمَله، وما بقي في
الجسم ما يَحْمِله، ويا بنات جديل، ما لكنّ وللذمیل؟ ليت سَقَمي عقيم فلم يلد ذات
البين، المُشْتَنَّة ما بين المحبين، ثم ما للزاجر الكاذب، وللغراب الناعب، تجعله نذير
الجلال، ورائد الخلا، ما أبعد من زاجر، عن رأي الزاجر، إنما فعل ما ترى، ذات
الغارب والقرى، المحتملة في الأزمة والبرى، المترددة بين التأويب والسرى؛ طالما
بأكزت الثوى، وصَدَعَت صَدْعَ الثوى، وتركت الهائم بين رَنع مَحِيل، ورسم
مستحيل، يقفو الأثر نحوه، ويُسأل الطلل عن عهده، وإن أنصفت فما لعين
معقودة، وإبل مطرودة، مالت عن الحوض والشوط، وأسلمت إلى الحبل والعصا
والسوط، ولو خَيْرَ النائي لأقام، ولو تُرِكَ القَطَا ليلًا لنام، لكن الدهر أبو بَراقش^(٣)،

(١) في الأصل: «تهفق».

(٢) الذمیل: السير اللين. والوخید: السير السريع. لسان العرب (ذمل) و(وخد).

(٣) أبو بَراقش: طائر صغير برّي كالقنفذ أعلى ريشه أغرّ وأوسطه أحمر وأسفله أسود، فإذا فُجِعَ
انفخ فتغير لونه ألوانًا شتى حتى قيل لكل متلون ذي وجهين: أحول من أبي بَرَقش، ومنه قول
الشاعر: [مجزوء الكامل]

كأبي بَراقش كل يز
م لوثه يئسّ لئب
محيط المحيط (برقش).

وسهم بينه وبين بنيه غير طائش؛ فهو الذي شئت الشمل وصدعه، وما رفع سيف
بعماده إلا وضعه، ولا بلّ غليلاً أخرقه بنار وجده ولا نفعه. فأقسم ما ذات
خضاب وطوق، شاكية غرام وشوق، برزت في منصتها، وترجمت عن قضيتها،
أو غربت عن بيتها، ونفضت شرارة زفرتها عن عينها، ميلاً حكيت الميلا
والغريض، وعجماء ساجلت بسجعها القريض، وكصت^(١) الفود فكانما نقرت
العود، ورددت العويل، كأنما سمعت الثقل، نثت الواله فثاب، وناحت بأشواقها
فأجاب. حتى إذا افتّر بريقها، استراب في أثنها، فنادى يا حصيبة الساق، ما لك
والأشواق؟ أباكية ودموعك راقية؟ ومحزرة وأعطافك حالية؟ غطلت الخوافي،
وحليت القوادم، وخضبت الأرجل، وحضرت المآتم. أما أنت، فنزيرة خمار،
وحليفة أنوار وأشجار، تترددين بين منبر وسرير، وتتهادين بين روضة وغدير؛
أسرفت في الغناء، وإنما حكيت خريز الماء، وولعت بتكرير الراء، فقالت: أعد
نظر البقير، ولأمر ما جدع أنفه قصير، أنا التي اغرقت في الرزء، فكثيت عن
الكل بالجزء؛ كنت أربع بالفيافي ما ألقى، وأنس مع مقيلي، بكرته وأصيلي،
تحتال من غدير إلى شرج^(٢)، وتنتقل من سرير إلى سرج، آونة تلتقط الحب،
وحيثما تمنعطي الحب، وطورا تتراكم الفتن، وتارة تتجاذب الشجن، حتى رماه
الدهر بالشئات، وطرقه بالآفات، فهأنا بعده دامية العين، دائمة الأين، أتعلل بالآثر
بعد العين؛ فإن سعدت مناري، ألهبت منقاري، أو نكأت أحشائي، خضبت رجلي
بدمائي، فأقسم لا خلعت طوق عهده، حتى أردى من بعده، بل ذات خفض
وترف، وجمال باهر وشرف، بسط الدهر يدها، وقبض ولدها، فهي إذا عقدت
الثمائم على تريب، أو لقت العمايم على نجيب، حثت المفوود، وأدارت عين
الحسود، حتى إذا أينعت فسالها، وقضى حملها وفصالها، عمّر لحدها بوحيده كان
عندها وسطى، وفريد أضحى في نحر عشيرتها سيمطا، استحثت له مهبّات النسيم
الطارق، وخافت عليه من خطرات اللحظ الراشق، فحين هسّ للجياد، ووهب
التمائم للنجاد ونادى الصريم، يا الآل والحريم، فشدّ الأناة، واعتقل القناة، وبرز
يختال في عيون لامة، ويتعرّف عنه رمحه بألفه ولامه، فعارضه شئن^(٣) الكفين،
عاري الشعر والمكبين، فأسلمه لحنقه، وترك حاشية ردائه على عطفه، فحين أثبهم

(١) كصت الفود: دقته. والفود: معظم شعر الرأس، والمراد هنا: الرأس. محيط المحيط (كص) و(فود).

(٢) الشرج: مسيل الماء من الحرة إلى السهل. محيط المحيط (شرح).

(٣) الشئن: الغليظ. محيط المحيط (شئن).

لشاكلته ما جَرَى برزت لترى: [الطويل]

فلم تلقَ فيها^(١) غيرَ خَمْسِ قوائم وأشلأَ لحم تحت لِيثٍ سخايلِ
يحطُّ على أعطافه وترائبهُ بكفِّ حديدِ الثَّابِ صَلْبِ المفاصلِ

أعظم مَنْ وجد إلى تلك الآفاق، التي أطلعت وجوه الحسن والإحسان، وسَفَرَت عن كمال الشرف، وشرف الكمال عن كل وجه حسان، وأبرزت من ذوي الهمم المُنيقة، والسَّير الشريفة، ما أقرَّ عين العلياء، وحلَّى جيد الزمان، فَتَقُوا للعلم أزهارًا أُرْبِت على الروض المَجود، وأداروا للأدب هالَّة استدارت حولها بُدُور السُّعود، نظم الدهر محاسنهم خُلِيًّا في جيده ونحره، واستعار لهم الأفق ضياء شمسهِ ويَدره، وأعرب بهم الفخر عن صميمه، وفسح لهم المجد عن مصدره، فهم إنسان عَيْن الزمان، وملتقى طريقي الحسن والإحسان، نَظَّمَت الجوزاء مفاخرهم، ونثرت الثَّرة مآثرهم، واجتلبت الشُّعرى من أشعارهم، وطلع النور من أزرارهم، واجتمعت الثُّرى لمعاطاة أخبارهم، ووَدَّ الدُّلو لو كرع في حوضهم، والأسدُّ لو ربض حول رِبَضِهِم، والنعام لو غَدَّيت بنعيمهم، والمَجرة لو استمدت من فيض كرمهم، عَشِقَ المسك محاسنهم فرق، وطُرب الصبح لأخبارهم فَحَرَقَ جبينه وشقَّ، وحام النسر حول حمامهم وحلق، وقدَّ الفخار جدار محامدهم وخلق، إلى بلاغة أخَرست لسان لَبيد، وتركت عبد الحميد غيرَ حميد، أهلَّ ابن هلال لمحاسنهم وكبَّر، وأعطى الفارِى ما زجر به قلمه وسطر، وأيس إياس من لحاقهم فأقصر لما قصر.

ومنها: فما لِلْوَشي نالِق ناصعهُ، وتأتق يانعهُ، بأحسن ممَّا وشَّه أنفاسُهم، ورسمته أطراشُهم، فكم لهم من خَريدة غَذاها العلم بيزه، وفريدة حلَّاهَا البيان بُدْرَه، واستضاءت المعارف بأنوارهم، وباهت الفضائل بسناء منارهم، وجَلَّيت المشكلات بأنوار عقولهم وأفكارهم، جَلُّوا عروس المجد وحلُّوا، وحلُّوا في ميدان السيادة ونشأوا، وزاحموا السُّهى بالمناكب، واختطَّوا الثُّرب فوق الكواكب، لزم محلُّهم الثَّكبير، كما لَزمَت الباءُ التَّصغير، وتقدَّموا في رُتبة الأفهام، كما تقدَّمت همزة الاستفهام، ونزلوا من مراتب العَلِياء، مَنزلة حروف الاستِعمال، وما عسى أن أقول ودون النهاية مَدَى نازح، وما أغنى الشمس عن مَدح المادح، وحَسْبِي أن أصف ما أعانيه من الشوق، وما أجدهُ من الثَّوق، وأعلل نفسي بلفائهم، وأتعللُ بالتَّسيم الوارد من تَلَفائهم، وإن جلاني الدهر عن ورود حوضهم، وأقعدني الزمان عن اجتناء رَوْضهم، فما ذهب ودادي، ولا تغيَّر اعتقادي، ولا جفَّت أقلامي عن مدادهم ولا

(١) كلمة «فيها» ساقطة من الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى.

مدادي، وأنا ابن جلا^(١) في وجديهم، وطلاع الثنايا إلى كرم عهدهم، إن دعوا إلى ود صميم وجدوني، أضع العمامة عن ذوي عهد قديم عرفوني، ولو شرعوا نحوي قلم مكاتبهم، وأسحوا بالعلق الثمين من مخاطبتهم، لكفوا من قلبي العاني قيد أساره، وبلوا صدى وجدي المتحرق بناره، ففي الكتابة بلغة الوطر، وقد يغني عن العين الأثر، والسلام الأثير الكريم الطيب الرّيا، الجميل المحيّا، يحضر محلهم الأثير، وكبيرهم إذ ليس فيهم صغير، ويعود على من هناك من ذوي الود الصميم، والعهد القديم، من أخ برّ وصاحب حميم، ورحمة الله وبركاته.

ولا خفاء ببراعة هذه الرسالة على طولها، وكثرة أصولها، وما اشتملت عليه من وصف وعارضة، وإشارة وإحالة، وحلاوة وجزالة.

شعره: ثبت لدي من متأخر شعره قوله من قصيدة، يمدح بها ملك المغرب^(٢)، أمير المسلمين، عند دنو ركابه من ظاهر تلمسان ببابه أولها^(٣): [الكامل]

خَطَرْتُ كِمْيَاسَ^(٤) الْقَنَا الْمُتَاطِرِ وَزَنْتُ بِالْحَاظِ الْغَزَالِ الْأَغْفَرِ

ومن شعره في النسيب: [البسيط]

زارث وفي كلّ لحظ طَرْفُ مُخْتَرِسٍ وَحَوْلَ كُلِّ كِنَاسٍ كَفْ مُفْتَرِسٍ
يشكو لها الجيد ما بالخلي من هَدَرٍ وَيَشْتَكِي الزُّنْدُ مَا بِالْقَلْبِ مِنْ خَرَسٍ
متى تلا خذها الزّاهي الضّحي نَطَقَتْ سِيوْفُ الْحَاظِهَا مِنْ آيَةِ الْحَرَسِ
في لحظها سِخْرُ فِرْعَوْنَ وَرَقَّتْهَا آيَاتُ مُوسَى وَقَلْبِي مَوْضِعُ الْقَبَسِ
تُخْفِي الثُّومَيْنِ مِنْ خَلِي وَمُبْتَسِمِ تَحْتَ الْكُثُومَيْنِ مِنْ شَعْرِ وَمِنْ عَلَسِ
وُتْرَسِلَ اللَّحْظُ نَحْوِي ثُمَّ تَهْزَأُ بِي تَقُولُ بَعْدَ ثُقُودِ الرُّمِيَةِ احْتَرَسِ
أَشْكُو إِلَيْهَا فَوَإِذَا وَاجِلًا أَبَدًا فِي الثَّازِعَاتِ وَمَا تَنْفُكُ مِنْ عَبَسِ

(١) أخذه من قول سحيم بن وثيل الرياحي: [الوافر]

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تغرفوني
وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٢٤)، والوافي بالوفيات (ج ٧ ص ٧٤).

(٢) هو أمير المسلمين أبو الحسن علي المريني، ملك المغرب، كما جاء في نثر فرائد الجمان (ص ٣٠٩).

(٣) ورد منها خمسون بيتاً في نثر فرائد الجمان (ص ٣٠٩ - ٣١٢) وجاء فيها أنه قالها في مدح الملك المغربي المذكور يحرضه فيها على قتال أمير المؤمنين أبي تاشفين العبد الوادي ملك تلمسان، قاتل أبيه.

(٤) في نثر فرائد الجمان: «كمياد».

يا شُقَّة النَّفْسِ إِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَلَفَتْ
هذا فؤادي وجَفَنِي فيكَ قد جمعا
ويا لطارق نومٍ منكٍ أُرْقِنِي
ما زال يشرب من ماء القلوب فلم
ملأت طَرْفِي عن وردٍ تفتح في
وقلت للخطِّ والضُّغِ اخرُسا فهما
وليلةٍ جثَّها سَحَرًا أجوسُ بها
استفهم الليل عن أمثالٍ أنجُمِهِ
وأهتكَ السَّتر لا أخشى بوادره
بتنا نُعاطي بها ممزوجةً مَزَجَتْ
أنكحَتْها من أبيها وهي آيسَةٌ
نورٌ ونارٌ أضاءا في رُجَاجَتِها
حتى إذا آب نور الفجر في وضح
وهَيَمَتْ بالضنا تحت الصباح صبا
قامت تجرَ فضول الرِيط آنسة
تلوُّ فوق كُثيب الرملِ مِطْرَفَها
فظلُّ قلبي يَفْفوها بملتهبٍ
دهر يُلوِّن لَوْنِيه كعادته

إلا بقيَّة رَجَحِ الصَّوت والنَّفْسِ
ضِدِّينِ فاعتيرِي إن شئتِ واقْتَبِسي
ليلاً ونَبْهَنِي للوجد ثم نَسي
أبصرته ذابلاً يشكو من اليَبَسِ
رياض خُذِيكَ صلاً غير مُفْتَرِسِ
ما بين مُضْمٍ وقَتَاك ومُنْتَكِسِ
شبا العوالي وخيس الأختفِ الشَّرسِ
وأسال^(١) العيس عن ميزبِ المها الأُنسِ
ما بين مُنتَهزِ طوراً ومُنْتَهَسِ
حُلُو الفكاهة بين اللَّين والشَّرسِ
فشار أبناؤها في ساعة العُرسِ
فذاك خُذُكَ يا ليلي وذا نَفْسِي^(٢)
معزكِ جالَ بين الفَجْرِ والغَلَسِ
قد أنذَرَتْها بِبَرْدِ القلب واللُّغَسِ
كريمة الذيل لم تَجَنِّح إلى دَنَسِ
وتمسَّحُ النُّوم عن أجفانها النُّعَسِ
طوراً ودمعي يتلوها بمُنْبَجَسِ
فالصبحُ في مَاتِمٍ والليل في عُرسِ

وإحسانه كثير، ومقداره كبير. ثم آب إلى بلاد السودان، وجرت عليه في طريقه محنة، ممَّن يعترض الرفاق ويُفسد السبيل، واستقرَّ بها على حاله من الجاه والشُّهرة، وقد اتخذ إماء للتسرِّي من الزُّنَجِيَّات، ورزق من الجوالك أولاداً كالخنافس. ثم لم يلبث أن اتصلت الأخبار بوفاته بثبُكْتو، وكان حياً في أوائل تسعة وثلاثين وسبعمائة^(٣).

(١) في الأصل: «وأسال» وهكذا ينكسر الوزن. (٢) في الأصل: «نَفْس»، بدون ياء.

(٣) في نثير فرائد الجمان (ص ٣٠٨): توفي بمالي من أرض جناوة في عام ٧٤٤ هـ. وهكذا جاء في نفح الطيب (ج ٢ ص ٤٠٦) وفي نفح الطيب (ج ٣ ص ٣٩٧). وذكره المقري ثانية ولم يلقه بالساحلي، فتوهم أنه شخصية أخرى وقال: توفي بمراكش سنة ثيف وأربعين وسبعمائة.

إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى ابن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحق بن أسد بن قاسم النميري

من أهل غرناطة، يكنى أبا إسحق ويُعرف بابن الحاج^(١).

أوليته: بيت نبيه، يزعم من يُعنى بالأخبار، أن جدّهم الداخل إلى الأندلس ثوبة بن حمزة الثُميري، ويشركهم فيه بنو أرقم الوادي شيون^(٢). وكان سكناه بجهة وادي آش، ولقومه اختصاص وانتقال ببعض جهاتها، وهي شُوَظَر، والمنظر، وقرسيس، وقطرش؛ تغلب العدو عليها على عهد عبد العزيز، وآوى جميعهم إلى كُتف الدولة النصرية، فانخرطوا في سلك الخدمة، وتمخض خلفهم بالعمل. وكان جدّه الأقرب إبراهيم، رجلاً خيراً من أهل الدين والفضل والطهارة والذكاء؛ كتب للرؤساء من بني إشقيلولة، عند انفرادهم بوادي آش. واختص بهم، وحصل منهم على صُهر بأم ولد بعضهم، وضبط المهّم من أعمالهم. ثم رابته منهم سجايا أوجبّت انصرافه عنهم، وجنوحه إلى خالهم السلطان الذي كاشفوه بالشورة، فعرف حقّه، وأكرم وفادته، وقبل بيانه؛ فقلّده ديوان جنده، واستمرت أيام عُمره تحت رَغِيه، وكُتف عنايته. وكان ولده عبد الله، أبو صاحبنا المترجم به، صَدْرًا من صدور المستخدمين في كبار الأعمال، على سنن رؤسائهم، مَكْسَابًا مَثَلًا، سريّ النفس، غاض الحواز. ولي الأشغال بغرناطة وسِنْتَة؛ عند تصيرها إلى إيالة بني نصر؛ وجرى طلاقه هذا، في صلّ دنيا عريضة؛ تغلّبت عليه بآخرة، ومضى لسبيله، مصدوقًا بالكفاية، وبراعة الخط، وطيب النفس، وحُسن المعاملة.

حاله: هذا^(٣) الرجل نشأ على عفاف وطهارة؛ امتهك صُباية ترف من بقايا عافية، أعانته على الاستظهار ببزّة، وصانته من التحرّف بمهنة. ثم شدّ وبُهرت خصاله، فبطّح بالشعر؛ وبلغ الغاية في إجادته^(٤) الخط، وحاضر بالآبيات، وأرسم^(٥) في كتابة الإنشاء، عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، مُستحقًا حُسن بسمه^(٦)، وبراعة

(١) ترجمة ابن الحاج النميري في الكتيبة الكامنة (ص ٢٦٠)، ونيل الابتهاج، طبعة فاس (ص ١٤)، والمنهل الصافي (ج ١ ص ٦٦)، ونثير فرائد الجمان (ص ٣١٣)، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٧٩) و(ج ٩ ص ٢٣٠).

(٢) نسبة إلى مدينة وادي آش.

(٣) نفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٠).

(٤) في النفع: «جودة».

(٥) في النفع: «سمت، وجودة أدب وخط».

(٦) في النفع: «سمت، وجودة أدب وخط».

خط، وجودة أدب، وإطلاق يد، وظهور كفاية؛ وفي أثناء هذا الحال، يُقيد ولا يفتر، ويروي الحديث، ويعلق الأناشيد، ولا يغيبُ النظم والنثر، ولا يُعفي القريحة، مُعَمَّى، مخولًا في العناية، مشتملاً على الطهارة، بعيدًا في زمان الشَّيْبَةِ عن الرُّبِيَّة، نزيهاً على الوسامة عن الصُّبوة والرُّقِيَّة، أعانه على ذلك نخوة في طبعه، وشفوف وهمة. كان مليح الدُّعابة، طيب الفكاهة، أثر المشرق، فانصرف عن الأندلس في محرم عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، وألَم بالدول، محرِّكاً إياها بشعره، هاراً أعطافها بأمداحه؛ فَعَرِفَ قَدْرَهُ، وأَعِين على طَبِئَتِهِ؛ فحجَّ وتطوَّف، وقَيْد، واستكشر، ودَوَّن في رحلة سفره؛ وناهيك بها طُرْفَةٌ؛ وقفل إلى إفريقية، وكان عَليقٌ بخدمة بعض ملوكها، فاستقرَّ بِبِجَايةٍ لديه، مضطلاً بالكتابة والإنشاء. ثم انتقل إلى خدمة سلطان المغرب، أمير المسلمين أبي الحسن؛ ولم يَنْشِبْ أن عاد إلى البلاد المشرقية، فحجَّ، وفَصَلَ إلى إفريقية، وقد دالت الدولة بها بالسلطان المذكور، فتقاعد عن الخدمة، وأثر الانقباض؛ ثم ضرب الدهر ضرباته، وآل حال السلطان إلى ما هو معروف، وثابت للموحدِين برملة بِجَايةٍ بارقة لم تكد تتقد حتى خَبَت، فعاد إلى ديوانه من الكتابة عن صاحب بِجَاية. ثم أبي مُؤَيَّرًا لِلدُّعَاةِ فِي كَثَفِ الدَّوْلَةِ الفارسية^(١)، ونَقَضَ عن الخدمة يده، لا أَحَقُّقُ مضطراً أم اختياراً، وحجة كليهما قائمة لديه، وانقطع إلى تربة الشيخ أبي مَدين^(٢) بِعَبَادِ تِلْمَسَانَ، مؤَيَّرًا لِلخُمُولِ، عزيزاً به، ذاهباً مذهب التَّجَلَّةِ من التجريد والعكوف بباب الله، مَفْخَرًا لِأَهْلِ نَحْلَتِهِ، وحجَّة على أهل الحرص والتهافت، من ذوي طبقته، راجع الله بنا إليه بفضله. ثم جبرته الدولة الفارسية على الخدمة، وأَبْرَزَتْ بَزَّةَ التُّسْكَ، فعاد إلى ديدنه من الكتابة، رئيساً ومرؤوساً. ثم أفلت نَفْيُهُ موث السلطان أبي عنان فلهق بالأندلس، وتلقى بِبِرٍّ وجراية، وتنويه وعناية، واستعمل في السفارة إلى الملوك؛ ووَلَّى القضاء في الأحكام الشرعية بالقليم بقرب الحَضْرَةِ؛ وهو الآن بحاله الموصوفة، صَدْرًا من صدور القطر وأعيانه، يحضر مجلس السلطان، وَيَعُدُّ من نُبْهَاءِ مَنْ يُنْتَابُ بَابَهُ، وقد تَوَسَّطَ من الاكتهال، مُقِيمًا لرسم الكتابة والظرف مع الترخيص للباس الحرير، والخضاب بالسواد، ومصاحبة الأئمة، والحرص على التَّجَلَّةِ.

(١) أي في دولة السلطان فارس أبي عنان.

(٢) الشيخ أبو مَدين: هو الصوفي شبيب بن الحسين التلمساني، الأندلسي الأصل، المتوفى بتلمسان سنة ٥٩٤ هـ. وقبره ببغداد بتلمسان ويزار إلى جانب مدافن الأولياء. الأعلام (ج ٣ ص ١٦٦) وفيه ثبت بأسماء مصادر ترجمته.

وجرى ذكره في «التاج المحلى» بما نصه^(١): «طَلَعَ شهابًا ثاقبًا، وأصبح يشعره للشعرى مُصاقبًا، فَنَجَمَ وبرع، وتَمَّ المعاني واخترع؛ إلى خطَّ يستوقف الأبصار رائقه، وتقيدُ الأخداق حدائقه، وتفتن الألباب فنونه البديعة وطرائقه، من بليغ يطارد أسراب المعاني البعيدة فيقتنصها، ويغوص على الدرر الفريدة فيُخرِجها، ويستخلصها بطبع مذاهبه دافقة، وتأيد رايته خافقة. نُبِّه في عصره شرف البيان من بعد الكرى، واندب بالنشاط إلى تجديد ذلك البساط وانبرى، فدارت الأكواس، وتضوَّع الورد والآس، وطاب الصُّبوح، وتبدل الروح المروح، ولم تزل نفحاته تتأرجح، وعقائل بناته تتبرجح، حتى دُعِيَ إلى الكتابة، وخطب إلى تلك المثابة، فطرَّز المفارق برقوم أقلامه، وشُفَّ السامع بذُرِّ كلامه؛ ثم أجاب داعي نفسه التي ضاق عنها جُثمانه، لا بل زمانه، وعظَّم لها فكره وغمُّه، وتعب في مداراتها، وكما قال أبو الطيب المتنبي: «وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللهُ مَنْ رَادَ مُحَمَّدُهُ»، فارتحل لطيبته، واقتعد غارب مطيَّته، فحجَّ وزار، وشدَّ للظُوف الإزار. ثم هبَّ إلى المغرب وحوم، وقفل قفول النسيم عن الرُّوض بعدما تلوم، وخطَّ بإفريقية على نار القُرى، وحمد بها صباح السُرى، ولم يلبث أن تنقل، ووَجِرَ الحميمُ شِفافه وتنغل، ثم بدا له أخرى فشرق، وكان عزمه أن يجتمع فتفرَّق».

مشيخته: روى^(٢) عن مشيخة بلده وأشجر، وقيد واستكثر، وأخذ في رحلته عن أناس شتى يشقُّ إحصاؤهم.

توالياً: منها كتاب «المُساهلة والمسامحة»، في تبیین طرق المداعبة والممازحة، و«إيقاظ الكرام، بأخبار المنام»، و«تنعيم الأشباح بمحادثة الأرواح»، وكتاب «الوسائل، ونزهة المناظر والحمائل» و«الزَّهراء، وإجالة النظرات»، وكتاب في «التَّوَرِيَّة» على حروف المعجم، أكثره مروي الأسانيد عن خلق كثير، والله تعالى يَحْزُرُهُ؛ وجزء في تبیین المشكلات الحديثة الواصلة من زُبيد اليمن إلى مكَّة؛ وجزء في بيان اسم^(٣) الله الأعظم، وهو كبير الفائدة، و«نزهة الحَدَق»، في ذكر الفِرَق، وكتاب الأربعين حديثًا البُلدانية، والمُستدرك عليها من البلاد التي دخلتها، ورويت فيها، زيادة على الأربعين، و«روضة العباد المستخرجة من الإرشاد»، وهو من تأليف شيخنا القطب أبي محمد الشافعي؛ والأربعون حديثًا التي رويتها عن الأمراء والسيوخ،

(١) نقل لسان الدين في الكنية الكامنة (ص ٢٦٠ - ٢٦١) ما ذكره في التاج المحلى، وهو لا يوافق ما أدرجه هنا في ترجمة ابن الحاج.

(٢) نفح الطيب (ج ٩ ص ٣٣١). (٣) في النفح: «الاسم الأعظم، كثير الفائدة».

الذين رَوَوْا عن الملوك والأمراء؛ والشيخ الذين رَوَوْا عن الملوك والخلفاء القريب عهدهم؛ ووصلت بها خاتمة ذكرت فيها فوائد مما رويته عن الملوك والأمراء، وعن الشيخ الذين رَوَوْا عن الملوك والأمراء؛ وكتاب «اللباس والصحة» وهو الذي جمعت فيه طرق المتصوفة، المدعى أنه لم يجمع مثله؛ وكتاب فيه شطر الحماسة لحبيب، وهو غير مُكَمَّل؛ ورجز^(١) في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت ببلاذ^(٢) الشرق؛ ورجز صغير في الحجب والسلاح، ورجز في الجدل؛ ورجز^(٣) في الأحكام الشرعية سَمَاهُ، بـ «الفصول المُقتضبة»، في الأحكام المُتَّخِبة؛ وكتاب سَمَاهُ بـ «مثاليث»^(٤) القوانين، في التورية والاستخدام والتضمين، وهو كله من نظمه؛ وله تأليف سَمَاهُ بـ «فيض العباب، وإجالة قِداد الآداب، في الحركة إلى قُسْطِطِينَة والزَّاب».

شعره: ومن شعره في المقطوعات^(٥): [الكامل]

طاب العَذِيبُ بماء^(٥) ذُكْرِكَ وانثى فكأنما ماء العذيب سلاقه

واهتز من طربٍ للقياك الحمى فكأنما بانائه^(٦) اعطافه

ومن ذلك^(٧): [الطويل]

لي المدح يُزوى منذ كنت كأنما تصورت مدحا للوزى وثناء

وما لي هجاء فاعجب لشاعرٍ وكاتبٍ سرٌّ لا يُقيم هجاء

ومن ذلك^(٨): [الطويل]

ولي قَرَسٌ من عِلْيَةِ الشُّهْبِ سابقٌ أَصْرُفُهُ يومَ الوغى كيف أطلُبُ

غدوت^(٩) له في حَلْبَةِ القوم مالكا يتابعني ما شئت في السَّبَقِ أَشْهَبُ^(١٠)

(١) في النفع: «وجزه».

(٢) في النفع: «مثالب».

(٣) في الكتيبة: «بطيب».

(٤) في الأصل: «بانائه» وقد اخترنا هذه الكلمة كما في الكتيبة الكامنة لأنها أكثر ملاءمة للمعنى. والبانات: جمع بانه وهي التي يشبه بها الخصر الدقيق.

(٥) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٢٦٦)، ونثر فرائد الجمان (ص ٣١٨)، ونفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٤).

(٦) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٢٦٦).

(٧) في الأصل: «غدوت» بالعين المهملة، والتصويب من الكتيبة.

(٨) في الكتيبة: «فتابعني منه كما شاء أشهب».

وقال، وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء «فيض»^(١) الثغور» وشرب منها^(٢): [المقارب]

تَعَجَّبْتُ مِنْ تَغْرِ هَذَا الْبَلَدِ وَهَا أَنْتَ مِنْ عَيْنِهِ شَارِبٌ^(٣)
فَلِلَّهِ تَغَرٌّ أَرَى شَارِبًا وَعَيْنٌ بَدَا قَوْقُهَا حَاجِبٌ
ومن ذلك^(٤): [المقارب]

وَحَمَاءٌ فِي الْكَأْسِ مَشْمُولَةٌ تُحْتُ عَلَى الْعَوْدِ فِي كُلِّ بَيْتٍ
فَلَا عَزْوٌ أَنْ جَاءَنِي سَابِقًا إِلَى الْأَنْسِ جِلٌّ^(٥) يَحْتُ الْكُمَيْتُ

وقال مُضْمِنًا، وقد تذكر حمراء غرناطة، وبابها الأُخْفَلُ المعروف «بباب الفَرْج»^(٦): [المقارب]

أَقُولُ وَحَمَاءُ غَرْنَاطَةٍ تَشْوِقُ تَشْوِقُ التُّفُوسَ وَتَسْبِي الْمُهَجِ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي بِطُولِ السُّرَى أَرْتَنَا الْوَجَى وَاشْتَكْتَ الْعَرَجِ
وَمَا لِي فِي عَرَجٍ رَغْبَةٌ وَلَكِنْ لَأَقْرَعَ بَابَ الْفَرْجِ
وقال مُلَغِّزًا فِي قَلَمٍ وَهُوَ ظَرِيفٌ^(٧): [الطويل]

أَحَاجِيكَ^(٨) مَا وَاشٍ يُرَادُ حَدِيثُهُ وَيَهْوَى الْغَرِيبَ النَّازِحُ الدَّارِ إِفْصَاحُهُ
تَرَاهُ مَعَ الْأَحْيَانِ أَصْفَرَ نَاحِلًا كَمِثْلِ مَرِيضٍ وَهُوَ قَدْ لَازَمَ الرَّاحَةَ^(٩)
وقال: [الطويل]

وَقَالُوا رَمَى فِي الْكَأْسِ وَزْدًا فَهَلْ تَرَى لِذَلِكَ وَجْهًا؟ قُلْتَ أَحْسِنَ بِهِ قَضْدًا
أَلَمْ تَجِدِ اللَّذَاتِ فِي الْكَأْسِ حَلْبَةً؟ فَلَا تُنْكِرُوا فِيهَا الْكُمَيْتَ وَلَا الْوَزْدَا

(١) في نفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٧): «يبعض الثغور».

(٢) البيتان في نفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٧).

(٣) رواية عجز البيت في النفع هي:

ومولاي من عينها شاربٌ

(٤) البيتان في الكنية الكامنة (ص ٢٦٦)، ونفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٧).

(٥) في الكنية: «جِبٌّ».

(٦) كان باب الفرج في عهد بني نصر باب قصر الحمراء الرئيسي، وليس له أثر اليوم.

(٧) البيتان في الكنية الكامنة (ص ٢٦٧)، ونفع الطيب (ج ٩ ص ٣٣٦).

(٨) في النفع: «سألتك».

(٩) في النفع:

تراه مدى الأيام أصفر ناحلاً كمثل عليل وهو قد لازم الراحة

وقال^(١): [الطويل]

كُماة تلاقَتْ تحتَ نَفْعِ سيوفهم وللهام رَقَصَ كُلّما طُلِبَ الثَّارُ
فلا عَزَوْا أنْ عُنْتُ وتلك رواقصُ لها^(٢) فيهمُ في ماردِ الحرب أوتارُ

وقال: [الرجز]

وعارضُ في خدّه نبأته فحُسْنُهُ بين الورى يسحرنا
أجرى دموعي إذ جَرَتْ شوقاً له فقلتُ هذا عارضُ مُمطرنا

وقال وقد توفي السلطان أبو يحيى بن أبي بكر، صاحب تونس، وولي ابنه أبو حفص بعد قتله لإخوته: [الطويل]

وقالوا أبو حفص حوى المُلْك غاصباً وإخوته أولى وقد جاء بالثُكْرِ
فقلت لهم كفّوا فما رضي الورى سوى عُمر من بعد موت أبي بَكْرِ

وقال مضمناً، وقد حضر الفتى الكبير عَئير قتالاً، وكان فارساً مذكوراً عند بني مَرين: [الكامل]

ولقد أقول وعنبرُ ذاك الفتى يَلْقَى الفوارس في العَجاج الأكور
يا عائرين لدى الجلاّد لَعاً فقد بَسَقَتْ لكم ريح الجلاّد بعنبر

وقال وقد اشتاق إلى السبيكة^(٣) خارج حمراء غرناطة: [مجزوء الرمل]

إنَّ إفراط بُكائي لم يَرُغ مني عريكة
قد أذاب العين لُماً زاد شوقي للسبيكة

وقال: [الكامل]

لُما نزلتُ من السبيكة صادني ظبي وددت لديه أن لم أنزل
فاعجب لظبي صاد لئناً لم يكن من قبلها مُتخبّطاً في أحبل

(١) البيتان في الكنية الكامنة (ص ٢٦٨).

(٢) بياض في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معاً، وفي الكتية: «فيينهم في مازق الحرب...».

(٣) السبيكة: موضع خارج مدينة غرناطة، وقد تغنى بها عدد من الشعراء. راجع في ذلك: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٣٧).

(٤) في الأصل: «وإن» وهكذا ينكسر الوزن.

وقال وهو ظريف: [الكامل]

قد قارب العشرين ظبي لم يكن ليرى الورى عن حبه سلوانا
وبدا الربيع بخذه فكانما وافى الربيع ينادم الثعمانا

وقال^(١): [الطويل]

أتوني فعابوا من أحب جماله وذاك على سمع المحب خفيف
فما فيه عيب غير أن جفونه مراض وأن الخضر منه ضعيف

وقال: [المتقارب]

أيا عجباً كيف تهوى الملوكة محلي وموطن أهلي وناسي
وتحسدني وهي مخدومة وما أنا إلا خديم بفاس

نثره: ونثره تلو نظمه في الإجادة، وقد تضمن الكتاب المسمى بـ «نفاضة الجراب» منه ذكر كل بديع؛ فمما ثبت فيه، مما خاطبته به، وقد ولي خطة القضاء بالإقليم، أداعبه، وأثير ما تستحويه عجائبه: [السرير]

يا^(٢) قاضي العدل الذي لم تزل تمتاز شهب الفضل من شمسك
فعدت للإنصاف بين الورى فاطلب لنا الإنصاف من نفسك

«ما للقاضي، أبقاه الله، ضاق دزغ عدله الرحيب، عن العجيب؛ وهم عن الغتب، وضن على صديقه حتى بالكُتب؛ أين المدونة الكبرى ركب هذا التحريج، أم من المبسوطة ذهب إلى هذا الأمر المريج؛ أم من الواضحة امتنع عن الإمام ببديع الوفاء والتعريج؟ من أمثالهم ارض من أخيك بعشر وده إذا ولي، وقد قنعنا والحمد لله بحجة من مده، وإشارة من دزجه، وبيرة وصاعة معتدلة، من زمان بلوغ أشده؛ فما باله يمطل مع الغنى، ويخرج إلى العنا، مع قزب الجنى؛ المحلة حلة ضالع، ومطمع وطامع، ومزاي ورأي، ومستمع وسامع، والكثف واسع، والمكان لا ناء ولا شاسع؛ والضرع حافل؛ والزرع كاف كاف؛ والقريحة وارية الرند، والإمالة خافقة البند؛ وهب أن البخل يقع بها في الإخوان على الإخوان، فما باله يسمح بالبيان، وليس الخبر كالبيان؛ ويتعدى حظ الجنان، لا خط البنان؛ أعيد سيدي من ارتكاب رأي ذميم، ينقل إلى نميرها بيت تميم؛ ويقصد معناه بتميم، وهلا تلا حم؛ وعهدي بالسياسة القاضوية، وقد نامت في مهاد أهل الظرف، نوم أهل الكهف، ولم تُبال بمردد الويل

(١) البينان في الكتيبة الكامنة (ص ٢٦٩). (٢) في الأصل: «أبا» وهكذا ينكسر الوزن.

واللَّهْف، أو شَرِيَّة لحفظ الصُّحة بِخُتْجَا، ودَقَّت لإعادة الشَّيبة عَفْصًا وَرِدَ سَخْتَجَا؛ وغطَّت الصَّبح بالليل إذا سَجَا، ومدَّت على ضاحي البياض صِلًا سَخْجَسَجَا؛ وردَّت سَوَسَن العارض بَنَفْسَجَا، وَلَيْسَ بحرَّها الزَّآخِر من طُخْلَب البحر مُنْتَسَجَا؛ وأحكامُ العَامة، ومزِين المرأة ينصح وَيُرشد، ويطوي المحاسن وينشد، حتى حُسِنَت الدَّارة، وصَحَّت الاستِدارة، وأعجبه الوجهُ الجميل، والقُدُّ الذي يَميد في ذَكَّة الدَّار ويميل، وأغرى بالسُّواك السُّميم والتَّكميل، وولج بين شَفرتي سيد الميل، وقيل لو صاح اليمين خَاب فيكَ التَّاميل؛ وامتدَّ جناح برنس السُّرِق، واحتفل الغصن الرُّطيب في الورق، ورشَّ الوُزْد بمائه عند رَشَح العرق. وتَهِيًا لمنطَلَق، فقرات عليه نساء أعوانه، وكَتَبَة ديوانه، سورة الفَلَق؛ من بعد ما وَقَف الإمليق حُجَّابه على إقدامهم، وسحبهم جلاوزته من أقوامهم؛ فمثلوا واصطَفُوا، وتألَّفوا والتَّقُوا، وداروا وحُفُوا، وما تسَلَّلوا ولا خفوا؛ كأنما أسمعَهم صيحة النُّشْر، وأخرجوا لأول الحُشْر، فغيَونهم بملتقى المِضْراع معقودة، وأذهانهم لِمكان الهية مَفْقودة، وجبالَهم قبل الطلب بها منقودة؛ فبعد ما فَرَش الوِساد، وارتفع بالثُّفاق الكساد، وذارع البكا وتآرَج الحُساد، واستقام الكون وارتفع الفساد، وراجعت أرواحها الأجساد؛ جاءت السَّادة القاضية فجلست، وتنعمت الأحداقُ بالنظر فيها واختَلست، وسجَّت الأكُفُّ حتى أفلست؛ وزانت شمسُها ذلك الفَلَك، وجَلَّت الأنوار ذلك الحَلَك، وفُتحت الأبواب وقالت هَيَّت لك؛ ووقفت الأعوانُ سِماطينَ ومثلوا حَطينَ، وتشكَّلوا مجرَّة تنتهي منك إلى البطين، يُعلنون بالهدية ويجهرُونَ، وَلَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ^(١)؛ من كل شهاب ثاقب وطائف غائب واقب، وملاحظ مُراقب؛ كميَشُ الإزار، بعيد المزار، حامل للأوبار، خصيم مبین، وارثُ سوفسطائيا عن رثين، مضطلع بفقهِ البين وحريمها، فضلًا عن تلقين الخصوم وتعليمها، يرأسهم العريف المقرَّب، والمقدَّم المُدرَّب، والمُشافه المُباشِر، والتَّابِج الشاكر، والتَّهَج العاشر؛ الذي يقتضي خلاص العَقْد، ويقطع الكالي والثَّقْد، ويُرَكِّي ويجرِّح، ويُمسك ويسرِّح ويطرح، ويحمل مَنْ شاء أو يشرِّح، والمُسيطر الذي بيده ميزان الرُّزق، وجميع أجزاء المُفترق، وكافة قابله، وحم الدَّواة الفَاغرة، ورشا بلالة الصُّدور الواغرة؛ فإذا وقف الخصمان بأقصى مطرح الشعاع، أيان يجتمع الرِّعاع، وأعلنا النداء، وطلب الأعداء، وصاحا: جعل الله أنفسنا لك الفِداء، ورُفِع الأمر إلى مُقْطِع الحق، والأولى بالمشوبة الأحق، أخذتُهما الأيدي دفْعًا في القُفْي، ورفعنا السُّتر اللطيف الخَفْي، وأمسكا بالعِجْر والأَكمام، ومنعا المباشرة والإلمام؛ فإذا أدلى بحجَّته مَنْ

أدلى، وسمعها دينه عدلاً، وحق القول، واستقر الهول، ووجبت اليمين، أو الأداء الذي يفوت له الذخر الثمين، أو الرهن أو الضمين، أو الاعتقال الذي هو على أحدهما كالأمين؛ نهش الضل، الذي سليمة لا هل، ولستبت العقارب، التي لا يفلتها الهارب، ولا تخفى منها المشارب؛ وكم تحت ظلام الليل من غرارة يحملها غر، وصدّه ريع فيها صر؛ ويهدي ارتقاب قلة شهّد، وكبش يجز بقرنيه، ويدفع بعد رفع ساقه؛ ومغزى وجذى وقلائد، وسرب دجاج، ذوات بجاج، يفضحن الطارق، ويشعن المفارق، فمتى يستفيق سيدي مع هذا اللغظ العائد بالصلة، واللهم المتصلة، وتفرغ يده البيضاء لأعمال ازتياض، وخط سواد في بياض، أو حنين لدوح أو رياض؛ أو إمتاع طرف، باكتشاف حرف، أو إعمال عدل لرسول في صرف، أو حشو طرف، بثقة ظرف؛ شائه أشد استغراقاً، ومثواه أكثر طراقاً، من ذكرى حبيب ومنزل^(١)، وأمّ معدّل؛ وكيف يستخدم القلم الذي يصرف ماء الحبر، بذوب الثبر، في ترهات عدم جناها؛ وأقطع جانب الخيبة لفظها ومعناها؛ اللهم إلا أن تحصل النفس على كفاية تحتم لها الصدر، ويثام من خلالها اللجين الرفيع القدر، أو يحيى للفتكاهة والأنس، أو ينفق لديها ذمام على الجنس؛ فربما تقع المخاطبة المبرورة، وتبيح هذا المرتكب الصعب الضرورة؛ والمرغوب من سيدنا القاضي أن يذكّرنا يوماً بالإغفال في نعيمه، ولا يخيّب آمالنا المتعلقة بأذيال زعيمه، ويُسهمنا حظاً من فرائد خطه، لا من فوايد خطته، ويجعل لنا كِفلاً من فضل بُرته وجنّته لا من فضل هرّته وقطته؛ فقد غنينا عن الحلوات بحلوات لفظه، وعن الطرف المجموعة، بفنون جفّظه، وعن قصب السكر، بقصب أقلامه؛ وعن جنى الرّوم برّوامه، وبهذيه، عن جذيه؛ وبمجاجته، عن دجاجته؛ وبدلجه عن أثرجه؛ وعن البُر بيره، وعن الحب بحبه؛ ولا نأمل إلا طلوع بطاقته، وقد رضينا بوسع طاقته؛ وإلا فلا بد أن يجيش جيش الكلام إلى عثبه، ونوالي عليه ضرايب الكتائب، حتى يتقي بضريرة كُتبه، والسلام.

فراجعني بما نصه: [الطويل]

كما قُلْتُ لكم من فراقكم قاضٍ
بكلّ الذي تَرْضاه يا سيدي راضٍ

فنيّت عن الإنصاف مَنّي لأنني
فمن سمعنا أو مَن بعينك إنني

(١) يشير إلى قول امرئ القيس: [الطويل]

بَسَقَطِ اللّوى بين الدُّخُولِ وخُزْمِلِ

قفا نَبَلِك من ذِكرى حبيبٍ ومنزلٍ

ديوان امرئ القيس (ص ٨).

«عَمَرَكَ اللهُ أَيُّهَا الإمامُ الفُذُّ، وَمَنْ بِمَدْحِهِ تَطَرَّبَ الأَسْمَاعُ وَتَلَدُّ، أَوْحَدُ الدُّنْيَا وَحَائِزُ الرُّتَبَةِ العُلْيَا؛ وَلَوْلَا أَنْكَ فَوْقَ مَا يُقَالُ، وَالزُّلَّةُ إِنْ لَمْ تُظْهِرِ العَجْزَ عَنْ وَضْفِكَ لَا تُقَالُ، لِأَطْلُكُ فِي القَوْلِ، وَهَدَزْتُ هَدِيرَ قَرَعِ الشُّوْلِ، لَكِنْ تَحْصِيلُ الحَاصِلِ مُحَالٌ، وَلِكُلِّ فِي تَهْيِيبِ كِمَالِكَ مَقَالٌ، وَمَقَامٌ وَحَالٌ؛ وَلَوْلَا أَنَّ الدَّعَاءَ مَأْمُولٌ، وَهُوَ يَظْهَرُ الغَيْبَ مَقْبُولٌ، وَالزِّيَادَةُ مِنْ فَضْلِ اللهِ لَا تَنْتَهِي، وَالتَّعَمُّ قَدْ تُوفِّيكِ، فَوْقَ مَا تَشْتَهِي، لَأُرَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ كَفِي، وَأَمْرٌ ظَهَرَ فِيهِ مَا خَفِيَ: [البسيط]

إِنْ قُلْتُ لَا زِلْتُ مَرْفُوعًا فَانْتَ كَذَا أَوْ قُلْتُ زَانِكُ رَبِّي فَهُوَ قَدْ فَعَلَا

إِيَّاهُ يَا سَيِّدِي، مَا هَذِهِ الكَلِمَاتُ السَّحَرِيَّةُ وَالْأَنفَاسُ النَّفِيسَةُ الشَّجَرِيَّةُ، وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي أَنَالَتْ المَرْغُوبَ وَخَالَطَتْ بِشَاشَتِهَا القُلُوبَ، وَالنُّزَعَاتُ الرَّائِقَةُ، وَالْأَسَالِيبُ الْفَائِقَةُ، وَالْفَصَاحَةُ الَّتِي سَلَبَتْ العُقُولَ، وَالبَلَاغَةُ الَّتِي أَوْجَبَتْ الذُّهُولَ؛ وَالبَيَانُ الَّذِي لَا يَضِيقُ صَحِيفَهُ، وَلَا يَبْلُغُ أَحَدُ مَدَّهِ وَنُصَيْفِهِ؛ يَمِينًا بِمَا احْتَوَى مِنَ المَحَاسِنِ، وَاللِّطَائِفِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ مَأْوَها بِالْأَسْنِ، وَقِسْمًا بِبِرَاعَتِكَ الَّتِي هِيَ الوَاسِي المُطَاعُ، وَطَرِيزِكَ الَّذِي أَبْهَجْتَ بِهِ الْأَبْصَارَ وَالْأَسْمَاعَ؛ لَقَدْ عَادَ لِي بِكِتَابَتِكَ عِيدُ الشُّوقِ، وَجَادَ لِي بِخُطَابِكَ جَدُّ الشُّوقِ، وَلَعَهْدِي بِنَفْسِي زَهْنُ أَشْجَانِي، غَيْرَ مَخْلُولَةٍ عُقْدَةٍ لِسَانِي، أَشَدُّ مِنَ الصَّخْرَةِ جَلْدًا، وَأَغْلَظُ مِنَ الْإِبِلِ كِبْدًا؛ حَتَّى إِذَا بَدَتْ حَقِيدَةُ القَلْبِ وَهَبْتُ نَسِيمَهُ الرُّطْبِ، وَأَفْتِيحَ مَوْرَدِهِ الْعَذْبِ، وَأَضَاءَ بَنُورِهِ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَلَمْ يَبْقَ لِي بَثٌّ وَلَا شَجَنٌ، وَلَا شَاقِنِي أَهْلٌ وَلَا وَطَنٌ؛ وَمَضَى سَيْفُ اللِّسَانِ بَعْدَ النِّبْوِ، وَنَهَضَ طَرْفُ الْفِكْرِ بَعْدَ الْبُكْرِ، وَهَزَّنِي الطَّرْبُ الْمَثِيرُ لِلْأَفْرَاحِ، وَمَشَى الْجَدَلُ فِي أَطْرَافِي وَأَعْطَانِي مَشْيَ الرِّيحِ؛ بَيِّدَ أَنِّي خَجَلْتُ وَلَا خَجَلَةَ رِيَّةَ الْخِذْرِ، وَتَضَاءَلَتْ نَفْسِي لِجَلَالَةِ ذَلِكَ الْقَدْرِ؛ وَقُلْتُ مَا لِي بِشَرْيَةِ مِنْ كَأْسِ بَيَانِهِ، وَقَطْرَةٍ مِنْ بُحُورِ إِحْسَانِهِ؛ حَتَّى أُوْدِي وَلَوْ بَعْضَ حَقِّكَ، وَأَكْتُبَ عَقْدَ مِلْكٍ رَقِي لِرَقِّكَ، إِنِّي عَلَى مَا وَلِيْتُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَالصُّدَاقَةِ وَبَعْدَ طَلَاقِكَ؛ لَكِنِّي أَقُومُ فِي حَقِّكَ مُسْتَعْفِرًا، وَلَا أَرْضَى أَنْ أَكُونَ لِدِمَّةِ المَخْدُومِ خَفْرًا؛ عَلَى أَنِّي أَقُولُ، قَدْ كَتَبْتُ فَلَمْ يُرَدِّ جَوَابِي، وَجَرَمْتُ فَهَاجَ الْجَوَى بِي، وَلَعَمْرِي قَدْ لَزِمْتُ فِيهِ خِطَّةَ الْأَدَبِ، وَلَمْ أَرَ التَّثْقِيلَ عَلَى المَوْلَى الرَّفِيعِ الرُّتَبِ؛ فَأَمَّا وَقَدْ نَفَقْتُ عِنْدَكَ بِضَاعَتِي الْمُزْجَاةَ، وَشَمَلَنِي مِنَ لَذْنِكَ الْحَلْمِ وَالْإِنَانَةِ، وَشَرَفْتَنِي بِالْخُطَابِ الْكَرِيمِ، وَالرِّسَالَةِ الَّتِي عَرَفْتُ فِي وَجْهِهَا نُضْرَةَ النِّعَمِ؛ فَمَا أَبْغِي إِلَّا إِيْرَادَهَا عَلَيْكَ وَكُلَّهَا خَرَا، وَلِيُزِدْهَا فِي الْإِجَادَةِ إِنْهَاجَ؛ وَلَعَلَّكَ تَرْضَى التَّخْرِيجَ مِنْ مُدَوَّنَةِ الْأَخْبَارِ، وَالْمُبَسُّوطةِ وَالْوَاضِحَةِ، لَكِنْ مِنَ الْأَعْذَارِ. وَأَمَّا الْوَلَايَةُ الَّتِي يُقْنَعُ بِسَبَبِهَا مِنَ الْوُدِّ بِالْعُشْرِ، أَوْ بِحَبَّةٍ مِنَ الْمُدِّ إِلَى يَوْمِ النَّشْرِ، فَلَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ الْقَانِعُ مُحْتَاجًا لِلْوَالِي، وَمُقْتَفِرًا إِلَى التَّفَقُّدِ الْمُتَوَالِي؛ وَأَمَّا إِذَا كَانَ الْقَانِعُ هُوَ الَّذِي تَوَلَّى الْخُطَّةَ، وَأُكْسِبَ الْهَرُّ

الذي أشار إليه والقطة، فهو قياسٌ عكسه كان أقيس، بل تعلّم لمن وجد في نفسه خيفةً وأوجس؛ وهأنا قد فهمتُ وعلمتُ، من حُسن تأديبك ما علمتُ، وعلى ما فرطت في جَنبِكَ ندمت، وإلى المعذرة والحمد لله أُلهمت؛ ومع ذلك أُعيدُ حديث الشيخ القاضي، وذكر عهدك به في الزمان الماضي؛ فلقد أجاد في الخضاب بالسواد، واعتمد على قول المالكي الذي هَدَى إلى الرُّشاد، وأوجه بعضهم في بلاد الجهاد؛ ويُبَيِّن عمرُ منافع الخضاب الصادقة الإِشهاد، وخَضَب بالسواد جماعة من الصُّحابة الأمجاد؛ وكان ذلك ترخيصًا لم يُعدَّ شُرْعًا، لكنه دَفَعَ شُرًا وجلب نَفْعًا؛ لا كإخيه الذي أبكى عين الحميم، وأنشد قول الرُّضَيِّ يوم السقيم، وفجع قلوب أترابه، ولم يأت بيت التَّضَف من بابه؛ وإلا فقد علم أن في الخير مشروع^(١)، وتَعَجَّل الشيء قبل أوانه ممنوع، وسَتَغَيَّب أخاك ولو بعد حين، وما كل صاحب يحمد في إيضاح وتبيين، وإني لأرجو أن تتزوجها بكراً، تلاعبها وتلاعبك، أو ثِيْبًا تَقْصُرَ عن حبِّها مآربك؛ فلا جَزَمَ ترجع إلى الخضاب، وحينئذ تُمَتِّع برشف الرُّضاب؛ وإلا قالت سيدي، لا تعظم المُنَى، ولا تجعل القَطْر قبل أن يموت عمر؛ لَعَمْرُ الله إن هذا الموقف صَغْب، قد ملا الروح منه رَوْعٌ ورُغْب؛ وإن أضاف إلى ذلك غَلَبَةُ الأوهام، وظن الشيخوخة الصادرة عن نيل المرام، سكن المُتَحَرِّك المصلوب، وتنقُص عند ذلك المحبوب؛ والله يُعينك أيها المولى، ويواليك من بَسْطه أضعاف ما ولى. وأما الأوصاف التي حَسَبْتَهَا أوصافي، وأزجبتُ حُكْمَهَا بالقياس على خلافي، فهي لَعَمْرِي أوصاف لا تُرَاد، ومَرَاعٍ لا شَكَّ أنها تُرَاد؛ غير أنني بعيد العهد بهذه البلاد، لا أمت لها إلا بالانتساب والميلاد، لا كالقضاة الذين ذكرت لهم عهدًا، ونَظَّمْتُ خُلاصهم في جيد الدهر عِقْدًا؛ ولو أنك بسرَّكَ بَصُرْتَنِي بشروط القضاء وسجايأ أهل الصَّرامة والمضاء، لحققت المناط، وأظهرت الزهد والاعتباط؛ لكنني جهلت والآن ألهمت؛ وما عَلِمَ الإنسان إلا لِيَعْلَم، والله يهدينا إلى الذي يكون أحسن وأقوم؛ وإني لأُعْلِمُ سيدي بخبري، وأطلع جلاله على عُجْرِي^(٢) وبُجْرِي؛ ولكنني رَحَلْتُ عن تلك الحَضْرَةِ، وعَدِمْتُ النظرة في تلك النظرة؛ لبستُ الإهمال، وأطلعت في السفر والاعتماد، فأقيم بادي الكآبة، مهتاج الصُّبابة، قد فارقت السُّكن، وخلفت الدار مشيرة الشُّجن:

[الوافر]

وكانت جَنَّتِي فخرجتُ منها كَادَمَ حين أخرجَه الضُّرَّارُ

(١) تقتضي قواعد الإعراب أن تُنْصَب؛ لأنها اسم إن.

(٢) العُجْر: العيوب. والبُجْر: الأحزان. لسان العرب (عجر) و(بجر).

حتى إذا حَطَّطْتُ رَحْلي بالقرى، وَقَنِعْتُ بِالزَّادِ الذي كَفَى مَعْيَارًا والْبَرَى؛
أَدْخَلْتُ إلى دار ضَيْقَةِ المسالك، شَدِيدَةِ الظُّلْمَةِ كالليلِ الحالِك، تُذَكِّرُنِي القَبْرَ
وأهواله وتُسَيِّنِي الذي أهواه، بَلْ تَزِيدُ على القَبْرِ بَرْقَلًا لَا يُتَخَلَّصُ، وَبِرَاغِيثٍ كَزُرْبَةِ
الْكُثَّانِ حِينَ تُمَحِّصُ؛ وَبَعُوضٍ يُطِيلُ اللَّهْزَ^(١)، وَلَا تَغْنِي حَتَّى تَشْرَبَ، وَبوقٍ يَسْقُطُ
سَقُوطَ النَّدى، وَيَرْحَفُ إلى فَرَّاشِي رَحْفَ العِدا؛ وَأَراقِمَ خَارِجَةً مِنَ الْكُوى، وَحَيَّاتٍ
بِلَذْعِهَا نَزَاعَةً لِلشَّوى؛ وَجَنُونَ يُسْمَعُ عَزِيفُهَا، وَسُرَّاقٌ لَا يَعْدُمُ تَخْوِيفُهَا؛ هَذَا وَلَا
قَرَقَ لِمَنْ بِالْقَهْرِ حُبْسٌ، إِلَّا حَصِيرٌ قَدْ اسْوَدَّ مِنْ طَوْلٍ مَا لُبَسَ؛ لَا يُجْتَزَى فِي
طَهَارَتِهِ بِالْفُضْحِ، وَلَا يُحْشَدُ مَنْ جَلَسَ عَلَيْهِ إِلَّا بِالْجَرَحِ؛ حَتَّى إِذَا سَجَا اللَّيْلُ، وَامْتَدَّ
مِنْهُ عَلَى الْآفَاقِ الذَّبِيلُ، فَارَقَنِي الْعَوْنُ فِرَاقَ الْكُرى، وَرَأَيْتُ الدَّمْعَ لَمَّا جَرَى قَدْ
جَرَى؛ فَاتَوْسَدُ وَاللهُ ذِرَاعِي، وَلَأَحْمَدُ وَاللهُ اضْطِجَاعِي؛ فَكَيْلًا لَيْلِي مَحْمُومِينَ^(٢)،
وَالْوَجْعَ وَالسَّهْرَ مَحْمُولَانِ عَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ؛ حَتَّى إِذَا طَلَعَ الصَّبْحُ، وَأَنَّ لِبَالِي
وَعْيُونَ الْخَصُومِ الْفَتْحُ، أَنَانِي عَوْنٌ قَدْ انْحَنَى ظَهْرُهُ ظَهْرَهُ، وَنَيْفٌ عَنِ الْمِائَةِ عَمْرُهُ،
لَا يَشْعُرُ بِالْجَوْنِ الضَّيِّبِ، وَلَا تُسْمَعُهُ كَلِمَاتُ أَبِي الطَّيِّبِ؛ بَرْبَرِي الْأَصْلِ، غَيْرِ
عَارِفٍ بِالْفَضْلِ؛ حَتَّى إِذَا أَذِنْتُ لِلْخَصُومِ، وَأَرَدْتُ إِحْيَاءَ الرُّسُومِ، دَخَلَ عَلَيَّ غَوْلَانُ
عَاقِلَانِ، وَأَثْقَلُ كَتَفِي مِنْهُمَا مَائِلَانِ، قَدْ أَكَلَا الثُّومَ الثِّيَّ وَالْبَصْلَ، وَعَرَقَا فِي الزَّنَانِيرِ
عَرَقًا اتَّصَلَ، يُهْدِيَانِ إِلَيَّ تِلْكَ الرِّوَائِحَ، وَيُظْهِرَانِ لِي الْمَخَازِي وَالْفَضَائِحَ؛ فَإِذَا
حَكَمْتُ لِأَحَدِهِمَا عَلَى خَصْمِهِ، وَأَرَدْتُ الْفَصْلَ الَّذِي لَا مَطْمَعَ فِي قَضْمِهِ؛ هَرَبَ
الْعَوْنُ هَرَبًا، وَقَضَى مِنَ النِّجَاةِ بِنَفْسِهِ أَرْبَا؛ وَاجْتَمَعَ إِلَى النِّصْحَاءِ، وَجَاءَ الْمَرْضَى
وَالْأَصْحَاءُ، كُلٌّ يَقُولُ أَتُرِيدُ تَعْجِيلَ الْمَنِيَا، وَإِثْكَالَ الْوَلَايَا، وَإِتْعَابَ صَدِيقِكَ السَّيِّدِ
الْعِمَادِ، بِمَرْتَبَةٍ كَمَا فَعَلَ مَعَ الْقَاضِي الْحَدَّادِ؛ فَأَقُولُ هَذَا جِهَادًا، وَمَا لِي فِي الْحَيَاةِ
مُرَادًا، فَأَزْتَكِبُ الْخَطَرَ، وَأَقْضِي فِي الْحَكَمِ الْوَطَرَ، وَاللهُ يَسْلُمُ، وَيُكْمِلُ اللَّطْفَ
وَيَتِمُّ. وَأَمَّا إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ لَكُتْبَ عَقْدٍ، وَطَمَعْتُ فِي نَسِيئَةٍ أَوْ نَقْدٍ، قَطَعْتُ يَوْمِي
فِي تَفْهَمٍ مَقْصَدِهِ، مُسْتَعِيدًا بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِهِ وَخَرَدِهِ؛ حَتَّى إِذَا مَا تَخَلَّصْتُ مِنْهُ،
وَمَلَأْتُ السَّجَلَ بِمَا أَثْبَتَهُ عَنْهُ، كَشَفْتُ عَنْ أَنْيَابِ عُضْلٍ، وَعَبَسَ عَبُوسَ الْمُحِبِّ
لَا نَقْطَاعَ وَضْلٍ؛ وَقَالَ: لَقَدْ أَخْطَأْتُ فِيمَا كَتَبْتُ، وَرَسَمْتُ مَا أَرَدْتُ وَأَحْبَبْتُ؛ فَأَكْتُبُ
عَقْدًا ثَانِيًا وَثَالِثًا، وَأَرْتَقُبُ مَعَ كُلِّ كَلَامٍ حَادِثٍ حَادِثًا؛ فَإِذَا رَضِي، فَأَسْأَلُهُ كَيْفَ؛
وَمِنْ السَّالِي الَّذِي أَظْهَرَهُ، أَوْ اسْمَهُ أَوْ السَّيْفَ، أَخْرَجَ مِنْ فَمِهِ دِزْهَمًا نَيْتًا، قَدْ لَزِمَ
ضِرْسًا عَفِينًا؛ فَأَعَاجِلُهُ فِي الْبُخُورِ، وَأَحْكُهُ فِي الصُّخُورِ، حَتَّى إِذَا حُمِلَ لِمَنْ يَبِيعُ

(١) اللَّهْزُ: الطَّلَعُ، يُقَالُ: لَهَزَهُ بِالرَّمْحِ إِذَا طَعَنَهُ فِي صَدْرِهِ. لِسَانُ الْعَرَبِ (لهز).

(٢) تَقْنِصِي قَوَاعِدَ الْإِعْرَابِ أَنْ تَرْفَعَ هَكَذَا: «مَحْمُومَان».

خَبِرَ الدَّرَّةَ مُنْتِنًا، وَيَرَى أَنَّهُ قَدْ فَضَّلَ بِذَلِكَ أُنْسًا وَحُسْنًا، وَجَدَهُ نَاقِصًا زَائِقًا، فِيرْجِعُ حَامِلَهُ وَجِلًّا خَائِفًا، وَيَبْقَى الْقَاضِي فَقِيْدَ الْهَجُوعِ، يَشُدُّ الْحَجَرَ عَلَى بَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ، عَلَى أَنِّي أَحْمَدُ خَلَاءَ الْبَطْنِ، وَمَا بِجِسْمِي لَا يُحْكِي مِنَ الْوَهْنِ؛ لَتَعْدَّرَ الْبِرْحَاضُ، وَيُعْدَ مَاءُ الْحِيَاضِ، وَكُمُومُ السَّبَاعِ فِي الْغِيَاضِ، وَتَعْلُقُ الْأَفَاعِي بِالرِّدَاءِ الْفِضْفَاضِ، وَنَجَاسَةُ الْحَجَارَةِ، وَكَثْرَةُ تَرْدُدِ السَّيَارَةِ، وَالْانْكَشَافُ لِلرِّيحِ الْعَقِيمِ، وَالْمَطَرُ الْمُتَنْصِبُ إِلَى الْمَوْضِعِ الذَّمِيمِ. هَذِهِ الْحَالُ، وَعَلَى شَرْحِهَا مَجَالٌ، وَقَدْ صَدَّقْتُكَ سُنَنَ فِكْرِي، وَأَعْلَمْتُكَ بِذَاتِ صَدْرِي، فَتَجَلَّى الْغَرَارَةُ غُرُورٌ، وَشُهُودُ الشَّهْدِ زُورٌ، وَالطَّمْعُ فِي الصُّرَّةِ إِصْرَارٌ، وَدُونَ الثَّبَرِ يَعْلَمُ اللَّهُ ثَيَّارٌ. وَأَمَّا الْكِبْشُ، فَحِطِّي مِنْهُ غُبَارُهُ إِذَا خَطَرَ، وَالثُّورُ بِقَرْنِهِ إِذَا الْعِيدُ خَضِرَ، كَمَا أَنَّ حِطِّي مِنَ الْجَدْيِ التَّأْدِي بِمَسْلَكِهِ، وَإِنَّ جَدْيَ السَّمَاءِ لِأَقْرَبَ لِي مِنْ تَمَلُّكِهِ، وَأَنَا مِنَ الْحَلَاوَةِ سَالِمٌ ابْنُ خَلَاوَةٍ، وَلَا أَعْهَدُ مِنْ طَرْفِ الطَّرَفِ الدِّمَاوَةِ، وَدُونَ الدَّجَاجِ كُلِّ مَدَجِّجٍ، وَعِوَضُ الْأَتْرَجِ رَجَّةٌ بِكُلِّ مَغْرَجٍ، وَلَوْ عَرَفْتُ أَنَّكَ تَقْبَلُ عَلَى عِلَاتِهَا الْهَدَايَا، وَتُوجِبُ الْمَزِيدَ لِأَصْحَابِكَ الْمَزَايَا، لَبَعَثْتُ بِالْقُمَاشِ، وَأَنْفَذْتُ الرِّيَاشَ، وَأَظْهَرْتُ الْغِنَى، وَالْوُقُوفَ بِمَبْنَى الْمُنَى، وَأَوْرَدْتُهَا عَلَيْكَ مِنْ غَيْرِ هَلَعٍ، مُطْلَعَةً فِي الْجَوْفِ بَعْدَ بَلْعٍ، مِنْ كُلِّ سَاحِلِيَّةٍ تُقَرِّبُ إِلَى الْبَحْرِ، وَعُذُوبَةٍ لَا تُعَدُّ وَصَدْرُ مَجْلِسِ الصُّدْرِ، حَتَّى أَجْمَعَ بَيْنَ الْفَاكِهِةِ وَالْفُكَاكِهَةِ، وَيَبْدُو لِي بَعْدَ الشَّقْفِ وَجْهَ الْوَجَاهَةِ، وَأَتَبَرُّ مِنَ الصُّدِّ الْمَذْمُومِ، وَلَا أَكُونُ أَهْدَأُ مِنَ الْقَطَا لَطَرِقِ اللَّوْمِ؛ لِأَنَّكَ زَهَدْتَ فِي الدُّنْيَا زُهْدَ ابْنِ أَذْهَمٍ، وَالْهَمَّكَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ أَكْرَمَ مَا أَلْهَمَ؛ فَيَذُكُ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ مَقْبُوضَةً، وَأَحَادِيثِ اللَّهِ الْفَاتِحَةِ لَهَا مَرْفُوضَةً؛ وَإِذَا كَانَ الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، وَمِنْ شَأْنِهِ سَلُوكُ نَهْجِهِ وَسَبِيلِهِ، فَالْأَلِيقُ أَنْ أَزْهَدَ فِي الصُّفْرَاءِ وَالْبَيْضَاءِ، وَأُقَابِلَ زُخْرَفَ الدُّنْيَا بِالْبُغْضَاءِ، وَأُحَقِّقَ وَأَرْجُو عَلَى يَدِكَ حُسْنَ التَّخَلِّيِّ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى أَسْرَارِ التَّجَلِّيِّ؛ حَتَّى أَسْعِدَ بِكَ فِي آخِرَتِي وَدُنْيَايَ، وَأَجِدَ بَرَكَתَ خَاطِرِكَ فِي مَمَاتِي وَمَخْيَايَ؛ أَبْقَاكَ اللَّهُ بِقَاءَ يُسْرٍ، وَأَمْتَعَ بِمَنَاقِبِكَ الَّتِي يَحْسِبُهَا الْيَاقُوتُ وَالذُّرُّ، وَلَا زِلْتَ فِي سَيَادَةِ تَرُوقِ نَعْتًا، وَسَعَادَةٍ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا، وَأَقْرَأُ عَلَيْكَ سَلَامًا عَاطِرَ الْعَرَفِ، كَرِيمَ التَّأَكِيدِ وَالْعَطْفِ، مَا رَأَيْتُ لِحَالِي رَاحَةً، وَذَكَرْتُ أَذَايَةَ حَرَاثٍ، وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ. وَكَتَبَهُ أَخُوكَ وَمَمْلُوكُكَ، وَشَيْعَةُ مَجْدِكَ، فِي الرَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى عَامٍ أَرْبَعَةٍ وَسِتِّينَ وَسَبْعِمِائَةٍ.

مولده: بغرناطة عام ثلاثة عشر وسبعمائة.

معرفته: توجه رسولاً عن السلطان إلى صاحب تلمسان السلطان أحمد بن موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمرايين بن زيان، وظفر بالجفن الذي ركبته العدو، بأخواز جزيرة حبيبة، من جهة وهران، فأيسر هو ومن بأسطول

سفره من المسلمين؛ وبلغ الخبر فعظم الفجع؛ وبيننا^(١) نحنُ نرومُ سفرَ أسطول يأخذ الثار، ويستقري الآثار، فيقبل العثار؛ إذ^(٢) اتصل الخبر بمهادنة السلطان المذكور، ففُدي مَنْ أيسرَ بذلك المال الذي يَنيف على سبعة آلاف من العَيْنِ في ذلك؛ فتخلص من المحنة لأيام قلائل، وعاد؛ فتولَّى السلطان إرضاء عمَّا فقد، وضاعف له الاستغناء وجَدَّد؛ وكان حديثه من أحاديث الفَرَج بعد الشدة محسوسًا، وإلى سعادة السلطان منسوبًا. وأنشدته شعرًا في مصابه، بعدها، وقد قضيت له من برِّ السلطان على عادتي، ما جَبَرَ الكُسر، وخَفَضَ الأمر: [المتقارب]

خَلُصْتُ كما خَلَصَ الزُبُرْقَانُ وقد مَحَقَ الثور عنه السَّرَازُ^(٣)
وفي السَّيِّقِ والرارِ في هذا سرٌّ وفي ذا أسراز^(٤)

وكان تاريخ هذه المحنة المُرَدِّفة المِنحة، حسبما نقلته من خطه؛ قال: «اعلموا يا سيدي أبقاكم الله تعالى، أن سفرنا من المِريَّة، كان في يوم الخميس السادس لشهر ربيع الآخر من عام ثمانية وستين وسبعمائة، وتغلب علينا العدو في عَشِيَّة يوم الجمعة الثاني منه، بعد قتال شديد؛ وكان خروجنا من الأسر في يوم السبت الثاني والعشرين لربيع الثاني المذكور، وكان وصولي إلى الأندلس في أسطول مولانا نصره الله، في جُمادى الآخرة من العام المذكور، بعد أن وصلوا قُرطاجنة وأخذوا أجفانًا ثلاثة من أجفان العدو، وعمل المسلمون الأعمال الكريمة».

إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله بن عمر
ابن فَرَقْدَ القُرشي العامري^(٥)

قال ابن عبد الملك: كذا وقفتُ على نَسَبه بخطه في غير ما موضع من أهل مُورَة^(٦)، وسكن إشبيلية.

حاله: كان مُتَفَنًّا في معارفه، محدِّثًا، راوية، عَدْلًا، فقيهاً، حافظًا، شاعرًا، كاتبًا، بارعًا، حَسَنَ الأخلاق، وطيء الأكناف، جميل المُشاركة لإخوانه وأصحابه، كتب بخطه الكثير من كبار الدواوين وصغارها، وكان من أصحَّ الناس كُتُبًا، وأتقنهم

(١) في الأصل: «وبين».

(٢) في الأصل: «السرا».

(٣) البيت منكسر الوزن، ولا معنى له، وخصوصًا صدره.

(٤) ترجمة إبراهيم بن خلف العامري في التكملة (ج ١ ص ١٣١).

(٥) مُورَة، بالإسبانية Mora: حصن بالأندلس من أعمال طليطلة. معجم البلدان (ج ٥ ص ٢٢١).

ضَبْطًا وَتَقْيِيدًا، لَا تَكَادُ تَلْقَى فِيمَا تَوَلَّى تَصْحِيحَهُ خَلَلًا، وَكَانَ رُؤُوفًا شَدِيدَ الْحَنَانِ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْيَتَامَى، ضَلِيلًا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، يَعْقِدُ الشَّرُوطَ مُحْتَسِبًا، لَا يَقْبَلُ ثَوَابًا عَلَيْهَا إِلَّا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

مَشِيخَتُهُ: تَلَا بِالسُّبُعِ عَلَى أَبِي عِمْرَانَ مُوسَى بْنِ حَبِيبٍ، وَحَدَّثَ عَنْ أَبِي الْحَسَنِ بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمُفْرِيِّ، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ بَقِيٍّ، وَأَبِي عَمْرٍو مَيْمُونِ بْنِ يَاسِينَ، وَأَبِي مُحَمَّدٍ بْنِ عَثَابٍ، وَتَفَقَّهَ بِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ الْحَاجِّ، وَابْنَ حَمِيدٍ، وَأَبِي الْوَلِيدِ بْنِ رَشْدٍ، وَأَجَازَ لَهُ أَبُو الْأَضْبَعِ بْنِ مَنَاصِفٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنِ قُزْمَانَ، وَأَبُو الْوَلِيدِ بْنِ طَرِيفٍ.

مَنْ رَوَى عَنْهُ: رَوَى عَنْهُ أَبُو جَعْفَرٍ، وَأَبُو إِسْحَاقَ بْنِ عَلِيٍّ الْمَزْدَالِي، وَأَبُو أَمِيَّةٍ إِسْمَاعِيلُ بْنُ سَعْدِ السَّعُودِ بْنِ عُفَيْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ بْنُ حَكَمِ الشَّرْمَسِيِّ، وَابْنُ خَيْرٍ، وَابْنُ يَسْعَ، وَابْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الصَّدْفِيِّ، وَأَبُو الْحَجَّاجِ إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَعْقُوبَ، وَأَبُو عَلِيٍّ بْنِ وَزِيرٍ، وَأَبُو الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ خَالصٍ، وَأَبُو زَيْدٍ مُحَمَّدُ الْأَنْصَارِيُّ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الذَّهَبِيِّ، وَأَبُو الْعَبَّاسِ بْنِ سَلْمَةَ، وَأَبُو الْقَاسِمِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ إِبْرَاهِيمِ الْمُرَاعِي، وَأَبُو مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ جُمْهُورٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ الْأَطَّلَسِ.

تَوَالِيْفُهُ: دَوَّنَ بِرَنَامَجًا مُتَمَتًّا ذَكَرَ فِيهِ شَيْوْخَهُ، وَكَيْفِيَّةَ اخْذِهِ عَنْهُمْ، وَلَهُ رَجَزٌ فِي الْفَرَائِضِ مَشْهُورٌ، وَمَنْظُومٌ كَثِيرٌ، وَتَرْسُلٌ مُنَوَّعٌ، وَخُطَبٌ مُخْتَلِفَةٌ الْمَقَاصِدُ، وَمَجْمُوعٌ فِي الْعَرُوضِ.

دَخُولُهُ غَرْنَاطَةَ: قَالَ الْمُؤَرِّخُ: وَفِي عَامٍ أَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ، عِنْدَ تَغَيُّبِ الْخَلِيفَةِ^(١) بِالْمَهْدِيَّةِ، اسْتَدْعَى السَّيِّدَ أَبُو سَعِيدٍ الْوَالِيَّ بِغَرْنَاطَةَ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِهِ بِهَا، الْحَافِظَ أَبَا بَكْرَ بْنَ الْجَدِّ، وَالْحَافِظَ أَبَا بَكْرَ بْنَ حَبِيشٍ، وَالْكَاتِبَ أَبَا الْقَاسِمِ بْنِ الْمُرَاعِي، وَالْكَاتِبَ أَبَا إِسْحَاقَ بْنِ فَرْقَدٍ، وَهُوَ هَذَا الْمُتَرْجِمُ بِهِ، فَأَقَامُوا مَعَهُ مَدَّةَ تَقَرُّبٍ مِنْ عَامَيْنِ اثْنَيْنِ بِهَا.

شَعْرُهُ: مِمَّا يَنْقُلُ عَنْهُ قَصِيدَةُ شَهِيرَةٍ فِي رِثَاءِ الْأَنْدَلُسِ: [الْمُقَارَبُ]

أَلَا مُنْعِدَّ مُنْجَزَ ذُو فِطْنٍ	يَبْكِي بِدَمْعٍ مَعِينٍ هَتِينٍ
جَزِيرَةَ أَنْدَلُسٍ حَسْرَةً	لَا غَالِبَ مِنْ حَقُودِ الزَّمَنِ
وَيَنْدُبُ أَطْلَالَهَا آيَقًا	وَيَزْثِي مِنَ الشَّعْرِ مَا قَدْ وَهَنَ

(١) هُوَ الْخَلِيفَةُ عَبْدُ الْمُؤْمَنِ بْنِ عَلِيٍّ الْمُوَحِّدِي الَّذِي حَكَّمَ الْأَنْدَلُسَ وَالْمَغْرِبَ حَتَّى سَنَةِ ٥٥٨ هـ. رَاجِعِ الْبَيَانَ الْمَغْرِبَ - قِسْمُ الْمُوَحِّدِينَ (ص ٧٩).

وَيَبْكِي الْيَامَى وَيَبْكِي الْيَتَامَى وَيَحْكِي الْحَمَام ذَوَات الشَّجَرِ
وَيَشْكُو إِلَى اللَّهِ شَكْوَى شَجٍ وَيَدْعُوهُ فِي السَّرِّ ثُمَّ الْعَلَنُ
وَكَانَتْ رِبَاطًا لِأَهْلِ الثُّقَى فَعَادَتْ مَنَاطًا لِأَهْلِ الْوَتَنِ
وَكَانَتْ مَعَادًا لِأَهْلِ الثُّقَى فَصَارَتْ مَلَاذًا لِمَنْ لَمْ يَدِنْ
وَكَانَتْ شَجَى فِي خُلُوقِ الْعِدَا فَأُضْحَى لَهُمْ مَالُهَا مُخْتَجِنُ

وهي طويلة، ولديّ خلاف فيمن أقرط في استحسانها. وشعره عندي وسط.
ومن شعره وهو حجة في عُمره عند الخلاف في ميلاده ووفاته، قال: [الطويل]

ثمانون^(١) مَغَّ سِتَّ عَمَرْتُ وَلَيْتَنِي أَرَقْتُ دَمْعِي بِالْبُكَاءِ عَلَى ذَنْبٍ
فَلَا الدَّمْعُ فِي مَخَوِ الْخَطِيئَةِ غُنْيَةً إِذَا هَاجَ مِنْ قَلْبٍ مُنِيبٌ إِلَى الرَّبِّ
فِيَا سَامِعَ الْأَصْوَاتِ رُحْمَاكَ أُرْتَجِي فَهَبْ^(٢) إِنْ سَكَبَ الدَّمْعُ مِنْ رِقَّةِ الْقَلْبِ
وَزَكُّ الَّذِي تَذْرِيه مِنْ شِيْمَةٍ تَعَلَّقَ بِالْمَظْلُومِ مِنْ شِدَّةِ الْكَرْبِ
وَزَكُّ مَثَابِي فِي الْعُقُودِ وَكَثْبِهَا لَوَجْهِكَ لَمْ أَقْبَلْ ثَوَابًا عَلَى كَثْبِ
وَلَا تَحْرِمْنِي أَجْرَ مَا كُنْتُ فَاعِلًا فَحَقُّ الْيَتَامَى عِنْدِي مِنْ لِذِي صَغْبٍ
وَلَا تَحْزِنِي يَوْمَ الْحِسَابِ وَهَوْلِهِ إِذَا جِئْتُ مَذْعُورًا مِنَ الْهَوْلِ وَالرُّغْبِ

مولده: حسبما نُقِلَ من خط ابنه أبي جعفر، وُلِدَ، يعني أباه سنة أربع وثمانين وأربعمائة^(٣).

وفاته: بعد صلاة المغرب من ليلة الثلاثاء الثامن عشر من محرم عام اثنين وسبعين وخمسمائة. ونُقِلَ غير ذلك.

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدس بن محمود النفري

أَبْدِي^(٤) الأصل، غُرْنَطِيّ الاستقرار، ويكنى أبا إسحق.

حاله: خاتمة الرُّحَال بالأندلس، وشيخ المجاهدات وأرباب المعاملات، صادق الأحوال، شريف المقامات، مأنور الإخلاص مشهور الكرامات، أَضْبَرُ النَّاسِ عَلَى

(١) في الأصل: «ثمانون عاماً مع ست...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الأصل: «فَهَبْ لِي انْسِكَاب...» وهكذا ينكسر الوزن.

(٣) في التكملة (ج ١ ص ١٣٢): «ومولده بعد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة».

(٤) نسبة إلى أْبْدَى، وهي مدينة صغيرة بالأندلس على مقربة من النهر الكبير، وهي بالإسبانية: Ubeda. الروض المعطار (ص ٦).

مجاهداته، وأدومهم على عملٍ وِذْكِرٍ وصلاةٍ وصومٍ، لا يَفْتُرُ عن ذلك ولا ينام، آية الله في الإيثار، لا يدخر شيئاً لغد، ولا يتحرف بشيء، وكان فقيهاً حافظاً، ذا كِراً للغة والأدب، نحوياً ماهراً، درس ذلك كله أول أمره، كريم الأخلاق، غلب عليه التصوّف فشهر به، وبمعرفة طريقه الذي نَدَّ فيها أهل زمانه، وصنّف فيها التصانيف المفيدة.

ترتيب زمانه: كان يجلس إثر صلاة الصبح لَمَن يقصده من الصالحين، فيتكلم لهم بما يجريه الله على لسانه، ويُسرّر من تفسير، وحديث وعِظَةٍ، إلى طلوع الشمس؛ فيتنقل صلاة الضحى، وينفصل إلى منزله، ويأخذ في أوراده، من قراءة القرآن والذكر والصلاة إلى صلاة الظهر، فيُبَكِّر في رواجه، ويُوالي التنقل إلى إقامة الصلاة، ثم كذلك في كل صلاة، ويصل ما بين العشاءين بالتنقل، هذا دأبه أبداً.

وكان أمره في التوكل عجباً، لا يَلْوِي على سبب، وكانت تُجْبَى إليه ثمرات كل شيء، فيدفع ذلك بجملته، وربما كان الطعام بين يديه، وهو محتاج، فيعرض مَنْ يسأله، فيدفعه جُمْلَةً، ويبقى طاوياً، فكان الضعفاء والمساكين له لِيَاذَا يَتَسَلُونَ من كل حَدَب، فلا يردُّ أحداً منهم خائباً، ونفع الله بخدمته وصحبته، واستخرج بين يديه عالماً كثيراً.

مشيخته: أخذ القراءة عن أبي عبد الله الحضرمي، وأبي الكوم جُودي بن عبد الرحمن، والحديث عن أبي الحسن بن عمر الوادي آشي، وأبي محمد عبد الله بن سليمان بن حوط الله، والنحو واللغة عن ابن يُربوع وغيره. ورَحَّل وحجَّ، وجاور وتكرَّر. ولَقِيَ هناك غير واحد، من صدور العلماء وأكابر الصوفية، فأخذ صحيح البخاري سماعاً منه سنة خمس وستمئة عن الشريف أبي محمد بن يونس، وأبي الحسن علي بن عبد الله بن المغربي، ونصر بن أبي الفرج الحضرمي، وسُنَّ أبي داود وجامع الترمذي على أبي الحسن بن أبي المكارم نصر بن أبي المكارم البغدادي، أحد السامعين على أبي الفتح الكروخي، وأبي عبد الله محمد بن مستري الحمة، وأبي المعالي بن وَهَب بن البنا، وبيجاية عن أبي الحسن علي بن عمر بن عطية.

مَنْ روى عنه: روى عنه خَلْقٌ لا يُحْصَوْنَ كثرة؛ منهم أحمد بن عبد المجيد بن هُذَيْل الغساني، وأبو جعفر بن الزبير، وغيره.

توالياً: صنّف في طريقة التصوّف وغيرها تصانيف مفيدة؛ منها «مواهب العقول وحقائق المعقول»، و«الغيرة المذهلة، عن الحيرة والتفرقة والجَنَح»، و«الرحلة العنوية»، ومنها «الرسائل في الفقه والمسائل»، وغير ذلك.

شعره: له أشعار في التصوِّف بارعة، فمن ذلك ما نقلته من خط الكاتب أبي إسحق بن زكريا في مجموع جمع فيه الكثير من القول: [الوافر]

يَضِيقُ عَلَيَّ مِنْ وَجْدِي الْفَضَاءُ	وَيُثْلِقُنِي مِنَ النَّاسِ الْعَنَاءُ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَلَكِنْ	أَبَتْ نَفْسِي تَحِيْطُ بِهَا السَّمَاءُ
رَأَيْنَا الْعَرْشَ وَالْكُرْسِيَّ أَعْلَى	فَوَالْإِنَّا هُمَا حَرَمُ الْوَلَاءِ ^(١)
فَأَيْنَ الْآيْنُ مَنَا أَوْ زَمَانٌ	بَحِثْ لَنَا عَلَى الْكُلِّ اسْتِواءُ
شَهِدْنَا لِلَّهِ بِكُلِّ حُكْمٍ	فَغَابَ الْقَلْبُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ
وَيَذْعُونِي إِلَهُهُ إِلَيْهِ حَقًّا	فَيُؤَيِّنُونِي مِنَ الْخَوْفِ الرَّجَاءُ
وَيُقْبِضُونِي وَيُبْسِطُونِي وَيَقْضِي	بِتَقْرِيقِي وَجْمَعِي مَا يَشَاءُ
وَيَعِي فِي وَجُودِ الْخَلْقِ نَحْوًا	يُنْعَتُ مَنْ تَوَلَّاهُ الْقَنَاءُ
فَكَمْ أَخْفَى وَجُودِي وَقْتُ فَقْدِي	كَأَنَّ الْفَقْدَ وَالْإِخْيَا سَوَاءُ
فَسُكَّرْتُ ثُمَّ صَخَّرْتُ ثُمَّ سَكِرْتُ	كَذَاكَ الدَّهْرُ لَيْسَ لَهُ اتِّقِضَاءُ
فَوْصَفِي حَالًا مِنْ وَصْفِي وَلَكِنْ	ظَهَرُ الْحَقِّ لَيْسَ لَهُ خَفَاءُ
إِذَا شَمْسُ النَّهَارِ بَدَتْ تَوَلَّتْ	نَجْمُ اللَّيْلِ لَيْسَ لَهَا انْجِلَاءُ

ومن شعره: [البسيط]

كَمْ عَارِفٍ سَرَّحَتْ فِي الْعِلْمِ هِمَّتُهُ	فَعَقَلُهُ لِحِجَابِ الْعَقْلِ هَتَاكُ
كَسَاهُ نَوْرُ الْهَدْيِ بُرْذًا وَقَلَدَهُ	دُرًّا فَنَفْسِي قَلْبُهُ لِلْعِلْمِ أَسْلَاكُ
كَسَبَ ابْنُ آدَمَ فِي التَّحْقِيقِ كِسْوَتَهُ	إِنَّ الْقُلُوبَ لِلْأَنْوَارِ وَأَخْلَاكُ
كَلَّفَ فَوَازِكَ مَا يُبْذِي عَجَائِبَهُ	إِنَّ ابْنَ آدَمَ لِلْأَسْرَارِ دَرَاكُ
كَيْفَ وَكَمْ وَمَتَى وَالْآيْنُ مُنْسَلِبُ	عَنْ وَضْفِ بَارِيهَا وَالْجَهْلُ تَبَاكُ
كَبُرَ وَقَدَسَ وَنَزَّهَ مَا أَطَقْتُ فَلَمْ	يَصِلْ إِلَى مَلِكِ الْأَمْلاكِ أَمْلاكُ
كُرْسِيِّهِ ذَلِكَ وَالْعَرْشُ اسْتِكَانُ لَهُ	وُنُزَّهُ اللَّهُ أَمْلاكُ وَأَفْلَاكُ
كُلُّ يَقِرُّ بِأَنَّ الْعَجْزَ قَيْدُهُ	وَالْعَجْزُ عَنْ ذَرَكِ الْإِدْرَاكِ دَرَاكُ

وقال: وهو ما اشتهر عنه، وأنشدها بعض المشاركة في رحلته في غرض اقتضى ذلك، يقتضي ذكره طولاً: [البسيط]

يَا مَنْ أَنَامَلَهُ كَالْمُرْنِ هَامِيَةً وَجُودُ كَفِّهِ أَجْرَى مَنْ يُجَارِيهَا

(١) هنا اختلفت حركة الروي، فجاءت مكسورة، وهذا ما نسميه بالإقواء.

بحقِّ مَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ انظرَ إلى رِفْعَتِي وأفْهَمَ معانيها
 أَنِي فَقِيرٌ وَمُسْكِينٌ بِلَا سَبَبٍ سوى حُرُوفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَتْلُوها
 سَفِينَةُ الْفَقْرِ فِي بَحْرِ الرُّجَا غَرِقَتْ فامْتُنْ عَلَيْها بِرِيحٍ مِنْكَ يُجْرِيها
 لَا يَعْرِفُ الشُّوقُ إِلَّا مَنْ يُكَايِدُهُ وَلَا الصُّبَابَةُ إِلَّا مَنْ يَعَانِيها

وقال القاضي أبو عبد الله بن عبد الملك، وقد ذكره: على الجملة فيه ختم جلة أهل هذا الشأن بصُفْعِ الأندلس، نفعه الله ونفع به.

مولده: ولد بجيَّان سنة اثنتين وستين وخمسمائة أو ثلاث وستين.

إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التَّسُولِي^(١)

من أهل تازي، يكنى أبا سالم، ويُعرف بابن أبي يحيى.

حاله: من أهل «الكتاب المؤتمن»^(٢): كان^(٣) هذا الرجل قيِّماً على «التَّهْذِيب»، و«رسالة ابن أبي زيد»، حسن الإقراء لهما؛ وله عليهما تقييدان نبيلان، قيدهما أيام قراءته إياهما على أبي الحسن الصُّغَيْرِ، حضرت مجالسَه بمدرسة عُذوة الأندلس من فاس، ولم أرَ في متصُدْرِي بلدَه أحسنَ تدريساً^(٤) منه. كان فصيح اللسان، سهل الألفاظ، موفياً حقوقها، وذلك لمشاركته الحَضَرَ فيما في أيديهم^(٥) من الأدوات؛ وكان مجلسه وفقاً على «التَّهْذِيب» و«الرسالة»؛ وكان مع ذلك شيخاً^(٦) فاضلاً، حسن اللقاء، على خلق بائنة من^(٧) أخلاق أهل مصره. امْتَحَنَ بصحبة السلطان، فصار يستعمله في الرسائل، فمرَّ في ذلك حظٌ كبير من عُمره ضائعاً، لا في راحة دنيا، ولا في نصيب^(٨) آخرة. ثم قال: هذه^(٩) سُنَّةُ الله فيمن خدَمَ الملوك، ملتفتاً إلى ما يُعْطُونه، لا إلى ما يأخذون من عُمره وراحته، أن يبوؤا^(١٠) بالصَّفْقَةِ الخاسرة، لُطِفَ اللهُ بِمَنْ ابْتَلَى بِذلك، وخلصنا خلاصاً جميلاً.

(١) ترجمة إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٧٢)، ونفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦٢)، وأزهار الرياض (ج ٥ ص ٥٧) وكنيته فيه: «أبو إسحق».

(٢) عنوان هذا الكتاب هو: «الكتاب المؤتمن في أنباء أبناء الزمن» وهو من تأليف ابن الحاج البلفيقي، شيخ لسان الدين ابن الخطيب.

(٣) النص في نفع الطيب (ج ٧ ص ٣٦٢ - ٣٦٣).

(٤) في النفع: «تدريساً».

(٥) في النفع: «بأيديهم».

(٦) في النفع: «سَمَحاً».

(٧) في النفع: «على».

(٨) في النفع: «نَصَب».

(٩) في النفع: «وهذه».

(١٠) في النفع: «يَبْؤ».

ومن كتاب «عائد الصلة»^(١): الشيخ، الحافظ، الفقيه، القاضي، من صدور المغرب، مُشاركًا^(٢) في العلم، متبحرًا^(٣) في الفقه، كان وجيهاً عند الملوك، صَحيحهم، وحضر مجالسهم، واستعمل في السفارة، فلقيناه بغرناطة، وأخذنا بها عنه؛ تَامَ السَّراوة^(٤)، حَسَنَ العهد، مليح المجالس، أتيق المحاضرة، كريم الطبع، صحيح المذهب.

تصانيفه: قَيَّدَ^(٥) على «المُدونة» بمجلس شيخه القاضي^(٦) أبي الحسن كتابًا مفيدًا وضَمَّ أجوبته على المسائل في سِفَر، وشرح كتاب «الرسالة» شرحًا عظيم الفائدة.

مشيخته: لازم^(٧) أبا الحسن الصغير، وهو كان قارئ كُتُب الفقه عليه، وُجِّلَ انتفاعه في التفقه به. وروى عن أبي زكريا بن أبي ياسين^(٨)، قرأ عليه كتاب «الموطأ»، إلّا كتاب «المكاتب»، وكتاب «المدبر»، فإنه سمعه بقراءة الغير، وعن أبي عبد الله بن رشيد، قرأ عليه «الموطأ»، و«شفاء عياض»، وعن أبي الحسن بن عبد الجليل السُّداري^(٩)، قرأ عليه «الأحكام الصغرى» لعبد الحق، وأبي الحسن بن سليمان، قرأ عليه «رسالة ابن أبي زيد»، وعن غيرهم.

وفاته: فُلِجَ بآخرة، فالتزم منزله بفاس يزوره السلطان فَمَنَ^(١٠) دونه، وتوفي بعد عام ثمانية وأربعين وسبعماية^(١١).

إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد ابن أبي العاصي التَّنُوخي^(١٢)

أصله من جزيرة طريف، ونشأ بغرناطة واشتهر.

(١) النص أيضًا في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٣).

(٢) في النفح: «مشاركة».

(٣) في النفح: «وتبحرًا».

(٤) السراوة: السخاء في مروءة. لسان العرب (سرا).

(٥) النص أيضًا في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٣).

(٦) كلمة «القاضي» غير واردة في النفح.

(٧) النص في نفح الطيب (ج ٧ ص ٣٦٣ - ٣٦٤).

(٨) في النفح: «زكريا بن يس».

(٩) في النفح: «السدراتي».

(١٠) في النفح: «ومن».

(١١) في تاريخ قضاة الأندلس: توفي في حدود ٧٤٩ هـ.

(١٢) ترجمة إبراهيم التَّنُوخي في الكتيبة الكامنة (ص ٣٢)، وبغية الوعاة (ص ١٨٥) وجاء في بغية

الوعاة أنه وُلِدَ في حدود سنة سبع وسبعين وستمئة، وتوفي سنة ٧٢٦ هـ.

حاله: من «عائد الصلة»: كان نسيج وحده حياة، وصدقة، وتخلُّقًا، ومشاركة، وإيثارًا. رَحَلَ عند استيلاء العدو على جزيرة طريف، عام أحد وسبعين وستمائة، مُتَحَوِّلاً إلى مدينة سَبْتَة، فقرأ بها واستفاد. وورد الأندلس، فاستوطن مدينة غرناطة، وكتب في الجملة عن سلطانها، وترقى معارج الرُّتب، حالاً مُحالاً، من غير اختلاف على فضله، ولا نزاع في استحقاقه، وأقرأ فنوناً من العلم، بعد مهلك أستاذ الجماعة أبي جعفر بن الزبير، بإشارة منه به؛ ووَلَّى الخطابة والإمامة بجامعها منتصف صفر عام ستة عشر وسبعمائة، وجمع بين القراءة والتدريس، فكان مُقرِّناً للقرآن، مبرِّزاً في تجويده، مدرِّساً للعربية والفقه، آخذاً في الأدب، متكلماً في التفسير، ظريف الخط، ثَبَّتاً محققاً لما ينقله. وألقى الله عليه من المحبة والقبول، وتعظيم الخلق له، ما لا عَهد بمثله لأحد؛ بلغ من ذلك مبلغاً عظيماً، حتى كان أحبَّ إلى الجمهور من أوصل أهلهم وأبائهم، يتزاحمون عليه في طريقه، يتمسِّحون به، ويسْعَوْنَ بين يديه، ومن خلفه، ويتزاحم مساكيئهم على بابه، قد عودهم طلاقة وجهه، ومواساته لهم بقُوته، يفرِّقه عليهم متى وجدوه، وربما أعجلوه قبل استواء خُبزه، فيفرِّقه عليهم عجيئاً، له في ذلك أخبار غريبة. وكان صادعاً بالحق، غَيُوراً على الدين، مُخالفًا لأهل البدع، مُلازِمًا للسُّنة، كثير الخشوع والتخلُّق على علو الهمة، مُبذول المشاركة للناس والجِدِّ في حاجاتهم، مُبْتَلِياً^(١) بوسواس في وضوئه، يتحمل الناس من أجله مَضَضاً في تأخير الصلوات ومضايقة أوقاتها.

مشيخته: قرأ ببلده على الخطيب القاضي المُقرئ أبي الحسن عُبيد الله بن عبد العزيز القرشي، المعروف بابن القاري، من أهل إشبيلية، وقرأ بسبْنة على الأستاذ إمام المقرئين لكتاب الله، أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الطَّيِّب بن زرقون القَيْسي الضرير، نزيل سبْنة، والأستاذ أبي إسحق الغافقي المريوني، وقرأ على الشيخ الوزير أبي الحَكَم بن منظور القيسي الإشبيلي، وعلى الشيخ الراوية الحاج أبي عبد الله محمد بن الكِتامي التِّلِمساني بن الخَضَار، وقرأ بغرناطة على الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، وأخذ عن أبي الحسن بن مستقور.

شعره: كان يَقْرِض شعراً وسطاً، قريباً من الانحطاط. قال شيخنا أبو بكر بن الحكيم^(٢) في كتابه المسمَّى بـ «الفوائد المُنتخبة»، والموارد المُستعذبة: كتب إليه

(١) في الأصل: «مبتلي»، وقد صرَّناه لأن قواعد اللغة تقتضي النصب، كونه خبر كان.

(٢) هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن الحكيم اللخمي، وسيترجم له ابن الخطيب بإفاضة في الجزء الثاني من كتاب الإحاطة.

شيخنا وبركتنا أبو جعفر بن الزيات في شأن شخص من أهل البيت النبوي بما نصّه:
[الخفيف]

رجل يدعى القرابة للبيد وإن الشريفاً منه بمعزل
سال^(١) مني خطابكم وهو هذا ولكم في القلوب أرفع منزل
فهبوه دعاءكم وأمنحوني منه حظاً يُثمي الثواب ويَجْزِلُ
وعليكم تحية الله ما دا م أمير الهدى يُولي ويغزِلُ

فأجابه: [الخفيف]

يا إمامي ومن به قطركم ذا لك وحادي البلاد أطيّب منزل
لم أضغ ما نظمت من يدي حتى أنيل الشريف تحفة منزل
وحبّاء بكلّ منّح جزيل من غدا يمنح الثواب ويجزل
دُئتم تنشرون علماً ثواب الله فيه لكم أعز وأجزل وتذكرون الله ذكراً كثيراً
وطلبتم منّي الدعاء وإنّي وعليكم سكينه الله تنزل
لكن اذعو ولتدع لي برضا الله وأبدى فهم ذكر قد أنزل عند نفسي من الشروط بمغزل
وحديث الرسول صلى عليه كل وقت ورب لنا الغيث ينزل
وعليكم تحيتي كل حين ما اطمأنت بمكة أم معزل

قال: ومما أنشدني من نظمه أيضاً في مَعرَضِ الوصية للطلبة^(٢): [الكامل]
اغْمَلْ بعلمك تُؤت علماً إنما عدوى علوم المرء ملخ الأثوم^(٣)
وإذا الفتى قد نال علماً ثم لم يعمل به فكأنما^(٤) لم يعلم

(١) في الأصل: «سال» وكذا ينكسر الوزن.

(٢) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٣٣)، وبغية الوعاة (ص ١٨٦).

(٣) في الكتيبة الكامنة: «... تؤت حُكماً إنما جدوى... تُهْجِ الأثوم». وفي بغية الوعاة: «...
تؤت حكمة إنما جدوى... تُهْجِ الأثوم».

(٤) في الكتيبة والبغية: «فكأنه».

وقال موطئاً على البيت الأخير^(١): [المتقارب] ٥

أمولاي أنت الغفور الكريم لبذل التوال مع المغيرة^(٢)
عليّ ذنوب وتصحيفها ومن عندك الجود والمغفرة

إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد
ابن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس
الأنصاري الخزرجي^(٣)

أمير المؤمنين^(٤) بالأندلس، رحمه الله.

أوليته: تقرر عند ذكر الملوك من قومه في اسم صنو جدّه، أمير المسلمين أبي عبد الله الغالب بالله.

حاله: من كتاب «طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر» من تصنيفنا^(٥):
«كان، رحمه الله، حسن^(٦) الخلق، جميل^(٧) الرّواء، رجل جدّ، سليم الصدر،
كثير الحياء، صحيح العقل^(٨)، ثبتاً في المواقف، عفيف الإزار، ناشئاً في ججر
الطهارة، بعيداً عن^(٩) الصنوة، بريئاً من المعاقرة. نشأ مُشْتَغِلاً بشأنه، مُتَبَنِّكاً^(١٠) نعمة
أبيه، مختصاً بإيثار السلطان جدّه أبي أمّه، وابن عمّ والده، منقطعاً إلى الصنيد،
مصرف^(١١) اللذة إلى استجادة سلاحه، وانتقاء مراكبه، واستيفاء جوارحه، إلى أن
أفضى إليه الأمر، وساعدته الأيام، وخدمه الجدّ، وتنقل^(١٢) إلى بيته المُلْك به،
وتوى في عقبه الذّكر، فبذل العدل في رعيته، واقتصد في جبايته، واجتهد في مدافعة

(١) البيتان في الكتيبة الكامنة (ص ٣٣). وقوله: «وقال موطئاً على البيت الأخير» جاء في الكتيبة الكامنة بعد هذين البيتين مباشرة: [مخلع البسيط]

دنياك مهما اعتبرت فيها كجيفة عرضة انتهاب
إن شئتُها فاحتمل إذاها واضير عليها مع الكلاب

(٢) في الكتيبة الكامنة: «... أنت الكريم الغفور... وللمعزّه».

(٣) ترجمة إسماعيل بن فرج في اللوحة البدرية (ص ٧٨).

(٤) في اللوحة البدرية (ص ٧٨): «أمير المسلمين». وهو اللقب الصحيح لسلاطين بني نصر.

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٧٨). (٦) في اللوحة البدرية: «جميل».

(٧) في اللوحة البدرية: «حسن».

(٨) في اللوحة البدرية: «من».

(٩) تَبَنِّكُ بالمكان: أقام به وتأهل، وتَبَنِّكُ في عزّه: تمكّن.

(١٠) في الأصل: «معروف» والتصويب من اللوحة البدرية.

(١١) في اللوحة: «وانقل به إلى بيت الملك وتوى...».

عدو الله^(١)، وسدّ ثَلَمِ ثُغوره^(٢)، فكان غِرّة في قومه، ودُرّة في بيته، وحسنّة من حسنات دهره. وسَيَرِدُ نَبْدٌ من أحواله، مما يدلّ على فضل جلاله.

صفته: كان معتدل القدّ، وسيم الصورة، عَبل اليدين، أبيض اللون، كثير اللحية، بين السواد والصفهوية^(٣) آنجل أغين أفوة مريح العين، أقى الأنف، جَهير الصوت؛ أمه الحرة الجليّة، العريقة في الملوك، فاطمة بنت أمير المؤمنين أبي عبد الله نُخبة المُلْك، وواسطة العِقد، وفخر الحَرَم، البعيدة الشأو في العزّ والحُرمة، وصلة الرُعي، وذكر التراث. واتصلت حياتها، ملتَمسة الرأي، برنامجا للفوائد، تاريخا للأنساب، إلى أن توفيت في عهد حفيدها السلطان أبي الحجاج، رحمها الله، وقد أنفَت على تسعين من السنين، فكان الحفل في جنازتها، مُوازيًا لمنصبتها، ومتروكها، المُفضي إليه خطيرُه، وقلت في رثائها: [الطويل]

نُبِيتُ على علم بغائلة الدهر	ونعلم أنّ الخلق في قَبْضة الدُهرِ
ونركن للعزيم اغترارًا يقهرها	وحَسْبُكَ مَنْ يرجو الوفاء من العَدْرِ
ونُطِطل بالعزم الزّمان سفاهة	فيومٍ إلى يوم، وشهرٍ إلى شهر
ونُفْري بها نفسي المطامع والهوى	ونرفض ما يَبْقَى ضَيعة العُمرِ
هو الدهر لا يبقى على حَدَثانه	جديدٌ ولا ينفك من حادث نُكْرِ
وبين الخطوب الطارقات تَفاضل	كفضل مَنْ اغتالته في رِفة القَدْرِ
الم تر أنّ المجد أَقْوَتْ ربوعه	وصوَح من أذواحه كل مُخَضَّر
ولاحث على وجه العلاء كآبة	فقطب من بعد الطلاقة والبُشرِ

وثبت اسمها في الوفيات من الكتاب المذكور بما نصّه:

«السلطانة الحرّة، الطاهرة، فاطمة بنت أمير المسلمين أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله، بقيّة نساء الملوك، الحافظة لنظام الإمارة، رعيًا للمتات^(٤)، وصلة للحُرمة، وإسداء للمعروف، وسَثْرًا للبيوتات، واقتداء بسلفها الصالح، في نزاهة النفس، وعُلُوّ الهمة، ومثانة الدين، وكشف الحجاب، ونفاذ العزم، واستشعار الصبر. تُوفيت في كفالة حفيدها أمير المسلمين أبي الحجاج، مواصلاً برّها، ملتَمسة دعاءها،

(١) في اللّمة: «عدوه الله وعدوه». (٢) في اللّمة: «ثُغره».

(٣) الصفهوية: هي احمرار الشعر.

(٤) المتات: ما يَمُتُّ به كالحُرمة والقراية. محيط المحيط (مت).

مستفيداً تجربتها وتاريخها، مباشرةً مُواراتها بمقبرة الجنان، داخل الحمراء، سحر يوم الأحد السابع لذي حجة، من عام تسعة وأربعين وسبعمائة.

أولاده: تخلف^(١) من الولد أربعة؛ أكبرهم محمد، ولي الأمر^(٢) من بعده، وقَرَج شقيقه التالي له بالسُن، المنصرف عن الأندلس بعد مهلك أخيه المذكور، المتقلب في الإيالات، الهالك أخيراً في سجن قسبة ألمرية عام أحد وخمسين وسبعمائة، مظنوناً به الاغتيال، ثم أخوه أمير المسلمين أبو الحجاج، تغمده الله برحمته، أقعد القوم في المُلْك، وأبعدهم أمداً في السعادة، ثم إسماعيل أصغرهم سناً، المُبتلي في زمان^(٣) الشبية في الثُفاف^(٤) المُخيف مدة أخية، المستقر الآن مُوادمًا مرفوذاً، بقصر المُستخلص من ظاهر شالويانية، وبتين ثنتين من حَظِيته علوة، عقد عليهما أخوهما أبو الحجاج، لرجلين من قرابته.

وزراؤه: وزر^(٥) له أول أمره القائد البُهمة^(٦) أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الفهري، وبيت هؤلاء القواد شهير، ومكانتهم من الملوك النصريين مَكِينة. أشرك معه في الوزارة الفقيه الوزير أبا الحسن علي بن مسعود بن علي بن مسعود المحاربي، من أعيان الحضرة، وذوي النباهة، فجاذب رفيقه حَبْل الخُطة، ونازعه لباس الخُطوة، حتى ذهب باسمها ومسمّاها. وهلك القائد أبو عبد الله بن أبي الفتح، فخلص له شربها، وسيأتي التعريف بكل على انفراد.

كتابه: كتب^(٧) عنه لأول أمره بمالقة، ثم بطريقه إلى غرناطة، وأياماً يسيرة بها، الفقيه الكاتب أبو جعفر بن صَفْوَان المتقدم ذكره. ثم ألقى المقادة إلى كاتب الدولة قَبْلُ، شيخنا أبي الحسن بن الجِيَاب فاصل الخُطة، وباري القوس، واقتصر عليه إلى آخر أيامه.

قضائه: استَقْضى^(٨) أخا وزيره، الشيخ الفقيه أبا بكر بن يحيى بن مسعود بن علي، رجل الجزالة، وفُيصل الحُكْم، فاشتد في إقامة الحُكْم^(٩)، وعَلْظ بالشرع، واستعان بالجاء، فخيفت^(١٠) سطوته، واستمر قاضياً إلى آخر أيامه.

(١) النص في اللوحة البدرية (ص ٧٨ - ٧٩). (٢) في اللوحة: «ولي عهده والأمير من بعده».

(٣) في اللوحة: «المبتلي زمن شبيبته بالاعتقال». (٤) الثُفاف: الاعتقال. لسان العرب (ثقف).

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٧٩). (٦) كلمة «البهمة» ساقطة في اللوحة البدرية.

(٧) النص في اللوحة البدرية (ص ٧٩). (٨) النص في اللوحة البدرية (ص ٧٩ - ٨٠).

(٩) في اللوحة: «الحق».

(١٠) في الأصل: «فخيف» والتصويب من اللوحة البدرية.

رئيس جنده الغربي: الشيخ^(١) البُهمَة^(٢)، لباب قومه، وكبير بيته، أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء^(٣) إدريس بن عبد الله^(٤) بن عبد الحق، مشاركاً له في النعمة، ضارباً بسهم في المنحة، كثير التجنّي والدألة، إلى أن هلك المخلوع، وخلا الجو، فكان منه بعض الإقصار.

الملوك على عهده: وأولاً^(٥) بُعدوة المغرب: كان على عهده من ملوك المغرب السلطان الشهير، جواد الملوك، الرُخْب الجَنّاب، الكثير الأمل، خِذْن العافية، ومحالف الترفيّة، مُفحَم^(٦) النعيم، السعيد على خاصته وعامته، أبو سعيد عثمان بن السلطان الكبير، المجاهد، المُرابط، أبي يوسف^(٧) بن عبد الحق. وجرت بينه^(٨) وبينه المراسلات، واتصلت أيامه بالمغرب بعد مهلكه وصدراً من أيام ولده أبي عبد الله حسبما مرّ^(٩) عند ذكره.

وبمدينة تلمسان، وطن القيلة، الأمير أبو حمّو موسى بن عثمان بن يَغْمَرايْن بن زيان. ثم توفي قتيلاً^(١٠) على عهده بأمر ولده المذكور، واستغرقت أيام ولده المذكور الوالي بعده، إلى أن هلك في صدر أيام أبي الحجاج؛ وجرت بينه وبين الأمير مراسلات وهدايات.

وبمدينة تونس، الشيخ المُتَلَقَّبُ بأمير المؤمنين أبو يحيى زكريا بن أبي حفص المدعو باللّحياني، المتوثّب بها على الأمير أبي البقاء خالد بن أبي زكريا بن أبي حفص، وهو كبير، إلّا أن أبا حفص أكبر سنّاً وقدرًا، وقد تملّك تونس تاسع جُمادى الآخرة من عام ظهر له اضطراب مَنْ بها، أحد عشر وسبعمائة، وتمّ له الأمر. واعتقل أبا البقاء بعد خَلْعِه، ثم اغتاله في شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، ثم رَحَلَ عن تونس لما ظهر له من اضطراب أمره بها، وتوجّه إلى طرابلس^(١١) في وسط عام خمسة عشر^(١٢)، واستناب صِهْرُه الشيخ أبا عبد الله بن أبي

(١) النص في اللوحة البدرية (ص ٨٠).

(٢) البُهمَة: الفارس الذي لا يدري من أين يؤتى له من شدة بأسه. لسان العرب (بهم).

(٣) في اللوحة: «العلي».

(٤) في المصدر نفسه: «عبد الله بن يعقوب بن عبد الحق».

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٨٠ - ٨٢). وفي الأصل: «وأولاد» والتصويب من اللوحة.

(٦) في اللوحة: «ومتجيج النعيم».

(٧) في اللوحة: «أي يوسف يعقوب بن...».

(٨) في اللوحة: «وجرت بينهما».

(٩) في اللوحة: «يمز».

(١٠) في اللوحة: «قتيلاً بأمر ولده على عهده سادس عشر جمادى الثانية من عام ثمانية عشر وسبعمائة».

(١١) في اللوحة: «طرابلس».

(١٢) في اللوحة: «وسبعمائة».

عمر^(١)، ولم يعد بعد إليها. ثم اضطرب أمر إفريقية، وتنوبه^(٢) عدة من الملوك الحفصيين، منهم الأمير أبو عبد الله بن أبي عمر^(٣) المذكور، وأبو عبد الله بن^(٤) اللحياني، والسلطان أبو بكر بن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحق، لبنة تمامهم، وآخر رجالهم، واستمرت أيامه إلى أيام ولده الأمير بالأندلس ومعظم أيام ولديه، رحم الله الجميع.

ومن ملوك الروم بقشتاله؛ كان على عهده مقرونًا بالعهد القريب من ولايته، الطاغية هرانده بن شانجة بن الهنشة^(٥) بن هراندة المجتمع له ملك قشتالة وليون^(٦)، وهو المتغلب على إشبيلية، وقُرطبة، ومُرسية، وجيان؛ ابن الهنشة^(٧) الذي جرت له وعليه هزيمة الأرك^(٨) والعقاب^(٩)، ابن شانجة بن الهنشة المسمى إنبرذور، وهو الذي أفرد صهره وزوج بنته بملك برتقال، إلى أجداد، يخرجنا تقضي ذكرهم عن الغرض.

ومن ملوك رَغُون^(١٠) من شرق الأندلس، الطاغية جايماش بن بطره بن جايماش الذي تغلب على بلنسية، ابن بطره بن الهنشة^(١١)، إلى أجداد عدة كذلك. ثم هلك في أخريات أيامه، فولّي ملك أرغون^(١٢) بعده الهنشة^(١٣) بن جايماش إلى أخريات^(١٤) أيامه.

ويُرتقال الهنشة^(١٥) بن يومس^(١٦) بن الهنشة^(١٧) بن شانجة بن الهنشة^(١٨) بن شانجة بن الهنشة^(١٩)، وتسمى^(٢٠) أولًا دوقًا.

ذكر تصوير الأمر إليه: لما ولي^(٢١) الأمر بالأندلس، حرسها الله، السلطان أبو الجيوش نصر بن السلطان أبي عبد الله محمد بن السلطان الغالب بالله أبي عبد الله بن

(١) في اللوحة: «عمران».

(٢) كلمة «بن» ساقطة في اللوحة.

(٣) في اللوحة: «ملك ليون وقشتالة».

(٤) في اللوحة: «ابن الهونش».

(٥) كانت وقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ بين الموحدين بقيادة الخليفة المنتصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكان النصر فيها للموحدين. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢١٨ - ٢٢١).

(٦) كانت وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ، بين الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الموحي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين، فكانت السبب في هلاك الأندلس. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٦٣).

(٧) مملكة رَغُون: هي نفسها أرغون.

(٨) في اللوحة: «رغون».

(٩) في اللوحة: «ذونيش».

(١٠) في الأصل: «ويسمو» والتصويب من اللوحة. (١١) قارن باللمحة البدرية (ص ٨٢ - ٨٤).

(٢) في اللوحة: «وتنوبه».

(٤) في اللوحة: «ألفونش».

(٦) في اللوحة: «ابن الهونش».

(٧) كانت وقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ بين الموحدين بقيادة الخليفة المنتصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكان النصر فيها للموحدين. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢١٨ - ٢٢١).

(٨) كانت وقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ، بين الناصر أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الموحي وجيوش قشتالة بقيادة ألفونسو الثامن، وكانت الهزيمة فيها للمسلمين، فكانت السبب في هلاك الأندلس. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٦٣).

(١٠) في اللوحة: «الهونش».

(١٢) في اللوحة: «آخر».

نصر، يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمائة، بالهجوم على أخيه أبي عبد الله الزمين المُقعد، الآمن في ركن بيته، واغتيال ابن الحكيم وزيره بيباه، والإشادة بخلمه حسبما يأتي في موضعه، استقر الأمر على ضعف أخيه، وسارع دخلته، فساءت السيرة لمنافسة الخاصة، وكان الرئيس الكبير عميد القراية، وعلم الدولة أبو سعيد فرج، ابن عم السلطان المخلوع، وأخيه الوالي بعده، راسخاً قدمه وعُزفه، بمثوبة الوارث، ولنظره عن أبيه المُسَوَّغ عن جدّه مألقة وما إليها، ولنظره مدينة سبته، المُضافة إلى إيالة المخلوع عن عهد قريب، قد أفرد بها ولده المترجم به، وجميعهم تحت طاعته، وفي زمان انقياد سوغ مديد الدولة، بل مدّ سَروها لما شاء عزّ وجلّ من احتوائهم في حبل هذا الدليل، يتعقبون على الرئيس الكبير أموراً تُثِرُ مخيمة الصدور، وتستدعي فرض الطاعة، وتحتوي على مظنّات مُخلة، واحترسوا صافيات منافعهم، وأوعزوا إلى ولاة الأعمال بالتضييق على رجاله، وصرفوا سُننه عن نظره. ولما بادروا إلى الحضرة لإعطاء صفقة البيعة وتهنئة السلطان نصر عن روحه وابن عمّه، على عادته، داخله بعض أرباب الأمر، مُحذّراً، ومُشيرًا بالامتناع ببلده، والدُّعاء لنفسه، ووعد به بما وسعه، فاستعجل الانصراف إلى بلده، ولم تمرّ إلا برهة، واشتعلت نار الفتنة، وهاجت مراحل الحفيظة، فتلاحق به ولده، وأظهر الانفراد والاستعداد في سابع عشر رمضان من هذا العام. وأقام ولده إسماعيل، برسم الملك والسلطان، ورُتّب له ألقاب الملك، ودوّن ديوان الملك بحسبه، ونازل حَضْرَةَ أُنْتَقِيْرَة، وناصبها القتال، فتملّكها؛ ودخلت مَرْبِلَة في طاعته، وتحرك إلى بَلَش فنازلها، ونصب عليها المجانيق فدانت، فضخمت الدعوة، ومكنت الجباية، والتفّ إليه من مساعير الحروب ومن أجاب. وتحرك إلى غرناطة في أول شهر محرم، عام اثني عشر وسبعمائة، ونزل بقرية العَطْشا من مرجها. وبرز السلطان نصر في جيش خشن^(١)، مُستجَاد العَدَة، وافر الرُّجُل^(٢)، فكان اللقاء ثالث عشر الشهر، فأظهر الله أَقْلُ الفِثْتَيْنِ^(٣)، وانجرت على الجيش الغرناطي الهزيمة، وكبأ بالسلطان نصر فرسه في مجرى سقي لبعض الفدن، فنجا بعد لأي ودخل البلد مفلولاً، وانصرف الجيش المالقي ظاهراً إلى بلده. وطال بالرئيس وولده الأمر وضُرُسْتها الفتنة، وعظّم احتياجه إلى المال، وكادت تفضحه المطاولة، وزاحمه الملك بمكَلّف ضخم، فاقتضى ذلك إذعانه إلى الصلح، وإصغاره المهادنة، على سبيله من المقام ببلده، مُسلِّماً للسلطان في جبايته، جاريةً وطائفةً في رئاسته، وأرزاق جنده، فتمّ ذلك في ربيع الأول من العام المذكور. ثم لَقِحت فتنة في العام

(٢) الرُّجُل: الجنود المشاة.

(١) في اللوحة: «أخشن».

(٣) في اللوحة: «الطافتين».

بعده، فعادت جَذعة، وكانت ثورة الأشياخ في غرناطة في رمضان من العام المذكور هاتفين بخلُعان السلطان، وطاعة مخلوعهم، وطالبيين منه إسلام وزيره خِذْن الروم، المتهم على الإسلام أبي عبد الله^(١) بن الحاج. ثم لحق زعمائهم بمالقة عند اختلال ما أبرموه، فكانت الحركة الثانية لغرناطة بعد أمور اختصرتُها، من استبداد السلطان أبي الوليد بأمره^(٢)، والانحطاط في القبض على أبيه، إلى هوى جنده، والتصميم في طلب حقه، فاتصل سيره، واحتلّ بلَوْشة سِرار شوال فتملّكها. ورحل قافلًا إلى وطنه، طريد كلب الشتاء، وافر الخزانة، واقتضى الرأي الفائل ممّن له النظر الجاش من زعيم شيوخ جندها، اتّهامًا له بالطاغية، فسجنه. ثم بدأ له في أمره، ثم سرّحه بعد استدعاء يمينه، فوَعَرَت صدور حاشيته، وتبعهم مَن كان على مثل رأيهم، وهو شوكة حادة، فصرفوا الوجوه إلى السلطان المقبل الحظ، المحبوب إليه هوى الملك، بما راعه، ثانيًا من عِنايه بأحواز أرجدونه، إلّا تثويب داعيهم، فكَرَّ إلى المدينة وبرز إليه جيشها، ملتقًا على عبد الحق بن عثمان، فأبلى^(٣)، وصدّق الحملة، فكادت تكون الدائرة؛ فلولا ثبوت السلطان لما استقبلت بأسفلهم الحملة، فولّوا منهزمين، وتبعهم إلى سور المدينة، وقد خَفَّت اللَّفِيف والغوغاء الثّاعقون^(٤) بالخلُعان، الشّرهون إلى تبديل الدّعوات، وإلى^(٥) تسنّم المآذن والمنارات^(٦) والرّيا. وبرز أهل رِبَض البيّازين، الهاقون إلى مثل هذه البوارق، إلى شُرَف رِبوتهم^(٧)، كلٌّ يشير مستدعيًا إعلانًا بسوء الجوار، وملل الإيالات، والانحطاط، وبعد التّلون والتقلّب، وسامة العافية؛ شَنَسْنَة معروفة في الخَلْق مألوفة. وبودر غلق باب البيرة، ففُضَّ^(٨) قفله، ودُخِلَت المدينة، وجاء^(٩) السلطان إلى معقل الحمراء بأهله وذخيرته وخاصته، وبرز السلطان أبو الوليد بالقصبة القُدّمي تجاهها، بالدار الكبرى المنسوبة لابن المُول، يُنفذ الصكوك، ويذيع العفو، ويؤلف الشّارد، وضعفت بصائر المحصورين، وقشِلوا على وجود الطعمة، ووفور المال، وتمكّن المَنعة، فالتمسوا لهم ولسلطانهم عهدًا نزلوا به، مُتّقلين إلى مدينة وادي آش، في سبيل العِوض بمال معروف، وذخيرة موصوفة؛ وتمّ ذلك، وخرج السلطان رحمه الله مخلوعًا، ساء به القرار، جائيًا على مُلكه الأخايث والأغمار، ليلة الثامن والعشرين من شوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستقرّ بها

(١) في اللّحة: «الإسلام محمد ابن الجاج». (٢) في اللّحة: «بنفسه».

(٣) في اللّحة: «وأبلى في الدفاع، فكادت تقع به الدبرة لولا ثبوت...».

(٤) في اللّحة: «والثّاعقون». (٥) في اللّحة: «إلى».

(٦) في اللّحة: «والمنازه». (٧) في اللّحة: «ربوتهم».

(٨) في اللّحة: «فُضَّض». (٩) في اللّحة: «ولجا».

مُؤَادِعًا مَرَّةً، ومُحَارِبًا أُخْرَى، إِلَى أَنْ هَلَكَ حَسْبَمَا يَأْتِي ذِكْرُهُ. وَخَلَا لِلسُّلْطَانِ^(١) الْجَوُّ، وَصُرِفَتْ^(٢) إِلَيْهِ الْمَقَادَةُ، وَأَطَاعَهُ الْقَاصِي وَالذَّانِي، وَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ اثْنَانِ، وَالبَقَاءُ الْخُلُصَ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

مناقبه: اشتد^(٣)، رحمه الله، على أهل البدع، وقصر الخوض على ما تضطر إليه الملة. ولقد تُذَوِّكُ بَيْنَ يَدَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ، فَبَذَلَ فِي فِدْيَةِ بَعْضِهِمْ مَا يَعْزُ بِذَلِكَ، وَنَقَلَ مِنْهُمْ بَعْضًا مِنْ جِرَفِ خَبِيثَةٍ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فِي النَّوْمِ، فَشَكَرَ^(٤) لَهُ ذَلِكَ. وَاشْتَدَّ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ، وَإِرَاقَةِ الْمُسْكِرَاتِ، وَحَظَرَ تَجَلِّيَ الْقَيْنَاتِ لِلرِّجَالِ فِي الْوَلَائِمِ، وَقَصَّرَ طَرِيهِنَّ عَلَى أَجْنَاسِهِنَّ مِنَ النَّاسِ، وَأَخَذَ يَهُودَ الذِّمَّةِ بِالْإِثْرَامِ سِمَةً تُشْهِرُهُمْ، وَشَارَةً تُمَيِّزُهُمْ، وَلِيُوقَى^(٥) حَقَّهُمْ مِنَ الْمَعَامَلَةِ الَّتِي أَمَرَ بِهَا الشَّارِعُ فِي الْخُطَابِ وَالطَّرُقِ^(٦)، وَهِيَ شَوَاشِي صُفْرٌ.

ولقد حَدَّثَ مَنْ يَخْفُ حَدِيثُهُ، مِنَ الشُّيُوخِ أُولَى الْمَجَانَةِ وَالذُّعَابَةِ، قَالَ: كُنَّا عَاكِفِينَ عَلَى رَاحٍ، وَيُرَاسِي شَاشِيَةً مَلْفَ حَمْرَاءَ، فَحَاوَلُ أَصْحَابِي إِنْامَتِي، حَتَّى أَمَكُنَ ذَلِكَ، وَيَادِرُوا إِلَى رِقَاعٍ مِنْ ثَوْبٍ أَصْفَرٍ، فَصَنَعُوا مِنْهَا شَاشِيَةً، وَوَضَعُوهَا فِي رَأْسِي، مَكَانَ شَاشِيَتِي، وَأَيَقُظُونِي، فَقَمْتُ لَشَانِي، وَقَدْ هَيَّئُوا ثَمَنًا لَشِرَاءِ بَقْلٍ وَفَاكِهِةٍ، وَجَهَّزُونِي لَشِرَائِهِ، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَتَيْتُ دُكَّانَ السُّوقِ، فَسَاوَمْتُهُ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ لِصَاحِبِهِ: جَزَى اللَّهُ هَذَا السُّلْطَانَ خَيْرًا، وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَبَادِرُ هَذَا اللَّعِينِ بِالسَّلَامِ عِنْدَ لِقَائِهِ، أَظَنَّهُ مُسْلِمًا، وَبَصَقَ عَلَيَّ؛ فَهَمَمْتُ أَنْ أَوْقِعَ بِهِ، ثُمَّ فُطِنْتُ لِلْجَلِيَّةِ، فَانْتَرَعْتُهَا، وَبَادَرْتُ فَأَوْسَعَتْهُمْ دُمًّا، وَغَطَّمْتُ خَجَلِي، وَسَبَقَنِي إِلَيْهِمْ عَيْنٌ لَهُمْ عَلَيَّ، فَكَادَ الضَّحْكُ يَهْلِكُهُمْ عِنْدَ دَخُولِي. وَمَنَاقِبُهُ كَثِيرَةٌ.

جهاده وبعض الأحداث في مدته: والثَّانِي^(٧) الْأُمُورَ، لِأَوَّلِ مَدَّتِهِ، فَجَرَّتْ عَلَى جَيْشِهِ بِمُظَاهَرَةِ جَيْشِ الْمَخْلُوعِ لِجَيْشِ الرُّومِ، الْهَزِيمَةُ الشَّنِيعَةُ، بِوَادِي فُرْزُونَةِ؛ أَوْقَعَ بِهِمُ الطَّاعِيَةُ بِطَرَهُ، كَافِلَ مَلِكِ الرُّومِ، الْمُمَلِّكَ صَغِيرًا عَلَى عَهْدِ أَبِيهِ، وَعَمَهُ الذُّبَابَ عَنْهُ، فَفَشَا فِي الْأَعْلَامِ الْقَتْلُ، وَذَلِكَ فِي صَفَرٍ مِنْ عَامٍ سِتَّةَ عَشَرَ وَسَبْعِمِائَةٍ، وَظَهَرَ الْعَدُوُّ بَعْدَهَا فَغَلِبَ عَلَى حِصْنِ شَتْمَانَسِ^(٨) وَحِصْنِ بَجِيحِ^(٩)، وَحِصْنِ طَشْكِرِ،

(١) فِي اللَّحْمَةِ: لِلْسُّلْطَانِ أَبِي الْوَلِيدِ.

(٢) النَّصُّ فِي اللَّحْمَةِ الْبَدْرِيَّةِ (ص ٨٤).

(٣) فِي اللَّحْمَةِ: «لِيُوقَى».

(٤) النَّصُّ فِي اللَّحْمَةِ الْبَدْرِيَّةِ (ص ٨٤ - ٨٥).

(٥) فِي اللَّحْمَةِ الْبَدْرِيَّةِ: «وَبَصَقَ عَلَيَّ» وَظَهَرَ الْعَدُوُّ بَعْدَهَا عَلَى حِصْنِ قَنْبَلٍ وَحِصْنِ مَتْمَانَسِ.

(٦) فِي اللَّحْمَةِ: «فِي الطَّرُقِ وَالْخُطَابِ».

(٧) فِي اللَّحْمَةِ الْبَدْرِيَّةِ: «وَحِصْنُ نَجِيحِ».

(٨) فِي اللَّحْمَةِ الْبَدْرِيَّةِ: «وَحِصْنُ نَجِيحِ».

وثغر^(١) رُوط. ثم صرفت المطاعم عزمه إلى الحضرة، فقصد مَزجها، وكفَّ الله عاديته، وقمَّته، ونصر الإسلام عليه، ودالت للدين عليه الهزيمة العظمى بالمرج من ظاهر غرناطة على بريد منها، واستولى على محلته^(٢) التَّهْب، وعلى فرسانه ورجاله القتل، وعظم الفتح، وبَهَرَ الصنع وطار الذكر، وثاب السُّعد. وكانت الواقعة سادس جُمادى الأولى من عام تسعة عشر وسبعمائة، وفي ذلك يقول كاتبه شيخنا أبو الحسن بن الجِيَّاب:

الْحَمْدُ حَقُّ الْحَمْد لِلرَّحْمَنِ كَافِيَ الْعَدُوِّ وَنَاصِرَ الْإِيمَانِ
وَمُكَيِّفَ الصَّنْعِ الْكَرِيمِ وَدَافِعُ الْ حَظْبِ الْعَظِيمِ وَوَاهِبِ الْإِحْسَانِ
فِي كُلِّ أَمْرٍ لِلْمُهَيِّمِينَ حِكْمَةً أَغْيَتْ عَلَى الْأَفْكَارِ وَالْأَذْهَانِ

واستقرَّ ملكهم القتل بأيدي المسلمين بعد فرارهم، فجعل في تابوت خشب، ونُصب بالسور المُنازل من الحمراء يسار الداخل بباب يعقوب من أبوابها، إذاعة للشُّهرة، وتثبُّتاً لتخليد الفخر.

ومن الغريب أنني في هذه الأيام بعد خمسين سنة تماماً^(٣)، تفقدت ذلك المكان في بعض ما أباشره، أيام نيابتي عن السلطان بدار مُلكه على عادتي، فالفيتة قد علا عليه كوم من الحجارة، رجم الصبيان إياه، فظهر لي تجديد الإشادة به، والاستفتاح بوقوع مثله، ولَمَّا كُشِفَ عن الرُّمة لثقل إلى وعاء ثانٍ، أُلْفِي بِعَظْمِ الْقَطَنِ^(٤) العريض منها سنانٌ مُزْهَبٌ ثَبَّتَ فِي الْعَظْمِ، انتزع منه، وقد غالبتني الرقة والإجهاش، وقلت اللهم اذخر رضوانك لِمَنْ أودع في هذه الرُّمة الطاغية، سنان جهادك إلى اليوم، وأئبّه وارفع درجته، إنك أهل لذلك.

رجع^(٥): واستقامت الأيام، وهلك المخلوع، فصفا الجو، واتحدت الكلمة، وأمكن الجهاد، فتحرك في شهر^(٦) رجب من عام أربعة وعشرين وسبعمائة، وأعمل القصد^(٧) إلى بلاد العدو، ونازل حصن إشكر^(٨)، الشُّجى المعترض^(٩) في حلق

(١) في المصدر نفسه: «وحصن رُوط».

(٢) في المصدر نفسه: «محلته».

(٣) أي بعد خمسين سنة من تاريخ وقعة وادي فرتونة من عام ٧١٩ هـ، وهو ما يوافق سنة ٧٦٩ هـ.

(٤) عظم القطن: عظم ما انحدر من ظهر الإنسان واستوى. محيط المحيط (قطن).

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٨٥).

(٦) كلمة «شهر» غير واردة في اللوحة البدرية.

(٧) في اللوحة: «الحركة».

(٨) إشكر: بالإسبانية Huescar، وهي من مدن غرناطة. مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٥٤).

(٩) في اللوحة: «المتعرض».

بَسْطَةً، فَأَخَذَ بِمُخْتَفِهِ^(١)، ونشر الحرب عليه^(٢)، ورمى بالآلة العظمى المتخذة بالنفط كرة حديد مُحَمَّاة طاق^(٣) البرج المنيع من معقله، فاندفعت يتطاير شررها، واستقرت بين محصوريه، فعاثت عياث الصواعق السموية، فألقى الله الرعب في قلوبهم، وأتوا بأيديهم، ونزلوا قسراً على حكمه في الرابع والعشرين من الشهر، وأقام بظاهره، فصيره دار جهاد، وعمل في خندقه بيده، وانصرف، فكانت غزاة جمة البركة عظمت بها على الشرق الجذوى، وأنشد الشعراء في هذه الوجهة قصائد أشادت بفضلها، وشهرت من ذكرها، فمن ذلك عن كاتب سرّه^(٤) قوله^(٥): [الكامل]

أَمَا مَدَاكَ فغَايَةَ لَمْ تُلَحِّقْ^(٦) أَعْيَتْ عَلَى غُرِّ الْجِيَادِ السُّبُقُ^(٧)

ورفع إليه شيخنا الحكيم أبو زكريا بن هذيل، قصيدة أولها^(٨): [الطويل]

بَحِثِ الْقَبَابُ^(٩) الْحُمْرَ وَالْأَسَدَ الْوَزْدُ كَتَائِبُ مَكَانِ السَّمَاءِ لَهَا جُنْدُ
أَنشَدَنِي مِنْهَا فِي وَصْفِ النَفْطِ قَوْلُهُ:

وظَنُّوا بَأَنَّ الصُّغُقُ^(١٠) وَالرُّغْدَ فِي السَّمَاءِ فَحَاقَ بِهِمْ مِنْ دُونِهَا الصُّغُقُ وَالرُّغْدُ
غَرَائِبُ أَشْكَالِ سَمَاءِ هُرْمُسَ بِهَا مَهْنَدَةُ^(١١) تَأْتِي الْجِبَالَ فَتَنْهَدُ
أَلَا إِنَّهَا الدُّنْيَا تَرِيكَ عَجَائِبَا وَمَا فِي الْقَوَى مِنْهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَبْدُو

وفي^(١٢) العاشر لشهر رجب من عام خمسة وعشرين وسبعمائة، تحرّك للغزو^(١٣) بعد أخذ الأهبة والاستكثار والاجتهاد للمطوعة، وقصد مدينة مَرْتَشَ العظيمة الساحة، الطيبة البقعة، فأضرب بها المحلّات وكان القصد^(١٤) إجماع الناس، فصوب^(١٥) الحشود ووجهها إلى ما بها من بَحر^(١٦) الكروم والملتقات، وأدواح

(١) في اللّمة: «بمخنفها».

(٢) في اللّمة: «عليها».

(٣) في اللّمة: «طاقة».

(٤) كاتب سرّه: هو الحكيم أبو زكريا بن هذيل كما جاء في اللّمة البدرية.

(٥) البيت في اللّمة البدرية (ص ٨٦).

(٦) في اللّمة البدرية: «لم تسبق».

(٧) جاء في اللّمة البدرية بعد هذا البيت، البيت التالي:

فَاشْرَحَ بِسَعْدِكَ كُلَّ مَعْنَى مُشْكَلٍ وَافْتَحَ بِسَيْفِكَ كُلَّ بَابٍ مَغْلُوقٍ
(٨) الأبيات في اللّمة البدرية (ص ٨٥).

(٩) في اللّمة: «البنود».

(١٠) في اللّمة: «بأن الرعد والصعق...».

(١١) في اللّمة: «مهندمة».

(١٢) النص في اللّمة البدرية (ص ٨٦).

(١٣) في اللّمة: «إلى الغزو، وأخذ الأهبة...».

(١٤) في اللّمة: «قصده».

(١٥) في اللّمة: «فصرفت».

(١٦) في اللّمة: «شكر».

الأشجار، فأمعنوا في إفسادها، وبرز حاميتها، فناشبت الناس القتال، فحُميت النفوس، وأريد منعُ الناس، فأعيا أمرهم وسال منهم البحر، فتعلقوا بالأسوار، وقيل للسلطان: بادر بالركوب، فقد دُخل الرُبض^(١)، فركب ووقف بإزائها، فدخل البلد^(٢) عَنوة، واعتصم أهله بالقصبة، فدُخلت أيضًا القصبة عَنوة، وانطلقت أيدي الغوغاء على مَنْ بها من ذَكَرٍ وأنثى كبيرًا أو صغيرًا^(٣)، فساءت القَتلة، وقُبِحت الأحداث، ورُفِعت من الغد آكام من الجثث صَعِدَ دُراها المؤذنون، وقُفِل إلى غرناطة بنصر لا كفاء^(٤) له، فكان^(٥) دخوله من هذه العَزة في الرابع والعشرين لرجب المذكور.

وفاته: ولما^(٦) فصل من مَرْتَشْ نَقِم على أحد الرؤساء من قرابته، وهو ابن عمِّه محمد بن إسماعيل، المعروف بصاحب الجزيرة، أمرًا تَقْرَعه عليه، وبالغ في الإهمال له^(٧)، وتوَعَّده بما أثار حفيظته، فأقدم عليه بالفتكة الشنعاء التي ارتكبها منه بباب قصره، بين عبيده وأرياب دولته^(٨)، آمَنَ ما كان سَرِيًّا، وأعزَّ سلطانًا^(٩) وجُنْدًا؛ وذلك يوم الاثنين ثالث يوم من دخوله من مَرْتَشْ، بعد أن عاهد في الأمر جُملة من القِرابة والخُدَّام، فوثب به، وهو مجتاز بين السُّمَّاطين من ناسه إلى مجلس^(١٠) كان يجلس فيه للناس، فاعتنقه وانتضى^(١١) خنجرًا كان ملصقًا في ذراعه، فأصابه بجراحات ثلاث؛ إحداهن في عنقه، بأعلى تَرْقُوتِه، فخرَّ صريعًا. وصاح بكرَّ وزيره، فعَمَّتْ سيوف الحاضرين من أصحاب الفاتك، ووقعت الرُّجَّة، وسَلَّت السيوف، وتشاغل كلُّ بَمَن يليه، واستُخْلِص السلطان من يديه، وجِيلَ بينه وبينه؛ وحين تشاغل القوم بالوزير، رُفِع السلطان وظنُّ أنه قد أفلت جريحًا، فوقع البُهت، وبادروا الفرار، فسَدَّت المذاهب، فَمُتُّوا حيث وُجدوا. وأخذت الظُّنة قومًا من أبريائهم، فامتحنوا^(١٢)، ونهب^(١٣) الغوغاء دورهم، وعُلِّقَت بالجدران أشلاؤهم، وكان يومًا عصيبًا، وموقفًا صعبًا، واخْتَمَلَ السلطان إلى بعض دور قصره، وبه صُبابة روح، أشبه

(١) في اللوحة: «البلد».

(٢) في اللوحة: «صغير أو كبير».

(٣) في الأصل: «لا كفاء» والتصويب من اللوحة البدرية.

(٤) في اللوحة: «وكان».

(٥) النص في اللوحة البدرية (ص ٨٧ - ٨٨).

(٦) في اللوحة: «وبالغ في تأنيبه، وتوَعَّده...».

(٧) قوله: «وأرياب دولته» ساقط في اللوحة البدرية.

(٨) في اللوحة: «وأعزَّ نفَرًا وأمكن امتناعًا، غدوة يوم الاثنين الثالث من يوم دخوله...».

(٩) في اللوحة: «إلى مجلس القعود الخاص، فاعتنقه...».

(١٠) في اللوحة: «وسل».

(١١) في اللوحة: «ونهب».

(١٢) في اللوحة: «فاستحلفوا».

شيء بالعدم، للزوق العمامة بفوهة شزيانه المبتور، ففاض لحيته بنفس زوال العمامة، رحمه الله.

وكان من أخذ البيعة لولده الأمير أبي عبد الله من بعده، ما هو معروف في موضعه. ودفن غلَس ليلة^(١) الثلاثاء، ثاني يوم وفاته، بروضة الجنة^(٢) من قصره، إلى جانب جدّه؛ وتنوّهي الاحتفال بقبيره نقشاً، وتخريماً^(٣)، وإحكاماً، وحلياً، وتمويهاً، يشق^(٤) على الوصف، وكُتب بإزاء رأسه في لوح الرخام ما نصّه، من كلام شيخنا، بعد سطر الافتتاح:

«هذا قبر السلطان الشهيد، فتّاح الأمصار، وناصر ملّة المصطفى المختار، ومحبي سبيل آبائه الأنصار، الإمام العادل، الهمام الباسل، صاحب الحرب والمحارب، الطاهر الأنساب والأثواب، أسعد الملوك دولة، وأمضاهم في ذات الله صولة، سيف الجهاد، ونور البلاد الحسام^(٥) المسلول في نصرة الإيمان، والفؤاد المعمور بخشية الرحمن، المجاهد في سبيل الله، المنصور بفضل الله، أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن الهمام الأعلى الطاهر الذات والفخار^(٦)، الكريم المآثر والآثار، كبير الإمامة النصيرية، وعماد الدولة الغالية، المقدّس، المرحوم أبي سعيد فرج، ابن علّم الأعلام، وحامي جمى الإسلام، صنو الإمام الغالب، وظهيره^(٧) العليّ المراتب، المقدّس، المرحوم أبي الوليد إسماعيل بن نصر، قدّس الله روحه الطيّب، وأفاض عليها^(٨) غيث رحمته الصيّب، ونفعه بالجهاد والشهادة، وحباه^(٩) بالحسنى والزيادة، جاهد في سبيل الله حقّ الجهاد، وصنع له في فتح البلاد، وقتل كبار الأعداء^(١٠)، ما يجده مذكوراً يوم التناد، إلى أن قضى الله بحضور أجله، فختّم عمره بخير عمله، وقبّضه إلى ما أعدّ له من كرامته وثوابه، وغُبار الجهاد طيّ أثوابه، فاستشهد^(١١) رحمه الله شهادةً أثبتت له في الشهداء من الملوك قدّماً، ورفعت له في أعلام السعادة علّماً.

(١) في اللّمة: «ليلة يوم الثلاثاء».

(٢) في اللّمة: «وتنجيداً».

(٣) في اللّمة: «يشدّ عن الوصف».

(٤) في الأصل: «ذي الحسام» والتصويب من اللّمة.

(٥) في اللّمة: «والنّجار».

(٦) في الأصل: «وظهيره المقدّس العلي...» والتصويب من اللّمة.

(٧) في اللّمة: «عليه».

(٨) في الأصل: «وحياه» والتصويب من اللّمة.

(٩) في اللّمة: «استشهد».

(١٠) في اللّمة: «كبار ملوك الأعداء».

«وُلِدَ رضي الله عنه، في الساعة المباركة بين يَدَي الصبح من يوم الجمعة سابع عشر شَوَّال»^(١) عام سبعة وسبعين وستمائة، وبويع يوم الخميس السابع والعشرين لشَوَّال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، واستشهد في يوم الاثنين السادس والعشرين لشهر رجب^(٢) عام خمسة وعشرين وسبعمائة. فسيحان الملك الحق، الباقي بعد فناء الخلق».

وبعده من جهة اللوح الأخير^(٣): [البسيط]

تَخْصُ قَبْرَكَ يَا خَيْرَ السَّلَاطِينِ	تَحِيَّةٌ كَالضُّبَا مَرَّتْ بِدَارَيْنِ
قَبْرُ بِهِ مِنْ بَنِي نَصْرٍ إِمَامٌ هَدَى	عَالِي الْمَرَاتِبِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ
أَبُو الْوَلِيدِ، وَمَا أَدْرَاكَ مِنْ مَلِكٍ	مُسْتَنْصِرٍ وَاتَّقِ بِاللَّهِ مَأْمُونٍ
سُلْطَانٍ عَدْلٍ وَيَأْسٍ غَالِبٍ وَنَدَى	وَفَضْلٍ تَقْوَى وَأَخْلَاقٍ مَيَامِينِ
لَهُ مَا قَدْ طَوَاهُ الْمَوْتُ مِنْ شَرَفٍ	وَسِرٍّ مَجْدٍ بِهَذَا اللَّحْدِ مَدْفُونِ
وَمَنْ لِسَانٍ بِذِكْرِ اللَّهِ مَنْطَلِقِ	وَمَنْ فَوَادٍ بِحُبِّ اللَّهِ مَسْكُونِ
أَمَّا الْجِهَادُ فَقَدْ أَحْيَا مَعَالِمَهُ	وَقَامَ مِنْهُ بِمَفْرُوضٍ وَمَسْنُونِ
فَكَمْ فَتُوحَ لَهُ تُزْهِى ^(٤) الْمَنَابِرُ مِنْ	عُجْبٍ بِهِنَّ وَأَوْرَاقُ الدَّوَابِرِ
مَجَاهِدٍ نَالَ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ مَا	يُجْبِي عَلَيْهِ بِأَجْرٍ غَيْرِ مَمْنُونِ
قَضَى كَعَثْمَانَ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ ضُحَى	وَفَاةٍ مُسْتَشْهِدٍ فِي الدَّارِ مَطْعُونِ
فِي عَارِضِيهِ غِبَارُ الْغَزْوِ تَمْسُحُهُ	فِي جَنَّةِ الْخُلْدِ أَيْدِي حُورِهَا الْعَيْنِ
يُسْقَى بِهَا عَيْنُ تَسْنِيمٍ ^(٥) ، وَقَاتِلُهُ	مُرَدَّدٌ بَيْنَ زَقُومٍ وَغَسْلِينِ
تَبْكِي الْبِلَادَ عَلَيْهِ وَالْعِبَادَ مَعَا	فَالْخُلُقُ مَا بَيْنَ أَحْزَانٍ أَفَانِينِ
لَكِنَّهُ حَكَمَ رَبٌّ لَا مَرَدَّ لَهُ	فَأَمْرُهُ الْجَزْمُ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ
فَرَحْمَةُ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى	سُلْطَانٍ عَدْلٍ بِهَذَا الْقَبْرِ مَدْفُونِ

بعض ما رُئي به: وَعَظَمَتْ^(٦) فِيهِ فَجِيعَةُ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَكَلَّوْا مِنْ جِهَادِهِ وَعَزَمَهُ، وَبَلَّوْهُ مِنْ سَعْدِهِ وَعِزِّ^(٧) نَصْرِهِ، فَكَثُرَتْ فِيهِ الْمَرَاثِي، وَتَرَاهُنْتَ^(٨) فِي شَجَرِهِ الْقَرَائِحَ، وَيَكَاةَ الْغَادِي وَالرَّائِحَ. فَمِنْ الْمَرَاثِي الَّتِي أَنْشَدْتُ عَلَى قَبْرِهِ، قَوْلُ كَاتِبِهِ شَيْخِنَا

(١) في اللوحة: «شهر شَوَّال». (٢) في اللوحة: «رجب الفرد».

(٣) القصيدة في اللوحة البدرية (ص ٨٨ - ٨٩). (٤) في الأصل: «تزهو» والتصويب من اللوحة.

(٥) في الأصل: «تسليم» والتصويب من اللوحة. (٦) النص في اللوحة البدرية (ص ٨٩).

(٧) في اللوحة: «وعزة». (٨) في اللوحة: «وتراهقت».

أبي الحسن بن العتيّاب^(١): [الطويل]

ويا زفرة الحزن اخكمي وتحكمي
فإنّ الأسى قرّض على كل مُسلمٍ
إلى حيث ألقث رحلها أمّ قشعمٍ
وقل لشكاة الحزن أهلاً تقدّمي
وقشاح أبواب الندى والتكريمِ
وحيداً وأضمتّه الليالي بأسهمِ
تساقط درّاً بين قدّ وتوأمِ
تجلّى بوجه المعصر غرّة أدهمِ
أصالة أعراق وفضل تقدّمِ
ويُشرى لمكروبٍ وعفو لمُجرِمِ
لاضراخ مذعورٍ وإغناء مُعَدِمِ
به الفتح من غرس القنا المُتَحَطِّمِ
أصاب به الإسلام شاكلة الدمِ
تبوّأ منها في الخلود التنعمِ
ظهيرُ أمانٍ من دخان جهنّمِ
فما عرّسها إلّا طليعة مأتَمِ
ولا شَهْدُها إلّا مشوبٌ بعلقمِ
ألا فاعتبرها فهي نبتة أرقَمِ
ففي الغد تلقاه بوجه جهنّمِ
وطالعها هارٍ ومُبَصِّرُها عَمِ
فكلتاها طيفُ الخيال المُسلمِ
تبدّد منهم كلُّ شَمَلٍ مُنظَمِ
فخرٌ صريعاً للبيّدين وللفمِ
فلم تخجّه منها كتائبُ رننمِ
عليّاً من حُسام ابن مُلجَمِ^(٢)

أيا عبّرة العين امزّجي الدُمعَ بالدمِ
ويا قلبُ ذُبْ وَجَدًا وَغَمًا وَلَوْعَةً
ويا سلوةَ الأيام لا كنتِ فابعدي
وصيخُ بأناة الصبر سُخْفاً تأخري
ولم لا وشمسُ الملك والمجد والهُدى
ثوى بين أطباق الثرى رهن غربة
على مَلِكِ الإسلام فاستمخ بِزُفْرَةٍ
على عَلمِ الأعلام والقمر الذي
على أَوْحَدِ الأملاك غير منازع
ومَن مثل إسماعيل نورٍ لمُهِتَدٍ
وما مثلُ إسماعيل للباس والندى
وما مثلُ إسماعيل للحرب يُجَنِّتُنِي
وما مثلُ إسماعيل سَهْمُ سعادةٍ
شهيدٌ سعيّدٌ صَبَحَتْهُ شهادة
أنت وغبار الغزو طي ثيابه
فتبّا لدارٍ لا يدوم نعيمُها
ولا أنسُها إلّا رهينٌ بوخشةٍ
فيا مَن يرى الدنيا مُجاجة تُخَلَّة
فمن شام منها اليوم برق تبسمِ
فضاحكها باكٍ وجذلاًنها شجِ
وسراؤها تَفْنَى وضراؤها معاً
سَطَّتْ بملوك الأرض من بعد آدمِ
فكم من قصير قصّرت شاو غمره
وكم كسرت كسرى وفُضّت جيوشه
ولو أنها ترعى إمام هداية لأَعَفَّتْ

(١) ورد منها في اللوحة البدوية فقط البيتان الأول والثاني.

(٢) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي، قاتل الإمام علي بن أبي طالب.

وما قَتَلْتُ عثمانَ في جَوْفِ دارِهِ ففقدس من مُسْتَنْلِمٍ ومُسَلِّمٍ
وما أَمَكَّنْتُ فيروز^(١) من عُمر الرُّضَى فهدُث من الإسلام أرفع مَغْلَمٍ
إلى آخرها. وتضمن إجمالاً ما ذكر من ذلك، التاريخُ المُسَمَّى بـ «قطع السلوك»^(٢) المنظوم رجزاً من تأليفي بما نصّه: [الرجز]

وعندما خيف انتشار السُّلْك	ووزر الرُّوم وزير الملك
تدارك الأمر الإمام الظَّاهر	فعالج الدار طبيبٌ ماهر
وهو أبو الوليد إسماعيل	والشمس لا يفقدها دليل
ابن الرئيس الماجد الهمام	فَرَزْدُ السَّعْلا وعِلمُ الأعلام
وجده صنو الإمام الغالب	مناقبُ كالشَّهْبِ الشواقب
فقداد من مالقة الجنودا	ونشر الأعلام والبُنودا
وعاد نصر بمدى حمرائه	أتى وأمر الله من ورائه
فخلع الأمر وألقى باليد	من بعد عهد موثق مؤكَّد
وسار في الليل إلى وادي الأَشَى	والملك لله يعزَّ مَنْ يَشَا
ولم يزل فيها إلى أن ماتا	وطلَّق الدنيا بها بتاتا
واتسَّق الأمر وقَرَّ الملك	وربما جرَّ الحياة الهلك

ومن الرجز المذكور في وصف جهاده ومقتله: [الرجز]

وكان يوم المرج في دولته	ففرَّق الأعداء من صولته
وفتح المعازل المنيعه	وابتهجت بعدله الشريعة
وانتبه الدهر له من نومه	على يدي طائفة من قومه
بكى عليه الحرب والمحراب	وندبته الضُّمُر العُرَاب

إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر^(٣)

السلطان الذي احتال على أخيه، المتوثب على ملكه، يكنى أبا الوليد.

(١) هو أبو لؤلؤة فيروز قاتل الخليفة عمر بن الخطاب.

(٢) هو اسم كتاب ابن الخطيب: «رقم الحلل في نظم الدول».

(٣) معظم هذه الترجمة ورد في اللمحة البدرية (ص ١٢٦ - ١٢٩).

حاله: كان صبيًا كما اجتمع وجهه، بادئًا^(١) ديث الخلق، لين الجانب، شديد البياض، كثيف الحاشية، متصلًا بالجفوة، لطول الحُجبة، ويُعد التمرن والحُكَّة، غُرًا، فاقدًا لحُسْن الأدب، عريقةً ألفاظه في العُجمة. تصير الأمر إلى أخيه السلطان خيرتهم ولُباب بيتهم، يوم قتل أبوهما؛ وله مزية السن والرجاحة والسكنى بمحل وفاة الأب؛ فأبقى عليه، وأسكنه بعض القصور لصُقه، ولم يضايق أمه فيما استأثرت به من بيت المال، إذ كان إقليدّه في يدها، وبيضاؤه وصفراؤه في حكمها، ورقّه مُتَبَوّاه، واستدعى له ولأخيه المعلم الذي كان السبب في إفاته إرماقيهما، وإعدام حياتهما، الشيخ السُفلة محمد البطروجي البائس، فردّ ذلك السُرب، فاستمرت أيام احتجاجه وانتظاره على قصره، إلى رمضان من عام ستين وسبعماية. وحزك سماسرة الفتنة له ولأمه جواز الطمع في المُلك، ودندنوا لها حتى رَقَصَتْ على إيقاعهم، وخَفَّتْ إلى مواعدهم، وشتموا إلى خلاص الأمر؛ وأحام الوثبة صهره الرئيس أبو عبد الله، جلف الشؤم زوج أخته، محمد بن إسماعيل، الشهير الكائنة، المذكور في موضعه من حرف الميم، فسيرت إليه أمه المال، فبثه في الدعرة والشرار، حتى تمّ غرضه، واقتحم القلعة من بعض أسوارها عند البالية، وقد هُدم منها شيء في سبيل إصلاحه، ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان من عام ستين وسبعماية؛ والسلطان ليلتئذ غير حالّ بها، فملأوها لُجباً ولَغَطاً وصراخاً وهَوَلاً وتثويراً، في جُملة تناهز المائة؛ وانضاف إليهم أخوانُ رأيهم من حُرّاسها وسكانها؛ فالبس الناس، وسَقِط في أيديهم. وأهدى الليل فتكتة هائلة، وأذاها شنيعة، فاقتصر كل على النظر لنفسه، وانقسموا فرقتين؛ قصدت إحداهما دار كبير الدولة، وقَيُوم التّفويض، وشيخ رجال الملك رضوان، المستبدّ بإحالة كورتها، الشيخ الذّهل، معزوز القدر، وراثب التكتة، ومُعود الإقالة، وجزّار رَسَن الأطواد، وطول الإملا، الماشي على خدّ الدنيا، المغضوض البصر عن النّظر، المستهين بكل سبّة وحيّة تسعى، المعوّل على نظره، وقوة سَعْدِه وإجابة دعوته، مع كونه نسيج وحده في عفافه وديانته، ورضى الناس به، وسقوط منافستهم من أجله، ومأويهم على مولٍ لفظه، ويساط معاملته، وصحة عقده. فعالجوا بابه طويلاً وتولّجوا داره، وقتلوه بين أهله وولده.

وقصدت الأخرى دار الأمير المترجم به ومعها صهره، فأخرجوه، وأركبوه على فرس، رايد الفرائض، ممتقع اللون، مختلط القول، تحفّ به داياته بين مؤلولة،

(١) في اللّمة البدرية (ص ١٢٦): «بدئًا».

وتأفلة ومعوذة، قد جعلوا به سيفًا مُضَلَّتًا على سبيل اللواعب بالتصوّل والرّواقص، في مدارج اللّهُو؛ واستخرجت طبول الملك فقرعت، وقيدت الخيل من مرابطها فركبت، وقصدت الخزائن السّلاحية ففرقت، وتمّ الأمر، وحلّ من الريب على دار الإمارة القصد، وخرجت الكتب إلى البلاد والقواعد، فالتقت باليد أمهاتها لقطع من بها من أولي الأمانة، بتمام الأمر، وهلاك السلطان، فتّم له الأمر، وبادر أخوه السلطان لحينه لظهر سابق كان مرتبطًا عند مجرّ له من الجنة لصق القلعة، فاستأجر الليل، ووافق الحزم، فاستقرّ بوادي آش، وكان أملك بها، ونازلته المحلّات، وأخذ بمحقّقه الحصص، واستنصرت لمنازلته الناس، وأعملت الجيّل؛ وتأذّن الله بثبوت قدمه، وانتقاله إلى ملك المغرب صبح عيد النحر من العام المذكور؛ إلى أن أعاد الله إليه أمره وردّ عليه حقّه، وتولّى بعد اليأس جبره، حسبما يُذكر في موضعه، إن شاء الله.

وخلا الجو لهذا الأمير المضعوف، واستولى على أريكة المُلْك الأغمار وأولو البطالة، وأولياء صهره الرئيس، خاطبها له ابتداءً ثم ناقلها إلى نفسه انتهاءً، وحاملها إلى غايته درَجًا، وإلى إعاقة سُلْمًا؛ وهو ما هو من غشّ الحبيب، وسوء العقد، ودخل السريرة، واستيطان المكروه، فأغرى منه بالعهد نفسًا مطاوعةً للشهوة، متبرّمة بالامتحان والخلوّة، برّة من نور العلم وتهذيب الحكمة، ناشئة بين أخابيث القسوة، جانيّة أمانى الشهوة والمخالفة، مضادّة للفلاح، حايدة عن سبيل النجاة، بمحل اغتراب عن النّصحاء، وانتباز عن مقاعد الأحرار؛ فجرى طلق الجموح في التخلف، حتى كبا لفيه ويديه، وأعان نَسمة السوء الرئيس على نفسه؛ وقد كان اصطنع الرجال، واستركب أولي البسالة، وأسالف الذّعة؛ واختصّ في سبيل خدمته والذبّ عنه، بالبؤساء والمساكير، يُشركهم في الأكلة، ويصافيهم النعمة. وأظلم ما بينهما، فحذّر كلّ جانب أخيه، إلّا أن المهين كا أضعف من أن يستأثر بخطة المعالجة، ويهتدي إلى سبيل الحزم. وفي عشيّ يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر شعبان، شارفه من مكمن غدره الرّحب بجوار قصره، وارتبط به الخيل واستكثر من الحاشية، وأخفى المساعير، وداخل الموروري المشؤوم على الدولة، فبادر رجاله سدّ الأبواب، وانخرط في جملة أوياشه من باب السلطان، من الرّجل لنظر مآلته في العناء، وعونه على الهول الموروري، فأحاط به، وقد بادر الاعتصام بالمصنع ثاني الصرح المنسوب إلى هامان سمواً ونفالاً في السُّكّاك^(١) وسعة ذرع. وبعدما رقي وصرخ بالناس،

(١) السُّكّاك: الهواء الملاقي عنان السماء، والسماء. محيط المحيط (سكك).

يناشدهم الذمام، فحفّت إليه منهم الكثير، وتراكموا بالطريق تحته، وتولّى استنزاله عن سيّوئه مملوك أبيه، العليج المخذول عبّاد، وقد تحصّل في قبضته الغادر، فقتل له في الغارب والدّروة، ووعده الحياة، فنزل عن أمان فُسحة الغدر الصّراح، والوفاء المُستباح. ولحين استهاله، أمر نقله إلى المُطَبّق، فقيّد مُختبلاً كثير الضراعة، إلى الأري^(١) لصيق قصره، وتعاوَزته السيوف، وألحِقَ به صغيره قيس، استخرج من بعض الخزانن، وقد جَهدت أُمّه في إخفائه؛ فمضى لسبيله، وطُرحَ رأسه على الرّزاع المُجيبين لندائه، فانفضّوا لحينه، وبقي مطروحاً موارى بجلّس^(٢) دابة من دواب الظهر، إلى يوم بعده، فوَرِيّ هو وأخوه بمقربة من مدفن أبيهما، فكان من أمرهما عبرة. وقد استوفى ذلك الكتاب المسمى بـ «نفاضة الجراب» من تأليفنا.

وزراء دولته: قدّم للوزارة عشية^(٣) يوم ولايته، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري، بطالع الشؤم، ونُتِبَ النحس. عهد بالطبيب الإسرائيلي الحبري العظيم المهارة في الفن النجومى، إبراهيم بن رَزْزار، يتطاير بتلك الولاية بكون النحس الأعظم في درجة طالعها، جذّوا انفراد بنخز أديبه الجهالة، المعدودون في البهْم والهمج، الذين لا يعبا الله بهم؛ فكان الخبر وفوق الخبر، فلم يُرَ في الأندلس وزارة أثقل وطأة، ولا أخبث عهداً، ولا أعظم شرّها، ولا أكثر حَجْراً منها. ثم كانت عاقبتُهما أنهما في النار خالدان فيها، وذلك جزاء الظالمين من رجل حَبَزَكى^(٤)، كَمِد اللون، تنظف سحتته مرّة وسُماً، غائر العين، مطأطأء الرأس، طَرِفَ في الحقد والطمع وعي المنطق وجمود الكفّ، معدنّ من معادن الجهل، مثل في الخيانة؛ تناول الأمر مُزاحماً فيه بالرئيس المتوثّب، وابن عمّ نفسه، الغادر، الضخم الجرامة، بالوعث المهين، وثور النقل، وثعبان الفواكه، وصاعقة الأخونة^(٥)، ووكيل الدولة المنحطّ عن خلالهم بالأبوة والنشأة؛ فجرت أمورهما أسوأ مجاريها، إلى أن كان ما أذن الله به، من مداخلة الرئيس الغادر، على قتل أميره المسكين المَهين، مقلّده أنوّه الرّتب، وتاركه وخطة الخيانة؛ ثم أخذَه الأخذَة الرايبة بيد مَنْ أمدّه في الغي، وظاهره في الخزي؛ فجعله نكالا لما بين يديه وما خلفه، وموعظةً للمُتّقين، حسبما يأتي في اسمه، بحول الله تعالى.

(١) الأري: محبس الدواب. لسان العرب (أري).

(٢) الجلّس: كساء تُجلّل به الدابة تحت البردة. لسان العرب (جلّس).

(٣) في اللوحة اليدوية (ص ١٢٧): «عشي».

(٤) الحَبَزَكى: الغليظ الرقة والضعيف الرُجلين كأنه مقعد لضعفهما. لسان العرب (حبرك).

(٥) الأخونة: جمع خِوان وهو المائدة. لسان العرب (خون).

كاتبه: واستعمل في الكتابة صاحبنا الرجل الأخرق، الطوال، الأهوج، البري من الخلال الحميدة، إلا ما كان من وَسَط الخط وسوقِي السجع، والدرك الأسفل من النظم، عبد الحق^(١) بن محمد بن عطية المحاربي، الآتي ذكره^(٢). وهو الذي أفرده الله، جلّ جلاله؛ بالغاية البعيدة من مجال سوء العهد؛ وقلة الوفاء. وتولّى القضاء أبو جعفر^(٣) أحمد بن أبي القاسم بن جُزَي أياماً، ثم شَهَر به قوم من الفقهاء منافسيه، ورشقوه بما أوجب صرفه؛ وَقَدَّم للقضاء الشيخ المُسَيِّن، الطويل السباحة في بحر الأحكام، المُفري الودَجين والحلقوم بيسكين القضاء، المنبوز^(٤) بالموبقات فيه، تجاوز الله عنه، سَلْمُون بن علي بن سلمون. وشيخ الغزاة على عهده، يحيى بن عُمر بن عبد الله بن عبد الحق، شيخ الغزاة لأخيه، أصبح يوم الكائنة في قياده، ونصح له فأمر له؛ وضاعف برّه.

الملوك على عهده

مولده: في يوم الاثنين الثامن والعشرين لربيع الأول من عام أربعين وسبعمئة.
وفاته: حسبما تقرّر آنفاً في يوم الأربعاء السابع والعشرين لشعبان من عام أحد وستين وسبعمئة.

أبو بكر بن إبراهيم، الأمير أبو يحيى المسوفي الصحراوي^(٥)

من أمراء المرابطين، صَهْرُ علي بن يوسف بن تاشفين، زوج أخته، وأبو ولده منها يحيى، المشهور بالكرم.

أولّيته: معروفة تُستقرأ عند ذكر ملوكهم.

حالهم: كان مثلاً في الكرم، وآيةً في الجود، أنسى أجواد الإسلام والجاهلية إلى الغاية؛ في الحياء والشجاعة والتبريز في ميدان الفضائل. استوزر الوزير الحكيم الشهير أبا بكر بن الصائغ، واختصّه؛ فتجمّلت دولته ونَبّه قدره. وأخباره معه شهيرة.

(١) في اللوحة البدرية (ص ١٢٧): «الفقيه أبو محمد عبد الحق بن أبي القاسم بن عطية المحاربي».

(٢) ستأتي ترجمته في الجزء الثالث من الإحاطة.

(٣) في اللوحة البدرية (ص ١٢٨): «الفقيه أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن جزي».

(٤) المنبوز: المعروف، المشهور.

(٥) أخبار أبي بكر بن إبراهيم، المشور بابن تيفلوت، صاحب سرقسطة، في البيان المغرب (ج ٤ ص ٦١) والمغرب (ج ١ ص ٦١) و(ج ٢ ص ١١٩)، والحلة السيرة (ج ٢ ص ٢٧٦). والمسوفي: نسبة إلى مسوفة وهي قبيلة بربرية من بطون صنهاجة.

ولايته: وَلِيَّ غَرْنَاطَة سنة خمس مائة. ثم انتقل منها إلى سَرَقُسْطَة عند خروج المستعين بن هود إلى روضة^(١)، فأقام بها مراسم المُلْك، وانهمك في اللذات، وعكف على المُعاقرة، وكان يجعل الثَّاج بين ندمائه، ويتزَّيا بزِي الملوك، إلى أن هلك بها تحت مضايقة طاغية الروم المستولي عليها بعد.

خروجه من الصحراء: قال المؤرَّخ: كان أبو بكر هذا رئيساً على بعض قَبيله في الصحراء، وكان ابن عمّه منفرداً بالتدبير؛ فاتفق يوماً أن دخل على ابن عمّه في خبائه، وزوج ابن عمّه تمتشط في موضع قريب من الخباء؛ فاشتغلت نفس أبي بكر^(٢) بالمرأة لحُسْنها وجمالها، فحين دخل قال لابن عمّه: فلانة تريد الوصول إليك؛ وإنما قصد الاستئذان لرجل من أصحابه، فنطق باسم المرأة لَشْغْل باله بها، فقال له ابن عمّه بعد طول صَنَت وفكرة، وقد أنكر ذلك: عهدي بهذا الشخص لا يستأذن علينا. فرجع عقله، وثاب لبّه، وعلم قدر ما من القبيح وقع فيه، فخرج من ذلك المجلس، وركب جَمَلَهُ، وهانَّ عليه مفارقة وطنه من أجل العار، واستصحب نفرًا قليلًا من أصحابه على حال استعجال، ورحل ليلاً ونهارًا، حتى وصل سِجْلَمَاسَة^(٣) أولي عِمالات علي بن يوسف ابن عمّه؛ واتصل به قدومه، فأوجب حقّه، وعرف قدره، وعقد له على أخته، وولاه على سَرَقُسْطَة دار ملك بني هُود بشرق الأندلس، بعد ولاية غرناطة.

نبذة من أخباره في الكرم: قالوا: لما حلَّ بظاهر سِجْلَمَاسَة، مجهول الوفادة، خافي الأمر، نزل بظلّ نخلة بظاهرها، لا يعرف أحدًا ولا يقصده، فجاء في ذلك الموضع رجل حداد فقراه^(٤) بعَزْزٍ كان عنده، وتعرّف له، وأبو بكر يستغرب أمره؛ فلما فرغوا من أكلهم، قال للحداد: ألا تصحبنا لموضع أملنا، وتكون أحد إخواننا، حتى نحمد لقاءنا؟ فأجابه؛ وصحبه الحداد، وخدمه، فلما قَرَّبوا من مَرَاكُش، استأذن أبو بكر علي بن يوسف بن تاشفين، وأعلمه بنفسه، فأخرج له علي بن يوسف فرسًا من عِتاق خيله، وكسوة من ثيابه وألف دينار، فأمر أبو بكر بدفعها للحداد، فَبِهَتْ

(١) روضة، بالإسبانية Rueda؛ وهي معقل أو جُضُن أو ثغر كان قد لجأ إليه صاحب سرقسطة عماد الدولة عبد الملك بن أحمد بن المؤتمن بن المقتدر بن هود، عندما أخرجه أهل سرقسطة من مدينتهم واستدعوا عامل علي بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٣ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١٧٥)، والمغرب (ج ٢ ص ٤٢٨).

(٢) في الأصل: «أبو» وهو خطأ نحوي.

(٣) سِجْلَمَاسَة: مدينة في جنوب المغرب في طرق بلاد السودان. آثار البلاد (ص ٤٢).

(٤) قراه: أضافه وأكرمه. لسان العرب (قرا).

الحداد؛ وانصرف الرسول مُوجَّهاً إلى مرسله فأخبره بما عاين من كرمه وفعله، فأعاده إليه في الحين بفرسٍ أخرى، وكسَى كثيرة، وآلاف من المال، فلَمَّا دخل مَرَاكُش، ولقي علي بن يوسف وأنزله، أنزل الحداد مع نفسه في بيت واحد، وشاركه في الأموال التي توجَّه بها، فانصرف يجرّ وراءه دنيا عريضة.

ولَمَّا مَلَكَ سَرَقُسطة^(١)، اختصَّ الوزير الحكيم أبا بكر بن الصائغ، ولَطَفَ منه محلّه. ذكر أنه غاب يوماً عنه وعن حضور مجلسه بسرقة، ثم بكر من الغد، فلَمَّا دخل قال له: أين غِبتَ يا حكيم عثا؟ فقال: يا مولاي، أصابتني سوداء واغتممتُ، فأشار إلى الفتى الذي كان يقف على رأسه، وخاطبه بلسان عجمي^(٢)، فأحضره طبقاً مملوءاً مثاقيل مُحشمة، وعليها نوادير ياسمين، فدفعه كلّ إليه، فقال ابن باجة: يا مولاي، لم يعرف جالينوس من هذا الطّب، فضحك.

وذكر أنه أنشد شعراً في مدحه، وقد قعد للشراب، فاستفرَّه الطرب، وخلف أن لا يمشي إلّا من فوق المال إلى منزله في طريقه، فالتمس الخُدام بُرُئسه بأن كانوا يطرحون من المال شيئاً له خطر، على أوعيته حتى يغمرها، فيمشي خَطْوًا إلى أن وصل إلى منزله؛ وحسد الحكيم أصحابه، ولم يقدروا على مطالبتة. واتفق أن سار الأمير أبو بكر، وأمر أصحابه بالتأهب والاستعداد، فاستعدَّ ابن باجة، واتخذ الأُقية والأُخية، واستفرَّه الجياد من بغال الحمولة، فكانت له منها سبعة صُفر الألوان، حمل عليها الثياب والفُرُش والمال؛ فلَمَّا نزل الأمير بمقرّه، مرّت عليه البغال المذكورة في أجمل الهيئات، فقال لجلسائه: لَمَن هذه البغال؟ ومَن يكون من رجالنا هذا فأصابوا العزّة؟ فقالوا: هي للحكيم ابن الصائغ، صاحب سرقة، وليعلم مولانا أنّ في وسط كل جِمل منها ألف دينار ذهباً سوى المتاع والعُدّة؛ فاستحسن ذلك. وقال: أهذا حق؟ قالوا: نعم، فدعا الخازن على المال، وقال له ادفع لابن باجة خمسة آلاف دينار ليُكْمَل له ذلك اثني عشر ألفاً، فقد سمعته غير ما مرة يتمنى أن يكون له ذلك؛ ثم بعث عنه في الحين وقال له: يا حكيم، ما هذا الاستعداد، فقال له: يا مولاي، كل ذلك من هباتكم وأعطياتكم، ولِما عَلِمْتُ أن إظهار ذلك يسرّكم، فسُرّ بذلك. وأخبره رحمه الله كثيرة.

محنته: قالوا: ولَمَّا وُلِّيَ غرناطة سنة خمس مائة، ثار بها، وانبرى على قومه لأمر رابه، فانتبذ عنه قومه، وناصبوه الحرب، حتى استنزلوه عَثْوَةً، وقبضوا عليه،

(١) ملكها سنة ٥١٠ هـ، كما جاء في البيان المغرب (ج ٤ ص ٦١).

(٢) في الأصل: «عجمية».

ووجهوه إلى علي بن يوسف، فأثر الإبقاء عليه، وعفا عنه، واستعمله بسرقسطة؛ كذا ذكره الملاحى، وأشار إليه. وعندي أن الأمر ليس كذلك، وأن الذي جرى له ذلك، أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين، فيتحقق.

وفاته: توفي بسرقسطة في سنة عشر وخمسمائة بعد أن ضاق دزعه بطاغية الروم، الذي أناخ عليه بكلكله. وعندما تُعرّف خبر وفاته، واتصلت بالأمير أبي إسحق إبراهيم بن تاشفين، وهو يومئذ والي مُرسية، بادر إلى سرقسطة، فقبض عليها، ونظر في سائر أمورها، ثم صدر إلى مرسية.

رثاؤه: ورثاه الحكيم أبو بكر بن الصائغ^(١) بمرثٍ اشتهر عنه منها قوله^(٢):
[الطويل]

سلامٌ وإمامٌ ووسمي مُزنّة^(٣) على الجدّث النائي^(٤) الذي لا أزوره
أحقُّ أبو بكر تقضى فلا ترى^(٥) تَرُدُّ جماهير الوفود سُتُورَه
لئن أنست تلك اللحود بلخده^(٦) لقد أوجشت أقطاره^(٧) وقُصُورَه

ومن ذلك قوله^(٨): [الخفيف]

أيها المَلِكُ قَدْ^(٩) لَعَمْرِي نَعَى المَجْد دُ نَواعِيكَ^(١٠) يَوْمَ قُمْنَا فُتُخْنَا

(١) هو محمد بن يحيى بن باجة، فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان، استوزره أبو بكر بن إبراهيم، المعروف بابن تيفلوت صاحب سرقسطة. توفي سنة ٥٣٣ هـ. وترجمته في قلائد العقيان (ص ٢٩٨)، والمغرب (ج ٢ ص ١١٩) واسمه فيه: محمد بن الحسين بن باجة، وعيون الأنبياء في طبقات الأطباء (ص ٥١٥)، ووفيات الأعيان (ج ٤ ص ٤٢٢)، وخريدة القصر - قسم شعراء المغرب (ج ٢ ص ٢٨٣)، والوافي بالوفيات (ج ٢ ص ٤٢٠)، ومطمح الأنفس (ص ٣٩٧)، ومعجم الأدباء (ج ٤ ص ٥٤٧) في ترجمة ابن خاقان. وسترده ترجمته في الجزء الرابع من الإحاطة في ترجمة ابن خاقان.

(٢) الأبيات في المغرب (ج ٢ ص ١١٩)، وقلائد العقيان (ص ٣٠٣).

(٣) في المغرب: «... وإمامٌ وزُوخٌ ورحمةٌ على الجسد النائي...».

(٤) في الأصل: «الثاني» والتصويب من المصدرين.

(٥) في المصدرين: «أحقاً أبا بكر تقضى فما يرى...».

(٦) في القلائد: «القبور بلخده»، وفي المغرب: «... تلك القبور بقبوره».

(٧) في الأصل: «أقصاره» والتصويب من القلائد. وفي المغرب: «أمصاره».

(٨) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٣٠٠ - ٣٠١).

(٩) في الأصل: «المُفْدَى» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من القلائد.

(١٠) في الأصل: «ناعيك» والتصويب من القلائد.

كما تقارعت والخطوب إلى أن غادرثك الخطوب في الثرب رهنا^(١)
غير أني إذا ذكرك والذف مر أخال السقيين في ذاك ظنا
وسألنا متى اللقاء فقل^(٢) ال حشر قلنا صبرا إليه وحزنا

إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي،
أمير المؤمنين، الملقب بالمأمون، مأمون الموحدين^(٣)

أوليته: جدّه عبد المؤمن، جذع الشجرة، ويُنْبِوع الجداول؛ هو ابن علي بن علوي بن يعلّى بن موار بن نصر بن علي بن عامر بن موسى بن عون الله بن يحيى بن ورجايغ بن سطفور بن نفور بن مطماط بن هزرج بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان. وكان طالباً بربرياً ضعيفاً، خرج مع عمّه يؤم للشرق، وكان رأى رؤيا هالته تدلّ على مُلك، إذ كانت صفحته من طعام على رُكبتيه، يأكل منها الناس، وكانت أمه رأت وهي حامل، كأنّ نازاً خرجت منها أحرقت المشرق والمغرب؛ فكانت في نفسه حركة، لأجل هذه الرؤيا؛ فلما حلّ بسجلماسة، سمع بها عن المهدي، وكان رجلاً يُعرّف بأبي عبد الله الشوسي، ووُصِفَ له بالعلم، فتشوّف إلى لقائه، ليرى ما عنده في تأويل رؤياه؛ فانصرف إليه مع بعض الطلبة، فلقِيَ رجلاً قد وسمه، على ما يزعم الناس، جذّان من أبي حامد الغزالي، وعَلَقَتْ به دعوة منه، في إذهاب مُلكِ أهل اللّثام^(٤)، لحرق كتابه على أيديهم، فهو مُغرَى بالخروج عليهم، مهياً في عالم الغيب إلى تخريب دعوتهم؛ فوافق شُرُ طَبِقة^(٥)، وما اجتمع الدّان إلّا ليقْتلا، والله غالب على أمره، فأجلسه، وسأله عن اسمه، وبلده، وسمّه، ونسبه، بالتعريف؛ وأمره أن يُخفي من أمره، وعبر له رؤياه، بأنّه يملك الأرض؛ فاهتزّت الآمال وتعاضدت؛ ونفذت مشيئة الله؛ بأن دالت الدولة، وهلك محمد بن تومرت المهدي؛ فأفضى الأمر إلى عبد المؤمن، واستولى على مُلك اللّثوميين، فأباد خُضراءهم، واستأصل شأفتهم، واستولى على

(١) في الأصل: «وهنا» والتصويب من القلائد.

(٢) في القلائد: «فقالوا».

(٣) يكنى المأمون إدريس بن يعقوب الموحدي بأبي العلاء، وترجمته في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٧٤)، والحلل الموشية (ص ١٢٣)، ورايات المبرزين (ص ٥٩)، والاستقصا (ج ٢ ص ٢٣٦).

(٤) أهل اللّثام: هم المرابطون.

(٥) هو مثل؛ شُرُ: رجل من ذُعاة العرب وعقلائهم، وطبقة: بنت هذا الرجل، يُضرب للمتوافقين. مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٣٥٩).

مُلْك المغرب، فأقام به رسماً عظيماً، وأمرًا جسيمًا، وأورثه بنيه من بعده، والله يُؤتي مُلكه من يشاء.

حاله: كان، رحمه الله، شهماً شجاعاً، جريئاً، بعيد الهمة، نافذ العزيمة، قوي الشكيمة، لبيباً، كاتباً أديباً، فصيحاً، بليغاً، أبيّاً، جواداً، حازماً. وذكره ابن عسکر المألقي في تاريخ بلده؛ قال: دخل مالقة من قبل أخيه، فوصل إليها في الحادي عشر من مُحرم، وهو شاب حَدَث، فكان منه من نباهة القُدْر وجلالة النفس، وأُبْهة المُلْك ما يعجز عنه كثير من الملوك. ولحين وصوله عقد مجلس مذاكرة، استظهر له نبهاء الطلبة، وكان الشيخ علي بن عبد المجيد يحضره. وكان يبدو منه، مع حداثة سنّه، من الذكاء والتبّل والتفطّن، ما كان يُنْهت الحاضرين، وكانوا ينظرون منه إلى بَدْرِ الحُسن، وأسديّ الهيبة، وكهليّ الوقار والتؤدة؛ واشتغل بما يشتغل به الملوك من تفخيم البناء، كبنيان رياض السيّد الذي على ضفة الوادي^(١) بمالقة المعروف باسمه، لله ورسوله، وكان عُرفاء البَنّائين لا يتصرفون إلّا بنظره؛ واستمرّت ولايته مُفخّم الأمر، عظيم الولاية، إلى أن نُقل منها إلى قرطبة، ثم نقل إلى إشبيلية وفيها بويع الخلافة^(٢).

تصير الأمر إليه، وجوازه إلى العُدوة:

قام على أخيه العادل بين يدي مقلعة، بممالة أخيه السيّد أبي زيد، أمير بلنسية وتحريكه إياه، فتمّ له ذلك؛ وعقدت له البيعة بمراكش والأندلس. ثم إن الموحدين في مراكش بدّأ لهم في أمره، وعدلوا عنه إلى ابن عمّه أبي زكريا بن الناصر؛ واتصل به خبر خلعهم إياه فهاجت نفسه، ووَقَدت جَمْرته، واستعدّ لأخذ ثأره، ورحل من إشبيلية، واستصحب جمعاً من فرسان الروم، واستجاز البحر سنة ست وعشرين وستمائة، قاصداً مراكش؛ وبرز ابن عمّه إلى مدافعته، والتقى الجَمْعان فكانت الهزيمة على يحيى بن الناصر، وفرّ إلى الجبال، واستولى القتل على جيشه، ودخل المأمون مراكش فأمر بتقليد شُرفاتها بالرووس فعَمَّتْها على اتّساع السّاحة؛ واستحضر الناكثين لبيعتهم وبيعة أخيه، وهم كبار الدولة، واستفتى قاضيه^(٣) بمرأى منهم، واستحضر

(١) قال في الحلل الموشية (ص ١٢٤) إن المأمون بنى قصر السيّد بمالقة حين كان والياً عليها سنة ٦٢٣ هـ. والمراد بالوادي: وادي المدينة Guadamedina، وهو نهر يخترق الحاضرة مالقة.

(٢) في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٧٤): «بويع بإشبيلية يوم الخميس ثاني شهر شوال من سنة أربع وعشرين وستمائة».

(٣) في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٨٥)، والحلل الموشية (ص ١٢٤): القاضي المكيدى.

خطوطهم وبيعاتهم، فأفتى بقتلهم، فقتل جماعتهم، وهم نحو مائة رجل^(١)، وأُتْصِلَ البحث عَمَّنْ أَقَلَّتْ منهم، وصرف عزمه إلى محو آثار دولة الموحَّدين، وتغيير رسمها، فأزال اسم مَهْدِيهَا عن الخطبة والسُّكَّة والمآذن، وقطع النداء عند الصلاة «تأصَّلت الإسلام» وكذلك «منسوب رب» «وبادري»^(٢)، وغير ذلك، مما جرى عليه عمل الموحَّدين؛ وأصدر في ذلك رسالة حسنة، من إنشائه، يأتي ذكرها في موضعه. وعند انصرافه من الأندلس، خلا للأمير أبي عبد الله بن هُوْد الجَوْ، بعد وقائع خلت بينهما، وانتَهز النَّصارى الفرصة؛ فعظمت الفتنة، وجَلَّتْ المحنة.

دخوله غرناطة: لم يصحَّ عندي أنه دخل غرناطة، مع غَلْبَةِ الظن القريب من العلم بذلك، إلَّا طريقه إلى مدافعتة المتوكل بن هُوْد بجهة مرسية؛ فإنه تحرك لمعالجة أمره في جيش إشبيلية باستدعاء أخيه السيد أبي زيد، والي بَلَنْتِسِيَّة، بعد هزائم جرت بضُقع الشرق لابن هُوْد؛ فتحرك المأمون إليه، واحتلَّ غرناطة، في رمضان من عام خمسة وعشرين وستمائة، وأنفذ منها كتابه إلى أخيه، يقوِّي بصيرته، ويعلمه بتفوذه إليه؛ والتفَّ عليه جيش غرناطة وما والاها، واتصل سيره إلى الشرق، فبرز ابن هُوْد إلى لقائه، فكان اللقاء بخارج لُورقة، فانهزم ابن هُوْد، وفرَّ إلى مرسية، وعساكر الموحَّدين في عَقْبِهِ؛ واستقصاء مثل هذا يخرج عن الغرض.

وخاطب لأول أمره، وأخذ الناس ببيعته من بأقطار الأندلس، صادعًا بالأمر المعروف، والنَّهْي عن المنكر، والحضُّ على الصلوات وإيتاء الزكاة، وإيتاء الصدقات، والنَّهْي عن شرب الخمر والمُسْكِرَات والتحريض على الرعاية، فمن كتابه: «الحمد لله الذي جعل الأمر بالمعروف، والنَّهْي عن المنكر أضلِّين يتفرَّع منهما مصالح الدنيا والدين، وأمر بالعدل والإحسان، إرشادًا إلى الحق المُبين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الكريم، المبعوث بالشرعة التي طهرت الجيوب من الأدران، واستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان، طورًا بالشدة، وتارة باللين؛ القائل، ولا عدول عن قوله: «ومن اتقى الشُّبُهَات استبرأ لدينه وعرضه» تنبيهًا على ترك الشكِّ لنيقين؛ وعلى آله أعلام الإسلام، الملقين راية الإسلام باليمين، الذين مكَّتهم الله في الأرض، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف ونهَّوا عن المنكر، وفاء بالواجب لذلك التمكين.

(١) في البيان المغرب (ص ٢٨٥): مائة شخص من أعيانهم. أما الذين قتلوا، يقول ابن عذاري، أَسْم لا تُحصى. وقدَّر صاحب الحلل الموشية (ص ١٢٤) عددهم بأربعة عشر ألف فارس وأكثر.

(٢) يبدو أن هذه الكلمات بربرية.

ومن فصل: «وإذا كُنَّا نوفي الأمة تمهيد دنياها، ونُعنى بحماية أقصاها وأدناها، فالدين أهمُّ وأولى، والتهمُّ بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها، أحقُّ أن يُقدَّم وأخرى، وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع ونَدَع، ونتبع السُّنن المشروعة ونَدَّر البدع. ولنا أن لا ندخر عنها نصيحة، ولا نغبنها أداة من الأدوات مريحة، ولنا عليها أن تطيع وتسمع».

ومن فصل: «أول ما يتناول به الأمر النافذ، الصلاة لأوقاتها، والأداء لها على أكمل صفاتها، وشهودها إظهارًا لشرائع الإيمان في جماعتها، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ الأعمال إليَّ الصلاة لأوقاتها». وقال: «أول ما يُنظر فيه من أعمال العيد الصلاة». وقال عمر: إن أهمَّ أموركم عندي الصلاة، فمن حَفِظها وحافظ عليها حفظ دينه، ومن ضيَّعها فهو لما سواها أضيَّع. وقال: «لا حظُّ في الإسلام لمن ترك الصلاة، وهي الركنُ الأعظمُ من أركان الإيمان، والصور الأوثق لأعمال الإنسان، والمواظبة على حضورها في المساجد، وإثَارُ ما للصلاة الجماعة من الجزية على صلاة الواحد، أمرٌ لا يضيِّعه المفلحون، ولا يحافظ عليها إلَّا المؤمنون. قال ابن مسعود، رضي الله عنه: لقد رأينا، وما يتخلف عنها إلَّا المنافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يؤتى يتهادى بين الرُّجلين، حتى يقام في الضُّف. وشهود الصبح، وعشاء الآخرة شاهد بمحضر الإيمان. ولقد جاء: حضور الصبح في جماعة يَغْدِل قيام ليلة، وحسبكم بهذا الرُّجحان. ومن الواجب أن يُعتنى بهذه القاعدة الكبرى من قواعد الدين، ويأخذ بها في جميع الأمصار الصغير والكبير من المسلمين، ويُنِط في إلزامها قوله عليه الصلاة والسلام: «مُرُوا أَبْنَاءَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لَعَشْرَ سَنِينَ». وهي طويلة في معاني متعددة.

نثره ونظمه: ولما غيَّر رسوم الموحِّدين وأوقع بأرباب دولتهم خبرُ النكت ببيعته وبيعتي أخيه وعمه، كتب إلى الأقطار عن نفسه، ولم يكمل إنشاءه بكتابة رسالة بديعة اشتملت على فصول كثيرة تُنظر في كتاب «المغرب» و«البيان المغرب» وغير ذلك. وكتابًا بخطه إلى أهل أندُوجَر^(١): «إلى الجماعة والكافة من أهل فلانة، وقاهم الله عثرات الألسنة، وأرشدكم إلى مَخو السيئة بالحسنة؛ أما بعد فإنه قد وصل من قبلكم كتابكم الذي^(٢) جَدَّد لكم أسهم الانتقاد، ورماكم من السُّهاد^(٣)، بالداهية النَّادِ^(٤)؛

(١) الرسالة في البيان المغرب - قسم الموحِّدين (ص ٢٨٥ - ٢٨٦).

(٢) في البيان المغرب: «كتاب جدد». (٣) في المصدر نفسه: «من العناد».

(٤) في الأصل: «الساد»، والتصويب من البيان المغرب.

أتعتذرون من المحال بضعف الحال، وقلة^(١) الرجال؟ إذا تُلحقكم برَبات الجِجال. كأننا لا نعرف مناحي أقوالكم، وسوء^(٢) مُقَلِّبكم وأحوالكم؛ لا جَرَم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله، وقَصَدَه إلى^(٣) ذلك الموضع عصمه الله؛ فطاشت قلوبكم خَوَرًا، وعاد صفوكم كدَرًا، وشَمَمْتُمْ ريح الموت وزدًا وصدَرًا؛ وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب^(٤)، وأن الفضاء قد غُصَّ بالتفاف القنا واصطفاف المناكب^(٥)، ورأيتم غير شيء فتخيَّلتموه^(٦) طلائع الكتائب. تَبَّأ لِهَيْمَتِكُمْ^(٧) المنحطَّة، وشيَمَتِكُمْ^(٨) الرُّاضِيَّة بأذَوْن خَطَّة؛ أحيين^(٩) ندبتم إلى حماية إخوانكم، والذَّب^(١٠) عن كلمة إيمانكم، نسَقَمَت الأقوال وهي مكذوبة، ولَفَقَمَت الأعذار وهي بالباطل مَشُوْبَة؛ لقد آن لكم أن تبدلوا جِلَّ الخُرْصان^(١١)، إلى مغازل التُّسوان؛ وما لكم ولصَّهوات الخيول، وإنما على الغانيات جرُّ الذبول. أَتُظْهِرون العناد^(١٢) تخريصًا، بل تصرِيحًا وتلويحًا، ونظنُّ أن لا يجمع لكم شتًا، ولا يُدْني منكم نزوحًا. أين المفرُّ وأمر الله يدرككم، وطلبنا الحثيث لا يترككم؟ فأزِيلوا^(١٣) هذه النزعة التُّفاقيَّة من^(١٤) خواطركم قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم وأفعالكم، ونستبدل قوماً غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم، ونحن نقسم بالله لو اعتسفتم كل بيداء سملق، واعتصمتم بأمنع معقل، وأحفل فيلق، ما ونينا عنكم زمانًا، ولا ثنينا عن استئصال العزم منكم^(١٥) عانًا فلا يغرُنكم الإمهال، أيها الجهال». وهي طويلة. وقال عند الإيقاع بالأشياخ أولي الفساد على الدول، وصلبهم في الأشجار والأسوار، مما كَلِفَ السُّلمي بحفظها واستظرافها^(١٦): [الكامل]

أهلُ الحراية والفساد من الورى يعزون في التشبيه بالذُّكَّار^(١٧)

(١) في البيان المغرب: «وبقلة الرجال، فألحقكم...».

(٢) في البيان المغرب: «ولا نعلم بتقلِّبكم في أحوالكم».

(٣) كلمة «إلى» ساقطة في البيان المغرب. (٤) في البيان المغرب: «الجوانب».

(٥) في المصدر نفسه: «المقائب». (٦) في المصدر نفسه: «فحسبتموه».

(٧) في المصدر نفسه: «لهممكم». (٨) في المصدر نفسه: «وشيمكم».

(٩) في المصدر نفسه: «حين».

(١٠) في المصدر نفسه: «والذَّبُّ بالكلمة عن مقتضى إيمانكم».

(١١) في المصدر نفسه: «أن تمدوا ذيل العرمان».

(١٢) في المصدر نفسه: «العناد تصرِيحًا وتلويحًا، وتظنون أنكم إذا تفرَّقتم لا نجمع لكم شتًا، ولا ندني...».

(١٣) في الأصل: «فأميطوا». (١٤) في الأصل: «عن».

(١٥) في الأصل: «عنكم».

(١٦) الأبيات في الحلل الموشية (ص ١٢٥)، والبيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٨٥).

(١٧) في المصدرين: «للذكَّار».

ففساده فيه الصلاح لغيره بالقُطْع والتعليق في الأشجار
دُكَّارهم ذكرى إذا ما أبصروا فوق الجُدُوع وفي^(١) دُرى الأسوار
لو عمَّ عفوَ^(٢) الله سائر^(٣) خلقه ما كان أكثرهم مِن أهل النار

توقيعه: قال ابن عسكر: وكانت تصدر منه توقيعات نبيلة، فمنها أن امرأة رفعت رقعتها بأحد من الأجناد ممن نزل دارها، وصدر لها أمر يُكر؛ فوقع على رقعتها: «يُخَرِّج هذا النازل، ولا يُعَوِّض بشيء من المنازل». وغير ذلك مما اختصرناه.

بنوه: أبو محمد عبد الواحد وليَّ عهده، وأمير المؤمنين بعد وفاته، الملقَّب بالرشيد؛ وعبد العزيز، ومان؛ وأبو الحسن علي، الملقَّب بالسعيد، الوالي بعد أخيه الرشيد.

بناته: ابنة العزيز، وصفية، ونجمة، وعائشة، وفتحونة؛ وأمهات الجميع روميَّات، وسُرِّيَّات مغربيَّات.

وزراؤه: ورَّز له الشيخ أبو زكريا بن أبي الثَّغر وغيره.

كُتَّابه: كتب له جملة من مشاهير الكتاب، منهم أبو زكريا الفازازي، وأبو المطرَّف بن عميرة، وأبو الحسن الرُّعيني، وأبو عبد الله بن عيَّاش، وأبو العباس بن عُمران، وغيرهم. وما منهم إلا شهير كبير.

وفاته: توفي، رحمه الله، بوادي أم الربيع، وقد طوى المراحل من ظاهر سَبْتَة، مُقلِّعاً عن حصارها، مبادراً إلى مَرَّاكش، وقد اتصل به دخول يحيى بن الناصر إليها، فأعدَّ السير وقد اشتدَّ حَتَقه على أهلها، وأقسم أن يُبيح حماها للرَّوم، ويُذهب اسمها ومُسَمَّاها، فهلك عند دنوِّه منها فجأة، فكانت عند أهل مراكش من عَزَّر الفرج بعد الشدة؛ وكنمت زوجه حُبابة الرومية، أم الرشيد ولده، خبر وفاته إلا عن الأفراد من قوَّاد النصارى وبعض الأشياخ، واتفق القول على مبايعة ابنها المذكور، ببيعة خاصَّة ثاني يوم وفاته؛ ثم جعل في هودج وأُشيع أنه مريض، وزحفت الجيوش على تَعَبُّته؛ وبرز يحيى بن الناصر من مراكش إلى لقائه، والتقى الجمعان فانهزم يحيى، واستولى الرشيد عليه، ودخل مراكش فاستقام الأمر؛ وكانت

(١) في الحلل الموشية: «في» وهكذا ينكسر الوزن.

(٢) في الحلل الموشية: «حكم». وفي البيان المغرب: «حلم».

(٣) في البيان المغرب: «كافة».

وفاة المأمون أبي العَلا، رحمه الله، ليلة الخامس عشر لمحرّم عام ثلاثين وستمائة^(١).

وجرى ذكر المأمون والمهدي وأوليتهم في الرجز المتضمّن ذكر المسلمة^(٢) من نَظْمِي بما نصّه بعد ذكر الدولة اللّمتونية: [الرجز]

وَنَجَمَ المهدي وَهُوَ الذّاهية	فأصبحت تلك المباني واهية
وانحَكَمَ الأُمُرُ له وانجمعا	في خبر نذكر منه لَمَعَا
لم يألُ فيها أن دعا لنفسه	وكان في الحزم فريد جنسه
أغرَبَ في ناموسه ومذهبه	وفي الذي سَطَّره من نسبه
وعنده سياسةٌ وعِلْمٌ	وجرأةٌ وكلامٌ وحِلْمٌ
ووافقت أيامه في الناس	لدولة المسترشد العباسي
ثم انقضت أيامه المُنيقة	وكان عبدَ المؤمن الخليفة
فضاءً لَوْنٌ سَغِيده ووضحا	ولاح مثل الشمس في وقت الضُحى
ثم تِلَمَّسان وفاسًا فتحا	ومُلْكُ أصحاب اللثام قد محا

ولما انتهى القول إلى المأمون المترجم به، بعد ذكر مَنْ يليه وعبد المؤمن جدّه، قلت: [الرجز]

ثم تولّى أمرهم أبو العَلا	فسلَطَ البيض على بيض الطُّلا
وهو الذي أركب جيش الروم	وجذّ في إزالة الرسوم

أسباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن سعد السعدي سعد
ابن بكر بن عفان الإلبيري

هذا هو جدُّ سعيد بن جُودي بن سَوادة بن جُودي بن أسباط، أمير المغرب. وقدرهم بهذه المدينة شهير.

(١) في البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٧٤): «توفي يوم السبت منسلخ ذي الحجة من سنة تسع وعشرين وستمائة، فكانت دولته خمسة أعوام وثلاثة أشهر». وهكذا جاء في الحلل الموشية (ص ١٢٣، ١٢٥).

(٢) هو كتاب «رقم الحلل في نظم الدول» وهو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الإسلامية؛ الخلفاء الأوائل، وبنو العباس، وبنو الأغلب، وبنو أمية بالأندلس، والطوائف والمرابطين والموحدين وبنو نصر وبنو مرين. وقد شرح ابن الخطيب نفسه هذه القصائد نثرًا بقلمه.

حاله: وكان من أهل العلم والفقه، والدين المتين، والورع الشديد، والصالح الشهير.

نبأته: ولأه الأمير عبد الرحمن قضاء البيرة حين بلغه زهده وورعه، وأنه لم يشرك إخوته في شيء من ميراث أبيه، إذ كان لم يخضر الفتح، فبرىء به إليهم، وابتاع مؤثلاً بوطنه أنيط به ماء، وانفرد به للعبادة والتبثل، فاستقدمه هشام، فركب حماره وقدم عليه في هيئة رثة بذلة، فتوسم فيه الخير، وقدمه ووسع له في الرزق، ووهب له ضياعاً كثيرة تُعرف اليوم باسمه. وتوفي هشام وهو قاضٍ بالبيرة، فأقره ابنه الحكم ثم ولأه شرطته، إلى أن توفي أسباط. قلت: انظر حال الشرطة عند الخلفاء من كان يُختار لها لولايتها.

أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عبد الله بن خالد ابن حسين بن جعفر بن أسلم بن أبان

مولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ يُكنى أبا الجعد.

أوليته: من أهل شرق الأندلس، أصلهم من لوشة فتيّة غرناطة^(١)، وموضعهم بها معروف، وإلى جدّهم يُنسب جبل أبي خالد المظلل عليها، وكان لهم ظهور هنالك، وفيهم أعلام وفضلاء.

حاله: كان أسلم من خيار أهل البيرة، شريف البيت، كريم الأبوة، من كبار أهل العلم، وكانت فيه دُعاة، لم يُنسب إليه قط بسببها جزية في دين ولا زلة. قال أبو الفضل عياض^(٢): كان أسلم من خيار أهل البيرة، رفيع الدرجة في العلم، وعلو الهمة في الإدراك، والرواية والدَيانة، والصُحبة، ويُعد الرحلة في طلب العلم، معروف النصيحة والإخلاص للأمراء.

مشيخته: لقي بمصر، المدني، ومحمد بن عبد الحَكَم، ويونس، والربيع بن سليمان المؤذن، وأحمد بن عبد الرحيم البُرقي. وسمع من علي بن عبد العزيز، وسليمان بن عمران بالقيروان.

(١) لوشة: بالإسبانية Loja، وهي مدينة ضخمة، أسماها ابن الخطيب فتيّة غرناطة أو بنت غرناطة، اعتزازاً بها كونه منها. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٦٣).

(٢) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي، المتوفى سنة ٥٤٤ هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

مَنْ رَوَى عَنْهُ: سَمِعَ مِنْهُ عِثْمَانُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُونُسَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ قَاسِمٍ، وَغَيْرُ وَاحِدٍ، وَانصَرَفَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مِنْ رَحْلَتِهِ، فَنَالَ الْوِجَاهَةَ الْعَظِيمَةَ.

وَلَايَتُهُ: وَلَّاهُ قَضَاءَ الْجَمَاعَةِ بِغَرْنَاطَةَ، النَّاصِرُ لِدِينِ اللَّهِ، أَوَّلُ وَلَايَتِهِ، وَسَطَ سَنَةِ ثَلَاثِمِائَةٍ، إِلَى أَنْ اسْتَعْفَى سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِمِائَةٍ فَأَعْفَاهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ. وَكَانَ فِي قَضَائِهِ صَارِمًا لَا هَوَادَةَ عِنْدَهُ. قَالَ الْمُؤَرِّخُ: كَانَ النَّاصِرُ يَسْتَخْلِفُهُ فِي سَطْحِ الْقَصْرِ إِذَا خَرَجَ إِلَى مَغَازِيهِ. وَحَكَى ابْنُ حَارِثٍ أَنَّ ابْنَ مَعَاذٍ وَابْنَ صَالِحٍ أَتَيَا يَوْمًا، فَلَمَّا أَخَذَا مَجْلِسَهُمَا نَظَرَ إِلَيْهِمَا وَقَالَ: الْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَأُبَيِّهُتُهُمَا. وَدَخَلَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ وَلِيدٍ يَوْمًا، فَكَلَّمَهُ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ أَسْلَمَ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا. فَقَالَ ابْنُ وَلِيدٍ: وَنَحْنُ قُلْنَا وَاحْتَسَبْنَا. وَأَنَاءَ فِي بَعْضِ مَجَالِسِهِ شُهُودٌ، بَعْضُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ بِقَرْطَبَةٍ، وَبَعْضُهُمْ مِنْ شَلَارٍ مِنَ الرِّبَاضِ الشَّرْقِيِّ، يَشْهَدُونَ فِي تَرْشِيدِ امْرَأَةٍ مِنَ الرِّبَاضِ الْغَرْبِيِّ، فَلَمَّا أَخَذُوا مَجَالِسَهُمْ، فَتَحَ بَابَ الْخُوخَةِ الَّتِي فِي الْمَجْلِسِ الَّذِي يَجْلِسُ بِدَهْلِيْزِهِ، وَنَادَى مَنْ بِخَارِجِهِ فَاجْتَمَعُوا؛ اسْمَعُوا، عَجَبًا لِلَّهِ دَرُّ الشَّاعِرِ حَيْثُ يَقُولُ: [الْكَامِلُ]

رَاحَتْ مُشْرِقَةً وَرُخْتُ مَغْرِبًا شَتَّانَ بَيْنَ مُشْرِقٍ وَمَغْرِبٍ

هَؤُلَاءِ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَشَلَارٍ، يَشْهَدُونَ فِي تَرْشِيدِ امْرَأَةٍ مِنْ سَاكِنَاتِ آخِرِ بِلَاطِ مُغِيثٍ، ثُمَّ سَكَتَ فَدَهِشَ الْقَوْمَ وَتَسَلَّلُوا. وَبَلَغَهُ عَنْ بَعْضِ الشُّهُودِ الْمُتَّهَمِينَ أَنَّهُ أَزْشِي فِي شَهَادَتِهِ بِبَسَاطٍ، فَلَمَّا أَتَى لِيُؤَدِّيَهَا، وَدَخَلَ عَلَى أَسْلَمَ، جَعَلَ يَخْلَعُ نَعْلَيْهِ عِنْدَ الْمَشْيِ عَلَى بَسَاطِ الْقَاضِي، فَنَادَاهُ: أَبَا فُلَانٍ، الْبَسَاطُ، اللَّهُ اللَّهُ؛ فَتَنَّبَهُ بِأَنَّهُ أَمْرُهُ عِنْدَ الْقَاضِي، وَلَمْ يَجْسِرْ عَلَى آدَاءِ شَهَادَتِهِ تِلْكَ. وَخَاصِمٌ فَقِيهٌ عِنْدَ أَسْلَمَ رَجُلًا فِي خَادِمِ أَغْرِبِيهَا، وَجَاءَ بِشَاهِدٍ أَتَى بِهِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةٍ، فَقَالَ: يَا قَاضِي، هَذَا شَاهِدِي فَاسْمَعْ مِنْهُ، فَصَعَّدَ أَسْلَمَ فِي الشَّاهِدِ وَصَوَّبَ، وَقَالَ: أَمَحْتَسَبٌ^(١) أَوْ مَكْتَسَبٌ أَصْلَحَكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ الشَّاهِدُ: أَحْسِنِ الظَّنَّ أَيُّهَا الْقَاضِي، فَلَيْسَ هَذَا إِلَيْكَ، هَذَا إِلَى اللَّهِ الْمُطَّلَعِ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ، وَلَمْ تَقْعُدْ هَذَا الْمَقْعَدَ لَتَسْأَلَ عَنْ هَذَا وَشَبِيهِهِ، وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الظَّاهِرُ، وَتَكِلُ الْبَاطِنَ إِلَى اللَّهِ، فَإِنْ شِئْتَ، فَاسْمَعْ الشَّهَادَةَ كَمَا يُلْزِمُنِي آدَاؤُهَا، ثُمَّ اقْبَلْهَا أَوْ اضْرِبْ بِهَا الْحَائِظَ. وَفِي رَوَايَةٍ أُخْرَى، وَلَيْسَ لَكَ أَنْ تَكْشِفَ السُّتْرَ الْمُتَسَدِّلَ بَيْنَكَ وَبَيْنِي، فَإِنْ هَذَا التَّفْسِيرُ لِلشُّهُودِ يَوْقِفُ عَنِ الشَّهَادَةِ عِنْدَكَ، وَيَعْرِضُ لِإِهَانَتِكَ أَهْلَ لَاتِقَةٍ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ ضِيَاعِ الْحَقُوقِ مَا لَا يَخْفَى، فَأَخْجَلُ أَسْلَمَ كَلَامُهُ، وَقَالَ لَهُ: لَكَ مَا قُلْتَ، فَأَذْ

(١) الْمُحْتَسَبُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَذْخَرِ أَجْرُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

شهادتك، يرحمك الله. قال: فأين الخادم؟ تحضر حتى أشهد على عينها، قال أسلم وفاقيةً أيضاً: هاتوا الخادم، فجاءت من عند الأمين، فلما مثلت بين يديه، نظر منها ملياً، ثم قال: أعرف هذه الخادم ملكاً لهذا الرجل، لا أعرف ملكه، زال عنها بوجه من الوجوه، إلى حين شهادتي هذه، سلامٌ على القاضي، ثم خرج، فبقي أسلم متعجباً منه.

محتنته: كف بصره في أخريات أيامه، فطلب لأجل ذلك الإعفاء فأعفي، ولزم بيته صابراً مُحْتَسِباً إلى حين وفاته.

مولده: سنة إحدى وثلاثين ومائتين.

أسد بن الفرات بن بشر بن أسد المرّي

من أهل قرية الصير مورته^(١)، من إقليم البساط من قرى غرناطة.

حاله: كان عظيم القدر والشرف والشهرة، أصيل المعرفة والدين.

مشيخته: خرج إلى المشرق، ولقي مالك بن أنس، رضي الله عنه، روى عنه سُحُنُون بن سعيد.

تأليفه: ألف كتاب «المختلطة»، وولي القضاء بالقيروان أجمل ما كانت وأكثر علماً، وولاه زيادة الله^(٢) غزو صقلية، ففتحها وأبلى بلاءً حسناً.

وفاته: توفي، رحمه الله، محاصراً سَرَقُوسَة منها سنة ثلاث عشرة^(٣) ومائتين. هذا ما وقع في كتاب أبي القاسم الملاحى. وذكره عياض فذكر خلافاً في اسمه وفي أوليته.

أبو بكر المخزومي الأعمى المودوري المدوري^(٤)

حاله: كان أعمى^(٥)، شديد القِحة والشَّر، معروفاً بالهجاء، مُسَلِّطاً على

(١) الصير مورته: بالإسبانية Sierra Murada.

(٢) هو أبو محمد زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، صاحب إفريقية من سنة ٢٠١ هـ إلى سنة ٢٢٣ هـ. البيان المغرب (ج ١ ص ٩٦)، والكامل في التاريخ (ج ٦ ص ٣٢٨، ٤٩٣).

(٣) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

(٤) ترجمة أبي بكر المخزومي في المغرب (ج ١ ص ٢٢٨)، ورايات المبرزين (ص ١٦٠)، ونفع الطيب (ج ١ ص ١٨٥، ٢٧٨).

(٥) هذا النص في نفع الطيب (ج ١ ص ١٨٥).

الأعراض، سريع الجواب، ذكيّ الذهن، فطنًا للمعاريف^(١)، سابقًا في ديوان^(٢) الهجاء، فإذا مدح ضعف شعره.

دخوله غرناطة: وذكر شيء من شعره، ومهاترته مع نزهون بنت القلاعي.

قال^(٣) أبو الحسن بن سعيد، في كتابه المسمى بـ «الطالع السعيد»: قَدِمَ على غرناطة أيامَ ولاية أبي بكر بن سعيد عمل غرناطة، ونزل قريبًا منه، وكان يسمع به؛ فقال: صاعقةً يرسلها الله، عز وجل، على مَنْ يشاء من عباده، ثم رأى أن يبدأ بالتأنيس والإحسان، فاستدعاه بهذه الأبيات: [المجتث]

يا ثانياً للمعري	في حُسنِ نَظْمٍ ونَثَرٍ
وقرط ظرفٍ وتُنبَلٍ	وعَوَصٍ فَنَمٍ وفِكْرٍ
صِلْ ثم واصل خفيًا	بكلِّ شُكْرِ وبرٍّ ^(٤)
وليس إلا حديث	كما زها عَقْدُ دُرٍّ
وشادن قد تُغَنِّي ^(٥)	على رِبابٍ وزَمَرٍ
وما يُسامح فيه السـ	يَغْفُورُ مِنْ كَأْسِ خَمَرٍ
وبَيْننا عَقْدُ جِلْفٍ	ليانٍ شِرْكٍ وكُفْرِ ^(٦)
فَقُم نَجِّدْهُ عَهْدًا	بطيبِ شُكْرِ وسُكْرِ ^(٧)
والكأس مثل رَضاعٍ	ومَنْ كَمَثَلِكَ يَدْرِي؟

ووجه^(٨) له الوزير أبو بكر بن سعيد عبدًا صغيرًا قاده، فلما استقرَّ به المجلس، وأفعمته روائح الثَّدَّ^(٩) والعود والأزهار، وهَزَّتْ عِطْفُهُ الأوتار، قال: [البسيط]

دارُ السَّعِيدِيّ ذِي أم دارٍ رَضوانٍ^(١٠) ما تَشْتَهِي النَّفْسُ فيها حاضِرَ دانٍ

(١) المعاريف: جمع بغراض وهو التورية، والبغراض من الكلام: فحواه. محيط المحيط (عرض).

(٢) في النفع: «ميدان».

(٣) النص والأبيات في النفع (ج ١ ص ١٨٥ - ١٨٦).

(٤) في النفع: «... بكلِّ برٍّ وشُكْرِ». (٥) في النفع: «وشادن يتغنى على...».

(٦) رواية البيت في النفع هي:

وبَيْننا عَهْدُ جِلْفٍ لسيابِرٍ جِلْفُ كُفْرِ

(٧) في النفع: «نَتَمَّ فَعْدُهُ... ويُسر».

(٨) النص والشعر في نفع الطيب (ج ١ ص ١٨٦ - ١٨٨) ببعض الاختلاف عما هنا.

(٩) الثَّدَّ: بفتح النون وتشديد الدال: الطَّيْب. مختار الصحاح (ندد).

(١٠) رَضوان، بكسر الراء وسكون الضاد: اسم بواب الجنة وخازنها، والمراد هنا الجنة. محيط =

سَقَتْ أَبَارِقَهَا لِلنَّدَى سَحْبٌ نَدَى تحدو برغيد لأوتارٍ وألحانٍ^(١)
والْبَرْقُ مِنْ كُلِّ دَنْ^(٢) سَاكِبٌ مَطَرًا يُخَيِّي بِهِ مَيْتُ أَفْكَارٍ وَأَشْجَانٍ
هذا النعيمُ الذي كُنَّا نُحَدِّثُهُ ولا سبيلَ له إِلَّا بِأَذَانٍ

فقال أبو بكر بن سعيد: «ولا سبيل له إِلَّا بِأَذَانٍ»^(٣)، فقال: حتى يبعث الله وَلَدَ زَنَا كلما أَتَشَدُّتْ هذه الأبيات، قال: وإن قائلها أعمى، فقال: أنا أنا، فلا أنطق بحرف في ذلك، فقال: مَنْ صَمَّتْ نِجَا. وكانت نزهون بنت القلاعي، الآتي ذكرها، حاضرة، فقالت: ونراك يا أستاذ، قديم النعمة^(٤)، بِنْدٌ وغناء وطيب شراب، تتعجب من تأنيبه، وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يلم إِلَّا بالسَّماع، ولا يُبلغ إليه إِلَّا بالعيان؟ لكن مَنْ يجيء من حصن المدور، وينشأ بين ثيوس ويُقَر، من أين له معرفة بمجالس الثَّغَم^(٥)؟ فلما استوفت كلامها تَنخُج الأعمى، فقالت له: دعه^(٦)، فقال: مَنْ هذه الفاعلة^(٧)؟ فقالت: عجوزٌ مقام أُمِّكَ، فقال: كَذَبْتُ، ما هذا صوت عجوز، إنما هذه نعمة قُحْبَة محترقة تُشْمُ روائح كذا^(٨) منها على فرسخ^(٩)، فقال له أبو بكر: يا أستاذ، هذه نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأدبية، فقال: سمعتُ بها لا أسمعها الله خيرًا، ولا أراها إِلَّا أَيْرًا^(١٠). فقالت له: يا شيخٍ سوءٍ تناقُضت، وأي خيرٍ أفضل للمرأة ممَّا ذَكَرْتَ^(١١)؟ ففكر المخزومي ساعة ثم قال: [الطويل]

على وَجْهِ نَزْهُونٍ مِنَ الحُسْنِ مَسْحَةٌ وإن كان قد أُنسى من الضَّوء عارياً^(١٢)

= المحيط (رضي).

(١) في النفع: «سقت أبريقها... تُخدى... وعيدان».

(٢) الدُّن: الرافود العظيم. القاموس المحيط (دن).

(٣) هنا تعريض بأن المخاطب أعمى يعتمد على الأذن.

(٤) في النفع: «النعمة» بالعين غير المعجمة. (٥) في النفع: «النعيم».

(٦) في النفع: «ذبحه». (٧) في النفع: «الفاضلة».

(٨) في النفع: «هنيها». والهَنُ، بفتح الهاء: الفرج. القاموس المحيط (هن).

(٩) في النفع: «فراسخ».

(١٠) بياض في الأصل، وقد أشار عنان إلى حذفها لأنها كلمة نائية. وقد أخذناها من النفع.

(١١) قوله: «مما ذكرت» أضفناه من نفع الطيب ليستقيم المعنى والسجعة ممَّا.

(١٢) أخذ معنى هذا البيت من قول ذي الرِّمَّة في صاحبه مي: [الطويل].

على وَجْهِ مَيِّ مَسْحَةٌ مِنْ مَلَاخِيَةٍ وتحت الثيابِ الشَّيْءُ لو كان بادياً

الشعر والشعراء (ص ٤٣٩).

قَوَاصِدُ نَزْهَوْنٍ تَوَارِكُ^(١) غَيْرَهَا وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَ السَّوَاقِيَا^(٢)

فَاعْمَلْتُ فِكْرَهَا وَقَالَتْ^(٣): [المجتث]

قُلْ لِلْوَضِيعِ مَقَالًا يُشْلَى إِلَى جَيْنٍ يُخْشَرُ
مِنْ الْمُدَوَّرِ أَتَشِيدُ تَ وَالْخَرَا^(٤) مِنْهُ أَغْطَرُ
حَيْثُ السَّبْدَاوَةُ أَمَسَتْ فِي أَهْلِهَا^(٥) تَتَبَخْتَرُ
لِذَاكَ^(٦) أَمَسِيَتْ صَبًا بِكُلِّ شَيْءٍ مُدَوَّرُ^(٧)
خُلِقْتَ أَغْمَى وَلَكِنْ تَهَيِّمُ فِي كُلِّ أَغْوَرُ
جَاوَزْتُ شِغْرًا بِشِغْرِ فَقُلْ لَعَمْرِي مَنْ أَشْعَرُ^(٨)
إِنْ كُنْتُ فِي الْخَلْقِ أَثْنَى فَإِنَّ شِغْرِي مُدَكَّرُ

فَقَالَ لَهَا اسْمَعِي^(٩): [المقارب]

أَلَا قُلْ لِنَزْهَوْنَةٍ مَالِهَا تَجُرُّ مِنَ التَّيِّهِ أَذْيَالُهَا
وَلَوْ أَبْصَرْتُ فَيْشَةً^(١٠) شَمَرْتُ كَمَا عَوْدُتْنِي، سِزْبَالُهَا

(١) في الأصل: «تدارك»، وقد صوّبناه من النفع.

(٢) عجز هذا البيت تضمين لببت المتنبي من قصيدة قالها في مدح كافور: [الطويل]
قَوَاصِدُ كَافُورٍ تَوَارِكُ غَيْرِهِ وَمَنْ قَصَدَ الْبَحْرَ اسْتَقْلَ السَّوَاقِيَا
العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٧٤).

(٣) الأبيات أيضًا في المغرب (ج ١ ص ٢٢٨) ببعض الاختلاف عما هنا.

(٤) الخرا: كلمة عاقية، وبالفصحى: «الخُرء» وهو القِلْبَةُ. القاموس المحيط (خرى).

(٥) في النفع: «مشيها». وفي المغرب: «جهلها».

(٦) في الأصل: «الذلك» وهكذا ينكسر الوزن والتصويب من المغرب والنفع.

(٧) رواية البيت في المغرب هي:

لِذَاكَ أَمَسِيَتْ تَهْوَى حُلُولَ كُلِّ مَدُورِ

(٨) في الأصل: «من أشعر» بهجزة أصلية، وهكذا ينكسر الوزن. ورواية البيت في المغرب هي:

جَاوَزْتُ فَجَوًّا بِهَجْوِ فَقُلْ لَعَمْرِي مَنْ أَشْعَرِ

(٩) البيتان أيضًا في المغرب (ج ١ ص ٢٢٨).

(١٠) في الأصل: «بَشَّة»، والتصويب من المغرب والنفع. والفَيْشَةُ، بفتح الفاء والشين وسكون الياء: رأس الذَّكَر. محيط المحيط (فیش).

فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ سَعِيدٍ أَلَّا يَزِيدُ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ فِي هَجْوِهِ كَلِمَةً، فَقَالَ الْمَخْزُومِيُّ: أَكُونُ هَجَاءَ الْأَنْدَلُسِ وَأَكْفَ عَنْهَا دُونَ شَيْءٍ؟ فَقَالَ: أَنَا أَشْتَرِي مِنْكَ عَرْضَهَا فَاطْلُبْ، فَقَالَ: بِالْعَبْدِ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ فَقَادِنِي إِلَى مَنْزِلِكَ، فَإِنَّهُ لَيُنَ الْقَدَّ رَقِيقَ الْمَلَمْسِ^(١). فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَوْلَا أَنَّهُ صَغِيرٌ كُنْتُ أَبْلُغُكَ فِيهِ مَرَادَكَ، وَأَهْبُهُ لَكَ؛ فَفُطِنَ لِقَضْدِهِ، وَقَالَ: أَضْبِرْ عَلَيْهِ حَتَّى يَكْبُرَ، وَلَوْ كَانَ كَبِيرًا مَا أَثَرْتَنِي عَلَى نَفْسِكَ؛ فَضَحِكَ أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ: قَدْ هَجَوْتُ نَثْرًا، وَإِنْ لَمْ تَهْجُ نَظْمًا، فَقَالَ: أَيُّهَا الْوَزِيرُ، لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ. وَانْفَصَلَ الْمَخْزُومِيُّ بِالْعَبْدِ بَعْدَمَا أَصْلَحَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَزَاهُونِ.

وقال يمدح القاضي بفرناطة أبا الحسن بن أضحي^(٢)، رحمهما الله^(٣):

عَجَبًا لِلزَّمَانِ يَطْلُبُ مَضْمِي^(٤) وَمَلَاذِي مِنْهُ عَلِيٌّ بَنُ أَضْحَى
جَارُهُ قَدْ سَمَا عَلَى النُّطْحِ عَزَا لَيْسَ يَخْشَى مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ^(٥) نَطْحَا
فَكَأَنِّي عَلَوْتُ قَرْنَ فُلَانٍ أَيْ تَنَسَّيْتُ مُطَوَّلَ الْقَرْنِ الْخَلَى

فَقَالَ لَهُ ابْنُ أَضْحَى: هَلَا اقْتَصَرْتَ عَلَى مَا أَنْتَ بِسَبِيلِهِ، فَكَمْ تَقَعُ فِي النَّاسِ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْمَى وَهُمْ خَفَرٌ فَلَا أَزَالُ أَقْعُ فِيهَا، فَقَالَ: فَأَعْجِبْنِي كَلَامَهُ عَلَى قُبْحِهِ. وَحَدِيثُ مُقَامِهِ بِفَرْنَاطَةَ يَقْتَضِي طَوِيلًا.

وفاته: قال أبو القاسم بن خلف، كان حيًّا بعد الأربعين وخمسمائة.

أَصْبَحَ بَنُ مُحَمَّدٍ بَنُ الشَّيْخِ الْمَهْدِيِّ

يُكْنَى أَبُو الْقَاسِمِ؛ عَلِيمٌ مَشْهُورٌ.

حاله: كَانَ مُحَقِّقًا بِعِلْمِ الْعَدَدِ وَالْهَنْدَسَةِ، مُقَدِّمًا فِي عِلْمِ الْهَيْئَةِ وَالْفَلَكَ وَعِلْمِ النُّجُومِ، وَكَانَتْ لَهُ مَعَ ذَلِكَ عَنَاءٌ بِالطَّبِّ.

(١) في النسخ: «فإنه لَيُنَ البِدَ، رقيق المشي».

(٢) الوزير أبو الحسن علي بن عمر بن أضحي، من بيت عظيم بفرناطة، ثار بها ودعا لنفسه بعد مقتل تاشفين بن يوسف بن تاشفين المرابطي سنة ٥٣٩ هـ. وتوفي سنة ٥٤٠ هـ. وسيترجم له ابن الخطيب في الجزء الرابع من الإحاطة.

(٣) الأبيات في المغرب (ج ١ ص ٢٣٠). (٤) في المغرب: «ثاري».

(٥) في المغرب: «من طالب الثَّار».

توآلفه: توآلفه جسان؁ وموضوعاته مفيدة؛ منها كتاب «المَذخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس. ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بـ «المعاملات». ومنها كتابه الكبير في الهندسة؁ تقضى فيه أجزاءها. ومنها كتاب في الآلة المعروفة بالأسطرلاب. ومنها تاريخه الذي ألفه وهو تاريخ كبير.

وفاته: قال ابن جماعة في تاريخه: أخبرني أبو مروان سليمان بن عيسى الناشئ المهندس؁ أنه توفي بمدينة غرناطة قاعدة الأمير حبوس ليلة الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت لرجب سنة ست وعشرين وأربعمائة؁ وهو ابن ست وخمسين سنة شمسية. وعده من مفاخر الأندلس.

أبو علي بن هدية

من أهل غرناطة.

حاله: قال أبو القاسم الملاحى فيه: من أهل الدين؁ والفضل؁ والأمانة؁ والعدالة؁ والمعرفة بالتكسير والأعمال السلطانية؁ وولي «المستخلص»^(١) بغرناطة؁ فثقب وأجاد النظر. قال ابن الصيرفي: ولما ولي الوزير أبو علي بن هدية المستخلص؁ وياشر جلائل الأمور ودقائقها بنفسه؁ حَمَى المناصيفين؁ ورفع المؤمن والكلف عنهم؁ ووسّع بسليف البذر عليهم؁ وأثرهم بالنصفة بالتزام حصة بيت المال؛ ولم يكن له حُجاب ولا بواب؁ فكان القوي والضعيف؁ والمشروف والشريف؁ والكبير والصغير؁ والرجل والمرأة؁ شرعاً سواء في الوصول إليه؁ والتكلم في مجلسه؁ فلم يهتضم جانب؁ ولا دُحضت حجة؛ إلا أنه ارتفعت الرُبة؁ وزالت الهيبة؁ وأُمِجق نور الخطّة؛ وخصّ أحباس^(٢) جامع غرناطة بنظره؁ بفضل مال كثير من غلته؁ وثبّه باجتماعه ليزيد به بلاطين في مسقفه من شرقه وغربه؁ فأكمل الله ذلك بسعيه وعلى يديه؛ ورام رُبّع المستخلص؁ وزاد به في حماماته؛ ورَمَ حوانيته؁ واستحدث منيحة سماها المستحدثة؁ وغرس قضبان الجوز في مواضع المياه؁ وعوُض بما ذهب؁ وشمر في جمع المال؁ ووالى الحفز على العمل؁ ونصح بمقتضى جهده؁ ومُنتهى وسعته؁ ولم تُمد يده في مصانعة؁ ولا مالت إلى مُداخلة؁ ولكنه لم يُحمل في حق؁ ولا تُوقش في باطل.

(١) هو مستخلص السلطان؁ أي أملاكه الخاصة.

(٢) الأحباس: هي ما يُحبس لأغراض الخير؁ وهي الأوقاف.

أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي

من أهل لَوْشَة.

نبيلة حسيبة، تُجيد قراءة القرآن، وتشارك في فنون من الطلب، من مبادئ غريبة، وخلف وإقراء مسائل الطب، وتنظم أبياتاً من الشعر. وذكرت في خاتمة «الإكليل»^(١) بما نصّه: «ثالثة حَمْدَة وولادة، وفاضلة الأدب والمجادة، تقلدت المحاسن من قبل ولادة، وأولدت أ بكر الأفكار قبل سنّ الولادة. نشأت في حجر أبيها، لا يدخر عنها تدريجاً ولا سهماً، حتى نهض إدراكها وظهر في المعرفة جراكها، ودّرسها الطب ففهمت أغراضه، وعلمت أسبابه وأعراضه». وفي ذكر شعرها:

«ولمّا قَدِمَ أبوها من المغرب، وحَدَّث بِخبرها المُغرب، توجه بعض الصدور إلى اختبارها، ومطالعة أخبارها، فاستنبل أغراضها واستحسنها، واستطرف لسنها، وسألها عن الخط، وهو أكسَدُ بضاعة جُليت، وأشحُّ درّة حُليت. فأنشدته من نظمها:

[البسيط]

الخطُ ليس له في العلم فائدة وإنما هو تزيينٌ بقرطاس
والدرس سؤلي لا أبغي به بدلاً بقدر علم الفتى ينمو على الناس

وراجعها بعض المُتجان، يغفر الله له: [مجزوء البسيط]

إن فرطَ الدرسُ يا أُمّي سحق وهذا هو المشهور في الناس^(٢)
فخذ من الدرس شيئاً تافهاً خطأ وبالفهم كل الناس^(٣)

ومن شعرها في غرض المدح: [الكامل]

إن قيل مَنْ للناسِ^(٤) ربُّ فضيلة حاز العلا والمجد منه أصيلُ
فأقول رضوانٌ وحيدُ زمانٍ إن الزمان بمثله بُجّيلُ

(١) هو كتاب ابن الخطيب المسمّى: «الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر».

(٢) عجز هذا البيت مختل الوزن.

(٣) في الأصل: «خطأ وبالفهم يحين كل الناس» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٤) في الأصل: «الناس» وهكذا يتكرر الوزن.

بُلْكِين بن باديس بن حُبُوس بن مأكْسَن بن زيري ابن مناد الصُّنْهَاجِي^(١)

الأمير الملقَّب بسيف الدولة، صاحب أمر والده والمرشح للولاية بعده.

حاله: قال المؤرِّخ^(٢): كان زيري بن مناد، ممَّنْ ظهر في حرب ابن يزيد بإفريقية، وأتسم هو وقومه بطاعة العُبيديين أمراء الشيعة، فكانوا حربًا لأضدادهم من زَنَاتة المُوالين لأملاك المَراوِنة^(٣) لتحقِّق جدُّهم خَزَر بولايته عثمان بن عفان، رضي الله عنه؛ فلمَّا صار الأمر إلى بني مناد بعد انتقال مُلك الشيعة إلى المشرق، ووُلِّي الأمر باديس بن منصور بن بُلْكِين بن زيري، ذهب أعمامه وأعمام أبيه إلى استضعافه، فلم يُعطهم ذلك من نفسه، ووقعت بينهم الحرب التي قتل فيها عمُّ أبيه مأكْسَن بن زيري، فهرب الباقون منهم صولة باديس، وخافوا عاديته على أنفسهم، على صغر سنِّه؛ فخطب شيخُ بيته يومئذ زاوي بن زيري ومعه أبناء أخيه، المُظفَّر بن أبي عامر ليجوز إليه إلى الأندلس رغبة في الجهاد، فألفى هِمةً بعيدة، ومُلْكًا شامخًا، يذهب إلى استخدام الأشراف واصطناع الملوك، فأذِنَ في ذلك؛ فدخل منهم جماعة الأندلس مع أميرهم زاوي بن زيري، ومعه أبناء أخيه حُباسة وحُبُوس ومأكْسَن؛ فأنزلهم المظفَّر وأكرمهم، إلَّا أنهم كابدوا مشقَّة من دهرهم الذي أصارهم يخدمون بآبواب الملوك من أعدائهم غيرهم؛ فلمَّا انهدمت الإمامة، وانشقت عصا الجماعة، سَعَوْا في الفِتنة سعي غيرهم؛ من سائر قبائل البرابرة، عند تشديد أهل الأندلس للبربر؛ وانحازوا عند ظهورهم على أهل الأندلس، بملوك بني حُمُود، إلى بلاد تضمُّهم، فانحازت صُنْهَاجَة مع شيخهم ورئيسهم زاوي بن زيري إلى مدينة غرناطة. ثم آثر زاوي العودة إلى وطنه إفريقية، فخرج عن الأندلس حسبما يتفسر في موضعه. والتفَّ قومه على ابن أخيه حُبُوس بن مأكْسَن، في جماعة عظيمة تحمي حوزته، وأقام بها مُلْكًا؛ وغلب على ما اتصل بمدينته من الكور، فتملَّك قَبْرَة^(٤)، وجِيَّان^(٥)، واتسع نظره، وحَمَى وطنه ورعيَّته ممَّنْ جاوره من البرابر؛ وكان داهية شجاعًا، فدامت رئاسته، واتصل ملكه،

(١) بلكين أو بلقين بن باديس ولَّاه أبوه على مالقة بعد أن ضُمَّها إلى غرناطة عام ٤٤٩ هـ، واستمرت ولايته عليها إلى سنة ٤٥٦ هـ حيث توفي مسمومًا. انظر أخباره في كتاب: مملكة غرناطة في عهد بني زيري للدكتورة مريم قاسم طويل (ص ١٦٢ وما بعدها).

(٢) قارن بالبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٣). (٣) المراوِنة: هم بنو مروان الأمويون.

(٤) قبرة: بالإسبانية Cabra، وتتصل بأعمال قرطبة من قِبَلِها. راجع مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٦٢).

(٥) جيان: بالإسبانية Jacén، وتسمَّى قَتْسرين لشبهها بها. راجع المرجع السابق (ص ٥٩).

إلى أن هلك. فولى بعده ابنه باديس، وسيأتي التعريف به؛ وولد له ابنه بُلْكَيْن هذا المترجم به، فرُشحه إلى ملكه، وأخذ له بيعة قومه، وأهله للأمر من بعده. قال المؤرخ^(١): ونشأ لباديس بن حبّوس، ولدُ اسمه بُلْكَيْن، وكان عاقلاً نبيلًا، فرُشحه للأمر من بعده؛ وسماه سيف الدولة؛ وقال: وَلِي مَالَقَةٌ فِي حَيَاةِ أَبِيهِ، وَكَانَ نَبِيلًا جَلِيلًا؛ وَوَقَعَتْ عَلَى كِتَابٍ بِخَطِّهِ نَصُّهُ بَعْدَ الْبِسْمَةِ:

«هَذَا مَا التَزَمْتُ وَاعْتَمَدَ الْعَمَلُ بِهِ، بُلْكَيْنُ بْنُ بَادِيسَ، لِلْوَزِيرِ الْقَاضِي أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الْجُدَامِيِّ سَلَّمَهُ اللَّهُ. اعْتَقَدَ بِهِ إِقْرَارَهُ عَلَى خُطَّةِ الْوِزَارَةِ، وَالْقَضَاءِ فِي جَمِيعِ كُورِهِ^(٢)، وَأَنْ يُجْرِيَ مِنَ التَّرْفِيعِ وَالْإِكْرَامِ لَهُ إِلَى أَقْصَى غَايَةٍ، وَأَنْ يُحْمَلَ^(٣) عَلَى الْجَرَايَةِ فِي جَمِيعِ أَمْلَاكِهِ بِالْكُورِ^(٤) الْمَذْكُورَةِ، حَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا، الْمَوْرُوثَةُ مِنْهَا، وَالْمَكْتَسِبَةُ، الْقَدِيمَةُ الْاِكْتِسَابِ وَالْحَدِيثَةُ، وَمَا ابْتِاعَ مِنْهَا مِنَ الْعَالِي^(٥)، رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرِهِ، لَا يُلْزِمُهَا وَظِيفُ بَوَجْهِ، وَلَا يُكَلِّفُ مِنْهَا كُلْفَةً، عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَأَنْ يُجْرِيَ فِي قَرَابَتِهِ، وَخَوْلِهِ وَحَاشِيَتِهِ وَعَامَرِي ضَيْعِهِ، عَلَى الْمَحَافِظَةِ وَالْبَرِّ وَالْحُرِّيَةِ. وَأَقْسَمَ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ بُلْكَيْنُ بْنُ بَادِيسَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَالْقُرْآنِ^(٦) الْحَكِيمِ، وَأَشْهَدُ اللَّهَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى التَّزَامِهِ لَهُ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. وَكُتِبَ بِخَطِّ يَدِهِ مُسْتَهْلَ شَهْرِ رَمَضَانَ الْعَظِيمِ سَنَةِ ثَمَانٍ^(٧) وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ. وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا الْمَقْدَارَ يَدُلُّ عَلَى ثُبُلٍ، وَيُعْرَفُ عَنْ كِفَايَةٍ.

سبب وفاته: قال صاحب البيان المغرب وغيره^(٨): وأمضى باديسُ كاتبَ أبيه ووزيرَه^(٩) إسماعيل بن نغْزَالَةَ^(١٠) اليهودي على وزارته وكتابته وسائر أعماله، ورفعَه

(١) قارن بتاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢١ - ١٢٢).

(٢) في تاريخ قضاة الأندلس: «جميع كورة رية».

(٣) في تاريخ قضاة الأندلس: «وَأَنْ يُجْرِيَ عَلَى الْجَزْيَةِ...».

(٤) في تاريخ قضاة الأندلس: «بِكُورَةِ رِيَةٍ».

(٥) العالي: هو خليفة الأندلس إدريس بن يحيى بن حمود، وقد حكم غرناطة وقرمونة سنة ٤٣٤ هـ، وخلع سنة ٤٣٨ هـ، بعد أربع سنين من حكمه.

(٦) في تاريخ قضاة الأندلس: «وَالْقُرْآنَ». (٧) في تاريخ قضاة الأندلس: «سنة ٤٤٩».

(٨) البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٩) في البيان المغرب: «فأمضى باديسُ وزيرًا له وكتائبًا، وزيرَ أبيه إسماعيل...».

(١٠) إن الذين ترجموا لإسماعيل اختلفوا في رسم اسم شهرته؛ فأسماه ابن حزم ابن النغزال، ثم قال: ابن النغزيلة. وذكره صاعد الأندلسي ابن الغزال. وجعله الأمير عبد الله كابن الخطيب ابن نغزالة، وكتبه ابن عذارى: نغزالة. وهو عند ابن خلدون: نغزلة. وعند المقرئ: نغذلة. وأغلب الظن أن هذا التباين في رسم شهرته عائد إلى طبيعة النطق أو إلى تصحيف النسخ أو المحقق أو المترجم. انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل (ج ١ ص ١٥٢)، ورسائل ابن حزم (ج ٣ =

فوق كل منزلة؛ وكان لولده بُلْكَيْن^(١) خاصة من المسلمين يخدمونه، وكان مُبَغْضًا في اليهودي^(٢)، فبلغه أنه تكلّم في^(٣) ذلك لأبيه، فبلغ منه كلّ مبلغ؛ فدبّر^(٤) الحيلة، فذكروا أنه دخل عليه يومًا فقَبِلَ الأرض بين يديه، فقال له الغلام: ولم ذلك؟ فقال: يرغب العبد^(٥) أن تدخل داره مع مَنْ أَحْبَبْتُ من عبيدك ورجالك، فدخل إليه بعد ذلك، فقدّم له ولرجاله طعامًا وشرابًا، ثم جعل السّم في الكأس لابن باديس، فرام القبيء، فلم يقدر عليه، فَحُمِلَ إلى قصره وقضى^(٦) نحبه في يومه؛ وبلغ الخبر إلى أبيه ولم يعلم السبب، فقرّر اليهودي عنده أنّ أصحابه وبعض جواريه سَمَوْه، فَقَتَلَ باديسُ جوارِي^(٧) ولده، ومن فتيانه وبني عمّه جماعة كبيرة، وخافه سائرهم ففروا عنه. وكانت وفاته سنة ست وخمسين وأربعمائة. وبعده قتل اليهودي في سنة تسع وخمسين.

باديس بن حبّوس بن ماكسّن بن زيري بن مناد الصنهاجي^(٨)

كنيته أبو مناد، ولقبه الحاجب المُظَفَّر بالله، الناصر لدين الله.

أولّيته: قد تقدّم الإنماع بذلك عند ذكر ابنه بُلْكَيْن.

حاله: كان رئيسًا يَسًا، طاغية، جبارًا، شجاعًا، داهية، حازمًا، جَلَدًا، شديد الأمر، شديد الرأي، بعيد الهمة، ماثور الإقدام، شَرِه السيف، واري زناد الشر، جماعة للمال؛ ضخّمت به الدولة، ونُبّهت الألقاب، وأمنت لحمايته الرعايا، وطمّ

ص ٤١)، وطبقات الأسم (ص ١٣٦)، ومذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٦)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤)، وكتاب العبر (ج ٤ ص ٣٤٦)، ونفح الطيب (ج ٦ ص ٩٣). وكان إسماعيل الوزير الأول في عهد حبّوس بن ماكسّن ابن زيري وولده باديس بن حبّوس، وبوفاة إسماعيل عام ٤٤٨ هـ ارتقى ابنه يوسف بن إسماعيل ابن نغالة إلى خطة الوزارة التي تَبَرَّأها أبوه.

(١) في البيان المغرب: «بلقين».

(٢) في البيان المغرب: «فيه عند أبيه فبلغ ذلك من اليهودي كلّ مبلغ».

(٣) في البيان: «ودبّر الحيلة عليه فدخل اللعين يومًا على الفتى وقتل...».

(٤) في البيان: «عبدك منك أن...».

(٥) في البيان: «من جوارِي».

(٦) في البيان: «فقدّم له ولرجاله طعامًا وشرابًا».

(٧) في البيان: «فقتل جوارِي».

(٨) حكم باديس بن حبّوس غرناطة من عام ٤٢٩ هـ إلى عام ٤٦٧ هـ. وترجمته في المغرب (ج ٢ ص ١٠٧)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٢، ٢٦٤)، واللمحة البدرية (ص ٣١)، وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٤٥) واسمه فيه: باديس بن حبّوس، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩). وقد قامت الدكتورة مريم قاسم طويل بدراسة وافية عنه في كتابها: مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ١١٩ - ١٦٩) فلتُنظَر.

تحت جناح سيفه العُمران، وأُتسع بطاعته المُرهبة الجوانب ببأسه النظر، وانفسخ المُلْك، وكان ميمون الطائر، مُطْعَمَ الظُفر^(١)، مصنوعًا له في الأعداء، يقنع أقتاله بسلمه، ولا يطمع أعداؤه في حربه. قال ابن عسك^(٢): يكنى أبا مسعود، وكان من أهل الحزم وحماية الجانب، وكان يخطب ويدعو للعلويين بمالقة^(٣)، فلما توفي إدريس بن يحيى العالي^(٤)، ملك مالقة سنة ثمان وأربعين وأربعمائة^(٥).

وقال الفتح في قلائده^(٦): «كان باديس بن حبّوس بغرناطة عانيًا في فريقه، عادلاً عن سُنَنِ العدل وطريقه؛ يجترى على الله غير مراقب، ويسري^(٧) إلى ما شاء غير ملتفت للعواقب؛ قد حَجَبَ سنانه لسانه، وسبقت إساءته إحسانه؛ ناهيك من رجل لم يَبْتَ من ذنب على نَدَم، ولم^(٨) يشرب الماء إلّا من قُليب دم؛ أخزَم من كاذ ومَكْز، وأجْزَم من راحٍ وابتكَز؛ وما زال مُتَقَدًّا في مناحيه، مُتَقَدًّا لنواحيه، لا يُرامُ بريث ولا عَجَل، ولا يَبِيتُ له جازٌ إلّا على وَجَل».

أخباره في وقائعه: يُنظر إيقاعه بزُهير العامري ومَن معه في اسم زُهير، فقد ثبت منه هنالك نبذة، وإيقاعه بجيش ابن عبّاد بمالقة عندما طرق مالقة وتملكها، واستُصرخ مَن استمسك بقصبتها من أساودتها، وغير ذلك مما هو معلوم، وشهرته مُغْنِيَةٌ عن الإطالة.

ومن أخباره في الجبرية والقسوة، قال ابن حيّان: عندما استَوْعَب الفُشْكَةُ بأبي نصر بن أبي نور اليفرنى أمير رُنْدَةِ المنتزي بها وقتله، ورجوعها إلى ابن عباد؛ حكى أبو بكر الوسنشاني الفقيه عن ثقة عنده من أصادقة الثُّجَار، أنه حضر مدينة غرناطة، حَضْرَةَ باديس بن حبّوس الجبار، أيام حدث على أبي نصر، صاحب تَاكُرْنَا، ما حدث، وأن أميرها باديس قام للحادثة وقعد، وهاج من داء عَصَبِيَّتِهِ ما قد سكن، وشقّ أثوابه، وأعلن أحواله، وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه، وجفا ملاذّه؛ وأوهمته

(١) مطعم الظفر: كثير الظفر. (٢) النص في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢١).

(٣) العلويون هم بنو حمود، أصحاب مالقة والجزيرة الخضراء. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٢٢).

(٤) بويج العالي إدريس بن يحيى بن علي بن حمود بمالقة سنة ٤٣٤ هـ. أخباره في مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٢١ - ١٢٣). وذهب القلقشندي إلى أن العالي إدريس بويج في عام ٤٣٩ هـ. صبح الأعشى (ج ٥ ص ٢٣٨).

(٥) قضى باديس بن حبّوس الصنهاجي على بني حمود بمالقة وضمّ مملكتهم إلى غرناطة سنة ٤٤٩ هـ. انظر في ذلك: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ١٢٥ - ١٢٦).

(٦) قلائد العقيان (ص ١٨). (٧) في القلائد: «ويجري».

(٨) في القلائد: «ولا شرب».

نفسه الخبيثة تمالؤ رعيته من أهل الأندلس، على الذي دهمى أبا نصر، فسوّلت له نفسه حمل السيف على أهل حضرته جميعاً، مستحضراً لهم، وكيماً ينبرهم، ويخلص برابره وعبيده فيريح نفسه، ودبر أن يأتي ذلك إليهم عند اجتماعهم بمسجدهم الجامع الأقرب أيام الجمعة، من قوة همومه؛ وشاور وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل، مدبر دولته الذي لا يقطع أمراً دونه، مُستَخْلِياً مُستَكْتِماً بسرّه، مصمّماً في عزمه، إن هو لم يوافقه عليه؛ فنهاه عن ذلك وخطأ رأيه فيه، وسأله الأناة ومخض الرويّة، وقال له: هَبْكَ وصلت إلى إرادتك ممّن بحضرتك، على ما في استباحتهم من الخطر، فأنتى تقدر على الإحاطة بجميعهم من أهل حضرتك، وبسائط أعمالك؟ أترأهم يطمثنون إلى الذّهل عن مصائبهم، والاستقرار في موضعهم؟ ما أراهم إلا سيوفاً ينتظمون عليك في جموع، يُغرقونك في لُججها أنت وجندك؛ فردّ نصيحته، وأخذ الكتمان عليه، وتقدّم إلى عارضه باعتراض الجند في السلاح، والتّعبيّة لركوبه يوم الفتكة، يوم تلك الجمعة، فارتجّ البلد. وذكر أن اليهودي دسّ نسواناً إلى معارف لهنّ من زعماء المسلمين بغرناطة، يَنهاهم عن حضور المسجد يومهم، ويأمرهم بإخفاء أنفسهم؛ وفشا الخبر فتخلّف الناس عن شهود الجمعة؛ ولم يأت إلا نفر من عامّتهم، اقتدوا بمنّ أناه من مشيخة البربر وأغفال القادمين؛ وجاء إلى باديس الخبر، والجيش في السلاح حوالي قصره، فساء وقت في عضده، ولم يشك في فشوّ سرّه، وأحضر وزيره وقلده البوّح بسرّه فأنكر ما قرّفه به؛ وقال: ومن أين يُنكر على الناس الحذر، وأنت قد استركبت جندك وجميع جيشك في التّعبيّة، لا لسفّر ذكرته، ولا لعدوّ وثب إليك، فمن هناك حدس القوم على أنك تريدهم، وقد أجمل الله لك الصّنع في نفاهم، وقادك إصارهم، فأعد نظرك يا سيدي، فسوف تحمد عاقبة رأيي وغبطة نصحي. فنصّح وزيره شيخ من موالى صنهاجته، فانعطّف لذلك بعد لأي، وشرح الله صدره. ويجري التعريف بشيء من أمور وزيره.

قال ابن عدّاري المراكشي في كتابه المسمى بـ «البيان المغرب»^(١): أمضى باديسُ كاتب أبيه ووزيره ابن نغرّالة اليهودي^(٢)، وعمالاً متصرفين من أهل ملّته، فاكتسبوا الجاه في أيامه واستطالوا على المسلمين. قال ابن خيَّان: وكان هذا اللعين في ذاته، على ما رَوَى الله عنه من هدايته، من أكمل الرجال علماً وحلمًا وفهمًا، وذكاء، ودماثة، وركانة، ودهاء، ومكرًا، وملئًا لنفسه، وبسطةً من خلقه، ومعرفةً

(١) البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤).

(٢) هو إسماعيل بن نغرّالة اليهودي كما في البيان المغرب. وله ترجمة في المغرب (ج ٢ ص ١١٤)، ولايته يوسف بن إسماعيل ترجمة في المغرب (ج ٢ ص ١١٥).

بزمانه، ومدارة لعدّوه، واستسلاً لحقودهم بحلمه؛ ناهيك من رجل كتب بالقلمين، واعتنى بالعلمين، وشغف باللسان العربي، ونظر فيه، وقرأ كتبه، وطالع أصوله؛ فانطلقت يده ولسانه، وصار يكتب عنه وعن صاحبه بالعربي، فيما احتاج إليه من فصول التحميد لله تعالى، والصلاة على رسوله، ﷺ، والتزكية لدين الإسلام، وذكر فضائله، ما يريده، ولا يقصّر فيما يُنشئه عن أوسط كتاب الإسلام؛ فجمع لذلك «السّجيج في علوم الأوائل الرياضية» وتقدم منتحليها بالتدقيق للمعرفة الشّجوية؛ ويشارك في الهندسة والمنطق، ويفوق في الجدل كلّ مُستولٍ منه على غاية؛ قليل الكلام مع ذكائه، ماقنًا للسبب، دائم التفكير، جماعةً للكتب. هلك في العشر الثاني لمحرّم سنة تسع وخمسين وأربعمائة^(١)، فجلّل اليهود نعشه، ونكسوا لها أعناقهم خاضعين، وتعاقدوه جازعين، وبكوه مُغلنين؛ وكان قد حمل ولده يوسف المُكنى بأبي حسين على مطالعة الكتب، وجمع إليه المعلمين والأدباء من كل ناحية، يُعلّمونه ويُدارسونه، وأغلّقه بصناعة الكتابة، ورشّحه لأول حركته، لكتابة ابن مخدومه بُلْكَيْن برتبة المترشّح لمكانه، تمهيدًا لقواعد خدمته؛ فلما هلك إسماعيل في هذا الوقت، أدناه باديس إليه، وأظهر الاغتياب به، والاستعاضة بخدمته عن أبيه.

ذكر مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغزالة الإسرائيلي:

قال صاحب البيان^(٢): وترك ابنًا له يسمى^(٣) يوسف لم يعرف ذل^(٤) الذّمة، ولا قدر اليهودية. وكان جميل الوجه، حاذّ الذّهن، فأخذ^(٥) في الاجتهاد في الأحوال، وجمع^(٦) المال، واستخراج الأموال، واستعمال^(٧) اليهود على الأعمال، فزادت منزلته عند أميره^(٨)، وكانت له عليه^(٩) عيون في قصره من نساء وفتيان، يشملهم^(١٠) بالإحسان، فلا يكاد باديس يتنفس، إلّا وهو يعلم ذلك^(١١). ووقع ما تقدم ذكره، في

(١) هنا يخلط ابن الخطيب بين إسماعيل بن النغزالة وبين ابنه يوسف بن إسماعيل ابن «النغزالة» وجعل وفاته عام ٤٥٩ هـ، وهو عام وفاة ابنه يوسف. كذلك شاركه في هذا الوهم النباهي في المرقبة العليا (ص ٩١) وابن خلدون في كتاب البير (م ٤ ص ٣٤٦).

(٢) البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤ - ٢٦٥). (٣) في البيان المغرب: «اسمه».

(٤) في البيان المغرب: «ذلة».

(٥) في البيان المغرب: «فأخذ نفسه بالاجتهاد...».

(٦) قوله: «وجمع المال» ساقط في البيان المغرب.

(٧) في البيان المغرب: «واستعمل اليهود إخوانه على...».

(٨) في البيان المغرب: «أميره باديس». (٩) في البيان المغرب: «له عيون عليه».

(١٠) في البيان المغرب: «شغلهم الملعون بالإحسان».

(١١) هنا ينتهي النقل عن ابن عذاري.

ذَكَرَ بُلُكَيْنَ مِنْ أَتْهَامِهِ بِسَمِّهِ، وَتَوَلَّيَ التَّهْمَةَ بِهِ عِنْدَ أَبِيهِ، لِلْكَثِيرِ مِنْ جَوَارِيهِ وَخِدَامِهِ، وَفُتِكَ هَذَا بِقَرِيبٍ لَهُ، يَلُوحُ لَهُ فِي الْخِدْمَةِ وَالْوِجَاهَةِ، يَدْعَى بِالْقَائِدِ، شَعَرَ مِنْهُ بِمَزَاحِمَتِهِ إِيَّاهُ فَتَكَةً شَهِيرَةً؛ وَاسْتَهْدَفَ لِلنَّاسِ فَشَغَلَتْ بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ، وَمُلِثَتْ غِيظًا عَلَيْهِ صُدُورُهُمْ، وَذَاعَتْ قَصِيدَةُ الزَّاهِدِ أَبِي إِسْحَاقَ الْإِلْبِيرِيِّ، فِي الْإِغْرَاءِ بِهِمْ، وَاتَّفَقَ أَنْ أَغَارَتْ عَلَى غَرْنَاطَةِ بَعُوْثٍ صُمَادِحِيَةٍ تَقُولُ إِنَّهَا بِاسْتِدْعَائِهِ، لِيَصِيرَ الْأَمْرَ الصُّنْهَاجِيَّ إِلَى مَجْهَازِهَا الْأَمِيرَ بِمَدِينَةِ الْمَرْيَةِ. وَبَادِيسُ فِي هَذِهِ الْحَالِ مَنْغَمَسٌ فِي بَطَالَتِهِ، عَاكِفٌ عَلَى شِرَابِهِ. وَنُبِيَّ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى رَهْطِهِ مِنْ صُنْهَاجَةٍ، فَرَاخُوا إِلَى دَارِ الْيَهُودِيِّ مَعَ الْعَامَةِ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ، فَاخْتَفَى، زَعَمُوا فِي بَيْتِ قَحْمٍ، وَسَوَّدَ وَجْهَهُ، يَرُومُ التَّنْكِيرَ فَقَتَلُوهُ لَمَّا عَرَفُوهُ، وَصَلَبُوهُ عَلَى بَابِ مَدِينَةِ غَرْنَاطَةِ، وَقُتِلَ مِنَ الْيَهُودِ فِي يَوْمِهِ، مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَنُهِبَتْ دُورُهُمْ، وَذَلِكَ سَنَةَ تِسْعٍ وَخَمْسِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ^(١). وَقَبْرُهُ الْيَوْمَ وَقَبْرُ أَبِيهِ يُعْرَفُ أَصْلًا مِنَ الْيَهُودِ يَنْقَلُونَهُ بِتَوَاتُرٍ عِنْدَهُمْ، أَمَامَ بَابِ الْبِيرَةِ، عَلَى غَلْوَةٍ، يَعْتَرِضُ الطَّرِيقَ، عَلَى لَحْدِهِ حَجَارَةٌ كِدَانٌ جَافِيَةٌ الْجِزْمِ؛ وَمَكَانُهُ مِنَ التَّرَفِّهِ وَالثَّرَفِ وَالظُّرْفِ وَالْأَدَبِ مَعْرُوفٌ؛ وَإِنَّمَا أَتَيْنَا بِبَعْضِ أَخْبَارِهِ لِكُونِهِ مِمَّنْ لَا يَمْنَعُ ذِكْرُهُ فِي أَعْلَامِ الْأَدْبَاءِ وَالْأَفْرَادِ إِلَّا نَحْلَتَهُ.

مكان باديس من الذكاء وتولعه بالقضايا الآتية:

قال ابن الصِّيرْفِيِّ: حَدَّثَنِي أَبُو الْفَضْلِ جَعْفَرُ الْفَتَى، وَكَانَ لَهُ صَدُوقٌ، وَفِي نَفْسِهِ عِزَّةٌ وَشَهَامَةٌ وَكِرَمٌ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ، وَعُرِفَ بِهِ، حَسْبَمَا يَأْتِي فِي اسْمِ جَعْفَرِ الْمَذْكُورِ، قَالَ: خَاضَ بَادِيسُ مَعَ أَصْحَابِهِ فِي الْمَجْلِسِ الْعَلِيِّ، مِنْ دَارِ الشُّرَابِ بِقَصْرِهِ، وَاصْطَفَتْ الصُّقَالِيبُ^(٢) وَالْعَبِيدُ بِالْبُرْطُلِ^(٣) الْمُتَّصِلُ بِهِ لِتَخْدُمَ إِرَادَتِهِ، فُورِدَ عَلَيْهِ نَبَأٌ قَامَ لَتَعْرِفُهُ عَنْ مَجْلِسِهِ، ثُمَّ عَادَ إِلَى مَوْضِعِهِ وَقَدْ تَجَهَّمُ وَجْهَهُ، وَخُبِثَتْ نَفْسُهُ، فَحَذَرَ نَدْمَاؤَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَتَخَيَّلُوا وَقُوعَ الشَّرِّ بِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: أَعْلَمْتُمْ مَا حَدَثَ؟ قَالُوا: لَا، وَاللَّهِ يُطْلَعُ عَلَى خَيْرٍ، قَالَ: دَخَلَ الْمُرَابِطُ^(٤) الدَّمْنَةَ، فَسُرِّيَ عَنِ الْقَوْمِ، وَانْطَلَقَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِالْإِدْعَاءِ بِنَصْرِهِ، وَفُسِّحَتْ عَمْرُهُ، وَدَوَامَ دَوْلَتُهُ، ثُمَّ وَجَمُوا لَوُجُومَهُ، فَلَمَّا رَأَى

(١) فِي أَعْمَالِ الْأَعْلَامِ لِابْنِ الْخَطِيبِ (القسم الثاني ص ٢٣٣): قَتَلُوهُ وَصَلَبُوهُ سَنَةَ ٤٦٩ هـ، وَقِيلَ: سَنَةَ ٤٦٥ هـ.

(٢) الصُّقَالِيبُ: هُمُ الصُّقَالِبَةُ، وَهُمُ أَوْلَئِكَ الْأَرْقَاءُ الَّذِينَ يَنْتَسِبُونَ إِلَى جَنْسِيَّاتٍ أَوْرُوبِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ. رَاجِعْ: مَمْلُوكَةُ الْمَرْيَةِ فِي عَهْدِ الْمُعْتَصِمِ بْنِ صَمَادِحٍ (ص ٦٨).

(٣) الْبُرْطُلُ: كَلِمَةٌ إِسْبَانِيَّةٌ وَهِيَ Portal، وَتَعْنِي الْبَوَابَ وَمَدْخَلَ الْبَيْتِ وَالْبَهُوِ ذَا الشُّرَفَاتِ الْمَعْقُودَةِ عَلَى الْأَعْمَدَةِ.

(٤) يُشِيرُ إِلَى دُخُولِ يَوْمَسَفِ بْنِ تَاشَفِينِ الْمُرَابِطِيِّ الْأَنْدَلُسِيِّ.

تَكَدَّرَ صَفْوَهُمْ، قَالَ: أَقْبِلُوا عَلَى شَأْنِكُمْ، مَا نَحْنُ وَذَاكَ، الْيَوْمَ خَمْرٌ وَغَدًا أَمْرٌ^(١)، بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ أَمْدَادُ الْفَجْوِ، وَالنُّشُورُ الْجِبَالِ وَأَمْوَاجُ الْبَحَارِ، وَلَكِنْ لَا بَدَّ لَهُ أَنْ يَتَمَلَّكَ بِلَدِي، وَيَقْعَدَ مِنْهُ مَقْعَدِي، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَلْحَقُهُ أَحَدٌ مِنَّا، وَإِنَّمَا يَشْقَى أَحْفَادُنَا. قَالَ جَعْفَرٌ: فَلَمَّا دَخَلَ الْأَمِيرُ الْقَصْرَ، عِنْدَ خَلْعِهِ حَفِيدَ بَادِيسَ بِرَحْبَةِ مُؤْمَلٍ^(٢)، طَافَ بِكُلِّ رُكْنٍ وَمَكَانٍ مِنْهُ، وَأَنَا فِي جَمَلَتِهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى ذَلِكَ الْمَجْلِسِ، فَبَسِطَ لَهُ مَا قَعَدَ عَلَيْهِ، فَتَذَكَّرْتُ قَوْلَ بَادِيسَ، وَتَعَجَّبْتُ مِنْهُ تَعَجُّبًا ظَهَرَ عَلَيَّ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُنْكَرًا، وَسَأَلَنِي مَا بِي، فَأَخْبِرْتَهُ وَصَدَّقْتُهُ، وَقَصَصْتُ عَلَيْهِ قَوْلَ بَادِيسَ، فَتَعَجَّبَ، وَقَامَ إِلَى الْمَسْجِدِ بَعَثَ مَعَهُ، فَصَلَّى فِيهِ رَكَعَاتٍ، وَأَقْبَلَ يَتَرَحَّمُ عَلَى قَبْرِهِ.

وفاته: قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ خَلْفٍ: تَوَفَّى بَادِيسَ لَيْلَةَ الْأَحَدِ الْمُؤَفِّي عَشْرِينَ مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ^(٣)، وَدُفِنَ بِمَسْجِدِ الْقَصْرِ. قُلْتُ: وَقَدْ ذَهَبَ أَثَرُ الْمَسْجِدِ، وَبَقِيَ الْقَبْرُ يَحْفُ بِهَ حُلُقٌ لَهُ بَابٌ، كُلُّ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلٍ مِنَ الْخُمُولِ، وَجَدْتُ الْقَبْرَ رَخَامًا، إِلَى جَانِبِ قَبْرِ الْأَمِيرِ الْمُجَاهِدِ أَبِي زَكْرِيَّا يَحْيَى بْنِ غَانِيَةَ، الْمَدْفُونِ فِي دَوْلَةِ الْمُؤَخِّدِينَ بِهِ.

وَقَدْ أَدَالَ اعْتِقَادُ الْخَلِيفَةِ فِي بَادِيسَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، قَدَّمَ الْعَهْدَ بِتَعَرُّفِ أَخْبَارِ جَبَرَوْتِهِ وَعَثْرَتِهِ عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ، لَمَّا جَبَلَهُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَنْقِيَادِ لِلْأَوْهَامِ وَالْإِنْصِياعِ لِلْأَضَالِيلِ، فَعَلَى حَفْرَتِهِ الْيَوْمَ مِنَ الْأَزْدَحَامِ بِطُلَّابِ الْحَوَائِجِ وَالْمُسْتَشْفِينَ مِنَ الْأَسْقَامِ، حَتَّى أَوَّلُو الدَّوَابَّ الْوَجِيعَةَ، مَا لَيْسَ عَلَى قَبْرِ مَعْرُوفِ الْكَرْخِي، وَأَبِي يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ.

وَمَنْ أَغْرَبَ مَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ رَفْعَةً رَفَعَهَا إِلَى السُّلْطَانِ عَلَى يَدِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْخَبَرِ مُكْتَبٌ^(٤) يُؤْمُ فِي مَسْجِدِ الْقَصْبَةِ الْقُدُمِيِّ مِنْ دَارِ بَادِيسَ، يُعَرِّفُ بَابَ بَاقٍ، وَهُوَ يَتَوَسَّلُ إِلَى السُّلْطَانِ وَيَسْأَلُ مِنْهُ الْإِذْنَ فِي دَفْنِهِ مَجَاوِرًا لِقَبْرِهِ. وَعَفُو اللَّهِ أَوْسَعَ مِنْ أَنْ يَضِيقَ عَلَى مِثْلِهِ، مَتَى أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ، وَضَيَّعَ حَقَّ رَبِّهِ. وَدَائِرَتُهُ الْيَوْمَ طُلُولٌ قَدْ

(١) قوله: «اليوم خمر وغدا أمر» لا مريء القيس، وقد قاله عندما بلغ أن بني أسد ثاروا على أبيه وقتلوه، وكان آنذاك في مجلس شراب.

(٢) رحبة مؤمل أو حور مؤمل أو حوز مؤمل: كان من أجمل متنزهات غرناطة، سُمِّيَ بِذَلِكَ نِسْبَةً إِلَى مُؤْمَلٍ أَحَدِ خِدَامِ مَلِكِ غَرْنَاطَةِ بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ، وَلاَحْتَوَانِهِ عَلَى سَطْرِ مِنْ شَجَرِ الْحُورِ. مَمْلُوكَةُ غَرْنَاطَةِ (ص ٣٥).

(٣) كذا ورد في اللوحة البدرية (ص ٣١). ويرى ابن خلدون أن بَادِيسَ تَوَفَّى سَنَةَ ٤٦٧ هـ. وبتَرَدُّدٍ الْقَلْقَشَنْدِيُّ فِي تَارِيخِ الْوَفَاةِ، فَمَرَّةً يَذْكُرُ أَنَّهُ تَوَفَّى سَنَةَ ٤٦٧ هـ، وَيَذْكُرُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّهُ تَوَفَّى عَامَ ٤٧٧ هـ. كِتَابُ الْعَبَرِ (م ٤ ص ٣٤٦) و(م ٦ ص ٣٦٩)، وَصَبِيحُ الْأَعْمَاشِ (ج ٥ ص ٢٤٢، ٢٤٨).

(٤) الْمَكْتَبُ: مَعْلَمُ الْكِتَابَةِ. مُحِيطُ الْمَحِيطِ (كِتَابُ).

تغيرت أشكالها وقسم التملك جئاتها، ومع ذلك فمعاهدها إليه منسوبة، وأخباره متداولة.

وقد ألمعت في بعض مشاهده بقولي من قصيدة، غريبة الأغراض، تشتمل على فنون، أثبتتها إحماسًا وفكاهة، لمن يطالع هذا الكتاب، وإن لم يكن جليها ضروريًا فيه، فمنها^(١): [الطويل]

عسى خطرة^(٢) بالرؤب يا حادي العيس على الهضبة الشماء من قضر باديس

بكرين بن أبي بكر بن الأشقر الحضرمي

يكنى أبا يحيى.

حاله: كان من ذوي الأصالة ومشايخ الجند، فارسًا نَجْدًا حازمًا شديد الرأي، مسموع القول، شديد العضلة^(٣)، أَيْدًا^(٤)، فَحَلًا وسيما، قائدًا عند الجند الأندلسي، في أيام السلطان ثاني ملوك بني نصر، من أحفل ما كان الأمر، يجز وراه دنيا عريضة، وجبى الجيش على عهده مغانم كثيرة.

قال شيخنا ابن شبرين في تذكرة ألفيتها بخطه: كان له في الخدمة مكان كبير، وجاءه عريض، ثم صرفه الأمر عن رسمه، وأنزله الدهر عن حكمه، تغمّدا الله وإياه برحمته.

وفاته: في عام أربعة عشر وسبعمائة، ودفن بمقبرة قومه بباب البيرة.

بدر مولى عبد الرحمن بن معاوية الداخل

يكنى أبا النصر، رومي الأصل.

حاله: كان شجاعا داهية، حازمًا فاضلاً، مصمماً تقياً، علماً من أعلام الوفاء. لازم مولاه في أعقاب النكبة، وصحبه إلى المغرب الأقصى، مختصاً به ذاباً عنه، مشتملاً عليه، وخطب له الأمر بالأندلس، فتم له بما هو مذكور.

(١) البيت مطلع قصيدة من ٣٦ بيتاً وردت في نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٥ - ٢٤٨)، وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٣٤ - ٢٣٧)، ونفع الطيب (ج ٩ ص ١٩١ - ١٩٤). وسترده في الجزء الرابع من الإحاطة.

(٢) في النثر: «خطرة».

(٣) شديد العضلة: كثير الدهاء. لسان العرب (عضل).

(٤) الأيد: القوي. لسان العرب (أيد).

قال أبو مروان في الْمُقْتَبِسِ: إن عبد الرَّحْمَنِ لَمَّا شَرَدَهُ الخوف إلى قاصية المغرب، وتَنَقَّلَ بين قبائل البربر، وَذَنَا من ساحل الأندلس - وكان بها هُمَةٌ - يَسْتَخْبِر من قرب، فعرف أن بلادها مُفْتَرَقَةٌ بفِرْقَتِي المضرية واليمانية، فزاد ذلك في أَطْمَاعِهِ، فَأَدْخَلَ إليهم بَدْرًا مولاة يُحَسِّن عن خبرهم، فَأَتَى القوم ويلى ما عندهم، فداخل اليمانيين منهم، وقد عَصَفَتْ ريح المضريين بظهور بني العباس بالمشرق، فقال لهم: ما رأيكم في رجل من أهل الخلافة يطلب الدولة بكم، فيقيم أودكم وَيُدْرِككم آمالكم؟ فقالوا: وَمَنْ لنا به في هذه الديار، فقال بدرٌ: ما أدناه منكم، وأنا الكفيل لكم به، هذا فلان بمكان كذا وكذا يُقَدِّمُ نفسه فقالوا: فجاء به أهلاً، إنا سُرَاعٌ إلى طاعته، وأرسلوا بدرًا بكتبهم يستدعون، فدخل إليه بأيمن طائر، واستجمع إليه خلق كثير من أنصاره قاتل بهم يوسف الفهري، فقهره لأول وقائعه، وأخذ الأندلس منه وأورثها عقبه.

محدثه: قال الراوي: وكان من أكبر مَنْ أَمْضَى عليه عبد الرحمن بن معاوية حُكْمَ سياسته وقُوْمِهِ معدَّته، مولاة بدرُ المَعْتَقُ منه بكل ذمَّة محفوظة، الخائضُ معه لكل غَمْرَةٍ مرهوبة، وكل ذلك لم يُغْنِ عنه نَقِيرًا لما أسلف في إدلاله عليه، وكثير من الانبساط لِحُزْمَتِهِ، فجمع مركب تحامله حتى أوردته أَلَمًا يضيق الصدر عنه، وآسف أميره ومولاه، حتى كبح عِنانَه عن نفسه بعد ذلك كَبْحَةً أَقْعَى بها أو شارفَ جِمامه، لولا أن أبقي الأمير على نفسه التي لم يزل مسرِّقًا عليها. قال: فانتهى في عقابه لَمَّا سَخِطَ عليه أن سلب نعمته، وانتزع دوره وأملاكه وأَغْرَمَهُ على ذلك كله أربعين ألفًا من صامته، ونفاه إلى الثُّغُر، فأقصاه عن قربه، ولم يُقْلَهُ العَثْرَةَ، إلى أن هلك، فرفع طمع الهوادة عن جميع نُقْلِهِ وخدمته، وصيِّرَ خبرَه مثلًا في الناس بعده.

تاشفين بن علي بن يوسف أمير المسلمين^(١) بعد أبيه بالعُدوة

صالي حروب الموحدين.

أُولِيَّتُهُ: فيما يختص به التعريف بأُولِيَّةِ قومه، ينظر في اسم أبيه وجدّه إن شاء الله. قال ابن الورّاق في كتاب المقياس وغيره^(٢): وفي سنة اثنتين وعشرين وخمسائة، ولى الأميرُ علي بن يوسف أميرَ لَمُتُونَةٍ، الشهير بالمرابط، وَلَدَهُ الأميرُ

(١) ترجمة تاشفين بن علي بن يوسف المرابطي في الحلل الموشية (ص ٩٠)، والبيان المغرب (ج

٤ ص ٧٩)، والذخيرة (ق ٢ ص ٤٠٧).

(٢) قارن بالبيان المغرب (ج ٤ ص ٧٩).

المسمى بسير عهده من بعده. وجعل له الأمر في بقية حياته؛ ورأى أن يولي ابنه تاشفين الأندلس، فولاه مدينة^(١) غرناطة، والمرية ثم قرطبة مضافة إلى ما بيده. قلت: وفي قولهم رأي أن يولى الأندلس فولاه مدينة غرناطة، شاهد كبير على ما وصفناه من شرف هذه المدينة؛ فنظر في مصالحها، وظهر له بركة في النصر على العدو، وخدمه الجد الذي أسلمه. وتبرأ منه في حروبه مع الموحدين حسبما يتقرر في موضعه، فكانت له على النصارى وقائع عظيمة بعد لها الصيت، وشاع الذكر حسبما يأتي في موضعه. قال: فكبر ذلك على أخيه سير ولي عهد أبيه، وفأوض أباه في ذلك وقال له: إن الأمر الذي أملتني إليه^(٢) لا يحسن لي مع تاشفين، فإنه قد حمل الذكر والثناء دوني، وغطى على اسمي، وأمال إليه جميع أهل^(٣) المملكة، فليس لي معه اسم ولا ذكر، فأرضاه بأن عزله عن الأندلس وأمره بالوصول إلى حضرتة، فرحل عن الأندلس في أواسط سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ووصل مراكش، وصار من جملة من يتصرف بأمر أخيه سير ويقف ببابه كأحد حجابيه؛ ففضى الله وفاة الأمير سير على الصورة القبيحة حسبما يذكر في اسمه، وثكله أبوه واشتد جزعه عليه، وكان عظيم الإيثار والإرضاء لأمه قمر، وهي^(٤) التي تسببت في عزل تاشفين وإخماله نظرًا إلى ابنها، فقطع المقدار بها عن أملها بهلاكه.

ولما توفي الأمير سير، أشارت الأم المذكورة على أبيه بتقديم ولده إسحق، وكان رؤومًا لها، قد تولت تربيته عند هلاك أمه وتبثته، فقال لها: هو صغير السن لم يبلغ الحلم؛ ولكن حتى أجمع الناس في المسجد خاصة وعامة، وأخبرهم فإن صرفوا الخيار إليّ، فعلت ما أشرت به. فجمع الناس وعرض عليهم الأمر؛ فقالوا كلهم في صوت واحد: تاشفين، فلم توسعه السياسة مخالفتهم؛ فعقد له الولاية بعده ونقش اسمه في الدنانير والدراهم مع اسمه، وقلده النظر في الأمور السلطانية، فاستقر بذلك. وكتب إلى العدو والأندلس وبلاد المغرب ببيعته، فوصلت البيعات من كل جهة. ثم رمى به جيوش الموحدين الخارجين عليه، فنبأ جدّه ومرضت أيامه، وكان الأمر عليه لا له، بخلاف ما صنع الله له بالأندلس.

(١) في البيان المغرب: «فولاه إمارة غرناطة...».

(٢) في البيان المغرب: «له». (٣) كلمة «أهل» ساقطة في البيان المغرب.

(٤) راجع البيان المغرب (ج ٤ ص ٩٧).

قال أبو مروان الوراق^(١): وكان^(٢) أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين قد أمل في ابنه تاشفين ما لم تكن الأقدار تساعد به، فتشام به وعزم على خلعه وصرف عهده إلى إسحق^(٣) ولده الأصغر، ووجه إلى عامله على إشبيلية عمر^(٤)، أن يصل إليه ليجعله شيخ ابنه، إلى أن وافاه خبر أمضه وأقلقه ولم يمهله، فازعج تاشفين إلى عدوه على غير أهبة بتفويضه إياه، وصرف المدد في إثره، وتوفي لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين^(٥) لفعله ذلك.

مُلْكُهُ وَوصف حاله: فأنضى إليه مُلك أبيه، بتفويضه إياه في حياته، لسبع خلون من رجب سنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وكان بطلاً شجاعاً حسن الرُكبة والهيئة، سالكاً ناموس الشريعة، ماثلاً إلى طريقة المستقيمين، وكُتِبَ المريدين؛ قيل إنه لم يشرب قط مُسكِراً ولا استمع إلى قينة، ولا اشتغل بلذة ممّا يلهو به الملوك.

الثناء عليه: قال ابن الصيرفي^(٦): وكان بطلاً شجاعاً، أحبه الناس، خواصهم وعوامهم، وحسنت سياسته فيهم، وسد الثغور، وأذكى^(٧) على العدو العيون، وآثر الجند، ولم يكن منه إلا الجِدُّ، ولم تزل عنده الحظوة^(٨)، إلا بالعناء والنجدة. وبذلك حمل على الخيل، ولقد الأسلحة، وأوسع الأرزاق، واستكثر من الرماة^(٩) وأركبهم وأقام همتهم^(١٠) للاعتناء بالثغور ومباشرة الحرب، ففتح الحصون وهزم الجيوش وهابه العدو. ولم ينهض إلا ظاهراً ولا صدر إلا ظافراً. وملك الملك ومهد بالحزم وتملك^(١١) نفوس الرعية بالعدل^(١٢)، وقلوب الجند بالنصّة. ثم قال: ولولا الاختصار الذي اشترطناه لأوردنا من سنى خلاله ما يضيق عنه الرُخب، ولا يسعه الكُتب.

دينه: قال المؤرخ: عكف على زيارة قبر أبي وهب الزاهد بقرطبة، وصاحب أهل الإرادة، وكان وطيء الأكناف^(١٣)، سهل الحجاب، يُجالس الأعيان ويذاكرهم.

(١) النص في البيان المغرب (ج ٤ ص ٩٩ - ١٠٠) بتصريف.

(٢) في البيان المغرب: «وقد كان». (٣) كلمة «إسحق» ساقطة في البيان المغرب.

(٤) في الأصل: «أعمار» والتصويب من البيان المغرب.

(٥) كذا جاء في البيان المغرب (ج ٤ ص ٨٠) و(ص ١٠٠).

(٦) قارن بالحلل الموشية (ص ٩٠).

(٧) في الحلل الموشية: «وأذكى العيون على العدو».

(٨) في الحلل الموشية: «الخطوة». (٩) في الحلل الموشية: «الرمات».

(١٠) في الحلل الموشية: «همهم». (١١) في الحلل الموشية: «وملك».

(١٢) في الحلل الموشية: «بالمعدلة».

(١٣) الأكناف: جمع كنف وهو الناحية. لسان العرب (كنف).

قال ابن الصيرفي: وَلَمَّا قَدِمَ غرناطة أَقبل على صيام النهار، وقيام الليل، وتلاوة القرآن، وإخفاء الصَّدقة، وإنشاء العدل، وإيثار الحق.

دُعابته: قالوا: مَرَّ يَوْمًا بمرج القرون، من أحواز قلعة يحصَّب، فقال لزُمَال من عبيده كان يُمازحه: هذا مَرْجُكَ؟ فقال الزُّمَال: ما هو إِلَّا مرجك ومرج أبيك، وأما أنا فَمَنْ أنا؟ فضحك وأعرض عنه.

دخوله غرناطة: قالوا^(١): وفي عام ثلاثة وعشرين وخمسمائة، وُلِّي الأمير أبو محمد تأشفين بن أمير المسلمين علي بن أمير المسلمين يوسف، ووافاه في السابع عشر^(٢) لذي حجة؛ فقَوَّى الحصون وسدَّ الثغور وأذكى العيون^(٣)، وعمد إلى رحبة القصر، فأقام بها السقائف والبيوت، واتخذها لخزن السلاح ومقاعد الرجال، وضرب السُّهَام؛ وأنشأ السُّقي، وعمل الثراس، ونسج الدُّروع، وصقل البيضات والسيوف، وارتبط الخيل، وأقام المساجد في الثغور، وبنى لنفسه مسجدًا بالقصر، وواصل الجلوس للنظر في الظَّلَامات، وقراءة الرُّقاع، وردَّ الجواب؛ وكتب التوقيعات، وأكرم الفقهاء والطلبة، وكان له يوم في كل جمعة، يتفرَّغ فيه للمناظرة.

وزراؤه: قال أبو بكر: وقرن الله به مَن ورد معه، الزبير بن عمر اللمتوني، نُذرة الزمان كرمًا وبسالة، وحزمًا وأصالة، فكان كما جاء في الحديث عن رسول الله، ﷺ: «مَنْ وُلِّي شيئًا من أمور المسلمين فأراد الله به خيرًا، جعل الله له بطانة خير، وجعل له وزيرًا صالحًا، إن نسي شيئًا ذكَّره، وإن ذكره أعانته».

عُماله: الوزير أبو محمد الحسين بن زيد بن أيوب بن حامد بن منحل بن يزيد.

كُتَّابه: الرئيس العالم أبو عبد الله بن أبي الخصال، والكاتب المؤرِّخ أبو بكر الصيرفي وغيرهما^(٤).

ومن أخبار جهاده: خرج^(٥) الأمير تأشفين في رمضان عام أربعة وعشرين وخمسمائة بجيش غرناطة ومطوعتها، واتصل به جيش قرطبة إلى حصن السُّكَّة من عمل طليطلة، وقد اتخذ العدو ركابًا لإضراره بالمسلمين، وشحنه وجَمَّ به شوكة

(١) النص في البيان المغرب (ج ٤ ص ٨٠) وبعضه في الحلل الموشية (ص ٩٠).

(٢) في البيان المغرب: «في السابع والعشرين».

(٣) في البيان المغرب: «العيون على العدو...».

(٤) في الأصل: «وغيرهم».

(٥) قارن بالبيان المغرب (ج ٤ ص ٨٣ - ٨٦).

حاذة بقوميس مشهور؛ فأحرق به، ونشر الحرب عليه، فافتتحه عثوة وقتل من كان به؛ وأحيا قائده «فرند» ومن معه من الفرسان، وصدر إلى غرناطة، فبرز له الناس بروزاً لم يعهد مثله. وفي شهر صفر من عام خمسة وعشرين أوقع بالعدو المضيق على أوليته. وفي ربيع الأول من عام ستة وعشرين، تعرّف خروج عدو طليطلة إلى قرطبة؛ فبادر الأمير تاشفين إلى قرطبة، ثم نهّد^(١) إلى العدو في خف، وترك السيقه والثقل بأرجونة. وقد اكتسح العدو بشنت إشتطين^(٢) والوادي الأحمر. وأسرى الليل، وواصل الركض، وتلاحق بالعدو بقرية براشة. فترأى الجمعان صُبْحًا، وافتضح الجيش، ونشرت الرماح والرايات، وهذرت الطبول، وضافت المسافة، وانتبذ العدو عن الغنيمة؛ والتف الجمع، فتقصرت الرماح، ووقعت المسابقة، ودارت الحرب على العدو، وأخذ السيف مأخذه، فأتى القتل على آخرهم، وصدر إلى غرناطة ظافراً. وفي^(٣) آخر هذا العام خرج العدو «للنمط» وقد احتفل في جيشه إلى بلاد الإسلام، فصَبَح إشبيلية يوم النصف من رجب، وبرز إليه الأمير أبو حفص عمر بن علي بن الحاج، فكانت به الدبرة^(٤) في نفر من المسلمين استشهد جميعهم؛ ونزل العدو على فرسخين من المدينة فجَلَّلها نهباً وغارة؛ فقتل عظيمًا، وسبى عظيمًا؛ وبلغ الخبر الأمير تاشفين، فطوى المراحل، ودخل إشبيلية، وقد أسرها؛ واستوصلت باديتها، وكثر بها التأديب والتنكيل فأخذ أعقاب العدو، وقد قصد ناحية بَطْلَيْئوس وباجة وبابرة في ألف^(٥) عديده من أنجاد الرجال، ومشهور الأبطال، فراش جَوْلًا عَهْدًا بالزروع، فظَفِرَ بما لا يحصيه أحد، ولا يقع عليه عدد؛ وانثنى على رِشْلٍ لثقل^(٦) السيقه، وثقته ببعد الصارخ^(٧)، وتحشمت بالأمير تاشفين الأدلاء كل ذِزْوَةٍ وثنيّة، وأفضى به الإعداد^(٨) إلى قِلاَة بقرب الزلاقة، وهو المهيع الذي يضطر العدو إليه، ولم يكن إلا كَلًا ولا، حتى أقبلت الطلائع مُنْدَرَةً بإقبال العدو، والغنيمة في يده قد ملأت الأرض؛ فلما تراءى

(١) نهّد: برز.

(٢) شنت إشتطين أو إشتبين: بالإسبانية San Esteban، وهي حصن بالأندلس تحت أصل جبل ممتنع. الروض المعطار (ص ٦٠).

(٣) قارن بالحلل الموشية (ص ٩١) والبيان المغرب (ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩).

(٤) الدبرة: الهزيمة.

(٥) في الحلل الموشية: «تألفهم جيش يحتوي على آلاف من أنجاد رجالهم ومشهور أبطالهم».

(٦) في الأصل: «انتقل» والتصويب من البيان المغرب.

(٧) في البيان المغرب: «ووقتهم ببعد الصارخ منهم...».

(٨) في البيان المغرب: «الإغذاء به إلى فدان بقرب...».

الجمعان، واضطربت^(١) المحلات، ورتبت المراكب فأخذت مصافها، ولزمت الرجال مراكبها^(٢)، فكان القلب مع الأمير ووجوه المرابطين وأصحاب الطاعات؛ وعليه البنود الباسقات، مكتبة^(٣) بالآيات، وفي المجتبين^(٤) كبار الدولة من أبطال الأندلس، عليهم حُمر الرايات بالصور الهائلة^(٥)، وفي الجناحين أهل الشجر والأوشاب من أهل الجلادة، عليهم الرايات المرقعات بالعذبات المجزعات. وفي المقدمة مشاهير زناته ولفيف الحشم بالرايات المصبغات المنبقات^(٦). والتقى الجمعان، ونزل الصبر، وحميت النفوس، واشتدَّ الضرب والضراب وكثرت الحملات؛ فهزم الله الكافرين، وأعطوا رقابهم مذبرين، فوقع القتل، واستلحَم العدو السيْف، واستأصله الهلاك والأسار؛ وكان فتحاً جليلاً لا كفاء له، وصدر الأمير تاشفين ظافراً إلى^(٧) بلده في جمادى من هذا العام. ولو ذهبنا لاستقصاء حركات الأمير تاشفين وظهوره لاستدعى ذلك طولاً كثيراً.

بعض ما مدح به: فمن ذلك^(٨): [الكامل]

أما وبيضُ الهندِ عنك خصومُ فالرؤمُ تبذلُ ما ظباكُ تُرومُ
تمضي سيوفُك في العدا ويردها عن نفسه حيث الكلامُ وخيمُ^(٩)

وهذه القصائد قد اشتملت على أغراضها الحماسية، والمُلْك سوقٌ يُجلب إليها ما يُتفق عندها.

وفاته: قد تقدّم انصرافه عن الأندلس سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وقيل: سنة اثنتين^(١٠)، واستقراره بمراكش مرومًا لأخيه سبير، إلى أن أفضى إليه الأمر بعد أبيه. قال: واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين، أبي محمد عبد المؤمن بن

(١) في البيان المغرب: «اضطربت المحلات، وترتبت المواكب...».

(٢) في البيان المغرب: «مراكبها فكان في القلب...».

(٣) في الحلل الموشية: «مكتوبة».

(٤) في المصدرين: «وفي الجانيين كفاة الدولة وحماة الدعوة من أبطال...».

(٥) في المصدرين: «الهائلات».

(٦) في البيان المغرب: «بالرايات المصنفة...» والمنبقات: المزركشات. لسان العرب (نبق).

(٧) في الحلل الموشية: «إلى قرطبة عزيزاً ظافراً، وكان ذلك سنة ثمان وعشرين وخمسمائة».

البيان المغرب: «إلى قرطبة ثم إلى أغرناطة، وذلك في جمادى الأولى من سنة ثمان وعشرين...».

(٨) البيان في البيان المغرب (ج ٤ ص ٨٩). (٩) في البيان المغرب: «رحيم».

(١٠) في الأصل: «اثنتين».

علي خليفة مهديهم، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره، والدفاع عن مُلك بلغ مداه، وتُمت أيامه. كتب الله عليه، فالتأت سَعْدُهُ، وفُلَّ جَدُّهُ، ولم تُقَم له قائمة إلى أن هُزم، وتبدد عسكره، ولجأ إلى وَهْران، فأحاط به الجيش، وأخذ الحصار. قالوا: فكان من تدبيره أن يلحق ببعض السواحل، وقد تقدّم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله، ليرفعه إلى الأندلس؛ فخرج ليلاً في نفر من خاصته فرّقه الليل، وأضلهم الزوع، ويدّتهم الأوعار، فمنهم مَن قتل، ومنهم مَن لحق بالقطائع البحرية؛ وتردّى بتاشفين فرسه من بعض الحاقّات، ووُجد ميتاً في الغد، وذلك ليلة سبع وعشرين لرمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة؛ وصلبه الموحّدون، واستولوا على الأمر من بعده، والبقاء لله تعالى.

ثابت بن محمد الجرجاني ثم الإستراباذي^(١)

يكنى أبا الفتوح.

حاله: قال ابن بسّام^(٢): كان الغالب على أدواته علم اللسان، وحفظ الغريب، والشعر الجاهلي والإسلامي، إلى المشاركة في أنواع التعاليم، والتصرف في حمل السلاح، والجِدْق بأنواع^(٣) الجندية؛ والتفاد في أنواع^(٤) الفروسيّة، فكان الكامل في خلال جمّة. قال أبو مروان: ولم يدخل الأندلس أكمل من أبي الفتوح في علمه وأدبه. قال ابن زيدون: لقيته بغرناطة، فأخذت عنه أخبار المشاركة، وحكايات كثيرة؛ وكان غزير الأدب، قويّ الحفظ في اللغة، نازعاً إلى علم الأوائل من المنطق والنجوم والحكمة، له بذلك قوة ظاهرة.

طروؤه على الأندلس: قال صاحب الذخيرة^(٥): طرأ على الحاجب^(٦) منذ صَدُر الفتنة للذائع من كرمه، فأكرمه^(٧) ورفع شأنه، وأصبحه ابنه^(٨) المرشّح لمكانه^(٩).

(١) ترجمة ثابت بن محمد الجرجاني في بغية الوعاة (ص ٢١٠)، وجذوة المقتبس (ص ١٨٤)، (٣٥٢)، والذخيرة (ق ٤ ص ١٢٤)، وبنية الملتبس (ص ٢٥٣)، والصلة (ص ٢٠٦)، ومعجم

الأدباء (ج ٢ ص ٣٦٦)، ومملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ٢٧٠).

(٢) الذخيرة (ق ٤ ص ١٢٤). (٣) في الذخيرة: «بالآلات».

(٤) في الذخيرة: «معاني». (٥) الذخيرة (ق ٤ ص ١٢٤ - ١٢٥).

(٦) في الذخيرة: «الجانب». ويُستفاد من النص أنه طرأ على علي بن حمود الحسني، الذي كان خليفة ولم يكن حاجباً. بويج له بقرطبة سنة ٤٠٧ هـ وقتله الصقالبة في العام التالي في حمام قصره.

(٧) في الذخيرة: «فأكرم نُزْلُهُ، ورفع من شأنه». (٨) هو ابنه يحيى بن علي بن حمود.

(٩) في الذخيرة: «المرشّح - كان - لسلطانه».

فلم يزل له بهما^(١) المكان المكين، إلى أن تغيّر عليه يحيى لتغيّر الزمان، وتقلب الليالي والأيام بالإنسان، ولحق^(٢) بغرناطة بعسكر البرابرة، فحلّت به من أميرهم باديس الفارقة^(٣).

مَنْ رَوَى عَنْهُ: قال أبو الوليد: قرأت عليه بالحضرة الحماسة في اختيار أشعار العرب، يحملها عن أحمد بن عبد السلام بن الحسين البصري، ولقيه ببغداد سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، عن أبي رياش أحمد بن أبي هشام بن شُبُل العَبْسِي بالبصرة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وله في الفضائل أخبار كثيرة.

محبته ووفاته: لحقه عند باديس مع عمه يذير بن حُباسه تهمة في التدبير عليه، والتسور على سلطانه، دعتهما إلى الفرار عن غرناطة، والمُحَاق بِإِشْبِيلِيَّة. قال أبو يحيى الوَرَّاق: واشتد شوق أبي الفتح إلى أهله عند هربه مع يذير إلى إشبيلية لما بلغه أن باديس قبض على زوجته وبنيه وحبسهم بالمُنْكَب عند العبد قذاح صاحب عذابه، وكان لها من نفسه موقعٌ عظيم، وكانت أندلسية جميلة جداً لها طفلان ذكر وأنثى، لم يُطَقَ عنهما صبراً وعمل على الرجوع إلى باديس طمعاً في أن يصفح عنه، كما عمل مع عمّه أبي ريش؛ فاستأمن إلى باديس يوم نزوله على باب إشبيلية إثر انهزام عسكر ابن عباد، وفارق صاحبه يذير، ورمى هو بنفسه إلى باديس من غير توقُّع بأمان أو مراسلة؛ فلما أُدخل عليه وسلم، قال له: ابتدي، بأي وجه جئتني يا نَمَام؟ ما أجراك على خَلْقِكَ، وأشدّ اغترارك بسحرك، فرقت بين بني ماكسن، ثم جئت تخدعني كأنك لم تصنع شيئاً؛ فلاطفه، وقال اتق الله يا سيدي، وازع ذمامي، وارحم غُربتي وسوء مقامي، ولا تُلزمني ذنب ابن عمك؛ فما لي سبب فيه، وما حملني على الفرار معه إلّا الخوف على نفسي لسابق خلطته؛ ولقد لَفَقْتُني البلاد إليك مُقَرّاً بما لم أجنيه رغبة في صفحك، فافعل أفعال الملوك الذين يَجْلُونَ عن الحقد على مثلي من الصعاليك؛ قال: بل أفعَلْ ما تستحقّه إن شاء الله؛ أن تنطلق إلى غرناطة، فدُم على حالك، والقي أهلك إلى أن أقبل، فأصلح من شأنك. فاطمأن إلى قوله، وخرج إلى غرناطة وقد وُكِّلَ به فارسان، وقد كتب إلى قذاح بحبسه؛ فلما شارف إلى غرناطة قبض عليه، وحلّق رأسه، وأركب على بعير، وجعل خلفه أسودٌ فقطّ ضخم يوالي صَفْعَه، فأدخل البلد مُشْهَرّاً، ثم أودع حبساً ضيقاً، ومعه رجل من أصحاب يذير أَسِرَ في الوقعة من صَنْهَاجَة، فأقاما في الحبس معاً إلى أن قُتِلَ باديس.

(١) في الذخيرة: «بهما».

(٢) في الذخيرة: «فأرقه ولحق في غرناطة...».

(٣) الفارقة: الداهية.

مقتله: قال أبو مروان في الكتاب المسمى بالمتين: واستراح باديس أياماً في غرناطة يهيمُ بذكر الجرجاني، ويعضُ أنامله، فيعارضه فيه أخوه بلُكَيْن، ويكذب الظنون وسعى في تخليصه، فارتبك باديس في أمره أياماً، ثم غافض أخاه بلكين فقتله وقتاً أمينَ فيه أمر معارضته؛ لاشتغاله بشراب وآلة، وكانت من عادته؛ فأحضر باديس الجرجاني إلى مجلسه، وأقبل يشتمه ويسبه ويُبَكِّته، ويطلق الشماتة ويقول، لم تُغن عنك نجومك يا كذاب، ألم يعد أميرك الجاهل؟ يعني يذير، أنه سوف يظفر بي ويملكُ بلدي ثلاثين سنة، لم تدقق النظر لنفسك وتحذر ورطتك؟ قد أباح الله لي دمك. فأيقن أبو الفتوح بالموت؛ وأطرق ينظر إلى الأرض، لا يكلمه ولا ينظر إليه؛ فزاد ذلك في غيظ باديس، فوثب من مجلسه والسيفُ في يده، فخيبط به الجرجاني حتى جدَّ له وأمر بحز رأسه؛ قال: وقُدِّم الصنهاجي الذي كان محبوساً معه إلى السيف، فاشتدَّ جزعُه، وجعل يعتذر من خطيئته، ويلجُ في ضراسته؛ فقال له باديس: أما تستحي يا ابن الفاعلة؛ يصير المعلم الضعيفُ القلب على الموت مثل هذا الصبر، ويملكُ نفسه عن كلامه لي واستعطافي، وأنت تجزع مثل هذا الجزع؟ وطال ما أعددت نفسك في أشداء الرجال، لا أقال الله مقيلك؛ فضرب عنقه، وانقضى المجلس.

ومن تمام الحكاية ممَّا جلبه ابن حيَّان، قال: وكلم الصنهاجيون باديس في جنة صنهاجهم المقتول مع أبي الفتوح، فأمرني بإسلامها إليهم، فخرجوا بها من فورهم إلى المقبرة على نعش، فأصابوا قبراً قد احتفر لميت من أهل البلد، فصبوا صاحبهم الصنهاجي فيه، وواروه من غير غُسل ولا كفن ولا صلاة، فعجب الناس من تسخيمهم في الاغتصاب حتى الموتى في قبورهم. مولده: سنة خمسين وثلاثمائة.

وفاته: كما دُكِرَ ليلة السبت لاثنتين بقيتا من محرم سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. قال برهون من خدام باديس: أمرني بموارة أبي الفتوح إلى جانب قبر أحمد بن عباس، وزير زهير العامري، فقبراُهما في تلك البقعة متجاوران، وقال: اجعل قبرَ عدوِّ إلى جانب عدو إلى يوم القصاص، فيا لهما قبران أجماً أدباً لا كفاء له، والبقاء لله سبحانه.

جعفر بن أحمد بن علي الخزاعي

من أهل غرناطة، ويعسوب الثاغية والراغية^(١) من أهل ربض البيازين، يكنى أبا

(١) يفسرهم: سيدهم ورئيسهم. والثاغية: الشاة؛ يقال: ما له ثاغية ولا راغية: أي ليس له شاة ولا =

أحمد الشهير ذكره بشرق الأندلس، المعروف بكرامة الناس، المقصود الحُفْرة، المحترم الثَّربة حتى من العدو، والرائق بغير هذه المَلَّة. خرج قومه من وطنهم عند تغلب العدو على الشرق، فنزلوا ريف البيازين جوفي^(١) المدينة، وارتاشوا، وتلثموا^(٢)، وبنوا المسجد العتيق، وأقاموا رسم الإرادة، يرون أنهم تمسكوا من طريق الشيخ أبي أحمد بآثاره، فلا يَغْبُون بيته، ولا يقطعون اجتماعاً، على حالهم المعروفة من تلاوة حسنة، وإيثار ركعات، ثم ذكر ثم ترجيع أبيات في طريق التصوّف، مما يُنسب للحسين بن منصور الحلاج^(٣) وأمثاله، يعرفونها منهم مشيخة، قوّالون، هم فحول الأجمة وضرائك^(٤) تلك القطيعة يهيجون بلابلهم، فلا ينشبون أن يحمي وطيُسهم، ويخلط مَزْعِيهم^(٥) بالهَمَل، فيرقصون رقصاً غير مُسَاقٍ للإيقاع الموزون، دون العجال الغالبة منهم، بإفراد كلمات من بعض المقول، ويكرُّ بعضهم على بعض، وقد خلَعوا خَشَن ثيابهم، ومرقوعات قَبَاطِيهم ودرانيكهم^(٦). فيدوم حالهم حتى يتصبَّبوا عرقاً. وقوَالهم يحركون فتورهم، ويَزْمِرون روحهم، يخرجون بهم من قول إلى آخر، ويصلون الشيء بمثله، فربما أخذت نوبة رقصهم بطرفي الليل التمام، ولا تزال المشيعة لهم يدعونهم، ويحاجونهم إلى منازلهم، وربما استدعاهم السلطان إلى قصره مُحَمَّضاً في لطائف نعيمه باخشيشانهم، مُبْدِيَا التبرُّك بالوينتهم. ولهم في الشيخ أبي أحمد والد نخلتهم، وشحنة قلوبهم، عصبية له وتقليد بإيثاره، أنفَجَت^(٧) لعقده أيمانهم، وشرط في صحّة دينهم، وارتكبوا في النفور عن سماع المِزمار القَصْبِي المسمّى بالشُّبابة الذي أرخص في حضور الولائم، مع تَفْخِ بَرَّعه العدد الكثير من الجِلَّة الصلحاء القُدوة مرْتَكِباً، حتى ألحقوه بالكبائر الموبقة، وتعدّوا اجتنابه جبلة وكراهة طباعية، فتزوى عند ذكره الوجوه. وثقّتحم عند الاتهام به الدُّور، وتسقط فيما

= ناقة، أي ليس له شيء. لسان العرب (عصب) و(ثغا).

(١) الجَوْف في اصطلاح المغاربة الجهة المقابلة للقبلة، أي الشمال. اللوحة البدرية (ص ٢٢، حاشية ٣).

(٢) أغلب الظن أنه يريد أن يقول إنهم ساروا على طريقة الملتزمين أي المرابطين.

(٣) أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج زاهد مشهور، توفي سنة ٣٠٩ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ١١٨) وفيه ثبت المصادر التي ترجمت له.

(٤) الضرائك: جمع ضريك وهو النسر الذكر. محيط المحيط (ضرك).

(٥) في الأصل: «مريعهم». وهذا مأخوذ من المثل: «اختلط المَزْعِي بالهَمَل». والمَزْعِي: الذي له راع. والهَمَلُ من الإبل: السُدى المتروك ليلاً ونهاراً يرعى بلا راع. محيط المحيط (همل).

(٦) القَبَاطِي: جمع قُبْطية وهي ثياب بيض رفاق من كتان تُنسَج بمصر. والدرانيك: جمع دِرْنَك وهي الطنفسة. محيط المحيط (قبط) و(درك).

(٧) أنفَجَه: أثاره. محيط المحيط (نفج).

بينهم بقلته سماعه أخوة الطريق. وهم أهل سذاجة وسلامة، أولو اقتصاد في ملبس وطعمة واقتيات بأدنى بُلغة، ولهم في التعصب نزعة خارجية^(١)، وأعظمهم ما بين مُكتسب مُتسبب؛ وبين معالج مدرة، ومُريع حياكة، وبين أظهرهم من الذعرة والصعاليك كثير، والطُرق إلى الله عدد أنفاس الخلائق، جعلنا الله ممن قُبل سعيه، وارتضى ما عنده، ويسره لليسرى.

حاله: قام هذا الرجل مقام الشيخ أبي تمام قريه على هيئة مهلكه، فسد مسده، على حال فتور وغرارة، حتى لآن من الخطة، وخف عليه بالمران ثقل الوظيفة، فأم وخطب، وقاد الجماعة من أهل الإرادة. وقضى في الأمور الشرعية بالرَبَض، تحت ضَبْن^(٢) قاضي الجماعة، وهو الآن بعده على حاله، حسن السجية، ديث الأخلاق، لئن العريكة، سهل الجانب، مقترن الصدق والعفة، ظاهر الجدة، محمود الطريقة، تطاه أقدام الكُلف، وتطرح به المطارح القاصية، حوى على الشفاعات، مستور الكفاية في لفق الضعف، متوالي شعلة الإدراك في جبر الغفلة، وجه من وجوه الحضرة في الجمهورية، مرعي الجانب، مخفف الوظائف، مقصوداً من مُتنامي^(٣) أهل طريقه بالهدايا، مُستدعى إلى من بالجهات منهم في كثير من الفصول، ظاهر الجدوى في نفي الجهاد، رحمه الله، ونفع بأهل الخير.

مولده: عام تسعة وسبعمئة.

وفاته: يوم الاثنين التاسع والعشرين لرمضان خمسة وستين وسبعمئة.

جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونة الخزاعي^(٤)

من أهل شرق الأندلس، من نظر دانية، يكنى أبا أحمد، الولي الشهير.

حاله: كان^(٥) أحد الأعلام المنقطعي^(٦) القرين في طريق كتاب الله، وأولي الهداية الحقّة، فذّ، شهير، شائع الخلّة، كثير الأتباع، بعيد الصيت، توجب حقه حتى الأمم الدائنة بغير دين الإسلام، عند التغلب على قرية مدفنه بما يقضى منه بالعجب.

(١) النزعة الخارجية: نسبة إلى مذهب الخوارج.

(٢) الضَبْن: ما بين الكُشْح والإِنْط. محيط المحيط (ضبن).

(٣) متامر هذه الطريقة: أنصارها الذين يطمنون إليها.

(٤) ترجمة ابن سيد بونة الخزاعي في التكملة (ج ١ ص ١٩٧)، والوافي بالوفيات (ج ١١ ص ١١٠)، ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٥٣، ٣٥٩).

(٥) قارن بنفع الطيب (ج ٣ ص ٣٥٩). (٦) في النفع: «المنقطعين المقرّبين».

قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير عند ذكره في الصلة^(١): أحد أعلام^(٢) المشاهير فضلاً وصلاً، قرأ ببليسية^(٣)، وكان يحفظ نصف «المُدونة» وأقرأها، ويؤثر^(٤) الحديث والتفسير والفقه، على غير ذلك من العلوم.

مشيخته: أخذ^(٥) القراءات السبع عن المقرئ أبي الحسن بن هذيل، وأبي الحسن بن النعمان، ورحل إلى المشرق، فلقي في رحلته جلة، أشهرهم وأكبرهم في باب الزهد وأنواع سني الأحوال، ورفيع المقامات، الشيخ الجليل، الولي لله تعالى، العارف، أبو مدين شعيب^(٦) بن الحسين، المقيم ببجاية، صحبه وانتفع به، ورجع من عنده بمعجائب دينية، ورفيع أحوال إيمانية، وغلبت عليه العبادة، فشهر بها حتى رحل إليه الناس للتبرك بدعائه، والتمن برؤيته ولقائه، فظهرت بركته على القليل والكثير منهم وارتووا زللاً من ذلك العذب الثمير، وحفظه من العلم مع عمله الجليل موفور، وعلمه نور على نور. لقيت قريبه الشيخ أبا تمام غالب بن حسين بن سيدبونة حين ورد غرناطة، فكان يحدث عنه بمعجائب.

دخوله غرناطة: وذكر المعتنون بأخباره بالحضرة إلى طريقه، أنه دخل الحضرة وصلى في رابطة الرُّط من باب^(٧)... وأقام بها أياماً، فلذلك المسجد الميزية عندهم إلى اليوم. وانتقل الكثير من أهله وأذنيه عند تغلب العدو على الشرق على بلدهم، إلى هذه الحضرة، فسكنوا منها رِبَض البيازين، على دين وانقباض وصلاح، فيحتجون بكنوز من أسرارهم، ومبشرات مضمون بها على الناس. وبالحضرة اليوم منهم بقية تقدم الإلماع بذكرهم.

وفاته: توفي، رحمه الله، بالموضع المعروف بزنانة، في شوال سنة أربع وعشرين وستمائة، وقد نيف على الثمانين^(٨).

(١) المراد: صلة الصلة لابن الزبير، وليس الصلة لابن بشكوال.

(٢) في النسخ: «الأعلام».

(٣) في النسخ: «بيلنسية وتفقه، وحفظ نصف...».

(٤) في النسخ: «وكان يؤثر التفسير والحديث والفقه على غيرها».

(٥) قارن بالتكملة (ج ١ ص ١٩٧)، ونفح الطيب (ج ٣ ص ٢٥٣، ٣٥٩).

(٦) شعيب بن الحسين أندلسي تلمساني، من مشاهير الصوفية. توفي بتلمسان سنة ٥٩٤ هـ. الأعلام

(ج ٣ ص ١٦٦) وفيه ثبت بأسماء المصادر التي ترجمت له.

(٧) بياض في الأصل.

(٨) في التكملة: (ج ١ ص ١٩٨): «وتوفي عن سن عالية تقارب المئة...».

الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري

نشأ بقرنطة، يكنى أبا علي، ويُعرف بابن الناظر^(١).

حاله: كان متفتناً في جملة معارف، أخذ من كل علم سناً بحظ وافر، حافظاً للحديث والتفسير، ذاكراً للأدب واللغة والتواريخ، شديد العناية بالعلم، مُكِبّاً على استفادته وإفادته، حَسَنَ اللقاء لطلبة العلم، حريصاً على نفعهم، جميل المشاركة لهم. وقال الأستاذ: كان من بقايا أهل الضبط والإتقان لما رواه، وآخر مُقرئي القرآن، مَعَنَ يعتبر في الأسانيد ومعرفة الطرق والروايات، متقدماً في ذلك على أهل وقته، وهو أوفر مَنْ كان بالأندلس في ذلك. أقرأ القرآن والعربية بقرنطة مدة، ثم انتقل إلى مالقة^(٢) فأقرأ بها يسيراً، ثم انقبض عن الإقراء، وبقي خطيباً بقصبة مالقة نحواً من خمس^(٣) وعشرين سنة، ثم كُرِّ منتقلاً إلى قرنطة^(٤)، فولِّي قضاء المِريّة، ثم قضاء بسطة، ثم قضاء مالقة.

وصمته: قال الأستاذ: إلا أنه كان فيه خُلُقٌ أخْلَتْ به، وحملته على إعداء ما ليس من شأنه، عفا الله عنه، فكان ذلك مما يزهد فيه.

مشيخته: روى عن الأستاذ المقرئ أبي محمد عبد الله بن حسين الكواب، أخذ عنه قراءة السبع وغير ذلك، وعن أبي علي وأبي الحسن بن سهل بن مالك الأزدي، وأبي عبد الله محمد بن يحيى، المعروف بالحلبى، وجماعة غير هؤلاء، ورحل إلى إشبيلية فروى بها عن الشيخ الأستاذ أبي علي^(٥) أكثر كتاب سيبويه تفقهاً، وغير ذلك. وأخذ عن جماعة كثيرة من أهلها، وقَدِمَ عليها. إذ ذاك القاضي أبو القاسم بن بَقِيّ، فلقبه بها وأخذ عنه، ورحل إلى بَلَنَسِيّة، فأخذ بها عن الحاج أبي الحسن بن خيرة، وأبي الربيع بن سالم، وسمع عليه جملةً صالحه، كأبي عامر بن يزيد بن أبي العطاء بن يزيد وغيرهم، وبجزيرة شُقُر عن أبي بكر بن وضاح، وبمُرْسِيّة

(١) ترجمة ابن الناظر في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٦٢ - ١٦٣).

(٢) في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٦٣) أنه ارتحل عن قرنطة لغرض عَنَ له بها؛ فلم يُفَضَّ، فأنف من ذلك، فاستقر بمالقة.

(٣) في الأصل: «خمس» وهو خطأ نحوي.

(٤) يذكر النباهي في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٦٣) أن ابن الناظر فرَّ من مالقة إلى قرنطة لتغيير كان سببه فتنة الخلاف بها.

(٥) هو أبو علي الشلويني كما جاء في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٦٣).

عن جماعة من أهلها، وبأوربولة عن أبي الحسن بن بقي، وبمالقة عن آخرين، وتحصل له جماعة تيفوا على الستين.

تصانيفه: منها المسلسلات، والأربعون حديثاً، والترشيد في صناعة التجويد، وبرنامج رواياته وهو نبيل.

شعره: كان يقرض شعراً لا يرضى لمثله، ممن برز تبريزه في المعارف.

مولده: يوم الخميس لاثنتي عشرة^(١) ليلة بقيت من شوال سنة خمسين وستمائة.

وفاته: توفي بغرناطة لأربع عشرة^(٢) ليلة حلت من جمادى الآخرة^(٣) سنة تسع وتسعين وستمائة.

الحسن بن محمد بن الحسن النباهي الجذامي^(٤)

من أهل مالقة، يكنى أبا علي.

أوليته: قال القاضي المؤرخ أبو عبد الله بن أبي عسكر فيه: من حُساب مالقة وأعيانها وقضاتها، وهو جد بني الحسن المالقيين، وبيته بيت قضاء وعلم وجلالة، لم يزالوا يرثون ذلك كابراً عن كابر، استقضى جدّه المنصور بن أبي عامر، وكانت له ولأصحابه حكاية مع المنصور.

قال القاضي ابن بياض: أخبرني أبي، قال: اجتمعنا يوماً في متنزه لنا بجهة الناعورة بقرطبة مع المنصور بن أبي عامر في حدائه سنّه، وأوان طلبه، وهو مُرتج مؤمل، ومعنا ابن عمّه عمرو بن عبد الله بن عسكلاجة، والكاتب ابن المرعزي، والفقيه أبو الحسن المالقي، وكانت سفرة فيها طعام، فقال ابن أبي عامر من ذلك الكلام الذي كان يتكلّم به: لا بدّ أن نملك الأندلس، ونحن نضحك منه ومن قوله. ثم قال: يتمنى كل واحد منكم عليّ ما شاء أوليّه؛ فقال عمرو: أتمنى أن تولّيني المدينة، نضرب ظهور الجنّات. وقال ابن المرعزي: وأنا أشتهي الأسفح^(٥)، القضاء في أحكام السوق. وقال أبو الحسن: وأنا أحب هذه، أن تولّيني قضاء مالقة بلدي.

(١) في الأصل: «لاثني عشر» وهو خطأ نحوي.

(٢) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

(٣) في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٦٣): جمادى الأولى.

(٤) ترجمة الحسن بن محمد بن الحسن النباهي في الصلة (ص ٢٢٥).

(٥) الأسفح: الأضلع، والمراد هنا الأرض الأقل عطاء. لسان العرب (سفع).

قال موسى بن غَدْرُون: قال لي: تَمَنَّ أَنْتَ، فَشَقَّقْتُ لِحَيْتِهِ بِيَدِي، واضطربت به وقلت قولاً قبيحاً من قول السفهاء. فلَمَّا مَلَكَ ابْنُ أَبِي عامر الأندلس، وَلَّى ابْنَ عَمِّهِ المدينة، وولَّى ابْنَ المَرْعُزَى أحكام السوق، وولَّى أبا الحسن المالقي قضاء رِيّه، وبلغ كل واحد ما تَمَنَّى، وأخذ مِنِّي مَالاً عَظِيماً أَفْقَرَنِي لِقَبِيحِ قَوْلِي: فَبَيْتُ بَنِي الحَسَنِ شَهِير، وسيأتي من أعلامه ما فيه كفاية.

حاله: قال ابن الزُّبَيْر: كان طالباً نبيلاً من أهل الدين والفضل والنُّهى والنباهة.

نبأته: قال ابن الزُّبَيْر في كتاب نُزْهة البصائر والأبصار: اسْتَقْضِي بغرناطة.

وفاته: توفي سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، ذكره ابن بَشْكُوَال في الصُّلة، وعزف بولايته قضاء غرناطة، وذكره ابن عسْكَر، وتوهم فيه المَلْأَحِي، فقال: هو من أهل البيرة.

حسن بن محمد بن حسن القيسي

من أهل مالقة، يكنى أبا علي، ويُعرَف بالقلنار.

حاله: كان، رحمه الله، بَقِيَّةَ شيوخ الأطباء ببلده، حافظاً للمسائل الطبية، ذاكراً للدواء، فسيح التجربة، طويل المُزاولة، متصرفاً في الأمور التي ترجع إلى صناعة اليدين صدلة وإخراعة، محارباً، مقدوراً عليه في أخرياته، ساذجاً، مخشوشاً، كثير الصحة والسلامة، محفوظ العقيدة، قليل المُصانعة، برياً من التشمّت، يعالج معيشته بيده في صُبابة فلاحه. أخذ صناعة الطب عن أبي الحسن الأركشي^(١)، ومعرفة أعيان النبات عن المُضْخَفِي وسَرَح معه، وارتاد منابت العُشب في صحبته، فكان آخر السحارين بالأندلس، وحاول عمل التُّرياق الفارق بالديار السلطانية عام اثنين وخمسين وسبعمائة مبرزاً في اختيار أجزائه، وإحكام تركيبه، وإقدام على اختبار مرهُوبِ حياته، قتلاً وصَنْجاً وتقريصاً، بما يعجب من إدلاله فيه، وفراسته عليه.

حسن بن محمد بن باصة

يكنى أبا علي، ويُعرَف بالصُّغْلَعْل، رئيس المؤقتين بالمسجد الأعظم من غرناطة، أصله من شرق الأندلس.

(١) نسبة إلى أزكش Arcos de la Frontera؛ وهي حصن بالأندلس على وادي لكه. الروض المعطار (ص ٢٧).

حاله: كان فقيهاً إماماً في علم الحساب والهيئة، أخذ عنه الجلة والنبهاء، قائماً على الأطلال والرخائم والآلات الشعاعية، ماهراً في التعديل، مع التزام السنة، والوقوف عند ما حد العلماء في ذلك، مداوم النظر، ذا مستنبطات ومستدركات وتوالييف، نسيج وحده ورخفة وقته.

وفاته: توفي بفرناطة عام ستة عشر وسبعمائة.

الحسن بن محمد بن علي الأنصاري

من أهل...^(١)، يكنى أبا علي ويعرف بابن كسرى.

حاله: كان متقدماً في حفظ الأدب واللغة، مبرزاً في علم النحو، شاعراً مجيداً، مُمتع المؤانسة، كثير المواساة، حسن الخلق، كريم النفس، مُثِراً^(٢) في نظم الشعر في غير فن، مدح الملوك والرؤساء، مُثِراً للخموم على الظهور، وفي تخامله يقول شعراً ثبت في موضعه.

مشيخته: روى عن أبي بكر بن عبد الله بن ميمون الكندي، وأبي عبد الله الكندي، وأبي الحكم بن هرودس، وأبي عبد الله بن غالب الرضافي.

ممن روى عنه: روى عنه أبو الطاهر أحمد بن علي الهواري السبتي، وأبو عبد الله إبراهيم بن سالم بن صالح بن سالم.

نباهته وإدراكه: من كتاب نزهة البصائر والأبصار، قال القاضي أبو عبد الله بن عسكر: نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي، رحمه الله ما معناه:

قال: حدثني الفقيه الأديب أبو علي، قال: كنت بإشبيلية، وقد قصدتها لبعض الملوك، فبينما أنا أسير في بعض طرقها، لقيت الشيخ أبا العباس، فسلمت عليه، ووقفت معه، وكنت قد ذكر لي أن بها رجلاً من الصالحين، زاهداً، فاضلاً، ينتقد من الشعر في الزهد والرفائق، بيدائع تعجب. وكان بالمغرب قد قصد الهري والنادر، فسألني أبو العباس عن مصيري، فأعلمته بقصدي، فرغب أن يصحبني إليه، حتى أتينا، فرأيناه رجلاً عاقلاً، قاعداً في موضع قدر، فسلمنا عليه، فرد علينا، وسألناه عن قعوده في ذلك الموضع، فقال: أتذكر الدنيا وبيرتها، فزدنا به غبطة؛ ثم استئذناه في ذلك الغرض من كلامه، ففكر ساعة ثم أنشدنا كلاماً قبيحاً، تضمن من القبيح ومن الإقذاع والفواحش ما لا يحل

(١) بياض في الأصل.

(٢) مثراً: مكثرًا. لسان العرب (نر).

سماعه، فقمنا نلّعه، وخجلت من أبي العباس، واعتذرت له. ثم اتفق أن اجتمعنا في مجلس الأمير الذي كنت قد قصدته، فقال أبو العباس: إن أبا علي قد حفظ لبعض الحاضرين شعراً في الزهد، من أعذب الكلام وأحسنه، فسألني الأمير وطلب مني إنشاده، فخجلت ثم تاب إليّ عقلي، فنظمت بيتين، فأنشدتهما إياه وهما:

[المنسرح]

أشهد ألا إله إلا الله محمد المصطفى رسول الله
لا حول للخلق في أمورهم إنما الحول كله لله
قال: فأعجب الأمير ذلك واستحسنه.

ومن مقاماته بين يدي الملوك وبعض حاله، نقلت من خط صاحبنا الفقيه القاضي أبي الحسن بن أبي الحسن، قال: المروي منسوب إلى قرية بقرب مالقة، وهو الذي قال فيه الشيخ أبو الحجاج بن الشيخ رضي الله عنه: [المجث]

إذا سَمِعْتَ مَنْ أَسْرَى ومن إلى المسجد أَسْرَى
فَقُلْ وَلَا تَتَوَقَّفْ أبا علي ابن كَسْرَى

قال: وهو قريب الأستاذ الأديب أبي علي الإشتيجي ومعلمه، وأحد طلبة الأستاذ أبي القاسم السهيلي، وممن نبح صغيراً، وارتحل إلى غرناطة ومُرسية. وهو الذي أنشد في طفولته السيد أبا إسحق بإشبيلية: [الكامل]

قسماً بِحِمَصٍ^(١) وإنه لعظيم وهى المقام وأنث إبراهيم

وكان بالحضرة أبو القاسم السهيلي، فقام عند إتمامه القصيدة، وقال: لمثل هذا أخيبك الحسا، وأواصل في تعليمك الإصباح والإمسا، وكان يوماً مشهوداً.

وأنشد الأمير أبا يعقوب حين حلها: [الطويل]

أَمْعَشَرُ أَهْلِ الْأَرْضِ فِي الطُّولِ وَالْعَرْضِ بهذا استنادي في القيامة والعرض
لَقَدْ قَالَ فِيكَ اللَّهُ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ فيقضني بحكم الله فيك بلا نقض
وَإِيَّاكَ يُغْنَى ذُو الْجَلَالِ بِقَوْلِهِ كذلك مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ

وذكره ابن الزبير، وابن عبد الملك، وابن عسكر، وغيرهم.

ومن شعره في معنى الانقطاع وانتسليم إلى الله تعالى، وهي لزومية، ولنختم بها، ختم الله لنا بالحسن: [الطويل]

إلهي أنت الله رُكني وملجئي وما لي إلى خَلْقٍ سواك رُكونُ
رأيتُ بني الأيام عُقبى سكونهم جِراكُ وفي عُقبى الجِراكِ سكونُ
رَضَى بالذي قَدَّرْتَ تسليمَ عالمٍ بأنَّ الذي لا بدُّ منه يكونُ
وفاته: توفي بمدينة مالقة في حدود ثلاث وستمئة.

الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي

يكنى أبا علي، مُزيي الأصل، سَبَّيُّ الاستيطان، مُتَمِّمٌ إلى صاحب الثورة على المعتمد^(١).

حاله: كان نسيج وحده، وفريد دهره، إتقاناً ومعرفة، ومشاركة في كثير من الفنون اللسانية والتعاليمية، متبحراً في التاريخ، رياناً من الأدب، شاعراً مُفْلِحاً، عجيب الاستنباط، قادراً على الاختراع والأوضاع، جَهِمَ المحبِّين، مُوجَّشَ الشكل، يضمُّ بُزْداه طويلاً لا كفاء له، تحرَّفَ بالعدالة، وبرَزَ بمدينة سَبَّنة، وكتب عن أميرها، وجرت بينه وبين الأديب أبي الحَكَم مالك بن المُرحَّل من المُلاحات والمهارات أشدَّ ما يَجْري بين متناقضين، آلت به إلى الحكاية الشهيرة، وذلك أنه نظم قصيدة نصّها: [الكامل]

لكلاب سَبَّنة في النِّباح مداركُ وأشدُّها دَرْكاً لذلك مالِكُ^(٢)
شيخُ تفانى في البطالة عُمره وأحال فُكَّيه الكلامُ الآفكُ
كَلَبَ له في كلِّ عِرْضٍ عَضَّة ويكلُّ مُخَصَّنةً لسانَ آفكُ
مُتَهَمُّمٌ^(٣) بذوي الخنا مُتَزَمِّعٌ متهازلٌ بذوي الثَّقَى متضاحكُ
أحلى شمائله السُّبابُ المُفْتري وأعفُ سيرته الهجاء الماعكُ
والدُّ شيءٌ عنده في محفلٍ لَمَرٌ لأستار المحافلِ هاتكُ

(١) صاحب الثورة على المعتمد بن عباد، صاحب إشبيلية، هو عبد الله بن رشيق، الذي قام على المعتمد بمرسية - إذ كانت مرسية آنذاك تابعة لمملكة إشبيلية وكان عليها ابن عمار من قبل المعتمد - فاستقل بها ابن رشيق وطرده منها ابن عمار، ودعا إلى نفسه. ابن بلقين: مذكرات الأمير عبد الله (ص ١١٠ - ١١١)، والمعجب (ص ١٩٢)، ومملكة غرناطة (ص ٢١١ - ٢١٢).

(٢) هو أبو الحكم مالك بن المُرحَّل، الذي تقدَّم اسمه.

(٣) في الأصل: «متهم» وكذا لا يستقيم الوزن والمعنى معاً.

يَغْشَى مَخَاطِرَهُ الثَّيْمُ تَفَكُّهَا
 لو أن شخصًا يستحيلُ كلامُهُ
 فكأنه التماسح يقذف جوفهُ
 أنفاسُهُ وفُساؤُهُ من عنصر
 ما ضرفا من معدِّ الله^(٢)
 في شعره من جاهلية طَبْعِهِ
 صدر وقافية تعارضتا معًا
 قد عَمَّ أهل الأرض بِلَعْنِهِ
 ولاغْجَبُ العَجَبِينَ أن كلامه
 إن سام مَكْرُمَةً جثا متثاقلاً
 ويدبُّ في جُنْحِ الظلام إلى الخنا
 تَبَدُّ الوقار لصَبِيَّةٍ يَهْجُونَهُ
 يُبْدي لهم سَوَاتِهِ ليسوءهم
 والدهر باكٍ لانقلاب صروفه
 واللسنُ تَنْصَحُهُ بأفصح منطق
 تُبِّ يا ابن تسعين فقد جُزَّتِ المدا
 أو ما ترى من حافديك نشابها
 هيّهات أئنة عِشْرَةِ لَهْجَتِ بِهِ
 يا ابن المُرْخُل لو شهدت مُرْخَلاً
 وطريدُ لوم لا يحلُّ بِمَغْشَرِ
 مركوبٍ لهو لجاجة وركاكة
 لرأيتَ لِلْعَيْنِ اللثيمة سَحَّةً
 وشغُلْتُ عن ذم الأنام بشاغل
 قسماً بَمَنْ سَمَكَ السماء مكانها
 لأقول للمغرور منك بشيبة
 لا تأمنن للذئب دفع مضرة

ويعاف رؤيته الحليمُ الناسكُ
 حُرَّةً^(١) لَلْأَكْ الحُرَّة منه لائِكُ
 من فيه ما فيه ولا يتماسك
 وسُعَالُهُ وضُراطُهُ متشاركُ
 لو أَسْلَمْتُهُ نواجذَ وضواجِكُ
 أثقالُ أرضٍ لم ينلها فاتكُ
 في بيت عَنَسٍ أو بعُرسٍ فاركُ
 فللأعنية في السماء ملائِكُ
 لخلاله مِسْكُ بروح ورامِكُ
 يَرْغُو كما يرغو البعير البارِكُ
 عَذْوًا كما يعدو الظليم الراتِكُ
 فسياله فرشٌ لهم وأرائِكُ
 بمسالك لا يَرْضِيها سالكُ
 ظَهَرَ لَبَطْنٍ وَهُوَ لاهِ ضاحِكُ
 لو كان ينجو بالتصبيحة هالكُ
 وارتاح لِلْقِيَا بِسَنِّكَ مالِكُ
 ابنُ يضاجع جَدَّهُ وُئناسِكُ
 هَنَوات مملوك وطبيع مالِكُ
 وقد انحنى بِالرُّخْلِ منه الحارِكُ
 إلَّا أَمالَ قَفاه صَفْعُ دالِكُ
 وأراك من ذاك اللجاج البارِكُ
 وعلا بِصَفْعِ عَزْكَ أذُنكَ عارِكُ
 وتَنَّاكَ خَصَمٌ من أبيك مُماحِكُ
 ولديه نفس رداً نَفْسِكَ شائِكُ
 بيضاء طيَّ الصُّحُفِ منها حالِكُ
 فالذئبُ إن أعفَيْتَهُ بك فاتِكُ

(١) الحُرَّة: القُدرة، والغائط. القاموس المحيط (خرا).

(٢) صدر هذا البيت لا يستقيم وزنه ولا معناه.

عازَّ على المليك المُتَزَّه أن يرى في مثل هذا للملوك مسالكُ
فكلامه للذَّين سُمُّ قاتل ودنؤه للعرض داءُ ناهكُ
فعليه ثم على الذي يُضغى له ونِلَّ يعاجله وحشْفٌ واشكُ
وأناه من مشواه آتٍ مُجهزٌ لَدَمَ الخناجر بالخناجر سافكُ

وهي طويلة، تشتمل من التعريض والصريح على كل غريب، واتخذ لها كِنانة خشبية كأوعية الكتب، وكتب عليها: «رقاص مُعَجَّل، إلى مالك بن المُرَحَّل». وعمد إلى كلب، وجعلها في عنقه، وأوجعه خبطاً حتى لا يأوي إلى أحد، ولا يستقر، وطرده بالزقاق متكتماً بذلك. وذهب الكلب وخلفه من الناس أمة، وقرىء مكتوب الكِنانة، واحتُمِلَ إلى أبي الحكم، ونُزِعَت من عنق الكلب، ودُفِعَت إليه، فوقف منها على كل فاقرة^(١) كَفَّت من طُمَاحه، وغَضَّت عن عِنان مُجاراته، وتُحَدَّثُ بها مدة، ولم يَغِب عنه أنها من حَيْل ابن رشيْق، فعَوَّق سهام المُراجعة، ثم أقصر مَكْبُوحاً، وفي أجوبته عن ذلك يقول: [المتقارب]

كَلابُ المزابِلِ آذِنَنِي بأبوالهِنُّ على باب داري
وقد كُنْتُ أُوْجِعُها بالعِصا ولكن عَوْتُ من وراء الجدارِ

واستدعاه بآخرة أمير المغرب السلطان أبو يعقوب، فاستكتبه، واستكتب أبا الحكم صَدَقَةً، فيقال إنه جرَّ عليه خَنْجَلَةٌ كانت سبب وفاة أبي علي. ودخل الأندلس، وخطَّ بها بالمرئية، وقد أُصِيب بأسر عِياله، فتوسَّلَ إلى واليها من قرابة السلطان الغالب بالله، بشعر مدحه فيه من قصيدة أولها: [الكامل]

مُلَقِي النوى مُلَقٍ لِبعضِ نوالِكا فاشفِ المُجِبُّ ولو بِطَيِّفِ خيالِكا
ومنها:

لا تحسبني من فلانٍ أو فلانٍ أنا من رجالِ الله ثم رجالِكا
ومنها:

نصب العدو حبالاً لحبائبي وعَلِقتُ في استخلاصها بحبالِكا
وفي خاتمتها:

وكفاك شرَّ العين عيبٌ واحد لا عيب فيه سوى فلولِ نصالِكا

(١) القافرة: الداهية التي تكسر الفقار، والجمع فواقر. محيط المحيط (نفر).

ولحق بغرناطة، ومدح السلطان بها، ونجحت لديه مشاركة الرئيس بالمرية. فجز الله حاله، وخلص أسره.

ومما جمع فيه بين نثره ونظمه ما كتبه لما كتب إليه الأديب الطبيب صالح بن شريف بهاتين القصيدتين اللتين تنازع فيهما الأقوام، واتفقوا على أن يحكم بينهما الأحلام، وعبر عن ذلك الأقلام، ولينظرهما من تشوق إليهما بغير هذا الموضع.

تواليفه: وأوضاعه غريبة، واختراعاته عجيبة، تعرفت أنه اخترع في سفرة الشطرنج شكلاً مستديراً. وله الكتاب الكبير في التاريخ، والتلخيص المسمى بـ «ميزان العمل» وهو من أطرف الموضوعات، وأحسنها شهرة.

وفاته: كان حياً عام أربعة وسبعين وستمائة.

حبوس بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي^(١)

يكنى أبا مسعود، ملك البيرة وغرناطة؛ وما والاها.

حاله وأوليته: أما أوليته، فقد مر ذلك بما فيه كفاية عند ذكر بلكين. ولما دخل زاوي بن زيري على الأندلس غب إيقاعه بالمرتضى الذي نصبت الجماعة، واستيلائه على محلته بظاهر غرناطة، خاف^(٢) تمالؤ الأندلس عليه، ونظر للمعاقبة، فأسند الأمر إلى ابن أخيه، حبوس بن ماكسن، وكان بحصن آش^(٣)، فلما ركب البحر من المنكب، وودعه به زعيم البلدة وكبير فقهاءها أبو عبد الله بن أبي رمنين، ذهب إلى ابن أخيه المذكور واستقدمه، وجرت بينه وبين ابن عمه المتخلف على غرناطة من قبل والده، محاوراة انجلت عن رحيله تبعاً لأبيه؛ حبوس، فاستبد بالملك، ورأب الصدع سنة إحدى^(٤) عشرة وأربعمائة. قال ابن عذاري في تاريخه^(٥): فانحازت^(٦) صنهاجة مع شيخهم ورئيسهم حبوس بن ماكسن، وقد كان أخوه حباسة هلك في

(١) ترجمة حبوس في المغرب (ج ٢ ص ١٩٤)، والمختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ١٩٨)، وثمة المختصر في أخبار البشر (ج ٢ ص ٨)، وصح الأعشى (ج ٥ ص ٢٤٢)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩)، وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٤٦) (م ٦ ص ٣٦٩). وهناك دراسة مفصلة عنه في كتاب مملكة غرناطة في عهد بني زيري (ص ١٠٥) فلتنظر.

(٢) في الأصل: «وخاف».

(٣) في الأصل: «أشتر»، وقد صوّناه من مذكرات الأمير عبد الله (ص ١٩) حيث حدّد موقع حصن آش في الغرب، وهو بالإسبانية Iznajar.

(٤) في الأصل: «أحد عشر» وهو خطأ نحوي. (٥) البيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٤).

(٦) في البيان المغرب: «وانحاز».

الفتنة، وبقي منهم معه بعد انصراف زاوي إلى إفريقية، جماعة عظيمة، فانحازوا إلى مدينة غرناطة، وأقام حبوس بها مُلْكًا عظيمًا، وحامى^(١) رعيته ممن جاوره من سائر البرابرة^(٢) المنتشرين حوله، فدامت رئاسته.

وفاته: توفي بغرناطة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة^(٣).

الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ابن معاوية^(٤)

صفته وحاله: كان أضهب العين، أسمر، أفتى، مُعَسِّل اللحية، جهير الصوت، طويل الضلَب، قصير الساقين، عظيم الساعد، أفصم، وكان ملكًا^(٥) جليلاً، عظيم الضيعة، رفيع القدر، عالي الهمة، فقيهاً بالمذهب، عالماً بالأنساب، حافظاً للتاريخ، جماعاً للكتب، مُجِبًّا في العلم والعلماء، مُشِيرًا للرجال من كل بلد، جمع العلماء من كل قطر، ولم يكن في بني أمية أعظم همة، ولا أجل رتبة في العلم وغوامض الفنون منه. واشتهر بهمته بالجهاد، وتُحَدَّث بصدقائه في المخلول، وأملته الجبايرة والملوك.

دخوله إلى البيرة: قال ابن الفياض: كُتِبَ إليه من الثغر الجنوبي أن عظيم الفِرْنَجَة من النصارى حشدوا إليه وسألوه الممرة^(٦) بطول المحاصرة، فاحتسب شخوصه بنفسه إلى ألمرية في رجب سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، في جحفل لجب من نجدة الأولياء وأهل المراتب. ولما أحلَّ إلى البيرة ورد عليه كتاب أحمد بن يغلى من طرطوشة بنصر الله العزيز وصنعه الكريم على الزوم. ووافى ألمرية، وأشرف على أمورها، ونظر إلى أسطولها وجده، وعُدَّتْ يومئذ ثلاثمائة قطعة، وانصرف إلى قرطبة.

(١) في البيان المغرب: «وحمى».

(٢) في البيان المغرب: «سائر الأمراء المنتزين حوله...».

(٣) تقدّم في «فصل فيمن تداول هذه المدينة» أن حبوس بن ماكسن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

(٤) ترجمة الحكم بن عبد الرحمن، المعروف بالمستنصر في جذوة المقتبس (ص ١٣)، وبيعة الملتبس (ص ١٨)، والحلة السيرة (ج ١ ص ٢٠٠)، والمغرب (ج ١ ص ١٨٦)، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٢٣٢)، ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٦٥)، ورسائل ابن حزم الأندلسي (ج ٢ ص ١٩٤)، وجمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠).

(٥) كان المستنصر خليفة وليس ملكًا، حكم الأندلس من سنة ٣٥٠ هـ إلى سنة ٣٦٦ هـ.

(٦) الممرة: الاستمرار.

مولده: لستُ بقين من جُمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثمائة.

وفاته: لأربع^(١) خلون من صَفَر سنة ست وستين وثلاثمائة، وعمره نحو من ثلاث وستين سنة، وهو خاتمة العظماء من بني أمية.

الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام
ابن عبد الملك بن مروان بن أمية^(٢)

كنيته أبو العاصي.

صفته: آدم، شديد الأذمة^(٣)، طويل، أشم، نحيف، لم يَخْضِبْ. بثوه تسعة عشر من الذكور، منهم عبد الرحمن ولي عهده.

بناته: إحدى وعشرون^(٤)، أمه أم ولد اسمها زُخْرُف.

وزرائه وقواده: خمسة، منهم إسحاق بن المنذر، والعباس بن عبد الله، وعبد الكريم بن عبد الواحد، وقُطَيْس بن سليمان، وسعيد بن حسان.

قضائته: مُضْعَب بن عمران، وعمر^(٥) بن بشر، والفرج بن كنانة. وبشر بن قُطْن، وعبد^(٦) الله بن موسى، ومحمد بن تَلِيد، وحامد بن محمد بن يحيى.

كتابه: قُطَيْس بن سليمان، وعِطَاف^(٧) بن زيد، وحجاج بن العُقَيْلي^(٨).

حاجبه: عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث.

حاله: كان الحكم شديد الحزم، ماضي العزم، ذا صولة تُتْقَى. وكان حسن التدبير في سلطانه، وتولية أهل الفضل، والعدل في رعيته، مبسوط اليد بالعتاء الكثير، وكان فصيحًا، بليغًا، شاعرًا مُجِيدًا، أدبيًا، نحويًا.

(١) في الحلة السيرة (ج ١ ص ٢٠٠): «وتوفي لليتين خلنا من صفر...».

(٢) ترجمة الحكم بن هشام، المعروف بالحكم الرضي، في جذوة المقتبس (ص ١٠)، وبغية الملتبس (ص ١٤)، والحلة السيرة (ج ١ ص ٤٣)، والبيان المغرب (ج ٢ ص ٦٨)، والمغرب (ج ١ ص ٢٨)، ونفح الطيب (ج ١ ص ٣٢٦)، ورسائل ابن حزم الأندلسي (ج ٢ ص ١٩٢)، وجمهرة أنساب العرب (ص ٩٧).

(٣) الأذمة: السمرة. محيط المحيط (آدم).

(٤) في المغرب (ج ١ ص ٢٨) أنهم ثلاثون.

(٥) في البيان المغرب: «ومحمد بن بشر».

(٦) في المصدر نفسه: «وعبد الله بن موسى».

(٧) في المصدر نفسه: «وخطاب بن زيد».

(٨) في المصدر نفسه: «وحجاج العقيلي».

قال ابن عذاري^(١): كانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاعاً^(٢)، مبسوط اليد، عظيم العفو، وكان يُسلطُ قضاياه وحُكَّامه على نفسه، فضلاً عن ولده وخاصته. وهو الذي جَرَتْ على يده الفَتْكَةُ العظيمةُ بأهل رِيض قُرْطُبَة^(٣)، الذين هاجوا به وهتفوا بخُلَعانِه، فأظهره الله عليهم، في حَبَرٍ شهير. وهو الذي أوقع بأهل طُلَيْطَلَة أيضاً، فأبادهم بحيلة الدُّعاء إلى الطعام بما هو معلوم.

دخوله غرناطة: قالوا: وبالبيرة وأحوازها تلاقى مع عمه أبي أيوب سليمان بن عبد الرحمن، فهزمه وقتله حسبما ثبت في اسم أبي أيوب.

شعره: قالوا: وكان له خمس جَوَارٍ قد استخْلَصَهُنَّ لنفسه، وملَكَهُنَّ أمره، فذهب يوماً إلى الدخول عليهن، فتأبين عليه، وأعرضن عنه، وكان لا يصبر عنهن، فقال^(٤): [البسيط]

قُضِبَ من البان ماسَتْ فوق كُثبانٍ وَلَيْتَ^(٥) عَنِّي وقد أزمَعَن هِجراني
ناشدَتْهُنَّ بحَقِّي فاعْتَزَمَنَ على الـ حصيان^(٦) حتى خلا منهنَّ هُمَياني
مَلَكْنَنِي مِلْكٌ مَن دَلَّتْ عَزِيمَتُهُ لَلْحُبِّ ذُلُّ أَسِيرٍ مُوثِقٍ عَائِي
مَن لِي بِمُعْتَصَبَاتِ^(٧) الرُّوحِ من بَذَنِي يَغْصِبُنِي في الهوى عِزِّي وسُلْطاني

ثم عَطَفَنَ عليه بالِوِصالِ فقال^(٨): [الخفيف]

نِلْتُ كلَّ^(٩) الوِصالِ بَعْدَ البِعادِ فكأني مَلَكْتُ كلَّ العِبادِ
وتَنَاهَى السُرورُ إذ نِلْتُ ما لم يُغْنِ عَنْهُ تَكائُفُ الأَجْنادِ

(١) البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٩).

(٢) في البيان المغرب: «كان شجاع النفس، باسط الكف».

(٣) لذلك سُمِّيَ بالحكم الرِّبضي، والمراد الرِّبض الغربي من العاصمة قرطبة، وهو محلُّه بها. معجم البلدان (ج ٣ ص ٢٦). وخبر ثورة الرِّبضي أولاً سنة ١٨٩ هـ وثانيًا سنة ٢٠٢ هـ. البيان المغرب (ج ٢ ص ٧١، ٧٥)، وتاريخ افتتاح الأندلس (ص ٦٨ - ٦٩)، والحلة السيرة (ج ١ ص ٤٤ - ٤٧)، ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٢٧).

(٤) الأبيات في البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٩)، والحلة السيرة (ج ١ ص ٥٠)، ونفع الطيب (ج ١ ص ٣٣٠).

(٥) في البيان المغرب: «أعْرَضَنَ». (٦) في المصدر نفسه: «الهجران».

(٧) في نفع الطيب: «بِمُعْتَصَبَاتِ». (٨) البيتان في البيان المغرب (ج ٢ ص ٧٩).

(٩) كلمة «كل» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من البيان المغرب.

مناقبه: أنهى^(١) إليه عباس بن ناصح وقد عاد من الثغر أن امرأة من ناحية وادي الحجارة سمعها تقول: واغوثاه، يا حَكَم، ضيَعْتَنَا، وأَسْلَمْتَنَا، واشتغَلَتْ عَنَّا، حتى استأَسَدَ العدوُّ علينا، وَرُفِعَ إليه شعر في هذا المعنى والغرض، فخرج من قَرْطَبَة كَاتِمًا وَجْهَتَهُ، وَأَوْعَلَ في بلاد الشُّرْكَ، ففتح الحصون، وهدم المنازل، وقتل وسبى^(٢)، وقفل بالغنائم على الناحية التي فيها تلك المرأة، فأمر لأهل تلك الناحية بمال من الغنائم يَفْدُون به أسراهم^(٣)، وَيُصَلِّحُونَ به أحوالهم، وخصَّ المرأة وآثرها، وأعطاهَا عددًا من الأسرى، وقال لها: هل أغائكِ الحَكَم؟ قالت: إي والله، أغائنا وما غَفَلَ عَنَّا، أعانهُ الله وأعزَّ نصره.

وفاته: توفي لأربع بقين لذي الحجة سنة ست ومائتين، وكان عمره اثنتين^(٤) وخمسين سنة. وجرى ذكره في الرجز من نظمي في تاريخ دول الإسلام^(٥) بما نصه:

[الرجز]

حتى إذا الدهر عليه احتكما	قام بها ابنه المسمى حَكَمًا
واشتشعرَ الثورة فيها وانقبض	مستوحشًا كاللئيم ألقى وذبض
حتى إذا قُرِصَتْهُ لاحت تفيض	فأفحش الوقعة في أهل الرِّبَض
وكان جَبَّارًا بعيدَ الهِئمة	لم يَزَعْ من آل بها أو ذُمَّة

حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري

من أهل غرناطة، يُكنى أبا العاصي.

حاله: كان من قرائها ونُبهاها، وكان من أهل الفضل والطلب، وإليه يُنسب مسجد أبي العاصي، وحمام أبي العاصي ودربه بغرناطة، وكفى بذلك دليلًا على الأصالة والتأصل. ذكره أبو القاسم ولم يذكر من أمره مزيدًا على ذلك.

(١) قارن بالبيان المغرب (ج ٢ ص ٧٣).

(٢) في البيان المغرب: «وقتل كثيرًا، وأسر كذلك».

(٣) في المصدر نفسه: «سبأياهم».

(٤) في الأصل: «اثنين» وهو خطأ نحوي.

(٥) هو كتاب «رقم الحلل في نظم الدول».

حاتم بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله
ابن سعيد بن الحسين بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك
ابن سعيد بن عمّار بن ياسر^(١)

أولّيته: قد مرّ بعض ذلك، وسيأتي بحول الله.

حاله: قال أبو الحسن بن سعيد في كتابه الموضوع في مآثر القلعة^(٢): كان صاحب سيف وقلم وعلم، ودخل في الفتنة المردنشيّة^(٣)، حسبما مرّ ذلك عند ذكر أخيه أبي جعفر، فصار من جلساء الأمير أبي عبد الله محمد بن سعد بن مردنّيش بمرسية، وأرباب آرائه، وذوي الخاصّة من وزرائه، وكان مشهورًا بالفروسية والشجاعة والرأي.

حكاياته ونوادره: قال: كان التّنبير والهزل قد غلبا عليه، وعُرف بذلك، فصار يُحمّل منه ما لا يُحمّل من غيره. قالوا: فحضر يومًا مع الأمير محمد بن سعد، يوم الجلاب^(٤) من حروبه، وقد صبر الأمير صبرًا جميلًا. وإلى الكرّ المرأة بعد المرة. وذلك بمرأى من حاتم؛ فردّ رأسه إليه، وقال: يا قائدًا أبا الكرم، كيف رأيت؟ فقال له حاتم: لو رآك السلطان اليوم لزاد في مرتّبك، فضحك ابن مردنّيش، وعلم أنه أراد بذلك: لا تليق به المخاطرة، وإنما هو للتّثبات والتّدير. وقال له يومًا وقد جرى ذكر الجّثات: جئن اليوم يا أبا الكرم على بستانك بالزّنقات. وأردت أن أكون من ضيافتك، فقال عبد الرحمن بن عبد الملك، وهو إذ ذاك وزير الأمير ويده المجابي والأعمال: لعل الأمير اغتَرّ بسماع اسمه حاتم، ما فيه من الكرم إلّا الاسم، فقال الحاتم: ولعلّ الأمير اغتَرّ بسماع أمانة عبد الرحمن، فقدّمه على وزرائه، وما عنده من الأمانة إلّا الاسم، فقال ابن مردنّيش وقد ضحك: الأولى فهمت، ولم أفهم الثانية، فقال له كاتبه أبو محمد السلمي: إنما أشار إلى قول رسول الله، ﷺ، في عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنه، أمير هذه الأمة، وأمين في أهل السماء، وأمين في أهل الأرض؛ فطرب ابن مردنّيش، وجعل يقول: أحسنتما.

(١) ترجمة حاتم بن سعيد في المغرب (ج ٢ ص ١٦٨)، ونفع الطيب (ج ٥ ص ٤٧).

(٢) هي قلعة بني سعيد، المسماة «بحصب»، والكتاب هو «الطالع السعيد»، في تاريخ بني سعيد.

(٣) هي فتنة محمد بن سعد بن مردنّيش.

(٤) فحص الجلاب: مكان على عشرة أميال من مرسية، وفيه وقعت المعركة بين قوات الموحدين وابن مردنّيش. تاريخ المن بالإمامة (ص ٢٧٩). وقد تحدّث ابن عذاري عن هذه المعركة دون أن يسمّيها. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٨٨).

شعره: قال أبو الحسن: ولم أحفظ من شعر حاتم ما أورده في هذا المكان إلا قوله يخاطب حفصة الرُّكُونِيَّة الشاعرة، التي يأتي ذكرها، حين فرّ إلى مرسية، وتركها بغرناطة: [الوافر]

أَجِنُّ إِلَى دِيَارِكَ يَا حَيَاتِي وَأَبْصِرْ ذُو وَهْدٍ سِيلَ الطُّبَاتِ^(١)
وَأَهْوَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْكَ لَكِنْ خَفُوقُ الْبُنْدِ^(٢) عَاقَ عَنِ الْقَنَاتِ
وَكَيْفَ إِلَى جَنَابِكَ مِنْ سَبِيلٍ وَلَيْسَ يُجِلُّهُ إِلَّا عُدَاتِي!

مولده: في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وقال أبو القاسم الغافقي فيه عند ذكره: كان طالبًا نبهًا، جميلًا، سريًا، تامّ المروءة، جميل العشرة.
وفاته: قال: مات بغرناطة سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة^(٣).

حُباسة بن ماكسن بن زيري بن مناد الصنهاجي^(٤)

كان شهيمًا هيّبا، بُهمةً من البُهم، كريمًا في قومه، أبيًا في نفسه، صَدْرًا من صدور صنهاجة؛ وكان أشجع من أخيه حُبوس.

وفاته: قال أبو مروان^(٥) عند ذكر وقعة «رمداي» بطرف قرطبة في حروب البرابرة لأهلها في شوال عام اثنين وأربعمائة، قال^(٦): «استلَحِمَ حُباسة بن ماكسن الصنهاجي ابن أخِي زاوي بن زيري، وهو فارس صنهاجة طُرًّا وفتاها؛ وكان قد تقدّم إلى هذه الناحية، زعموا لَمَّا بلغه اشتداد الأمر فيها، فرمى بنفسه على طُلُوبها، واتفق أن ركب بسرج طَرِيّ العمل مُتَفَتِّحَ اللَّبْدِ، وخانه مقعده عند المجاورة، لتقلبه على الصُّهوة؛ وقيل إنه كان مُتَبَدِّلاً على ذلك، فطارج على مَنْ بإزائه، ومضى قُدَمًا بِسَكْرَى

(١) كذا ورد عجز البيت منكسر الوزن، وغير مفهوم المعنى. والطُّبَات: جمع طُبة وهي خَد السيف. محيط المحيط (طبو).

(٢) الْبُنْد: العلم الكبير، فارسي معرّب، والجمع بنود. محيط المحيط (بند).

(٣) في النسخ (ج ٥ ص ٤٧): «توفي بغرناطة سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة».

(٤) حكم حُباسة غرناطة من سنة ٤١٠ هـ إلى سنة ٤٢٩ هـ، وترجمة حُباسة بن ماكسن في المغرب (ج ٢ ص ١٠٧)، والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٦٢، ٢٦٤)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩)، واللمحة البدرية (ص ٣١) واسمه في كل المصادر: «حُبوس» مكان «حُباسة». وفي كتاب مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، للدكتورة مريم قاسم دراسة وافية عنه (ص ١٠٥ - ١١٧) فلتنظر.

(٥) هو المؤرخ أبو مروان بن حيان.

(٦) قارن بالبيان المغرب (ج ٣ ص ١١١ - ١١٢)، وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٢٩). والنص في كتاب «المتين» لابن حيان.

شجاعته ونشوته، يصفاح البيوت بصفحته، ويستقبل القنا بلباته، لا يعرض له شيء إلا حطه، إلى أن مال به سرجه، فأتبع جمائه لاشتغاله بذلك، بطعنة من يد المسمى التبيه النصراني، أحد فرسان الموالي العامريين؛ فسقط لفيه، وانتظمت رماح الموالي فأبادته؛ وحامى أخوه حبوس، وبنو عمه، وغيرهم من أنجاد البرابرة على جثته، فلم يقدروا على استنقاذها بعد جلاذ طويل، وغلب عليه الموالي فاحتزوا رأسه، وعجلوا به إلى قصر السلطان، وأسلموا جسده للعامة؛ فركبوه بكل عزيمة، واجتمعوا إليه اجتماع البُغاث على كبير الصُقورة، فجزّوه في الطرق وطاقوا به الأسواق، وقطعوا بعض أعضائه، وأبدوا شواره وكبده بكل مكروه من أنواع الأذى، بأعظم ما رُكب ميت، فلمّا سئموا تجاراه، أوقدوا له نارا فحرقوه بها جريا على ذميم عاداتهم، في قُبْح المثلة، ولُؤْم القُدرة. وانجلت الحروب في هذا اليوم لمُصابه، عن أمر عظيم، وبلغ من جميع البرابرة الحزن عليه مناله، ورأت أن دماء أهل قُرْطبة جميعا لا تعدله. من الكتاب «المتين».

حبيب بن محمد بن حبيب

من أهل النَّجَش^(١)، من وادي المنصورة^(٢) أخوه مالك النَّجَشِي، دباب الحَلَقَات، ومراد أذنان المقرّبين.

حاله: كان على سجيّة غريبة من الانقباض المشوب بالاسترسال، والأمانة مع الحاجة، بادي الزُّي واللسان، يحفظ الغريب من اللغة، ويحرّك شعرا لا غاية وراءه في الرُّكاكة، وله قيام على الفقه وحفظ القرآن، ونَعْمَةٌ حسنة عند التلاوة. قَدِمَ الحضرة غير ما مرة وكان الأستاذ، إمام الجماعة، وسيبويه الصناعة، أبو عبد الله بن الفخّار، المعروف بالبيري، أبا مثواه ومحطّ طيّته، يطلب منه مشاركته بباب السلطان في جراية يرغب في تسميتها، وحال يروم إصلاحها، فقصدني مُضْحِباً منه رقعة تتضمن الشُّفاعة، وعرض عليّ قصيدة من شعره يروم إيصالها إلى السلطان، فراجعت الأستاذ برقعة أثبتتها على جهة الإحماض وهي:

«يا سيدي الذي أشرف، وبالاتماء إلى معارفه أتميّز، وصل إليّ عميدُ حصن النجش، وناهض أفراخ ذلك العُشّ، تلوح عليه مخايل أخيه المسمى بمالك، وبترجّج به الحكم في الغاية في أمثال تلك المسالك، أشبه من الغراب بالغراب، وإنها لمن

(١) هو حصن النجش، كما سيرد بعد قليل.

(٢) ذكره ابن سعيد وقال: نهر المنصور، مشهور بالحسن، لما عليه من الحصون والضياع. المغرب (ج ٢ ص ٨١، ٨٤).

عجائب الماء والتراب، فألقى من ثنائكم الذي أوجبته السيادة والأبوة، ما يقصر عن طيب الألو، وتخجل عند مشاهدته الغرر المجلوة، وليست بأولي بر أسديتم، ومكرمة أعدتم وأبديتم، والحسنات وإن كانت فهي إليكم منسوبة، وفي أياديكم محسوبة، ويلوث من الرجل طلعة ثقفة، لم يغادر من صفات النبل صفة، حاضر بمسائل من الغريب، وقعد مقعد الذكي الأريب. وعرض علي حاجته وغرضه، وطلب مني المشاركة، وهي مني لأمثاله مفترضة، ووعدني بإيقافي على قصيدة خبرها، وأنسى بالخبر خبرها، وياكرني بها اليوم مباركة الساقى بدهاقه، وعرضها علي عرض التاجر نفائس أعلاقه، وطلب مني أن أهذب له ما أمكن من معانيها وألفاظها، وأجلو القذى عن الحافظها، فنظرت منها إلى روض كثرت أنغابه، وجيش من الكلام زاحم خواصه أو شابه، وزمت الإصلاح ما استطعت، فعجزت عن ذلك وانقطعت، ورأيت لا جدوى إلى ذلك الغرض، ما لم تبدل الأرض غير الأرض. وهذا الفن، أبقى الله سيدي، ما لم يمت إلى الإجابة بسبب وثيق، وينتمي في الإحسان إلى مجد عريق، وكان رفضه أحسن وأحمد، وأطراحة بالفائدة أغود، وإذا اعتبره من عدل وقسط، وجده طريقين لا يقبل الوسط، فمنهما مال يقتنى ويدخر، وسافل يهزأ به ويسخر، والوسط ثقيل لا يتلبس به نبيل. قيل لبعضهم: ألا تقول الشعر؟ فقال: أريد منه ما لا يتأتى لي، ويتأتى لي منه ما لا أريده. وقال بعضهم: فلان كمعن وسط لا يجيد فيطرب، ولا يسيء فيسلي. فاقترض نظرهم الذي لا يفارق السداد والتوفيق، وإرشادكم الذي رافقه الهدى ونعم الرفيق، أن يشير عليه بالاستغناء عن رفعها، والامتناع عن دفعها، فهو أقوى لأمته^(١)، وأبقى على سكنته وسمته، وأستر لما لديه، قبل أن يمد أبو حنيفة رجله، وإن أصمت عن هذا العذل مسامعه، وهفت به إلى النجاح مطامعه، فليعتمد على الاختصار، فذو الإكثار جثم العثار، وليعدل إلى الجادة عن ثنيات الطرق، ويجتريء عن القلادة بما أحاط بالعنق، فإذا رتبها وهذبها، وأوردها من مراد العبارة أغذبها، توليت زفافها وإهداءها، وأمنطت بين يدي الكفوء الكريم رداءها، والسلام.

حمدة بنت زياد المكثب^(٢)

من ساكني وادي الحمّة بقرية بادي من وادي آش.

(١) الأمت: المكان المرتفع، والمراد مكانه. محيط المحيط (أمت).

(٢) ترجمتها في المطرب (ص ١١)، ورايات المبرزين (ص ١٦٧)، والمغرب (ج ٢ ص ١٤٥)، وفوات الوفيات (ج ١ ص ٣٩٤)، والذيل والتكملة (السفر الثامن، القسم الأول ص ٤٨٥)، =

حالتها: قال أبو القاسم: نبيلة، شاعرة، كاتبة؛ ومن شعرها وهو مشهور^(١):

[الوافر]

أَبَاحُ الدُّمْعِ أَسْرَارِي بِوَادِي لَهُ فِي الْحُسْنِ^(٢) آثَارُ بِوَادِي
فَمَنْ نَهَرُ^(٣) يَطُوفُ بِكُلِّ رَوْضٍ وَمَنْ رَوْضٍ يَطُوفُ بِكُلِّ وَادِي
وَمَنْ بَيْنَ الظُّبَاءِ مَهَاءُ^(٤) إِنْسٍ سَبَتْ لُبِّي وَقَدْ سَلَبْتُ فَوَادِي^(٥)
لَهَا لَحْظٌ تَرَقَّدُهُ لِأَمْرِ وَذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادِي
إِذَا سَدَلْتُ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الْبَدْرَ فِي جُنْحِ السَّوَادِ^(٦)
كَأَنَّ الصُّبْحَ مَاتَ لَهُ شَقِيقُ فَمَنْ حُزْنٍ تَسْرِبَلُ فِي الْجِدَادِ^(٧)
وَمَنْ غَرَائِبُهَا^(٨): [الطويل]

وَلَمَّا أَبَى الْوَاشُونَ إِلَّا قَتَالَنَا وَمَا لَهُمْ عِنْدِي وَعِنْدَكَ مِنْ ثَارِ^(٩)

- = والمقتضب في كتاب تحفة القادم (ص ٢١٤)، والتكملة (ج ٤ ص ٢٦١) وفيه أنها حمزة، وبغية الملتبس (ص ٥٤٦)، ونفع الطيب (ج ٦ ص ٦٢).
- (١) الأبيات في المغرب (ج ٢ ص ١٤٦) ورايات المبرزين (ص ١٦٧) وفوات الوفيات (ج ١ ص ٣٩٥) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢١٤) والتكملة (ج ٤ ص ٢٦١) والمطرب (ص ١١) منسوبة إلى الوادي أشية دون تعيين الاسم، ونفع الطيب (ج ٦ ص ٦٢) وبغية الملتبس (ص ٥٤٦) والذيل والتكملة (السفر الثامن - القسم الأول ص ٤٨٥).
- (٢) في المقتضب: «أَبَاحُ الدَّهْرِ... بِهِ لِلْحُسْنِ...». وفي المطرب والتكملة والذيل والتكملة: «بِهِ لِلْحُسْنِ». وفي فوات الوفيات ونفع الطيب: «لَهُ لِلْحُسْنِ».
- (٣) في المقتضب: «فَمَنْ وَادٍ يَطُوفُ...». وفي النفع: «يَرْفُ» بدل «يطوف».
- (٤) في الأصل: «وَمَنْ بَنَى الظُّبَاءَ مَهَاءُ^(٤) إِنْسٍ...». وهكذا ينكسر الوزن. وفي المقتضب والتكملة وفوات الوفيات والذيل والتكملة: «... مَهَاءَ زَمَلٍ سَبَتْ عَقْلِي...». وفي المغرب: «... مَهَاءَ رَمَلٍ تَبَدُّثَ لِي... قِيَادِي». وفي النفع: «مَلَكْتُ» بدل «سَلَبْتُ».
- (٥) في الأصل: «السَّوَادِي». وفي المقتضب: «ذَوَائِبُهَا عَلَيْهِ كَمَثَلِ الْبَدْرِ فِي الظُّلَمِ الدَّادِي». وفي المطرب: «... رَأَيْتَ الصُّبْحَ أَشْرَقَ فِي الدَّادِي». وفي النفع: «أَفَقُ» بدل «جُنْحُ». وفي التكملة والذيل والتكملة وفوات الوفيات: «الدَّادِي» بدل «السَّوَادِ».
- (٦) في الأصل: «فِي الْحَدَادِي». وفي المقتضب: «تَخَالَ الصُّبْحُ مَاتَ لَهُ خَلِيلُ فَمَنْ...». وفي المطرب: «تَخَالَ الْبَدْرُ مَاتَ لَهُ خَلِيلُ فَمَنْ...». وفي الفوات والتكملة والذيل والتكملة والنفع: «... تَسْرِبَلُ بِالْحَدَادِ».
- (٧) الأبيات في رايات المبرزين (ص ١٦٨) والمغرب (ج ٢ ص ١٤٦) وفوات الوفيات (ج ١ ص ٣٩٥) ونفع الطيب (ج ٦ ص ٦٢).
- (٨) في الرايات وفوات الوفيات والمغرب ونفع الطيب: «فَرَأَانَا» بدل «قَتَالَنَا». وفي الرايات: وليس لهم «بدل»: «وَمَا لَهُمْ».

وَشْتُوا عَلَى آذَانِنَا^(١) كُلَّ غَارَةٍ وَقَلَّتْ حُمَاتِي عِنْدَ ذَاكَ وَأَنْصَارِي
رَمَيْتُهُمْ^(٢) مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأَذْمَعِي وَمِنْ نَفْسِي بِالسَّيْفِ وَالسَّيْلِ وَالنَّارِ

وقال أبو الحسن بن سعيد في حَفْصَة وأختها زينب^(٣): شاعرتان، أدبيتان، من أهل الجمال، والمال، والمعارف والصُّون، إلَّا أن حُبَّ الأدب كان يَحْمِلُهُمَا عَلَى مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهة موثقة بها.

حَفْصَة بنت الحاج الرُّكُونِي^(٤)

من أهل غرناطة، فريدة الزمان في الحسن، والظُّرف، والأدب، واللُّوْذَعِيَّة؛ قال أبو القاسم: كانت أديبة، نبيلة، جيِّدة البديهة، سريعة الشعر.

بعض أخبارها: قال الوزير أبو بكر بن يحيى بن محمد بن عمر الهَمْدَانِي: رَغِبْتُ أُخْتِي إِلَى حَفْصَة أَنْ تَكْتُبَ شَيْئًا بِخَطِّهَا فَكَتَبَتْ^(٥): [البسيط]

يَا رَبَّةَ الْحُسْنِ، بَلْ يَا رَبَّةَ الْكَرَمِ غَضَّيْ جُفُونَكَ عَمَّا خَطَّه قَلَمِي^(٦)
تَصَفِّحْ بِهِ بِلَحْظِ الْوُدِّ مُنْعَمَةً لَا تَحْفَلِي بِقَبِيحِ^(٧) الْخَطِّ وَالْكَلِمِ

قال أبو الحسن بن سعيد، وقد ذكر أنهما باتا بخَوْز مُؤَمِّل^(٨) في جَنَّةٍ لَهُ هُنَالِكَ عَلَى مَا يَبِيْتُ عَلَيْهِ أَهْلُ الظُّرْفِ وَالْأَدَبِ، قَالَ^(٩): [الطويل]

(١) في المغرب وفوات الوفيات والنفح: «وَشْتُوا عَلَى أَسْمَاعِنَا... وَقَلَّتْ حُمَاتِي...» وفي الرايات: «وَشْتُوا عَلَى أَسْمَاعِنَا...».

(٢) في المغرب وفوات الوفيات والنفح: «غَزَوْتُهُمْ». وفي الرايات: «غَزَوْتُهُمْ مِنْ نَاطِرِيكَ وَأَذْمَعِي...».

(٣) هذا النص لم يرد لا في المغرب ولا في رايات المبرزين، برغم أن فيها، كما مر، ترجمة وشعر لحفصة المترجم لها.

(٤) ترجمة حفصة في المغرب (ج ٢ ص ١٣٨) ورايات المبرزين (ص ١٦١) والتكملة (ج ٤ ص ٢٦٠) والمقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢١٩) ومعجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٢٨) والمطرب (ص ١٠) ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٩٢) و(ج ٥ ص ٣٠٩). والركوني: نسبة إلى ركانة، وهي بالإسبانية Requena، وهي مدينة من عمل بلنسية بالأندلس. معجم البلدان (ج ٣ ص ٦٣) ونصوص عن الأندلس (ص ١١، ١٤١). وجعلها ابن عذاري قرية من عمل طليطلة. البيان المغرب (ج ٢ ص ٥٨).

(٥) البيتان في نفح الطيب (ج ٥ ص ٣١٤). (٦) في الأصل: «القلم» والتصويب عن النفح.

(٧) في النفح: «بردي».

(٨) تقدم الحديث عن خوز مؤمل في فصل «ذكر ما ينسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التي نزلتها العرب بخارج غرناطة».

(٩) الحكاية وأبيات أبي جعفر بن سعيد اللامية وأبيات حفصة الدالية في رايات المبرزين=

رَعَى اللهُ لَيْلًا لَمْ يُرَغْ بِمُدْمَمٍ رَعَانَا وَوَارَانَا بِخَوَزٍ مُؤْمَلٍ^(١)
 وَقَدْ تَفَحَّتْ^(٢) مِنْ نَخْوِ نَجْدٍ أَرِيَجَةٌ^(٣) إِذَا تَفَحَّتْ هَبَّتْ بَرِيحٌ^(٤) الْقَرْنُفَلِ
 وَغَرَدَ قُمْرِيٌّ عَلَى الدُّوْحِ وَائْتَشَنَى قُضِيبٌ مِنَ الرِّيحَانِ^(٥) مِنْ فَوْقِ جَدُولِ
 يَرَى^(٦) الرُّؤُوسَ مَسْرُورًا بِمَا قَدْ بَدَأَ لَهُ: عَنَاقَ وَضَمَّ وَارْتِشَافَ مُقْبِلِ

فَقَالَتْ: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا سَرَّ الرِّيَاضَ وَصَالُنَا^(٧) وَلَكِنَّهُ أَبْدَى لَنَا الْغِلَّ وَالْحَسَدَ
 وَلَا صَفَّقَ النَّهْرُ ارْتِيَاخًا لِقُرْبِنَا وَلَا صَدَحَ^(٨) الْقُمْرِيُّ إِلَّا لِمَا وَجَدَ^(٩)
 فَلَا تُحْسِنِ^(١٠) الظَّنَّ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ فَمَا هُوَ فِي كُلِّ الْمَوَاطِنِ بِالرُّشْدِ
 فَمَا خِلْتُ هَذَا الْأَفَقَّ أَبْدَى نُجُومَهُ لِأَمْرِ سِوَى كَيْ مَا تَكُونُ^(١١) لَنَا رَصْدُ

قال أبو الحسن بن سعيد: وبالله ما أبدع ما كتبت به إليه وقد بلغها أنه علق بجارية سوداء أسعث له من بعض القصور، فاعتكف معها أيامًا وليالي، بظاهر غرناطة، في ظلّ ممدود، وطيب هوى مقصور وممدود^(١٢): [مخلع البسيط]

يَا أَظَرَفَ النَّاسِ قَبْلَ حَالِ أَوْقَعَهُ نَخْوَهُ^(١٣) الْقَدَزِ
 عَشِشْتُ سُدَاءَ مِثْلَ لَيْلِ بَدَائِعِ الْحُسْنِ قَدْ سَتَرَ

= (ص ١٦٢ - ١٦٣) ومعجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٢٩) ونفح الطيب (ج ٤ ص ١٩٢).

(١) في رايات المبرزين ومعجم البلدان: «... بمذمم عشية واراناً بحوز...». وفي النفح: «بمذمم عشية واراناً بحوز...».

(٢) في الرايات ومعجم الأدباء والنفح: «وقد خفقت».

(٣) في الأصل: «أريجه»، والتصويب من الرايات والنفح.

(٤) في الرايات والنفح: «بريًا». وفي معجم الأدباء: «... جاءت بريًا...».

(٥) في الأصل: «ريحان» وهكذا ينكسر الوزن، وقد صوّناها من الرايات ومعجم البلدان والنفح.

(٦) في الرايات والنفح: «ترى».

(٧) في الرايات ومعجم الأدباء والنفح: «بوصلنا».

(٨) في الأصل: «مدح» والتصويب من الرايات والنفح. وفي المعجم: «غرد».

(٩) في الرايات: «وما صفق... بقربنا...» إلا بما وجد. والقمرى: نوع من الحمام.

(١٠) في الأصل: «فلا تحسبن...» وهكذا ينكسر الوزن. والتصويب من الرايات ومعجم الأدباء والنفح.

(١١) في الأصل: «يكون» والتصويب من الرايات والنفح، وهكذا يكون الضمير عائداً إلى النجوم، وهو أفضل للسياق.

(١٢) أبيات حفصة وجواب ابن سعيد لها في معجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٢٩ - ٢٣٠).

(١٣) في المعجم: «وسطه».

لا يَظْهَرُ الْبِشْرُ فِي دُجَاهَا كَلَّا وَلَا يُبْصِرُ الْخَفَرُ
بِاللهِ قُلْ لِي وَأَنْتَ أَذْرَى بِكُلِّ مَنْ هَامَ فِي الصُّورِ
مَنْ الَّذِي هَامَ فِي جِنَانٍ^(١) لَا تُورِ^(٢) فِيهِ وَلَا زَهْرُ؟

فكتب إليها بأظرف اعتذار، والطف أنوار: [مخلع البسيط]

لَا حُكْمَ إِلَّا لِأَمْرِ نَاهٍ لَهُ مِنَ الذَّنْبِ يُغْتَذَرُ^(٣)
لَهُ مُحِبًّا بِهِ حَيَاتِي أُعِيدُ مَجْلَاهُ^(٤) بِالسُّورِ
كَضَخْوَةٍ^(٥) الْعِيدِ فِي ابْتِهَاجِ وَطَلْعَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
بِسَغْدِهِ^(٦) لَمْ أَمِلْ إِلَيْهِ إِلَّا أَطْرَاقًا^(٧) لَهُ خَبَرِ
عَدِمْتُ صُبْحِي فَأَسْوَدُ عِشْقِي^(٨) وَانْعَكَسَ الْفِكْرُ وَالنُّظَرُ
إِنْ لَمْ تَلُحْ يَا نَعِيمَ رَوْحِي فَكَيْفَ لَا تَفْسُدُ الْفِكْرُ؟

قال: وبلغنا أنه خلا مع حاتم وغيره من أقاربهم، لهم طرب ولَهْو، فمرّت على الباب مُسْتَرَةً، وأعطيت البوّاب بطاقةً فيها مكتوب^(٩): [الخفيف]

زَائِرٌ قَدْ أَتَى بِجَيْدِ غَزَالٍ طَامِعٌ مِنْ مُجِيبِهِ بِالْوِصَالِ^(١٠)
أَتْرَاكُمْ بِإِذْنِكُمْ مُسْعِفِيهِ أَمْ لَكُمْ شَاغِلٌ مِنَ الْأَشْغَالِ؟^(١١)

فلما وصلت الرقعة إليه، قال: وربّ الكعبة، ما صاحب هذه الرقعة إلا الرقعة حفصة؛ ثم طلبت فلم تُوجد، فكتب إليها راغبًا في الوصال والأنس

(١) رواية صدر البيت في معجم الأدباء هي:

مَنْ الَّذِي حَبَّ قَبْلُ رَوْحًا

(٢) في الأصل: «نوّار» وهكذا ينكسر الوزن، وقد صوّناه من معجم الأدباء.

(٣) رواية البيت في الأصل هي:

لَا حُكْمَ إِلَّا لِأَمْرِ نَاهٍ لَهُ مِنْ ذَنْبِهِ مَعْتَذِرُ

وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من معجم الأدباء.

(٤) في الأصل: «ملاه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من معجم الأدباء.

(٥) في الأصل: «كصخرة»، وقد صوّناه من المعجم لأنه هكذا يتلاءم والسياق.

(٦) في الأصل: «سَعْدُهُ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من معجم الأدباء.

(٧) في معجم الأدباء: «طريقًا».

(٨) كذا في معجم الأدباء، وفي كلا الحالتين ينكسر وزن صدر البيت.

(٩) البيتان في معجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٣٠ - ٢٣١) ونفح الطيب (ج ٥ ص ٣١٦).

(١٠) في نفح الطيب: «... الغزالو مُطْلِعٌ تَحْتَ جُحْنِهِ لِلْهَلَالِ».

(١١) رواية البيت في النفح هي:

مَا نَرَى فِي دُخُولِهِ بَعْدَ إِذْنٍ أَوْ تَرَاهُ لِعَارِضٍ فِي انْفِصَالِ

الموصول^(١): [الخفيف]

أَيُّ شُغْلٍ عَنِ الْحَبِيبِ^(٢) يَعْزُوقُ يَا صَبَاحًا^(٣) قَدْ آنَ مِنْهُ الشُّرُوقُ
 صِلْ وَوَاوِلْ فَأَنْتَ أَشْهَى إِلَيْنَا مِنْ جَمِيعِ^(٤) الْمُنَى فَكَمْ ذَا نَشُوقُ
 بِحَيَاةِ الرُّضَى يَطِيبُ صَبُوحُ عَرَفْنَا إِنْ جَفَوْنَا أَوْ عَبُوقُ^(٥)
 لَا وَدُلَّ الْهَوَى^(٦) وَعِزُّ التَّلَاقِ وَاجْتِمَاعِ إِلَيْهِ عَزُّ الطَّرِيقِ

وذكرها الأستاذ في «صلته»، فقال: وكانت أستاذة وقتها، وانتهت إلى أن علمت النساء في دار المنصور؛ وسألها يوماً أن تُشده ارتجالاً فقالت^(٧):
 [المجتث]

أَمْنُنْ عَلَيَّ بِصَّكَ^(٨) يَكُونُ لِلدَّفْرِ^(٩) عُذَّةُ
 تَخُطُّ يَمْنَاكَ فِيهِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَخُدَّةُ^(١٠)

قال: فَمَنْ عليها، وحُرِّز لها ما كان لها من ملك.

وفاتها: قالوا: توفيت بحضرة مراكش في آخر سنة ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمائة^(١١).

(١) الأبيات في معجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٣١). (٢) في المعجم: «المُحِب».

(٣) في الأصل: «يا صاحبًا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من معجم الأدباء.

(٤) في المعجم: «الذيد».

(٥) رواية البيت في المعجم هي:

لَا وَحُبِّيكَ لَا يَطِيبُ صَبُوحُ غَيْبٌ عَنْهُ وَلَا يَطِيبُ عَبُوقُ
 والصبح: خمر الصباح، والقُبُوق: خمر العشي.

(٦) في المعجم: «الجفا».

(٧) البيتان في رايات المبرزين (ص ١٦٢) والمغرب (ج ٢ ص ١٣٨) والمقتضب من كتاب تحفة

القادم (ص ٢١٩) ومعجم الأدباء (ج ٣ ص ٢٢٨) والتكملة (ج ٤ ص ٢٦١) ونفع الطيب (ج

٥ ص ٣٠٩). وقبل البيتين بيت آخر ورد في المقتضب ونفع الطيب وهو:

يَا سَيِّدَ النَّاسِ يَا مَنْ يُؤْمَلُ النَّاسُ بِرُفْدَةِ

(٨) في الرايات والمغرب ومعجم الأدباء والنفع: «بِطَرَس».

(٩) في المغرب: «في الدهر».

(١٠) في التكملة: «والحمد» بدل «الحمد». ورواية البيت في المقتضب هي:

خَطَّتْ بِمِثْلِكَ فِيهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَخُدَّةُ

وعجز البيت هو العلامة السلطانية عند الموحدين، كما جاء في نفع الطيب.

(١١) جاء في معجم الأدباء أنها توفيت سنة ست وثمانين وخمسمائة.

الخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية^(١)

من أهل غرناطة، يكنى أبا القاسم.

حاله: من كتاب «عائد الصلة»^(٢): كان، رحمه الله، صَدْرًا من صدور القضاة، من أهل النظر والتقيد، والعُكوف على الطُّلب، مضطلعًا^(٣) بالمسائل، مسائل الأحكام؛ مهتديًا^(٤) لمظنَّات النُّصوص، نسخ بيده الكثير، وقِيْد على الكثير من المسائل، حتى عُرفَ فضله، واستشاره الناس^(٥) في المشكلات. وكان بصيرًا بعقْد الشروط، ظريف الخطاب^(٦)، بارع الأدب، شاعرًا مُكثِرًا، مُصَيِّبًا غرض الإجابة. وتصرَّف في الكتابة السلطانية، ثم في القضاء، وانتقل في الولايات الرفيعة النُّبيلة. وجرى ذكره في «التَّاج المُحَلَّى» بما نصَّه^(٧):

«فارس في ميدان البيان، وليس الخبر كالعيان؛ وحاملُ لواء الإحسان، لأهل هذا الشَّان»^(٨)؛ رَفُل في حُلل^(٩) البدائع فسحب أذيالها، وشَغَشَعَ أكواس^(١٠) العجائب فأدار جريالها^(١١)، واقتحم على الفحول^(١٢) أغيالها^(١٣)، وطَمَح إلى الغاية البعيدة فنالها، وتَذَوَّكَرَت المُعضلات^(١٤) فقال: أنا لها. عكف واجتهد، وبرز إلى مُقارعة المُشكلات ونَهَد، فعَلِم وحَصَلَ، وبلغ الغاية وتوصل؛ وتولَّى القضاء، فاضطلع بأحكام الشُّرع، وبرع في معرفة الأصل والفرع، وتميَّز في المسائل بطول الباع، وسَعَة الذَّراع؛ فأصبح صَدْرًا في مضره، وغُرَّة في صفحة عصره. وسيمرُّ في بديع كلامه، وهنَّات^(١٥) أقلامه، وغُرر إبداعه، ودُرر اختراعه، ما يستنير^(١٦) لعلم الحليم، وتُلقي له البلغاء يد التسليم».

- (١) ترجمة الخضر بن أحمد في تاريخ قضاء الأندلس (ص ١٨٦) والكتيبة الكامنة (ص ١٧٧) ونيل الابتهاج طبعة فاس (ص ٩٣).
- (٢) قارن بتاريخ قضاء الأندلس (ص ١٨٦).
- (٣) في تاريخ قضاء الأندلس: «مضطلعًا بنوازل الأحكام».
- (٤) في المصدر نفسه: «مهتديًا لاستخراج غرائب النصوص».
- (٥) في المصدر نفسه: «القضاة».
- (٦) في المصدر نفسه: «ظريف الخط».
- (٧) قارن بالكتيبة الكامنة (ص ١٧٧ - ١٧٨). (٨) في الكتيبة: «هذا اللسان».
- (٩) في الكتيبة: «سحائب».
- (١٠) في الكتيبة: «أكؤس».
- (١١) في الأصل: «جريا لها» والتصويب من الكتيبة. والجريال: الخمر.
- (١٢) في الأصل: «الليوث».
- (١٣) الأغيال: الأجماط.
- (١٤) في الكتيبة: «المخترعات».
- (١٥) المراد بهنَّات أقلامه: الكتابة السريعة العابرة.
- (١٦) في الكتيبة: «وشعره يستفز حلم الحليم، ويلقي له فرسانُ المجال أيدي التسليم».

شعره: قال في غرض الحكمة والأمثال^(١): [الكامل]

عز^(٢) الهوى تُفصانُ والرأي الذي
فلذا رأيت الرأي يتبع الهوى
وكيف تخاف من الحليم مُداجيًا^(٤)
واحذر مُعادة الرجال توقيًا
فالناس^(٦) إما جاهل لا يشقي
أو عاقل يزمي بسهم مكيدة
فاخلم عن القسمين تسلم منهما
ودع المُعادة^(٨) التي من شأنها
أبت المغالبة الوداد فلا تكن
وإذا مُنيت بقربه^(١١) فاخفض جنا
إن الغريب لكالفضيض مُحابر^(١٣)
وازع^(١٤) الكيف ولا تجاوز حده
وابسط يدك متى غنيت ولا تكن
وإذا بذلت فلا تُسلز إن ذا الـ
وعف الورود إذا تزاحم مودة
واضح كريم الأصل ذا فضل فمن
فالفصل من ليس الكرام فمن عرى

يُججيك منه، إذا ارتأيت مَرُوما^(٣)
خالف وفاقهما تُعد حكيما
خف من نصيحك ذي^(٥) السفاهة شوما
منهم ظلوما كنت أو مظلوما
عازا ولا يخشى العقوبة لوما
كالقوس تُرسل سهمها مسموما
وتسذ فتدعى سيدا وحليما^(٧)
أن لا تُديم على الصفاء قديما^(٩)
ممن يُغالَب ما حيت نديما^(١٠)
ح^(١٢) الذل واخضع ظاعنا ومقيما
إن لم يمل للريح عاد رميما
ما بغده يخني عليك هُوما
فيما^(١٥) يكون به المديح دميما
تبذير يومئذ أخوه رجيمما^(١٦)
واحسب ورود الماء منه حميما
يضحَب لثيم الأصل عد لثيما
عنه فليس لما^(١٧) يقول كريما

(١) القصيدة في الكنية الكامنة (ص ١٧٨ - ١٧٩).

(٢) في الكنية: «عذ».

(٣) في الكنية: «نوما».

(٤) في الأصل: «مراجيًا» والتصويب من الكنية الكامنة. ومداجيًا: مداريًا؛ يقال: داجاه إذا داراه وواطاه كأنه سائر به العداوة. محيط المحيط (دجا).

(٥) في الكنية: «في السفاهة».

(٦) في الكنية: «والناس».

(٧) في المصدر نفسه: «وحكيما».

(٨) في المصدر نفسه: «المماراة».

(٩) في المصدر نفسه: «نديما».

(١٠) في الكنية: «حليما».

(١١) في الكنية: «بغرة».

(١٢) في الأصل: «فاخفض له جناح... وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكنية.

(١٣) في الكنية: «نحبرًا».

(١٤) في المصدر نفسه: «وانع».

(١٥) في المصدر نفسه: «فمن».

(١٦) في المصدر نفسه: «التبذير مثل أخيه كان رجيمًا».

(١٧) في المصدر نفسه: «كما يقال».

(إِنَّ الْمَقَارَنَ بِالْمَقَارِنِ يَفْتَنَدِي)^(١) مَثَلُ جَرَى جَزِي الرِّيحِ قَدِيمَا
وَجَمَاعُ كُلِّ الْخَيْرِ فِي الثَّقْوَى فَلَا تَغْدَمُ حُلَى الثَّقْوَى تُعَدُّ عَدِيمَا

وقال يصف الشَّيْبَ من قصيدة، وهي طويلة؛ أولها^(٢): [الكامل]

لاح الصَّبَاحُ، صَبَاحُ شَيْبِ الْمَفْرُوقِ
هِيَ شَيْبَةُ الْإِسْلَامِ فَاقْدِرْ قَدْرَهَا
خَطَّتْ بِمَقُودِكَ أَيْضًا فِي أَسْوَدِ
كَالْبَرْقِ رَاغَ بَسِيفِهِ^(٤) طَرْفَ الدُّجَى
كَالْفَجْرِ يُزِيلُ فِي الدُّجْنَةِ خِيَطَهُ
كَالْمَاءِ يَسْتُرُهُ بِقَعْرِ^(٥) طُحْلُبِ
كَالْحَيَّةِ الرَّقْشَاءِ إِلَّا أَنَّهُ
كَالنَّجْمِ عُدَّ لَرَجَمِ شَيْطَانِ الصَّبَا
كَالزُّهْرِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَسْتَنْبِمْ^(٦)
كَتَبَسُمُ الزَّنْجِيِّ إِلَّا أَنَّهُ
وَكَذَا الْبَيَاضُ قَذَى الْعَيُونِ وَلَا تَرَى
مَا لِلْقَوَانِي وَهُوَ لَوْ خَدُودَهَا
وَأَخْلَتْهُ لَمَعَ السُّيُوفُ وَمَنْ يَشْمُ
هُوَ لَيْسَ ذَاكَ وَلَا الَّذِي أَنْكَرْتَهُ^(٧)
دَاءٌ يَعْرِزُ عَلَى^(٨) الطَّبِيبِ دَوَاؤُهُ

فَاخِمْذُ سُرَاكُ نَجَوْتُ مِمَّا تَثْقِي
قَدْ أَعْتَقْتُكَ وَحَقُّ قَدْرِ الْمُغْتَبِي
بِالْعَكْسِ مِنْ مَغْهُودِ خَطِّ مُهْرَقِ^(٩)
فَاعَارِ^(١٠) دُهْمَتَهُ شَتَاتِ^(١١) الْأَبْلَقِ
وَيَعْجُرُ^(١٢) ثَوْبَ ضِيَائِهِ بِالشَّرْقِ
فَتَرَاهُ بَيْنَ خِلَالِهِ كَالزُّئْبِقِ
لَا يَنْبَرَأُ الْمَلْسُوعُ مِنْهُ إِذَا رُقِيَ
يَا لَيْتَ شَيْطَانُ الصَّبَا لَمْ يُخْرِقِ
إِلَّا بِغُضْنِ^(١٣) ذَابِلٍ لَمْ يُورِقِ
يُبْكِي الْعَيُونََ بِدَمْعِهِ^(١٤) الْمُتَرْفِقِ
لِلْعَيْنِ أَبْكِي^(١٥) مِنْ بَيَاضِ الْمَفْرُوقِ
يَجْزَعُنْ مِنْ لَأَلَائِهِ الْمُتَأَلِّي
لَمَعَ السُّيُوفُ عَلَى الْمَفَارِقِ يَفْرِقِ
كُنْ^(١٦) خَائِفًا مَا خِيفَنْ مِنْهُ وَاتَّقِ
وَيَضِيعُ خُسْرًا فِيهِ مَالُ الْمُتَنَفِّقِ

(١) هذا من قول عدي بن زيد العبادي، المتوفى سنة ٣٥ ق. هـ: [الطويل]
عن المرو لا تسأل وأبصر قرينه
معجم الشعراء للمرزباني (ص ٢٥٠).

(٢) القصيدة في الكتيبة الكامنة (ص ١٨٠ - ١٨١).

(٣) في الكتيبة الكامنة: «المهرق». والمهرق: الصحيفة.

(٤) في الكتيبة الكامنة: «بسوطه».

(٥) في الكتيبة الكامنة: «فأعاد».

(٦) في الكتيبة الكامنة: «شبات».

(٧) في الكتيبة: «بقاع».

(٨) في الكتيبة: «لغضن».

(٩) في الكتيبة: «أنكى».

(١٠) في الأصل: «نكن» وهكذا ينكسر الوزن. وفي الكتيبة الكامنة: «نكرا فحفا ما...».

(١١) في الكتيبة: «عن».

لكنه والحقُ أصدقُ مَقُولٍ شَيْنُ الْمُسِيءِ الفعلِ زَيْنُ الْمُتَقِي
ومن مقطوعاته قوله^(١): [المقارب]
أَقْلِي فما الْفَقْرُ بالمرءِ عَارٌ^(٢)
وما^(٣) يُكْسِبُ العِزَّ إِلَّا الْغِنَى
وما اجتمعَ الشُّمْلُ في غيره
فَزَهْرَةٌ غيرُكَ لا تُنْظَرِي^(٤)
وهُزِّي إليك بجذعِ الرُّضَى
وقال أيضًا: [المجتث]

العلمُ حُسْنٌ وَزَيْنُ والجَهْلُ قُبْحٌ وَشَيْنُ
والمالُ عِزٌّ وَعَيْنُ والْفَقْرُ ذُلٌّ وَحَيْنُ
والنَّاسُ أَعْضَاءُ جَسْمِ فَمِنْهُمْ أَسْتٌ وَعَيْنُ
هَـذِي مَقَالَةٌ حَقُّ ما في الذي قلتَ مَيْنُ

وقال أيضًا: [الخفيف]

إن أراك الزمانَ وجهاً عُبُوسًا فَسَتَلْقَاهُ بعدَ ذلكَ طَلْقًا^(٥)
لا يهْمُكَ حالُه إنَّ في طُرُ فة عَيْنٍ ترتاح فيه وتَشْقَى
أي عِزٌّ رَأَيْتَ أو أي ذُلٌّ لذوي الحالين في الدهرِ يَبْقَى
سَلْ نجومَ الدَّجَى إذا ما استنارت ما الذي في وقتِ الظُّهيرةِ تَلْقَى
وتفكَّرْ وَقُلْ بغيرِ ارتيابٍ كلُّ شيءٍ يَفْنَى وربُّكَ يَبْقَى

وقال أيضًا^(٦): [الكامل]

لو أنَّ أيامَ الشُّبابِ تعودُ لي عَوْدَ النُّصارَةِ لِلْقُضيبِ المُورِقِ
ما إنَّ بَكَيْتُ على شِبابٍ قد دَوَى وبقيتُ منتظرًا لآخرِ مَوْنِقِ

(١) الأبيات في الكتيبة الكاملة (ص ١٨١). (٢) في الكتيبة: «عاراً».

(٣) في الكتيبة: «ولا».

(٤) في الأصل: «فأثخذ»، وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكتيبة الكاملة.

(٥) في الأصل: «فدهر... تنظرون» وهكذا ينكسر الوزن، ولا معنى له، والتصويب من الكتيبة.

(٦) في الأصل: «... من بعد ذاك طلقاً» وهكذا ينكسر الوزن.

(٧) البيتان في الكتيبة الكاملة (ص ١٨١).

وقال في القلم^(١): [الطويل]

لك القلم الأعلى الذي طال فخره
تعلّم منه الناس^(٢) أبدع حكمة
وإن لم يكن إلا قصيرا مجوفا
فها هو أمضى ما يكون مخروفا

وقال في التشبيه: [البيسط]

كأنما السوسن الغض الذي افتتح
بنان كف فتاة قط ما خضبت
منه كمامة المبيضة اللون
تلقي بها من يراها خيفة العين

وقال يعرض بقوم من بني أرقم: [المتقارب]

إذا ما نزلت بوادي الآشي^(٣)
وكيف السلامة في موطن
فقل رب من لدغه سلم
به عضبة من بني أرقم؟

وقال موريا بالفقه، وهو بديع^(٤): [الخفيف]

لي تين على الليالي قديم
أفاعدى بالحكم بغد عليها^(٥)
ثابت الرسم منذ خمسين حجة^(٦)
أم لها في تقادم الدهر^(٧) حجة؟

ونختم مقطوعاته بقوله^(٨): [الطويل]

نجوت بفضل الله مما أخافه
وما ضغت في الدنيا بغير شفاعه
ولم لا وخير العالمين شفيغ
فكيف إذا كان الشفيغ أضيغ؟

وقال أيضا: [الطويل]

عليك بتقوى الله فيما ترؤمه
ولا تزج غير الله في نيل حاجة
من الأمر تخلص بالمرام وبالأجر
ولا دفع ضر في سرار ولا جهر
فمن أم غير الله أشرك عاجلا
وفارقه إيمانه وهو لا يذري^(٩)

وفاته: توفي قاضيا ببرزجة، وسيق إلى غرناطة، فدفن بباب البيرة عصر يوم الأربعاء آخر يوم من ربيع^(١٠) عام خمسة وأربعين وسبعمئة.

(١) البيتان في الكية الكامنة (ص ١٨٢). (٢) في الكية: «السيف».

(٣) في الأصل: «الآشي» وهكذا ينكسر الوزن. (٤) البيتان في الكية الكامنة (ص ١٨٢).

(٥) الجحفة، بكسر الحاء: السنة.

(٦) في الأصل: «أفاعدًا بالحكم عليها» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الكية الكامنة.

(٧) في الكية: «المهد». (٨) البيتان في الكية الكامنة (ص ١٨٢).

(٩) في الأصل: «لا يذري».

(١٠) في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٨٦): «ربيع الأول».

خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي^(١)

من أهل قنثورية^(٢)، من حصون وادي المنصورة.

حاله: هذا الرجل من أهل الفضل والسذاجة، كثير التواضع، منحط في ذمة الشُّلُوق، نابه الهيئة، حَسَن الأخلاق، جميلُ العِشْرَةِ، مُجِبٌّ في الأدب؛ قضى ببلده وبغيره، وحجَّ وقبِدَ رحلته في سَفَرٍ، وصف فيه البلاد وَمَن لَقِيَ، بفصول جلب أكثرها من كلام العِمَادِ الأَصْبَهَانِي، وَصَفْوَان وغيرهما، من مُلَح. وَقَفَلَ إلى الأندلس، وارْتَسَم في تونس في الكتابة عن أميرها زمانًا يسيرًا؛ وهو الآن قاضٍ ببعض الجهات الشرقية.

وجرى ذكره في الرُّحْلَةِ^(٣) التي صدرت عني في صُحْبَةِ الرُّكَّابِ السلطاني عند تَفَقُّد البلاد الشرقية؛ في فصل حَفِظَهُ الناس، وأجروه في فكاهاتهم وهو:

«حتى إذا الفجر تَبَلَّج، والصُّبْح من باب المَشْرِق تَوَلَّج، عُدْنَا وتوفيق الله قَائِدُ، وكُنُفْنَا من عنايته صلَّةً وعائِدُ، تتلقَّى رُكَّابُنَا الأفْوَاجُ، وتَحْيِينَا الهِضَابُ والفِجَاجُ إلى قَنْتُوزِيَّة، فَنَاهِيكَ من مرحلة قصيرة كأيام الوِصَال، قَرِيبَةُ البُكَر من الآصَال، كان المُبِيتُ بإزاء قَلْعَتِهَا السَّامِيَةِ الارتفاع، الشهيرة الامتناع؛ وقد بَرَزَ أَهْلُهَا في العَدِيدِ والعُدَّة؛ والاحتفال الذي قَدِمَ به العهدُ على طول المُدَّة، صفوفًا بتلك البُقْعَةِ خِيَلًا ورجلًا كشطرنج الرُّقْعَةِ، لم يَتَخَلَّف وَلَدٌ عن والدٍ، وَرَكِبَ قَاضِيهَا ابن أبي خالد؛ وقد شَهَرَتْهُ التَّرْعَةُ الحِجَازِيَّةُ، وقد لَبِسَ من الحِجَازِي، وأرْخَى من البياض طَيْلَسَانًا، وتَشَبَّهَ بالمشاركة شُكْلًا ولسَانًا، وَصَبَغَ لِحْيَتَهُ بِالْحِجَاءِ وَالكَتَمِ^(٤)، ولاث عمامته واختتم، والبدَاوَةُ تَسِمُهُ على الخُرْطُوم، وطَبَعُ الماء والهواء يقودُهُ قُوْدُ الجمل المَخْطُوم، فداعبته مداعبة الأديب للأديب؛ والأريب للأريب، وخَيْرَتُهُ بين خَضَلَتَيْنِ، وقلت: نَظَّمْتُ مَقْطُوعَتَيْنِ، إحداهما مَذْحُ؛ والأخرى قَذْحُ؛ فَإِنْ هَمَّتْ دِيَمْتُكَ، وَكُرُمْتُ شِيَمْتُكَ، فللذين أَحْسَنُوا الحُسْنَى، وإِلَّا فالمثلُ الأدنى. فقال: أَنشِئْني لأرى على أيِّ امرئٍ آتَيْتَ، وأفرقُ بين ما جَيِّئْتَنِي وما جَنِيتُ، فقلت: [الكامل]

قالوا وقد عَظُمَتْ مَبْرَةُ خَالِد قَارِي الضيوف بطارف وبتاليد

(١) ترجمه خالد البلوي في الكنية الكامنة (ص ١٣٤) ونفع الطيب (ج ٣ ص ٢٧٧).

(٢) في الكنية الكامنة: «القنوري». وقنثورية: بالإسبانية: Cantoria.

(٣) هذا السُّفَر هو رحلة البلوي المسماة بـ «تاج المفرق في تحلية أهل المشرق».

(٤) الكَتَم: نبت يُخْلَطُ بالحناء وَيُخَضَّبُ به الشعر فيبقى لونه. محيط المحيط (كتم).

ماذا تَمَمْتَ به فجئت بحجة قَطَعْتَ بكل مجادل ومُجالِدِ
أن يَفْتَرِقُ نسبٌ يُولَّفُ بيننا أدبٌ أقمناه مقام الوالدِ

وأما الثانية فيكفي من البرق شعاعه، وحسبك من شر سماعه. ويسير التنبيه كافٍ للثبته؛ فقال: لست إلى قراي بذى حاجة، وإذا عزمت فأصالحك على دجاجة؛ فقلت: ضريبة غريبة، ومؤنة قريبة؛ عجل ولا تؤجل، وإن انصرم أمد النهار فأسجل؛ فلم يكن إلا كلاً ولا، وأعوأته من القلعة تنحدر، والبشر منهم بقدومها يتندر، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس، فمن قائل يقول: أمها يمانية، وآخر يقول: أخوها الخيصي الموجه إلى الحضرة العلية، وأذنوا مرابطها من المضرب، بعد صلاة المغرب، وألحفوا في السؤال، وتشططوا في طلب الثوال؛ فقلت: يا بني اللكيمة جتتم بيازي، بماذا كنت أجازي، فانصرفوا وما كادوا يفعلون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون؛ حتى إذا سلت لذبحها المدي، وبلغت من طول أعمارها المدي، قلت: يا قوم، ظفروكم بقرة العين، وأبشروا باقتراب اللقاء فقد ذبحت لكم غراب البين.

ولقد بلغني أنه لهذا العهد بعد أن طال المدي، يتظلم من ذلك، ويتطوي من أجله على الوجدة؛ فكتبت إليه: وصل الله عزة الفقيه الثبته، العديم النظير والتشبيه؛ وارث العدالة عن عمه وابن أبيه، في عزة تظله، وولاية تتوج جاهه وتكمله.

داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان
ابن عمر بن حوط الله الأنصاري الحارثي الأندلي^(١)

يكنى أبا سليمان.

أوليته: قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: من بيت علم وعفاف، أصله من أئدة^(٢)، حصن بشرقي الأندلس، وانتقل أبو سليمان هذا مع أخيه أبي محمد إلى حيث يذكر بعد.

حاله: قال ابن عبد الملك: كان حافظاً للقراءة، عارفاً بإقراء القرآن بها، أثقن ذلك عن أبيه، ثم أخيه كبيره أبي محمد، محدثاً متسع الرواية، شديد العناية بها، كثير

(١) نسبة إلى أئدة Onda، وهي مدينة من أعمال بلنسية بالأندلس، كثيرة المياه والشجر، وبخاصة التين، فإنه يكثر بها. معجم البلدان (ج ١ ص ٢٦٤) والروض المعطار (ص ٤١). وترجمة داود بن سليمان بن حوط الله في التكملة (ج ١ ص ٢٥٦) والوافي بالرفيات (ج ١٣ ص ٤٦) وشذرات الذهب (ج ٥ ص ٩٤).

(٢) أئدة: عمل بلنسية. التكملة (ج ١ ص ٢٥٦).

السَّماع، مُكثِّراً، عَدَلًا، ضابطًا لما ينقله، عارِفًا بطرق الحديث. أطال الرّحلة في بلاد الأندلس، شرقها وغربها، طالبًا العلم بها، ورحل إلى سَبْتَة وغيرها من بلاد الأندلس العُدوية^(١). وعُني بِلِقَاء الشيوخ كبارًا وصغارًا والأخذ منهم أتمّ عناية، وحصل له بذلك ما لم يحصل لغيره. وكان فهميًا بصيرًا بعقد الشروط، حاذقًا في استخراج نُكُتِها، تَلَبَّسَ بِكُتُبِها زَمَانًا طويلاً بمسجد الوحيد من مالقة، وكان مُجِبًّا في العلم وأهله، حريصًا على إفادته إِيّاهم، صَبُورًا على سماع الحديث، حَسَنَ الخُلُق، طَيِّبَ النفس، متواضعًا، وَرِعًا، مُتَّقِيًا، لِيْنَ الجانب، مخفوض الجناح، حَسَنَ الهُدَى، نَزِهَ النفس، كثير الحياء، رقيق القلب، تعدّد الثناء عليه من الجِلَّة.

قال ابن الزُّبَيْر: كان من أهل العدالة والفضل، وحُسْن الخُلُق، وطَيِّب النفس والتَّواضع، وكثرة الحياء. وقال ابن عبد المجيد: كان مَمَّن فَضَّلَهُ اللهُ بِحُسْن الخُلُق والحياء على كثير من العلماء. وقال أبو عبد الله بن سلمة مثل ذلك. وقال ابن^(٢)... بمثله.

مشيخته: قال الأستاذ: أقرأ^(٣) بِمُرُوسِيَّة، وأخذ بها، وبقرطبة، ومالقة، وإشبيلية، وعَرْنَاطَة وسَبْتَة، وغيرها من بلاد الأندلس، وغرب العُدوة، واعتناؤه يُعِينُهُ وأخاه بِيَاب الرُّوَاة، والأخذ عن الشيوخ، حتى اجتمع لهما ما لم يجتمع لأحد من أهل غُضْرهما؛ فمن ذلك أَبُوهُمَا أبو داود، وأبو الحسن صالح بن يحيى بن صالح الأنصاري، وأبو القاسم بن حسن، وأبو عبد الله بن حُمَيْد، وأبو زيد السُّهَيْلي، وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عراق الغافقي، وأبو العباس يحيى بن عبد الرحمن المَجْرِيطي، وعن ابن بَشْكُوَال. وأخذ عن أَبِي بَكْر بن الجَد، وأبي عبد الله بن رَزْقُون، وأبي محمد بن عبد الله، وأبي عبد الله بن الفَخَّار الحافظ، وأبي العباس بن مضاء، وأبي محمد بن بُونَة، وأبي محمد بن عبد الصمد بن يَعِيْش الغَسَّاني، وأبي بكر بن أبي حمزة، وأبي جعفر بن حَكَم الزاهد، وأبي خالد بن يزيد بن رفاعة، وأبي محمد عبد المنعم بن القَرَس، وأبي الحسن بن كَوَثَر، وأبي عبد الله بن عَرُوس، وأبي بكر بن أَبِي رَمَنِين، وأبي محمد بن جُمهُور، وأبي بكر بن النِّيار، وأبي الحسن بن محمد بن عبد العزيز الغافقي الشَّقُوري، وأبي القاسم الحُوفي القاضي، وأبي بكر بن بيش بن محمد بن بيش العَبْدَري، وأبي الوليد بن جابر بن هشام الحَضَرَمي، وأبي

(١) بلاد الأندلس العُدوية: الجهات التي كانت على ضفة بحر المتوسط، المقابلة للجزيرة الخضراء، وهي سَبْتَة ومليلة وغيرها.

(٢) قارن بالتكملة (ج ١ ص ٢٥٦ - ٢٥٧).

(٣) بياض في الأصل.

بكر بن مالك الشريشي، وأبي عبد اليُسْر الجزيري، وأبي بكر بن عبد الله السكسكي، وأبي الحجاج ابن الشيخ الفهري، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

قضاؤه وسيرته فيه: قال ابن أبي الربيع: ^(١) لازمت ^(١) ابني حوط الله، فكان أبو محمد يفوق أخاه والناس في العلم، وكان أبو سليمان يفوق أخاه والناس في الجلم. واستقضي بسبته وألمرية والجزيرة الخضراء، وقام قاضياً بها مدة، ثم نقل منها إلى قضاء بلنسية آخر ثمان وستمئة، ثم صُرف بأبي القاسم بن نوح، وقُدِّم على القضاء بمالقة في حدود إحدى عشرة ^(٢) وستمئة، فشكرت أحواله كلها، وعُرف في قضاؤه بالتزاهة. قال أبو عبد الله بن سلمة: كان إذا حضر خصوم، ظهر منه من التواضع، ووطأة الأكناف، وتبيين المراسد، والصبر على المداواة، والملاطفة، وتخيب الحق، وتكريه الباطل، ما يُعجز عنه. ولقد حضرته. وقد أوجبت الأحكام عنده الحدود على رجل، فهاله الأمر، وذرفت عيناه، وأخذ يغتَب عليه ويؤثبه على أن ساق نفسه إلى هذا، وأمر بإخراجه ليحد بشهود في موضع آخر لرقه نفسه، وشدة إشفاقه. واستمرت ولايته بمالقة إلى أن توفي.

مولده: ببلدة أئدة سنة ستين وخمسمئة ^(٣).

وفاته: قال أبو عبد الرحمن بن غالب: توفي إثر صلاة الصبح من يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين وستمئة، ودفن إثر صلاة العصر يوم وفاته، بسفح جبل قارّه ^(٤)، في الروضة المدفون بها أخوه أبو محمد، فأتبعه الناس ثناء جميلاً؛ ذكر، واختلفوا في جنازته، وخرج إليها النساء والصبيان داعين متبكين.

رضوان النصري الحاجب المعظم ^(٥)

حسنه الدولة النصرية، وفخر موالها.

أوليته: رومي الأصل، أخبرني أنه من أهل القلصادة ^(٦)، وأن انتسابه يتجاذبه القشتالية من طرف العمومة، والبرجلونية ^(٧) من طرف الخؤولة، وكلاهما نبيه في

(١) قارن بالتكملة (ج ١ ص ٢٥٧). (٢) في الأصل: «عشر» وهو خطأ نحوي.

(٣) في التكملة (ج ١ ص ٢٥٧): «ومولده بأئدة سنة ٥٥٢».

(٤) جبل قارّه: بالإسبانية Gibralfaro، يعلو مدينة مالقة وهو إلى الآن معروف بجبل الفارو، أي المنارة. نزهة المشتاق (ص ٥٧٠) والتكملة (ج ٣ ص ١٧٩).

(٥) راجع أخبار رضوان النصري في اللوحة البدوية (ص ٩٤، ١٠٣، ١١٥).

(٦) قلصادة: بالإسبانية La Calzada de Calatrava، وهي بلدة واقعة جنوب قشتالة.

(٧) نسبة إلى برجلونة، أي برشلونة.

قومه، وأن أباه الجاهء الخوف بدم ارتكبه في محل أصالته من داخل قشتالة إلى الشكنى بحيث ذكر. ووقع عليه سبابة^(١) في سن الطفولية، واستقر بسببه بالدار السلطانية، ومحض إحراز رقه، السلطان دایل قومه، أبو الوليد الماز ذكره، فاختص به، ولازمه قبل تضيير الملك إليه، مؤثرا له مغتبطا بمخايل فضله، وتماثل استقامته، ثم صير الملك إليه فتدرج في معارج خطوته، واختص بتربية ولده، وركن إلى فضل أمانته، وخلطه في قُرب الجوار بنفسه، واستجلى الأمور المشككة بصدقه، وجعل الجوائز السنية لعظماء دولته على يده، وكان يوجب حقه ويعرف فضله، إلى أن هلك، فتعلق بكثف ولده، وحفظ شمله، ودبر ملكه، فكان آخر اللُخف، وسترا للحرم، وشجى للعدا، وعُدّة في الشدة، وزينا في الرُخاء، رحمة الله عليه.

حاله وصفته: كان هذا الرجل مليح الشئبة والهيئة، معتدل القد والسحنة، مُرهب البدن، مُقبل الصورة، حسن الخلق، واسع الصدر، أصيل الرأي، رصين العقل، كثير التجمل، عظيم الصبر، قليل الخوف في الهيئات^(٢)، ثابت القدم في الأزمات، ميمون النقية^(٣)، عزيز النفس، عالي الهمة، بادي الجشمة، آية في العفة، مثلاً في النزاهة، ملتزماً للسنّة، دؤوباً على الجماعة، جليس القبلة؛ شديد الإدراك مع السكون، ثاقب الذهن مع إظهار العقلة؛ مليح الدعابة مع الوقار والسكينة، مستظهراً لعيون التاريخ، ذاكرة للكثير من الفقه والحديث، كثير الدالة^(٤) على تصوير الأقاليم وأوضاع البلاد، عارفاً للسياسة، مُكرماً للعلماء، مُتركاً للهوادة، قليل التصنع، نافراً من أهل البدع؛ متساوي الظاهر والباطن، مقتصدًا في المطعم والملبس.

مكانته من الدين: اتفق على أنه لم يُعاقَر مُسكِراً قط ولا رُنْ بهنّة، ولا لُطخ بريبة، ولا وُصم بخلة تُفدح في منصب، ولا باشر عقاب جاز، ولا أظهر شفاء من غائظ، ولا اكتسب من غير الثجر والفلاحة مالا.

آثاره: أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرباع المُغلة، وانفرد بمنقبها^(٥)، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً وظرفاً وفخامة، وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبد سقيه عليها، وأدار السور^(٦)

(١) السبابة: الأشر. محيط المحيط (سى).

(٢) الهيئات: جمع هيئة وهي كل ما أفرعك من صوت أو فاحشة تُشاع. محيط المحيط (هيج).

(٣) ميمون النقية: مبارك النفس. محيط المحيط (نقب).

(٤) كثير الدالة: جريء. محيط المحيط (دلل).

(٥) المنقب: الطريق في الجبل، والمراد أنه انفرد بفضلها. محيط المحيط (نقب).

(٦) ما تزال تقوم حتى اليوم بقية من هذا السور خلف ريش البيازين بغرناطة.

الأعظم على الرِّبْض الكبير المنسوب للبيّازين، فانتظم منه التُّجْد والغُور، في زمان قريب، وشارف التمام إلى هذا العهد. وبنى من الأبراج المنيعة في مِثَالِمْ الثُّغُور وروابي مطالعها المُنْذِرَة، ما يَنْفُ على أربعين بُرْجًا، فهي ماثلة كالنجوم ما بين البحر الشرقي من ثغر بيرة^(١)، إلى الأحواز العربية. وأجرى الماء بجبل مَزُور، مُهْتَدِيًا إلى ما خَفِيَ على مَنْ تَقَدَّمه، وأفذاذ أمثال هذه الأنقاب يشقُّ تعداده.

جهاده: غزا في السادس والعشرين من محرم عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة بجيش مدينة باغة^(٢)، وهي ما هي من الشُّهرة، وكرم البقعة، فأخذ بِمُخْتَقِهَا، وشَدَّ حصارها، وعاقَّ الصرِيخ عنها، فتملكها عَنُوة، وعمرها بالحماة، ورثبها بالمُرَابطة، فكان الفتح فيها عظيمًا. وفي أوائل شهر المحرم من عام اثنين وثلاثين وسبعمائة غزا بالجيش عَدُو المشرق، وطوى المراحل مُجْتَازًا على بلاد قُشْتَالَة، لُورَقَة، ومُرُسية، وأمعن فيها. ونازل حصن المَدُور، وهو حصن أَمِنْ غَائِلَة العدو، مَكْتَنَفٌ بالبلاد، مُدُّ بِالْبَسِينِي^(٣)، موضوعٌ على طِيَّة التجارة، وناشبه القتال، فاستولى عَنُوة عليه منتصف المحرم من العام المذكور، وآبَ مملوء الحقائق سَيًّا وَغَنَمًا.

وغزواته كثيرة، كمظاهرة الأمير الشهير أبي مالك على مُنَازَلَة جبل الفتح، وما اشتهر عنه فيه من الجَدِّ والصبر، وأوثرَ عنه من المَنْقَبَة الدَّالَة على صحة اليقين، وصدق الجهاد، إذ أصابه سهم في ذراعه وهو يصَلِّي، فلم يشغله عن صلاته، ولا حمله توقُّع الإغارة على إبطال عمله.

ترتيب خدمته وما تخلَّل عن ذلك من محنته:

لَمَّا استوثق أمرُ الأمير المخصوص بتربيته، محمد، ابن أمير المسلمين أبي الوليد نصر، وقام بالأمر وكيل أبيه الفقيه أبو عبد الله محمد بن المحروق، ووقع بينه وبين المترجم عهدٌ على الوفاء والمُنَاصحة، ولم يلبث أن نكبه وقبض عليه ليلة كذا من رجب عام ثمانية وعشرين وسبعمائة، وبعثه ليلًا إلى مَرْسَى المُنْكَب، واعتقله في المُطَبَّق من قصبتها بَغْيًا عليه، وارتكب فيه أَشْوَعَة أساءت به العامة،

(١) بيرة: بالإسبانية Vera، وهي بلدة صغيرة تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة ألمرية.

(٢) باغة: بالإسبانية Priego، وقد عَدَّها أبو الفداء بلدة. تقديم البلدان (ص ١٧٧). وجعلها ابن الدلائلي قرية. نصوص عن الأندلس (ص ٩٣). ويبدو من كلام ابن الدلائلي الذي كان معاصرًا لبني زيري بغرناطة في عصر ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري، أن باغة كانت آنذاك قرية. وذُهب الحميري مذهب ابن الخطيب، فجعلها مدينة. الروض المعطار (ص ١٢٢).

(٣) هي الآلات والتجهيزات الضخمة.

وأُنذرت باختلال الحال، ثم أجازته البحر، فاستقرَّ بِتِلْمُسان، ولم يلبث أن قُتِل المذكور، وبادر سلطانه الموتور بفرقة عن سُدَّته، فاستدعاه، فلاحق محله من هَضْبَةِ المُلْك مُتَمَلِّيًا ما شاء من عزٍّ وعناية، فَصُرِفَتْ إليه المقاليد، وَنِيْطَتْ به الأمور، وَأُسْلِمَ إليه المُلْك، وَأُطْلِقَتْ يده في المال. واستمرت الأحوال إلى عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، والثأث الأمر، وظهر من سلطانه التَّنَكُّرُ عليه، فعاجله الجُمام فخلَّصه الله منه، وولي أخوه أبو الحجاج من بعده، فوقع الإجماع على اختياره للوزارة أوائل المحرم من عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، فرضي الكلُّ به، وفرحت العامة والخاصة للخطبة، لارتفاع المنافسات بمكانه، ورضي الأضداد بتوسطه، وطابت النفوس بالأمن من غائلته، فتولَّى الوزارة وسَحَبَ أذيال المُلْك، وانفرد بالأمر، واجتهد في تنفيذ الأحكام، وتقَدَّمَ الوُلاة، وجواب المخاطبات وقُواد الجيوش، إلى ليلة الأحد الثاني والعشرين من رجب عام أربعين وسبعمائة، فنكبه الأمير المذكور نكبة ثقيلة البرك، هائلة الفجأة من غير زلَّة ماثورة، ولا سَقْطَة معروفة، إِلَّا ما لا يُعَدُّم بأبواب الملوك من شرور المنافسات، ودبيب السَّعايات الكاذبة. وقبض عليه بين يدي محراب الجامع من الحمراء إثر صلاة المغرب، وقد شَهَرَ الرُّجال سيوفهم فوقه يحقِّون به، ويقودونه إلى بعض دُور الحمراء، وكبس ثُقات السلطان منزله، فاستوعبوا ما اشتمل عليه من نعمة، وضمَّ إلى المستخلص عقاره، وسوَّغ الخبزَ عظيم غلاته. ثم نقل بعد أيام إلى قصبة ألمرية محمولًا على الظهر، فشَدَّ بها اعتقاله، ورَتَّب الحرس عليه إلى أوائل شهر ربيع الثاني من عام أحد وأربعين وسبعمائة، فبدا للسلطان في أمره واضطر إلى إعادته. ووجد فَقْدَ نصحه، وأشفق لما عَدِمَ من أمانته، والانتفاع برأيه، وعرض عليه بما لنوم الكفِّ والإقصار عن ضَرِّه، فعفا عنه، وأعادته إلى محله من الكرامة، وصرف عليه من ماله، وعرض الوزارة فأبأها، واختار بردَّ العافية، وأيس لذة التخلِّي، فَقُدِّمَ لذلك مَنْ سَدَّ الثغور، فكان له اللفظ، ولهذا الرجل المعنى، فلم يزل مفزعًا للرأي، مُحَلَّى في العِظَّة على الولاية، كثير الأمل والغاشي، إلى أن توفي السلطان المذكور غرَّة شَوَّال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة، فَشَعَبَ الثَّأْيُ^(١)، وحفظ البلوى، وأخذ البيعة لولده سلطاننا الأسعد أبي عبد الله، وقام خير قيام بأمره، وجرى على معهود استبرائه، وقد تحكَّمت التجربة، وعلت السنُّ، وزادت أنة الخُشْيَة، وقربت من لقاء

(١) الثَّأْيُ: الضعف والركاكة وآثار الجرح. لسان العرب (ثأى).

الله الشُّقَّة، فلا تسأل عما حطَّ من خَل، وأفاض من عدل، وبذل من مداراة. وحاول عقد السلم، وسدَّ أمور الجند على القِل، ودامت حاله متصلةً على ما ذكر، وسُئله تتوسط عشر التسعين إلى أن لحق برئه. وقد علم الله أني لم يحملني على تقرير سيرته، والإشادة بمنقبته داعية، وإنما هو قول بالحق، وتسليم لحُجَّة الفضل، وعدل في الوصف، والله، عز وجل، يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا﴾^(١).

وفاته: في ليلة الأربعاء الثامن والعشرين من رمضان من عام ستين وسبعمئة، طرُق منزله بعد فراغه من إحياء ثلث الليل، مُتَبَذِّل اللَّبْسَةِ، خالِص الطَّوِيَّة، مقتضياً للأمن، مُسْتَشْعِراً للعافية، قائماً على المسلمين بالكلِّ، حاملاً للعظيمة، وقد بادره الغادرون بسلطانه، فكسروا غَلْقَه بعد طول معالجة، ودخلوا عليه وقتلوه بين أهله وولده، وذهبوا إلى الداليل برأسه، وفجعوا الإسلام، بالسائس الخصيب المتغاضي، راكب متن الصبر، ومطوق طوق النزاهة والعفاف، وآخر رجال الكمال والستر، الضافي على الأندلس، ولوئم من الغد بين رأسه وجسده، ودفن بإزاء لحود مواليه من السبيكة^(٢) ظهرًا. ولم يشهد جنازته إلا القليل من الناس، وتُبْرِكَ بعد بقبْره. وقلت عند الصلاة عليه، أخاطبه دون الجهر من القول لمكان التقية: [الطويل]

أَرْضَوَانْ، لَا تُوجِّشْكَ فَتْكَةُ ظَالِم	فَلَا مُورِدْ إِلَّا سَيْتَلُوهُ مَضْدَرْ
وَلله سِرٌّ فِي الْعِبَادِ مُغَيَّبْ	يَشْهَدُ بِخَافِيهِ الْقَضَاءُ الْمُقَدَّرْ
سَمِيئِكَ مُرْتَاحٌ إِلَيْكَ مُسَلِّمٌ	عَلَيْكَ وَرَضَوَانْ مِنْ الله أَكْبَرْ
فَحُثِّ الْمَطَا لَيْسَ النِّعِيمُ مُنْغَصْ	وَلَا الْعَيْشُ فِي دَارِ الْخُلُودِ مُكْدَرْ

زاوي^(٣) بن زيري بن مناد الصُّنْهَاجِي

الحاجب المنصور، يكنى أبا مُثَنَّى.

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ١٥٢.

(٢) السبيكة: موضع خارج غرناطة. وقد ذكره الشعراء، ومنهم أبو جعفر الإلبيري الرعيني. راجع: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٣٧).

(٣) حكم زاوي غرناطة من سنة ٤٠٣ هـ إلى سنة ٤١٠ هـ. وترجمته في الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٣) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١١٣، ١٢٨، ١٦٣، ١٦٤) والمغرب (ج ٢ ص ١٠٦) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ١١٩، ٢٢٨). ونفع الطيب (ج ٢ ص ٢٩) واللمحة البدرية (ص ٣١) وكتاب العبر (م ٤ ص ٣٢٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٥٤). وهناك دراسة مفصلة عن زاوي بن زيري في كتاب مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر (ص ٨٣ - ١٠٤) فلتُنظر.

أُولَيْتُهُ: قد مرَّ^(١) ما حدث بين أبيه زيري وبين قرابته من ملوك إفريقية، وباديس بن منصور من المُشاحنة التي أوجبت مخاطبة المُظفر بن أبي عامر في اللِّحاق بالأندلس، وإذنه في ذلك، فدخل الأندلس منهم على عهده جماعة وافرة من مساعير الحروب وآثار الحُتوف، مع شيخهم هذا وأميرهم، ودخل منهم معه أبناء أخيه ماكسن وحُباسة وخبّوس، وقاموا في جُملة المظفر، وزاوي مخصوصٌ باسم الحجابة؛ فلما اختلَّ بناء الخلافة، بمحمد بن عبد الجبار الملقَّب بالمهدي، أذلَّهم وتَنكر لهم، وأشاع بينهم وبين أمثالهم من البرابر، المُغايرة، فكان ذلك سبب الفتنة التي يسمِّيها أهل الأندلس بالبربرية؛ فانحاشوا، ونفروا عهده، وبايعوا سليمان بن الحكم، واستعانوا بالنصارى، وحزَّكوا على أهل قرطبة خصوصًا، وعلى أهل الأندلس عمومًا، ما شاء الله من استباحة، وإهلاك النفوس، وغلبوا على مُلك الأندلس، وما وراء البَيْضَة، واقتسموا أمَّهات الأقطار، وانحازوا إلى بلاد تَضُمُّهم، فانحازت صُنْهاجة مع رئيسهم المذكور إلى غرناطة، فأوروا إليها، واتخذوها ملجأ، وحماها زاوي المذكور، وأقام بها ملكًا، وأثَّل بها سلطانًا لذويه، فهو أول مَنْ مدَّن غرناطة، وبنَّاها وزادها تشييدًا وَمَنَعَةً، واتصل مُلكه بها، وارتشحت عروقه، إلى أن كان من ظهوره بها وأحوازها، على عساكر الموالي، الراجعين بإمامهم المُرتضى إلى قرطبة، البادين بقتاله، والآخذين بِكَظْمِهِ، بما تقرَّر ويتقرَّر في اسم المُرتضى، من باب المُحمَّدين.



وكان زاوي كَبَشَ الحروب، وكاشف الكروب، خدَم قومه شهير الذِّكر أصيل المعجد، المثل المضروب في الدهاء، والرأي، والشجاعة، والأثقة، والحزم.

قال بعضهم: أحكم التدبير، والدولة تسعده، والمقادير تنجده، وحُكِيَتْ له في الحروب حكايات عجيبة.

بعض أخباره في الرأي: قال أبو مروان: وقد مرَّ ذكر الفتنة البربرية؛ لما خلاص ملأ القوم، لتشاور أميرهم، وهم فرض في خروجهم من قرطبة، عندما انتهوا إلى فحص هلال، واجتمعوا على النَّاسِي، وضرب لهم زعيمهم زاوي بن زيري بن مَناد الصُّنهاجي، مثلًا بِأَرمَاح خمسة جمعها مشدودة، ودفعها لأشدَّ مَنْ حضره منهم، وقال: اجهد نفسك في كسرهما كما هي وأغْمِزْها، فعالج ذلك فلم

(١) مرَّ ذلك في ترجمة بلكين بن باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيري.

يقدر عليه، فقال له: جلّها وعالجها رُمَحًا رُمَحًا، فلم يبعد عليه دُعُها، فأقبل على الجماعة، فقال: هذا مثلكم يا برابرة، إن جُمعتم لم تُطاقوا، وإن تَفَرَّقْتُم لم تَبْقُوا، والجماعة في طلبكم، فانظروا لأنفسكم وعجلوا، فقالوا: نأخذ بالوثيقة، ولا نُلقِي بأيدينا إلى التهلكة، فقال لهم: بايعوا لهذا القرشي سليمان، يرفع عنكم الآثقة في الرياضات، وتستميلون إليه العامة بالجنسية، ففعلوا، فلَمَّا تَمَّت البيعة قال: إن مثل هذا الحال لا يقوى على أهل الاستطالة، فيقيد له رئيس كل قبيلة منكم، قبيلة يتكفل السلطان بتقويمهم، وأنا الكفيل بصُنْهاجة، قال: وامتارت بطون القبائل على أرحامها، وقبائلها إلى أفخاذها وفصائلها، فاجتمع كل فريق منهم على تقديم سيده، فاجتمعت صُنْهاجة على كبيرها زاوي، ولم تزل تلك القبائل المتألّفة بالأندلس لطاعة أميرها، المُنادين له إلى أن أورثوهم الإمارة.

التوقيع: قالوا^(١): ولَمَّا نازله المُرْتَضَى الذي أَجْلَبَ به الموالي العامرين بظاهر غرناطة، خاطبه بكتاب يدعوه فيه إلى طاعته، وأجمل موعده فيه؛ فلَمَّا قُرِئ على زاوي قال لكاتبه: اكتب على ظهر رقعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾  السورة^(٢). فلَمَّا بلغت المرتضى أعاد عليه كتاباً يعده فيه بوعيده، فلَمَّا قُرِئ على زاوي، قال: رُدْ عليه: ﴿أَلَمْ نَكُنْ أَكْثَرُ﴾  ^(٣) إلى آخرها، فازداد المرتضى غيظًا، وناشبه القتال، فكان الظهور لزاوي.

قال المؤرّخ^(٤): واقتتل صُنْهاجة مع أميرهم مُسْتَمِيتين لما دَهَمَهُم من بحر العساكر، على انفرادهم وقلة عددهم، إلى أن انهزم أهل الأندلس، وطاروا على وجوههم، مُسْلِمُوهم وإفَرَنْجُهُم، لا يلوون على أحد، فأوقع البرابر^(٥) بهم السيف، ونهبوا تلك المحلات، واحتوا على ما لا كفاء له اتساعًا وكثرة؛ ظلّ الفارس يجيء من أتباع المُنهزمين ومعه العشرة، ولا تسل عما دون ذلك من فاخر الثَّهب، وخير الفُساطيط، ومضارب الأمراء والرؤساء.

(١) قارن بالذخيرة (ق ١ ص ٤٥٣ - ٤٥٤) ومذكرات الأمير عبد الله (ص ٢٢) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٢٥ - ١٢٦) ونفع الطيب (ج ٢ ص ٢٩ - ٣٠).

(٢) سورة الكافرون ١٠٩، الآية ١. (٣) سورة التكاثر ١٠٢، الآية ١.

(٤) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٤) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٢٦) ولكن ببعض الاختلاف عما هنا.

(٥) في الذخيرة: «البرابرة». وهكذا كان ابن الخطيب يستعمل مرة كلمة «البرابر» ومرة أخرى كلمة «البرابرة» للتعبير عن البربر.

قال ابن حَيَّان^(١): فحلَّ بهذه الواقعة على جماعة الأندلس مصيبة^(٢) أنست ما قبلها، ولم يجتمع لهم^(٣) جمعٌ بعدها وفروا بإدبار^(٤)، وباؤوا بالصُّغار. مُنصرفه عن الأندلس:

قال المؤرِّخ^(٥): ولهُوَل ما عاينه زاوي من اقتدارِ أهلِ الأندلس في أيَّام^(٦) تلك الحروب وجَعاجعهم، وإشرافهم على التغلُّب عليه، هان سلطانه عنده بالأندلس، وخرج^(٧) عنها نظرًا إلى عاقبة أمره، ودعا بجماعة^(٨) من قومه لذلك فعصوه، وركب البحر بجيشه وأهله، فلدحِق بإفريقية وطنه. قال: فكان من أغرب الأخبار في^(٩) الدولة الحُمُودية انزعاجُ ذلك الشيخ زاوي^(١٠) عن سلطانه بعد ذلك الفتح العظيم الذي ناله على أهل الأندلس، وعبوره البحر بعد أن استأذن ابن عمه المُعز بن باديس، فأذن له. وخرِص بنو عمه بالقَيْرُوان، على رجوعه لهم لحال سنه، وتقريبهم^(١١) يومئذ من مثله من مُشِيختهم لمهلك جميع إخوتهم، وحصوله هو على مُقرَّر^(١٢) بني مناد، الغريبُ الشأن^(١٣)، في أن لا تُحجَّب عنهم نساؤهم وكُنَّ زهاء ألف امرأة في ذلك الوقت، هُنَّ ذوات مَحْرَم من بنات إخوته وبناتهن وبني بنيهن. وكان رحيل زاوي عن الأندلس سنة عشر^(١٤) وأربعمائة. قال ابن حَيَّان^(١٥): وأخبار هذا الداهية كثيرة، وأفعاله ونوادره مأثورة.

زهير العامري، فتي المتصور بن أبي عامر^(١٦)

حاله: كان شهماً داهية، شديد المذهب، مؤثراً للأناة، ولي بعد خَيْران صاحب المربة، وقام بأمره أحمد قيام، سنة تسع^(١٧) عشرة وأربعمائة، يوم الجمعة لثلاث

- (١) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٥) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٢٧).
- (٢) في الذخيرة: «مصيبة سوداء».
- (٣) في الذخيرة: «لهم على البربر جمع بعد».
- (٤) في الذخيرة: «بالإدبار». وفي البيان المغرب: «وأقزوا بالإدبار».
- (٥) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٤٥٧ - ٤٥٩). (٦) كلمة «أيام» ساقطة في الذخيرة.
- (٧) في الذخيرة: «وعزم على الخروج عنها نظرًا في...».
- (٨) في الذخيرة: «جماعة».
- (٩) في الذخيرة: «في تلك الدولة».
- (١٠) في الذخيرة: «زاوي ابن زيري».
- (١١) في الذخيرة: «وتعريبهم يومئذ عن مثيله».
- (١٢) في الذخيرة: «هو مُقَدَّر».
- (١٣) في الذخيرة: «شأنه».
- (١٤) في الأصل: «سنة ستة عشر وأربعمائة»، والتصويب من الذخيرة.
- (١٥) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٤٦٠) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٢٩).
- (١٦) ترجمة زهير العامري في مذكرات الأمير عبد الله (ص ٣٤) والمغرب (ج ٢ ص ١٩٤) والذخيرة (ق ١ ص ٦٥٦) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦).
- (١٧) في الأصل: «تسعة عشر» وهو خطأ نحوي.

خَلَوْنَ من جُمادى الأولى. وكان أميرًا بمرسية، فوجّه عنه خيران حين أحسّ بالموت، فوصل إليه، وكان عنده إلى أن مات. فخرج زهير مع ابن عباس^(١) إلى الناس، فقال لهم: أمّا الخليفة خيران فقد مات، وقد قدّم أخاه زهيرًا هذا، فما تقولون؟ فرضي الناس به، فدامت مدة ولايته عشرة أعوام ونصف عام إلى أن قُتل.

مناقبه: قال أبو القاسم الغافقي^(٢): وكان حَسَن السَّيَرَة جميلها؛ بنى المسجد في المَرّة، ودار^(٣) فيه من جهاته الثلاث، المشرق والمغرب والجوف؛ وبنى مسجدًا ببجّانة، وشاور الفقهاء، وعمل بقولهم؛ وملك قرطبة، ودخل قصرها، يوم الأحد لخمس بقين من شعبان سنة خمس وعشرين وأربعمائة، ودام سلطانه عليها خمسة عشر شهرًا ونصف شهر.

قال ابن عذاري^(٤): وأما زهير الفتى فامتدّت^(٥) أطنابُ مملكته من المَرّة إلى قرطبة^(٦) ونواحيها، وإلى بياسة، وإلى الفَجّ من أول طليطلة. وقالوا^(٧): قر ما بينه وبين باديس فأرسل باديس^(٨) إلى زهير رسوله مكاتبًا مستدعيًا تجديد المحالفة، فسارع زهير، وأقبل نحوه، وضَيّع الحزم، واغترّ بالعُجْب، ووثق بالكثرة، أشبه شيء بمجيء الأمير الضخم إلى عامل^(٩) من عَمّاله، قد ترك رسم^(١٠) الالتقاء بالنظرَاء وغير ذلك من وجوه الحزم، وأعرض عن ذلك كله؛ وأقبل ضاربًا بسوطه، حتى تجاوز الحد الذي جَرَتْ^(١١) العادة بالوقوف عنده من عمل باديس دون إذنه؛ وصيّر الأوعار والمضايق خَلْف ظهره، فلا يفكر فيها، واقتحم البلد، حتى صار^(١٢) إلى باب غرناطة. ولَمّا وصل خرج باديس في جَمْعِه، وقد أنكر اقتحامه عليه، وعَدّه حاصلًا

(١) هو أبو جعفر أحمد بن عباس، وترجمته في الذخيرة (ق ١ ص ٦٥٦) والمغرب (ج ٢ ص ٢٠٥) والبيان المغرب (ج ٣ ص ٢٩٣) ونفح الطيب (ج ٥ ص ٨١).

(٢) قارن بأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢١٦).

(٣) في أعمال الأعلام: «وزاد فيه». (٤) البيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٨ - ١٦٩).

(٥) في البيان المغرب: «فكان قد امتدّت».

(٦) في البيان المغرب: «إلى شاطبة، وما يليها إلى بياسة، وما وراءها إلى الفج من أول عمل طليطلة».

(٧) النص في الذخيرة (ق ١ ص ٦٥٦ - ٦٥٩) والبيان المغرب (ج ٣ ص ١٦٩ - ١٧١) وكلاهما تصرف في النص.

(٨) في الذخيرة: «وأرسل رسوله إلى زهير مُلَطَّفًا في العتاب، مستدعيًا...».

(٩) في الذخيرة: «العامل». (١٠) في الذخيرة: «رسوم».

(١١) في الذخيرة: «جرت به العادة من الوقوف...».

(١٢) في الذخيرة: «وصل».

في قبضته؛ فبداه بالجميل والتكريم، وأوسع عليه وعلى رجاله في^(١) العطاء والقرى والتعظيم بما مكن اغترارهم، وثبت طمأنينتهم. ووقعت المناظرة بين زهير وباديس^(٢)، ومن حضرهما من رجال دولتيهما، فنشأ^(٣) بينهما عارض الخلاف لأول وهلة، وحمل زهير أمره على التشطط، فعزم باديس على اللقاء^(٤) ووافقه عليه قوم من خدامه، فأقام المراتب، ونصب الكتاب، وقطع قنطرة لا مَحِيدَ عنها لزهير، والحاتن^(٥) لا يشعر؛ وغاداه عن تعبئة مُحَكَّمة، فلم يرَّعه إلا رجَّة القوم راجعين، فدهش زهير وأصحابه، إلا أنه أحسن تدبير الثبات لو استتمه، وقام فنصب الحرب، وثبت في قلب العسكر، وقدم خليفته هُذَيْلًا في وجوه أصحابه إلى الموالي، فلمَّا رأَتهم صنهاجة، علموا أنهم الحُماة والشُّوكة^(٦)، ومتى حُصِدوا لم يثبت مَنْ وراءهم، فاختلفوا بهم^(٧)، واشتد القتال، فحكم الله لأقل الطائفتين من صنهاجة ليُري الله^(٨) قدرته، فانهزم زهير وأصحابه وتقطَّعوا، وعمل السيف فيهم فمزَّقوا، وقتل زهير، وجُهل مصرعه؛ وغنم رجال باديس من المال والمرافق^(٩) والأسلحة والجلية والغدة والغلمان والخيام^(١٠)، ما لا يُحاط بوصفه. وكانت وفاة زهير يوم الجمعة عقب شوال، سنة تسع وعشرين وأربعمائة بقرية ألفت خارج غرناطة.

طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو القبطنة^(١١)

يكنى أبا محمد.

- (١) في الذخيرة: «في القرى والتعظيم، ما مكن...».
- (٢) في الذخيرة: «بين باديس وزهير».
- (٣) في الذخيرة: «فنشأ».
- (٤) «باديس عند ذلك على القتال، ووافقه قومه صنهاجة، فأقام مراتبه ونصب كتابه...».
- (٥) في البيان المغرب: «والحاتن».
- (٦) في الذخيرة: «أنهم حُمَّة وشوكته، وأنهم متى خضدوها...».
- (٧) في المصدرين: «فاختلف الفريقان».
- (٨) كلمة «الله» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من المصدرين.
- (٩) في البيان المغرب: «والخزان».
- (١٠) في البيان المغرب: «والخيام وسائر أنواع الأموال ما لا يحيط به الوصف».
- (١١) تراجم الإخوة الثلاثة في المغرب (ج ١ ص ٣٦٧) وقلائد العقيان (ص ١٤٨) والمطرب (ص ١٨٦) ونفح الطيب (ج ٢ ص ١٦٩). وترجمة أبي محمد طلحة في التكملة (ج ١ ص ٢٧٠) والذخيرة (ق ٢ ص ٧٥٣) والمغرب (ج ١ ص ٣٦٧). وترجمة أبي بكر عبد العزيز في التكملة (ج ٣ ص ٩٠). وترجمة الأخوين أبي بكر وأبي الحسن في رايات المبرزين (ص ٩٦، ٩٧).

حالهم: كانوا عيونًا من عُيُون الأدب بالأندلس، ممن اشتهروا بالظرف، والشرو والجلالة. وقال أبو الحسن بن بسام وقد ذكر أبا بكر منهم، فقال^(١): أحد فرسان الكلام^(٢)، وحَمَلَة السيوف والأقلام، من أسرة أصالة، وبيت جلالة، أخذوا العلم أولًا عن آخر، وورثوه كابرًا عن كابر. ثلاثة كهقعة الجوزاء، وإن أربوا عن الشهر^(٣) في السنا والسناء^(٤). كتب أبو محمد عبد العزيز وأخوه عن ملك لُمُتُونَة، ودخلوا معه غرناطة. ذكر ذلك غير واحد. واجتازت بذكر أبي محمد، وأتبعه أخويه اختصارًا.

شعره: من شعر أبي محمد، قوله في الاستدعاء^(٥): [المتقارب]

هَلَمَّ إِلَى رَوْضِنَا يَا زَهْرَ (٦) وَلُخَّ فِي سَمَاءِ الْمُنَى (٧) يَا قَمَزَ
وَفَوْقَ (٨) إِلَى الْأَنْسِ سَهْمِ الْإِخَاءِ فَقَدْ عَطَلْتُ قَوْسَهُ وَالْوَتَرَ (٩)
إِذَا لَمْ تَكُنْ عِنْدَنَا حَاضِرًا فَمَا بَغْصُونُ (١٠) الْأَمَانِي تَمَزَ (١١)
وَقَفَّتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَ الْمُنَى وَخَزَتْ (١٢) مِنَ الْعَيْنِ حُسْنَ الْحَوَزِ

قال أبو نصر^(١٣): بات مع أخويه في أيام صباه، واستطابة جَنُوبِ الشَّبَابِ وَصْبَاهُ، بِالْمُنَى الْمُسَمَّاءِ بِالْبَدِيعِ، وَهِيَ (١٤) رَوْضٌ كَانَ الْمُتَوَكِّلُ يَكْتَلِفُ بِمُوَافَاتِهِ، وَيَبْتَهِجُ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ، وَيَقْطِفُ رِيحَانَهُ (١٥) وَزَهْرَهُ، وَيَقِفُ (١٦) عَلَيْهِ إِغْفَاءَهُ وَسَهْرَهُ، وَيَسْتَفْزُهُ الطَّرِبَ مَتَى ذَكَرَهُ، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَ الْأَنْسِ فِيهِ رَوْحَاتِهِ وَيُكْرِهَ، وَيُدِيرُ حُمَيَّاهُ عَلَى ضِفَةِ نَهْرِهِ، وَيَخْلَعُ سَرَّهُ فِيهِ لَطَاعَةَ جَهْرِهِ، وَمَعَهُ أَخَوَاهُ، فَطَارَدُوا اللَّذَاتِ حَتَّى أَنْصَوْهَا، وَلَبَسُوا بُرُودَ السَّرُورِ فَمَا (١٧) نَضَّوْهَا، حَتَّى صَرَغَتْهُمْ الْعُقَارُ، وَطَلَحَتْهُمْ تِلْكَ

(١) الذخيرة (ق ٢ ص ٧٥٣ - ٧٥٤).

(٢) في الذخيرة: «على الشمس».

(٣) هنا ينتهي النقل عن الذخيرة.

(٤) الأبيات في المغرب (ج ١ ص ٣٦٨) وقلائد العقيان (ص ١٥١).

(٥) في الأصل: «يا زهير» والتصويب من المصدرين.

(٦) في المغرب: «العلاء».

(٧) هذا البيت غير وارد في المغرب.

(٨) في القلائد: «لغصون». وفي المغرب: «لعيون».

(٩) في المغرب: «مَمَزَ».

(١٠) أبو نصر: هو ابن خاقان، والنص في كتابه قلائد العقيان (ص ١٥٠ - ١٥١). وورد أيضًا في

نفح الطيب (ج ٢ ص ١٦٩).

(١١) في الأصل: «وهو» والتصويب من القلائد.

(١٢) في القلائد والنفع: «رياحينه».

(١٣) في القلائد والنفع: «وما».

الأوقار^(١)؛ فلما همّ رداء الفجر أن يندى، وجبينُ الصبح أن يتبدى^(٢)، قام الوزير أبو محمد فقال^(٣): [الخفيف]

يا شقيقي وافى^(٤) الصّباح بوجه^(٥) سَرَّ اللَّيْلَ نُورُهُ وَبَسْهَؤُهُ
فاضطَبِخْ، واغتَنِمْ مَسْرَةَ يَوْمٍ لَسْتُ^(٦) تَذْري بما يجيءُ مَسَاوُهُ
ثم استيقظ أخوه أبو بكر فقال: [الخفيف]

يا أخي، قُمْ تَرِ النَّسِيمَ عَلِيلاً بِأَكْرِ الرُّوضِ وَالْمُدَامِ شُمُولاً^(٧)
في رياضِ تَعَانَقِ الزُّهْرُ فِيهَا مِثْلَ ما عَانَقَ الْخَلِيلُ خَلِيلاً^(٨)
لَا تَنْتُمْ واغْتَنِمْ مَسْرَةَ يَوْمٍ إِنَّ تَحْتَ الثَّرَابِ نَوْمًا طَوِيلًا
ثم استيقظ أخوهما أبو الحسن وقد ذهب^(٩) من عقله الوسن، فقال: [البسيط]

يا صاحبي ذَرَا لَوْمي وَمَعْتَبَتِي قُمْ نصطَبِخْ قهوة^(١٠) من خير ما دَخَرُوا
وبادِرا غَفْلَةَ الْإِيامِ واغْتَنِمَا فاليومَ خَمْرٌ ويبدو في غَدِ خَبْرُ^(١١)
وقال أبو بكر في بقرة أخذها له الرنق^(١٢) صاحب قُلُمورية، وقد أعاد
أرضه^(١٣): [الطويل]

(١) كذا في النسخ، وفي القلائد: «الأوتار».

(٢) في الأصل: «يتدى» والتصويب من المصدرين.

(٣) هذان البيتان وأبيات أبي بكر وأبي الحسن التالية وردت أيضًا في المغرب (ج ١ ص ٣٦٧ - ٣٦٨) والمطرب (ص ١٨٦ - ١٨٧) والذخيرة (ق ٢ ص ٧٧٣) ونفح الطيب (ج ٢ ص ١٦٩ - ١٧٠).

(٤) في المغرب والمطرب: «أتى».

(٥) في الأصل: «برجه» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من المصادر الخمسة.

(٦) في القلائد والمغرب: «ليس». (٧) في المغرب: «الشمول».

(٨) هذا البيت ساقط في المغرب والمطرب والذخيرة.

(٩) في النسخ: «وقد هب». (١٠) في المصادر الخمسة: «خمرة».

(١١) يشير هنا إلى قول امرئ القيس: «اليوم خمرٌ وغداً أمرٌ»، وقد قاله عندما أبلغ أن بني أسد ثاروا على أبيه وقتلوه، وكان آنذاك في مجلس شراب. وقد أخذ هذا المعنى بشار بن برد فقال:

اليوم خمر ويبدو في غد خبر
ديوان بشار بن برد (ص ١٤٣).

(١٢) الرنق أو الريق هو ألفونسو هنريكز Alfonso Enrique صاحب قلمورية أو قلمرية Coimbra، وكانت حينئذ عاصمة البرتغال.

(١٣) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٧٦٩).

وَأَفْقَدْنِيهَا الرُّنُقُ أَمَا حَفِيَّةُ إِذَا هِيَ ضُمَّتْ ^(١) أَلَقْتُ بَيْنَ رَفْدَيْنِ ^(٢)
تَعَنَّفَنِي أُمِّي عَلَى أَنْ رَتَيْتُهَا بِشْعَرِي ^(٣) وَأَنْ أَتَبَعْتُهَا الدَّمَ مِنْ عَيْنِي ^(٤)
لَهَا الْفَضْلُ عِنْدِي أَرْضَعْتَنِي أَرْبَعًا ^(٥) وَبِالرَّغْمِ مَا بَلَّغْتَنِي رَأْسَ عَامَيْنِ ^(٦)

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر

الرئيس المتوثب على الملك، وجي كرسي الإمارة، وعاقذ صفقة الخُسران
المُبِين، يكنى أبا عبد الله.

أوليته: معروفة.

حاله: «من نفاضة الجراب» ^(٧) وغيره: كان شيطانًا، ذميم الخلق، خزفوشًا،
على عِزف المشاركة، مُتراميًا للخسائس، مألَفًا للدَّعرة والأجلاف والسُّوار وأولي
الريب، خبيثًا كثير النكر، منغمسًا في العِهن، كَلَفًا بالأحداث، مُتقلِّبًا عليهم في
الطرق، خليع الرُّسن، ساقط الحشمة، كثير التَّبذُّل، قوَّاد عُصْبَةِ كِلَابٍ، معالجًا
لأمراضها، مباشرًا للصيد بها، راجلًا في ثياب مُنتاب الشعر من الجلود والسوابل
والأسمال؛ عَقْد له السلطان على بنته لوقوع القحط في رجال بيتهم، ونوَّهه بالولاية،
وأركبه، وأغضى له عن مُوبيقات تَقْصُر به، إلى أن هلك؛ وحاد الأمر عن شقيق
زوجه، واستقرَّ في أخيه، وثقل على الدولة، لكرامة طلعت، وسوء الأحدوثة به، فأمر
بترك المباشرة، والدخول للقلعة، وأُذِنَ له في التَّصرف في البلد والفحص، وأُقيمت
عليه النعمة، فداخل أم زوجته، وضمن لها تمام الأمر لولدها، وأمدته بالمال، فنظر
من المساعير شيعةً، من كَسرة الأغلاق، وقَتلة الزقاق، ومُختلِسي البضائع، ومُخيفي
السَّيلة، واستضاف من أسافلة الدولة، من آسَفَتَه بإقصار قصد، أو مَظَل وعد، أو حَظَّ
رُتْبة، أو عَزَل عن ولاية، فاستظهر منهم بعدد ولا، كالشَّقِي الدليل المَوزوري،
الغريب الطُّور، وإبراهيم بن أبي الفتح المنبوذ بالإضليع، قريع الجهل، ومستور
العظيمة، وارتادوا عَورة القلعة فاهتدوا منها إلى ما شَاؤوا وتألَّفوا بخارج. ثم تسلَّلوا

(١) في الأصل: «حَفَّت» والتصويب من الذخيرة. وضُمَّتْ: خلعت باليد كلها لكبير ضرع البقرة.

(٢) في الأصل: «وفدين» والتصويب من الذخيرة. والرَّفْد: القدح الضخم.

(٣) كلمة «بشعري» ساقطة في الإحاطة، وقد أضفناها من الذخيرة.

(٤) في الأصل: «من عين» والتصويب من الذخيرة.

(٥) كلمة «أربعًا» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من الذخيرة.

(٦) في الأصل: «بلغتني وأمي حولين» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من الذخيرة.

(٧) هذا النص لم يرد في نفاضة الجراب المطبوع.

بيطن الوادي المعروف بـ «هَدَارُهُ»، إلى أن لَصِقُوا بجناح السُّور الصَّاعِد، الراكبة قوسَهُ جَزِيَةِ النهر، وصعدوا مُسَاوِقِينَ جناحه المَتَّصِل بسور القلعة، وقد نقص كثير من ارتفاعه، لِحِذْثَانِ إِصْلَاحٍ فِيهِ، فتسَوَّروه عن سُلَمٍ، ودافع بعض محاربيهم بعضًا في استباق أدرجه، فدخلوا البلد في الثُّلُث الأخير من ليلة الأربعاء الثامن والعشرين لرمضان عام ستين وسبعمئة، ثم استغلظوا بالمشاعل، وقتلوا نائب الملك رضوانًا النَّصْرِي، سايس الأمر، وبقِيَةُ المَشْيِخَةِ، واستخرجوا السلطان الذي هو يزيفه، فنصبوه للناس، وتمَّ الأمر، بما دلَّ على احتقار الدنيا عند الله؛ وانخرط هذا الخَبْث في طور غريب من التنزُّل للسلطان، والاستخدام لأمه، والتهاؤك في نُصْحِهِ، وخلط نفسه فيه، وتبذَّل في خدمته؛ يتولَّى له الأمور، ويمشي في زِيِّ الأشراف بين يديه، ويتأتَّى لشهواته، ويتظاهر بحراسته. ولما علم أن الأمر يَشُقُّ تصيرُهُ إليه من غير واسطة، بغير انقياد الناس إليه، من غير تَذْرِيج كَادِهِ^(١)، فالطف الحيلة في مساعدته على اللذات، وإغرائه بالخباثت، وشغله بالعَهَر، وقتله بالشَّهوات المنحرفة، وجعل يتبرأ من ذَنبِهِ وينفق بين الناس من سلع اغتيا به، ويرى الجماهير الإنكار لصنيعه، ويزين لهم الاستعاضة منه بعد ما غَلَطَتْ شوكته، وضمَّ الرجال إلى نفسه مَورِيًا بِحِفْظِهِ؛ والاستظهار على صَوْنِهِ. وفي الرابع من شعبان عام أحد وستين وسبعماية، ثار به في محلِّ سكناه في جواره، واستجاش أولياء غدره؛ وكبس منزله، مداخلًا للوزير المشووم، عاقداً معه صفقة الغدر. وامتنع السلطان بالبَرْج الأعظم، فاستنزله وقتله، كما مرَّ في اسم المذكور قبل، واستولى على المُلْك، فلم يختلف عليه اثنان. واشتغل طاغية الروم بحرب، كان بينه وبين القُطالِينِيَّين^(٢)، فتمالاً لمسالمته، فاغتنب الصنيع وتهنأ المنحة، وتشطَّط على الروم في شروط غير معتادة، سامحوه بها مكيدةً واستدراجًا، واجتاز أميرُ المسلمين المصائب بغيره إلى الأندلس، طالبًا لِحَقِّهِ، ومُبادِرًا إلى ردِّ أمره، فسَقَطَ في يده، ووجه الجيش إليه بمشواه من بلد رُنْدَةَ، فانصرف عنها خائبًا، ورجع أدرجه، يَشْكُ في النجاة، وتفرَّغ إليه الطاغية، ففضَّ عليه جَمُّهُ؛ وقد أجرت عليه شوكته وقبعة نصر الله فيها الدِّين، وأملَى لهذا الوغد، فلم يَقْلُهُ العَثْرَةُ بعدها، ونازل حصونه المهتضمة، واستولى على كثير منها، وحام فلم يُضْحِرْ غَلْوَةً، وأكذب ما مؤه به من البسالة، وظهر للناس بلبس الصوف، وأظهر التَّوْبَةَ على سريرة دَخِلَةٍ، وفسق مبين، وقلَّ ما بيده، ونفد بيت ماله، فلم يجد شيئًا يرجع إليه، من بعد ما سبك الآنية والحلية، وباع العقار لتبذيره، وسَحَّه المال سَحًّا، في أبواب الأراجيف

(١) كاده: أخضعه وغلبه.

(٢) هم سكان قطلونية.

والاختلاف، والبهج بالغناء، فشرف الانقلاب إلى الفرار، وأزمع إلى الانسلاخ. وعندما تحرَّك السلطان إلى غربي مالقة، ونَجَّع أهلها بطاعته ودخلوا في أمره، وسقط عليه الخبر، اشتمل على الذخيرة جمعاء، وهي التي لم تشتمل خزائن الملوك مطلقاً على مثلها، من الأحجار واللؤلؤ والقَصَب، والتَفَّ عليه الجمع المستميت، جمعُ الضلال ومَرَدُّ الغَيِّ، وخرج عن المدينة ليلة الأربعاء السابع عشر من جُمادى الآخرة، وصَوَّب وجهه إلى سلطان قُشتالة؛ مَكْظُومٌ تجنيه، وموْتُورٌ سوء جواره، من غير عهد، إلَّا ما أمل من التَبَقِّي عنده من التَّدْمِيم به، وضمان إتلاف الإسلام، واستباحة البلاد والعباد بئُكْرته.

ولَمَّا استقرَّ لديه نَزْله، تقَبَّض عليه، وعلى شرذمته المُنيفة على ثلاثمائة فارس من البُغَاة، كشيخ جنده الغربي إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الله بن عبد الحق، ومَن سواه؛ تحضَّل بسببهم بيد الطاغية، كلُّ ما تسمو إليه الآمال، من جواد فارِه، أو مَنطقة ثقيلة، وسلاح مُحَلَّى، وجَوْشَن رَفيع، وِدْرَع حصينة، وبُلْبُلَة منيعة، وبيضة مذهبة، وِبْرَة فاخرة، وصامت عتيد، وذخيرة شريفة، فتَنخَّل منهم مُتَوَلِّي التسوُّر، فجعلهم أَسْوَة رأسهم في القتل، خَرَّ بعضهم يومئذ على بعض، في القتل، وأخذتهم السيوف، فحلَّوْا بعد الشُّهرة، والتمثيل في أزقة المدينة، وإشاعة النداء في الجزيرة، ثاني رجب من العام المؤرَّخ به، وركب أسوق سائرهم الأدهم، واستَخْلَصهم الإِسار، وبادر بتوجيه رؤوسهم، فنُصِّب من فوق العَوْرَة التي كان منها تسوُّرهم القلعة، فمكثت بها إلى أن استُنْزِلت ووُريَتْ؛ وانقضى أمرُه على هذه الوتيرة مشؤوماً ذَبيراً، لم يُمتَّعه الله بالنعيم، ولا هُناك سكنى المحلَّ الكريم، ولا سَوْغُه راحة، ولا مَلاه مَوْهبة، ولا أقام على فضله حِجَّة، ولا أعانه على زُلْفَة. إنما كان رئيس السراق وعريف الخراب، وإمام الشُّرار، نَدَّر يوماً في نفسه، وقد رفعت إلى امرأة من البدو تدعي أنها سُرِقَتْ دارها، قال: إن كان ليلاً بعد ما سُدَّ باب الحمراء عليّ وعلى ناسي، فهي والله كاذبة، إذ لم يبق سارق في الدنيا، أو في البلاد، إلَّا وقد تحصل خلفه، وقانا الله المِحن، وثَبَّتْنا على مستقرِّ الرُّشد، ولا عاقنا عن جادة الاستقامة.

وزراء دولته: استوزر الوزير المشؤوم مُمدَّه في الغيِّ، الوغد، الجهول، المرتاش من السرقة، الحقود على عباد الله لغير علة عن سوء العاقبة، المخالف في الأدب سُنن الشريعة، البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة، دودة القَرِّ، ويَغْل طاحونة الغدر، وزقُّ القَطْران، محمد بن إبراهيم بن أبي الفتح الفهري، فانطلقت يده على الإِبشار، ولسانه على الأعراض، وعينه على النظر الشُّزر، وصدره على التأوّه والزَّين؛

يَلْقَى الرجل كأنه قاتل أبيه، مُحَدِّقًا إلى كَمِيهِ، يَحْتَرِشُ بهما خبيثَةً، أو يَظُنُّ بهما رشوةً، فأجاب الله دعاء المضطرين، ورغبات السَّائِلِينَ، وعاجله بالأخذة الرأبِيَّة، والبَطْشَةُ القَاضِيَّة؛ فقبض عليه في ليلة السبت العاشر لرمضان من العام المذكور، وعلى ابن عمِّه العصر فوط وعلى الحُخَيَّرَا من نواهض بيتهما، وأنفذ الأمر بتعريضهم، فمضى حكم الله بهذه المنيَّة الفرعونية فيهم، لا تبديل لكلمات الله، قاهر الجبابرة، وغالب الغلاب، وجاعل العاقبة للمتقين.

واستوزر بعده، أولي الناس وأنسبهم إلى دولته، وأحقَّهم بمظاهرتة، المسوس الجبَّار اليأس والفطرة، المختلِلُ الفكرة، القليل، المَرْجُس، الحَوْل، الشهير، الضَّعِج، محمد بن علي بن مسعود؛ فيما بُلِّيَ الناس على طول الحُمرة، وانفساح زمان التجربة، أسوأ تدبيرًا، ولا أشرَّ معاملة، ولا أبداً لسانًا، ولا أكثر شكوى ومعاتبَةً، ولا أشحَّ يَدًا، ولا أجْدَبَ جَوَانًا، من ذلك المشووم، بَنَعُ البُوم، يَنَعُ بما لا يسمع، ويسرد الأكاذيب، ويُسيء السَّمْع، فيُسيء الإجابة، ويقود الجيش فيعود بالخبيَّة، إلى أن كان الفرار، فصَحَّبه إلى مصرعه؛ وكان مَمَّن استؤثر به القيْد الثقيل، والأسر الشديد، والعذاب الأليم، عادة بذلك عبد «المالاخوينا»، التي كان يَخُجِبُ بِسَمَتِهَا، زمان ترفيهِه، فقضت عليه سَيِّئَةُ المَيِّتَةِ، مُطَرَحَ الجَنَّة. سترنا الله بستره ولا سَلَبْنَا في الحياة ولا في الممات ثوب عَنايَتِهِ.

كاتب مرَّه: صاحبنا الفقيه الأهُوَج، قصب الريح، وشجرة الخَوَر، وصوت الصُّدى، أبو محمد عبد الحق بن عَطِيَّة، المستبَدُّ بتدبير الدَّيْبِر، خُطَاً فوق الرُّقَاع الجاهلة، ومسارَّةً في الخلوات الفاسقة، وصدْعًا فوق المنابر الكَبِيْبَةِ، بحُلَّة لثَّ الرَايَةِ، ويذُبُّ عنه ذُبُّ الوالدة، ينتهي في الاعتذار عن هَنَاتِهِ إلى الغَايَات القاصرة.

قَضَائِهِ: شيخنا أبو البركات، قيسُ لَيْلَى القضاء، المخدوعُ بزخرف الدنيا على الكَبَرَةِ والعناء، لطف الله به، وألهمه رشده.

شيخ الغزاة على عهدِهِ: إدريس بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق بن مَخِيو، بقية بيت الدُّبْرَةِ، ووشيجة الشجرة المُجْتَنَّة، عُدَّ بِ فِي الجُمْلَةِ من أهل بيته عند القبض عليهم، واستقرَّ فِي القبض الأشهب من قَبِيلِهِ بالمغرب، مُطْلَقُ الإقطاع، مرموقًا بعين التجلَّة، مكنوقًا بشهرة الأب، إلى أن سُجِّيَ بِهِ إِلَى السلطان، نسيج وحده، فارس بن علي، واستشعر البَثُّ فطار به الدُّعْر لا يلوي عِنَانًا، حتى سقط بإفريقيَّة، وعبر البحر

إلى ملك بَرْجِلُونَةَ^(١)، ثم اتَّصل بالدولة النصرية، بين إدالة الغدر، وإيالة الشَّر، فقلَّده الدائلُ مشيخة الغُزاة، ونوّه به، فاستراب مُغزله يحيى بن عمر، ففرَّ إلى أرض الروم حسبما يذكر في اسمه؛ فقام له بهذا الوظيفة، ظاهر الشهرة والأبهة، مخصوصاً منه بالتجلة، إلى أن كان ما كان من إزمائه وفراره؛ فوقى له وصَّجه ركابه، وقاسمه المَسْجَة شقَّ الأبله، واستقرَّ بعد قتله أسيراً عانيًا علق الدهر، لضنائة العدو بمثله، إلى أن أفلت من دون الأغلاق، وشدَّ الوثاق. ولحقَّ بالمسلمين في خبر لم يشتمل كتابُ الفَرَج بعد الشدة على مثله، والإغراب منه، يستقرُّ في اسمه إلماغ به؛ ثم استقرَّ بالمغرب مُعْتَقَلًا، ثم مات رحمه الله.

مَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِ مِنَ الْمُلُوك: وأولاً بمدينة فاس دار مُلك المغرب، السلطان، الخَيْرُ، الكريم الأبوة، المودود قبل الولاية، اللين العريكة، الشهير الفضل في الحياة، آية الله في إغراب الصُّنع، وإغراب الإديار، أبو سالم إبراهيم بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق، أمير المسلمين، المترجم به في حرف الألف. ولما قُتل يوم الحادي والعشرين لذي قعدة من عام اثنين وستين، قام بالأمر بعده أخوه الْمُتَحَيِّلُ أبو عامر تاشفين بن علي إلى أواخر صَفَر عام ثلاثة وستين؛ ولحق بالبلد الجديد، الأميرُ أبو محمد زيان بن الأمير أبي عبد الرحمن بن علي بن عثمان المترجم به في بابه، ثم المتولَّى من عام ثمانية وستين وسبعمائة السلطان أبو فارس عمه الْمُؤْمَلُ لِلَّم الشَّعْث، وَضُمَّ الشَّر، وتجديد الأمر بحول الله، ابن السلطان الكبير الْمُقَدَّس، أبي الحسن بن سعيد بن يعقوب بن عبد الحق، وهو بعد مُتَّصل الحال إلى اليوم.

وَبَنِي مُسَانِ الْأَمِيرِ أَبُو حَمَّو، موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يَغْمَرِاسَن بن زيان.

وَبِإِفْرِيْقِيَةِ الْأَمِيرِ الْخَلِيفَةِ عَلَى عُرْفِهِمْ، إبراهيم بن أمير المؤمنين أبي يحيى بن حفص.

وَبِقَشْتَالَةِ، بَطْرَه بن الهنش بن هرائده بن شانجه المصنوع له، وليُّ النعمة منه، ومستوجبُ الشكر من المسلمين لأجله، بإراحته منهم.

وَبِرَغُون، بَطْرَه بن شانجه.

(١) برجِلُونَة: هي برشلونة.

وبرّنده، مزاحمه بالملك الفخم، أمير المسلمين حقيقة، المرتب الحق، المعقود البيعة، وصاحب الكرّة، ووليّ حُسن العاقبة، مجتث شجرته الخبيثة، وصارخُ إيالته الدنيّة، أبو عبد الله محمد بن أمير المسلمين أبي الحجاج بن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر.

مولده: مولد هذه النّسمة المشؤومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمئة.

وفاته: توفي قتيلاً ممثلاً به بطيلاطة من ظاهر إشبيلية، في ثاني يوم من رجب عام ثلاثة وستين وسبعمئة، وسيّقت رؤوس أشياعه، الغادرين مع رأسه إلى الحضرة فضّلت بها. وفي ذلك قلت: [السريع]

في غير حفظ الله من هامة هامَ بها الشّيطان في كل واد
لا خلّفت ذكراً ولا رَحمةً في قَمِ إنسانٍ ولا في فؤاد

محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف
ابن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر الخزرجي^(١)

أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه، رحمه الله.

أولّيته: معروفة.

حاله: كان معدوداً في نُبلَاء الملوك^(٢)، صيانة، وعِزّاً وشهامة، وجمالاً، وخَصْلاً؛ عَذِبَ الشّماثل، خُلُوا لِبَقاً، لَوذِعِيّاً، هِشّاً، سَخِيّاً؛ المثلّ المضروب به في الشّجاعة المقتحمة حدّ التهور جُلَسَ ظهور الخيل، وأفرس^(٣) من جال على ظهورها^(٤)، لا تقع العين، وإن غُصّت الميادين، على أذرب بركض الجياد منه، مغرماً بالصّيد، عارِفاً بِسِمَاتِ السّقار^(٥) وشّتات الخيل؛ يحبّ الأدب، ويرتاح إلى الشعر، وينبّه على العيون، ويُلِمُّ بالنادرة الحازة. أُخِذَتْ له البيعة يوم مهلك أبيه، وهو^(٦) يوم الثلاثاء السابع والعشرين لرجب

(١) هذه الترجمة وردت كاملة في اللّحة البدرية (ص ٩٠ - ١٠٢) وجاء فيه الاسم هكذا:

«محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، أمير المسلمين بالأندلس بعد أبيه، يكنى أبا عبد الله».

(٢) في اللّحة البدرية (ص ٩٠): «الملوك وأبناء الملوك صرامة وعِزّة وشهامة...».

(٣) في اللّحة البدرية: «أفرس». (٤) في اللّحة البدرية: «على صهوة».

(٥) في اللّحة البدرية: «السّفار وشيات الخيل». (٦) كلمة «وهو» ساقطة في اللّحة.

من^(١) عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وناله الحجب، واشتملت عليه الكفالة إلى أن شب^(٢) وظهر، وفتك بوزيره المتغلب على ملكه، وهو غلام لم يَبْقُلْ خُذَهُ، فِهَيْبَ شَأْنَهُ، وَرَهَبَتْ سَطُوتُهُ، وَبَرَزَ لِمَبَاشِرَةِ الْمِيَادِينِ، وَارْتِيَادِ الْمَطَارِدِ، وَاجْتِلَاءِ الْوُجُوهِ، فَكَانَ مَلَأَ الْعَيُونَ وَالْصُدُورَ.

ذَكَأُوهُ: حَدَّثَنِي^(٣) الْقَائِدُ أَبُو الْقَاسِمِ ابْنُ الْوَزِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَيْسَى وَزِيرُ جَدِّهِ، قَالَ: تَذَوِّكِرَ يَوْمًا بِحَضْرَتِهِ تَبَايُنُ قَوْلِ^(٤) الْمَتْنَبِيِّ^(٥): [الْمُتْقَارِبِ]

أَلَا^(٦) خَدَّدَ اللَّهُ وَرَدَ الْخُدُودِ وَقَدْ قُدِّرَ الْجِسَانِ الْقُدُودِ

وقول امرئ القيس^(٧): [الطويل]

وإن كنت قد ساءت لك مني خليفة فسلي ثيابي من ثيابك تنسل^(٨)

وقول إبراهيم بن سهل^(٩): [البسيط]

إني له من ذي المسفوك مغتذر^(١٠) أقول حمْلُهُ في^(١١) سَفَكَه نَعْبًا

فقال، رحمه الله، بديهة^(١٢): بينهما ما بين نفس ملك عربي وشاعر^(١٣)، ونفس يهودي تحت الدُّمَّة، وإنما تنفس بقدر هممتها^(١٤)، أو كلامًا هذا معناه. ولما^(١٥) نازل مدينة قَبْرَةَ ودخل جَفَنُهَا عَثْوَةً^(١٦)، ونال قصبتها، ورماها بالنفط، وتغلب عليها، وهي ما هي عند المسلمين، وعند النصارى^(١٧)، من الشهرة والجلالة، بادرناه^(١٨) نُهَيْتُهُ بما

(١) كلمة «من» ساقطة في اللوحة.

(٢) في اللوحة البدرية (ص ٩١): «شدا وظهر، وشب عن الطوق. وفتك...».

(٣) في اللوحة: «حدثني ابن وزير جده القائم أبو القاسم بن محمد بن عيسى قال...».

(٤) في اللوحة: «تباين معنى قول...».

(٥) ديوان المتنبي (ص ٤٧).

(٦) في الديوان واللوحة: «أيا».

(٧) ديوان امرئ القيس (ص ١٣) واللوحة البدرية (ص ٩١).

(٨) يقول: إذا لم تعجبك خليفتي فأخرجني أمري من أمرك. ويقال: نسل الریش: سقط.

(٩) ديوان ابن سهل الإسرائيلي (ص ١٥) واللوحة البدرية (ص ٩١).

(١٠) في الأصل: «معتذراً» والتصويب من الديوان واللوحة البدرية.

(١١) في الديوان واللوحة: «من».

(١٢) في اللوحة: «بديهة» - على حدائقه -: بينهم.

(١٣) في اللوحة: «وشاعر عربي».

(١٤) في اللوحة: «همها، أو ما معناه هذا».

(١٥) في اللوحة: «لما».

(١٦) في اللوحة: «ودخلها عثرة، وهي ما هي...».

(١٧) في اللوحة: «والنصارى».

(١٨) في اللوحة: «بادرناه».

تُسَقُّ^(١) له، فَرَزَى^(٢) وجهه عثا، وقال: ماذا تهتُونَنِي به، كأنكم رأيتم تلك الخِرْقَةَ بكذا^(٣) - يعني العَلَمَ الكبير - في منار إشبيلية^(٤)، فعجِبْنَا من بُعْدِ هِمَّتِهِ، وَمَزَمَى عِزْمَهُ^(٥).

شجاعته: أَقَسَمَ أن يُغَيِّرَ على باب مدينة بِيَانَةٍ في عِدَّةٍ قَلِيلَةٍ عَيْنَهَا المَيِّمُنُ^(٦)، فوقع البَهْتُ وتَوَقَّعت الفَاقِرَةُ، لقرب الصُّرَيْخِ، وَمَنَعَةُ الحَوَزَةِ، وكثرة الحامية، واتصال تُخُومِ البلاد، ووفور الفرسان بذلك الصُّقْعِ؛ وتَنَخَّلَ أهل الحفاظ، وهجم^(٧) على باب الكَفَّارِ نَهَارًا، وانتهى إلى باب المدينة، وقد برزت الحامية، وتوقع فرسان الرُّومِ الكُفْمَاءَ، فَأَقْصَرُوا عن الإحصار، وَحَمِي المسلمون فَشَدُّ عليهم، فأعطوهم الضَّمَّةَ ودخلوا أمامهم المدينة؛ ورمى السلطان أحد الرجال النّاشِبةَ بمِزْرَاقٍ كان بيده مُحَلًى السَّنانِ رفيع القيمة، وتحامل^(٨) يريد الباب فمِنَعَ الإِجْهَازُ^(٩) عليه، وانتزاع الرُّمَحِ الذي كان يجرُّه خلفه، وقال: اتركوه يُعَالِجُ به رُمُوحَهُ^(١٠) إن كان أخطأته المَيِّتَةُ، وقد أفلت من أنشُوطَةِ خطرٍ عظيم.

جهاده ومناقبه: كان له وقائع في الكَفَّارِ، على قَلَّةِ أيامه، وتحرك ونال البلاد، وفتح قُبْرَةٍ، ومُقَدِّمُ جيش العدو الذي بَيَّتَ بظاَهرِها وأنخَنَ فيه، وفتح الله على يده مدينة باغوة، وتغلب المسلمون على حصن قَشْتَالَةِ، ونازل حصن قَشْرَةَ^(١١) بنفسه لدى قَرْطَبَةِ، فكاد أن يتغلب عليه، لولا مددُ اتَّصل للنصارى به. وأعظم مناقبه تَخْلِيسُ جَبَلِ القَتِّحِ، وقد أخذ الطاغيةَ بِكَطْمِهِ، ونازله على قرب العهد من تَمَلَّكِ المسلمين إِيَّاه، وناخ^(١٢) بكلِّكَلِهِ، وهذ بالمجانيق أسواره، فدارى الطاغية، واستنزل

(١) في اللوحة: «تسقى».

(٢) في اللوحة: «فزوى عثا وجهه قانلاً وماذا...».

(٣) في اللوحة: «الكذا».

(٤) المراد منار جامع إشبيلية الذي بناه المنصور يعقوب بن يوسف الموحد سنة ٥٩٣ هـ، ويُعرف باسم «لاجيرالدا» La Giralda. البيان المغرب - قسم الموحدين (ص ٢٢٧ - ٢٢٨).

(٥) في اللوحة: «ألمه».

(٦) في اللوحة البدرية (ص ٩٢): «في عدة يسيرة من الفرسان عَيَّنَهَا المَيِّمُنُ».

(٧) في اللوحة البدرية: «وهجم عليها فانتهى إلى بابها وحمل على أضعافه...».

(٨) في اللوحة البدرية: «وتحامل الطعين يريد...».

(٩) في اللوحة البدرية «من الأجهاز».

(١٠) في اللوحة البدرية: «جرحه إن أخطأته...».

(١١) في اللوحة البدرية: «قشرة لأول أمره وهذ سوره، وكاد يتغلب عليه لولا مدد دخله، فارتحل وقد ذرَّخ الصقْع».

(١٢) في اللوحة البدرية (ص ٩٣): «وأناخ عليه بكلِّكَلِهِ».

عزَمَهُ وَتَحَفَّهُ^(١)، ولحق في موضع اختلاله، إلى أن صرفه عنه، وعقد له صلحاً، ففازت به قداح الإسلام، وتخلَّصه من بين ناب العدو وظُفَره؛ فكان الفتح عظيمًا لا كَفَاءَ لَهُ.

بعض الأحداث في دولته: وفي شهر المحرم^(٢) من عام سبعة وعشرين وسبعمائة، نشأت بين المتغلب^(٣) على دولته، وزيره، وبين شيخ الغزاة وأمير القبائل العُدوية، عثمان بن أبي العلاء، الوُخْشَة وألحقت ريعها السعايات، فصبت على المسلمين شُوبوب فتنة عَظُمَ فيهم أثرها^(٤) معاطبًا، وسُمَّ الانصراف عن الأندلس، فلحق^(٥) بساحل المريّة، وأخوزته المذاهب وتحامت جواره المملوك، فداخل^(٦) أهل حصن أنْدَرَشْ، فدخل في طاعته، ثم استضاف^(٧) إليه ما يجاوره، فأغضل الذاء، وتفاقت اللأواء، وغامت سماء الفتنة^(٨)، واستنفذ خزائن الأموال المستعدة لدفاع العدو، واستلحق الشيخ أبو سعيد عمّ السلطان، وقد استقرّ بِتِلْمَسَان، فلحق به، وقام بدعوته في أخريات صَفَر عام^(٩) سبعة وعشرين وسبعمائة؛ واغتنم الطاغية فتنة المسلمين فنزل ثغر بيرة^(١٠)، ركاب الجهاد، وشجى العدو، فتغلب عليه، واستولى على جملة من الحصون التي تجاوره، فاتسع نطاق الخوف^(١١)، وأغيا داء الشَّرِّ، وصُرفَ إلى نظر^(١٢) ملك المغرب، في أخريات العام، رُئْدَة ومزبلة وما يليهما^(١٣)، وتردّدت الرسائل بين السلطان وبين شيخ الغزاة، فأجلّت^(١٤) الحال عن مهادنة، ومُعاودة للطاعة، فصرف أميرهم أدرجه إلى العُدوة، وانتقلوا إلى سكنى وادي آش على رَسم الخدمة والحماية على شروط مقرّرة؛ وأوقع السلطان بوزيره، وأعاد الشيخ إلى محلّه من حَضْرته؛ أوائل عام ثمانية وعشرين بعده، واستقدم القائد الحاجب أبا النعيم رضوان من أعاصم حباله

(١) في اللوحة البدرية: «وتاحفه إلى أن صرفه عنه ففازت به قداح الإسلام».

(٢) في اللوحة البدرية: «محرم».

(٣) في اللوحة البدرية: «بين وزيره المتغلب على أمره محمد بن أحمد المحروق وبين شيخ الغزاة عثمان بن أبي العلى فصبت...».

(٤) في اللوحة البدرية: «أثرها فخرج مغاضبًا وهم للانصراف...».

(٥) في اللوحة البدرية: «ولحق».

(٦) في اللوحة البدرية: «واستضاف».

(٧) في اللوحة البدرية: «المحنة. واستلحق المذكور عمّ السلطان...».

(٨) في اللوحة البدرية: «من عام».

(٩) في اللوحة البدرية: «ونازل ثغر بيرة».

(١٠) في اللوحة البدرية: «نظر السلطان ملك».

(١١) في اللوحة البدرية: «إليهما».

(١٢) في اللوحة البدرية: «وأجلت الحال إلى مهادنة عثمان بن أبي العلى، وصرف...».

قتيله، فقام بأمره أحسن قيام. وعبر البحر بنفسه بعد استقرار مُلكه في الرابع والعشرين من شهر ذي حجة من^(١) عام اثنين وثلاثين وسبعمائة، فاجتمع مع ملك المغرب السلطان الكبير أبي الحسن بن عثمان، فأكرم نَزْلَه، وأصحبه إلى الأندلس، وحباه بما لم يُخب به ملك تقدّمه، من مغرّيات^(٢) الخيل، وخطير الذخيرة، ومُسْتَجَاد العُدّة؛ ونزل^(٣) الجيش على أثره جبل الفتح؛ وتوجّه الحاجب أبو النعيم بأكبر إخوة السلطان، مُظَاهِرًا على سبيل الثّيابة، وهبًا الله فتحه. ثم استنقذه بلحاق السلطان، ومحاولة أمره كما تقدّم، فتمّ ذلك يوم^(٤) الثلاثاء الثاني عشر لذي^(٥) حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة.

وزراء دولته: ورَزَّ له وزير أبيه^(٦)، وأخذ له البيعة، وهو مُثخن^(٧) بالجراحات التي أصابته يوم القَتْل بآبيه السلطان أبي الوليد، ولم ينشب أن أجهز^(٨) جُرح تجاوز عَظْم الدماغ، بعد مُصابرة ألم العلاج الشديد، حسبما يأتي في اسمه، وهو أبو الحسن علي بن مسعود بن يحيى بن مسعود المحاربي. وترقى إلى الوزارة والحجابة وكيل أبيه محمد بن أحمد^(٩) المحروق، من أهل غرناطة، يوم الاثنين عُرّة شهر رمضان من^(١٠) عام خمسة وعشرين وسبعمائة، ويأتي التعريف بهم. ثم اغتيل^(١١) بأمره، عشّي ثاني يوم من محرم فاتح تسعة وعشرين وسبعمائة. ثم وزر له القائد^(١٢) أبو عبد الله بن القائد أبي بكر عتيق بن يحيى بن المول من وجوه الدولة، وصدور من يمتُّ بوضله، إلى السابع عشر من رجب من العام؛ ثم صُرف إلى العُدوة. وأقام رسم الوزارة والحجابة والنيابة^(١٣) أبو النعيم مولى أبيه، إلى آخر مدته، بعد أن التأث أمره

(١) كلمة «من» ساقطة في اللوحة البدرية (ص ٩٤).

(٢) في اللوحة البدرية: «مقربات». (٣) في اللوحة البدرية: «وناذل على أثره...».

(٤) في اللوحة البدرية: «في يوم».

(٥) في اللوحة البدرية: «من شهر ذي حجة عام...».

(٦) في اللوحة البدرية: «أبيه أبو الحسن بن مسعود، وأخذ...».

(٧) في اللوحة البدرية: «مُثخن بما أصابه من الجراحات يوم...».

(٨) في اللوحة البدرية: «أن أجهزت عليه عدواها...».

(٩) في اللوحة البدرية: «أحمد بن محمد بن المحروق».

(١٠) كلمة «من» ساقطة في اللوحة. (١١) في اللوحة البدرية: «ثم قُتل ثاني يوم...».

(١٢) في اللوحة البدرية: «القائد محمد بن أبي بكر بن يحيى بن مول، المعروف بالقيجاطي، من وجوه الدولة إلى سابع عشر من شهر رجب...».

(١٣) في اللوحة البدرية: «والنيابة مولى أبيه القائد أبو النعيم رضوان الشهير الديانة والسعادة إلى آخر

مدته...».

لديه، وزاحمه بأحد المماليك المسمى^(١) بعصام حسبما يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

رئيس كُتّابه: كتب له^(٢) كاتب أبيه قبله، وأخيه بعده، شيخنا نسيح وحده، أبو الحسن علي بن الجيّاب الآتي ذكره في موضعه إن شاء الله.

قضائه: استمرت الأحكام لقاضي أبيه، أخي^(٣) وزيره، الشيخ الفقيه أبي بكر^(٤) بن مسعود، رحمه الله، إلى عام سبعة وعشرين وسبعمائة، ووجهه^(٥) رسولاً عنه إلى ملك المغرب، فأدرّكه^(٦) وفاته بمدينة سلا، فدفن بمقبرة سلا^(٧). رأيت قبره بها، رحمه الله. وتخلّف ابنه^(٨) أبا يحيى مسعود^(٩) عام أحد وثلاثين وسبعمائة؛ وتولّى الأحكام الشرعية القاضي أبو عبد الله محمد بن يحيى بن بكر الأشعري^(١٠)، خاتمة الفقهاء، وصدر العلماء، رحمه الله، فاستمرت له الأحكام إلى تمام مدة أخيه بعده.

أمه: رومية اسمها «علوة» وكانت أحظى لذاتها عند أبيه، وأمّ بكره، إلى أن نزع عنها في أخريات أمره، لأمر جرّته الدالة، وتأخرت وفاتها عنه إلى مدة أخيه.

من كان على عهده من الملوك بأقطار المسلمين والنصارى:

فيفاس^(١١)، السلطان الكبير، الشهير، الجواد، خذّن العافية، وحلف السعادة، وبحر الجود، وقضبة الحلم، أبو سعيد عثمان بن أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، الذي بذل المعروف، وقرب الصلحاء والعلماء، وأدنى مكانهم، وأعمل إشارتهم، وأوسع بأعطيته المؤمنين المستزفدين، وعظم قدره، واشتهر في الأقطار صيته، وفشا

(١) في اللوحة البدرية: «يسمى عصاماً أياماً يسيرة بين يدي وفاته».

(٢) في اللوحة (ص ٩٥): «عنه كاتب أبيه وأخيه شيخنا الإمام العلامة الصالح أبو الحسن بن الجيّاب رحمه الله إلى آخر مدته».

(٣) في اللوحة البدرية: «وأخي».

(٤) في اللوحة البدرية: «أبي بكر يحيى بن مسعود المحاربي، رحمه الله...».

(٥) في اللوحة البدرية: «فتوجه رسولاً إلى...».

(٦) في اللوحة البدرية: «وأدرّكه الوفاة...» (٧) في اللوحة البدرية: «شالة».

(٨) في اللوحة البدرية: «ولده».

(٩) في اللوحة البدرية: «مسعوداً نائباً عنه، فاستمرت له الأحكام...».

(١٠) في اللوحة البدرية: «الأشعري المالقي».

(١١) في اللوحة البدرية ص (٩٥): «وأولاً بالمغرب السلطان الشهير الكبير الجواد وليّ العافية

وحليف السعادة أبو سعيد...».

معروفه، وعُرِفَتْ بالكفّ عن الدماء والحُرُمات عَقَّتْه، إلى أن توفي يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة^(١) عام أحد وثلاثين وسبعمئة. ثم صار الأمر إلى ولده السلطان، مُقْتَفِي^(٢) سُنَّتْه في الفضل والمجد، وضخامة السلطان، مبراً عليه بالبأس المرهوب، والعزم الغالب، والجَدُّ الذي لا يشوبه هَزَل، والاجتهاد الذي لا تتخلّله^(٣) راحة، الذي بَعْدَ مَداه، وأذعن لصولته عداه، واتصلت ولايته مدته، ومعظم مدة أخيه الوالي بعده.

وبِتِلْمِسان الأمير عبد الرحمن بن موسى^(٤) بن يَغْفَرِاسِن، من بني عبد الواد، مُشِيدُ القصور، ومُرُوضُ الغروس، ومُتَبِّكُ الثَرَف، واتصل^(٥) إلى تمام مدته، وصدرًا من مدة أخيه بعده.

وبتونس الأمير أبو يحيى، أبو بكر بن الأمير أبي زكريا بن الأمير أبي إسحاق لبنة تمام قومه، وصَفَرُ الجوارح^(٦) من عُشّه، وسابق الجياد من حَلْبَتِه، إلى تمام المدة، وصدرًا كبيرًا من دولة أخيه بعده.

ومن ملوك النصارى^(٧)، مَلَكٌ على عهده الجفرتين القنيطية والتاكرونية، الطاغية المرهوب الشبّا، المسلط على دين الهدى، ألْهَنْشَةُ بن هِرَانْدَةُ بن شانجه بن أَلْفَنْش بن هِرَانْدَةُ، الذي احتوى على كثير من بلاد المسلمين حتى الجفرتين. واتصلت أيامه إلى أخريات أيام أخيه، وأوقع بالمسلمين على عهده، وتملك الجزيرة الخضراء وغيرها.

وبرغُون، أَلْفَنْش بن جايماش بن أَلْفَنْش بن بَطْرَه^(٨) بن جايماش الذي استولى على بَلَنْسِيَّة، ودام إلى آخر مدته، وصدرًا من مدة أخيه. وقد استقصينا من العيون أقصى ما سَحَّ به الاستقصاء، وما أغفلناه أكثر، والله الإحاطة.

مولده: في الثامن من شهر المحرم من عام خمسة عشر وسبعمئة.

(١) في اللوحة البدرية: «قعدة».

(٢) في اللوحة البدرية: «المقتفي سنته في المجد والفضل...».

(٣) في الأصل: «يتخلّله».

(٤) في الأصل (ص ٩٦): «موسى أبو تاشفين، مشيد...».

(٥) كلمة «واتصل» غير واردة في اللوحة البدرية.

(٦) في اللوحة البدرية: «وصفر جوارح متأخريهم إلى تمام مدته وصدرًا كبيرًا من دولة أخيه».

(٧) في اللوحة البدرية: «النصارى، وأولاً بقشتالة: أَلْفُونش بن هِرَانْدَةُ بن شانجه بن أَلْفُونش بن هِرَانْدَةُ الذي ملك على عهده الجفرتين...».

(٨) في اللوحة البدرية: «بيطره بن أَلْفُونش بن بيطره بن جايماش المستولي على بلنسية إلى آخر...».

وفاته: وإلى هذا العهد مات؛ وَغَرَّت عليه من رؤوس الجند، من قبائل
 العُدوة، الصُّدُور، وَشَحْنَتْ عليه القلوب غِيظًا؛ وَكَانَ شَرِّهَا لِسَانَهُ، غير جزوع ولا
 هَيَاب^(١)، فربما يتكلَّم بملء فيه من الوعيد الذي لا يخفى على الْمُعْتَمِد به. وفي ثاني
 يوم من إقلاع الطاغية من الجَبَل^(٢)، وهو يوم الأربعاء الثاني^(٣) عشر من ذي حجة،
 وقد عزم على ركوب البحر من ساحل مربلة^(٤)، فهو مع وادي ياروا من ظاهر جبل
 الفتح، تخفیفًا للمؤونة، واستعجالًا للصُّدُور، وقد أُخِذَتْ على حركته المراسد؛
 فَلَمَّا تَوَسَّطَ كَمِينَ القوم، ثاروا إليه وهو راكب بَغْلًا أثابه به ملك الروم، فشرعوا في
 عَثْبِهِ بكلام غليظ، وتأنيب قبيح، وبدأوا بوكيله فقتلوه، وعَجَّل بعضهم بطَّعْنَهُ،
 وترامى عليه مملوك من مماليك أبيه، رَئِمَةٌ^(٥) من أخابيث العلوج يسمَّى زِيَانًا،
 صُوْنِعَ على مباشرة الإجهاز عليه، ففُضِيَ لحينه بَسْفَح^(٦) الرَبوة المائلة، يسرة العابر
 للوادي مَنْ يَقْصِدُ جَبَلَ الْفَتْحِ^(٧)، وتركوه بالعراء^(٨) بادي البوار، مسلوب البِزَّة،
 سيء المَصْرَع، قد عَدَّت عليه نعمه، وأَوْبَقَهُ سلاحه، وأسلمه أنصاره وحُماته.

ولَمَّا فرغ القوم من مبايعة أخيه السلطان^(٩) أبي الحجاج، صُرِّقَت الوجوه
 يومئذ^(١٠) إلى دار الملك، وَثُقِلَ القَتِيل إلى مالقة، فدفن على حاله تلك برياضٍ تجاور
 مُنْبِئَةَ السَّيْد، فكانت وفاته ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر لذي^(١١) حجة من عام
 ثلاثة^(١٢) وثلاثين ومبعمائة. وأقيمت على قبره^(١٣) بعد حين قُبَّة، وتُوِّه بقبره. وهو
 اليوم^(١٤) مائل زَهْن غَرْبِيَّة، وجالب عِبْرَةٍ، جعلنا الله للقاءه على حذر وأُخْبَةٍ، وبِلُوح
 الرخام المائل عند رأسه مكتوب:

-
- (١) في اللوحة البدرية: «هَيَابَة». (٢) في اللوحة البدرية: «عن جبل الفتح».
- (٣) في اللوحة البدرية: «ثالث عشر من شهر ذي الحجة...».
- (٤) في اللوحة البدرية (ص ٩٧): «ساحل منزله بموقع وادي السقايين، تماروا من ظاهر الجبل...».
- (٥) في اللوحة البدرية: «زئمة من أخابث المملوجا اسمه زيان، صونع...» والزئمة: الوغد.
- (٦) في اللوحة البدرية: «في سفح». (٧) في اللوحة البدرية: «الجبل».
- (٨) في اللوحة البدرية: «بالعراء مسلوب الساتر، سيء...».
- (٩) في اللوحة البدرية: «السلطان يوسف صُرِفَتْ...».
- (١٠) كلمة: «يومئذ» ساقطة في اللوحة.
- (١١) كلمة: «من ذي حجة عام...» ساقطة في اللوحة.
- (١٢) في الأصل: «ثلاث» وهو خطأ نحوي.
- (١٣) في الأصل: «وأقيمت عليه بعيد زمان قبة...».
- (١٤) في الأصل: «الآن مائل بها رهن وحدة، ومستدعى عبدة، وعليه مكتوب».

هذا قَبْرُ السلطان الأجلِّ، الملك الهمام، الأَمْضَى الباسل، الجواد ذِي المجد الأئيل، والملك الأصيل، المقدَّس، المرحوم، أَبِي عبد الله محمد بن السلطان الجليل؛ الكبير، الرفيع، الأَوْحد، المجاهد، الهمام، صاحب الفتوح المسطورة^(١)، والمغازي المشهورة، سَلالة أنصار النبي، ﷺ، أمير المؤمنين^(٢)، وناصر الدين، الشهيد، المقدَّس، المرحوم أَبِي الوليد بن فرج بن نصر، قدَّس الله روحه ويرُدَّ ضريحه. كان مولده في الثاني^(٣) لمحرَّم عام خمسة عشر وسبعمائة، ويُويع في اليوم الذي استشهد فيه والدُه رضي الله عنه السادس والعشرين لرجب عام خمسة وعشرين وسبعمائة، وتوفي رحمه الله في الثالث عشر لذي حجة من عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة، فسبحان مَنْ لا يموت: [الكامل]

يا قَبْرَ سلطانِ الشجاعة والنُدَى	فرع الملوكِ الصيدِ أعلام الهدى
وسَلالةِ السلفِ الذي آثاره	وضَاحَةً لِمَنْ اقتدى وَمَنْ اهتدى
سَلَفَ لأنصارِ النبي نِجاره	قد حَلَّ مِنْهُ في المكارم مَحْجِدًا
متوسِّطُ البيتِ قد أَسَسَتْ	هُ سادَةُ الأُملاكِ أَوْحَدًا
بيتَ بناه ^(٤) مُحَمَّدُونَ ثلاثة	من آلِ نصرِ أورثوه مُحَمَّدًا
أَوْدَعَتْ وَجْهًا قد تَهَلَّلَ حُسْنُهُ	بَذَرًا بِأفاقِ الجلالة قد بدا
ونَدًا يَسُخُّ على العفاة مواهبًا	مَثْنَى الأيادي السابغات وموحدا
يَبْكِيكَ مذعورٌ بك استَعْدَى على	أعدائه فسَقَيْتَهُمْ كأسَ الردى
يَبْكِيكَ محتاجٌ أُنَّاكَ مُؤَمِّلًا	فغدا وقد شَفَعَتْ يداكَ له اليدا
أَمَّا سَمَّاخُكَ فَهوَ أَمْنَى ^(٥) دِيَّة	أما جلالُكَ فهو أَسْمَى مصعدًا
جادت ثَرَاكَ من الإله سحابة ^(٦)	لرضاه عنكَ تجوِّدُ هذا المَعْهَدًا

[وشرُّ ما تبع هذا السلطان تواطؤ قَتَلْتَهُ من بني أَبِي العلاء وأصهارهم وسواهم من شيوخ خدامه، كالوكيل في مدة أخيه بعد، الشيخ الذهول مسافر بن حركات وسواه، على اكتاب عَقْد بعد وفاته، بأمور من القول تَقْدَح في أصل الديانة، وأغراض تقتضي إلى الوهن في الدين، وهَنَات تُسَوِّغ إراقة دمه الذي

(١) في الأصل: «المسورة».

(٢) في الأصل: «المسلمين».

(٣) في الأصل: «الثامن».

(٤) في اللوحة البدرية (ص ٩٨): «بنوه».

(٥) في اللوحة البدرية: «أهمى ديمة».

(٦) في اللوحة البدرية: «سحاب».

توفرت الدواعي على حياطته، والذَّب عنه، تولَّى كُبرها شيخنا أبو الحسن بن الجِيَاب، مرتكبًا منها وصمة مَحَث على غُرر فضله إلى كثير من خُدامه ومماليكه، وبعثوا بها إلى ملك المغرب، فاقتطعت جانب التمهيل والتأخير واللبث عن الحكم، والتعليل عن السَّماع، ويُرور الأغراض، واتَّباع السيئة أمثالها. وقد كان، رحمه الله، من الجهاد وإقامة رسم الدين، بحيث تَزَلَّ عن هذه الهَنات صفاته، وتُتكر هذه المذمَّات صفاته، وكان بمكانٍ من العزِّ، وإرسال السُّجية، ربما عَدَّله الشيخ في بعض الأمر، فيسجُم إضجارًا وتمليحًا بإخراجه؛ ولم يمرَّ إلا الزمان اليسير؛ وأوقع الله بالعُصبة المتماثلة عليه من أولاد عبد الله، فسَفَّتْهُم رياح الثُّكبات، واستأصلت نعمهم أيدي الثُّقَمات، ولم تقم لهم من بعد ذلك قائمة، والله غالب على أمره^(١).

وتَبِعَت هذا السلطانَ نفوسُ أهل^(٢) الحرية، ممَّن له طبع رقيق، وجسُّ لطيف؛ ووفاء كريم، ممَّن كان بينه وبين سطوته دفاع؛ وفي جوِّ اعتقاده له صفاء؛ فصدرت^(٣) مَرَاثٍ مؤثرة، وأقاويل للشجون مهيجة، ثبتت منها يسيرًا على العادة. فمن ذلك ما نظمته الشيخ الكاتب^(٤) القاضي أبو بكر بن شبرين؛ وكان على^(٥) فصاحة ظرفه، وجمال روايته، غُرَاب قُزْبِه، ونائحة مأثمة، يرثيه ويُعرَض ببعض مَن حمل عليه من^(٦) ناسه وخُدامه: [مجزوه الرمل]

استَقْلًا ودعائي طائفًا بين المغاني
وانعما بالصبر إني لا أرى ما تريان

ومن قوله^(٧): [الخفيف]

عينُ بكِّي لَمِيَّتِ غادروهُ في ثراه مُلَقَى وقد غدروهُ
دفنوه ولم يُصَلِّ عليه أَحَدٌ مِنْهُمْ ولا غَسَلُوهُ
إنما مات يوم^(٨) مات شهيدًا فأقاموا رسمًا ولم يَقْصِدُوهُ

(١) ما بين قوسين ساقط في اللمحة البدوية. (٢) في اللمحة البدوية: «أولي».

(٣) في اللمحة البدوية: «فصدر فيه من التابين أقاويل...».

(٤) كلمة «الكاتب» ساقطة في اللمحة.

(٥) في اللمحة البدوية: «على ظرفه وحسن رواه غراب ندية ونائحة حاتم يرثيه...».

(٦) في اللمحة البدوية: «عليه من خُدامه». (٧) الأبيات في اللمحة البدوية (ص ١٠٢).

(٨) في اللمحة البدوية: «حين».

محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد
ابن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي^(١)

ثالث الملوك من بني نصر، يكنى أبا عبد الله.

أوليته: معروفة.

حاله: كان من أعظم أهل بيته، صيتاً وهمة، أصيل المجد، مليح الصورة، عريق الإمارة، ميمون الثقيبة، سعيد النصبة، عظيم الإدراك؛ نهناً العيش مدة أبيه، وتملى^(٢) السياسة في حياته، وباشر الأمور بين يديه، فجاء نسيج وخده إدراكاً، وثبلاً، وفخاراً، وشأواً^(٣). ثم تولى الأمر بعد أبيه فأجراه على ديدنه؛ وتقبل^(٤) سيرته، ونسج على منواله. وقد كان الدهر ضايقه في حصته، ونقصه ملاذ الملك بزمانه^(٥) سديكت^(٦) بعينه لمداخلة^(٧) الشهر، ومباشرة أنوار ضخام الشمع، إذ كانت تتخذ له منها جذوع في أجسادها مواقيت تخبر بانقضاء ساعات الليل، ومضي الربع^(٨)، وعلى التزامه لكتنه وغيبوته في كسر بيته، فقد خدمته السعود، وأملت بآب الفتوح، وسالمته الملوك، وكانت أيامه أعياداً. وكان يقرض الشعر ويصفي إليه ويثيب عليه، فيجيز الشعراء، ويرضخ^(٩) للندماء، ويعرف مقادير^(١٠) العلماء، ويواكل الأشراف والرؤساء، ضارباً في كل إصلاح^(١١) بسهم، مالتاً^(١٢) من كل تجربة وخنكة، حاراً النادرة، حسن التوقيع، مليح الخط، تغلب^(١٣) عليه الفظاظ والقسوة.

(١) هذه الترجمة وردت كاملة في اللوحة البدرية (٦٠ - ٦٩).

(٢) في اللوحة البدرية (ص ٦٠): «وتملى السياسة حياته».

(٣) في اللوحة البدرية: «وفخامة ويأوا».

(٤) في الأصل: «وتقبل» والتصويب من اللوحة البدرية.

(٥) الزمانة: العامة الدائمة. لسان العرب (زمن).

(٦) سديكت بعينه: لزمتهما. لسان العرب (سديك).

(٧) في اللوحة البدرية (ص ٦١): «لمواصلة». (٨) في اللوحة البدرية: «الهزيع».

(٩) يرضخ للندماء: يبذل لهم المعطايا؛ يقال: رَضَخَ له من ماله يَرْضِخُ رَضْخًا إذا أعطاه. لسان العرب (رضخ).

(١٠) في الأصل «مقادير» والتصويب من اللوحة البدرية.

(١١) في اللوحة البدرية: «اصطلاح». (١٢) في اللوحة البدرية: «ملياً».

(١٣) في اللوحة البدرية: «يغلب».

شعره: كان^(١) له شعر مُستظرف من مثله، لا بل يُفَضَّل به الكثير ممن ينتحل الشعر من الملوك. ووقعت^(٢) على مجموع له، ألفه بعض خدامه، فنقلت^(٣) من مطولاته: [السريع]

وَاعَدَنِي وَغَدَاً وَقَدْ أَخْلَفَا أَقْلُ شَيْءٍ فِي الْمَلِيحِ^(٤) الْوَفَا
وَحَالَ عَنْ عَهْدِي وَلَمْ يَزَعْه مَا ضَرَّهُ لَوْ أَنَّهُ^(٥) أَنْصَفَا
مَا بِالْهَذَا لَمْ تَنْتَعِطْ عَلَى صَبِّ^(٦) لَهَا مَا زَالَ مُسْتَعِطَا
يَسْتَطْلِعُ الْأَنْبَاءُ مِنْ نَحْوِهَا وَيَرْقُبُ الْبَرْقُ إِذَا مَا هَفَا
خَفِيَتْ سُقْمًا عَنْ عَيُونِ الْوَرَى وَبَانَ حُبِّي بَعْدَ مَا قَدْ خَفَا
لَهُ كَمْ مِنْ لَيْلَةٍ بِثُهَا أُدِيرُ مِنْ ذَاكَ اللَّمَى قَرْقَفَا^(٧)
مَتَّعَنِي بِالْوَضَلِ مِنْهَا وَمَا أَخْلَفْتُ وَغَدَاً^(٨) خِلْتُ أَنْ يُخْلَفَا
ومنها:

مَلِكُكَ الْقَلْبَ وَإِنِّي أَمْرُؤُ عَلَيَّ مُلْكُ الْأَرْضِ قَدْ وَقَفَا
أَوَامِرِي فِي النَّاسِ مَسْمُوعَةً وَلَيْسَ مِنِّي فِي الْوَرَى أَشْرَفَا
يُرْهَفُ سَيْفِي فِي الْوَعَى مُضَلَّتَا^(٩) وَيُتَّقَى عِزْمِي إِذَا مَا أَرْهَفَا
وَتُرْتَجَى يُمْنَايَ يَوْمَ الثُّدَى تَخَالُهَا السُّخْبُ عَدَتْ وَكُفَا
نَحْنُ مُلُوكُ الْأَرْضِ مَنْ مِثْلَنَا حُزْنَا تَلِيدَ الْفَخْرِ وَالْمُطْرَفَا
نُخَافُ إِقْدَامًا وَتُرْجَى نَدَى اللَّهُ مَا أَرْجَى وَمَا أَخَوْفَا
لِي رَايَةٌ فِي الْحَرْبِ كَمْ غَاذَرَتْ رَنَعَ الْعِدَا قَاعًا بِهَا صَفْصَفَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمُنَى جَمَّةُ وَالذُّهْرُ يَوْمًا هَلْ يُرَى مُنْصِفَا
هَلْ يَرْتَجَى الْعَبْدُ^(١٠) تَدَانِيَكُمْ أَوْ يُضْبِحُ الدَّهْرُ لَهُ مُسْعِفَا

(١) في اللوحة البدرية: «كان شعره مستظرفاً من مثله...».

(٢) في اللوحة البدرية (ص ٦٢): «وقعت».

(٣) في اللوحة البدرية: «فمن بعض المطولات».

(٤) في اللوحة البدرية: «الملاح».

(٥) في الأصل واللمحة: «أنه» وهكذا ينكسر الوزن.

(٦) في الأصل: «صاحب» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من اللوحة البدرية. والصَّب: العاشق المشتاق. لسان العرب (صَب).

(٧) القرقف: الخمر.

(٨) في اللوحة: «عهداً خِفْتُ أَنْ...».

(٩) في الأصل: «متسلطاً» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من اللوحة البدرية.

(١٠) في اللوحة البدرية: «اليوم».

مناقِبِه: وأعظم مناقبِه المسجد^(١) الجامع بالحمراء، على ما هو عليه، من الظرف والتنجيد، والتَّرْقِيش، وفخامة العُمْد، وإحكام أُنوار^(٢) الفضة، وإبداع ثُراها^(٣)، ووقف عليه الحَمَام بإزائه، وأنفق فيه مال الجِزْيَة^(٤)، وأغرَمها لَمَن يليه من الكُفَّار، فدَوَّاه^(٥) زرعًا، نَهَد^(٦) إليه صائفته لانتسافه، وقد أهِمَّتْهُم فتنة، فظهر بها مَنَقَبَةُ يَتِيْمَةٍ، ومعلوَّة فُدَّة، فاقَ بها مَن تقدَّمه، ومَن تأخَّره من قومه.

جهاده: أغزى الجيشَ لأول أمره مدينة المنظر، فاستولى عليها عَنوة، وملك^(٧) مَن احتوت عليه المدينة، ومن جملةَهم الرُّعِيْمَة^(٨) صاحبة المدينة، من أفراد عقائل الروم، فَقَدِمَت الحَضْرَة في جملة السُّنْبِي^(٩)، نبيِّه المَرْكَب، ظاهرة الملبس، رائقة^(١٠) الجمال، خُصَّ بها ملك المغرب، فأتَّخَذَهَا لنفسه، وكان هذا الفتح عَظِيْمًا، والصَّيْت^(١١) بمزايه عَظِيْمًا بعيدًا. أنشدني.

ما نقل عنه من الفظاظة والقسوة^(١٢):

هجم لأول أمره على طائفة من ممالك أبيه، وكان سيِّئ الرأي فيهم، فسجنهم في مُطَبِّق الأري من حمرائه، وأمسك مفتاح قفله عنده، وتوعَّد مَن يُزِمُّهُمْ بِقُوْتٍ بالقتل، فمكثوا أيامًا، وصارت أصواتهم تملو بشكوى الجوع، حتى خَفَّتْ ضِعْفًا بعد أن اقتات آخَرُهُم موتًا من لحم من سبقه؛ وحملت الشفقة حارسًا كان برأس المُطَبِّق، على أن طرح لهم خُبْزًا يسيرًا، تنقص أكله، مع مباشرة بَلَوَاهُمْ، وتُؤَيِّي إليه ذلك، فأمر بذبحه على حافة الجُبِّ، فسالت عليهم دماؤه؛ وَقَانَا الله مصارع السُّوء، وما زالت المقالة عنها شنيعة، والله أعلم بجريرتهم لديه.

وزراؤه: بقي^(١٣) على خطة الوزارة وزير أبيه أبو^(١٤) سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، الجاري ذكره بحول الله في محلّه، مُتَبَرِّمًا، بحياته [إلى أن توفي،

(١) في اللوحة البدرية: «إتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة».

(٢) الأنوار: الأواني. (٣) في اللوحة البدرية (ص ٦٣): «ثرياتها».

(٤) في اللوحة البدرية: «جزية أغرمها مَن يليه...».

(٥) في اللوحة البدرية: «بها».

(٦) في اللوحة البدرية: «جهاز جيشًا صائفة...». والصائفة: قوات الجيش التي تخرج صيفًا للغزو.

(٧) في اللوحة البدرية: «وتملك مَن اشتملت عليه، ومن...».

(٨) في اللوحة البدرية: «الملجة». (٩) في اللوحة البدرية: «من السُّنْبِي».

(١٠) في اللوحة البدرية: «رائقة». (١١) في اللوحة البدرية: «والصيت لأجله بعيدًا».

(١٢) هذه القطعة ساقطة في اللوحة البدرية. (١٣) في اللوحة البدرية: «أبقى».

(١٤) في اللوحة البدرية: «وهو الشيخ الوزير أبو سلطان».

فأنشد عند موته: [السريع]

مات أبو زيد فواحسرتا إن لم يكن قد^(١) مات من جمعة
مصيبه لا عَفَرَ الله لي أن كنتُ أجريتُ لها دمعاً^(٢)

وتماذى^(٣) بها أمره، [يقوم بها حاشيته، وقد ارتاح إليها مُتَوَلِّئاً بعده، المترفع بدولته، القائد الشهير، البُهمة أبو بكر بن المول. حدث قارئ العشر من القرآن بين يدي السلطان، ويُعرف بابن بَكْرُون، وكان شيخاً مُتَصَاوِناً ظريفاً، قال: عزم السلطان على تقديم هذا الرجل وزيراً، وكان السلطان يؤثر الفأل، وله في هذا المعنى وساوس ملازمة، فوجه إليّ الفقيه الكاتب صاحب القلم الأعلى يومئذ، أبو عبد الله بن الحكيم المستأثر بها دونه، والمتلقف لكرتها قبله، وخرج لي عن الأمر، وطلب مني أن أقرأ آياً يخرج فآلها عن الغرض؛ قال: فلما غدوت لشأني تلوث بعد التعوذ قوله، عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿لَنَا﴾^(٤)، فلما فرغت الآية، سمعته حاذ عن رأيه الذي كان أزمعه^(٥)، وقدم^(٦) للوزارة كاتبه أبا عبد الله بن الحكيم في ذي قعدة من عام ثلاثة وسبعمائة، وصرف إليه تدبير^(٧) مُلْكِهِ، فلم يلبث أن تغلب على أمره، وتقلد جميع^(٨) شؤونه، حسبما يأتي في موضعه إن شاء الله.

كُتَّابُهُ: استقل برئاسته^(٩) وزيره المذكور، وكان يبايه من كُتَّابِهِ جملةً تباهى بهم دسوت^(١٠) الملوك، أدباً وتفئناً وفضلاً وظرفاً، كشيخنا تَلُوهُ وولي^(١١) الرتبة الكتابية من^(١٢) بعده، وفاصل الخطبة على أثره، وغيره ممن يُشار إليه في تضاعيف الأسماء، كالشيخ الفقيه القاضي أبي بكر بن شيرين، والوزير الكاتب أبي عبد الله بن عاصم، والفقيه الأديب أبي إسحق بن جابر، والوزير الشاعر المُفْلِقُ أبي عبد الله اللُّوشِي^(١٣)،

(١) كلمة «قد» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها ليستقيم الوزن والمعنى معاً.

(٢) ما بين قوسين ساقط في اللمحة البدرية. (٣) في اللمحة البدرية: «وتماذى أمره برهة».

(٤) سورة آل عمران ٣، الآية ١١٨. (٥) ما بين قوسين ساقط في اللمحة البدرية.

(٦) في اللمحة البدرية: «أنهض للوزارة كاتبه وكاتب أبيه الوزير الصدر الحاج المحدث أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن الحكيم اللخمي الرندي في ذي قعدة...».

(٧) في اللمحة البدرية: «تدبيره وألقى في يده أزمّة الملك فلم يلبث...».

(٨) في اللمحة البدرية: «كافة».

(٩) في اللمحة البدرية (ص ٦٤): «برياسة القلم الأعلى وزيره، وكان كُتَّابُهُ جملة...».

(١٠) في اللمحة البدرية: «بهم الدول أدباً...» (١١) في اللمحة البدرية: «ولي».

(١٢) كلمة «من» ساقطة في اللمحة البدرية.

(١٣) في اللمحة البدرية: «اللُّوشِي، والرئيس أبي محمد...».

من كبار القادمين عليه، والفقير الرئيس أبي محمد الحَضْرَمي، والقاضي الكاتب^(١) أبي الحجاج الطَرْطُوشِي، والشاعر المُكْثِر أبي العباس القَرَّاق^(٢) وغيرهم.

قضائته: استمرَّت ولاية قاضي أبيه الشيخ الفقيه أبي عبد الله محمد^(٣) بن هشام الأُلْشِي^(٤)، قاضي العدل، وخاتمة أولي^(٥) الفضل، إلى أن توفي عام أربعة^(٦) وسبعمئة. وتولَّى له القضاء القاضي أبو جعفر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد القُرْشِي المنبوز^(٧) بآبن فركون، وتقدَّم التعريف به، والتنبيه على فضله، إلى آخر أيامه.

مَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ بِالْأَقْطَارِ^(٨):

وأول ذلك بفاس؛ كان على^(٩) عهده بها السلطان الرفيع القُدْر، السامي الخطر، المرهوب السُّبَا، المستولي في العزِّ وبُعْدِ الصُّبَيْت على المدى، أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور بن عبد الحق، وهو الذي وطَّد الدولة المَرْيَنِيَّة^(١٠)، وجَبَا الأموال العريقة^(١١)، واستأصل مَنْ تَتَقَّى^(١٢) شوكته من القرابة وغيرهم. وجاز إلى الأندلس في أيام أبيه وبعده، غازيًا، ثم حاصر تِلْمَسَانَ، وهلك عليها في أوائل ذي قعدة عام ستة وسبعمئة، [فكانت دولته إحدى وعشرين سنة وأشهرًا]^(١٣). ثم صار الأمر إلى حافده أبي ثابت عامر بن الأمير أبي عامر عبد الله بن يوسف بن يعقوب بعد اختلاف وقع ونزاع انجلى^(١٤) عن قتل جماعة من كبارهم^(١٥)؛ منهم الأمير أبو يحيى بن السلطان أبي يوسف، والأمير أبو سالم بن السلطان أبي يعقوب. واستمرَّ الأمر للسلطان^(١٦) أبي ثابت إلى صفر^(١٧) من عام ثمانية وسبعمئة. وصار الأمر^(١٨) إلى

(١) كلمة: «الكاتب» ساقطة في اللوحة البدرية. (٢) في اللوحة البدرية: «بن القراق».

(٣) في اللوحة البدرية: «محمد بن محمد بن هشام...».

(٤) نسبة إلى إلش Elche، وهي مدينة من كور تدمير. الروض المعطار (ص ٣٠).

(٥) في اللوحة البدرية: «ألي». (٦) في الأصل: «أربع» وهو خطأ نحوي.

(٧) في اللوحة البدرية: «المنز».

(٨) في اللوحة البدرية: «مَنْ كَانَ مِنَ الْمُلُوكِ عَلَى عَهْدِهِ».

(٩) في اللوحة البدرية: «كَانَ مُلْكًا بِهَا عَلَى عَهْدِهِ السُّلْطَان...».

(١٠) كلمة: «المرينية» ساقطة في اللوحة. (١١) في اللوحة البدرية: «العريضة».

(١٢) في اللوحة البدرية: «يَتَّقِي». (١٣) ما بين قوسين ساقط في اللوحة.

(١٤) في اللوحة البدرية (ص ٦٥) «انجلى الأمر فيه عن...».

(١٥) في اللوحة البدرية: «أكابرهم». (١٦) في اللوحة البدرية: «بالسلطان».

(١٧) في اللوحة البدرية: «إلى شهر صفر عام...».

(١٨) في اللوحة البدرية: «الأمر بعده إلى...».

أخيه أبي الربيع سليمان تمام مدة^(١) ملكه وصدرا من دولة أخيه نصر^(٢)، حسبما يذكر في موضعه إن شاء الله.

وبتونس^(٥) السلطان الفاضل، الميمون الثقيب، المشهور الفضيلة، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر أبي عبد الله بن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص، من أولي^(٦) العفة، والنزاهة^(٧)، والتؤدة، والحشمة، والعقل، عُني بالصالحين^(٨)، واختص بأبي محمد المرجاني، [فأشار بتقويمه]^(٩)، وظهرت^(١٠) عليه بركته، [وكان يرتبط إليه، ويقف في الأمور عنده، فلم تعدم الرعية بركة ولا صلاحًا في أيامه]^(٩)، إلى أن هلك في ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة، ووقعت بينه وبين هذا الأمير المترجم به^(١١) المراسلة والمهاداة.

وبتونس^(٥) السلطان الفاضل، الميمون الثقيب، المشهور الفضيلة، أبو عبد الله محمد بن الواثق يحيى بن المستنصر أبي عبد الله بن الأمير أبي زكريا بن أبي حفص، من أولي^(٦) العفة، والنزاهة^(٧)، والتؤدة، والحشمة، والعقل، عُني بالصالحين^(٨)، واختص بأبي محمد المرجاني، [فأشار بتقويمه]^(٩)، وظهرت^(١٠) عليه بركته، [وكان يرتبط إليه، ويقف في الأمور عنده، فلم تعدم الرعية بركة ولا صلاحًا في أيامه]^(٩)، إلى أن هلك في ربيع الآخر عام تسعة وسبعمائة، ووقعت بينه وبين هذا الأمير المترجم به^(١١) المراسلة والمهاداة.

وبقشتالة^(١٢) هراندة بن شانجه بن أدفونش^(١٣) بن هراندة، [المستولي على إشبيلية وقُرطبة، ومُرسية، وجيان، ولا حول ولا قوة إلا بالله]^(٩). هلك أبوه وتركه صغيرًا، مكفولًا على عادتهم، فتنفس المُخَنَّق وانعقدت السلم، واتصل الأمان مدة أيامه، وهلك في دولة أخيه.

وبرغون؛ جايمش^(١٤) بن ألفنش بن بطرّه.

-
- (١) كلمة «مدة» ساقطة في اللوحة.
 - (٢) في اللوحة البدرية: «نصر بعده حسبما يذكر».
 - (٣) في اللوحة البدرية: «أخوه أبو زيان ثم أبوه الأمير أبو حمو. ثم ولده الأمير أبو تاشفين».
 - (٤) في اللوحة البدرية: «آخر مدته».
 - (٥) في اللوحة البدرية: «وبتونس: كان أميرًا بتونس على عهده السلطان الفاضل أبو عبد الله...».
 - (٦) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (٧) كلمة «النزاهة» ساقطة في اللوحة.
 - (٨) في اللوحة البدرية: «والنزاهة» ساقطة في اللوحة.
 - (٩) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (١٠) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (١١) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (١٢) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (١٣) في اللوحة البدرية: «أبي».
 - (١٤) في اللوحة البدرية: «أبي».

الأحداث^(١): في عام ثلاثة وسبعمئة، نَقِمَ^(٢) على قريبه الرئيس أبي الحجاج بن نصر الوالي^(٣) بمدينة وادي آش، [أمرًا أوجب عزله عنها، وكان مقيمًا بحضرته فاتخذ الليل جملًا، وكان أمّلك بأمرها؛ وذاع الخبر، فاستركب الجيش، وقد حدّ ما ينزل في استصلا به، وجدّد الصكوك بولايته خوفًا من اشتعال الفتنة، وقد أخذ على يديه، وأغرى أهل المدينة بحربه، فتداعوا لحين شعورهم باستعداده وأحاطوا به، فدهموه وعاجلوه، فتغلبوا عليه، وقيد إلى بابه أسيرًا مُصَفَّدًا، فأمر أحد أبناء عمّه فقتله صبرًا، وتملاً فتحًا كبيرًا، وأمن فتنة عظيمة^(٤). وفي شهر^(٥) شوال من عام خمسة وسبعمئة قرع الأسماع النبأ العظيم^(٦)، الغريب، من تَمَلَّك^(٧) سَبْتَةَ وحصولها في قبضته^(٨)، وانتزاعها من يد^(٩) رئيسها أبي طالب عبد الله بن أبي القاسم، الرئيس الفقيه، ابن الإمام المحدث أبي العباس العزفي حسبما يتقرّر في اسم الرئيس الفقيه أبي طالب إن بلغنا الله ذلك؛ واستأصل ما كان لأهلها^(١٠) من الذخائر والأموال، ونقل رؤساءها، وهم عدّة، إلى حضّرتة غرناطة في غرة المحرم من العام، فدخلوا عليه، وقد احتفل بالملك، واشترك في الأبهة الجند، فلثموا أطرافه، واستعطفه^(١١) شعراؤهم بالمنظوم من القول، وخطبائهم بالمنثور منه، فطمأن روعهم وسكن جاشهم، وأسكنهم في جواره، وأجرى عليهم الأرزاق الهلالية، وتفقدهم في الفصول إلى أن كان من أمرهم ما هو معلوم.

اختلاعه: في يوم عيد الفطر من عام ثمانية وسبعمئة أحيط بهذا السلطان، وأتت^(١٢) الجيلة عليه، وهو مُصاب بعينيه، مقعد في كته، فداخلت طائفة من وجوه^(١٣) الدولة أخاه، وفكت بوزيره الفقيه أبي عبد الله بن الحكيم، ونصبت للناس الأمير أبا الجيوش نصرًا أخاه، وكبست^(١٤) منزل السلطان، فأحيط به، وجعل الحرس عليه^(١٥)، وتُسومع بالكائنة فكان^(١٦) البهت، وسال من الغوغاء البحر، فتعلّقوا

(١) في اللوحة البدرية: «بعض الأحداث...».

(٢) في اللوحة البدرية: «ثار عليه قريبه الرئيس أبو...».

(٣) كلمة «الوالي» ساقطة في اللوحة. (٤) ما بين قوسين ساقط في اللوحة البدرية.

(٥) كلمة: «شهر» ساقطة في اللوحة البدرية. (٦) كلمة: «العظيم» ساقطة في اللوحة البدرية.

(٧) في اللوحة البدرية: «من تملكه مدينة سبتة». (٨) في اللوحة البدرية: «قبضة ملكه».

(٩) في اللوحة البدرية: «يدي».

(١٠) في اللوحة البدرية: «لرؤسائها من الخزائن والذخائر، ونقلهم وهم عدّة...».

(١١) في اللوحة البدرية: «واستعطفه». (١٢) في اللوحة البدرية (ص ٦٧): «تمت».

(١٣) في اللوحة البدرية: «كبار». (١٤) في اللوحة البدرية: «وكبس».

(١٥) في اللوحة البدرية: «وجعل عليه الحرس». (١٦) في اللوحة البدرية: «فوق».

بالحمراء، يسألون عن الحادثة، فشغلوا بانتهاب^(١) دار الوزير، وبها من مال الله ما يفوت الوصف، وكان الفجع في إضاعته على المسلمين، وإطلاق الأيدي الخبيثة عليه عظيمًا. وفي آخر اليوم عند الفراغ من الأمر، دخل^(٢) على السلطان المخلوع، الشهداء عليه بخلعه، بعد نقله من دار مُلكه إلى دار أخرى، فأملّى، رحمه الله، زعموا، وثيقة خلعه، مع شغب الفكر، وعِظَم الداهية، وانتقل، رحمه الله، بعد، إلى القصر المنسوب إلى السيد بخارج الحضرة؛ أقام به يسيرًا، ثم نقل إلى مدينة المُنكَب. وكان من أمره ما يذكر إن شاء الله.

[ومما يؤثّر من ظُرفه؛ حدّث مَنْ كان منوطًا به من خاصّته، مدة أيام إقامته بقصر نَجْد، قبل خلعه، قال: أرسل الله الأغربة على سقف القصر، وكان شديد التطيّر والقلق لذلك حسبما تقدّم من الإشارة إلى ذلك بحديث العَشر؛ وكان من جملة غُرَاب، شديد الإلحاح، حادّ الثّعب والصياح، فأغرى به الزّماة من مماليكه بأنواع القِسي؛ فأبادوا من الغُربان أمة؛ وتخطّأ الحَتَف ذلك الغراب الخبيث المبقان؛ فلمّا انتقل إلى سكنى الحمراء ظهر ذلك الغراب على سقفه؛ ثم لما أهبط مخلوعًا إلى قصر شَئيل تبعه، وقام في بعض السّقف أمامه، فقال يخاطبه رحمه الله: يا مشؤوم، يا محروم بين الغُربان، قد خَلَصْتَ أمرنا، ولم يبقَ لك علينا طلب، ولا بيتنا وبينك كلام؛ ارجع إلى هؤلاء المحارم فاشتغل بهم؛ قال: فأضحكنا على حال الكآبة بعذوبة منطقته، وخفّة روحه]^(٣).

وفاته: قد تقدّم ذكرُ استقراره بالمُنكَب. وفي أخريات شهر جمادى الآخرة عام^(٤) عشرة وسبعمائة، أصابت السلطان نصرًا^(٥) سكّنة، تُوقّع منها موته، بل شكّ في حياته؛ فوقع التفاوض الذي تمخّض إلى^(٦) التوجيه عن السلطان المخلوع الذي بالمنكَب ليعود إلى^(٧) الأمر، فكان ذلك، وأسرع إلى إيصاله^(٨) إلى غرناطة في ميحّقة، فكان حلوله بها في رجب^(٩) من العام المذكور. وكان من قَدَر الله، أن أفاق

(١) في اللّمة البدرية: «بأنهاب دور الوزير الكاتبة بالريض وبها...».

(٢) في اللّمة: «أدخل على السلطان قوم من الفقهاء أشهدهم بخلع نفسه، ونقل إلى القصر المنسوب إلى السيد...».

(٣) ما بين قوسين ساقط في اللّمة البدرية. (٤) في اللّمة البدرية: «من عام».

(٥) كلمة «نصرًا» ساقطة في اللّمة البدرية. (٦) في اللّمة البدرية: «عن».

(٧) في اللّمة البدرية: «له». (٨) في اللّمة البدرية: «وأسرع به إلى».

(٩) في اللّمة البدرية (ص ٦٨): «في غرة شهر رجب».

أخوه من مرضه، ولم يتم للمخلوع الأمر، فثقل من الدار التي كان بها إلى دار أخيه الكبرى، فكان آخر العهد به. ثم شاعت وفاته أوائل شوال من العام المذكور، فذكر أنه اغتيل غريقاً في البركة في الدار المذكورة لما تُوقع من عادية جواره؛ ودفن بمقبرة السبيكة، مدفن قومه، بجوار^(١) الغالب بالله جدّه، ونوّه بجَدثه، وعليه مكتوب ما نصّه^(٢):

«هذا قبر السلطان الفاضل، الإمام العادل، علّم الأتقياء، أحد الملوك الصلحاء، المُخَيَّب^(٣) الأواه، المجاهد في سبيل الله، الرّضّي الأورع، الأخشى لله الأخشع، المراقب^(٤) في السرّ والإعلان، المعمور الجنان بذكره واللسان، السالك في سياسة الخلق وإقامة الحق، منهاج^(٥) التقوى والرّضوان، كافلُ الأمة بالرّافة^(٦) والحنان، الفاتح لها بفضل سيرته، وصدق سريرته، ونور بصيرته، أبواب اليمن والأمان، المُنيب الأواب، العامل بكل^(٧) ما يجده نوراً مُبيناً يوم الحساب، ذي الآثار السنيّة، والأعمال الطاهرة العلية^(٨)، القائم في جهاد الكفار بماضي العزم وخالص النية، المقيم^(٩) قسطاس العدل، المنير^(١٠) منهاج الحلم والفضل، حامي الدّمار، وناصر دين المصطفى المختار، المُقتدي بأجداده الأنصار، المتوسّل بفضل^(١١) ما أسلفوه من أعمال البرّ والجهاد، ورعاية العباد والبلاد، إلى الملك القهار، أمير المسلمين، وقامع المعتدين، المنصور بفضل الله، أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله؛ السلطان الأعلى، إمام الهدى، وغمام^(١٢) الثدى، مُحْيِي السّنة، حسن الأئمة^(١٣)، المجاهد في سبيل الله، الناصر لدين الله، أبي عبد الله ابن أمير المسلمين الغالب بالله أبي عبد الله بن يوسف بن نصر، كرم الله وجهه ومثواه، ونعمه برّضاه. وُلِدَ رضي الله عنه يوم^(١٤) الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة وخمسين وستمائة. وتوفي، قدّس الله روحه، وبرّد ضريحه، ضُخوة يوم الاثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعمائة، رَفَعَه الله إلى منازل أوليائه الأبرار،

(١) في اللّمة البدرية: «وبجوار». (٢) في اللّمة البدرية: «ما نصّه من جانب».

(٣) المُخَيَّب: المطيع. لسان العرب (خبت).

(٤) في اللّمة البدرية: «المراقب لله في السرّ...».

(٥) في اللّمة البدرية: «منهاج». (٦) في اللّمة البدرية: «بالكرامة».

(٧) كلمة «بكل» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللّمة.

(٨) كلمة «العية» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللّمة.

(٩) في اللّمة البدرية: «مقيم». (١٠) في اللّمة البدرية: «منير».

(١١) في اللّمة البدرية: «بما». (١٢) في اللّمة البدرية: «غمام».

(١٣) في اللّمة البدرية: «ومعز الملة». (١٤) في اللّمة البدرية: «في يوم».

وَالْحَقَّهْ بِأَثْمَةِ الدِّينِ^(١)، لَهُمْ عَقَبَى الدَّارِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا^(٢) مُحَمَّدٍ الْمُخْتَارِ، وَعَلَى آلِهِ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا.

ومن الجانب الآخر: [الطويل]

رَضَى الْمَلِكُ الْأَعْلَى يَرْوُحُ وَيَغْتَدِي
مَقَرَّ الْعُلَى وَالْمُلْكُ وَالْبَاسُ وَالنُّدَى
وَمَثْوَى الْهُدَى وَالْفَضْلُ وَالْعَدْلُ وَالْتَّقَى
فِيَا عَجَبًا طَوْذُ الْوَقَارِ جَلَالَةً
وَوَاسِطَةً الْعَقْدِ الْكَرِيمِ الَّذِي لَهُ
مُحَمَّدُ الرُّضِيِّ سَلِيلُ مُحَمَّدٍ
فِيَا نُخْبَةَ الْأَمْلَاقِ غَيْرِ مَنَازِعِ
بَكَتْكَ بِلَادٌ كُنْتَ تَحْمِي ذِمَارَهَا^(٣)
وَكَمْ مَعْلَمٌ لِلدِّينِ أَوْضَحَتْ رَسْمَهُ
كَأَنَّكَ مَا سُئِنْتَ الْبِلَادُ وَأَهْلُهَا
كَأَنَّكَ مَا قُدَّتِ الْجِيُوشُ إِلَى الْعِدَا
وَقَتَّخَتْ مِنْ أَقْطَارِهِمْ كُلِّ مُبْهَمٍ
كَأَنَّكَ مَا أَنْفَقْتَ عُمْرَكَ فِي الرُّضَى
وَأَنْصَافِ مَظْلُومٍ وَتَأْمِينِ خَائِفِ
كَأَنَّكَ مَا أَحْيَيْتَ لِلْخَلْقِ^(٤) سُنَّةً
كَأَنَّكَ مَا أَمْضَيْتَ فِي اللَّهِ عَزْمَةً
فَلِنْ تَجْهَلِ الدُّنْيَا عَلَيْكَ وَأَهْلُهَا
تَعَرَّضْتَ دُخْرًا مِنْ مَقَامِ خِلَافَةٍ

عَلَى قَبْرِ مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْمُؤَيَّدِ
فَقَدُّسَ مِنْ مَغْنَى كَرِيمٍ وَمَشْهَدِ
فَبُورِكَ مِنْ مَثْوَى زَكِيِّ وَمَلْحَدِ
ثَوَى تَحْتَ أَطْبَاقِ الصَّفِيحِ الْمُنْضَدِ
مَآثِرِ فَخْرِ^(٥) بَيْنَ مَثْنَى وَمَوْحِدِ
إِمَامِ النَّدَى^(٦) نَجَلُ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ
وَيَا عَلَمَ الْأَعْلَامِ غَيْرِ مُقَنَّدِ
بَعَزَمِ أَصِيلٍ أَوْ بَرَايِ مُسَدَّدِ
بَتَّى لَكَ فِي الْفَرْدُوسِ أَرْفَعُ مَصْعَدِ
بَسِيرَةٍ مَيْمُونِ الثَّقِيْبَةِ مُهْتَدِ
فَصَيَّرْتَهُمْ نَهَبَ الْقَنَا الْمُتَقَصِّدِ
فَتَخَتْ بِهِ بَابَ التَّعِيمِ الْمُخَلَّدِ
بِتَجْدِيدِ غَزَوَاتِ^(٧) وَتَشْيِيدِ مَسْجِدِ
وَأَصْرَاحِ مَذْعُورٍ وَإِسْعَافِ مُجْتَدِ
تُجَادِلِ عَنْهَا بِاللِّسَانِ^(٨) وَيَالِيَدِ
تُدَافِعُ فِيهَا بِالْحُسَامِ الْمُهْتَدِ
بِذَاكَ^(٩) ثَوَابُ^(١٠) اللَّهِ يَلْقَاكَ فِي عَدِ
مَقِيمِ^(١١) مُنِيبٍ خَاشِعٍ مُتَعَبِّدِ

(١) في اللوحة البدرية (ص ٦٩): «بأئمة الحق الذين لهم...».

(٢) في اللوحة البدرية: «سيدنا ومولانا وآله وصحبه وسلم تسليماً».

(٣) في اللوحة البدرية: «مجد».

(٤) في اللوحة البدرية: «ثغورها».

(٥) في اللوحة البدرية: «للقوى».

(٦) في اللوحة البدرية: «فذاك».

(٧) في الأصل: «ثوب» وهكذا ينكر الوزن، والتصويب من اللوحة.

(٨) في اللوحة البدرية: «مقام».

وكلّ الورى مَنْ كان أو هو كائنٌ صريعُ الردى إن لم ^(١) يَكُنْ ^(٢) فكانَ قَدِ
فلا زال جازاً للرسول محمد بدارِ نعيمٍ في رضى الله سَرمِدِ
وهذي القوافي قد وقيئتُ بنظمها فيا ليت شعري هل يصيخُ ^(٣) لمُنشِدِ

محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد
ابن خميس بن نصر الأنصاري الخزرجي ^(٤)

ثاني الملوك الغالبين ^(٥) من بني نصر، وأساس ^(٦) أمرهم، وفنخلُ جماعتهم.

أوليتته: تُقرّر بحول الله في اسم أبيه الآتي بعد حسب الترتيب المشترط.

حاله: من كتاب «طُرْفَة العصر» من تأليفنا؛ كان هذا السلطانُ أُوخذَ الملوك
جلالةً، وصرامةً، وحزمًا. مهَّد ^(٧) الدولة، ووضع ألقاب خدمتها، وقرَّر ^(٨) مراتبها،
واستجاد أبطالها. وأقام رسوم المُلْك فيها، واستدَرَّ جباياتها، مُستَظهِراً على ذلك بسعة
الدُّرع، وأصالة السياسة، ورصانة العقل، وشدة الأسر، ووفور الدِّهَاء، وطول
الحُنْكة، وتملؤ التجربة، مليح الصورة، تام الخلق، بعيد الهمة، كريم الخلق، كثير
الأناة. قام بالأمر بعد أبيه، وبأشره مباشرة الوزير أيام حياته، فجرى على سنن أبيه،
من اصطناع أجناسه، ومُدَاراة عدوّه، وأجرى ^(٩) صدقاته، وأزبى عليه بخلال، منها
براعة الخطّ، وحسن التوقيع، وإيثار العلماء، والأطباء ^(١٠)، والعدلين، والحكماء،
والكتاب، والشعراء، وفَرَضَ الأبيات الحسنة ^(١١)، وكثرة المُلَح، وحرارة النادرة.
وطما بحرّ من الفتنة لأول استقرار ^(١٢) أمره، وكثُر ^(١٣) عليه المُتَزَوّن والثَّوار، وارتجّت
الأندلس، وسط أكلب الكفار، فصبر ^(١٤) لزلزالها رابط الجأش ثابت المركز، وبذل
من الاحتياال والدِّهَاء المَكْتُوفَيْنَ بجميل الصبر، ما أظفره بخلوّ الجو ^(١٥). وطال

(١) كلمة «لم» ساقطة في الأصل، وقد أضفناها من اللمحة.

(٢) في اللمحة البدرية: «يجز». (٣) في اللمحة البدرية: «تصيح».

(٤) هذه الترجمة وردت كاملة في اللمحة البدرية (ص ٥٠ - ٥٨).

(٥) كلمة «الغالبين» ساقطة في اللمحة البدرية (ص ٥٠).

(٦) في اللمحة البدرية: «وعظيمهم وأساس».

(٧) في اللمحة البدرية (ص ٥٠): «مهَّد الدولة الذي وضع».

(٨) في اللمحة البدرية: «وقدّر». (٩) في اللمحة البدرية: «وإجراه».

(١٠) في اللمحة البدرية: «من الأطباء والمنجمين والحكماء».

(١١) في اللمحة البدرية: «الأبيات من الشعر». (١٢) كلمة «استقرار» ساقطة في اللمحة البدرية.

(١٣) في اللمحة البدرية: «وتكاثر المتزوّنون عليه والثَّوار».

(١٤) في اللمحة البدرية: «فتبّت». (١٥) في اللمحة البدرية: «جوّه».

عمره، وجَدَّ^(١) صَيْتَهُ، واشتهر في البلاد^(٢) ذكره، وعظمت غزواته، وسيمر^(٣) من ذكره ما يدل على أجل من ذلك إن شاء الله.

شعره وتوقيعه: وقفت على كثير من شعره، وهو تَمَطُّ متحط بالنسبة إلى أعلام الشعراء، ومُستطرف^(٤) من الملوك والأمراء. من^(٥) ذلك، يخاطب وزيره^(٦):
[المقارب]

تَذَكَّرْ عَزِيزَ لِيَالٍ مَضَتْ وإعطاءنا المال بالراحتين
وقد قُصِدْنَا ملوكَ الجِهَاتِ ومالوا إلينا من العُدَوَّينِ
وإذ^(٧) سأل السُّلُومَ مَنَّا اللِّعِينَ فلم يَحْظَ إِلَّا بِحُفْمِي حُنَيْنِ

وتوقيعه يشذ عن الإحصاء^(٨)، ويأيدي الناس إلى هذا العهد كثير من ذلك؛
فمما كتب به على رقعة كان رافعها يسأل التصرف في بعض الشهادات ويلج عليها:
[الوافر]

يموت على الشهادة وَمَوْحِي إلهي لا تُمِثْه على الشهادة
وأطال الخط عند إلهي إشعارًا بالضراعة عند الدعاء والجد. ويُذكر أنه وقع
بظهر رقعة لآخر اشتكى ضرر أحد الجند المُنْزِلين في الدور، وتَبَزَّه بالتعرض لزوجته:
«يُخْرِجُ هذا النَّازِلُ^(٩)، ولا يُعَوِّضُ بشيء من المنازل».

بنوه: ثلاثة؛ وليَّ عهده أبو عبد الله المتقدم الذكر، وفرج المغتال أيام أخيه،
ونصر الأمير بعد أخيه^(١٠).

بناته: أربع، عَقَدَ لهنَّ، جمع أبرهنَّ إلى أزواجهنَّ، من قرابتهنَّ، تحت أحوال
ملوكية، ودُنْيَا عريضة، وهنَّ: فاطمة، ومؤمنة، وشمس، وعائشة، منهنَّ أُمُّ حفيدة
إسماعيل الذي ابتزَّ ملك بنه عام ثلاثة عشر وسبعمئة.

(١) في اللوحة البدرية: «وَيُجَدُّ».

(٢) في اللوحة البدرية: (٢) في اللوحة البدرية: «في الآفاق».

(٣) في اللوحة البدرية: «وسيمر ما يدل على جلالة قدره وعلو سلطانه».

(٤) في اللوحة البدرية (ص ٥١): «ومستطرف».

(٥) في اللوحة البدرية: «فمن ذلك قوله يخاطب...».

(٦) وزيره هو أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني، كما ورد في اللوحة البدرية (ص ٥٢).

(٧) في الأصل: «وإذا» وهكذا ينكسر الوزن، والتصويب من اللوحة البدرية.

(٨) في اللوحة البدرية: «الإحصاء كثرة».

(٩) في اللوحة البدرية: «النازل النازل».

(١٠) في اللوحة البدرية (ص ٥٢): «أخيه المخلوع على يده».

وزيره^(١): كان وزيره، الوزير الجليل الفاضل، أبو سلطان^(٢)، لتقارب الشبه، زعموا في السن والصورة، وفضل الذات، ومثانة^(٣) الدين، وصحة الطبع، وجمال الرواء، أغنى وحسنت واسطته، ورُفِعت إليه الوسائل^(٤)، وطُرُزت باسمه الأوضاع، واتصلت^(٥) إلى أيامه أيام مُستوزره، ثم صدرًا من أيام وليّ عهده.

كُتّابه: وَلِيّ^(٦) له خُطّة الكتابة والرياسة العليا في الإنشاء^(٧) جملةً، منهم كاتب أبيه أبو بكر^(٨) بن أبي عمرو اللّوشي، ثم الأخوان أبوا^(٩) علي الحسن والحسين، ابنا محمد بن يوسف بن سعيد اللّوشي؛ سَبَقَ الحسن وتلاه الحسين، وكانا توأمين؛ ووفاتهما متقاربة. ثم كتب له الفقيه^(١٠) أبو القاسم محمد بن محمد بن العابد الأنصاري، آخرُ الشيوخ، وبقية الصُدور والأدباء^(١١)، أقام كاتبًا مدة^(١٢) إلى أن أبْرَمَه انحطاطه في هوى نفسه، وإيثاره المعافرة، حتى زعموا^(١٣) أنه قاء ذات يوم بين يديه. فأخّره عن الرتبة^(١٤)، وأقامه في عداد كُتّابه^(١٥) إلى أن توفي تحت رِفْده^(١٦). وتولّى الكتابة الوزير أبو عبد الله بن الحكيم^(١٧)، فاضطلع بها إلى آخر دولته.

قضياته: تولّى له خُطّة القضاء قاضي أبيه الفقيه العدل^(١٨) أبو بكر^(١٩) بن محمد بن فتح الإشبيلي الملقّب بالأشبرون. تولّى قبل ذلك خُطّة السُوق، فلَقِيَ

(١) في اللّمة البدرية: «وزراؤه».

(٢) في اللّمة البدرية: «أبو سلطان عزيز بن علي بن عبد المنعم الداني».

(٣) في اللّمة البدرية: «إلى مثانة...». (٤) في اللّمة البدرية: «الممادح».

(٥) في اللّمة البدرية: «واتصلت أيامه إلى تمام أيام...».

(٦) في اللّمة البدرية: «تولّى».

(٧) في اللّمة البدرية: «العليا لقلم الإنشاء...».

(٨) في اللّمة البدرية: «أبيه وابن كاتبه أبو بكر بن يوسف اللّوشي اليخصبي ثم الإخوان...».

(٩) في الأصل: «أبو» والتصويب من اللّمة البدرية.

(١٠) في اللّمة البدرية (ص ٥٣): «له أبو القاسم محمد بن عابد الأنصاري أحد الشيوخ...».

(١١) في اللّمة البدرية: «الأدباء». (١٢) في اللّمة البدرية: «عنه مدة».

(١٣) في اللّمة البدرية: «لزعموا أنه قاء يومًا...».

(١٤) في اللّمة البدرية: «عن رتبته». (١٥) في اللّمة البدرية: «كُتّابه وتحت رِفْده».

(١٦) تحت رِفْده: تحت كتفه وعطائه.

(١٧) في اللّمة البدرية: «أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم الرندي الوزير لولده، فاضطلع...».

(١٨) قوله: «الفقيه العدل» ساقط في اللّمة البدرية.

(١٩) في اللّمة البدرية: «أبو بكر محمد بن فتح بن علي الإشبيلي».

سكران^(١) أفرط في قحته، واشتد في عريته^(٢)، وحمل على الناس، فأفرجوا عنه؛ فاعترضه واشتد عليه حتى تمكّن منه بنفسه، واستنصر^(٣) في حده، وبالع في نكاله؛ واشتهر ذلك عنه، فجُمِعَ له أمر الشرطة وخُطّة السوق، ثم وُلّي القضاء، فذهب أقصى مذاهب الصرامة، إلى أن هلك؛ فولي^(٤) خُطّة القضاء بعده الفقيه العدل أبو عبد الله محمد^(٥) بن هشام من أهل الشّ، لحكاية^(٦) غبّطت السلطان بدينه^(٧)، ودلّته على محلّه من العدل والفضل، فاتّصلت أيام قضائه إلى أيام^(٨) مُستَقْضيه، رحمه الله.

جهاده: وباشر^(٩) هذا السلطان الوقائع، فأنجّلت ظلماتها عن صُبح نُصره، وطُرّزت مواقعها^(١٠) بطراز جلادته وصبره؛ فمنها وقعة المطران وغيرها، مما يضيق التأليف عن استقصائه. وفي^(١١) شهر المحرم من عام خمسة وتسعين وستمائة، على تَفِيّة^(١٢) هلاك طاغية الروم، شانجه بن أذفونش، عاجل الكفار^(١٣) لحين دَفْشهم، فحشد أهل الأندلس، واستنفر المسلمين، فاغتنم الداعية، وتحرك في جيش يجرّ الشوك والشجر^(١٤)، ونازل مدينة قِيَجَاطَة وأخذ بكَظْمها، ففتحها الله على يديه، وتملّك بسببها جملة من الحصون التي^(١٥) ترجع إليها؛ وكان الفتح في ذلك^(١٦) عظيمًا، وأسكنها جيشًا من المسلمين، وطائفة من الحامية، فأشرقت العُدُوّ بريقه. وفي صائفة عام تسعة وتسعين وستمائة، نازل مدينة القبذاق^(١٧) فدخل جَفْنها، واعتصم من تأخر أجله بقصبتها، ذات القاهرة العظيمة الشأن، الشهيرة في البلدان، فأحيط بهم، فحذِلُوا وزلزل الله أقدامهم؛ فألقوا باليد، وكانوا أُمْنَع من عُقاب الجوّ وتملّكها على حكمه، وهي من جلالة الوضع، وشهرة المَنَعَة، وخِضْب السّاحة،

(١) في اللّمة البدرية: «سكرانًا من الجند قد أفرط في القحة...».

(٢) في اللّمة البدرية: «العريّة». (٣) في اللّمة البدرية: «واستنصر».

(٤) في اللّمة البدرية: «فتولّى».

(٥) في اللّمة البدرية: «محمد بن محمد بن هشام».

(٦) في اللّمة البدرية: «بحكاية». (٧) في اللّمة البدرية: «به».

(٨) في اللّمة البدرية: «إلى تمام أيام مستقضيّه، رحمهما الله تعالى».

(٩) في اللّمة البدرية: «بأشّر، رحمه الله، الوقائع».

(١٠) في اللّمة البدرية: «مواقفها بطر».

(١١) في اللّمة البدرية (ص ٥٤): «ففي شهر محرم».

(١٢) أي على حين موته وبلا إضاعة وقت. (١٣) في اللّمة البدرية: «الكفر لحين الدهشة».

(١٤) في اللّمة البدرية: «والمدر».

(١٥) في اللّمة البدرية: «الحصون الراجعة إليها».

(١٦) في اللّمة البدرية: «بذلك». (١٧) مدينة القبذاق من نواحي قرطبة.

وطيب الماء، والوصول إلى أفلاذ^(١) الكفر، والأطلاع على عَوْرَاتِهِ، بحيث شَهَرَ. فكان تيسر^(٢) فتحها من غرائب الوجود، وشواهد اللطف، وذلك في صلاة الظهر من يوم الأحد الثامن لشهر شَوَّال عام تسعة وتسعين وستمائة؛ وأسكن بها رابطة المسلمين^(٣)، وبأشْر العمل في خندقها بيده، رحمه الله، [فتساقط الناس، من ظهور دوابهم إلى العمل، فتم ما أريد منه سريعاً].

وأنشدني شيخنا أبو الحسن الجيَّاب يهتته بهذا الفتح: [الطويل]

عدوك مقهورٌ وجزيبك غالبٌ وأمرُك منصورٌ وسَهْمُكَ صائبٌ
وشخصُك مهما لاح للخلق أدْعَتْ لهيبَتِه عَجْمُ الوَرَى والأعاربُ
وهي طويلة^(٤).

مَنْ كَانَ عَلَى عَهْدِهِ مِنَ الْمُلُوكِ:

كان على عهده بالمغرب، السلطان الجليل، أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق، الملقَّب بالمنصور؛ وكان ملكاً صالحاً، ظاهر السذاجة، سليم الصدر، مخفوض الجَنَاح، شَارِعاً أبواب الدَّالَّةِ عليه منهم؛ أشبه بالشيوخ منه بالملوك، في إخمال^(٥) اللَّفْظ، والإغضاء عن الجَفْوَةِ، والنداء بالكُنْيَةِ. وهو الذي استولى على مُلْك الموحِّدين، واجتثَّ شجرتهم من فوق الأرض، وورث سلطانهم، واجتاز إلى الأندلس، كما تقدَّم مرَّاتٍ ثلاثاً^(٦) أو أزيدَ منها، وغزا العدو، وجرت بينه وبين السلطان المُترجم به أمور، من سَلَمٍ ومُنَاقِضَةٍ^(٧)، وإعتاب، وعُتْب، [حسبما تدلُّ على ذلك القصائد الشهيرة المُتداوِلَةُ؛ وأولها ما كتب به على عهده، الفقيه الكاتب الصُّدر، أبو عمرو بن المُرابط، في غرض استفاد للجهاد: [السريع]

هل من مُعِينِي فِي الْهَوَى أَوْ مُنْجِدِي مِنْ مُتَّهِمٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ مُنْجِدِي^(٨)

وتوفي السلطان المذكور بالجزيرة الخضراء في عُشْفَوَانٍ وَخَشَةِ بينه وبين هذا السلطان في محرم^(٩) خمسة وثمانين وستمائة؛ وولي بعده

(١) في اللوحة البدرية: «أفلاذ فؤاد الكفر». (٢) في اللوحة البدرية: «تيسير».

(٣) في اللوحة: «من المسلمين». (٤) ما بين قوسين ساقط في اللوحة البدرية.

(٥) في اللوحة البدرية (ص ٥٥): «في احتمال اللفظ».

(٦) في الأصل: «ثلاث» وهو خطأ نحوي.

(٧) في اللوحة البدرية: «ومناصبة وعتب وإعتاب».

(٨) ما بين القوسين ساقط في اللوحة البدرية.

(٩) في اللوحة البدرية (ص ٥٥): «محرم من عام...».

ولده^(١)، العظيم الهمة، القوي العزيمة^(٢)، أبو يعقوب يوسف، وجاز إلى الأندلس على عهده، واجتمع به بظاهر مَرْبَلَة^(٣)، وتجذد العهد، وتأكد الود؛ ثم عادت الوخشة المُفضية إلى تغلب العدو على مدينة^(٤) طريف، فُرَضَ المجاز الأدنى، واستمرت أيام السلطان أبي يعقوب إلى آخر مدة السلطان المترجم^(٥) به، ومدة ولده بعده.

وبوطن تِلْمَسَان، أبو يحيى يَغْمُور^(٦)، وهو يَغْمُرَاسِن بن زَيَّان بن ثابت بن محمد بن بندوسن بن طاع الله بن علي بن يمل، وهو أوحْدُ أهل^(٧) زمانه جِراء وشهامة، ودهاء، وجزالة، وحزمًا. مواقف في الحروب^(٨) شهيرة، وكانت بينه وبين بني مَرِين وقائع، كان عليه فيها الظهور، وربما نذرت الممانعة؛ وعلى ذلك فقوي الشكيمة، ظاهر المنعة. ثم وَلِيَ بعده ولده عثمان إلى تمام مدة السلطان المترجم به، وبعضًا من دولة ولده.

وبوطن إقريقية، الأمير الخليفة، أبو عبد الله بن أبي زكريا بن أبي حفص، الملقَّب بالمستنصر، المثل المضروب، في البأس^(٩) والأثقة، وعِظَم الجَبَرُوت^(١٠)، ويُعد الصَّيْت، إلى أن هلك سنة أربع^(١١) وسبعين وستمائة؛ ثم ولده الواصل بعده، ثم الأمير أبو إسحق وقد تقدَّم ذكره. ثم كانت دولة الدَّعِي^(١٢) ابن أبي عمارة المتوَّج على مُلكهم؛ ثم دولة أبي حفص مُسْتَقْبِذها من يده، وهو عمر بن أبي زكريا بن^(١٣) عبد الواحد، ثم السلطان الخليفة الفاضل، الميمون الثَّقِيبة، أبو عبد الله محمد بن الواصل يحيى بن المستنصر^(١٤) أبي عبد الله بن الأمير زكريا^(١٥).

وبوطن النُّصاري، بِقَشْتَالَة، أَلْفُنْش^(١٦) بن هِرَانْدَة، إلى أن ثار عليه ولده شَانْجُه، واقتضت الحال إجازة سلطان المغرب، واستجار به؛ وكان من لقاءه بأحواز الصُّخْرة من كورة تاكْرُنَا ما هو معلوم. ثم ملك^(١٧) بعده ولده شَانْجُه، واتَّصلت

(١) في اللوحة البدرية: «بعده السلطان المعظم البعيد الهمة...».

(٢) في اللوحة البدرية: «العزيمة».

(٣) مربة: ناحية من أعمال قبلة بالأندلس.

(٤) في اللوحة البدرية: «جزيرة».

(٥) في اللوحة البدرية: «المذكور ومدة ولده من بعد».

(٦) في اللوحة البدرية: «يعمور بن زيان...».

(٧) كلمة «أهل» ساقطة في اللوحة البدرية.

(٨) في اللوحة البدرية: «الحرب».

(٩) في اللوحة البدرية (ص ٥٦): «الجبروتية».

(١٠) في اللوحة البدرية: «أربعة» وهو خطأ نحوي.

(١١) في اللوحة البدرية: «الداعي».

(١٢) في اللوحة البدرية: «المستنصر بالله».

(١٣) في اللوحة البدرية: «أبي زكريا».

(١٤) في اللوحة البدرية: «ألفنش فراند».

(١٥) في اللوحة البدرية: «أبي زكريا».

(١٦) في اللوحة البدرية: «ألفنش فراند».

(١٧) في اللوحة البدرية: «أبي زكريا».

ولايته مدة أيام السلطان، وجرت بينهما خطوب إلى أن هلك عام أربعة^(١) وسبعين^(٢) وستمئة. ووُلِّي بعده ولده هِراندة سبعة عشر^(٣) عامًا، وصار المُلْك إليه، وهو صبي صغير، فتتَفَسَّ مُخْتَقُ أهل الأندلس، وغزا سلطانهم^(٤) وظهر إلى آخر مدته.

وبرَعُون، أَلْفُنْش بن جايْمَش بن بَطْرَه بن جايْمَش، المستولي على بلنسية. ثم هلك ووُلِّي بعده جايْمَش^(٥) ولده، وهو الذي نازل مدينة ألمرية على عهد نصرٍ ولده، واستمرت أيام حياته إلى آخر مدته. وكان لا نظير له في الدَّهَاء^(٦) والحزم والقوة.

ومن الأحداث في أيامه:

على عهده تفاقم الشر^(٧)، وأعياء داء الفتنة، ولَقَّحَتْ حربُ الرؤساء الأصهار من بني إِشْقِيلُولَة، فمن دونهم، وطَنَّب سُراوق الخلاف، وأصاب الأُسُر وفحول الثروة الرؤساء، فكان بوادي آش الرئيسان أبو محمد وأبو الحسن^(٨)، وبمَالَقَة وقمارش الرئيس أبو محمد عبد الله، وبَقُمَارش رئيس آخر هو الرئيس أبو إِسْحَق. فأما الرئيس أبو محمد فهلك، وقام بأمره بمالقة، ولده، وابن أخت السلطان المترجم به. ثم خرج عنها في سبيل الانحراف والمُنابذة إلى ملك^(٩) المغرب، ثم تصيَّر أمرها إلى السلطان، على يد واليها من بني علي^(١٠). وأما الرئيسان، فصابرا المضايقة، وعزما^(١١) على النطاق والمقاطعة بوادي آش زمانًا طويلًا؛ وكان آخر أمرهما الخروج عن وادي آش إلى ملك المغرب؛ مُعَوِّضِينَ بقصر كِتامة؛ حسيما يذكر في أسمائهم؛ إن بلغنا الله إليه.

وفي أيامه كان^(١٢) جواز السلطان المجاهد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ إلى الأندلس؛ مُغَازِيًا^(١٣) ومجاهدًا في سبيل الله؛ في أوائل عام اثنين وسبعين وستمئة، وقد فَسَد ما بين سلطان النصارى وبين ابنه^(١٤). واغتنم المسلمون الغُرَّة،

(١) في الأصل: «أربع» وهو خطأ نحوي. (٢) في اللوحة البدرية: «وتسعين».

(٣) في اللوحة البدرية: «سبع عشرة سنة». (٤) في اللوحة البدرية: «سلطانها».

(٥) في اللوحة البدرية: «ولده جايْمَش الذي نازل ألمرية...».

(٦) في اللوحة البدرية: «في الحزم والدَّهَاء...».

(٧) في اللوحة البدرية (ص ٥٦): «تفاقم على عهده الشر...».

(٨) في اللوحة البدرية: «فكان بمدينة وادي آش... وأبو حسن».

(٩) في اللوحة البدرية: «إلى ملكة ملك...» (١٠) في اللوحة البدرية: «محلّي».

(١١) في اللوحة البدرية: «ومَرْنَا على المقاطعة».

(١٢) في اللوحة البدرية: «جاز السلطان أمير المسلمين أبو يوسف...».

(١٣) في اللوحة البدرية: «غَازِيًا».

(١٤) في اللوحة البدرية: «ما بين ابن سلطان الروم وبين الملك أبيه».

واستدعي سلطان المغرب إلى الجواز؛ ولحق به السلطان المترجم به؛ وجمع مجلسه بين المُتَنَزِّين عليه وبينه؛ وأجلت الحال عن وَخْشَةٍ. وقُضِيَت الغَزَاة؛ وآب السلطان إلى مستقره.

وفي العام بعده، كان^(١) إيقاع السلطان ملك المغرب بالزعيم «ذُنُونَه»، واستئصال شأفته، وحصدُ شوكته. ثم عبر البحر ثانية بعد رجوعه إلى العُدوة؛ واحتلَّ بمدينة طريف في أوائل ربيع الأول عام سبعة وسبعين وستمئة؛ ونازل إشبيلية؛ وكان اجتماع السلطانين بظاهر قُرطبة؛ فاتصلت اليد؛ وصلحت الضمائر؛ ثم لم تلبث الحال أن استحالَت إلى فساد، فاستولى ملك المغرب على مالقة، بخروج المنتزعي بها إليه، يوم^(٢) الأربعاء التاسع والعشرين لرمضان عام سبعة وسبعين^(٣) وستمئة. ثم رجعت إلى مَلِك^(٤) الأندلس بمُدَاخلة مَنْ كانت بيده ولنظره، حسبما يأتي بعد إن شاء الله.

وعلى عهده نازل طاغية الروم الجزيرة^(٥) الخضراء، وأخذ بِمُخَنَّقِهَا، وأشرف على افتتاحها، فدافع^(٦) الله عنها، ونقُس حصارها^(٧)، وأجاز الرُّوم بحرهما على يد الفئة القليلة من المسلمين، فعظم المَنَحُ^(٨)، وأسفر الليل، وانجَلَّت الشَّدة، في وسط ربيع^(٩) الأول من عام ثمانية وسبعين وستمئة^(١٠).

مولده: بغرناطة عام ثلاثة وثلاثين وستمئة. وأيام دولته ثلاثون سنة وشهر واحد، وستة أيام.

وفاته: من كتاب «طُرْفَة العصر» من تأليفنا في التاريخ، قال: واستمرت الحال إلى أحد وسبعمئة، فكانت في ليلة الأحد الثامن من شهر شعبان في صلاة العصر، وكان السلطان، رحمه الله في مصلاه، متوجَّهًا إلى القِبْلَة لأداء فريضته، على أتم ما يكون عليه المُسلم من الحَشْيَةِ والتَّأَهُبِ، زعموا أن شَرَفًا كان يعتاده لمادة كانت تنزل من دماغه، وقد رَجَمَت الظنون في غير ذلك لتناوله عشيَّة يومه كعكًا اتخذت له بدار

(١) في اللوحة البدرية: «كانت الوقعة بالزعيم الكبير من زعماء الروم المسمى ذنونه...».

(٢) في الأصل: «إلى يوم» والتصويب من اللوحة البدرية (ص ٥٨).

(٣) في اللوحة البدرية: «وتسمين».

(٤) في اللوحة البدرية: «ملكة السلطان بمداخلة مَنْ كانت لنظره إياه».

(٥) كلمة «الجزيرة» ساقطة في اللوحة البدرية. (٦) في اللوحة البدرية: «فدفع».

(٧) في اللوحة البدرية: «حصرها وأحان أجفان الروم لبحرها وعلى أيدي الفئة...».

(٨) في اللوحة البدرية: «الفتح». (٩) في اللوحة البدرية: «شهر ربيع...».

(١٠) في الأصل: «ثمانية وسبعة وسبعين وستمئة»، والتصويب من اللوحة البدرية.

ولي عهد، والله أعلم بحقيقة ذلك. ودفن منفردًا، عن مدفن سلفه، شرقي المسجد الأعظم، في الجنان المتصل بداره^(١). ثم تُني بحافده السلطان أبي الوليد، وعُزَز^(٢) بثالث كريم من سلالة، وهو السلطان أبو الحجاج بن أبي الوليد، تغمّد الله جميعهم برحمته^(٣)، وشملهم بواسع مغفرته وفضله.

(٢) في اللوحة البدرية: «ثم عُزَز».

(١) في اللوحة البدرية: «بدارهم».

(٣) في اللوحة البدرية: «بمغفوه».

فهرس المحتويات

١	إهداء
3	مقدمة المحقق
14	أولاً - مؤلفاته التاريخية
15	ثانياً - مؤلفاته في الجغرافيا والرحلات
16	ثالثاً - مؤلفاته في التراجم
17	رابعاً - المؤلفات الأدبية (شعرًا ونثرًا)
20	خامسًا - مؤلفاته في الشريعة والتصوف والمحث على جهاد النفس
22	سادسًا - مؤلفاته في السياسة
24	سابعًا - مؤلفاته في الطب والأغذية
27	ثبت بأسماء مصادر ومراجع الدراسة والتحقيق
٣	مقدمة المؤلف

القسم الأول

في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمسكنين

١٣	فصل في اسم هذه المدينة ووضعها على إجمال واختصار
	فصل في فتح هذه المدينة ونزول العرب الشاميين من جند دمشق بها وما
١٨	كانت عليه أحوالهم، وما تعلق بذلك من تاريخ
	ذكر ما آل إليه حال من ساكن المسلمين بهذه الكورة من النصارى
٢١	المعاهدين، على الإيجاز والاختصار

ذكر ما يُنسب إلى هذه الكورة من الأقاليم التي نزلتها العرب بخارج	
غُرْنَاطَة، وما يتصل بها من العمالة	٢٥
فصل فيما اشتمل عليه خارج المدينة من القرى والجَنَّات والجهات	٢٥
فصل	٢٨
فصل	٣١
فصل	٣٦
فصل فيمن تداول هذه المدينة من لدُن أَصْبَحَتْ دار إمارة باختصار	
واقْتِصار	٤٠

القِسْم الثاني

في حِلَى الزَّائِرِ وَالْقَاطِنِ وَالْمَتَحَرِّكِ وَالسَّائِكِ

أحمد بن خَلَف بن عبد الملك الغساني القَلْبَيعي	٤٥
أحمد بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي	٤٧
أحمد بن محمد بن أَضْحَى بن عبد اللطيف بن غريب ابن يزيد بن الشَّيْمِر بن	
عبد شمس بن غريب الهمداني الإلبيري	٤٧
أحمد بن محمد بن أحمد بن هشام القرشي	٤٩
أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن	
عبد الرحمن بن يوسف بن سعيد بن جُزَي الكلبي	٥٢
أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن سَعْدَة بن	
سعيد بن مَسْعُودَة بن ربيعة بن صخر بن شراحيل بن عامر بن الفضل بن	
بكر بن بَكَّار بن البدر بن سعيد بن عبد الله العامري	٥٦
أحمد بن محمد بن أحمد بن قُغْنَب الأزدي	٥٨
أحمد بن محمد بن سعيد بن زيد الغافقي	٥٩
أحمد بن أبي سهل بن سعيد بن أبي سهل الخزرجي	٥٩
أحمد بن عمر بن يوسف بن إدريس بن عبد الله بن ورد التميمي	٦٠
أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن علي الأموي	٦٠
أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عميرة المخزومي	٦٢
أحمد بن عبد الحق بن محمد بن يحيى بن عبد الحق الجدلي	٦٦

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر	
الأنصاري الخزرجي	٦٨
أحمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن	٧١
أحمد بن إبراهيم بن الزبير بن محمد بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن	
الزبير بن عاصم بن مسلم بن كعب الثقفي	٧٢
أحمد بن عبد الولي بن أحمد الرعيني	٧٥
أحمد بن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري	٧٦
أحمد بن عبد التور بن أحمد بن راشد رحمه الله	٧٧
أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن محمد بن مصادف بن	
عبد الله	٨٠
أحمد بن حسن بن باصة الأسلمي المؤقت بالمسجد الأعظم بغرناطة	٨١
أحمد بن محمد بن يوسف الأنصاري	٨٢
أحمد بن محمد الكرتني	٨٣
أحمد بن محمد بن أبي الخليل، مُفَرِّج الأموي	٨٣
أحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن خلف بن سعيد بن	
محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان بن محمد بن عبد الله بن	
سعيد بن عمار بن ياسر صاحب رسول الله ﷺ	٨٨
غريبة في أمره مع حفصة	٩٢
أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمد بن أحمد القرشي، المعروف بابن	
فركون	٩٢
أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان	٩٣
أحمد بن أيوب اللمائي	١٠١
أحمد بن محمد بن طلحة	١٠٤
أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة الأنصاري	١٠٨
أحمد بن عباس بن أبي زكريا	١٢٥
أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي	١٢٧
أحمد بن محمد بن شعيب الكزياني	١٣٤

- أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن
 حسين بن علي بن سليمان بن عرفة اللخمي ١٣٨
 أحمد بن علي الملياني ١٤٣
 أحمد بن محمد بن عيسى الأموي ١٤٤
 أحمد بن الحسن بن علي بن الزيات الكلاعي ١٤٥
 إبراهيم بن محمد بن مُفَرَّج بن هُمُشْك ١٥١
 انخلاءه للموحدين عمًا بيده وجوازه للعدوة، ووفاته بها ١٥٥
 إبراهيم بن أمير المسلمين أبي الحسن بن أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن
 أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ١٥٥
 إبراهيم بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاني،
 أبو إسحق ١٥٩
 إدبار أمره بهلاكه على يد الدَّعِي الذي قُبِضَ الله لهلاكه حينه ١٦٣
 إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم بن أحمد بن محمد بن سهل بن مالك بن
 أحمد بن إبراهيم بن مالك الأزدي ١٦٥
 إبراهيم بن فرج بن عبد البر الخولاني ١٦٦
 إبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهاق الأوسي ١٦٨
 إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله بن موسى الأنصاري ١٦٨
 إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الأنصاري الساحلي ١٧٠
 إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن
 عبد العزيز بن إسحق بن أسد بن قاسم النميري ١٧٨
 إبراهيم بن خلف بن محمد بن الحبيب بن عبد الله بن عمر بن فَرْقَد
 القرشي العامري ١٩١
 إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبيدس بن محمود النفزي ١٩٣
 إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبي بكر التَّسُولِي ١٩٦
 إبراهيم بن محمد بن علي بن محمد بن أبي العاصي التَّنُوخي ١٩٧
 إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن
 خميس بن نصر بن قيس الأنصاري الخَزَرْجي ٢٠٠
 إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل بن فرج بن نصر ٢١٤

٢١٨ الملوك على عهده
٢١٨ أبو بكر بن إبراهيم، الأمير أبو يحيى المسوفي الصحراوي
	إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، أمير المؤمنين،
٢٢٢ الملقب بالمأمون، مأمون الموحدين
٢٢٣ تصير الأمر إليه، وجوازه إلى العدو
	أسباط بن جعفر بن سليمان بن أيوب بن سعد السعدي سعد بن بكر بن
٢٢٨ عفان الإليري
	أسلم بن عبد العزيز بن هشام بن خالد بن عبد الله بن خالد بن حسين بن
٢٢٩ جعفر بن أسلم بن أبان
٢٣١ أسد بن الفرات بن بشر بن أسد المرّي
٢٣١ أبو بكر المخزومي الأعمى الموروري المدوري
٢٣٥ أضيغ بن محمد بن الشيخ المهدي
٢٣٦ أبو علي بن هدية
٢٣٧ أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي
٢٣٨ بُلْكَيْن بن باديس بن حبّوس بن ماكسّن بن زيري بن مناد الصنهاجي
٢٤٠ باديس بن حبّوس بن ماكسّن بن زيري بن مناد الصنهاجي
٢٤٣ ذكر مقتل اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغالة الإسرائيلي
٢٤٤ مكان باديس من الذكاء وتولّعه بالقضايا الآتية
٢٤٦ بَكْرُون بن أبي بكر بن الأشقر الحَضْرَمي
٢٤٦ بدر مولى عبد الرّحمن بن معاوية الداخل
٢٤٧ تاشفين بن علي بن يوسف أمير المسلمين بعد أبيه بالعدوة
٢٥٣ ثابت بن محمد الجرجاني ثم الإستراباذي
٢٥٥ جعفر بن أحمد بن علي الخزاعي
٢٥٧ جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونة الخزاعي
٢٥٩ الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن أبي الأحوص القرشي الفهري
٢٦٠ الحسن بن محمد بن الحسن النباهي الجُدّامي
٢٦١ حسن بن محمد بن حسن القيّسي
٢٦١ حسن بن محمد بن باصة

- ٢٦٢ الحسن بن محمد بن علي الأنصاري
- ٢٦٤ الحسين بن عتيق بن الحسين بن رشيق التغلبي
- ٢٦٧ حبّوس بن ماكّن بن زيري بن مناد الصّنهاجي
- الحكم بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم بن
- ٢٦٨ هشام بن عبد الرحمن بن معاوية
- الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن
- ٢٦٩ مروان بن أمية
- ٢٧١ حكم بن أحمد بن رجا الأنصاري
- حاتم بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن
- ٢٧٢ الحسين بن عثمان بن سعيد بن عبد الملك بن سعيد بن عمّار بن ياسر
- ٢٧٣ حُباسة بن ماكّن بن زيري بن مناد الصّنهاجي
- ٢٧٤ حبيب بن محمد بن حبيب
- ٢٧٥ حمدة بنت زياد المَكْتَب
- ٢٧٧ حَفْصة بنت الحاج الرُّكُوني
- ٢٨١ الخِضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية
- ٢٨٦ خالد بن عيسى بن إبراهيم بن أبي خالد البلوي
- داود بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمر بن حَوْط الله
- ٢٨٧ الأنصاري الحارثي الأَنْدِي
- ٢٨٩ رضوان التّضري الحاجبُ الْمُعْظَم
- ٢٩١ ترتيب خدمته وما تخلّل عن ذلك من محته
- ٢٩٣ زاوي بن زيري بن مناد الصّنهاجي
- ٢٩٦ مُنصرفه عن الأندلس
- ٢٩٦ زهير العامريّ، فتى المنصور بن أبي عامر
- طلحة بن عبد العزيز بن سعيد البطليوسي وأخواه أبو بكر وأبو الحسن بنو
- ٢٩٨ القبطرنة
- ٣٠١ محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن نصر
- محمد بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن
- ٣٠٦ خميس بن نصر الخَزَرْجي

- ٣١١ مَن كان على عهدِه من الملوك بأقطار المسلمين والنصارى
 محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن
- ٣١٦ نصر بن قيس الخزرجي
- ٣١٨ ما نقل عنه من الفظاظَة والقسوة
- ٣٢٠ مَن كان على عهدِه من الملوك بالأقطار
 محمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن
- ٣٢٦ نصر الأنصاري الخزرجي
- ٣٣٠ مَن كان على عهدِه من الملوك
- ٣٣٢ ومن الأحداث في أيامه